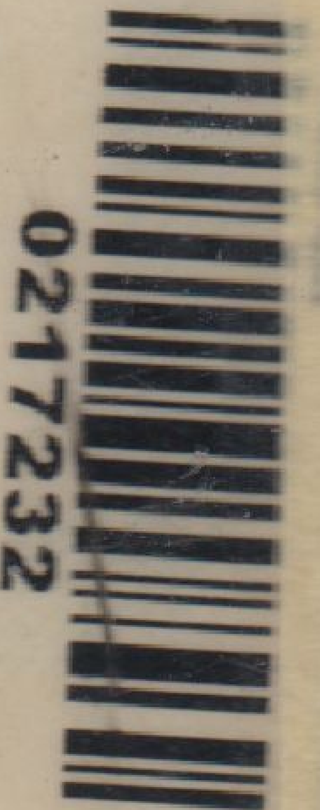
المكتبة العربية

عبد الرحمن الجبرتي

دراسات وبحوث

بإشراف

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم





الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبد الرحمن الجبرتي

بحوث ألقيت فى ندوة أقامتها
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
بالاشتراك مع
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
١٦ - ٢٣ ابريل ١٩٧٤

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

١٩٧٦

عبد الرحمن الجبرتي

دراسات وبحوث

بإشراف

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

المحتويات

تقديم الكتاب — للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ٤

القسم الأول
الجبرتي مؤرخا

- عبد الرحمن الجبرتي — للأستاذ محمد شفيق غربال ٧
- عبد الرحمن الجبرتي وعصره — آرنولد توينبي ١١
- الجبرتي .. مؤرخ مصري على مفرق الطرق — للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ١٧
- الجبرتي مؤرخا — للدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى ٢٩
- عبد الرحمن الجبرتي .. سيرة وتقييم — للدكتور جمال زكريا قاسم ٤٥
- عبد الرحمن الجبرتي في نظر التاريخ — للدكتور عواد مجيد الأعظمي ٦٣
- الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتي — للدكتور ابراهيم أحمد العدوي ٧١
- مكان عبد الرحمن الجبرتي بين المؤرخين المسلمين — للدكتور عبد المنعم ماجد ٨٩
- الجبرتي ومكانته في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني — للدكتور محمد أنيس ٩٥
- الجبرتي .. والشخصية المصرية — للدكتور يونان لبيب رزق ١٢١
- منهج عبد الرحمن الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية — للأستاذ صلاح عيسى ١٣٩

القسم الثاني
مؤلفات الجبرتي

- مؤلفات الجبرتي مخطوطة ومطبوعة — للأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ١٧٣
- عبد الرحمن الجبرتي وأحمد شلبي ابن عبد الغني — للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ١٨٣
- عجائب الآثار ومظهر التقديس — للدكتور محمد محمود السروجي ٢٠٩

- مخطوطة من تآليف الجبرتى فى ليدن ـ دراسة مقارنة بينها وبين « عجائب الآثار » ، « مظهر التقديس » — للدكتور مصطفى محمد رمضان ٢٣١
- لغة الجبرتى — للأستاذ رفعت الفرنوانى ٢٥٥

القسم الثالث
موقف الجبرتى من قضايا عصره

- الجبرتى ومعاصروه من أمراء المماليك — للدكتور محمود حلمى مصطفى ٢٩١
- الجبرتى والفرنسيس — للدكتور صلاح العقاد ٣٠٩
- موقف الجبرتى من ثورات القاهرة — للدكتور جاد طه ٣٢٥
- المجتمع القاهرى على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتى — للدكتورة حكمت أبو زيد ٣٤١

القسم الرابع
دراسات فى عصر الجبرتى

- الجبرتى ومحمد على — للأستاذ أحمد خاكى ٣٧٣
- عبد الرحمن الجبرتى وعلماء زمانه — للدكتور عبد العزيز سليمان نوار ٣٩٧
- تصوير الجبرتى للمجتمع الريفى — للدكتور رءوف عباس حامد ٤١٣
- مصر مركزا للدراسات الاسلامية فى عصر عبد الرحمن الجبرتى — للدكتور أحمد شلبى ٤٣١
- خطط القاهرة فى أيام الجبرتى — للدكتور عبد الرحمن زكى ٤٦٥
- أهم الآثار الاسلامية التى جاء ذكرها فى كتاب الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » — للدكتورة سعاد ماهر ٥١٥
- النقود المتداولة أيام الجبرتى — للدكتور عبد الرحمن فهمى ٥٥١
- جبره وجبرت — للدكتور محمد محمود الصياد ٥٨٣
- كشاف بالوثائق الفرنسية فى مكتبة جامعة القاهرة — للدكتور أحمد عبد الرازق أحمد ٥٩٥
- مؤرخ جزائرى معاصر للجبرتى — للدكتور أبو القاسم سعد الله ٦٢١

بحوث بلغات اجنبية

— Abdul Rahman Al Djabarti and his times — By : Arnold Toynbee 1

— Al Jabarti as a Thinker
A Comparative Philosophy and Methology of History — By : Miki Wataru 7

— Al Jabarti and the Economic History of Late Eighteenth Century — Egypt
(Some Introductory Remarks) — By : Roger Owen 19

— The First French Proclamation and Al Jabarti — By : Marsden Jones 29

— The Tunisian Al-Jabarti — By : Carl Brown 45

— La Fortune des Gabarti et leurs Liens avec la Caste Dominante et les Milieux Commerçants — By : André Raymond 73

تقديم الكتاب
للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

يضم هذا المجلد الضخم الذى أتشرف اليوم بتقديمه لجمهور القارئين ، البحوث التى قدمت للندوة العلمية التى عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (لجنة التاريخ والآثار . فى الفترة من ١٦ الى ٢٣ أبريل ١٩٧٤ ، عن المؤرخ المصرى الكبير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى وعصره (١٧٥٤ - ١٨٢٥م) ، بمناسبة انقضاء مائة وخمسين عاما على وفاته ٠

وقد كانت هذه الندوة هى سادس الندوات التى أقامتها هاتان الهيئتان العلميتان كل عام عن أعلام المؤرخين المصريين ، بدأت على التوالى بالمقريزى ثم القلقشندى ثم ابن تغرى بردى ثم عبد الرحمن بن عبد الحكم ثم ابن اياس فالجبرتى ٠ وآخر هذه الندوات العلمية تلك التى عقدت فى مارس عام ١٩٧٦ عن المؤرخ والمحدث واللغوى السيوطى ٠ ويظهر من هذه القائمة أن الجمعية والمجلس قد وجها الجانب الاكبر من اهتمامهما الى أعلام المؤرخين المصريين فى القرن الخامس عشر ، وهذا أمر طبيعى ، فقد وصلت المدرسة التاريخية المصرية الى قمة ازدهارها فى ذلك القرن ، وكان المقريزى أولهم كما كان امامهم وشيخهم كما كان ابن اياس آخرهم ، وقد عاش سنوات من القرن السادس عشر وشهد الفتح العثمانى لمصر ، ثم مضت بعد ذلك قرون ثلاثة ضعفت فيها حركة التأليف التاريخى كما ضعفت الحركة العلمية بصفة عامة ٠ أقول - ضعفت ولا أقول - انتهت - ، فقد ظلت حركة التأليف التاريخى قائمة طوال العصر العثمانى ، ولازالت مصر تشهد من وقت لآخر ثمرة من ثمرات التأليف التاريخى عرفنا بعضها ولازلنا نجهل أكثرها ، فكتابات ابن زنبل الرمال فى القرن السادس عشر ، عن الفتح العثمانى ومحمد بن أبى السرور البكرى ، فى القرن السابع عشر وأحمد جلبى بن عبد الغنى (*) وأحمد الدمرداش كتخدا عزبان ، صاحب

(*) أنظر البحث المنشور فى هذا الكتاب للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم وعنوانه « عبد الرحمن الجبرتى وأحمد جلبى بن عبد الغنى دراسة مقارنة ص ص ١٨٣ - ٢٠٧ » وهو معنى الآن بتحقيق كتاب أحمد جلبى بن عبد الغنى تمهيدا لنشره ٠

الدرة المصانة فى أخبار الكنانة وابراهيم مصطفى ، صاحب كتاب تاريخ وقائع مصر القاهرة فى القرن الثامن عشر . كلها لاتزال مخطوطة فى انتظار التحقيق والنشر .

والجبرتى نفسه حين ذكر المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة تاريخ العصر الذى لم يشهده ، أشار الى ذلك بقوله :

« ولما عزمت على جمع ما كنت سودته أردت أن أوصله بشيء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلة التهذيب والترتيب وقد اعتراها النقص من مواضع فى خلال بعض الوقائع ، وكنت ظفرت بتاريخ من تلك الفروع لكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى بن عبد الغنى مبتدأ فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار المصرية وينتهى كغيره ممن ذكرناه الى خمسين ومائة وألف هجرية » * .

وقد أبدى بعض من كتبوا عن الجبرتى وتاريخه دهشتهم لظهور الجبرتى فجاة كمؤرخ عملاق فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، سواء مهد له سابقون أو كان منقطع الصلة بمن سبقه بعد ذلك العصر الطويل من اعمال الكتابة التاريخية ، ولكن الواقع أن الأمر لا يدعو الى شيء من الدهشة أو العجب ، فالأمر الذى يدعو الى العجب حقا ألا يظهر الجبرتى ويكتب ما كتب على هذا المستوى العالى من الدقة والتحرى والافاضة فى تلك الفترة أو ذلك المنعطف الذى كانت تجتازه مصر فى ذلك الوقت ، فقد توالت الأحداث يقفو أحدها الآخر فى سرعة متلاحقة منذ اشتدت الخصومات بين البيوت المملوكية الكبيرة ومحاولة الدولة العثمانية استعادة سيطرتها على مصر حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر (١٧٩٨م) ، ثم خروجها بعد وصول حملة انجليزية أخرى ، وما تلا ذلك من أحداث حتى تولى محمد على حكم مصر (١٨٠٥م) والسنوات الأولى من حكمه بما امتلأت به من حوادث جسام كنزول الحملة الانجليزية على مصر (١٨٠٧م) ، ومذبحة المماليك وبدء الحروب الوهابية (١٨١١م) ، والغاء نظام الالتزام وبدء تطبيق سياسة الاحتكار وغيرها ، فقد اشتد (نبض) الحياة المصرية أو ايقاعها فى تلك الفترة الحافلة بالأحداث ، بحيث كان لا يمكن أن تمر دون أن يظهر من يتصدى لتتبعها وتسجيلها وربطها بعضها ببعض ، حتى يستوى منها كتاب فى التاريخ متكامل الحلقات على نحو ما ظهر عليه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) .

---

* عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . من المقدمة ص ٦ الطبعة الأهلية .

ونعود الى ندوة الجبرتي ، فنرى أنها امتازت على الندوات السابقة عن أعلام المؤرخين المصريين الآخرين بشيئين : ـ

الأول : اقبال عدد كبير من الباحثين على الاشتراك فيها ، فقد ظهر أن للجبرتى أحباء كثيرين ، أقبلوا فى حماسة منقطعة النظير على البحث والتنقيب فى حياة الجبرتى وتاريخه وعصره ، وقدموا ثمرة عملهم فى تلك البحوث التى تقدموا بها للندوة ، حتى ضاق الوقت المخصص للندوة عن قراءة كل هذه البحوث كاملة أو ملخصة فاستغنى بعض الباحثين عن قراءة أعمالهم مكتفين بنشرها ، ومن هنا جاء هذا المجلد الضخم الذى يضم البحوث التى قدمت فى الندوة ٠

الثانى : أننا حرصنا على دعوة بعض الجامعات والهيئات العربية لتوفد من يمثلها فى الندوة ٠ ويسرنى أن أنوه هنا بمن حضر الندوة من الأقطار العربية الشقيقة ، فقد وفد من سوريا الأستاذ محمد الدروبى ، رئيس الجمعية التاريخية السورية بحمص ، ومن بغداد جاء الأستاذ الدكتور حسين أمين ، رئيس الجمعية العراقية للتاريخ والآثار (اذ ذاك) وأستاذ التاريخ بجامعة بغداد ، والأستاذ الدكتور عواد مجيد الأعظمى ، أستاذ التاريخ بجامعة بغداد أيضا . وقد تقدم ببحث منشور فى هذا الكتاب ٠

وأوفدت جامعة الكويت زميلين كريمين هما الأستاذان أحمد عبد الرحيم مصطفى والدكتور ابراهيم احمد العدوى ، ولكل منهما بحث عن الجبرتى ، ومن جامعة الخرطوم جاء الدكتور حسن ابراهيم ، المحاضر فى التاريخ الحديث ، وأوفدت جامعة بنغازى رئيس قسم التاريخ بها الأستاذ الدكتور عمر ابن اسماعيل ، وأرسل الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، الأستاذ بجامعة الجزائر ، بحثا بعنوان « مؤرخ جزائرى معاصر للجبرتى » وكذلك أرسل الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط بحثا موضوعه « النقود المتداولة أيام الجبرتى » ، هذا الى لفيف من الأساتذة الأجانب المهتمين بالجبرتى وعصره او العصر العثمانى بصفة عامة ٠

وجهت الدعوة الى المؤرخ البريطانى الكبير أرنولد توينبى لحضور الندوة ، وأنا أعلم اهتمامه بالجبرتى وتاريخه ولكنه أرسل يعتذر لمرضه ، وأرسل فى الوقت نفسه كلمة عن المؤرخ المصرى وتآليفه ، وقد قرئت هذه الكلمة فى حفل افتتاح الندوة ويسرنا أن ننشر نصها باللغة الانجليزية فى هذا الكتاب كما ننشر ترجمتها الى اللغة العربية ٠

ولبى الدعوة عدد من الأساتذة الأجانب ، جاء من فرنسا الأستاذ أندريه ريمو ، رئيس المعهد الفرنسى بدمشق (اذ ذاك) ، ومن انجلترا الأستاذ روجر

أوين أستاذ التاريخ الاقتصادي بجامعة اكسفورد . ومن اليابان جاء الأستاذ وانرو ميكى الأستاذ بجامعة طوكيو ، كما حضر الندوة أيضا الأستاذ كارل براون الأستاذ بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، وأوفدت الجامعة الأمريكية بالقاهرة الدكتور مارسدن جونز أستاذ التاريخ بها • وقدم كل منهم بحثا ننشره فى هذا الكتاب شاكرين لكل منهم تلبيته دعوتنا واسهامه معنا فى هذا العمل العلمى الكبير •

ولم أجد تصديرا للكتاب خيرا من كلمة كتبها عن الجبرتى منذ سنوات أستاذنا المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال من تقديمه لاحدى طبعات « عجائب الآثار للجبرتى » ، وقد كان أستاذنا ـ رحمه الله ـ من أوائل العلماء الذين وجهوا المصريين وخاصة شباب الباحثين الى الاهتمام بالجبرتى ومؤلفاته •

أما الكتاب فنحن نضعه بين يدى القارىء ، ونرجو أن ينفع الله به ، وقد جعلناه خمسة أقسام •

القسم الأول : يضم البحوث التى كتبت عن الجبرتى مؤرخا ، وقد بلغت أحد عشر بحثا •

القسم الثانى : يضم البحوث التى كتبت عن مؤلفات الجبرتى ، وقد بلغت خمسة بحوث •

القسم الثالث : يضم البحوث التي عالجت موقف الجبرتى من قضايا عصره وقد بلغت أربعة بحوث •

القسم الرابع : يضم دراسات مختلفة عن عصر الجبرتى وقد بلغت عشرة أبحاث •

القسم الخامس والأخير : يضم بحثا واحدا باللغة الفرنسية وأربعة بحوث باللغة الانجليزية •

وبعد ، فان هذه الندوة ما كان من المستطاع عقدها وتنظيمها على النحو الذى تمت عليه لولا هذا الاقبال الشديد من عدد كبير من أساتذة التاريخ فى الجامعات العربية والمصرية والأجنبية ، وتلك المعونة الصادقة التى لقيتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية من كثير من الهيئات العلمية ، كوزارة الثقافة ووزارة التعليم العالى والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وجامعة عين شمس وجامعة القاهرة وجامعة الأزهر والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، فلها منا جميعا الشكر التقدير •

أما صديقنا الفاضل الأستاذ الدكتور جمال مختار ، رئيس الهيئة العامة للآثار ، فقد قدم لهذه الندوة يدا لا تنسى فاليه يرجع الفضل فى تمكين الجمعية من استضافة اخواننا الأساتذة العرب والأجانب الذين اشتركوا فى هذه الندوة ·

كذلك يطيب لنا أن نقدم خالص الشكر للهيئة المصرية العامة للكتاب لتفضلها بطبع هذا الكتاب أسوة بما سبقه من الكتب عن أعلام المؤرخين المصريين · كما يسرنى أن أقدم خالص شكرى وتقديرى للأستاذ على شلبى ، مدرس التاريخ الحديث المساعد بكلية التربية جامعة المنصورة ، لما بذله من جهد كبير فى تتبع طبع الكتاب ومراجعة أصوله ·

وأخيرا ــ وليس آخرا ــ ان الخدمة الحقة لتاريخ الجبرتى وعصره لا يمكن أن تقف عند حد اقامة هذه الندوة ، وجمع البحوث التى قدمت ونشرها فى هذا الكتاب · وقد أدرك الباحثون المشتركون فى الندوة هذا الأمر ، فجعلوا فى مقدمة توصياتهم التى قدموها فى ختام الندوة ، توصية بضرورة العمل على اعادة نشر مؤلفات الجبرتى بعد تحقيقها واخراجها على نحو علمى يليق بأهمية التاريخ المصرى بعامة ، وبهذا المؤرخ المصرى الكبير على وجه الخصوص · وقد استجابت لهذه الدعوة جامعة عين شمس والهيئة المصرية العامة للكتاب ، فكتبت كل منهما للجمعية المصرية للدراسات التاريخية تعرض استعدادها للقيام مع الجمعية بهذا العمل العلمى الكبير ، وبدأت هيئة الكتاب تتخذ الخطوات الأولى للعمل ·

وقد اقترحنا على الهيئة أن تعهد بهذا العمل الى لجنة من المتخصصين فى التاريخ والدراسات التركية والآثار والخطط واللغة ، وأن يجمع لها صور لمخطوطات الجبرتى المودعة فى المكتبات المختلفة لتقوم على دراستها وتحقيقها واستخلاص طبعة منها موثقة ومحققة ، والا فما جدوى أن تظهر من تاريخ الجبرتى طبعة لا تختلف عما بأيدى الناس من طبعات متداولة ، وقد طال انتظار الناس لطبعة جديدة كاملة من مؤلفات الجبرتى محققة تحقيقا علميا جديرا بتراثنا المجيد وتاريخ وطننا العزيز وعلى الله قصد السبيل ·

احمد عزت عبد الكريم

منشية البكرى

١٩٧٦/١١/٢٧

القسم الأول

الجبرتي مؤرخاً

عبد الرحمن الجبرتي

للمؤرخ الراحل
الأستاذ محمد شفيق غربال

عبد الرحمن الجبرتي *

..... كان العصر الذي عاش فيه الجبرتي عصر انتقـــال من حال الى حال ، هو عصر الثورة المصرية ، الثورة الكبرى التي انتقلت بها مصر من طور من أطوار تاريخها الطويل المفعم بعبر الدهر الى الطـــور الذي امتد الى الزمن الذي نعيش فيه .

وقد صور الجبرتي هذا الانتقال فأبدع في التصوير وحكم على الوقائع وعلى الرجال ما شاء له تقديره ، فدلتنا أحكامه على الوقائع وعلى الرجال ، وعلى نظرة من نظرات من عاصروا تلك الوقائع وعرفوا أولئك الرجال ، وان خير ما نضع في يد مواطن اليوم كتاب يصور مصر عند مفترق الطرق ، يصـــور ما تحمله أهلها من مشقات الانتقال من عالم حكم عليه بالزوال الى عالم جديد كان لابد من الدخول فيه ، وكان لابد من ذلك دون أن يتبين الناس جميعا وجه الضرورة أو وجه الأفضلية ، وقد قدم لنا الجبرتي المرآة التي نرى على صفحتها رسم العصر .

وعجائب الآثار في ذاته أثر فني رائع وروعته ليست في اكتمال الصنعة أو تمام الصقل ، بل هي في انتقال الكتاب لقرائه على النحو الذي نما به في يد المؤلف ، فهي تقييدات بنت ساعتها ، وهو وثائق وروايات مسجلة بنصوصها وعربيتها وأعجميتها ، وهو قطع منمقة ، وهو خواطر تسنح ، والعجيب أن ذلك كله لا يتنافر ، بل تنسجم عناصره المتباينة في تركيب متوازن ، وينتقل القارىء من متن الى متن — ان صح القول — دون أن يضطرب انتباهه أو ينفر

(*) من المقدمة التي كتبها الأستاذ محمد شفيق غربال لكتاب « عجائب الاثار في التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتي » نشر لجنة البيـــان العربي ، في سبعة اجزاء . القـــاهرة ١٩٥٨ — ١٩٦٧ م .

من الكتاب ، وقد يرجع هذا الى أن الجبرتى أضفى على المادة من شـــــخصيته ما أكسبها ذلك الانسجام العجيب ، أو لأن الجبرتى « رجل فن » عرف كيف يخفى الصنعة بتجنب مظاهر الصنعة ٠

وشخصية الجبرتى تعددت جوانبها وتباينت عناصرها ، كان رجل دين ودنيا أخذ من كل شيء بطرف ، له فى كل دراسة مقام محمود ، لايبلغ فى واحدة منها الذروة ، ولكنه لا يحصر فنه فى دائرة واحـــدة من دوائرها ، بل واسع الأفق طلقه ، ويجتذبه بصفة خاصة ما يصح ان تسميه الشئون العامة ٠ لذا صح لدى أن أقول ان تاريخه من خير ما نضع فى يد مواطن اليوم ٠

عبد الرحمن الجبرتي وعصره

للمؤرخ البريطاني الكبير

آرنولد توينبي

عبد الرحمن الجبرتى وعصره *

ان التجربة التى خاضها الجبرتى فى جيله بمصر ، تشابه ـ الى حد بعيد ـ تجربة أوربى مثلى ، كان عام ١٩١٤ فى مستهل شبابه . ولقد بلغ الجبرتى مرحلة الشباب فى الطور الأخير من عهد الاستقرار ، وعاش ليعاين التدمير الدرامى الذى فجأ نظاما مستقرا . كان ذلك وقتما استولى نابليون عام ١٧٩٨ على مصر بغتة ، بغزوها واحتلالها . واذا كان الاحتلال الفرنسى لمصر حدثا عابرا ، فلقد أمتد بالجبرتى العمر ليشاهد محمد على يتعهد ويتولى تنفيذ ثورة اقتصادية واجتماعية رسم الفرنسيون خطوطها .

ومحمد على ـ كنابليون ـ مثله مثل تلك القلة من الرجال الذين حولوا مجرى التاريخ . ويشغل محمد على فى تاريخ « دار الاسلام » نفس مكانة « بطرس الأكبر » فى تاريخ روسيا ، كما أنه يشبه الساسة الذين أحدثوا ثورة « ميجى » فى اليابان . وحقا ، كان محمد على أحد أولئك المصلحين العصريين الأصلاء الذين غيروا وجه العالم .

واذا كان الجبرتى قد مات قبل الأوان ، لكنه شهد المرحلة الأولى من مراحل الثورة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر ، تلك الثورة التى كانت قد بدأت فى بريطانيا قبل نهاية القرن الثامن عشر (١) .

ولم يقتصر الحال بالجبرتى على أن يعيش فى خضم هذه التقلبات غير العادية ، فقد منح ادراك مغزاها . وأوتى أيضا المقدرة العلمية على تسجيلها

(*) ترجمة : لرسالة التى بعث بها الاستاذ أرنولد توينبى لتلقى فى حفلة افتتاح الندوة ، وقد نشرنا الأصل الانجليزى فى القسم الخاص بالبحوث التى قدمت باللغات الاجنبية .

(١) آثرت استخدام التاريخ الميلادى على استخدام التاريخ الهجرى لأن الأول أصبح أكثر شيوعا عند جميع المؤرخين .

باحساس صادق يتيح لقارىء رواية للأحداث بتفاعل مع تجربته عاطفيا ، مثلما يتجاوب معه فكريا ٠

وان فترة الاستقرار التى تقدمت أثناءها السن بالجبرتى ، تعتبر الحقبة الأخير للنظام العثمـــــانى الامبريالى فى مصر ٠ فاذا كان لمركز الحاكم الذى يمثل الباديشاه فى القاهرة أهميته ، لكن تبلورت السلطة العليا فى المماليك حكام مصر الأرقاء ٠ وكانت عناصرهم تجدد باستمرار بفضل استجلابهم ٠ وما كان فى وسع الحاكم العثمانى الا الاذعان لكلمة الممـــاليك الآمرة « انزل » فيترك المكان الذى يلوذ به بقلعة القاهرة ٠ ولا مناص له ــ فى الواقع ــ من التنحى عن السلطة ، كما لابد وأن يستجيب الباب العالى فى استامبول ، فيقيم حاكما مكان الباشا الذى غضبوا عليه وهو لا يقل عنه تخاذلا ٠

وما كان البنيان المملوكى نفسه ليحظى بحالة من الاســـــتقرار تفوق ما يتمتع به الحاكم العثمانى الذى يقبع تحت رحمة المماليك ٠ فاذا كان المماليك يقفون صفا واحدا ضد العثمانيين وفى مواجهة غيرهم من الدخلاء ، ولكن سادت الفرقة بينهم وشاع النفور فى علاقاتهم ٠ فانبنى على تفكك وحدتهم ازاء بعضهم بعضا ، تقلقل مركز كل مملوك دواما ٠ وعلى العكس ، اتسم الصرح الدينى ــ أى العلماء ــ بالاستقرار النسبى حتى عام ١٧٩٨ ٠ كما استقرت أحوال الفلاحين نسبيا ، على أساس مستوى الكفاف ٠

وكان العلماء ــ قبل حقبة نابليون ــ عنصرا أعظم أهمية فى حياة مصر من المماليك والحاكم العثمانى كليهما ٠ والجبرتى نفسه كان عالما ، وامتد به العمر حتى عاين تصدع سلامة طبقته الاجتماعية وأهميتها التقليدية بتأثير نابليون ثم محمد على من بعده ٠ وكان محمد على ديكتاتورا أمكنه تحويل الآراء النابليونية الى حقائق فعالة فى مصر ٠ وكان الجبرتى نافذ البصيرة حين راح يرقب ويسجل جميع المراحل المتعاقبة من تاريخ مصر طوال السنوات التى عاشها ٠

كان الجبرتى يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء ٠ فالمماليك أرقاء دخلاء اســـــتجلبوا الى مصر من القـــوقاز ، والعثمانيون كذلك دخلاء ، بما فيهم الانكشارية الذين كانوا يروضون باستمرار ٠ وكذلك الحال بالنسبة للحكام الذين يأتون ويذهبون وكذلك محمد على الديكتاتور ذو البأس ، ما هم الا أجانب أيضـــا وفدوا من جنوب شرق أوربا وآســـيا الصغرى ٠

أما الفرنسيون فهم دخلاء أتوا من بلاد الفرنجة ٠ لكنهم بدوا فى نظر الجبرتى فى عام ١٧٩٨ متطفلين كأنهم قد وفدوا من كوكب آخر ٠ كما أنهم كانوا أشد تهورا فى عدوانهم من الامبرياليين اللاحقين ، فى اعتدائهم على الحرمات الاسلامية واستهانتهم بالتقاليد والعادات المتوارثة ٠

ان الجبرتى قد علم حقيقتهم جميعا . وتجلت شفافيته السيكلوجية فى أعظم حالاتها فى ادراكه نقاط القوة والضعف فى سلوك الفرنسيين غزاة مصر . ومن قبيل المثال :

ـ عمد الفرنسيون الى التأثير على المصريين باقامة معرض لمنجزات العلوم الأوربية . وقد زار الجبرتى هذا المعرض ولم يستثر اهتمامه . ووصم المعروضات بأنها « لعب أطفال تعرض للتأثير فينا . لكننا لن نخدع ببساطة » .

ـ عندما اغتيل القائد العام للقوات الفرنسية الذى خلف نابليون ، أقيمت للقاتل محاكمة عادلة قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه . وشـــهد المحاكمة الجبرتى ـ المراقب المثابر ـ مثلما زار المعرض السالف الذكر . وقد أثرت فيه عدالة المحاكمة أيما تأثير ، اذ انتفت هاهنا الدعاية ، فكان أن بدت أمامه أســـلوبا صافى النية للتصور الفرنسى الأصيل لاقرار العدل .

كان الجبرتى ـ مثل توكيديدس اليونانى العتيق ـ مؤرخا وقع عليه ـ بالمثل ـ عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حيـــاة الحضارة التى ترعرع فى ربوعها .

وان فى وسع مصر أن تفاخر بالجبرتى ، كما تباهى به سائر أنحاء العالم الفسيح الذى يتحدث أبناؤه باللغة العربية .

الجبرتي..
مؤرخ مصري على مفترق الطرق

للدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

أود ــ قبل أن أمضى فى حديثى ــ أن أستأذنكم فى أن أستخدم هــذا التعبير الذى اتخذه أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال عنوانا للبحث الذى نشره عن أجوبة حسين أفندى الروزنامجى على أسئلة المشــــتغلين بالأمور الادارية والمالية من علماء الحملة الفرنسية على مصر ليستعينوا بهذه الأجوبة على ضبط مالية البلاد وادارتها ٠ وهذا التعبير هو « مصر على مفرق الطرق » ٠ وكان أستاذنا الراحل ينوى ــ فيما أعرف ــ أن يتخذ هذا التعبير عنوانا لطائفة من البحوث على طراز هذا البحث عن أجوبة حسين أفندى ٠

ولكن متى كانت مصر على مفرق الطرق ؟ ونحن نعرف أن مصر تقع فعلا على مفرق الطرق بين ملتقى ومفرق القارات الثلاث التى تكون العالم القديم : أفريقيا وآسيا وأوربا ، ولكن هذا شىء لم يقصده صاحب هــــذا التعبير ، ولا أقصده فى هذا البحث الذى أتقدم به بين أيديكم عن مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى ٠

كانت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغت نهاية شوط من مسيرتها الطويلة عبر آلاف القرون ٠ كما كانت على عتبة عصر جديد ٠ وكان هذا الانتقال من عصر الى عصر حافزا للتدوين والتــــأريخ ، كما كانت مصر دائما طوال عصورها التاريخية ٠ ومن هنا كان التاريخ من أقدم فنون الكتابة التى عرفها المصريون ٠ فقد كانت مصر بتاريخهــــا الطويل وحضارتها الزاهرة صانعة للتاريخ ٠ كان الاغراء بكتابة التاريخ وتدوينه شديدا ، فهذه الحضارة الماثلة فى فنون الحياة المختلفة وفى الآثار والنقوش والصنائع والعلاقات مع الأمم والشعوب ، كل هذا كان يغرى بالتدوين والتاريخ منــــذ عهد مانتون المؤرخ المصرى الأول حتى اليوم ٠ وكلما ازداد نبض الحياة فى سرعة وتعقدت الأمور وتشابكت المصالح اشتد الاغراء ، فنهض بعض ممن مسهم هذا الاغراء وراحوا

يستوحون النقوش والآثار والحياة اليومية المعقدة وأحوال الناس والبلاد والآثار ويكتبون ويسجلون ، وعلى هذا النحو كان التراث التاريخي المصرى من أروع ما خلفه العقل المصرى ٠

وحتى فى العصور التى نسمها بالتأخر والانحطاط ، لم تعدم مصر ان وجدت من بين أبنائها من يكتب ويسجل ويؤرخ ٠ ومن ذلك على سبيل المثال ، تلك الفترة الطويلة من تاريخ مصر الممتد من القرن السادس عشر الى أواخر القرن الثامن عشر ، وهى ما نسميه العصر العثمانى ، الذى اطردت فيه أنماط الحياة المصرية على نحو رتيب ، وتراخت فيه صلات مصر بالعالم الخارجى وركد فيه الفكر والتأليف ، اذا قارناهما بما كان عليه الفكر والتأليف فى العصور الوسطى الزاهرة ٠ على أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض الذين تصدروا لكتابة التاريخ ٠ وقد أظهرت البحوث الحديثة أن ثمة عـــددا لا بأس به من هؤلاء المؤرخين ، وان كانت دراسة مؤلفاتهم ونشرها لاتزال تحتاج الى جهد كبير ٠ وأعتقد أن هذه الدراسة لمؤرخى العصر العثمانى قد تفتح الطريق لاعادة تقييم هذا العصر على نحو علمى جديد ٠

وكان ابن اياس أول المؤرخين المصريين الذين كتبوا ــ فيما كتبوا ــ عن العصر العثمانى ٠ فقد شهد الفتح العثمانى لمصر والسنوات الأولى من حكمهم فيها ٠ أما عبد الرحمن الجبرتى فكان آخر هذه السلسلة من المؤرخين المصريين الذين كتبوا عن أواخر العصر العثمانى ٠ ولاشك أنه بمنهجه وأسلوبه ودقته واستفاضته فى شرح الحوادث والوقائع والرجال ، كان أنبههم جميعا وأكبرهم شأنا ٠

ولد الجبرتى عام ١٧٥٤م (١١٦٧هـ) ، ومات فى نحو عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ ــ ١٨٢٥م) فشهد بذلك النصف الثانى من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر ٠ وهذه هى الفترة التى نطلق عليهـــا « مفرق الطرق » ٠

شهدت هذه الفترة أحداثا ضخمة أخرجت مصر من عصر ووضعتها على عتبة عصر جديد ، شهدت انحلال النظام العثمانى المملوكى الذى قام فى مصر منذ فتحها السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ ٠ ثم شهدت حكم الفرنسيين لهـا نحو ثلاث سنوات (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) ثم شهدت محاولة النظـــام العثمانى المملوكى العودة من جديد ، ثم الاجهاز عليه تماما على يد محمد على ٠ وكان هذا الاجهاز ممهدا لبناء النظام الجديد ٠ ولم يكن الطريق أمام مصر فى هذه الفترة المضطربة الحافلة مستقيما ، بل كانت المسالك معقدة والمفارق متشابكة وظل الأمر على هذا النحو حتى استقام أمام مصر والمصريين الطريق فى ظل الدولة الجديدة التى أنشأها محمد على ولكن عبد الرحمن الجبرتى ــ وان عاش هذه الفترة المضطربة الحافلة ــ أخذته المسالك والمفارق المختلفة حتى أخذت

عليه تفكيره واضطربت لها نفسه ، ولم ينح له ان يعيش حتى يلحق بالطريق أمامه مستقيما ٠

كانت بدايه الاضطراب عندما احففت حركة علي بك الكبير في القبض على زمام الحكم في مصر وانفسح المجال لتخلفه عصبيات مملوكية شتى تعاقبت على السلطة في مصر مستغلة اختلال أمر الجند العثماني ، وبذلك فقد النظام مقوما أساسيا من مقومات توازنه ٠ وشهدت مصر منذ انتهاء حكم علي بك الكبير حتى مجيء الحملة الفرنسية فترة من اشد الفترات التي مرت بمصر اضطرابا وفسادا واستغلالا ٠ وكان التغيير والتبديل سريعا ، ولم يكن ثمة من هيئة أو طائفة تتمتع بقدر من الاستقرار سوى هيئة العلماء أو طائفة العلماء ٠ فقد استطاعوا وسط هذا الجو المضطرب أن يحافظوا على كيانهم وتقاليدهم في العلم أو في السلوك الاجتماعي ، مما أضفى عليهم مكانة خاصة في المجتمع المصري ٠ فكانوا بمثابة الجسر الذي يصل ما بين الحاكم والمحكومين ، بما كسبوه من كلا الطرفين من ثقة وتوقير ٠ ونهض العلماء بهذا العبء بأمانة واقتدار قل أن نجد لهما مثيلا في غير مصر من بلاد العالم الاسلامي في ذلك الوقت ٠ هذا الى قيامهم على حمل أمانة العلم ، مما حفظ لمصر مكانتها في العالم الاسلامي أجمع ٠

كان عبد الرحمن الجبرتي ينتمي الى هذه الهيئة العلمية المتماسكة وفيها نمى وترعرع ، وبرز وأخذ مكان الصدارة ٠ ذلك لأنه لم يقنع بالعلم التقليدي الذي كان شائعا في ذلك الوقت والذي كان الأزهر موئله ومستقره ، كالفقه والحديث وسائر علوم اللغة والدين ، ولكنه أضاف الى ذلك معرفة بطائفة من العلوم ، كعلوم البيئة والفلك والطب والحساب . مما يسمونه العلوم الوضعية ، أو نسميه نحن العلوم التطبيقية أو الطبيعية ٠ ويكفي أنه ابن ذلك العالم الذي رد لمصر ــ في أيامه ــ سمعتها العلمية حين جاء الى مصر أحد الولاة وكان له شغف ببعض هذه العلوم فسأل عن أصحابها من علماء الأزهر فقالوا ان هذه العلوم قد بطل تدريسها بالأزهر فقال : « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت في غاية الشوق الى المجيء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » (١) ٠ فدلوه على الشيخ حسن الجبرتي ــ أبرز العلماء المهتمين بهذه العلوم في ذلك الوقت ، وكان يمارسها علما وعملا في بيته ، ويدرسها لطائفة من تلاميذه ٠ فوجد الباشا عنده بغيته ٠

ولم يخلف الشيخ لابنه الفتى هذا التراث العلمي وحده ، ولكنه خلف له أيضا مكانة بارزة في المجتمع القاهري ، من ثروة لا بأس بها وصلات واسعة بأصحاب السلطان من الأمراء والأجناد والتجار ٠ وفي هذه البيئة العلمية ــ المترفة نوعا ما ــ نشأ عبد الرحمن الجبرتي ، وتقدم الى الصفوف الأولى من

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار جـ ١ ، ص ص ٤٨ ــ ٤٩

علماء زمانه • ويمكن القول انه ظل حتى أواخر القرن الثامن عشر معنيا بتراث أبيه ، وخاصة فى علوم الهيئة والفلك والحساب . يقرأ كتبه لتلاميذه ويضع عليها الحواشي والتقارير ، ويضبط حساب الأفلاك والنجوم وما يتصل بها من عمل التقاويم ، ويأخذ ـ الى جانب هذا ـ بقدر غير يسير من أسباب الحياة الناعمة • لا يصرفه عن ذلك الانقلابات المتوالية التى شهدتها القاهرة ، وخاصة فى السنوات العشرين من ختام هذا القرن ، حتى اذا كانت السنوات الأخيرة من هذا القرن قرعت أسماع المصريين أنباء جد خطيرة جاءت اليهم من الشرق والغرب جميعا • علموا بأنباء دعوة الاصلاح الدينى التى قامت فى الجزيرة العربية ، تدعو المسلمين الى العودة الى أصول العقيدة والى نبذ البدع والتمسك بالتوحيد ، وما لبثت الدعوة التى قامت فى نجد على أيدى محمد ابن عبد الوهاب أن امتدت فشملت الجزيرة العربية كلها ، ثم خرجت اشعاعاتها ومؤثراتها الى أنحاء مختلفة من العالم الاسلامى قريبة وبعيدة • أما من الغرب فقد تسامع المصريون بأنباء الاضطراب الذى قام فى بعض ديار الافرنج ، وهى أنباء الثورة التى قامت فى فرنسا وما صحبها من عنف وحروب •

وما لبثت مصر أن تأثرت بهذين الانفجارين الكبيرين فى أواخر القرن الثامن عشر : الانفجار الوهابى فى الجزيرة العربية ، والانفجار الفرنسى فى أوربا • أما الانفجار الأول فقد وصلت مؤثراته الى مصر • وكان رد الفعل الذى أحدثه متباينا : فالدولة العثمانية وقفت منه موقف المناهض ، وبدأت تعد العدة للقضاء عليه ، وخاصة عندما تقطعت سبل الحج الى الحرمين الشريفين ، وتهددت أطراف البلاد الشامية والعراقية • ولا شك أن جماهير المصريين قد فزعوا لتعطل أسباب الحج ، ولكن المثقفين منهم كانوا أميل الى العطف على هذه الدعوة الاصلاحية نتيجة لانحراف كثير من أدعياء الصوفية الى أمور لا تمت الى الدين أو الصوفية الحقيقية من قريب أو بعيد •

وبين أيدينا مما كتبه الكتاب فى تلك الأيام طائفة كبيرة من القصص عما ادعاه كثير من الناس من الرجال والنساء من الكرامات استغلالا للبسطاء من الناس • ولكن موقف مصر الرسمي ـ تمشيا مع موقف الدولة الحاكمة وسياستها ـ أخذ جانب الرفض والمقاومة ، ومالبثت الدولة أن استخدمت موارد مصر وقوتها العسكرية فى السنوات الأولى من حكم محمد على لمحاولة القضاء على هذه الدعوة فى الجزيرة العربية استنقاذا للحرمين الشريفين من سيطرة الوهابيين وفتحا لسبل الحج أمام المسلمين •

ونهض محمد على بهذا العبء ونجح فى ذلك ، وان لم ينجح فى القضاء على الدعوة ذاتها • واتخذ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى من هذه الحركة موقفا معتدلا • كان هو نفسه فى صدر شبابه قد مال الى التصوف شأنه فى ذلك شأن أكثر علماء عصره • ولكنه لم يوغل فى التصوف • وكتابته تنضح بضيقه من أدعياء الصوفية وأصحاب الكرامات والولاية • ذلك لأن « العقلانية »

التي كان يصطنعها في مدارسة العلوم الوضعية أو التطبيقية ، كانت — لا شك — تنأى به عن الاعتقاد بمثل هذه الأشياء . وأكبر الظن أنه كان من أهل السنة المستمسكين بمبادئها . وكم حز في نفسه أن تقوم هذه الحرب بين المسلمين ، وحز في نفسه أكثر من ذلك أن يشهد موكب الأمراء السعوديين يطاف بهم في شوارع القاهرة مصفدين بالأغلال فيغضب قائلا : « كيف تقتلون أناسا يقولون لا اله الا الله » .

أما الحركة الثانية أو الانفجار الثاني الذي قرع أسماع المصريين من ناحية الغرب ونعني به الثورة الفرنسية الكبرى ، فقد كان تأثيره أشد وأرهب على مصر والمصريين . فاذا كانت الدعوة الوهابية دعوة اسلامية عامة لم يبشر بها صاحبها وأنصاره بين عرب نجد ، أو الجزيرة العربية وحدهم ، ولكنهم دعوا اليها المسلمين كافة . فكذلك كانت مبادىء الثورة الفرنسية ، قصد بها أصحابها أن تكون مبادىء عامة للدعوة بين الناس للاستمساك بالحرية والاخاء والمساواة . وهم لم يعلنوا حقوق المواطن الفرنسي ولكنهم أعلنوا « حقوق الانسان » ، وادعوا أنهم في كل مكان يحلون ينشرون هذه المبادىء ويعملون على تحقيقها . ومن ذلك ما ادعاه قائدهم بونابرت عندما جاء الى مصر يقود جنوده من أبناء الثورة الفرنسية . ولكن المصريين لم يخدعوا بمثل هذه الدعايات ، ولم يروا في الفرنسيين الا قوما من الفرنجة الدخلاء الذين لا دين لهم ، جاءوا لاقتطاع جزء من دار الاسلام .

كانت هذه القارعة من أهم الحوافز التي دفعت عبد الرحمن الجبرتي الى مواصلة الاهتمام بتدوين الوقائع والأحداث . وكان قد بدأ في ذلك منذ بضع سنوات ، أو بالتقريب قبل وصول الفرنسيين الى مصر بعشر سنوات ، حين اتصل به شيخه العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس » وطلب اليه أن يعينه في تدوين تراجم المشهورين من رجال المائة السابقة ، أي القرن الثاني عشر الهجري . واستجاب الجبرتي لطلب شيخه فأقبل على العمل في هذا المشروع الكبير ، أخذ يجمع مواد كثيرة عن مشاهير ذلك القرن من علماء ومتصوفة وأجناد وأمراء وغيرهم من أفواه المعمرين ، أو مما وصلت اليه يده من الكتب والمؤلفات ، أو من الكتابات المنقوشة على الأضرحة والقبور . وتفتحت شهيته لهذا الضرب من الكتابة واتسع أمامه مجال العمل ، اذ رأى أن الفصل يكاد يكون متعذرا بين الأحداث والرجال ، وبينما كان الجبرتي ماضيا في عمله توفي شيخه الزبيدي ، ووصله كتاب من مفتي دمشق الشيخ خليل المرادي يسأله أن يبحث في خزانة الشيخ ليرسل اليه ما يجده من تراجم ، ويضيف اليها ما كتبه الجبرتي نفسه . وهكذا علم الجبرتي أنه كان ثالث ثلاثة يشتغلون في هذا المشروع الكبير . فكان « فن التراجم » المدخل الذي دخل منه الجبرتي الى كتابة التاريخ . وكان ثمرة هذا كله كتاباه « مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس » عن أحوال مصر أيام الفرنسيين و « عجائب الآثار في التراجم

والأخبار » وهو تاريخه الكبير الذى سرد فيه أحوال البلاد بايجاز حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا ، ثم بقدر متزايد من التفصيل حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠م) ، أى قبل وفاته بنحو أربع سنوات انقطع فيها عن الكتابة ، أو كتب أشياء لم تصل الينا ·

ولا يعنينا هنا أن نتحدث عن منهج الجبرتى وأسلوبه فى كتابة التاريخ بقدر ما يهمنا أن نتعرض لموقفه من أحداث عصره حين كانت مصر تقف على مفرق الطرق ·

رأى الجبرتى فى غزو الفرنسيين مصر اعتداء صارخا ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المصريين ، وتمنى انتهاء حكمهم اذ اعتبر سنة الاحتلال الفرنسى « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدابير وحصول التدمير ، وعموم الخراب وتواتر الأسباب « وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١) ·

ولكنه ــ والحق يقال ــ لم يشارك فى مقاومتهم أو الثورة عليهم ، بل لانرى له ــ وهو من بين المتصدرين من علماء تلك الأيام ــ موقفا يتسم بالمعارضة للفرنسيين كما نرى من الشرقاوى أو السادات مثلا · ولكن لا نذهب الى حد اتهام الجبرتى بالتعاون مع الفرنسيين · حقيقة ، أنه صادق نفرا منهم ، ولبى دعواتهم المتكررة لزيارة المجمع العلمى الذى أنشأوه ، أو دار الصنايع كما يسميها ، بما تحويه من أدوات وآلات وأجهزة شاقته وأعجبته وهو العالم الفلكى الخبير بأمور الهيئة والرياضيات وما اليها ، ولم يجد ما يعلق به على بعض التجارب الكيميائية التى اجروها أمامه سوى قوله « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تعيها عقول أمثالنا » (٢) واجتذبته المكتبة التى أنشأها الفرنسيون وهو العالم الذى ورث عن أبيه مكتبة ضخمة زاد عليها بما جمع لها من صنوف الكتب · وحقيقة أيضا أنه كان مع بعض أصدقائه : كالشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار ، يتردد على بيوت بعض علماء الحملة الفرنسية ممن يهتمون بالتاريخ أو الأدب أو غير ذلك مما يهتم له هؤلاء العلماء · وحقيقة أيضا أنه قبل أن يكون عضوا بالديوان الذى أنشأه الجنرال « مينو » من نفر من كبار المشايخ · كل هذا حقيقى ، ولكن الجبرتى لم يعد ذلك تعاونا أو تمشيا مع الفرنسيين بقدر ما عده محاولة للافادة وجمع المعلومات والبيانات واجتناب الأذى ·

---

(١) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١ ·

(٢) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٦ ·

والواقع أن من الصعب أن نذهب مذهب القائلين بأن الحملة الفرنسية تركت أثرا استمر باقيا من بعدها على المجتمع المصرى والثقافة المصرية ٠ اننا لا ننكر أن الحملة كان لها أثرها السياسى فى تحطيم النظام القائم ، نظام الحكم الذى كانت تخضع له مصر وفى فتح باب ما سمى « بالمســـألة المصرية » أى مستقبل الوضع السياسى للبلاد ٠ ولكننا اذا انتقلنـــا الى التأثير الاجتماعى والثقافى فمن الغلو فى القول أن نذهب مذهب القائلين بأن الفرنسيين وجهوا المجتمع المصرى والثقافة المصرية وجهة جديدة ٠ ففى رأينا أن « الأرضية » التى كان يقف عليها كل من الفريقين كانت جد مختلفة ، حتى طائفة العلماء المصريين كان مفهوم العلم عندهم مختلفا تماما عن مفهوم العلم عند رصفائهم من علماء الفرنسيين ٠ فكان كل فريق يتكلم لغة (ولا نقصد هنا لغة الحديث أو الكتابة) تختلف تماما عن لغة الفريق الآخر ٠ قد نستثنى من ذلك بعض العلماء المصريين الذين أتاحت لهم ثقافتهم العلمية غير التقليدية أن يتصلوا بالعلماء الفرنسيين ويقفـــوا على بعض نشاطهم ٠ وأبرز مثلين أمامنا هما : الشيخان عبد الرحمن الجبرتى وحسن العطار ٠ ولكن ــ ونرجع هنا الى ما كتبه كل من الرجلين أو تحدث به ــ الأمر لا يعدو أن يكون عجبا واستغرابا وقدرا من حب الاستطلاع ، نجد هذا فيما كتبه عبد الرحمن الجبرتى حين تحدث عن بعض ما أجراه أمامه الكيميائيون الفرنسيون من تجارب على الرغم من خبرته السابقة بمثل هذه الأشياء وقدرته على فهم أصولها وحركاتها ، ولكنه لا يلبث أن يقول ان هذه أشياء لا تسعها عقول أمثالنا ٠ أما الشيخ حسن العطار فربما كان أكثر استجابة ، فهو أيضا من كبار العلماء الذين أضافوا الى علوم الأزهر التقليدية اشتغالا بعلوم الطب والرياضيات ، وكتب فيها وتجول ورحل وانتهى الى هذه النتيجة ، كأنه كان يكشف حجب الغيب : ان بلادنا لابد أن تتجدد فيها العلوم والمعارف ٠ وتحققت نبوءة الشيخ ــ أو تحقق أمله ــ فى حكم محمد على ، وكان هو قد أصبح شيخا للأزهر وتقدم لمعاونة الوالى الكبير فى مشروعاته التعليمية ٠ ومن ذلك أنه كان يقف خطيبا فى امتحانات مدرسة الطب التى أنشئت فى ذلك الوقت يدعو طلابها الى الاهتمام بتجديد هذا العلم الذى عرفه أسلافهم ونبغوا فيه ٠

ولكن هذا كله لا يصل الى حد المبالغة فى تقدير الأثر العلمى الذى تركته الحملة الفرنسية فى مصر ٠ فقد ذهب كل ما أقاموه بذهابهم ٠ وحين بدأ محمد على انشاء المدارس والمطابع بدأ من الصفر ــ كما يقولون ــ اذ لم يجد شيئا مما أنشأه الفرنسيون ٠

ونعود الى الجبرتى وهو يضطرب بين كتبه وكراريسه وأصدقائه وهــو يشهد ما يجرى بالقاهرة ويسجل ويكتب مستعينا بكل ما يعرفه وما يصل اليه من أنباء الأقاليم ٠ سخط على الفرنسيين حين احتلوا البلاد ، وسخط عليهم أكثر حين رأى لهم طرائق وأساليب فى حياتهم الاجتماعية لم يألفها المصريون

فى تلك الأيام وعدها من قبيل التبذل والخلاعة والمجون ، وأخذ عليهم تقريبهم قوما من غير المسلمين وافساح المجال لهم للتجبر والسلطان ، وان كان قد سجل اعجابه بكثير من أمورهم كعنايتهم بالعلم وبالكتب واقبالهم على القراءة حتى من أسافل الجند كما يقول ، وأخذهم الجند بالنظام والتدريب الحديث ، وحرصهم على اجراء العدالة عند محاكمة قتلة كبيرهم كليبر ، وتاريخه الكبير حافل بكثير من عبارات الاعجاب ، وان كان قد حرص على اخفاء ذلك عندما كتب كتابه عن حكم الفرنسيس لمصر وهو « مظهر التقديس فى زوال دولة الفرنسيس » وهو الكتاب الذى كتبه وقدمه الى الصدر الأعظم عند حضوره الى مصر لاخراج الفرنسيين منها ٠

وخرج الفرنسيون من مصر ، ولكن بقى الانجليز بها يحتلون أجزاء من شواطئها وقواعد قرب القاهرة ٠ وأدرك الجبرتى حقيقة ما حدث حين أتى الانجليز لاخراج الفرنسيين من مصر وتحقق لهم ذلك ، ولكن الجبرتى لم ير فى ذلك الا « أعظم الاعتبارات والكرامة لدين الاسلام حيث سخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه بدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم ، وذلك مصداق الحديث الشريف : « ان الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ٠ فسبحان القادر الفعال » ٠

ثم خرج الانجليز وعاد العثمانيون والمماليك يحاولون استعادة القديم كل لمصلحته ٠ ولكنهم لم يستطيعوا الا الاستعلاء والافساد والاستغلال ، مدلين على المصريين بأنهم خلصوهم من أيدى الكفرة ، فعليهم ألا يشكوا شيئا مهما حدث لهم من سلب الأرزاق وهتك الأعراض ٠ وشهد المصريون بضع سنوات كانت أشد ما مر عليهم فى تاريخهم الطويل من بشاعة وفساد واستغلال وسوء حكم ٠ واختلطت عليهم المسالك وتشعبت الطرق ، حتى انبرى من وسط الحطام جندى واتته القدرة وحالفه الحظ حتى وصل الى مقام الولاية ٠ وكان محمد على من نفاذ البصر بحيث أدرك حقيقة الموقف وأهمية البلاد التى ساقه القدر لحكمها ، فظل عاما بعد آخر مستمسكا بالسلطان محطما كل العقبات فى طريقه ، قاضيا على كل العصبيات المناوئة له من مماليك وأجناد وعلماء وزعماء طوائف وحرف حتى خلص له الحكم وتجمعت فى يده أسباب السلطان ٠

شاهد الجبرتى ذلك كله وتتبعه يوما بعد آخر ٠ رأى بعينيه أحوال البلاد تتبدل على ما لم يألفه أهل ذلك الزمان ٠ وراح يقيس الأمور بمقياس الأخلاق وحدها ، دون أن يقدر كنه التغيير أو دواعيه وبواعثه ٠ ومن هنا جاءت أحكامه على « محمد على » الذى بطش بكل من أعانوه على تسلم مقاليد الحكم فى البلاد ، كما فعل بالسيد عمر مكرم الذى خشى محمد على استعلاءه وتجمع الناس حوله ، فنفاه الى دمياط وهو الرجل الذى كان أول وأقدر من أعانه على تقلد مهام الحكم فى البلاد ، وكما فعل بعد ذلك بحجاج الخضرى ، فقتله وهو

الزعيم الشعبى المعروف فى القاهرة ، الذى كان أحد قادة الثورة التى رفعت محمد على الى الحكم • وضاق الجبرتى بأسلوب محمد على فى التفريق بين العلماء • ثم كانت قمة سخطه حين فتك محمد على بالمماليك فى مذبحة القلعة المعروفة سنة ١٨١١ • ومضى الجبرتى يأخذ على محمد على مصادرته أرزاق الناس كما فعل مع نظار الأوقاف وملتزمى الأراضى ، ثم احتكاره لموارد البلاد ، كما فعل فى جمع الغلال وبيعها حتى الخضر بالأسعار التى يحددها ، وغير ذلك مما عده الجبرتى من المظالم ، فوصفه بأنه كان « يتطلع لما فى أيدى الناس » •

ولكن الجبرتى وهو المؤرخ الموضوعى ما كان ليستطيع أن يتجاهل المشروعات الضخمة التى بدأ يقيمها محمد على : كبناء سد الفرعونية الذى حال دون طغيان ماء البحر المالح على الأراضى الزراعية ، واصلاح ثغر رشيد وحفر ترعة المحمودية ، ولم يملك الا أن يصف هذه الأعمال الضخمة بأنها « من همم الملوك » قائلا « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ولو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أقرانه » (١) •

والحق أن الجبرتى عاش من حكم محمد على سنواته العشرين الأولى ، وهى السنوات التى شغل فيها محمد على بتحطيم مقومات البناء القديم ليبنى بناءه الجديد • وسنو الهدم دائما يشوبها العنف والقسوة والمصادرة • وهذه كلها أمور سجلها الجبرتى ناقدا ساخطا ، وان لم يع ما وراءها من قصد • ولا نغفل هنا أن بعض ما أقدم عليه محمد على مس الجبرتى فى بعض أرزاقه • فقد كان للجبرتى بعض الالتزامات يستفيد من دخلها ، فألغى محمد على نظام الالتزام ، وفقد الجبرتى جانبا كبيرا من دخله فبدأ يشكو « سوء الحال وهم العيال » ، وكان غلاء أسعار الحاجات الضرورية من أهم الظواهر التى شغل الجبرتى بتسجيلها عاما بعد آخر • وامتلأ الجبرتى مرارة حين شهد تعاظم قوة محمد على ونجاحه فى جمع السلطة فى يده عاما بعد آخر ، وما حالفه من أسباب الحظ والتوفيق • وأبلغ ما يصور هذا الموقف من الجبرتى تلك العبارة التى أجراها على لسان الزعيم المملوكى الكبير محمد بك الألفى حين اشتد به المرض وهو يقف على ربوة قرب مشارف القاهرة ينظر اليها وقد امتدت أمامه فقال مخاطبا اياها : « أنظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤد وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك ••• قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على » •

بل وصل الأمر بالجبرتى أنه لم يهلل للانتصار على الانجليز عام ١٨٠٧ بعد أن استولوا على الاسكندرية وحاولوا الاستيلاء على رشيد والاتصال

(١) الجبرتى : المصدر السابق ج ٤ ، ص ٢٥٨ •

بالأمراء المماليك للاستعانة بهم · ويكفى - فى تقدير الجبرتى - أن فشلهم وخروجهم من مصر كان من أهم العوامل في تثبيت سلطان محمد على ، فوصف ذلك الفشل بما أسماه « تعسة الانجليز وأهله » (يقصد أهل القطر) · وعلق الجبرتى على ذلك ساخطا « وهذه الواقعة حصلت على غير قياس وصادف بناؤها على غير أساس ، وقد أفسد الله رأى كل من طائفة الانجليز والأمراء المصرية وأهل الاقليم المصرى لبروز ما كتبه وقدره فى مكنون غيبه على أهل الاقليم من الدمار الحاصل وما سيكون بعده ، كما ستسمع به ويتلى عليك بعضه « وأخذ على المصريين » انتصارهم لمن يضرب ويسلب نعمهم ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ·

واشتد به الحقد والمرارة والألم ، ثم كانت الكارثة حين حملوا اليه جثة ابنه قتيلا ، وكان فى طريقه عائدا من قصر الباشا فى شبرا ، واتهم بقتله دفتردار الباشا · فكان حزنه على ابنه شديدا · وكأنى بالجبرتى فى هذه السنوات الأخيرة من حياته وقد اشتد به الألم والسخط والبكاء على ابنه ، حين راح يشيع شيوخه وزملاءه وأصدقاءه رجلا بعد آخر وقد ألم به المرض وكف بصره فهجر أوراقه وأقلامه ، كأنى به وقد أخذ مكانه على مفرق الطرق يبكى ويذكر الأيام الخوالى وما شهد فيها من مواكب العز ، وما نعم فيها من طيبات الحياة · ولم يدرك أن ما كان يقاسى منه المصريون فى تلك السنوات لم يكن الا بعض آلام المخاض التى تسبق الميلاد الجديد · وكان الميلاد الجديد هو نهضة مصر فيما تلا ذلك من القرن التاسع عشر ·

الجبرتي .. مؤرخاً

للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ينتمي عبد الرحمن الجبرتي الى طائفة المؤرخين المسلمين من كتاب الحوليات الذين خلفوا لنا تراثا ينم عن مناهجهم وأساليب تفكيرهم ومستوى ثقافتهم . ولقد عاش فى الوقت الذى خيم فيه الركود على الوطن العربى ، وسجل فى كتابه « عجائب الآثار » تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وقدم لنا صورة عن مصر لا تختلف فى خطوطها العريضة عن صورة الحياة فى الحواضر العربية الأخرى . اذ أن المقومات التى قامت عليها حياة المجتمعات تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التى وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة ـ هذا الى أن العالم العربى خلال الفترة التى دونها الجبرتى كان يمر بمرحلة اضمحلال عام نتيجة لظروف تاريخية واقتصادية وسياسية معروفة . حينئذ كانت قد انطفأت الجذوة الخلاقة التى دفعت المسلمين الأول الى ارتياد وتطوير العلوم والآداب والفنون والفلسفة والفقه الدينى والتشريع والجغرافيا ـ مما أفسح المجال للاهتمام بالشكليات وبظواهر العلم . وهكذا أصبح المجتمع العربى ـ الاسلامى بوجه عام مستكينا لحالة تبلد عام مقرون بالغيبيات الباعثة على السلبية ولا يلقى بالا للاشعاعات المنبعثة من أوروبا ، وهى اشعاعات تميزت بالحيوية وكانت تنمو وتتسع باطراد . وكان حيز الدراسات فى الأزهر الذى تخرج فيه الجبرتى ضيقا نسبيا ، اذ اقتصر على العلوم المتصلة باللغة العربية (بما فى ذلك البلاغة والنثر والعلوم الدينية والفقه والمنطق ومبادىء الرياضيات) (١) . ولما

(١) من دلائل العزلة والاحساس الزائف بالتفوق أن الجبرتى يكتب عن والده الشيخ حسن الجبرتى أنه كان « فريدا فى صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والادهان .. وحضر اليه طلاب من الافرنج وقرءوا عليه علم الهندسة .. واهدوا له من صنائعهم وآلاتهم اشياء نفيسة وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت واخرجوه من القول الى الفعل واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الاثقال واستنباط المياه وغير ذلك » .

كان العالم العربى الاسلامى خلال فترة الركود والعزلة يكاد يكون منقطع الصلة بأوروبا الغربية ، فانه حافظ على تلك المشخصات الوسيطة التى كانت فى طريقها الى الانحـــلال فى الغرب ، كالاعتقاد فى التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر · وساعدت الأساليب الشعبية والشعوذة التى كان يمارســـها بعض المتصوفة على شدة انتشار السحر ، مما أدى من الناحية العملية الى اسكات كل أنواع النقد والمعارضة ·

ومن المنطقى فى ظل هذه الأحوال أن تتدهور الكتابة التاريخية ، خاصة وأن معاصرى الجبرتى كانوا يعتبرون التاريخ « من شغل البطالين ·· وأساطير الأولين » ويسجل الجبرتى أن من أسباب تدهور الكتابة التاريخية فى أيامه تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فانا لم نر من ذلك كله الا بعض أجزاء مدشتة بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس ممـــا تداولته أيدى الصحافيين وباعها القومة والمباشرون ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقـــايا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجـدوه الى بلادهم » · ولهذا فان ظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتى يعد ظاهرة منفردة ليس لها تفسير واضح ، وان يكن هذا متصلا بالبيئة التى نشأ فيها وبالظروف المادية التى أحاطت به ، وهى ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء فى عصر الجبرتى أم فى غيره ·

فقد ولد عبد الرحمن لأب من علماء الأزهر ذى أوقاف وأملاك تدر عليه موارد جمة وتضفى عليه بحبوحة من العيش وتمكنه من الانفاق على كثير من المشايخ الناشئين والوافدين الذين كانوا هم وغيرهم دائبى التردد على منزله · وكان الوالد يقص على ابنه أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والمشايخ الذين عرفوه — حتى اذا ما توفى ترك له أموالا طائلة وصداقات وطيـــدة ، أطرافها الأشياخ والمريدون والأصـــدقاء من الأمراء والكبراء · وما لبث عبد الرحمن أن تخرج فى الأزهر بعـــد أن درس شـــتى علوم الفقـــه واللغة ، ثم أكب على خزانة والده يستزيد من أمهات الكتب التى حوتهـــا ، وعقد حلقات التدريس وفق ما جرت به عادة المبرزين من مشايخ الأزهر · ولقد شـــغف بالتاريخ الذى هو لديه « علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم — وموضـــوعه أحوال الأشخاص الماضية من حيث هى وكيف كانت » · ويندرج فى التاريخ لديه علوم كثيرة منها طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاة والحكماء والأطباء وأخبار الأنبياء وأخبـــار المغازى وحكايات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والأخبار والمواعظ والعبر والأمثال وغرائب الأقاليم وعجائب البلدان — ومنـــه : كتب المحاضرات ، ومفاكهة الخلفاء ، وسلوان المطاع ، ومحاضرات الراغب ·

وجاءت الخطوة الأولى نحو ظهور تاريخ الجبرتى حين كلفه أستاذه محمد

مرتضى الزبيدى بان يعاونه فيما بدأ فيه من الترجمة لأعلام المائة سنة المنصرمة : من مصريين وحجازيين ـ وقد أوصاه الزبيدى بالالتفات الى الأعلام المشهورين و « بالتخير والتحرز » • وطفق الجبرتى يدون الاسماء ـ فبدأ بالمشايخ ومن كان منهم شيخا للأزهر ، ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات ومن كان أبوه يطلق عليهم اسم « الطبقة العليا » ، ثم الطبقة التى تليها ممن اشتهروا بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة ـ وغير ذلك • كما شرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شارك فى الحكم • وحين اتسع العمل أمامه طلب مساعدة صديقه اسماعيل الخشاب • ولما كان الخشاب من عدول المحكمة ، وبها صكوك وحجج ، فقد طلب منه الجبرتى أن يدون أسماء الناس وأعمارهم ـ وكان يتردد على الديوان حيث دفاتر الكتبة والمباشرين • وقرر الجبرتى الطواف بالقرافات لقراءة النقوش على القبور والاتصال بأقرباء الذين ماتوا للرجوع الى أوراقهم ان كانت لهم أوراق • ولم تكن مهمة الجبرتى بالهينة ، اذ أنه لم يجد من المصادر سوى « بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ، ركيكة التركيب مختلة التهذيب والترتيب • وقد اعتراها النقص من مواضع فى خلال بعض الوقائع » ـ ولهذا نجده يعتمد على النقل من أفواه المشايخ المسنين وصكوك الدفاتر ، ونقوش المقابر •

وقد تعجل الجبرتى الترجمة لأشهر أعلام المائة المنصرمة ، وبذل جهدا كبيرا فى تحرى الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتقصى آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم • وجمع هذه التراجم فى كراريس عديدة ، كما جمع الى جانبها كثيرا من الحوادث والوقائع فى أوراق متناثرة يسميها طيارات ، تستقل كل منها بحادث معين ينوى تحقيق صحته فيما بعد • وحين جاءت الحملة الفرنسية دون فى كراساته أعمالها ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت اليه وأنه تردد على بعض منشآتهم وأقام بعض الصلات مع علماء الحملة وأصبح عضوا فى الديوان الوطنى فى عهد مينو • وحين خرجت الحملة من مصر فى عام ١٨٠١ رأى أن يشارك المصريين أفراحهم وأن يحتفى بالعثمانيين الذين عادوا الى حكم مصر ، فوضع كتاب « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » وأهداه الى الوزير العثمانى يوسف باشا وأشاد فيه بالدولة العثمانية • وقد أفاض فى هذا الكتاب فى سرد أحداث الحملة الفرنسية ، ولم يذكر فيه شيئا عن اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاربهم العلمية وأحاديثه مع علمائهم • وأغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبى ولم يشر الى عضويته بالديوان • وأغلب الظن أن الجبرتى لم يعتزل الحياة العامة بعد خروج الفرنسيين ، بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشئون الرعية بقدر ما يسمح له بالالتفات الى مشاغله الخاصة ، لاسيما وأن الثناء على كتابه « مظهر التقديس » قد قوى عزمه على متابعة مشروعه التاريخى • وفى عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥) ـ وهو العام الذى اشتعلت فيه الثورة فى القاهرة

ضد فوضى الحكم العثماني وشهد تولية محمـــد علي ـ رأى الجبرتي أن يجمع التاريخ الذى انشغل به خمس عشرة سنة • وقد سهل عليه ما كتبه عن الحملة الفرنسية متابعة مشروعه ـ فأخذ يستعين بأوراقه وكراريسه ويكد ذاكرته : فوضع تمهيدا تحدث فيه عن التاريخ وفائدته ، ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف فيها في تقسيم الطبقات ، ثم بسط النصيحة للحكام بمراعاة العـــدل وحسن السياسة • ونحن نجده في التمهيد والمقدمة يعرض المنظور الاسلامي للتاريخ باعتباره تكشيفا للارادة الالهية ، ويحض الناس على الاعتبار بذكر سابقيهم : « وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحـوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ويستجلب خيار أفعالهم ويجتنب سوء أقوالهم ويزهـــد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي » • بل أنه يرجو من يطلع على تاريخه ألا ينساه من صالح دعواته وأن يغضى عما عثر عليه من هفواته •

وبعد التمهيد والمقدمة يلم الجبرتي المامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني ، ويتدرج منه الى أواخر المائة الحادية عشرة ، وان يكن تاريخه يبدأ بالفعل بعام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ ـ ٩ م) ـ وذلك بحكم أن نهاية المقدمة ليست عرضا منتظما للأحداث ، بل انها لا تحتوى على أية مادة تاريخية الا في القليل النادر • ولما وصل الى الحملة الفرنسية اكتفى باثبات كتابه « مظهر التقديس » برمته بعد أن حذف مقدمته وبعض فصوله وقوم بعض الحوادث وصححها • ثم والى تنسيق الأحداث على النمط الذى اختطه لنفسه : فقسم الكتاب الى ثلاثة أجزاء وسار بالجزء الأول حتى عام ١١٨٩ هـ وبالثـــاني حتى آخر عام ١٢١٢ هـ وبالثالث حتى آخر عام ١٢٢٠ هـ ـ وأسـماه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » • وانتهى الجبرتي من تدوين هذه الأجزاء الثلاثة في عـام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦م) •

وقد وقف الجبرتي من محمد على موقف المعارضة منذ أوائل حكمه ، وظل حتى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ ـ ٦م) ـ وهو عام وفاته ـ يدون الأحداث على الطريقة التي شرحناها ويسندها الى مصدر ثقة أو شاهد عيان أو شاهد سماع • وفيما يتعلق بالأحداث العامة كان يتوجه بنفسه لمعاينتها ويتصل بمن يأنس فيهم معرفة ببواطن الأمور • ولهذا فان الجزء الرابع أقرب الى مذكرات كان يمنى النفس بتهذيبها وتنسيقها ، وفصوله مسهبة وسياقه منتظم ، وان بدت بعض الفصول ممعنة في القصر • وفي عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢م) قتل ابنه خليل فتأثر بذلك تأثرا عميقا ولم يقو على استكمال تاريخه الذى كان قد وصل به الى أخبار ثورة المورة • وظل يندب ابنه حتى ذهب بصره ، وقبع في داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب ، الى أن أدركته الوفاة ـ وهذا مما يفسر أن نهاية الجزء الرابع من تاريخه تبدو مبتورة •

★★★

وحين نقوم بتاريخ الجبرتى نجد أنه قد أثار اهتماما كبيرا لم يقتصر على المهتمين بتاريخ مصر الحديث من العرب ، بل ان المستشرقين قد اعتبروه مصدرا رئيسيا على درجة كبيرة من الأهمية — فمثلا نجد أن مكدونالد — فى دائرة المعارف الاسلامية — يذكر أنه « باعتباره صورة تفصيلية للحياة الشرقية له قيمة اجتماعية عظيمة ، وقد أفاد منه « لين » لهذا الغرض فى التعليقات التى وضعها لكتاب ألف ليلة وليلة » • ومما يجعل كتاب « عجائب الآثار » مصدرا من الدرجة الأولى ، ما تميز به مؤلفه من دقة واستقصاء للأحداث والتحفظ فى ذكرها • كما أنه يتميز بالموضوعية التى نستشفها من تأكيده أنه يكتب للحقيقة والتاريخ : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير • ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق •• لميـــل نفسانى أو غرض جسمانى » • كما أنه ينوه الى أنه لم يثبت الا ما وصل علمه اليـه وثبت خبرة لديه ، وأنه لم يخترع شيئا من تلقاء نفسه •

وهذه الموضـــوعية لا تجعل من تاريخ الجبرتى عرضا باردا للأحداث ، بل ان كتاباته تفيض بالحرارة التى من ورائها عمق انفعاله بالأحداث • ثم ان الجبرتى محب لبلده ، يشاركه أفراحه وأتراحه ولا ينظر الى الأحداث من بعيد • ومما يجعل تاريخ الجبرتى صورة نابضة بالحياة أن تاريخ مصر العثمانية أغنى بكثير من تاريخ سوريا أو العراق فى نفس الفترة — وان يكن هذا لا يقلل من تمكنه كمؤرخ ، فقارىء الجبرتى يحس دائما بالحياة الجياشة التى يصورها وأنه يعيش فى الجو الحقيقى لمصر وللعصر ، خاصة وأنه تميز بالدخول مباشرة الى لب الموضوع الذى يدونه ، ورسم صورة كاملة نابضة بالحيـــاة • وقد امتاز الجبرتى عمن تقدمه من مؤرخى مصر بأنه لم يقصر اهتمامه على علية القـــوم والأحداث الهامة ، فقد عنى بالأمور الجليلة والحقيرة ولم يدع شيئا نمى الى علمه الا ودونه فى دقة مدهشة • وهو محب للاتقان حينا ، عجول برم أحيانا • لذلك نراه دقيق التحرى ، أمينا فى النقل ، نزيها فى الرواية ، يكشف عن آرائه فيما يعرض له : فينبسط وينقبض ويسخر ويتهكم ويشتط ويغضب • وهو دقيق الملاحظة ، ألمعى الذكاء ، نفاذ البصيرة ، الا أنه مهما حاول السمو عن مستوى عصره ، فقد بقى مشدودا اليه لا يسمو الى النظرة الشاملة • وهـــو محدود الأفق بحكم بيئته ، لا يعرف شيئا عما نسميه بالسياســـة العليا ، ولا يتنبه الى كبار الأوروبيين الذين زاروا مصر فى حياته • كما نجده يعكس التعصب الدينى الذى كان يسود مجتمعه ، وان يكن هذا التعصب قد خفت حدته بمرور الزمن نتيجة لما لمسه بنفسه من تفوق الفرنسيين المخالفين للمصريين فى الدين ، لدرجة أنه تمنى فى أعقاب الحملة الفرنسية ، زوال العثمانيين الذين عاثوا فى البلاد فسادا — شأنه فى ذلك شأن كثير من الناس فى مصر — وخصوصا الفلاحين الذين تمنوا « أحكام الفرنساوية » •

وقد أولع الجبرتى بالتغنى بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام • وهو يفهم أن العدل انما هو اقامة الشريعة والرفق بالرعية ، مما جعـــله يقف موقف

الناقد لمستحدثات الأمور ، وخاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية • وقد تأثر بالصداقة والصحبة : فهو يعلن ميوله الشخصية وايثاره هذا على ذاك ، ولهذا كان لوالده وأصدقاء والده وأشياخه نصيب وافر من تاريخه • وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتيح له ، وبرع فى تصوير الشخصية وابراز خلق المترجم لهم براعة فائقة ، على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمراء ، ومن كل رفيع ووضيع ـ حتى أنه ترجم لخدمة النعال فى المســاجد والمجذوبين ، بل لمن لم يعرف لهم ترجمة • ولعــله انفرد بين المؤرخين بالتوسع فى وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاتها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازه • وقد أسهب فى ذكر الشعراء ، يستشهد بالكثير من شعرهم ، وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ، ولكنه لا يشعر بتضلعه فى الأدب والشعر ، ثم انه صوفى لابد أن يهتم بمشايخ الصوفية ويشرح معمياتهم وألغازهم • وهو أيضا من الملمين بعلم الفلك ، يحب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الأحداث على ضوئها فى بعض الأحيان ـ ولعل تضلعه فى العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل فى النقود وسكها ، ويعنى عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها •

والجبرتى فى الجزءين الأول والثانى من « عجائب الآثار » ينقل عن غيره من المؤرخين : كالاسحاقى ، والدمرداشى ، وأحمد شلبى عبد الغنى ، ولهــذا فان قيمة مؤلفه فى هذين الجزءين ـ باستثناء ما عاصره ودونه فى النصــف الثانى من الجزء الثانى ـ لا يعتد بها كثيرا من الناحية العلمية بسبب نقله من عدة مصادر دون تمحيص • وفى بداية الجزء الأول نجده متحفظا الى أقصى حد فيما يتعلق بمصادر الفترات الأولى من الحكم العثمانى لمصر ـ ولهذا فليس ثمة دليل على اشارته الى ابن اياس والقرمانى وابن زنبل باعتبارهم ثقات عن الفتح العثمانى ـ اذ أن وصفه لهذه الحادثة من القصر بحيث لا يمكننا التحقق من مصادره • ومع ذلك فانه أسهب فى وصف تعادى الفرق العثمانية وتنافس الأمراء المماليك على الحكم ووسائلهم ومصارعهم • والصــفحات القاتمة التى خصصها لحكم ابراهيم ومراد فى الجزء الثانى من تاريخه لا تترك مجالا للشك فى أنه كان يكن لهذا العهد مقتا شديدا مرده ألوان المظالم التى أنزلها الحكام بالمحكومين وفساد طوية الرعية • وهو لهذا يعتبر الحملة الفرنسية عقابا الهيا لأهل مصر ، مستشهدا بقوله تعالى : « وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » •

وهو يبدأ الجزء الثالث بالكلام عن عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) ـ عام نزول الفرنسيين أرض مصر • ويرتبط أثر الحملة الفرنسية فى تفكير الجبرتى بما أثارته فى آفاق المصريين بوجه عام : فقد كانت بالنسبة اليهم بمثابة تحد ضخم لهم ولمقوماتهم ، فقد أوجدت أمامهم نمطا حضاريا متفوقا نظروا اليه بعين الشك لمخالفته لمألوفهم ، ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا مدافعة أثره فى بعضهم •

ويستفبح الجبرتي ماشاعت له ميوله وتقاليده مستحدثات الفرنسيين : كانفلات بعض الرجال والنساء ، وتحللهم من المثل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى ، خاصة وقد أبيح البغاء العلني ، وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال ، وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على الأوضاع الموروثة ، وارتدت ما كان محرما عليها من ملابس ، وامتطت الخيول وتحدت العرف الاسلامى بالأكل والشرب علنا فى رمضان ، وتعاطى المسكرات . وتداخل الفرنسيون فى صميم حياة الناس فنبهوا عليهم بالامتناع عن دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن ، وبنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام ، وتبخير البيوت خوفا من الطاعون . وهدموا المساطب والبوابات جريا وراء تحصين القاهرة ، واشتدوا فى الارهاب والتنكيل ، خاصة كلما نشبت ثورة أو اضطراب . هذا الى اتضاح مخالفتهم للمصريين فى الدين ، برغم ما ادعاه نابليون من أنه مسلم ، جريا وراء سياسة استمالة المصريين باصدار المنشورات باللغة العربية وتقربه من علماء الأزهر . ويسجل الجبرتى فى كتابه « مظهر التقديس » أن رجال الحملة الفرنسية « خالفوا النصارى المسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين ، فتراهم دهرية معطلين وللمعاد والحشر منكرون وللنبوة والرسالة جاحدون ويقولون بقدم العالم وتأثير العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية .. وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل وما تستحسنه النفوس بحسب الشهوات » .

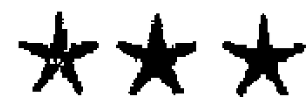
ورغم أن الجبرتى شارك معاصريه من المصريين شعورهم ازاء الحملة الفرنسية ، فان ذلك لم يجعله يغض الطرف عن بعض المنجزات التى قاموا بها . فهو يشيد بحب الفرنسيين للعلم ، ويسجل أنهم أفردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين ـ حارة الناصرية ـ وأنهم جعلوا بيت حسن كاشف جركس مكتبة رحبوا بزوارها : « حتى أسافلهم من العسكر اذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعون من الدخول الى أعز أماكنهم ويلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له كل مودتهم ومحبتهم ـ ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء » . وقد أعجبه من الفرنسيين تطلعهم الزائد للعلوم . « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » . كما أعجب بأسلوبهم فى العمل ـ فقد نوه بأنهم « كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة » : كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلا من النقل اليدوى البحث فى الغلقان والقصاع وغير ذلك .

ومن الأمثلة التي يسوقها الجبرتي لتوخي الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من اعدام بعض جنودهم الذين قاموا بأعمال السطو ـ فقد « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم من المتسلقين على الدور » • ومنها أيضا ما ذكره وهو نص بيان الديوان الذي أشار الى عقاب بونابرت للخارجين على القانون ولو كانوا من جنسه أو ملته : « وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم من مقامهم العالي الى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس خصوصا مع النساء والأرامل ، فان ذلك قبيح عندهم لا يفعله الا كل خسيس » • وقد استفاض في وصف محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر ، وأعجب بطريقة الفرنسيين في المحاكمة التي أحيطت بكافة ضمانات العدالة ، واكتشف أن الاجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها ، كما أورد تقرير الطبيب الشرعي والجراح عن اصابة كليبر وسبب وفاته وشهادة الشهود ، وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات في محضر التحقيق ، وأشاد بعلنية المحاكمة •

أما حكم الجبرتي على ما شهده من عصر محمد على فقد استند الى أساس أخلاقي ، ومن منطلق كونه ينتمي الى الفئات التي مستها الاجراءات الصارمة التي اتخذها محمد على للقضاء على الفئات التي كانت تشكل ركائز لتشتيت السلطة وتضعف الحكومة المركزية : كالملتزمين وكبار حائزي الأراضي وأثرياء المشايخ والمماليك • ولهذا فهو يتهم محمد على بوجه عام بأنه اعتدى على « مساتير الناس وأغلق البيوت المفتوحة لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم » ـ فمحمد على ليس له من هم ـ لدى الجبرتي ـ سوى « صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب اليه من يريد قربه الا بمساعدته على مراءاته ومقاصده ، ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع حقد عليه ، وربما أقصاه وعاداه معاداة من لا يصفو أبدا • وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته فلم يمكنهم الا الموافقة والمساعدة في مشروعاته اما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم واما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة » • لهذا نجد الجبرتي يشمت في المصير الذي آل اليه عمر مكرم ، فقد اعتبره عقابا سماويا للسيد عمر الذي لعب دورا رئيسيا في تولية محمد على ، ومن ثم فهو ـ في رأى الجبرتي ـ قد ساعد على تولية « ظالم » فاستحق بذلك العقاب •

وفي كل ذلك لا يرتفع الجبرتي الى مستوى ادراك أن محمد على حاكم مستبد مستنير يسعى جهده لتوفير المال اللازم لبناء الدولة الحديثة واقامة المشروعات العامة التي كانت البلاد في أمس الحاجة اليها • ورغم ذلك فلم يكن

الجبرتى بالناقد المتحامل على طول الخط ـ فهو برغم تسجيله للظلم الذى حاق بالفلاحين أثناء حفر ترعة المحمودية الذى ذهب ضحيته الكثيرون الذين دفنوا احياء أو أمواتا ، فانه لا يتردد فى الاشادة ببعض الأعمال الجليلة التى قام بها محمد على ، فمن ذلك ـ مثلا ـ أن الباشا كان يشجع أبناء مصر ويفتح أمامهم أبواب التعليم اذا ما لاحت منهم بادرة تشجيع للوالى : « واتفق أن شخصا من أبناء البلد يسمى حسين جلبى عجوة ابتكر بفكره صورة دائرة وهى التى يدقون بها الأرز وعمـل لها مثالا من الصفيح تدور بأسهل طريقة بحيث أن الآلة المعتادة اذا كانت تدور بأربعة أثوار فيدير هذه ثوران • وقدم ذلك المثال الى الباشا فأعجبه وأنعم عليه بدراهم وأمره بالمسير الى دمياط ويبنى بها دائرة ويهندسها برأيه ومعرفته ، وأعطاه مرسوما بما يحتاجه من الأخشاب والحديد والمصرف ، ففعل وصح قوله ثم فعل أخرى برشيد وراج أمره بسبب ذلك • ومنها أن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين جلبى هذا قال ان فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب بحوش السراية ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا •• وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الانكليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمســـاحة ، ورتب لهم شهريات وكساوى فى السنة ، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب وسموه مهندس خانه فى كل يوم من الصباح الى بعد الظهيرة ثم ينزلون فى بعض الأيام الى الخلاء لتعلم مساحات الأراضى وقياساتها بالأقصاب ، وهو الغرض المقصود للباشا » • كما يشيد الجبرتى باعادة محمد على للسد الموصل الى الاسكندرية ، وكان قد تخرب وزحف منه ماء البحر وأتلف أراضى كثيرة وخربت منه قرى ومزارع ـ ووصف محمد على بأن له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان » وان يكن قد تحفظ بقوله : « فلو وفقه الله لشىء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » • وحين بنى محمد على حائطين فى رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطفى الرمال وقت ضعف النيل بحيث تعطب المراكب وتتلف أموال المسافرين ، أكبره الجبرتى ووصف ما قام به بأنه « من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق لمثلها » •



وقبل أن ننهى تقويمنا لتاريخ عبد الرحمن الجبرتى ، لابد لنا من تأكيد الحقيقة الخاصة بانتمائه الى المؤرخين الاسلاميين التقليـــديين الذين ألفوا على طريقة الحوليات وأتقنوا فن التراجم ، وأنه لم يلحق النهضة الفكرية التى شهدتها مصر فى القرن التاسع عشر ، وأسهم فيها شيخ أزهرى من معاصرى الجبرتى هو حسن العطار الذى احتك بالفرنسيين وآمن بأن مصر لابد لها أن تتغير ، وأن لابد من الأخذ بعلوم أوروبا • وهكذا فان كان الجبرتى يمثل الماضى فان العطار يمثل تطلعات المستقبل الذى بنى على الانفتاح والأخذ بالعلوم العصرية

ولو كانت مستقاة من الغرب المسيحى • ويتضح انتماء الجبرتى للماضى من تفسيره للأحداث فى اطار الغيبيات الدينية ـ فهو فى تفسيره لدخول الفرنسيين لمصر وعدم جدوى مقاومة المماليك والمصريين لهم يعلق على ذلك بكونه « أمرا مقضيا محتما لا يرد بالدعاء » • وهو يعلق على الحملة الفرنسية بأنها بلاء يمتحن به الله المصريين ويعاقبهم بها على سوء فعالهم وظلمهم لبعضهم البعض ، ويعقب على ذلك بالآية الكريمة : « وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » • وهو كذلك يفسر خروج الفرنسيين من مصر على أيدى الانجليز والأتراك تفسيرا غيبيا ويقول فى ذلك : « واذا تأمل العاقل فى هذه القضية يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامة لدين الاسلام حيث سخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم ـ وذلك مصداق الحديث الشريف وقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » • وليس هذا بغريب على مسلم ينتمى الى ذلك التراث الدينى الضخم الذى فسر الكثيرون أحداث العالم ـ طبقا له ـ على أنها ليست سوى تكشيف للارادة الالهية ، ومن ثم فان من أهم فوائد التاريخ لديهم ، العبرة بما جرى للغابرين والتنصح بأحوالهم « وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ويستجلب خيار أقوالهم ويجتنب سوء أقوالهم ويزهد فى الفانى ويجتهد فى طلب الباقى » •• « ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى اذا لحقه مصاب ويتذكر بحوادث الدهر » •

وبالاضافة الى ذلك فان التاريخ الذى خلفه لنا الجبرتى يوضح الصعوبات التى قد يتعرض لها المؤرخ المعاصر للأحداث : فهو فى ابدائه لآرائه فى الأحداث والأشخاص لابد له أن يتأثر بميوله واتجاهاته ـ فيحبذ ما يحبذ وينتقد مايراه موضعا للنقد ، وبالتالى فان عليه أن يواجه بعض المتاعب ـ ومن ذلك أن انتشار الأجزاء الثلاثة الأولى من « عجائب الآثار » فى أيامه قد أدى الى عداء بعض المشايخ له بوجه خاص ، وذلك لما احتوى عليه تاريخه من نقد مر لبعض الناس • كما أن الكثيرين يربطون بين نقده لحكم محمد على ومقتل ابنه خليل • وهذا هو مصدر تحرز المؤرخ المستقل عن تناول الأحداث المعاصرة الا أن تنكشف له تفاصيل ما يؤرخ له ، أو تتاح له الكتابة فى مجتمع يقدر حرية الرأى ويحيط صاحبها بالضمانات الكافية ، كما هو الحال بالنسبة الى المجتمعات التى تزدهر فيها الكتابة التاريخية الجادة دون أن يوجه التاريخ توجيها مبتسرا لخدمة فرد ما أو قضية ما من جانب واحد • ولعل الجبرتى قد تعرض فى حياته لما قد يتعرض له الكاتب أو الصحفى المستقل فى بعض المجتمعات الدكتاتورية أو الشمولية • ورغم ذلك فانه أوتى الشجاعة الكافية لمواصلة عمله حتى قبيل وفاته •

وهناك صعوبة أخرى واجهها الجبرتى ، هى أنه عاش فى فترة قلقة من

تاريخ مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى العشرينات من القرن التاسع عشر • هذه الفترة كانت تحمل نذر المستقبل ، من حيث تسابق انجلترا وفرنسا على السيطرة على مصر وبدء زحف المؤثرات الغربية على البلاد سواء في عهد الحملة الفرنسية او في ظل حكم محمد على • وما كان لمثل الجبرتي ذى العقلية التقليدية أن يرحب بزعزعة الأوضاع القائمة التى ألفها الناس بحلوها ومرها وتكيفوا لها ، حتى اذا ما ضاقت بهم الحال رجعوا القهقرى الى فترة صدر الاسلام يستلهمونها الوحى والالهام ويجعلون منها مثلا أعلى • ولم يدرك الجبرتى وأغلب معاصريه أن الحملة الفرنسية قد جاءت مؤذنة بانكسار جدار العزلة التى فرضت على البلاد منذ الكشوف الجغرافية والفتح العثمانى ، وأن المؤثرات الغربية التى تدفقت على مصر فى عهد محمد على وخلفائه قد اصطدمت بالاطار العقائدى الموروث وفككته . بحيث ان النظام العقائدى ذى الوجهة الدينية والمجتمع المصرى كانا يواجهان الحاجة الى اعادة تشكيلهما بحيث يوجهان وجهة انسانية • وهكذا نجد الجبرتى برما بحكم محمد على ، ضيق الصدر دائب الحسرة على الأوضاع القديمة ومستنكرا تقريب الحاكم لنصارى الأروام والأرمن « فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات وأخذوا بيوت الأعيان التى بمصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجنائن وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة » • لم يدرك الجبرتى أن الدولة العلمانية الحديثة التى وضع أساسها محمد على لا تفرق بين مواطن وآخر الا بمقدار ما يقدمه لها من خدمات دون اعتبار لدين أو طبقة أو جنس أو لون • وليس الجبرتى فى ذلك بالظاهرة الفريدة ، فهناك من المؤرخين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر من شنعوا على عهد الثورة الفرنسية ونابليون ، ومجدوا كثيرا من أوضاع العهد الملكى القديم القائم على الاستبداد والطبقية ، بعد أن ضاقوا بأساليب الديموقراطية الحديثة التى رأوها تهز كيان المجتمع الفرنسى هذا وتزعزع أركانه وتؤثر فى مكانة فرنسا بالنسبة الى أوروبا الغربية •

ورغم ذلك كله تبقى مكانة مؤرخنا الكبير راسخة كالطود — فهو لصدقه ودقة تعبيره قد خلف لنا صورة فريدة لأحوال مصر فى أيامه ، بحيث لا يستغنى عن تاريخه كل من يتصدى للكتابة عن ناحية أو أخرى من تاريخ مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر •

المصادر

أولا : العربية

ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتى ـ مجلة تراث الانسانية ـ المجلد الرابع (٧) (القاهرة ٥ يوليو ١٩٦٦) .

ـ أحمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية (١١٥٤ ـ ١١٧٠ هـ / ١٧٤١ ـ ١٧٦٢ م) ـ جمعها ونقحها الشيخ أحمد البديرى الحلاق ونقحها الشيخ محمد سعيد القاسمى (القاهرة ١٩٥٩) .

ـ جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٨) .

ـ خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ـ سلسلة اقرأ : رقم ٧٠ (القاهرة ١٩٤٩) .

ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ ٤ أجزاء (طبعة بولاق) .

ـ عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ـ نشر وزارة التربية والتعليم المصرية (القاهرة ١٩٦١)

ـ لويس عوض : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث (القاهرة ١٩٦٣) .

ـ محمد أحمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر الثمانى (القاهرة ١٩٦٢) .

ـ حقائق عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية ـ المجلدان التاسع والعاشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٢) .

ثانيا : الافرنجية

Ayalon, David, The Historian al-Jabarti, in: Historians of the Middle East, edited by: B. Lewis and P.M. Holt, London, 1962.

Holt, P.M., Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt, (B.S.O.A.S.), XXV, Part I, London, 1962.

Moreh, S., Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problems (B.S.O.A.S.), XXVIII, Part 3, London, 1965.

عبد الرحمن الجبرتي ..
سيرة وتقييم

للدكتور جمال زكريا قاسم

استاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

هذه محاولة لوضع سيرة وتقييم لمؤرخ المصرى الشـــيخ عبد الرحمن الجبرتى على ضوء موقفه من بعض الأحداث التى عاصرها • ولست أشك فى أن الدراسات التى ستنشر عن عبد الرحمن الجبرتى وعصره ـ وهو موضوع هذه الندوة ـ ستلقى مزيدا من الأضواء على هذا المؤرخ •

وأول ما يمكن ملاحظته هو أن الجبرتى يمثل الحلقــة الأخيرة فى كتابة التاريخ بالطريقة التى درج عليها المؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى ، مع الأخذ فى الاعتبار حالة الركود والجمود الثقافى الذى عانت منه مصر فى العصر العثمانى وانعكاساته على كتابات الجبرتى • وعلى الرغم من أن مؤرخنا عاش حتى أدرك الربع الأول من القرن التاسع عشر الا أنه كان متأثرا بمصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولذلك لا يمكن أن نعده كما يقرر أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أول تلاميذ مدرسة القرن التاســـع عشر ، لأن مصر القرن التاسع عشر شىء آخر لم يعرفه الجبرتى ، وان عرفه لم يفهمه (١) •

ولعل ما يضفى أهمية كبيرة على كتابات الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أنها تكاد تكون المصدر المحلى الوحيد الذى كتب عن تاريخ مصر فى القرنين السابع عشـر والثامن عشـر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر بدقة وشمول لا نظير لهما ، اذ أننا لا نكاد نجد الى جانبها من المصادر التاريخية المعاصرة لها ما يرتفع الى قيمتها ، ومن هنا تبرز مكانة الجبرتى كأول مؤرخ مصرى يظهر بعد ابن اياس ، بعد أن خلت مصر ـ أو كادت تخلو ـ من المؤرخين الكبار ما يقرب من ثلاثة قرون (٢) •

(١) أنظر مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتـاب التـاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر للدكتور جمال الدين الشيال •

(٢) دكتور جمال الدين الشيال ـ التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر، ص٩

انحدر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي من سلالة اشتهر كثير من أفرادها بالعلم ، كما نشأ في بيئة علمية ألقى أضواء ساطعة عليها عند ترجمته لوالده الشيخ حسن الجبرتي وفي مواضع متفرقة من تراجمه لشيوخ عصره . على أنه مما يستلفت النظر أن الجبرتي لا يكاد يذكر شيئا عن حياته ، الامر الذي يجعل الكتابة عن سيرته عسيرا ، على أنه يمكن الاشارة بصدد ذلك الى المحاولة التي قام بها الأستاذ خليل شيبوب في وضع سيرة للشيخ عبد الحمن الجبرتي (١) بالاضافة الى محاولات بعض الباحثين القاء الضوء على جوانب من حياته . ولعل أبرز هذه المحاولات التي قام بها الأستاذ محمد أنيس وتمكن بها من الوصول الى تحقيق تقريبي لتاريخ وفاة الجبرتي بين ٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ و ١٤ مايو ١٨٢٥ (أول ربيع ثاني - ٢٧ رمضان ١٢٤٩ هـ) وذلك بعد البحث في وثائق المحكمة الشرعية حول أملاك وأوقاف الجبرتي . وتمكن استنادا على ذلك من نفي ما قد أشيع أو ما رددته بعض المصادر عن مقتل عبد الرحمن الجبرتي في عام ١٨٢٢ . خاصة وأن الرحالة الايطالي بروشي Broochi ذكر أنه زار الجبرتي في أواخر عام ١٨٢٢ ، كما أشار الرحالة ادوارد لين Lane أن الجبرتي توفي بين عامي ١٨٢٥ - ١٨٢٦ (٢) .

وعلى الرغم من نسبة الشيخ عبد الرحمن الى « جبرت » الا أن ارتباط اسمه بهذا الاقليم لا يتعدى أكثر من كونه الموطن الأصلي لأجداده القدامى . وعلى أية حال فقد رحل جده الأعلى من جبرت من اقليم زيلع بأرض الحبشة في القرن العاشر الهجري (القرن ١٦ الميلادي) وهي بلاد قدمت كثيرا من العلماء المسلمين : كفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي المتوفى ١٣٤٢ م (٣) والمحدث الكبير جمال الدين بن عبد الله بن يوسف الزيلعي المتوفى ١٣٦١م . وكان والد الجبرتي الشيخ حسن ، من أبرز شيوخ عصره ، وكما يؤكد الجبرتي في ترجمته له أن جماعة من الافرنج وفدوا اليه وأخذوا عنه علم الهندسة (٤) .

أما عن عبد الرحمن الجبرتي ، فالثابت أنه ولد في سنة ١٧٥٤ م من احدى السراري ، وتلقى تعليمه الأول في بعض الكتاتيب التي كانت منتشرة في حي الأزهر ، ثم انتقل بعد ذلك الى مدرسة السنانية بالصنادقية ، ولم يكن قد تعدى العاشرة من عمره حين التحق برواق الشوام ، وتلقن مذهب الحنفية على يد صديق أبيه الشيخ عبد الرحمن العريشي ، وحفظ القرآن ولم يتعد الحادية عشرة من عمره .

---

(١) خليل شيبوب - عبد الرحمن الجبرتي - العدد (٧٠) من سلسلة اقرأ دار المعارف مصر ١٩٤٨ .

(٢) دكتور محمد انيس ، حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية ، المجلدان التاسع والعاشر من المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٢ .

(٣) يوسف أحمد ، الاسلام في الحبشة ؛ ص ٦٨ . القاهرة ١٩٣٨ .

(٤) خليل شيبوب ، عبد الرحمن الجبرتي ، ص ١٧ .

ولا شك فى أن البيئة العلمية التى نشأ فيها الجبرتى كانت عونا له على أن يأخذ عن أبيه العلوم الرياضية والفلكية ، فضلا عما أتيح له من التتلمذ على كثير من الشيوح الذين التقى بهم فى بيت والده ، وكان من أشهرهم : الشيخ محمد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، وعبد ربه العزيزى ، وغيرهما كثيرون • كما لم يثنه عن الدراسة والتدريس فى حلقات الأزهر ما آل اليه من الأوقاف والأموال الكثيرة التى انتقلت اليه بعد وفاة أبيه ، هذا فضلا عما ورثه عنه من مكتبة زاخرة وأدوات فلكية وحسابية •

على أن الحادث البارز فى اهتمام الجبرتى بالتراجم والأخبار بدأ حين طلب منه الزبيدى أن يعاونه فى الترجمة لأعلام المائة عام المنصرمة ، من مصريين وحجازيين ، خاصة وأن الزبيدى لم تتأصل اقامته فى مصر ، وكان فى حاجة بالفعل الى من يتولى عنه التراجم لأعلام مصر ، ويرجح أن ذلك كان فى عام ١٧٨٦ م • ويبدو أن عبد الرحمن الجبرتى وجد فيما طلبه الزبيدى منه تشريفا له فبدأ يدون تراجمه لمشايخ الأزهر وشيوخ الأروقة وأرباب الحلقات ، وكان بينهم من عرفهم أو سمع عنهم • وبالاضافة الى تراجمه للشيوخ ، دون أسماء أمراء الأوجاقات ، والسناجق ، ومشايخ البلد ، واعتمد فى ذلك على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى كان من عدول المحكمة الشرعية ، كما تردد على القرافات يقرأ المنقوش على جدرانها للتحقق من تاريخ وفاة أصحابها ، فضلا عن اتصاله بأقرباء الموتى ليطلع على ما قد يكون لديهم من أوراق ، وأخذ كثيرا من المعلومات من أفواه المعمرين •

وكان الجبرتى يطلع الزبيدى أولا بأول على مدوناته ، على أنه فى عام ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م) مات الزبيدى بمرض الطاعون الذى اجتاح مصر فى ذلك العام ، وأفرد له الجبرتى وصفا طريفا رغم بشاعته • ويبدو أن وفاة الزبيدى كادت تصرفه عن مواصلة عمله ، ولكن لم تلبث أن وصلته رسالة من مفتى دمشق السيد محمد خليل المرادى يطلب منه أن يرسل اليه ما جمعه الزبيدى وما جمعه هو من تراجم ، وهكذا أدرك الجبرتى أن ما طلبه الزبيدى كان نزولا على رغبة المرادى • وعلى الرغم من أن ما جمعه الجبرتى كاد يضيع بوفاة الزبيدى الا أنه استطاع أن يسترد أوراقه حينما دخل فى شراء تركة الزبيدى ، واختص أوراقه بنصيب منها ، ولعل ذلك ما حفزه الى مواصلة الكتابة تنفيذا لرغبة المرادى ، ولكن المرادى لم يلبث أن توفى فى العام التالى ١٢٠٦ هـ ـ ١٧٩١م ، مما أثر تأثيرا كبيرا على الجبرتى حتى انه طرح أوراقه كما يقول فى زوايا النسيان ، ويستمر على ذلك عدة سنوات حتى جاءت الحملة الفرنسية الى مصر ، وهنا ينتقل الجبرتى الى مرحلة هامة هى مرحلة تسجيل الأخبار ، أو على الأقل يوجه اليها عناية أكبر ، حتى انه أخذ يسجل يومياته أولا بأول ، وليس أدل على ذلك من أنه ما كادت الحملة الفرنسية تخرج من مصر حتى بادر بتقديم كتاب مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس الى الوزير يوسف باشا • وقد عاونه فى وضع هذا الكتاب صديقه الشيخ حسن العطار • ويبدو أنه حاز

اهتمام السلطان سليم الثالث الذى أمر بترجمته الى اللغة التركية ١٨٠٧ م ٠ ثم تأتي مرحلة أخرى في حياة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى وهى تولية محمد على فى ١٨٠٥ ورأى معها أن يجمع تراجمه وأخباره وينشرها بين الناس ٠ ويبدو أن السبب الذى دفعه الى ذلك النجاح الذى صادفه كتاب مظهر التقديس ، حيث بدأ منذ ذلك العام وضع كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار واستهله بالمامة سريعة عن تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ثم تبدأ كتابته من الناحية الأساسية فى عام ١١٠٠ هـ ويصل في المرحلة الثانية من كتابه الى عام ١٢١٢هـ ثم يبدأ المرحلة الثالثة بعام ١٢١٣ هـ ويسجل تاريخه للحملة الفرنسية ٠ والملاحظ أنه اكتفى فى هذه المرحلة باثبات كتاب مظهر التقديس بعد أن حذف مقدمته والأجزاء التى كتبها الشيخ حسن العطار وأضاف بعض الحوادث وامتد الى عام ١٢٢٠ هـ ، أى أنه تعرض فى هذه المرحلة للسنوات الأربع التى تلت رحيل الحملة الفرنسية عن مصر ، أما عن المرحلة الأخيرة من كتاباته فيبدأها من عام ١٢٢١ هـ وينتهى بها الى عام ١٢٣٦ هـ أى أنه تعرض للسنوات الأولى من حكم محمد على ٠ وقد حمل فيها حملة عنيفة عليه وعلى الشـيوخ الذين مكنوا له ٠

وللجبرتى غير التراجم والأخبار كتب أخرى هي : مختصر تذكرة داود الأنطاكي فى الطب ، وكتاب عن ألف ليلة وليلة ، الى جانب نبذة عن تاريخ مدة الفرنسيس فى مصر ٠

ومما لا شك فيه أن ما كتبه عرفه الناس وتداولته الأيدى مما سبب عداء بعض المشايخ له ، والأهم من ذلك ما أقدم عليه محمد على الدفتردار صـهر محمد على من الانتقام من الجبرتي بقتل ابنه خليل الذى كان يعمـل ميقاتيا للصلاة فى قصر محمد على ، ويقال انه فعل ذلك بعد أن استأذن محمد على (١) ٠ ووقعت هذه الحادثة فى عام ١٨٢٢ وكان الجبرتى يقوم فى ذلك الوقت بتسجيل أخبار الثورة اليونانية ، ولكن ماكاد يأتيه خبر وفاة ابنه حتى كف عن الكتابة وأهمل مراجعة ما كتب ، ولذلك يفتقر الجزء الرابع من كتابه الى التماسك والتفصيلات التى نلحظها فى الجزء الثالث ٠ ولم يلبث أن كف بصره ومات فى عام ١٨٢٥ على الأرجح ٠ وبقى تاريخه غير متداول فى مصر الى عهد الخديوى توفيق حيث طبع الجزءان الثالث والرابع ، كما طبع الجزءان الأول والثانى فى عهد عباس حلمى الثانى ، كذلك ظهرت ترجمة فرنسية فى تسعة مجلدات بين عامى ١٨٨٨ ، ١٨٩٦ ، كما ترجم كتاب مظهر التقديس الى اللغـة الفرنسية ٠ ولاتزال كتابات الجبرتى تلاقى اهتماما من الباحثين والمستشرقين ، اذ ترجمت بعض أجزاء من الجزءين الثالث والرابع من كتابه عجائب الآثار الى

---

(١) محمود الشرقاوى ـ مصر فى القرن الثامن عشر جـ ١ ص ١٦ ، القاهرة ١٩٥٥ ٠

اللغة الروسيه ، تناولت فترة الحملة الفرنسية على مصر والسنوات الأولى من حكم محمد على حتى عام ١٨٢١ (١) .

وليس من شك في ان ظهور الجبرتي كمؤرخ يعـــد ظاهرة فريده فى نوعها . وخاصة ان الفترة التى عاش فيها كانت فترة مليئة بالأحداث ، وكان له من وضعه الاجتماعى وثقافته واتصالاته الشخصية أكبر معين لتســجيل تاريخه ، خاصة فى السنوات التى عاشها . ومع ذلك فلم تكن مهمة الجبرتى بالمهمة اليسيرة فكما يقول هو : انه افتقد المصادر التاريخية التى تعينه على الكتابة بسبب تسربها او دشـــتها فى بعض المكتبات ، كما أن كثرة الفتن والصراع بين المماليك بعضهم بعضا أو بينهم وبين العثمانيين . أدت الى ضياع الكثير منها ، فضلا عن أن الفرنسيين أخذوا ما وجدوه منها الى بلادهم . ويؤكد أنه لم يجد ما يستعين به فى كتاباته سوى بعض أجزاء مدشتة من التواريخ ، وأن بعضها كما يقول صار أسماء من غير مسميات (٢) ولا يتضح مما كتبه الجبرتى أنه استعان بالمصادر المعاصرة للفتح العثمانى مثل : ابن اياس وابن زنبل الرمال ، اذ أن تدوينه لهذه الفترة الأولى من العصر العثمـــانى من الايجاز الشديد بحيث لا تجعل فى مقدورنا التكهن بالمصادر التى أخذ عنها ، وخاصة أنه لا يشير اليها (٣) ، وان كان قد أشار الى كتاب أحمد جلبى بن عبد الغنى الذى أرخ فيه لمصر من الفتح العثمانى حتى عام ١١٥٠ هـ (٤) .

ولم تكن الصعوبة فى قلة المصادر التى رجع اليها وانما فى أن كتابة التاريخ لم يكن لها احترامها لدى الخاصـــة فى عصره ، اذ اعتبرت الكتابات التاريخية « من أساطير الأولين ومن أفعـــال الدجالين ... ولم تزل الأمم الماضية ... تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا بعد خلف الى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شـــغل البطالين وقالوا أساطير الأولين .. » (٥) . ولعل ما جعل الجبرتى يبدأ كتابه بوضع تمهيد يتحدث فيه عن التاريخ وفائدته واعتباره فنا تندرج فيه علوم كثيرة ، لولاه ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها (٦) .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ عجـائب الآثار فى التراجم والاخبـار لعبـد الرحمن الجبرتى ، مجلة تراث الانسانية ، ص ٥٥٧ ، يوليه ١٦٦٦ .

(٢) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ١ ص ٤ .

ومن المؤرخين الذين أشار اليهم الجبرتى : الطبرى ـ ابن الأثير ـ ابن الجوزى ـ ابن خلكان ـ السيوطى ـ المقريزى ـ ابن خلدون ، وغيرهم .

(٣) Holt, P.M. : Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London 1962, pp. 38-39.

(٤) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ١ ص ٤ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه ص ٥ .

وشأن الجبرتى شأن غيره من المؤرخين المسلمين ، يبدأ تاريخه فى فترات بعيدة ، ولكن أهميته تبرز عندما يأتى الى العصر الذى يعيش فيه فيبدأ تفصيله للأحداث ، وهنا تظهر أصالته ٠ وان كان الجبرتى يتميز مع ذلك على غيره من المؤرخين المسلمين بعدم اسهابه فى تاريخه للعصـور السابقة ٠ ولعل الجبرتى كان آخر من كتب الحوليات فى مصر بمنحاها التقليدى ، كما أن الطابع العام لكتاباته هو سرد الأحداث وتفصيلها حتى انها تبدو غير مترابطة يعـوزها التوحيد والتأليف بين جزيئاتها ، كما يصادف القارىء كثيرا من التكرار الذى وقع فيه الجبرتى ، مما يدل على أنه كان يسترسل فى كتاباته استرسالا دون أن يعنى بمراجعتها أو التركيز عليها ٠ وليس فى اعتقادنا أن فيمـا تميز به من استرسال وسرد للأحداث ما يقلل أو ينقص من أهميته ، اذ أنه استطاع بفضل ذلك أن يقدم صورة كاملة للمجتمع المصرى خـلال العصر العثمانى . كما نجح فى ابراز الشخصية المصرية ٠ وكثيرا ما عمد الى استخدام الأمثال الشعبية التى لا يزال الكثير منها متداولا حتى وقتنا الحاضر ، كما أنه اتبع فى كتاباته منهجا يقرظه كثير من الباحثين ، فمثلا : لا يكتب حادثة حتى يتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار ، ثم أنه من سعة رزقه لم يكن يهتم أن تكون كتاباته وسيلة لعيشه ، وانما كتب تراجمه وأخباره من باب الهواية الخاصة ٠ والجبرتى دخل التاريخ من باب التراجم ، وربما تتضح التراجم أكثر بروزا فى الجزئين الأول والثانى ، بينما تبدو عنايته أكثر فى الجزئين الثالث والرابع بتسجيل الوقائع والأحداث ، ومع ذلك فان بداية اهتمامه بالتراجم جعل لها أولوية على الأخبار ، ولعـل ذلك يتضح من تسمية كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٠ وعلى الرغم مما تميزت به تراجم الجبرتى بالتحليل والنقد الا أنه لم يسـتطع مع ذلك أن يرتقى بها الى تراجم المدرسـة الشامية بشموليتها (١) ٠

ويلخص الجبرتى المنهج الذى اتبعه فى تراجمه وتواريخه بقوله : « انى قد سودت أوراقا فى حوادث أواخر القرن الثانى عشر وما يليه وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية وأخرى محققة تفصيلية وغالبها محن أدركناها وامور شاهدناها واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ومن أفواه الشيخة تلقيتها وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعتبرين وذكر لمع من أخبارهم وأحـوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم (٢) ٠ ويفهم من ذلك أن الجبرتى كان يعتمد فى كتاباته على ما يمكن أن نسميه بالمصادر الحية اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير ، فقد سجل حوادث السنوات الأولى عن أبيه وعن أصدقائه وأساتذته من الشيوخ المعمرين ، كما

---

(١) الدكتور محمد أنيس ـ مدرسة التاريخ المصرى فى العهد العثمانى ص ٥٣ ، معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة .

(٢) الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ١ ص ٢ ٠

أنه لا يقتصر على ذلك بل يعتمد على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى كان من عدول المحكمة ثم عمل أمينا لمحفوظات بعض الدواوين التى أنشأها الفرنسيون فى مصر . حلت نجح عن طريقه فى الاطلاع على كثير من الحجج أو الوثائق ، هذا فضلا عما أشرنا اليه من اتصاله بأقرباء الموتى وتردده على القبور لقراءة ما نقش على حجارتها . ثم يعمد الى تسجيل ما يراه فى أوراق أو كما يسميها « طيارات » يخص كل واحدة منها بحادث معين . والأمر الذى لا شك فيه أن تسجيل الجبرتى للفترة التى عاشها تجعل من كتاباته مصدرا أساسيا ، خاصة وأنه ضمنها كثيرا من الوثائق الرسمية كمنشور بونابرت ومحاكمة سليمان الحلبى واللوائح والقوانين المختلفة التى كان يصدرها العثمانيون أو أمراء المماليك أو الفرنسيون ، وساعده على ذلك صلاته برجال الحكم فضلا عن عضويته للديوان الذى أنشأه مينو ، هذا على الرغم من أنه ابتعد عن محمد على بل وقف موقف المعارض له .

وقد أطنب كثير من المستشرقين فى التنويه بأهمية تاريخ الجبرتى باعتباره من أعظم مصادر تاريخ مصر فى القرنين الثانى والثالث عشر الهجريين ، أو اعتباره مكملا لتاريخ ابن اياس . كما أن ما يضفى أهمية على الجبرتى أنه لا يعنى بالتراجم أو الأحداث السياسية فحسب بل أن كتاباته تعد سجلا حافلا بألوان الحياة التى كان يعيشها المجتمع المصرى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، حتى ان قارىء الجبرتى يكاد يستنشق جو الحياة الاجتماعية الذى كان سائدا فى مصر وبصفة خاصة المجتمع القاهرى بطوائفه ومتصوفيه وأرباب حرفه ، فضلا عن اهتمام الجبرتى بالحالة الاقتصادية والأوبئة أو الطواعين والمجاعات التى اجتاحت البلاد ، الى جانب وصف القاهرة وعطفاتها ومساجدها وقصورها وقلاعها .

وفيما يبدو أن الصورة النابضة التى رسمها الجبرتى للمجتمع المصرى ساعدت على اعطاء انطباع دقيق عن حياة المجتمعات الشرقية بصفة عامة ، حتى ان الرحالة ادوارد لين يعترف بأنه أفاد كثيرا من كتابات الجبرتى ، وهو يعلق على الطبعة التى أخرجها من كتاب ألف ليلة وليلة .

وقد درج الكثيرون ممن تعرضوا لتاريخ الجبرتى على انتقاده بسبب ادخال توافه الأشياء بحيث قد يصعب على القارىء مثلا أن يستخلص الحقائق المجردة ، وعندنا أن كتابات الجبرتى ينبغى أن تؤخذ بكل ما فيها ، فهى تسجل مرحلة من مراحل تاريخ مصر بمختلف أبعادها السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية ، وحتى ما يشار اليه عادة بتوافه الأخبار (١) ، وما أكثرها فى كتابات الجبرتى ، يمكن فى تصورنا أن تلقى ضوءا ساطعا على طبيعة الحياة التى كانت

---

(1) Holt, P.M. : Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, 1962.

سائدة فى مصر ، بل لعلنا لا نتجاوز القول اذا ما أكدنا أن كتابات الجبرتى تكاد تطالع فيها جديدا كلما عاودت قراءتها وأمعنت النظر فيما تحتويه ·

وليس من شك فى أن تفكير الجبرتى انما هو نابع من بيئته الدينية المتصوفة ، كما أنه نابع من العصر الذى عاش فيه ، فهو متأثر الى حد كبير بالأوضاع العامة التى كانت تسود مجتمعه من تدهور شمل كافة مجالات الحياة السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية ، لذلك لا نعجب مثلا من بعض المواقف التى يتجه فيها الجبرتى الى النظرة السطحية أو الساذجة ، فضلا عما يجنح اليه فى بعض المواقف من التسليم بالغيبيات ، فهو لا يستبعد وجود الجن أو قدرة بعض البلهاء على الكشف عن ضمائر الناس وغير ذلك من الغيبيات والكرامات التى وصف الكثيرين بها ولم يستبعدها (١) ، هذا فضلا عما كان يجنح اليه فى كثير من الأحيان من الزهد فى الدنيا ، فالألفى مثلا لم يسكن فى قصره الذى بناه وغالى فى تأثيثه وزخرفته ، وأن محمد على حينما فرض الحجر الصحى على مصر لحمايتها من الطاعون انما كان من حبه للدنيا · وهو فى هذه المواقف انما يعكس طبيعة المجتمع الذى عاشه أكثر مما يعكس تفكيره الخاص ، فالجبرتى لم يكن بالشخص العادى وانما كان من الطبقة المستنيرة بحكم ثقافته التى جعلته أكثر تفهما لما يدور حوله واستعداده الدائم لنقد ما يراه مخالفا لتكوينه النفسى والثقافى ، وربما يتضح لنا ذلك فى انتقاده اللاذع لبعض شيوخ عصره ، فهو الى جانب تسجيله المواقف الجريئة والهيبة التى كان يتمتع بها كثير من العلماء وما كان يقوم به مشايخ الأزهر بدور كبير فى المجتمع ، الأمر الذى جعل منهم جهازا من أجهزة الحكم القائم ـ وذلك بالوساطة التى كانوا يقومون بها بين الرعية والحاكمين(٢) ـ الا أنه نعى عليهم امعانهم فى الاشتغال بأمور الدنيا مما حولهم الى سادة اقطاعيين كالأمراء المماليك سواء بسواء (٣) ، ولذلك اتجه الى امطارهم بالنقد واعتبارهم ظلمة يجمعون المال ويتاجرون بالفتوى ويرتكبون الأمور المخلة الى جانب بعض صفات المكر والخديعة وقسوة بعضهم على الفلاحين التى بلغت من الشدة أكثر مما فعله الأتراك والمماليك والفرنسيون ، كما رسم الجبرتى صورة هزلية لتكالبهم على ماديات الحياة (٤) ، وفيما يبدو أن انتقاده للعلماء كان استياءا منه لتمكينهم لمحمد على بسبب انقساماتهم ومنافساتهم التى أدت الى ضياع هيبتهم ، كما نعى توسمهم فى محمد على الخير والعدل · وربما أبدى الجبرتى شماتة واضحة حينما أقدم « محمد على » على التنكيل بالشيوخ الذين ساعدوا فى الوصول الى السلطة ، وهكذا أخذ عليهم انصرافهم عما وجب عليهم من النصح « وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل

---

(١) محمود الشرقاوى ـ مصر فى القرن الثامن عشر جـ ١ ص ٢١ القاهرة ١٩٥٥ ·

(٢) انظر ما سجله الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار جـ ٢ عن حوادث عام ١٢٠٩ هـ ·

(٣) صبحى وحيدة ـ فى أصول المسألة المصرية ص ١٢٥ ·

(٤) الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار جـ ٤ ص ٧٣ ·

ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الاقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان واجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج ٠٠ وانقلب الوضع فيهم بضـــده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض والمضاف ٠٠ الى غير ذلك مما يطول شرحه » (١) ٠

والجبرتى فضلا عن كونه مؤرخا اجتماعيا يمكن ان نعده مؤرخا سياسيا أيضا ، اذ نجح فى تسجيل أحداث مصر السياسية ٠ قد يكون حقيقة أنه لم يرتفع بتفكيره خارج حدود مصر أكثر من علاقاتها التقليدية بالدولة العثمانية ، وبمعنى آخر أنه لم يكن يدرك مجرى السياسة الخارجية وتأثيرها على بلاده ، وذلك نتيجة لحالة الانكماش التى تعرضت لها مصر وغيرها من البلاد العربية بالنسبة لعلاقاتها مع أوربا ، ومع ذلك فانك تلمس فى حديثه مثلا ، عن وصول الفرنسيين الى مصر ــ أنه يعكس شاء أو لم يشأ ــ قوى التجاذب والتنافر التى كانت تتنازع مصر فى علاقاتها بأوربا الحديثة (٢) ٠ وليس أبلغ من تصويره لحضور مركب من مراكب الانجليز الى ثغر الاسكندرية للتفتيش عن الفرنسيين ، ثم روح التحدى التى أبداها المصريون بأن هذه بلاد السلطان « ليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل » وترديد أمراء المماليك لهذه الروح المتحدية بقولهم اذا جاءت جميع الافرنج فلا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم (٣) ٠

ومع ذلك فان أحكام الجبرتى بحكم بيئته وطبيعة تكوينه كانت تجىء عادة وفقا لمفهومه الدينى ، فهو لم يفهم مثلا أن انسحاب الفرنسيين من مصر كان يرتبط بتغييرات حدثت فى السياسة الأوربية ، وانما جاء تعليقه على خروجهم بأن الله قد سلط عليهم من كان سببا فى التخلص منهم « اذا تأمل العاقل فى هذه القضية يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامة لدين الاسلام حيث ســخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم وذلك مصداق الحديث الشريف وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ٠ فسبحان القادر الفعال » (٤) ٠

عاش الجبرتى سبعين عاما تقريبا ولكنه قضى معظم سنى حياته فى النصف الثانى من القرن الثـــامن عشر وعلى الرغم من أنه أدرك القرن التاسع عشر وعاش الربع الأول منـــه الا أنه ظل متـــأثرا بالقرن الثـــامن عشر رغم معاصرته للتطورات السريعة التى نقلت مصر الى مطـــالع النهضـــة الحديثة ابتـــداء من مقـــدم الحمـــلة الفرنسية وأحداثها ، ثم خروجها والصراع والفوضى السياسية التى انتهت بتولية محمد على ، ثم العشرين سنة الأولى

---

(١) الجبرتى ــ عجائب الآثار جـ ٤ ص ص ٧٢ ــ ٧٣ ٠

(٢) البرت حورانى ــ الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ ــ ١٩٣٩ ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٦٨ ٠

(٣) الجبرتى ــ عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢ سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ٠

(٤) الجبرتى ــ عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٣٣ ٠

من حكمه وبداية تأسيس الدولة المصرية الحديثة ٠ وليس من شك فى أن معاصرة الجبرتى لعصور ثلاثة أضفى على تاريخه أهمية خاصة ٠ حقيقة أن الجبرتى ظل طوال حياته محافظا فى فكره وسلوكه الا أننا نكاد نلمح بعض التغييرات التى طرأت على أفكاره ، والأمر الذى لا شك فيه أن مجىء الفرنسيين الى مصر كان له أثر كبير فى تعرضه لبعض الاهتزازات الفكرية والنفسية ٠ حقيقة أنه يستهل سنة نزول الفرنسيين مصر فى عام ١٢١٣ هـ باعتبارها « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١) ٠ » الا أنه على الرغم من ذلك لم يستطع تفادى اعجابه بالفرنسيين كما يفهم من استشهاده بالآية القرآنية « وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ايمانه بالقصاص الالهى بسبب المساوىء الشديدة التى عاشتها مصر قبل مقدم الحملة الفرنسية ، وهو ما أبرزه بالفعل فى الجزء الثانى من كتابه عجائب الآثار ، خاصة فى عهد مراد وابراهيم ، وان كان الدكتور لويس عوض قد توسع فى محاولة التوفيق بين ايمان الجبرتى بحكمة القصاص الالهى وبين ما نعرفه اليوم بالحتمية التاريخية (٢) ٠

وثمة ملاحظة جديرة بالذكر وهى أن الجبرتى عزف فى الفترة الأولى من سنوات الحملة الفرنسية عن ايجاد تقارب بينه وبين الفرنسيين على الرغم من أنه كان له من علمه ومركزه الدينى والاجتماعى ما يتيح له فرصة ذلك ، سيما وأن بونابرت حرص على أن يستدعيه الى القاهرة من مزرعته فى ابيار ، وكان قد فر اليها على أثر دخول الفرنسيين القاهرة ، اذ كان من سياسة بونابرت الاسلامية استمالة العلماء والمشايخ بطمأنتهم واظهار احترامه لهم والابقاء على امتيازاتهم ، ومع ذلك فقد حرص الجبرتى على مراقبة أحوال الفرنسيين فى بداية الأمر ، الا أننا سنراه يقبل التعاون معهم فى الفترة الأخيرة من وجودهم فى مصر ، ويبدو أنه فعل كارها أو مرغما على التزام الوساطة التى اعتقد أنها واجب العلماء بين الحاكمين والمحكومين ٠ ولعل الأزمة النفسية التى واجهها الجبرتى أن نظرته الى الفرنسيين كانت نظرة ممتزجة بالاعجاب والكراهية فى آن واحد ٠٠ كراهية رجل الدين المحافظ نتيجة اختلاف الدين واختلاف السلوك والأخلاق ، وعدم ارتياحه للتنظيمات التى أقاموها على نهج مغاير

---

(١) انظر استهلال الجبرتى لسنة ثلاث عشر ومائتين وألف فى الجزء الثالث من كتابه عجائب الآثار .

(٢) دكتور لويس عوض ــ المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ــ المبحث الثانى « الفكر السياسى والاجتماعى » ــ القسم الاول من الحملة الفرنسية الى عهد اسماعيل ص ٩٤ معهد الدراسات العربية العالية ــ القاهرة ١٩٦٣ .

ما ألفه ، ثم اعجاب المفكر الذى يقارن بين الفرنسيين وبين غيرهم من زمرة الحكام والعصبيات الذين كانوا يتوالون على حكم مصر • ومع ذلك فلم يستطع الجبرتى أن يطور تفكيره بحيث يصبح فى وسعه استيعاب ما أتت به الحملة الفرنسية من تيارات علمية وحضارية ، وهو رغم اعجابه بالفرنسيين ومدحه لعلمائهم وانبهاره بزيارة مكتباتهم ومجامعهم ومصانعهم ومشاهدة تجاربهم العلمية الا أنه مع ذلك لا يستطيع مواجهة هذا التحدى فلا يسعه فى نهاية الأمر سوى التسليم بأنها « أمور كثيرة وبراهين حكيمة تولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع •• وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » (١) • وهذا الموقف السلبى الذى وقفه الجبرتى كان يغاير تماما موقف الشيخ حسن العطار الذى كان أكثر استعدادا لمسايرة التحديات الحضارية الجديدة وايمانه بضرورة الأخذ بعلوم أوربا ، وأنه من الضرورى أن نغير ما فى عقولنا (٢) • وهكذا بدأت الأزمة الفكرية تتضح خيوطها المتناقضة فى مصر بمقدم الحملة الفرنسية ، وكان يمثل تيار التجديد الشيخ حسن العطار ، بينما مثل الجبرتى التيار الفكرى المحافظ • ومع ذلك فعلى الرغم من كراهية الجبرتى للتجديد ونزعته التقليدية المحافظة الا أنه كان يبدى عجبه من تغيير معالم القاهرة ، وهدم البيوت القديمة وتوسيع الطرق ، وعدم تجاوز الفرنسيين للرسوم التى فرضوها ، وعدم تسخيرهم العمال بحرصهم على زيادة أجورهم واراحتهم خلال عملهم اليومى ، الى جانب دقة الفرنسيين فى صرف العملة على عكس ما كان يحدث فى غير عهدهم ، حتى دفعه ذلك الى تعميم حكمه بأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش أو النقص بخلاف معاملات المسلمين • على أن اعجابه بالفرنسيين كان أكثر وضوحا حينما لم يبادروا بقتل سليمان الحلبى عند اغتياله اكليبر بل ناقشوه وحاكموه ، وحرص الجبرتى على تدوين المحاكمة وأفاض فى الحديث عنها ، ويبدو أن الطريقة التى اتبعها الفرنسيون فى معاملتهم للقاتل كانت أمرا جديدا عليه وعلى معاصريه الذين ألفوا ما كانت تقوم به العصبيات المملوكية من بطش بالأبرياء والمذنبين على السواء •

وربما كان انتقاد الجبرتى للثورات التى قامت فى عهد الحملة الفرنسية ووصف من قام بها بالزعر أو الحرافيش أو الحشرات انما كانت فى اعتقادنا شعورا منه بالتفوق الاجتماعى والنظرة الطبقية • ومع ذلك فقد حرص الجبرتى على تسجيل الدوافع المباشرة وغير المباشرة لثورات المصريين ، كما أبدى تأثرا بالغا وسخطا شديدا على ما أقدم عليه الفرنسيون من العبث بالمقدسات الدينية والاعتداء على حرمة الجامع الأزهر وما قاموا به من أعمال منكرة (٣) • ومع ذلك

---

(١) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٧ •

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى ـ تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ص ٢٣ ، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٧٣ •

(٣) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٦

فلم يكن الجبرتى ثوريا فى طبيعته وانما تميز باعتداله وكراهيته للعنف ، وكان أكثر ما يخيفه أن تجر هذه الثورات الى تعسف الفرنسيين (١) • ولعل ما كان يحز فى نفسه أن تتحول الثورات الى السلب والنهب كما حدث فى ثورة القاهرة الأولى حينما يقول « خرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب » (٢) ، أو أن تستغل الثورات من قبل مهيجين من الأتراك والمماليك والمغاربة كما حدث فى ثورة القاهرة الثانية ، كما يبدو أيضا أنه لم يستطع أن يتصور أن فى وسع أناس ليسوا على كفاءة عالية فى التسليح مقاومة القوة العسكرية التى استخدمها الفرنسيون فى قمعهم لتلك الثورات • وعلى الرغم من أن الجبرتى لم يتردد فى الاعتراف بما كان يستحسنه فى الفرنسيين ـ خاصة المعهد العلمى والعلماء الفرنسيين ـ من شغفهم بالمعرفة وحرارة استقبالهم للزوار من العلماء والشيوخ ، الا أنه كان يشعر دوما بالخطر على الدين والأخلاق الملازم لكل حكم غير مسلم كتسليح الجنود المسيحيين وتدريبهم والصلاحيات التى منحت لجباة الضرائب من الأقباط ، وفساد المرأة نتيجة وجود مجتمع جديد ، حتى انه يذكر أن بنتا لأحد رجال الدين كانت تخالط الفرنسيين وتلبس لباس السيدة الفرنسية ، ولذلك أعدمت بعد عودة العثمانيين الى الحكم •

والحقيقة أن الجبرتى لم يقف من الأحداث التى عاصرها موقفا سلبيا وانما أدلى فيها برأيه ، وربما كان متجاوزا فى بعض الأحيان فى انتقاده لثورات القاهرة ، أو حتى لبعض الاصلاحات التى قام بها الفرنسيون ، أو فى هجومه على محمد على ، الا أن كل ذلك لا ينتقص من موضوعية الجبرتى ، اذ أن موضوعية الجبرتى لا تجعل من تاريخه على حد تعبير بعض الباحثين تاريخا باردا ، فالقارىء للجبرتى يحس دائما بأنه يضع يده على نبض الحياة وبأنه يعيش الجو الحقيقى لمصر وللعصر (٣) •

على أن ما يثير التساؤل ما قرره الجبرتى بأنه لم يقصد بكتاباته « خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى » (٤) •

وقد يصدق هذا القول على الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار ، الا أن ذلك لا ينسحب على كتابه مظهر التقديس ، وبالتالى فان موضوعية الجبرتى ربما تفقد قيمتها اذا ما عرفنا بأنه قدم هذا الكتاب الى يوسف باشا الصدر الأعظم فى أثناء وجوده فى مصر ، وفيه نلحظ تحامله الواضح على الفرنسيين وتعصبه البالغ ، على غير ما نلاحظه فى كتابه عجائب الآثار ، فهو يستهل مظهر

---

(١) صبحى وحيدة ـ مصدر سبق ذكره • ص ١٢٩ •
(٢) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٦ •
(٣) محمد انيس ـ مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ص ٢٩ •
(٤) الجبرتى ـ عجائب الآثار جـ ١ ص ٦ •

التقديس بعبارة : « حمدا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله العليا وجعل الدولة العثمانية والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا » كما يكثر من عبارات التعظيم والتفخيم ليوسف باشا وقد يكون من الصعب أن نقف موقف المدافعين عن الجبرتى فى كتابه هذا ، خاصة وأنه لقى حظوة لدى يوسف باشا الذى عهد اليه تحرير التقاويم والتوقيت ورتب له جعلا على ذلك (١) • على أن هناك ملاحظة يمكن أن نشير اليها وهى أنه فى وضعه لهذا الكتاب كان فيما يبدو خاضعا لتأثير صديقه الشيخ حسن العطار الذى اشترك معه فى وضعه ، ولعل فى ذلك ما يخفف من افتقار الجبرتى للموضوعية — فى كتاب مظهر التقديس — من ذلك ترحيبه البالغ بالعثمانيين وحملته العنيفة على المماليك الذين استناموا اتكالا على شجاعتهم ، كما أوضح التناقض بين ما جاء فى منشور بونابرت وبين تعسف الفرنسيين وجبروت عملائهم ، كما أنه لم يذكر أنه كان عضوا فى الديوان ، وأغفل اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاربهم العلمية ، كما أغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبى •

وفى اعتقادنا أنه من الصعب الحكم على الجبرتى بهذا الكتاب ، خاصة لما هو معروف من أنه ضم الى كتاب مظهر التقديس ما كتبه الشيخ حسن العطار من الشعر والنثر ، وكما هو معروف أيضا أنه حذف من كتاب عجائب الآثار ما كان قد كتبه العطار فى مظهر التقديس • وليس من شك فى أن الشيخ العطار كان أكثر مرونة من الجبرتى فقد وثق علاقته بعلماء الحملة الفرنسية ، وتقرب من العثمانيين بعد خروج الفرنسيين ، كما وثق صلاته بمحمد على ، ولعل ذلك مما جعل الجبرتى يخاصمه مخاصمة عنيفة رغم أواصر الصداقة والألفة التى جمعت بينهما •

أما اذا اعتبرنا أن الجبرتى كان متضامنا مع الشيخ العطار فى كتاب مظهر التقديس ، خاصة وأن هناك اجماعا بين الباحثين على أن القسم الأعظم من هذا الكتاب كان من وضع الجبرتى ، فان تفسيرنا لذلك هو أن مظهر التقديس كتب على أثر معاصرة الجبرتى لأحداث الحملة الفرنسية ، ولذلك كان هجومه الواضح عليها ، ويستدل على ذلك بما ذكره الجبرتى من أنه انتهى من كتاب مظهر التقديس فى شهر شعبان ١٢١٦ هـ (٤ يناير ١٨٠٢م) وعكس ذلك ما سيحدث عندما يكتب كتابه عجائب الآثار بعد بضع سنوات من رحيل الفرنسيين عن مصر ، ويسقط من تاريخه للحملة الفرنسية كثيرا من هذا التحامل ، ويسجل آرائه بكثير من الموضوعية ضد العثمانيين • وفيما يبدو أن السنوات الفاصلة بين انتهائه من كتاب مظهر التقديس وكتابته لعجائب الآثار كان لها أثر فى التغييرات التى طرأت على تفكيره السياسى بحيث استطاع أن ينظر الى حقيقة الأوضاع فى مصر نظرة أكثر موضوعية ، ساعده على ذلك أنه لم يحدث تغيير

(١) خليل شيبوب — مصدر سبق ذكره ص ٨٨ •

الى الأحسن بعودة العثمانيين ، وضاع أمله فى أن تسود العدالة بعودتهم ، فقد أعقب خروج الفرنسيين فترة عنيفة من الفوضى والتقلبات السياسية حفـل بها تاريخ مصر في خلال السنوات الخمس التالية • ثم أتى محمد على وقد عاصر الجبرتى سنوات حكمه الأولى ولم يجد فيها الا الارهاق والظلم الصارخ ، ولعل ذلك ما جعله أكثر نقدا ، كما قل تعصبه الدينى مما أدى به الى التلميح بأن الحكم الفرنسى رغم شروره وضرورة رفضه الا أنه كان فى كثير من وجوهـه أفضل للمصريين من الحكم المملوكى أو فوضى العثمانيين ، كقوله مثلا : ان أكثر الناس ظلوا يتمنون أحكام الفرنساوية • كما قل أثر غيبية التفـكير فى تفسيره للأحداث ، وان كان ذلك لا ينفى أنه ظل حتى نهاية حياته غير قادر على التخلص من اسار الاطار العام الذى بنى عليه شخصيته وشكل عليه تفكيره (١) •

على أن ما يؤخذ على الجبرتى فى تسجيله لأحداث الحملة الفرنسية فى كتابه عجائب الآثار ، اغفاله المتعمد تدوين بعض الأحداث ، فمثـلا لا نجد تفصيلات صريحة عن وجوده فى الديوان الذى أنشأه مينو ، واكتفى بالالماح السريع عن اشتراكه فيه ، بينما ذكر اسمه صريحا فيما ذكر عن الديوان فى كتاب وصف مصر ، وأكثر من ذلك وقع الجبرتى على كثير من المراسلات التى صدرت عن الديوان ، وأغفل الاشارة الى رسالة صـدرت من أعضاء الديوان وأرسلت الى بونابرت عند اعتلائه منصب القنصلية فى فرنسا يهنئونه ويطلبون فيها الاتحاد مع الأمة الفرنسية . وكان الجبرتى كما هو ثابت من صحيفة الكوريير من جملة الموقعين عليها (٢) • وعلى الرغم من أن هذه الرسالة لا تهمنا فى حد ذاتها ، اذ من المؤكد أنها كانت بايحاء من الفرنسيين وبادر الشيوخ الى توقيعها مدفوعين فى ذلك بسياسة المداراة التى دأبوا عليها طيلة عهد مينو ، الا أن الذى يعنينا اغفال الجبرتى الى حد كبير لما كان يجرى فى الديوان ، وقد يبدو أن ذلك كان راجعا الى عدم اقتناعه بما يدور فيه ، خاصة وأنه لم يكن فى وسعه أو فى وسع غيره من الشيوخ أن يكون لهم دور فى شئون الحكم بسبب رد الفعل الذى حدث بعد ثورة القاهرة ومقتل كليبر وصرامة الفرنسيين فى فرض الغرامات وتوقيع الجزاءات ، ولعل قبول الجبرتى الانضمام الى عضوية الديوان كان على أمل منه فى مقدرته التوسط بين الفرنسيين والرعية ، أو ربما يستطيع بتعاونه هذا أن يصل الى تحقيق ضبط الأنساب والأعمار توطئة لضبط المواريث ،

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتى ص ٥٥٨ ، تراث الانسانية يولية ١٩٦٦ .

(٢) Courrier de l'Egypte No. 91 (Le 15 Frimaire IXe, Année de la République, p. 24. Lettre du Divan d'Egypte au Général Bonaparte, Premier Consul de la République Française.

وقد وقع على هذه الرسالة كل من :

السيد خليل البكرى ــ الشيخ عبد الله الشرقاوى ــ الشـيخ محمـد الأمير ــ الشيخ محمد المهدى ــ الشيخ مصطفى الصاوى ــ الشيخ سليمان الفيومى ــ الشيخ موسى السرسى ــ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ــ الشريف سيد على الرشيدى .

وهو مشروع عرضه مينو على الديوان ويبدو انه لقى هوى فى نفس الجبرتى لما كان يتمشى مع اهتماماته ٠

وكان صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب أمين مكاتبات الديوان هو صلة الوصل بينه وبين الفرنسيين فى هذه المرحلة ٠ على أنه مما يستلفت النظر أنه حينما اقترب زحف القوات العثمانية والبريطانية على مصر بادر الفرنسيون باعتقال بعض شيوخ الديوان فى القلعة وأخذوهم كرهائن ، فى حين تركوا الجبرتى حرا مع بعض شيوخ آخرين ، ويفهم من ذلك ما اتسم به الجبرتى من اعتدال ومهادنة فى علاقاته بالفرنسيين ، وعلى الرغم من أننا كنا ننتظر الكثير من الجبرتى فى الافاضة عن أخبار الديوان بحكم اشتراكه فيه وصداقته لكاتم أسراره ، الا أنه آثر الصمت أو على الأقل التلميح دون التصريح ٠ وربما أخذ على الجبرتى أيضا أنه كان متأثرا ببعض الشيوخ أو بأصدقائه من بعض أمراء المماليك مما جعله يطنب كثيرا فى تراجمه لمن عرفه منهم ، خاصة محمد بك الألفى الذى اختصه بنصيب وافر فى ترجمته له (١) حتى خيل للبعض أن تصدى الجبرتى لمحمد على كان يرتبط بوجود صلات أو منفعة خاصة بينه وبين الألفى ، ومما يعزز ذلك حملته الشديدة على عثمان البرديسى أقوى خصوم الألفى ، وتلقيبه المماليك بالأمراء المصرية وبالتالى أحقيتهم بالحكم ، واعتبار محمد على ورجاله دخلاء على البلاد ٠ كما أنه لا ينعى على الألفى اتصاله بالانجليز ، بل أنه « عندما سافر الى بلادهم تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم وعدلهم فى رعيتهم مع كفرهم » (٢) ، وأكثر من ذلك أسفه على اخفاق حملة رشيد عام ١٨٠٧ ، وكأنما كان يتمنى لو نجحت هذه الحملة ، ولكن « أفسد الله رأى كل من طائفة الانكليز والأمراء المصرية وأهل الاقليم المصرى لبروز ما كتبه وقدره فى مكنون غيبه على أهل الاقليم من الدمار الحاصل وما سيكون بعد » (٣) ٠

ويصور الجبرتى تصويرا بارعا مقاومة المصريين لحملة رشيد ، على عكس ما أظهره محمد على من تخاذل فى حين هو الذى جنى وحده ثمرة هذه المقاومة ، فهو يقول : « وليت العامة شكروا على ذلك أن نسب اليهم فعل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك » (٤) ٠

وواضح أن ما دفع الجبرتى الى الأسف على الألفى أو اخفاق حملة رشيد انما يرجع الى عدائه الصريح لمحمد على ٠ على أنه ليس من الانصاف أن نتحامل على الجبرتى فى عدائه هذا ، خاصة وأنه لم يشهد الا النصف الأول من حكم محمد على الذى عكف فى خلال سنواته الأولى على احداث التغيير فى أدوات الحكم والتخلص من بقايا النظام العثمانى المملوكى ، واستأثر بالسلطة بعد تخلصه

---

(١) الجبرتى — عجائب الآثار جـ ٤ انظر ترجمته لمحمد بك الالفى صص ٢٧ — ٤٦ ٠

(٢) نفسه ص ٤٢ ٠

(٣) نفسه ص ٥٧ ٠

(٤) نفسه ص ٥٨ ٠

من الزعامة الشعبية وأرهق الفلاحين فى بعض مشروعاته الزراعية كحفر ترعه المحمودية ، وتشجيعه الأجانب على الاقامة فى البلاد ، فضلاً عن حروبه فى الجزيرة العربية لقمع ثورة دينية اسلامية ، لكل ذلك لم يكن متوقعا من الجبرتى أن يهادن الأسلوب الذى اتبعه محمد على فى الحكم ، وانما نظر اليه باعتباره ظلما صارخا وقع على الرعية • ولم يكن فى وسع الجبرتى أن يدرك قيمة التغييرات التى استحدثها محمد على خاصة وأن أثرها لم يكن قد اتضح بعد ، وانما نظر اليها على أنها ارهاق وتعنت بسبب تطبيق سياسة الاحتـــكار وزيادة عبء الضرائب وما نتج عن ذلك من غلاء فى الأسعار وما أصاب الناس من بؤس ، الى جانب انتقاد ما فى طبعه من « داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم ، » (١) فكان ينعى عليـــه فتح بابه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه ، كما نعى عليه حرصه على ايجاد جيش ، اذ أنه ــ وفقا لمفهوم الجبرتى ــ أن الوالى اذا عدل لم تعد به حاجة الى قوة تسانده على أساس انقياد الرعية لحكمه راضية (٢) • وبالاضافة الى ذلك أن الجبرتى لم يكن من المقربين لمحمد على ، كما أنه قد أضير شخصيا من القيود بامتيازات كثيرة فجاء محمد على ليبطل هذه الامتيازات ويرغم الشـــيوخ على دفع الضرائب وتأدية الأموال المخصصة لجهات البر ، هذا بالاضافة الى ابطاله مســـموح المشايخ ومشاركته للملتزمين فى فائض التزاماتهم •

وعلى الرغم من أن الجبرتى لم يكن فى وسعه التنبؤ بقيمة التغييرات التى أحدثها محمد على كما سبق أن أوضحنا ، الا أنه أدرك اختلافه تماما عن غيره من الولاة والحكام « له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » كما أنه لم يتوان عن تسجيل اعجابه لبعض الاصـلاحات التى أدخلها محمد على : كاقامته السدود ، أو استصلاحه للأراضى أو اقامته لبعض الصناعات • وقد استمد معلوماته من المتصلين به أو من الأخبار التى كانت تنتشر عن الأحداث بعد وقوعها (٣) •

وأخيرا نختتم هذه الدراسة بالتأكيد هنا أنه لولا كتابات الجبرتى لخفيت علينا أمور كثيرة ، وليس أدل على أهمية كتاباته من أنها ظلت ــ وسوف تظل ــ من المصادر الأساسية لتاريخ مصر فى القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، بحيث لن يستطيع أى باحث أن يتجاهلها عند تصديه لكتابة تاريخ مصر فى مختلف مجالاته السياسية والاجتمـــاعية والاقتصادية والثقافية والدينية فى خلال تلك الفترة •

---

(١) الجبرتى ــ عجائب الآثار ج ٤ ص ١٥٠ •

(٢) محمد فؤاد شـكرى ــ مصر فى مطلع القرن التاسـع عشر (١٨٠١ ــ ١٨١١) ج ٣ ص ١١٧٠ القاهرة ١٩٤٨ •

(٣) محمد فؤاد شكرى ــ مصدر سبق ذكره ج ٣ ص ص ١١٦٩ ــ ١١٧٠ •

عبد الرحمن الجبرتي في نظر التاريخ

للدكتور عواد مجيد الأعظمي

كلية الآداب (قسم التاريخ) جامعة بغداد
عن الجمعية العراقية للتاريخ والآثار

لا أود أن أتحدث فى بحثى هذا عن ثروة الجبرتى (١) المادية التى ورثها عن أبيه وأجداده ، ولا عن مكانته الاجتماعية المرموقة البارزة والذائعة الصيت فى داخل مصر وخارجها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٠٠ ولا عن علاقته بالسلطتين العثمانية والفرنسية اللتين عاصرهما ٠٠ أو عن علاقتـــه بمحمد على باشا المتهم فى تدبير مؤامرة اغتياله أو اغتيال ابنه « خليل » ٠٠ لأن ذلك غالبا ما يكون متعلقا بأمور السلطة والسياسة ، ولأن جميع هـــذه المسائل قد بحثت ودرست بدقة وتفصيل من قبل مؤرخينا العرب والأجانب ٠ ولكن أود أن أبرز جانبا مهما من حياة هذا الرجل ، أو جانبين على الأدق :

الجانب الأول : هو جانب العلم والفكر والأدب والتاريخ ٠٠ وهو الجانب الحيوى الخالد ، والتراث الأزلى فى حياة هذا الرجل العالم ٠

والجانب الثانى : ويتمثل فى نظرة التـــاريخ اليه ، أو بعبارة أخرى : الجبرتى ٠٠ فى نظر التاريخ ، الذى آلينا أن يكون عنوانا لهذا البحث ٠٠ وقد أكون مقصرا أن أغفلت ذكر بعض المؤرخين والكتاب الذين شهدوا بكتاباتهم ومؤلفاتهم فى تقويم شخصية الجبرتى ومؤلفاته ٠

ان الآثار الفكرية والأدبية والفقهية والتاريخية التى خلفها عبد الرحمن الجبرتى هى التى تحدد وجهة نظر التاريخ نحوه ٠٠ وتقوم مركزه ومكانته فى نظر المؤرخين المحدثين ٠٠ وفى نظر مؤرخى المستقبل ٠

---

(١) اسمه عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، وهو منسوب الى جبرت ــ اقليم اسلامى شمال بلاد الحبشة ٠٠ ولد فى القاهرة عام ١١٦٧ هـ/١٧٥٤ م وتوفى عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥ م ٠

وفى بحثى هذا سوف يكون الجانبان الأول والثانى متداخلين ومتكاملين ، حيث يقوم الواحد منهما الآخر ، ولا يمكن الفصل بينهما ، وبذلك تبرز قيمة الجبرتى فى نظر التاريخ ٠

لقد أنصف الجبرتى تاريخ مصر الحديث ، وأبرز قيمه ومعالمه خلال القرن الثامن عشر ٠٠ ويعتبر على رأس المؤرخين فى تدوين هذه الحقبة من الزمن ٠٠ يشهد بحقه كبار المؤرخين فى الشرق والغرب ٠

فهذا الدكتور فيليب حتى المؤرخ المعروف يشير فى كتابه « تاريخ العرب المطول » وهو يستشهد بالجبرتى كل الاستشهاد فى فصله الحادى والخمسين تحت عنوان « مصر والهلال العربى » ٠٠ حيث يقول : « ولعل عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ٠٠ أهم المؤرخين المصريين الذين استعنا بهم فى كتابة هذا الفصل ٠٠ وأما كتابه : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : فان قسما منه فى التاريخ والقسم الآخر فى التراجم ٠٠ » (٢) ٠

وقال عنه الأستاذ « محمود الشرقاوى » فى مقدمة كتابه ـ الجزء الأول ـ « مصر فى القرن الثامن عشر » ٠٠ : « تاريخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عن حياة مصر فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وشطر من التاسع عشر الذى سماه : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » مرجع من أهم مراجع تاريخنا الحديث ، وأكثرها دقة ، وأوسعها شمولا وإحاطة ٠٠ » (٣) ٠

لقد استعمل الأستاذ الشرقاوى كلمة « مرجع » أما أنا فأود أن أستعمل كلمة « مصدر » ٠٠ فالجبرتى لا يقل قيمة وأهمية عن مصادرنا الأولية التاريخية : كالطبرى ، والبلاذرى ، واليعقوبى ٠٠ وغيرهم من المؤرخين الرواد الأوائل ، فى تدوين الأحداث التاريخية ، كل منهم فى فترته ، وحقبة حياته وزمنه ٠

ومؤلفات الجبرتى أصيلة ٠٠ لا تقل أصالة وأولية عن مصادرنا الأولية ٠٠ وبذلك أشارت اليه دائرة المعارف الاسلامية بقولها : « لذلك كان لكتابه شأن الجريدة المعاصرة ، دون فيه كل الحوادث التى شاهدها ، ولا شك فى نزاهة أحكام الجبرتى ، فهو من بيت علم يعرف قدر الرواية المحكمة اذ رواها شاهد عيان ٠٠ » (٤) ٠

---

(٢) انظر : الدكتور فيليب حتى ، تاريخ العرب المطول ، بيروت ، ١٩٦١ ، جـ ٢ ، ص ٨٧٤ .. اعتمد على طبعة القاهرة ، ١٣٢٢ ـ والتى هى فى أربعة مجلدات ..

(٣) انظر : الأستاذ محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ، الجزء الأول ؛ مصر ؛ ١٩٥٧ ـ المقدمة ..

(٤) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ـ باللغة العربية ، مادة .. الجبرتى ..

ولقد اصاب الأستاذ الشرقاوى كبد الحقيقة حينما قال فى كتابه السابق الذكر : « ان الجبرتى سجل من تاريخ مصر فترة لم يكتب فيها أحد سواه ، ولا نجد عنها كتابا باللغة العربية اطلاقا .. » (٥) .

وكما تؤكد بحقه أيضا دائرة المعارف الاسلامية حيث جاء فيها أيضا عن عجائب الآثار : « وهذا أعظم تواريخ مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للهجرة .. » (٦) .

ويعتبر تاريخ الجبرتى مكملا لتاريخ مصر الذى وضعه « ابن اياس » وسماه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » .. فقد وقف بتاريخه عند سنة ٩٢٨ هـ .. وأكمل الجبرتى الفترة الى نهاية سنة ١٢٣٦ هـ .. وبهذا يعتبر كل من ابن اياس والجبرتى مكملا الواحد منهما الآخر فى تدوين تاريخ مصر الحديث .

ومن المؤرخين المعروفين الذين كتبوا وأشادوا بالجبرتى ومؤلفاته الأستاذ المرحوم « جرجى زيدان » فى كتابه : « تاريخ أدب اللغة العربية » فقد ذكره بشىء من الدقة والتفصيل والعرض لحياته ، وناقش مؤلفاته ، وضياع أو فقدان بعض أجزائها ، كما ناقش مسألة وفاته والاختلاف فى ذلك (٧) .

ومن المؤرخين المحدثين الذين أفردوا كتابا خاصا فى الجبرتى وحياته ومؤلفاته هو الأستاذ « خليل شيبوب » فى كتابه : « عبد الرحمن الجبرتى »

فلا غرو والحالة هذه أن تلقى مؤلفات الجبرتى ـ وخاصة « عجائب الآثار .. » و « مظهر التقديس » وغيرها التى سيأتى ذكرها ـ صداها العميق فى الأوساط العالمية ، العربية ، والتركية ، والأوربية .

فقد نشر القسم الذى كتبه الجبرتى عن الحملة الفرنسية مستقلا بعنوان « تاريخ الفرنسيين فى مصر » ، نشرته جريدة « مصر » بالاسكندرية فى سنة ١٨٧٨ وقام بنشره الأديب اللبنانى أديب اسحق .

وترجم هذا القسم الى اللغة الفرنسية ، ترجمه مترجم القنصلية الفرنسية بمصر المسيو كاردن Cardin وفون كريمر Von Kremer وطبع سنة ١٨٣٨ .

وقد ترجم هذا الجزء نفسه الى اللغة التركية بأمر السلطان سليم الثالث ، وجعل عنوانه « انقاذ مصر من الفرنساوية .. »

وترجم عجائب الآثار أيضا الى اللغة الروسية منذ سنين قريبة (٨) .

---

(٥) انظر : الاستاذ الشرقاوى ، المصدر السابق ، المقدمة ..

(٦) دائرة المعارف الاسلامية .. مادة جبرتى .

(٧) جرجى زيدان ـ تاريخ ادب اللغة العربية ـ المجلد الرابع .

(٨) انظر بهذا الخصوص ، الاستاذ الشرقاوى ـ المصدر السابق ص ٣٣ . ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة ، جبرتى .

ومن ثم أفاد منه لين Lane في الحواشي التي كتبها على طبعته لكتاب ألف ليلة وليلة ٠٠ وكما ذكر لين في طبعته لكتاب ألف وليلة ، أن الجبرتي أنهى بكتابه نسخة أخرى من ألف ليلة وليلة ، والظاهر أنها فقدت (٩) ٠

وكثيرا ما يشير الى مؤلفات الجبرتي المؤرخ الألمـــاني المعروف بركلمان Brockelmann في دليل مصادره ومراجعه التاريخية ٠ فهنـــاك اشارة الى الى كتاب « تذكرة داود الانطاكي » لمؤلفه الجبرتي (١٠) ٠

هذه هي بعض مواقف المحدثين ، ونظرتهم الى الجبرتي ، وتقدير مؤلفاته وتقويمها ٠٠ ولابد أنه ستظهر مواقف أخرى جديدة لمؤرخين جدد في العالمين الشرقي والغربي ٠

وما هذه المؤتمرات التي تعقد في كل يوم — خاصة في القاهرة — الا تعبيرا صادقا عن مدى الحفاوة والتكريم والتبجيل لهذا الرجل القدير ٠

وها نحن من العراق ، وباسم الجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، جئنا لنشارك اخواننا علماء مصر ومؤرخيها ، وبقية علماء العرب ، في احياء ذكرى هذا الرجل العالم ٠

ان مؤلفات الجبرتي ومخطوطاته في مختلف مكتبات العالم فتوجد منها في مكتبات ألمانيا ، وفرنسا ، وانكلترا ، وروسيا والهند ، واستانبول ٠

وعندنا في العراق توجد مخطوطتان لعبد الرحمن الجبرتي ووالده حسن الجبرتي محفوظتان في مكتبة الآثار التابعة للمتحف العراقي ٠

الأولى تاريخ الجبرتي تحت رقم ١٦٣٦ ، وقد جاء في الورقة الأولى من هذه المخطوطة القول « هذا المخطوط بخط مؤلفه الجبرتي ، وهو يختلف كثيرا عن المطبوع لأنه لما طبع حذف منه أشياء كثيرة ما كانت توافق آراء أهل الحل والربط فتصرفوا فيه ٠٠ أما هذا المخطوط فهو المعول عليه اذ هو الأصل » ٠

وجاء في آخر المخطوط :

« قاله بفمه وحرره بقلمه الفقير الحقير راجي رحمة ربه ، الغني ، عبد الرحمن ابن حسن الجبرتي الحنفي غفر الله له وعامله بلطفه ٠٠ » (١١) ٠

أما المخطوطة الثانية ٠٠ فهي « رسالة في الرياضيات » والموجودة أيضا في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم ٣٣٢ — الرف A. 15 ٠٠ وهي من تأليف حسن الجبرتي والد عبد الرحمن الجبرتي ٠

---

(٩) بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ٠

(١٠) بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ ٠

(١١) تاريخ الجبرتي — مكتبة الآثار في المتحف العراقي رقم ١٦٣٦ ٠

وجاء فى الورقة الأولى من هذه المخطوطة القول :

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى من بعده وآله وصحبه وشيعته وحزبه •• »

وبعد فقد استكتب هذه الرسالة عزيزنا الفاضل المستفيد بخدمة العلم الشيخ منصور المنصورى الحنفى ، وفقنا الله واياه للعمل وجنبنا واياه سلوك الزيغ •• »

التوقيع

حسن الجبرتى

وجاء فى الورقة الأولى تعليق ••

« هذه الرسالة لا تثمن لأنها من تأليفه بنفسه حسن الجبرتى •• وثانيا لوجود خطه بيـــــده ، وختمه بجانب هذه الكلمات • فهى أحســـن ذكر للمؤلف ••• (١٢)

---

(١٢) رســـالة فى الرياضيات ــ لحسن الجبرتى ، بمكتبـــة المتحف العـــراقى ــ رقم ٢٣٢ ــ الرف • A. 15

ملاحظة : نقوم الآن بتصوير هذين المخطوطين ، وتقديمهما هدية الى مؤتمركم باســـم الجمعية العراقية للتاريخ والآثار •

الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتى

للدكتور ابراهيم أحمد العدوى

عميد كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

المنظور التاريخى للصراع الفكرى عند الجبرتى

الصراع الفكرى بين الأجيال المتعاقبة على مر العصور هو الطاقة المحركة لجميع الأمم نحو الأخذ بأسباب العيش الكريم ، وملاحقة ركب التطور والتقدم البشرى ، اذ يطيح هذا الصراع برواسب الجمود التى تطمر القواعد التى يرسى أوتادها الآباء والأجداد ، ويفجر فى نفس الوقت الطاقات الكامنة لدى الأجيال الصاعدة لرفع تلك القواعد واعلاء صرحها . وقد عاش الجبرتى مرحلة من أهم مراحل هذا الصراع الفكرى ، ليس فى تاريخ مصر والبلاد العربية فحسب ، بل فى تاريخ العالم أيضا . فلم يكن ذلك الصراع محليا محدودا فى الوطن العربى ، ولكن كان واسع النطاق وثيق الارتباط بالصراع الفكرى الذى انطلق من أوربا الى سائر أرجاء العالم . وكانت أوربا قد طوت مرحلة طويلة من الصراع الفكرى بدأتها منذ القرن الخامس عشر والسادس عشر طوال عصر النهضة ، وانتهت من تحطيم جمود الفكر الوسيط ، ورفعت رايات النصر على عهد الجبرتى فى القرن الثامن عشر بنجاح الثورة الفرنسية فى ازالة آخر معالم الطغيان السياسى للعصر الوسيط .

وشاهد الجبرتى تساقط بعض الشرر الوهاج من هذا الصراع الفكرى الأوربى على أرض مصر ، وذلك فى الوقت الذى كانت ترتكض فى أحشائها طلائع صراع فكرى رهيب بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ، من أجل تحطيم قيود الجمود والركود والانطلاق نحو آفاق الحرية وظلالها الوارفة . وامتد العمر بالجبرتى (١١٦٧ هـ/١٧٥٤ م - ١٢٤١/١٨٢٥ م) ليشهد ميلاد هذا الصراع الفكرى وأن يصاحب تطوره عبر أجيال ثلاثة : الأول الذى عاصر الطبقة الأخيرة من المماليك فى مصر . والثانى الذى واجه الحملة الفرنسية على

مصر • والثالث والأخير الذى عاش عصر محمد على فى مصر • فقد انقسم أبناء كل جيل من تلك الأجيال الثلاثة وسط هذا الصراع الفكرى الى قسمين ، تعصب أحدهما لرواسب العصور الوسطى وسحرها ، على حين اندفع الآخر فى الدعوة الى التجديد والخروج من طلاسم السحر الى نور العلم والفهم السليم •

ووضع الجبرتى خلفية تاريخية شاملة لصورة هذا الصراع الفكرى بمراحله الثلاث ، جاهدا أن يربط بها بين أبعاد تلك الصورة ويوضح معالمها • فحدد فى الاطار الخارجى الغرض من التاريخ وموقف معاصريه منه • فقال ان الغرض من التاريخ هو : « الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى ، وكيف كانت • وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليتحرز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد الفانى ، ويجتهد فى طلب الباقى » • ثم شرح الجبرتى موقف الأجيال المعاصرة له من التاريخ قائلا :

« ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنسانى تعنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا عن خلف ، الى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه ، وتركوه وأهملوه ، وعدوه من شغل البطالين » •

واعتبر الجبرتى هذا الاهمال للتاريخ عند معاصريه سبب الصراع الفكرى بينهم • اذ ابتعدت الأجيال نتيجة هذا الاهمال عن نهج الحضارة الواضح ، واتخذت لنفسها طريقا كان ينحدر بهم ، ويظنون لجهلهم وغفلتهم أنهم هم الصاعدون السابقون • ثم شرح الجبرتى فى سخرية لاذعة طلائع الصراع الفكرى بينه وبين تلك الأجيال الجامدة قائلا : « ولعمرى انهم لمعذورون ، وبالأهم مشتغلون ، ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة • فان الزمان انعكست أحواله ، وتقلصت ظلاله ، وانخرمت قواعده فى الحساب ، فلا تضبط وقائعه فى دفاتر ولا كتاب ، واشغال الوقت فى غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ليس له استرجاع ، الا أن يكون مثل الحقير (يعنى الجبرتى بذلك كناية عن نفسه سخرية من أولئك الجاهلين بأهمية التاريخ) منزويا فى زوايا الخمول والاهمال ، منجمعا عما شغلوا به من الأشغال ، فليشغل نفسه فى أوقات خلوته ، ويسلى وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته :

لو بال هذا الدهر فى قارورة   بان الذى يشكوه للمتطبب

ونزل الجبرتى ساحة الصراع الفكرى • فقال : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى » • وظل الجبرتى ملتزما بأمانة المؤرخ وقول الحق ولو على نفسه • فاعتزازه بكتابه وما بذله فيه من

جهد لم يحل بينه وبين القول عن نفسه « هذا مع اعترافى بقصور الباع وفتور الطباع فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » ·

وأخذ الجبرتى يصور فى ضوء هذه الخلفيـــة التاريخية مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث · وكان قديرا على تصوير هذا الصراع لأن تربيته وحياته العامة وأخيرا ميوله الخاصة جعلته على خبرة دقيقة بجميع الأطراف على اختلاف مناحيهم الفكرية · فنقل الجبرتى عن والده الاهتمام بالعلوم التطبيقية الى جانب العلوم النظرية ، والوقوف على أهمية هذين الفرعين ، وما يتطلبه كل منهما من أسباب التقدم · وازدادت آفاق الجبرتى خبرة بالفكر القديم والجديد على عهده ، وكذلك بأحوال دعاة كل منهما عن طريق علاقته بوالده وعلاقاته أيضا مع كبار رجال مصر من المماليك والعلماء على اختلاف مشاربهم ، فضلا عن قوة الصلة مع عامة الناس · وخبر الجبرتى فنونا شتى من نتاج الفكر الوسيط والحديث ومارس بعض أعمالها التطبيقية ، من رياضـــة التصوف وحسابات النجوم · وصار تصويره للصراع الفكرى الذى دار بين هذه الاتجاهات المتضاربة تصوير خبير ، عليم ببواطن الأمور · وزاد فى روعة الصورة التى رسمها الجبرتى أن العمر امتد به ليتتبع أدوار هذا الصراع على مراحله الثلاث التالية :

١ ــ الصراع الفكرى على عهد الطبقة الأخيرة من حكم المماليك فى مصر ·
٢ ــ الصراع الفكرى على عهد الحملة الفرنسية فى مصر ·
٣ ــ الصراع الفكرى على عهد حكم محمد على فى مصر ·

المرحلة الأولى من الصراع الفكرى :

أوضحت الصورة التى رسمها الجبرتى للصراع الفكرى الذى نشب فى هذه المرحلة من أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث أنه كان صراعا رهيبا · اذ كان الفكر الوسيط قويا ، ومازال له سحره وجلاله وأنصاره الذى ينافحون عنه ، اما عن علم أو غير علم · وفضلا عن ذلك كان أعوان الفـكر الوسـيط أكثر نفرا وأعز جاها وسلطانا وأشد تعصـــبا فى محاربة الأفكار الجديدة · وبلغت خطورة أجيال العصور الوسطى حدا جعلت معه المرء العادى يفقد حريته فى التفكير مع الاضطرار للخضوع كرها لما ينادى به دعاة الفكر القديم ·

ودار الصراع الذى صوره الجبرتى فى هذه المرحلة الأولى حول قضيتين كبيرتين تفرعت عن كل منهما مظاهر خطيرة أصابت حياة المجتمع على اختلاف طبقاته : احداهما الانحراف الفكرى فى حركة التصـــوف ، والأخرى قضية التخلف بين قادة الفكر ·

(أ) الانحراف الفكرى فى حركة التصوف :

استهل الجبرتى هذه القضية مبينا أن العدو اللدود للتفكير العقلى هـو

الجمود الديني الذى حمل لواءه على عهده فى القرن الثامن عشر بقايا المتصوفة من سلالة أهل العصور الوسطى • اذ تظاهروا بالعبادة ، واتخذوها ذريعة للتخاذل عن العيش الجاد ، وللتغرير بالعامة • فكثر الأدعياء ، وتظاهروا بالتقشف ، ولبسوا مسوح التصوف ، وذلك على نحو شكلى • وصار كل ضعيف فى العلم يلجأ الى التصوف كما يلجأ فاقد المجد الى الكبر ، وقليل المال الى الزينة واللباس • ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس ، وروجوا للتأويل فى القرآن ، واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادى سليم الفكر عن فهمها . وقالوا انها أسرار لا يرقى اليها الا الخاصة ، ولا تخل للعقل فى ادراكها •

وحرص الجبرتى باعتباره ممن مارس بنفسه رياضة التصوف أن يفرق فى الصورة التى رسمها بين أولئك المنحرفين وبين تقاة المتصوفة ، وذلك على نحو ما شاهده بنفسه من أفعال كل من الفريقين • وجاءت التراجم التى اتخذها الجبرتى نماذج بشرية لمعالم هذه القضية الخطيرة رائعة التصوير ، دقيقة التفاصيل والأسرار • فأسهب فى وصف مواكب أولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالا ونساء وأطفالا • وكان بعضهم يسير عريانا فى الطرقات ، يتبعهم الأطفال والعوام ، ويحاولون الاقتداء بحركات أولئك الأدعياء ، من حيث انتزاع الملابس ، و « التحنجل » فى المشى ، وكل من فعل ذلك قال الناس أن بركة الشيخ مسته فجذبته ، هذا الى جانب الهذيان وكثرة اللغط ، والتكلم بفاحش القول •

وتمثل الصورة التى سجلها الجبرتى عن « الشيخ صادومة » خطورة هذه الطبقة المتأخرة من دعاة التصوف ، ومفاسدهم فى نفس الوقت • فقال : ان شيخا يسمى الشيخ أحمد صادومة ، وكان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبة ، وأصله من سمنود ، وله شهرة عظيمة وباع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات والسيمات » • والمعروف أن علم السيمات ظهر عند غلاة المتصوفة ، ويعنى اتجاههم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم ، والتصرف فى عالم العناصر ، وذلك باحالة الأجسام النوعية من صورة الى أخرى عن طريق القوة النفسية لا الصناعة العملية • وغدا علم السيما ضربا من السحر ، ويقترن بالطلاسم • واضاف الجبرتى أن الشيخ صادومة صار بذلك قادرا على مخاطبة الجن مشافهة ، ويظهر لهم بالعيان •

وأمعن الجبرتى فى تصوير هذا النموذج البشرى للشيخ صادومة ، مبينا قدرته على اجتذاب نفر من كبار الفقهاء ، وأن ذلك كان يستند الى سوء المشرب والقصد عند كل منهما • فقال ان الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى منصب افتاء الشافعية كان من اتباع الشيخ صادومة « وله به التئام وعشرة ومحلة أكيدة واعتقاد عظيم ، ويخبر عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات ، بل يقول انه هو الفرد الجامع • ونوه بشأنه عند الأمراء وخصوصا محمد بك أبا الذهب ، فراج حال كل منهما بالآخر » •

وبدأ الصراع ضد هؤلاء المنحرفين من المتصوفة شديدا ، وأسهم فيه ثلاث فئات من المجتمع ، تحدث الجبرتى عنها باعتبارها حملة الفكر الحديث فى هذه المرحلة الأولى من مراحل ذلك الصراع • وأوضح الجبرتى أن هذه الفئات الثلاث ضمت أصحاب العقول المتفتحة من أمراء المماليك والعلماء ، ومن عامة الناس أيضا • ثم شرح أسلوب كل فئة فى أداء دورها فى هذا الصراع الفكرى حسب قدرتها وطبيعة عملها • فذكر الجبرتى أن الشيخ صادومة وقع فى عداء مع أحد المماليك من أصحاب الفكر السليم ، وهو الأمير يوسف الكبير ، الذى كان « يتغير من أدنى شيء •• وازداد عتوا وعسفا وانحرافا . خصوصا مع طائفة الفقهاء والمتعممين لأمور نقمها عليهم » •

واستعرض الجبرتى فى صراحة السخط الذى أنزله الأمير يوسف بك الكبير بالشيخ صادومة قائلا : « فاتفق أن الأمير المذكور اختلى بمحظيته فرأى على سوأتها كتابة فسألها عن ذلك وتهددها بالقتل • فأخبرته أن المرأة الفلانية ذهبت بها الى هذا الشيخ ، وهو الذى كتب لها ذلك ليحببها الى سيدها • فنزل فى الحال ، وأرسل فقبض على الشيخ صادومة المذكور ، وأمر بقتله » ، ثم أتبع الأمير ذلك بتفتيش منزل الشيخ صادومة وأخرج منه تماثيل مخزية صار يعرضها على الناس ، ويقول لهم « أنظروا أفاعيل المشايخ ، وعزل الشيخ حسن الكفراوى من افتاء الشافعية » •

وتابع الأمير يوسف بك الكبير حملته ضد أولئك المنحرفين من المتصوفة على حين تولى نفر من العلماء من أصحاب الفكر الجديد فى هذه المرحلة الكبيرة تحذير الناس من تلك المفاسد • وعدد الجبرتى نفرا من هؤلاء العلماء وأشار الى أحدهم وهو البدرى الحجازى ، قائلا : « وكان عالما فصيحا مفوها ، متكلما منتقدا على أهل عصره وأبناء مصره » • ونقل عنه الجبرتى النماذج التالية من الشعر :

احذروا أولى التسبيح والسبحة	والصوف والعكاز والشملة
بملء الأفواه ينادون يا	أهل الوفا يا صاحب النوبة
يا سيدى أحمد يا أوليا	السكون عينونا على الحملة
لكنهم فى الفسق أرقى الورى	كما ترى من غير ما مرية

ونقل الجبرتى عن نفس هذا العالم المجدد قوله :

ليتنا لم نعش الى أن رأينا	كل ذى جنة لدى الناس قطبا
علما هم به يلوذون بل قد	تخذوه من دون ذى العرش ربا
فالحذار الحذار من فعل أهل ال	جهل لو عالما يدرس كتبا

وأوضح الجبرتى أن عامة الناس أسهموا فى الصراع الفكرى ضد المنحرفين من المتصوفة الى جانب رجال السلطة والعلماء • وجاءت الصورة التى رسمها برهانا ناصعا على قابلية العامة للاصلاح فى هذه المرحلة الأولى من الصراع

الفكرى ، وأن هذه القاعدة العريضة للمجتمع على استعداد لأن تسير وراء المصلح الصادق مهما كان بلده · وتناول ذلك بالتفصيل فى ترجمته لسيرة أحد رجال الدين المشتغلين بالوعظ من الأتراك العثمانيين ، الذين كثر ترددهم على مصر فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى وذلك على عهد الطبقة الأخيرة من المماليك فى تلك البلاد · فقال الجبرتى ان هـــذا الواعظ حين حضر الى مصر « انتقل من الوعظ ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ·· وذكر أيضا قول الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفـــوظ وأنه لا يجوز ذلك » ·

وكثر أنصار هذا الواعظ وأتباعه من العامة ، وأيدوه فى حماسة بالغة وصفها الجبرتى بقوله : « فلما سمع حزبه ذلك القول خرجوا بعد صـــلاة التراويح ، وهم يقولون أين الأولياء » · وترامت هذه الأخبار الى نفر من العلماء الذين أصدروا فتوى تحرم قول هذا الواعظ · وهنا اشتد الصراع الفكرى بين أنصار العقلية الجامدة التى مثلها هذا الفريق من العلماء ، وبين الواعظ وأتباعه · وبلغ الأمر أن تحدى الواعظ أولئك العلماء وطلب عقد مناظرة بينه وبينهم · اذ قال الواعظ لأتباعه حين بلغه فتوى هؤلاء العلماء : « أيها الناس ان علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم ، وانى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم ··· فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ؟ فقال له الجماعة نحن معـــك ولا نفارقك » · وقامت ثورة على هؤلاء العلماء ومن وقف يؤيدهم من رجال السلطان ، وصارت نموذجا مبكرا من الثورات الثقافية فى تلك المرحلة الأولى من مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث · وتركت أعمق الآثار فى نفوس الجماهير برغم فشـــــلها والقضاء على داعيتها والمناصرين له · اذ فتحت هذه الثورة أعين دعاة الفكر الحديث الى خطورة التعاون بين أهل الجمود الفكرى من العلماء وبين رجال الســـلطة ، وهو الأمر الذى سيؤجج نار الصراع فى المراحل التالية ·

واختتم الجبرتى دراسة هذه القضية الكبرى للانحراف الفكرى عنـــد المتصوفة بذكر حادثة لطيفة توضح أن هذا العهد أخذ فى الانهيار أمام وعى أهل الفكر ، ولا سيما من بعض رجال السلطان · فقال الجبرتى ان الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر اذ ذاك كانت فى حرب ضد روسيا ، وأخذت ترسل الجيوش الى موسكو (بلاد موسقو) · وعندما اشتدت حركة الجهـــاد كتب أحد المتصوفة ممن زار دار السلطنة فى استانبول اذ ذاك ، وهو المعروف بابن الترجمان ، عرضحالا الى السلطان مصطفى ، صورته : ان من قرأ استغاثة أبى مدين الغوث فى صف الجهاد حصلت النصرة له · وقدمه الى السلطان ، فاستحسن أن يكون صاحب هذا العرض هو الذى يتوجه بنفسه ويقرأ هذه الاستغاثة تبركا · ففاجأه الأمر من حيث لا يحتسب ، وأخذ فى الحال ، وكتب مع المجاهدين وتوجه رغما عن أنفه ، ووصل الى معسكر المسلمين ، وصـــار يقرأ · فقدر الله الهزيمة على المسلمين لسوء تدبير أمر العسكر ، فأسر مع من

أسر . وذهب الى بلاد موسقو وبقى أسيرا مدة . ولم يغنه أحد بخلاصه منهم لاشتغال الناس بما هو أهم ، حتى توفى ، تاركا وراءه نموذجا عملياً على ما حل بالمتصوفة من ضربات قاصمة فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى ·

التخلف بين قادة الفكر :

وعرض الجبرتى أيضا فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى للقضية الثانية الكبرى ، وهى التخلف بين قادة الفكر · اذ دار الصراع حول هـذه القضية فى ضراوة لا تقل عن قضية الانحراف الفكرى عند المتصوفة · واشتركت القضية الثانية مع القضية الأولى فى انغماس العلماء من الطرفين سواء من أجيال العصور الوسطى أو العصر الحديث فى هذا الصراع ، مع فارق هام ، وهو أن الصراع وصل الى حد الاشتباك بالأيدى فى بعض الأحوال ، بعد أن عجز القلم واللسان · وأوضح الجبرتى أن التخلف بين قادة الفكر تجلى عند مجموعتين رئيسيتين . احداهما جماعة العلماء التى تمسكت بالعلوم التقليدية ، وكرهت كل فكر جديد وحاربته ، والثانية جماعة العلماء الرسميين ، وهم الذين تولوا مناصب كبيرة فى البلاد واستغلوا علمهم لمناصرة أصحاب السلطان ، وذلك عن طريق محاربة كل جديد يهدد هذا السلطان ، وما يتبعه من زوال المعيشة الرغدة التى انغمس فيها هؤلاء العلماء ·

وعرض الجبرتى لمعالم هذا الصراع الفكرى أيضا جريا على منهجه فى اختيار النماذج البشرية التوضيحية لكل من أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث · فأوضح أن علماء العصور الوسطى من رجال هذه المرحلة كانوا من أصحاب العلم المتحجر الذى عرفوه فى كتب المتأخرين ، والذى مازال يطبع بتأثيرهم عقول الملايين بطابع الجمود وضيق الأفق · أما النماذج التى عرضها عن دعاة العصر الحديث فكانت هى التى تدعو الى تحصيل العلم الذى يجدد حيوية الأمم وأبنائها ، ويحرر العقل من الأوهام والأباطيل ، وذلك مع عرض المصادر الأولى لتراث الآباء والأجداد عرضا سليما يجعل منه قاعدة للانطلاق لا للقيود والأغلال ·

وكان أهم شيء ذكره الجبرتى عن الفريق الأول من العـلماء التقليديين هو أنهم قصروا جهودهم على الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل فى العقائد دون اجتهاد ، وأنهم نسوا أن الاجتهاد كان السبب فى ازدهار الحياة الفكرية أيام مجد المسلمين · فكان كل همهم متابعة الحواشى ، وحواشى الحواشى دون تبصرة أو فهم ، والترديد الأصم للكلمات · وربما أباح هذا النفر لنفسه الأخذ قليلا بعلم الحساب ، ولكن بقصد الاستعانة به فى علم الميراث · أما العلوم الأخرى التى ظهرت أهميتها نتيجة الصراع الفكرى فى أوربا من الجبر والهندسة وعلم الطبيعة والكيمياء ، فقد بدت لهم غير جديرة بأن تسمى علوما ·

وأرجع الجبرتى فساد أخلاق العامة فى سائر البلاد الى جهل هـؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس أو يميزون لهم بين الحق والباطل ، والحلال والحرام • ثم عرض نماذج لما ارتكبوه من مفاسد وما نالوه من عقاب أيضا • فقال ان أحد هؤلاء العلماء الذين دأبوا على الفتوى بغير علم ، طلق امرأة من زوجها الذى كان غائبا • ولما عاد الزوج قدم شكوى ضد هذا الشيخ الى الأمير يوسف بك الكبير الذى اشتهر بحرية الفكر ، ومحاربة أصحاب البدع من العلماء • وأرسل الأمير عماله الى الشيخ ، وأحضروه فى صورة منكرة وحبسه مع أرباب الجرائم • ولكن ثار نفر من زملاء هذا الشيخ وذهبوا الى الأمير ، ومعهم جماعة من العلماء الذين أطلق عليهم الجبرتى اسم « المعممين » لحرصهم على لبس العمـائم ذات المنظر الضخم •

ودارت مناقشة بين هؤلاء المعممين والأمير ، جاءت أروع صورة سجلها الجبرتى للصراع بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث • واستهل أحد المعممين المناقشة قائلا للأمير : « ما هذه الأفعال وهذا التجارى ؟ فقال له : أفعالكم يا مشايخ أقبح • فقال له : هذا قول فى مذهب المالكية معمول به • فقال : من يقول ان المرأة تطلق زوجها اذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه • ثم قال لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح ! فقال الشيخ الجداوى : أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبى • فقام الأمير على أقدامه وصرخ قائلا : والله أكسر رأسك • وعندئذ اشتدت ثورة دعاة الرجعية من المشايخ ، وسب أحدهم الأمير مذكرا اياه بأصله الأول أيام أن جاء رقيقا بين جماعة الرقيق ، ثم اشتراه سيده قبل أن يصبح من كبار المماليك قائلا له : لعنك الله ولعن اليسرجى (أى تاجر الرقيق) الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا • ولم ينته هذا الصراع الا بعد وساطة انتهت بحل وسط قوامه اطلاق سراح الشيخ المقبوض عليه •

وأثارت هذه القضية الثانية ثائرة نفر آخر من العلماء من أنصار التجديد ، وتناولوا فى سخرية أولئك « المعممين » • ونقل الجبرتى فى ذلك قصـيدة للشاعر حسن البدرى الحجازى والتى هاجم فيها « المعممين » قائلا :

عمائمـا كبروا وكمـا قد وسـعوه لـكى يسودوا
وتحت آباطهـم روايـا تسـعين كراسـا او تزيد
بهـا يميلون حيث مالـوا لأجل مال، لهم تصـيد
تزويرهم شـاع فى البرايا سيان الاحـرار والعبيـد
البعض منهم يقـول انى فى العـلم بين الورى فريد
وهو لعمرى ما ريح عـلم شم ولا بحثـه يجيـد

واستعرض الجبرتى نماذج أخرى لجهاد العلماء المجـددين ، وذكر منهم والده الشيخ حسن الجبرتى ، فأوضح أنه الى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية

اتجه الى الأخذ بالعلوم التطبيقية • فكانت عنده « الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الارتفاع والميالات والأرصاد والاسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع » • وذاعت شهرة حسن الجبرتى حتى أن طلابا من الافرنج حضروا اليه سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م ليتعلموا على يديه صنعة الهندسة ، ثم « ذهبوا الى بلادهم ونشروا بها هذا العلم » ، وأقاموا على أسسه طواحين الهواء وآلات جر الأثقال واستنباط المياه •

وأعلن الجبرتى أيضا عن طلائع تلك الدعوة للفكر الحديث عند جماعة من العلماء الأدباء ذكر منهم الادكاوى ، الذى توفى سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م • اذ نقل عن هذا الشاعر :

كن للمعاصر خير ناصر ... كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم ... كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا ... ئل ، يا فتى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعا ... فاعقد عليه من الخناصر

وصاحب التخلف بين قادة الفكر ظهور العلماء الرسميين الذين عقدوا أواصر المودة مع رجال السلطة ، وذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزخرفها • ورسم الجبرتى صورة لأحد هؤلاء العلماء تبين أنه كان يشتغل قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء • ولكن كان شغله الشاغل تحصيل المال « وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس •• وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه •• وصار يلبس قاوونا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبيه بالمتعممين والفقهاء » • وزاد من تعاظم هذا العالم أن زملاءه اذ اقتربوا منه على قدر ذراعين ضموا ثيابهم تأدبا ، ثم حبوا ومدوا أيديهم لتقبيل يده أو طرف ثوبه • أما صغار العلماء فلم يطمعوا فى تقبيل يد هذا الشيخ أو ثيابه ، واذا انصرفوا عنه غسل يديه بالماء والصابون بعد ملامستها أيديهم ، وكان يقتصر فى رد التحية عليهم بقوله « خير ، خير » •

وهاجم دعاة الفكر الجديد هذه الظواهر من التعالى والغرور لدى العلماء الرسميين ، والتنديد بهم فى كل مكان ، حتى صار الصراع بين الفريقين على أشده • ونقل الجبرتى فى ذلك قول الشيخ حسن البدرى يهاجم العلماء الرسميين :

عن علماء عصرك لا تسألن ... فان أحوالهم ظاهرة
نفعك من جانبهم منتف ... فى هذه الدنيا والآخرة
قوم اذا لاح لهم مطمع ... تسارعوا كالأكلب العاقرة
فجانب خذ عنهم تسترح ... اذ قربهم صفقتك الخاسرة
ونفسك الزم فعسى أن تكن ... مع فرقة أوجهها ناضرة

واستطاع الجبرتي بذلك أن يترك صورة رائعة عن تلك المرحلة الأولى من الصراع ، مبينا أن أجيال العصور الوسطى وان بدت طاغية فان أوتادها قد اهتزت ، وأن أجيال العصر الحديث وان بدا صوتها خافتا قد انطلقت وتحررت ، وأن الزمن معهم وفق سنن التطور التي لا تتبدل .

المرحلة الثانية من الصراع الفكري :

رسمت الصورة التي عرضها الجبرتي للمرحلة الثانية من الصراع الالتقاء بين الفكر الذي تمخضت عنه المرحلة الأولى وبين نتاج الفكر الأوربي ، الذي بلغ ذروته عند قيام الثورة الفرنسية . وجاء الاحتكاك المباشر بين هذين اللونين من التفكير عقب نزول حملة نابليون بونابرت الى مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، وهي السنة التي قال عنها الجبرتي : « وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة .. واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ». وكان هذا الانقلاب الذي أشار اليه الجبرتي هو الزاد الجديد الذي ناله أبناء عصره أثناء صراعهم مع الفرنسيين في المرحلة الثانية من مراحل الصراع الفكري .

ودار الصراع في هذه المرحلة الثانية حول قضيتين أساسيتين ، احداهما ، مدى الارتباط بين العقيدة والعمل ، والثانية ، كيفية التجاوب مع الحضارة الأوربية . واتبع الجبرتي في معالجة هذه المرحلة الثانية أسلوبا جديدا جمع الى طريقة التراجم باعتبارها نماذج بشرية للأجيال المتصارعة ـ الاهتمام بسرد الحوادث التي توضح جوانب الصراع . مع الجرأة في اعطاء قلمه وريشته منتهى الحرية في تكوين الظلال والألوان .

وجاءت القضية الأولى الخاصة بمدى الارتباط بين العقيدة والعمل وليدة الهزة الفكرية التي أصابت الأجيال على اختلاف مشاربها حين فاجأتهم حملة بونابرت وما اشتملت عليه من فرق لا تضم محاربين فحسب بل ومن العلماء ، ويعملان معا في انسجام تام . وكانت الهزة عنيفة صحبها أسئلة عديدة عن كيفية الوصول الى أمثل السبل لمواجهة الغزو العسكري الفكري المزدوج . اذ لم يكن غزوا يتطلب قوة بشرية فحسب بل يقتضي اعداد عمل يرتكز على وعي سليم ، خشية الضلال والتخبط في المتاهات . وسرعان ما تلقف دعاة الفكر الجديد الكرة في الصراع في هذه المرحلة الثانية ، ورأوا أن تمسكهم بالعقيدة الاسلامية لا يحول بين مواجهة الأوضاع التي انقلبت بمجيء الحملة الفرنسية ، فقالوا ان هناك تأثيرا متبادلا بين العقيدة والعمل ، لأن العقيدة تدفع الى العمل وذلك على حين يقوم العمل بتثبيت العقيدة ، ويطبع النفس عليها ويرسخ أوتادها .

واعتمد الجبرتي في عرض هذه المرحلة من الصراع على الوثائق ونقلها بأمانة لتكون هاديا ومرشدا ، وليتجنب الريب التي قد يستغلها دعاة الأجيال

المتداعية ضد الفكر الحديث . فأورد صورة المنشور الأول الذى أعلنه نابليون بونابرت على أهل مصر عقب استيلائه على الاسكندرية . اذ تضمن هذا المنشور فكرة جديدة عن مفهوم العقيدة وكيف أن هذا المفهوم الجديد يجب أن يختلف عما درج عليه العرف القديم ، والذى أساء استخدامه الطبقة الأخيرة من المماليك فى مصر . وجرى هذا المفهوم فى التبرير التالى الذى ساقه نابليون عن مجىء حملته الفرنسية الى مصر :

« أيها المصريون قد قيل لكم اننى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قصدت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين . واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه ، والقرآن العظيم . وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقـــل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شىء أحسن فيها ..

« ولكن بعنونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، ومن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور . وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

وبدأت هذه الأفكار الجديدة تدخل مع الحذر فى قبولها والافادة منها أيضا فى صراع مرير طوال عهد الحملة الفرنسية على مصر مع رواسب الماضى . وتجلى ذلك حين هرب جميع كبار العلماء والمشايخ عقب استيلاء الفرنسيين على البلاد وهزيمة المماليك . وعندما ذهب وفد من صغار العلماء لمقابلة بونابرت والتفاهم معه على الأوضاع ، بعد فرار المماليك دارت المناقشة التالية التى رواها الجبرتى. قال : فتلقى بونابرت العلماء وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقـــال : لأى شىء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ، ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة ، فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان » .

وظل العلماء برغم مودتهم واشتراكهم فى الديوان الجديد الذى شكله بونابرت حريصين على عدم الأخذ بأى شىء قد يثير الريبة فى نفوسهم سواء من حيث دينهم أو علاقتهم بمواطنيهم من أهل البلاد . وروى الجبرتى هذا اللون من الصراع الفكرى قائلا : « طلب صارى عسكر بونابرته ــ المشايخ . فلما استقروا عنده ــ نهض بونابرته من المجلس ، ورجع وبيده طليسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طليسان ثلاثة عروض ، أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به الى الأرض ، واستعفى وتغير وانتقع لونه واحتد طبعه . فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحبـــابا لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامتـــه ، فان تميزتم بذلك

عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم • فقالوا له :لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا المسلمين • فاغتاظ لذلك ، وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى : انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك • فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك • فقال ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم وهى العلامة التى يقال لها الوردة • فقالوا : أمهلونا حتى نتروى فى ذلك » •

وانتقل هذا الصراع الفكرى الى عامة الناس حين فرض الفرنسيون عليهم ضرورة استخدام الشارات ، ولا سيما المعروفة باسم الوردة • فقال الجبرتى « فأنف الناس من وضعها ، وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين ، اذ هو مكروه » • وكشف الجبرتى بذلك عن قيام لون جديد من التفكير القومى جاء وليد الاحتكاك بمفاهيم الفرنسيين عن السلطان • وبدأت العقيدة تأخذ طابعا جديدا قوامه الحرص على المظهر الوطنى والدينى فى نفس الوقت • وتبلورت هذه المفاهيم الجديدة فى الثورات التى قام بها المصريون ضد الفرنسيين واحتلالهم للبلاد • وسجل الجبرتى نفسه أحاسيسه ازاء هذا الصراع الفكرى الجديد ، وذلك حين وضع كتابا بعد خروج الفرنسيين عن مصر سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » • اذ جاء هذا الكتاب نموذجا لأصالة العقيدة الاسلامية ، وقدرتها على اكتشاف أباطيل الفرنسيين وزيف أراجيفهم • اذ نعت الجبرتى الفرنسيين بالنفاق والخداع والخروج على جميع الأديان • وهذا الرأى هو الذى تبلور أخيرا فى العودة الى التنسيق بين العقيدة والعمل ، وانطلاق أجيال العصر الحديث فى ظله من أجل الاطاحة بجمود أهل العصور الوسطى وأغلالهم •

وكان الجدل الذى دار بين المفهوم الجديد للعقيدة سببا فى اثارة قضية أخرى وهى كيفية التجاوب مع الحضارة الأوربية • فبينما وقفت العقيدة الحارس الأمين لتطور الفكر فانها أوضحت أن ارتباطها بالعمل لا يحول بين الأخذ بمظاهر الحضارة الأوربية ، وذلك فى النواحى التى تزيل جمود الماضى وأغلاله وتؤدى بالمجتمع الى التقدم العلمى واسترداد أمجاده • ذلك أن الحملة الفرنسية على مصر جعلت قادة الفكر يفيقون الى أن الحضارة الغربية أصبحت هى حضارة العالم ، وأن كل حضارة سواها لا تستطيع البقاء الا اذا أخذت بالأسباب التى أدت الى ازدهار حضارة الغرب ، من حيث الاعتماد على العلم والحرية السياسية •

وتناول الجبرتى بنفسه توضيح أهمية هذا التفكير العلمى وضرورة الأخذ به بالرغم من اعجابه بأهل وطنه وهم يقومون بالثورات على الفرنسيين فى مصر • اذ كان يأسف لما يحدث من تدمير للأجهزة العلمية والفلكية فى بعض الثورات ، قائلا : ان تلك الأجهزة لا تقدر بقيمة الا « عند من يعرف صنعتها » • وجاء أروع تسجيل لاعجاب الجبرتى بأهمية التقدم العلمى وضرورته فى الوصف

المطول الذى أورده عن زيارته للمعامل الخاصة بالأبحاث ، والتى أقامها الفرنسيون بالقاهرة • وروى الجبرتى هذا اللقاء الحضارى بين أجيال العصـــور الوسطى والعصر الحديث دون أن يخجل من السخرية مما حدث له من رهبة وهو يشاهد الفرق الشاسع بين الفكر العلمى فى وطنه اذ ذاك وبين ما وصل اليه الفرنسيون • فقال :

« وأغرب ما رأيته فى ذلك المكان (وهو معمل لأبحاث الكيمياء) أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ماء الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا فأخذناه بأيدينا ونظرناه •• وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف ــ فخرج له صوت هائل كصوت الفربانة انزعجنا منه ــ فضحكوا منا •• وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلـــكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة ، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت طقطقة ، واذا مســـك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة ، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه ، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه متصلا به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفا أو أكثر ، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » •

وعاد الجبرتى بعد استعراض هذه التطورات الجديدة الخاصة بمشاهداته فى معامل الأبحاث الفرنسية الى التراجم مرة أخرى يستكمل بها مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث على عهد الحملة الفرنسية • وأوضح أن التجاوب الحضارى صار سريعا بين أجيال الفكر الحديث وبين الاقبال على العلم الغربى • وضرب لذلك أمثلة عند تناوله لسيرة الشيخ حسن العطار • وكان شابا وعالما فى مقتبل العمر عندما جاء الفرنسيون الى مصر • وهرب الى الصعيد فى ذلك الوقت شأنه شأن غيره من العلماء الذين ابتعدوا عن الفرنسيين • ولكن عاد مرة أخرى بعد دعوة الفرنسيين للعلماء ، واتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية ونقل عنهم بعض علومهم ، وذلك فى الوقت الذى تولى فيه تعليمهم اللغة العربية • وصار الشيخ حسن العطار من دعاة التجديد والعمل على أن تأخذ مصر بالحضارة الأوربية لاستعادة تقدمها وأمجادها •

المرحلة الثالثة من الصراع الفكرى :

استكملت الصورة التى رسمها الجبرتى للصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث جميع معالمها وروعتها حين وصلت الى المرحلة الثالثة

من مراحل هذا الصراع • ويرجع السبب فى ذلك الى أن الجبرتى لم يقتصر على سرد التراجم والأحداث فحسب على نحو ما فعل فى المرحلتين الأولى والثانية ، ولكن أسهم مباشرة فى المرحلة الثالثة بقلمه وجاهد دون أن يأبه بما يلقاه أصحاب الفكر الحر والقول الصريح من اضطهاد وعناد •

وجرى الصراع الفكرى فى هذه المرحلة الثالثة حول دعوتين متباينتين ، ما زالت تدور حولهما الى الوقت الحاضر معالم التكوين السياسى والحضارى للعالمين الاسلامى والعربى • واتجه التفكير فى الدعوة الأولى الى الاصلاح الروحى ، والانطلاق فى أمان نحو آفاق العصر الحديث ، وذلك على نحو ما عاصر الجبرتى أحداثه فى الحركة الوهابية ونشاطها وتطورها • واتجهت الدعوة الثانية الى الاصلاح المادى على أنه الطريق الذى لا بديل عنه لملاحقة ركب الحضارة العالمية ، وذلك على نحو ما سجله الجبرتى عن جهود محمد على فى بناء دولته بمصر • وزاد فى حيوية تصوير الجبرتى لهاتين القضيتين المعاصرتين له ، أن أحداث كل منهما تشابكت مع الأخرى ، والتقت أيضا وجها لوجه فى صراع التجأ فيه الفكر لا الى القلم فحسب بل الى دوى السلاح وبطشه كذلك •

وأجاد الجبرتى عرض الصراع الذى خاضته الدعوة الوهابية حيث اتفقت أفكارها مع مذهبه السلفى وفكره الحر فى نفس الوقت • وسجل الأفكار الجديدة التى جاءت بها هذه الدعوة عند دراسته لأحداثها التاريخية ، وذلك بصورة شيقة بعيدة عن الجفاف الذى يصاحب الدراسات الفلسفية حول العقائد • فأوضح الجبرتى أن الوهابيين اتخذو من فكرة التوحيد فى العقيدة وفكرة التوحيد فى التشريع سلاحا لهم وهم يخوضون معركتهم ضد الجمود • اذ كانت فكرة التوحيد فى العقيدة تدعو الى ابطال البدع التى دخلت على الاسلام من أعمال المتصوفة وزيارة الأضرحة والطبل والزمر فى الموالد والحج ، وتقرر فى نفس الوقت العودة الى طهر الحياة الاسلامية الأولى وتعاليمه السليمة • أما فكرة التوحيد فى التشريع فتنعى ما أصاب الناس من تخلف بسبب قفل باب الاجتهاد فى الأيام الأخيرة للعصور الوسطى ، وما صحب ذلك من جمود وتقليد وجرى وراء الجمل والفتاوى فى كتب السابقين ، وترى فى نفس الوقت أن لا سبيل للخلاص من هذه الجهالة القاتلة دون العودة الى الاجتهاد فى فهم العقائد ، لأن الله سبحانه وتعالى هو مشرع العقائد ، وليس فى كلام أحد حجة فى الدين الا فى كلام الله سبحانه وتعالى وكلام سيد المرسلين • وتفرعت عن هاتين الفكرتين عند الوهابيين مسائل عديدة اتجهت الى هدم البدع التى أدخلها الناس على الاسلام مثل زيارة القبور والتوسل بالأضرحة والاحتفال بالمحافل عند الحج •

وأثار انتشار الدعوة الوهابية على نحو ما صوره الجبرتى فزعا عند كل من : أصحاب السلطان والعلماء الرسميين ، وشنوا على هذه الدعوة ثورة فكرية مضادة • وتمثل الرواية التى ذكرها الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة سنة

١٢٢٢ هـ/١٨٠٧ م فى شىء من التفصيل نموذجا للصراع الفكرى الذى دار حول الحركة الوهابية وكيف أعطى قلمه الحرية فى التعليق على تلك الأحداث بما يوضح فكره السديد • فقال انه حدث اذ ذاك انقطاع الحج الشامى المصرى لأن الناس تعللوا بأن الوهابيين منعوهم من الحج • ويعلق الجبرتى على ذلك قائلا : « والحال ليس كذلك ، فانه لم يمنع أحدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة . وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع ، مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة • وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام ، وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشىء » •

واستطرد الجبرتى بعد ذلك فى توضيح الأسباب التى دعت الى اشتداد الخصومة مع الوهابيين • فذكر أن أصحاب المنافع من البدع والأباطيل ذهبوا الى استنبول حيث مقر السلطان العثمانى ، واشتكوا اليه ما قام به الوهابيون من مفاسد وأضرار ضد المحمل والشعائر الاسلامية ، وأنهم نقلوا ما كان بالحجرة الشريفة « من الذخائر والجواهر » • وعلق الجبرتى على هذا الادعاء تعليقا مسهبا ومستندا أيضا الى علمه الواسع فى الدين وحقيقة جوهره وتاريخه • فقال : أن هذه الذخائر والجواهر أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، اما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها ، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء • فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبى (ص) فلا يجوز لأحد أخذها وزاد الجبرتى تعليقه صراحة قائلا : « والنبى (ص) منزه عن ذلك ، ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبيا عبدا ، ولم يختر أن يكون نبيا ملكا » •

واختتم الجبرتى تصويره لتطور الحركة الوهابية مبينا أن أعداءها من أصحاب المصالح على اختلاف أهوائهم من السلطان العثمانى والعلماء الرسميين وبسطاء العامة تكتلوا ولجأوا الى القوة والبطش • وكان محمد على هو الأداة التى استغلها هذا الفريق للقضاء على الحركة الوهابية • ولكن الجبرتى أكد أصالة الحركة الوهابية وقوة دعاتها برغم إسر بعضهم واقامتهم فى مصر • فقد زار بنفسه اثنين من قادة الوهابيين فى مصر ، وقال : « وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما أنسا وطلاقة لسان ، واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع والتهذيب والأخلاق وحسن الأدب فى الخطابة والتفقه فى الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف » •

واتخذ الجبرتى من اختتام تصويره للحركة الوهابية على يد محمد على نافذة انتقل منها الى معالجة الدعوة الثانية التى نادى بها هذا الحاكم ، وما سلكه

من سبل فى الاصلاح المادى • ووقف الجبرتى موقفا صريحا فى وصفه للنهج الذى سار عليه محمد على ، وأن الهدف الذى ساد الصراع بينهما هو الوصول الى البناء المثالى وذلك دون الاطاحة بالقديم اطاحة عمياء ، أو الجرى وراء الجديد دون وعى وادراك • فأشاد الجبرتى بما قام به محمد على من اصلاح مادى ، شمل جميع المرافق وخاصة ميادين التعليم والأخذ بمناهجه الحديثة • ولكن ساءه أن محمد على لجأ فى سبيل تحقيق أهدافه الى أساليب أبعدته عن الفضائل الخالدة • فهاجم الجبرتى وسط تسجيله لاصلاحات محمد على الأخطاء والمظالم التى صاحبت تلك الاصلاحات •

ووصف الجبرتى فى جرأة أساليب محمد على بأنها ملتوية ، وأن مظهرها غير مخبرها ، سواء فى الميدان السياسى أو الاقتصادى ، فتناول أساليب محمد على فى الوصول الى ولاية مصر عن طريق علاقته مع السيد عمر مكرم قائلا : « ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملق اليه ويأتيه ويراسله ، ويأتى اليه فى أواخر الليل ، وفى أوساطه مترددا عليه فى غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة ••• الى أن عقد السيد عمر مجلسا عند محمد على وأحضر المشايخ والأعيان — وأشار الى اختيار محمد على — الذى أظهر التمنع وقال أنا لا أصلح لذلك ، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة • فقــالوا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة والعبرة رضا أهــل البــلاد » •

واختتم الجبرتى وصــفه لاصلاحات محمــد على المادية برأى آخر شديد الصراحة قائلا عن هذا الحاكم « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هــذه الأزمان • فلو وفقه الله بشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » •

وأصاب الجبرتى نتيجة اشتراكه الفعلى فى هذه المرحلة الثالثة من مراحل الصراع الفكرى ما يصيب المفكر الحر من اضطهاد ومأس • اذ حين علم محمد على بما سجله عليه الجبرتى من آراء وانتقادات تآمر سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م على قتل ابن هذا المؤرخ • وأصابت هذه الفاجعة الجبرتى ، وانطوى على نفسه حتى توفى سنة ١٢٤١ هـ/١٨٢٥ م تاركا فى الصورة التى رسمها للصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث زادا غزيرا خالدا ما زالت تستمد منه حركات التحرر فى كل من الوطن العربى والعالم الاسـلامى حتى اليــوم ما يجنبها المعاثر والخطوب ويدفع بها وبأوطانها الى ركب التقدم العلمى والتوجيه الفكرى السليم للبشرية فى كل مكان •

مكان عبد الرحمن الجبرتي بين المؤرخين المسلمين

للدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الاسلامي
بكلية الآداب بجامعة عين شمس
ورئيس قسم التاريخ

مكان عبد الرحمن الجبرتي
بين المؤرخين المسلمين

اشتهرت مصر بمؤرخيها العظام ، لا سيما فى فترة حكم سلاطين المماليك (٦٤٨ ــ ٩١٨/١٢٥٠ ــ ١٥١٧) ، ففيها ظهر من المؤرخين أعداد وطبقات لا تحصى ، قدموا حشدا من مادة تاريخية ، لا مثيل لها ، فى أية فترة سابقة أو لاحقة ، أو فى أى بلد عربى آخر ، الا أنه بفتح العثمانيين لمصر ، وعلى مدى ما ينيف على ثلاثة قرون (٩١٨ ــ ١٥١٧/١٢٢٦ ــ ١٨١١) ، لم نصادف من مؤرخى مصر (١) ، غير عدد قليل جدا يعد على الأصابع ، ليس لهم تآليف هامة • ولا غرو ، فعصور الاضمحلال لا تجد عادة من يكتب عنها ، اذ أن مصر وقد أصبحت ولاية فى امبراطورية العثمانيين ، تدهورت سياسيا وحضاريا •

ولكن فى أواخر الحكم العثمانى لمصر ، ظهر فجأة ، وعلى غير انتظار ، عملاق من عمالقة التاريخ ، هو عبد الرحمن الجبرتى (٢) (١١٦٧ ــ ١٧٥٤/١٢٤٠ ــ ١٨٢٥) ، الذى كان سخيا فى انتاجه على غير العادة ، فألف فى تاريخ مصر كتابين مشهورين هما : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (٣) • ومظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس (٤) • فكان ظهوره فذا فى وقته بحيث اعتبر طبقة

(١) مثل : شمس الدين محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (١٠٠٥ ــ ١٠٦٠ / ١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) ، الذى ألف مختصرا لخطط المقريزى أسماه : قطف الأزهار من الخطط والآثار ، رتبه على حسب ترتيب المقريزى ، وتوجد منه نسخة خطية فى دار الكتب ، برقم ٤٥٧ جغرافية • وكذا مؤلف آخر ، اسمه الاسحاقى ، لا نعرف عنه شيئا يذكر ، ألف كتابه بعنوان : أخبار الأوائل فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣٢٥ هـ •

(٢) هو عبد الرحمن بن الحسن الجبرتى •

(٣) تأخر نشر هذا الكتاب وتم طبعه عدة مرات أهمها فى أربع أجزاء فى ١٣٢٢/١٩٠٤ ــ ٥ وله ترجمات متعددة تركية وفرنسية وروسية •

(٤) يتناول فترة لا تتعدى بضعة سنوات هى مدة الاحتلال الفرنسى لمصر ، نشره لأول مرة محمد عطا ، فى جزءين ، فى مجموعة : اخترنالك (٥٩) ، القاهرة ١٩٥٨ •

وحـده ، من طبقات مؤرخي مصر العظام ، لا مثيل له في أي بلد عربي آخر . ولمكانته الخاصة ، ظهر الاهتمام العالمي به في الغرب (١) والشرق ، وخصصت عنه أبحاث عديدة .

ولا شك أن ظهور الجبرتي مؤرخا متميزا ، راجع الى أنه وجد في فترة حساسة جدا في تاريخ مصر ، وهي فترة أواخر العصر العثماني المملوكي وغزو الفرنسيين لمصر والسنوات الأولى من حكم محمد علي ، فبقصد أو من غير قصد ، ظهرت نتيجة لحكم الفرنسيين البشائر الأولى للقومية المصرية ، ثم انهم أقاموا في مصر أكاديمية أو مجمعا علميا ، بقي طيلة الأعوام التي لبثها الاحتلال الفرنسي فيها ، ثم بعث من جديد ولا يزال قائما حتى اليوم باسم : «المجمع العلمي المصري» . وقد عني بدراســـة كل ما يتعلق بمصر وبكل ما كتب عنهـا في التاريخ ولو بالعربية . وبعد رحيل الفرنسيين عاش الجبرتي فترة اليقظة ، التي حدثت في أيام محمد علي ، حيث أصبح كل شيء مصريا ، وجرى اسم مصر على كل لسان ، وبدأ عصر جديد في تاريخها .

ومن جهة أخرى : فان اعداد الجبرتي نفسه ، جعله يسمو الى مرتبـــة المؤرخين الكبار . فقد كان على علم بمعظم كتب مؤرخي مصر العظام وغيرهم ، حيث يورد في مقدمة كتابه (٢) : عجائب الآثار : قائمة بأسمائهم ومؤلفاتهم ، التي كان بعضها تحت يده ، وان كان يشكو من أن معظمها بدأ يتسرب (٣) من مصر الى خارجها . يضاف الى ذلك ، أنه كان على علم بصنعة التاريخ وقواعده ، فقد سود أوراقا « مســـودة » لوقائع اجمالية (٤) ، وأخرى محققـة تفصيلية ، شاهدها بنفســه ، وبعد مرحلة الجمع سار في تنسيق ما جمعه مرتبـا له على السـنين . وكان له تعريف خاص بعلم التاريخ ، فهـو وان كان يندرج فيـه علوم كثيرة ، الا أنه تميز فيهـــا باعتماده عن الأصول (٥) ، التي تتعلق بأحوال الأشخاص الماضين ، والوقوف على الأحوال من حيث هي : فسمت نفســه الى ارجاع مكانة هذا العلم واعادته الى سابق ازدهاره ، على الرغم من أن معاصريه نبذوه ، واعتبروه أساطير الأولين .

---

(١) نبه له المستشرقون ، أو كتبوا عنه المقالات ؛ أو ترجموا له مقتبســات ، أمثال : Heyworth, Dunne, Macdonald, Bowen, Lane-Poole, Von Kremer, Ayalon, Toynbee, Brockelmann, Gibb. و وغيرهم .

(٢) مثل : الذهبي ، وابن خلدون ؛ وابن اياس ، وابن حجر ؛ والصفدي ؛ والسيوطي ، وابن عساكر ، والسخاوي ، وابن دقماق ، والعيني ، وابن الاثير ، وابن زنبل ، والنويري ، وغيرهم . أنظر . عجائب ، ١ ص ٥ ــ ٦ .

(٣) نفسه ؛ ١ ص ٦ س ١٧ ــ ١٨ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٢ س ٨ ــ ٩ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٥ س ١٥ ؛ ص ٣ س ٣ ــ ٥ .

فقد كان مثل معظم المؤرخين المسلمين ، يرى أن التاريخ يعتمد أساسا فى كتابته على السماع والمشاهدة ، حتى انه كان يأخذ ملاحظات يومية ، منذ عام ١١٩٠/١٧٧٦ (١) . ويفضل هذه الطريقة المثلى ، ساق فى حولياته حشدا من الأخبار : حتى شبه بابن اياس (٢) ، الذى هو مؤرخ مصرى أيضا ، عاش فى أواخر سلطنة المماليك ، ونقل فى يومياته كل ما يتعلق بالحياة المصرية وقتذاك . وقد لجأ الجبرتى فى نقل أخباره الى الوسائل المعروفة ، منها (٣) : ما هو بالتواتر والاشتهار ، مما وصل الى علمه يقينا ، وثبت خبره لديه ، وبالرجوع الى أفواه المسنين ، وبأخذ ما نقش على الحجر من المقبورين ، وحتى من الوثائق المترجمة عن المستندات الفرنسية الرسمية .

ولا نتجاوز الحقيقة ، اذا قلنا ان الجبرتى : هو أول مؤرخ اسلامى : صنع من التراجم ، التى تتناول الصفات العالية ، عملا تاريخيا يكمل الخبر . ومع أن التراجم لها أصل فى أيام التآليف الاسلامية الأولى ، فكانت تعرف باسم : مناقب أو « طبقات » أو « أنساب » أو غير ذلك ، وظهرت أيضا فى مصر أيام سلطنة المماليك ، وكثرت بحيث لم يوجد لها مثيل فى أى بلد عربى آخر ، الا أنها لم تبق بعد زوالهم ، الى أن أحياها الجبرتى . وربما كان الجبرتى متأثرا فيها ، برغبة عارمة ظهرت فى بلاد الشرق ، بقصد احياء مجد العروبة الغابر من خلالها ، فان المؤرخ المرادى (٤) الدمشقى (ت صفر ١٢٠٦/أكتوبر ١٧٩١) ــ المعاصر له ــ كان يؤلف فى التراجم ، وراسله ، وأوصاه أن يسير على نسقه ، وقبل المرادى فاتحه المرتضى الزبيدى (٥) (ت شعبان ١٢٠٥/ابريل ١٧٩١) ــ وهو أستاذه فى مصر ــ فنصحه بالكتابة فى التراجم . ومع ذلك فانه لا يجب أن نبالغ فى المؤثرات التى أتت للجبرتى من الخارج ، وانما يكون الاعتبار للمؤثرات من مصر ، وأن الجبرتى قد جعل نصب عينيه الاهتمام بالخبر ، حتى ولو قدم فى تسمية كتابه : « عجائب الآثار » ، التراجم على الأخبار (٦) .

ثم هو من نفس المدرسة التاريخية الاسلامية ، التى ترى ارتباط التاريخ بخلق الأرض وظهور آدم عليها ، وتعليل الحوادث بمسببات الهية ، على أساس أن قدر الانسان ، كتب فى لوح محفوظ . ثم هو مثلهم يرى أن الشعر ، وحتى السجع أحيانا ، هو من أسلوب كتابة التاريخ . وفى الواقع ، فان أسلوب

---

(١) نفسه ، ١ ص ٦ س ٢٨ .

(٢) يعتبر محمود الشرقاوى المؤرخ الجبرتى : هو المتمم لابن أياس (دراسات فى تاريخ الجبرتى) ، وان كنا نرفض هذا التعيين على أساس أن تاريخه لم يتصل بتاريخ ابن اياس .

(٣) نفسه ، ١ ص ٦ س ٢٦ وما بعدها .

(٤) ألف كتابه : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ؛ طبع بولاق ١٢٩١ هـ .

(٥) هو صاحب قاموس تاج العروس .

(٦) فعل ذلك لمجرد أن يلتزم السجع .

الجبرتي التاريخي ، لم يكن منتظرا ، في ذلك الوقت ، حيث كانت العامية هي المسيطرة ، وكانت التركية هي لغة الدولة الحاكمة في مصر ، وبذلك يعد الجبرتي من المؤرخين الأدباء ، الذين كان لهم مثيل فيما سبق ·

وفوق ذلك ، فان الجبرتي ، مثل مؤرخي مصر الاسلامية الكبار ، يؤمن بمصر التي ولد فيها (١) ، ودفن فيها أجداده ، حتى أن جل ما كتبه يتعلق بها وحدها ولم يخرج فيه عنها الا نادرا ، فضلا عن أنه ترجم لعدد كبير من أعيان مصر ، بحيث أن تاريخه بحق هو تاريخ مصر · بل ويمكن فيه تصور معالم القاهرة جلية واضحة ، فساق عنها معلومات مفصلة ونادرة ، فهو يتكلم ـ مثل المقريزي من قبل ـ عن الخطط والحارات والمواقع والأماكن من ميادين وشوارع وعطفات ودروب ، ومساجد وقصور وبساتين وحتى النيل اذا قصر أو لم يقصر · فتاريخه صورة صادقة ناصعة في جبين التاريخ المصري في وقته ، نحس فيه بصدق العاطفة وحرارتها ، وتجعلنا نعايشه ·

ومع ذلك ، فهو لا يرى لمصر ، الا أن تكون في حماية الدولة العثمانية او الخاقانية ـ كما كانت تسمى أيضا ـ على أساس أنها حامية الخلافة ، ومشرفة على شئون الاسلام أمام العالم المسيحي ، فيرى أن ملك مصر ، متشرف بانتظامه في ممالكها ، وأنها أي العثمانية أفضل مما كان من الأمويين والعباسيين والفواطم · فهو مثل بقية المؤرخين المسلمين ، لا يظهر عندهم وطنية اقليمية وانما يدركون الوحدة الاسلامية · ولا شك ، فان أهل جبرت قد عرفوا بتقواهم ، وتمسكهم بشعائر الاسلام ·

والواقع أن الجبرتي كان السبب في اليقظة التاريخية في مصر في العصر الحديث ، أعادت إليها أصالتها السابقة في علم التاريخ الاسلامي ، حتى ان المؤرخين المصريين ، الذين أتوا بعده ، لجيلين أو أكثر وجدوا صعوبة في الانطلاق نحو الطريقة الحديثة في كتابة التاريخ الاسلامي · ومع ذلك ، فان كل من جاءوا بعده ، لم يستطيعوا أن يصلوا الى مستواه ، بدليل أن علي باشا مبارك ، الذي عاش وكتب في القرن التاسع عشر ، كتب خططه على نسق خطط المقريزي ، ولكن التفاصيل التي أتى بها لم تكن جديدة ، على عكس ما فعله الجبرتي في تآليفه ، وانما كان علي باشا مبارك جامعا ·

والخلاصة أن الجبرتي يحتل مكانة خاصة بين مؤرخي المسلمين العظام ، كتب على طريقتهم وبأسلوبهم ، فهو نتاج الأصالة لمدرسة التاريخ في مصر الاسلامية ، وان اعتبر آخر الذين كتبوا بطريقة الحوليات ، أي السنوات ·

---

(١) أصله من جبرت ، أو أريتريا حاليا ، وهي المنطقة الاسلامية في جنوب الحبشة ؛ اذ أن سابع جد له ، واسمه عبد الرحمن ، قد ورد مكة والمدينة ؛ وجاور فيهما ، ثم انتقل الى مصر ، وأصبح شيخ رواق الجبرتية في الأزهر ، وزعيم طائفتهم ؛ واستمر ذلك وراثيا في أسرته · انظر ·
Encyclopaedia of Islam, (art Djabart) ; (art al-Djabarti), 2 ed., t. 2, p. 355 sq.

الجبرتي ومكانته في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني

للدكتور محمد أنيس

تاريخ مصر فى العصر العثمـانى من الفترات التاريخيـة التى لم يهتم المؤرخون بها اهتماما كافيا لا فى مصر ولا فى الدوائر العلمية فى الغرب • ولم يبدأ هـذا الاهتمام بشكل جدى الا فى السنوات الأخيرة • ففى الغرب خـرج الاهتمام من انجلترا ومن مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية فى لندن ، فقد كتب الأستاذان Gibb Bowen كتابهما (المجتمع الاسلامى والغرب) وعالجا فى الجزءين اللذين صدرا من هـذا الكتاب أحوال العالم فى القرن الثامن عشر بصفة خاصة • وقد صدر الجزء الأول منه سنة ١٩٥٠ • على ان الاهتمام بتاريخ مصر العثمانية استمر فى مدرسة الدراسات الشرقية ، فقد كتب P. Holt عدة مقالات فى مجلة هذه المدرسة لعامى ١٩٥٩ و ١٩٦١ ، منها مقال عن وثيقة رضوان بك وأصل المماليك وآخر عن (الباكوية فى مصر العثمانية فى القرن السابع عشر) ثم نشر هولت كتابا عن مصر العثمانية والهلال الخصيب ، كما كتب دافيـد أيالون D. Ayalon فى نفس المجلة ١٩٦١ بحثه عن عبد الرحمن الجبرتى •

ويبدو ان الاهتمام بهـذه الحقبة التاريخية قد بدأ يظهر فى الدراسـة الجامعية الأمريكية أيضا فقد نشر ستانفورد شو S. Show رسالته عن (التنظيم الادارى والمالى فى مصر العثمانية) ١٩٦٢ •

ولعل السبب فى اهمال هـذه الحقبة التاريخية لهـذه الفترة الطويلة ان التطورات السريعة التى نزلت بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر بعد اتصال مصر بالغرب والحضارة الغربية والاستعمار الغربى جعل الدراسات التاريخية عن مصر تتركز حول القرن التاسع عشر •

وقد نحت الدراسات التاريخية فى مصر هذا النحو ، فالحركة التاريخيـة النشيطة التى شاهدتها مصر فى أواخر العشرينات .وفى الثلاثينات كان يقوم بها

مؤرخون أجانب ويرعاها القصر • ولما كانت هذه الحركة قد قصد بها كتابة تاريخ مصر دفاعا عن سلوك وسياسة أسرة محمد علي ، لذلك لم تهتم بفترة الحكم العثماني • ومع ذلك فحين تولى المصريون زمام هذه الحركة التاريخية ، شاهدت المكتبة التاريخية اهتماما واضحا بالعصر العثماني • فقد نشر الأستاذ محمد شفيق غربال في عام ١٩٣٦ تحت عنوان (مصر عند مفترق الطرق ـ رسالة حسين أفندي الروزنامجي) ـ وفي هذه الفترة أيضا قدم الأستاذ محمد محمد توفيق رسالته عن (خط القرمة) وهو أحد الخطوط التي كانت تكتب بها حسابات المالية والأوامر الادارية في العصر العثماني ، كذلك كتب محمد رفعت رمضان رسالته للماجستير عن (علي بك الكبير) وفي السنوات الأخيرة تجدد الاهتمام بدراسة أحوال مصر العثمانية في رسائل طلاب الماجستير والدكتوراه في الجامعات المصرية • ولكن بصرف النظر عن هذه المحاولات لم تستكمل بعد دراسة تاريخ مصر العثماني •

ما هي أهم مصادر تاريخ مصر العثمانية المعاصرة :

نستطيع أن نقسم هذه المصادر المعاصرة الى أنواع ثلاثة :

أولا ـ الوثائق الرسمية • وهذه الوثائق منها المصري والتركي والأوربي • أما الوثائق المصرية فهي اما بدار المحفوظات بالقلعة أو في دفاتر المحكمة الشرعية أو وزارة الأوقاف المصرية ـ وفي مقال للأستاذ ستانفورد شو في مجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية (١) عرض المؤلف للوثائق العثمانية الموجودة بدار المحفوظات بالقلعة وفي دفترخانة المحكمة الشرعية • وخلاصة المقال انه بينما تشتمل دار المحفوظات على وثائق ذات أهمية كبرى من الناحيتين المالية والادارية ، تتركز أهمية وثائق المحكمة الشرعية ووزارة الأوقاف في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية (٢) •

أما بالنسبة للأرشيف التركي فالمعلومات التي لدينا مستمدة من مقال شو السابق الذكر ، ويتضح منه أن الجهود بذلت في تركيا لجمع المحفوظات وترتيبها في السنوات العشر الأخيرة • ويبدو من هذه الدراسة التي قام بها شو في الأرشيف التركي ان مركز الثقل في وثائق العصر العثماني بمصر موجود في دار المحفوظات بالقاهرة • وقد حان الوقت لأن تهتم الدوائر العلمية بهذه الوثائق ، وأن تعد الطلاب اعدادا كافيا لدراسة وثائق دار المحفوظات المتعلقة بالعصر العثماني •

---

(١) المجلد الثاني ـ الجزء الاول ـ مايو ١٩٥٦ •

(٢) راجع مقال الدكتور محمد أنيس (حقائق جديدة عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية) المجلة التاريخية لسنة ١٩٦٢ ص ١٤٦ وما بعدها •

وأما الأرشيف الأوربى فى الخارج فهو غنى أيضا بما يتعلق بتاريخ مصر فى العهـــد العثمانى ، ونخص بالذكر أرشيف البنـدقية ومرسيليا ولندن ـ والأرشيف فى هذه المدن الثلاث يتناول بصفة رئيسية نشاط الدول الأجنبية السياسى والتجارى فى ذلك الوقت ، وان كانت تحتوى كذلك على وثاق خاصـــة بالأحوال الداخلية فى مصر ـ وقد درس شارل رو Charles-Roux الأرشـــيف الفرنسى وخرج كتابه Les échelles françaises du Levant كما درس الارشيف الانجليزى واخرج كتابه L'Angleterre et l'Isthme de Suez

كذلك قدر لكاتب هذه السطور ان يدرس الارشيف الانجليزى فى العصر العثمانى وأن يخرج من هذه الدراسة ببحث ٠

أما أرشيف البندقية فمع أنه اغنى الارشيفات الاوربية فيما يتعلق بهـذا الموضوع ، الا أنه لم يكن ، فيما نعلم موضع دراسة علمية حتى الآن (١) ٠

ثانيا ـ الكتاب المعاصرون ـ من هؤلاء مجمـــوعة الرحالة الاجانب الذين زاروا مصر خلال العصر العثمانى وكتبوا عن احوالها ٠ فى مقدمة هؤلاء مجموعة الدراسات التى كتبها علماء الحملة الفرنسية فى مؤلفهم الكبير (وصف مصر) وهذا المؤلف رغم خطورته لا يصور احوال مصر السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعية تصويرا دقيقا الا فى الفترة السابقة للاحتلال الفرنسى مباشرة ٠

وبالنسبة للرحالة الفرنسيين ، جمعهم الاستاذ M. Carré فى دراسة تحت عنوان : Les voyageurs et écrivains français en Egypte.
وهذه الدراسة تتناول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر وما قبله ، وان كان يكاد يقتصر فى دراسته على الفترة الســـابقة للقرن التاسع عشر على عـــدد محدود من هؤلاء الرحالة أما Clément فقد عنى بدراسة الرحالة الفرنسيين فى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك فى كتابه Les Français d'Egypte au XVIème et XVIIème siècles ولذلك تعتبر دراسة كلمنت مكملة لما فعله كاريه ٠

أما بالنســـبة للرحالة الانجليز فلم تظهر دراســـة كاملة لهم فى العهد العثمانى ، وان كان كاتب هذه السطور قد حاول دراسة مجموعة منهم من الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ٠

ويلاحظ حول هذا النوع من المصـــادر بالذات رغم أهميته انه يجب أن يؤخذ بحذر شديد ٠ فالاوربيون بسبب الاوضـــاع العـــامة فى مصر فى العصر

---

(١) نعلم أن الدكتور توفيق اسكندر أستاذ الوثائق والمكتبات بجـامعة القـاهرة ومدير دار الوثائق بعابدين سابقا قد درس أرشيف البندقية وصور منه الكثير مما يتعلق بمصر ويقوم الآن بدراسة ما صوره من هذه الوثائق ٠ راجع مقال الدكتور محمد أنيس (مصر عند منحنى القرن الثامن عشر ٠ مصـــادره ووثائقه التـــاريخية) المجلة التاريخية ١٩٥٠ ٠

العثمانى لم يتمكنوا من التغلغل فى الحياة المصرية ودراستها دراسة وافية . وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسى فى تاريخ مصر لم تبدأ الا بالقرن التاسع عشر بكتاب E.W. Lane (عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم) .

والنوع الثانى من كتابات المعاصرين للعصر العثمانى ما كتبه المصريون أنفسهم . وهذه المراجع ذات أهمية كبرى فى عملية بناء التاريخ المصرى العثمانى ، لانها تصور الاوضاع من الزاوية المصرية ، وهى المراجع التى تعالج تاريخ هذه الفترة بطريقة مباشرة ، ولذلك تبدو أهمية حصر هذه المصادر وجمعها ونشرها من أهم الخطوات التى يمكن أن تخدم تاريخ مصر فى العصر العثمانى .

اسباب تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى :

نلحظ حول المراجع التاريخية المصرية المعاصرة للعهد العثمانى :

أولا – أن أغلبها لم ير النور بعد فهى لازالت مخطوطة ومبعثرة فى المكتبات الشرقية والاوربية ، والمرجع فى حصر هذه المخطوطات **كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربى)** وان كان بروكلمان قد فاته ذكر بعض هذه المخطوطات (١) والسبب فى بقاء أغلب هذه المراجع مخطوطة ما سبق أن ذكرناه من اهمال المؤرخين لهذه الفترة التاريخية .

ثانيا – رغم الحقيقة السابقة فالمصادر التاريخية المعاصرة قليلة اذا قورنت بالعصر المملوكى ، مما يؤكد تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى – فما هى الاسباب التى ادت الى هذا التدهور ؟

١ – فى مقدمة هذه الاسباب تسرب الكتب التاريخية من مصر . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى الذى ينتمى الى أواخر العصر العثمانى يؤكد هذا السبب (٢) فبعد ان عدد كتب التاريخ التى يعرفها يقول (وهذه صارت اسماء من غير مسميات . فانا لم نر من ذلك كله الا بعض أجزاء مدشتة بقيت فى بعض خزائن كتب الاوقاف بالمدارس مما تداولته ايدى الصحافيين وباعها القومة والمباشرون ونقلت الى بلاد المغرب والسودان (٣) .

٢ – كذلك أدت كثرة الفتن فى العصر العثمانى والنزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية الى اتلاف الكثير من المكتبات ، وفى ذلك يقول

---

(١) على سبيل المثال مخطوط أحمد شلبى بن عبد الغنى . لم يذكرها بروكلمان وهى فى مكتبة جامعة ييل بأمريكا .

(٢) عجائب الآثار جـ ١ ص ٦ .

(٣) يلاحظ مما ورد فى بروكلمان وفهرس معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ان عددا كبيرا من مخطوطات هذا البلد موجود بمكتبة الجزائر .

الجبرتى عند حديثه عن تدهور التاريخ فى عصره : (ثم ذهب بقايا البقايا فى الفتن والحروب واخذ الفرنسيس ما وجدوا الى بلادهم ٠ ولما عزمت على ما كنت سودته وأردت أن أصــــله بشىء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش الا بعض كراريس سودها بعض العـــامة من الأجناد ركيـكة التركيب مختلة التهـذيب والترتيب وقد اعتراها النقص فى مواضع من خلال بعض الوقائع ٠ وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ولكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى عبد الغنى مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمانى للديار المصرية وينتهى كغيره ممن ذكرناه خمسين ومائة وألف هجرية ، ثم ان ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم ووقع فى صـــندوق العدم ومن ذلك الوقت الى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ولم يسطر فى هذا الشأن شيئا يفيد فرجعنا الى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبورين) ٠

والحقيقة ان الجبرتى أخطأ فى اعتقـــاده فى أنه ليس هناك من كتب فى التاريخ ما بين أحمد شلبى بن عبد الغنى أى من ١١٥٠ هـ حتى عصر الجبرتى نفسه ، ومع ذلك فاضطرار الجبرتى الى الاعتماد على دفاتر الكتبة والمباشرين الى غير ذلك دليل على ندرة المراجع التاريخية أو اختفائها فى عصره ٠

٣ ــ يشير الجبرتى فى موضع آخر الى سبب ثالث لتدهور علم التاريخ (١) فى ذلك الوقت ، وهو **عدم اهتمام العصر بكتابة ودراسة** التاريخ ونظرتهم الهابطة الى هذا النوع من المعرفة ٠ قال : (ولم تزل الامم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانسانى نعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا بعد خلف الى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين ولعمرى انهم لمعذورون وبالأهم مشتغلون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة ٠ فان الزمان قد انعكست أحواله وانخرمت قواعده فى الحســـاب فلا تضبط وقائعه فى دفتر ولا كتاب واشغال الوقت فى غير فائدة ضياع وما مضى وفات ليس له استرجاع الا أن يكون من مثل الحقير منزويا فى زوايا الخمول والاهمال منجمعا عما شغلوا به من الأشغال فيشغل نفسه فى أوقات من خلواته ويسلى وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته) ولم يكن الجبرتى وحده يشكو من ذلك ٠ فهناك مؤرخ فى الشام وهو المرادى صاحب كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، كان يشكو من ظاهرة تدهور علم التاريخ فيقول عند زيارة للاستانة : (ثم جرى ذكر التاريخ وفقدانه فى هذا الوقت وعدم الرغبة اليه من أبناء الدهر مع أنه المادة العظمى فى الفنون كلها) (٢) ٠

---

(١) جـ ١ ص ٤ ٠

(٢) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢٥ ٠

٤ ــ غير ان هناك سببا آخر وهو أن تدهور التاريخ كان يعكس فى الحقيقة تدهورا عاما فى الحياة العلمية ولا سيما فيما يسمى بالعلوم العقلية ٠ ويجرنا هذا الموضوع الى أن نعرض سريعا لخصائص الحياة العلمية فى العصر العثمانى ٠

كان الحكم العثمانى يقوم فى مصر ــ وفى أغلب الولايات ــ على قاعدة بقاء الأوضاع بصفة اجمالية على ما كانت عليه قبل الفتح العثمانى ، لذلك ورثت مصر العثمانية أغلب مظاهر الحياة من العصر السابق لدخول العثمانيين سواء فى نظم الحكم الادراية أو المالية أو فى تركيب المجتمع نفسه ، فالحكم العثمانى حكم اقطاعى ضعيف لم يحدث تغييرا جذريا فى حياة المجتمع المصرى رغم بقائه ما يقرب من ثلاثة قرون ٠ هذه الحقيقة الى جانب العزلة التى فرضت على المجتمع المصرى سواء من قبل العثمانيين أو بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق الأوسط الى الطريق حول أفريقية ، كل هذا جعل من مصر ــ بل من منطقة الشرق العربى عامة ــ منطقة راكدة لم تتأثر بالتيارات الحضارية التى كانت تجتاح أوروبا من عصر النهضة الايطالية حتى الثورة الفرنسية ٠

واذا كان الحكم العثمانى بطريق مباشر أو غير مباشر، بفعل العثمانيين أو بسبب الظروف الدولية التى أحاطت بالفتح العثمانى لمصر، قد أدى الى تدهور مصر سياسيا واقتصاديا ، فالى أى حد أثر هذا الفتح فى الحياة الفكرية والعلمية فى مصر ؟ الحقيقة أن التأثير العثمانى فى هذا المجال ضعيف لا يكاد يذكر ٠ والسبب الرئيسى لذلك ما ذكرناه من شكل الحكم العثمانى ، فالدولة العثمانية كدولة اقطاعية من نوع معين كانت ترى ان وظائف الدولة تنحصر فى حدود معينة : كجمع الضرائب والدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن فى الداخل ٠ وما عدا ذلك مما يدخل فى مفهومنا الحديث لأخص خصائص الدولة كاشراف على الحياة الاقتصادية والتعليمية والصحية لم يكن له وجود فى تقدير الدولة ، لذلك احتفظ المجتمع بتركيبه السابق على الفتح العثمانى ، مجتمع سمته الأساسية الطائفية ، فهو مقسم الى طوائف تقوم كل طائفة برعاية مصالحها فيما بينها وبذلك ارتفعت يد الدولة عن الجماعات المشكلة للمجتمع ، وتحددت العلاقة بين هذه الطوائف والدولة فى حدود ضيقة للغاية ــ وهكذا استطاعت المؤسسات العلمية أن تعمل بعيدة عن الدولة ، فلم تتأثر أو تأثرت قليلا بالتدهور السياسى والاقتصادى الذى اجتاح مصر والبلاد العربية فى العصر العثمانى ٠

وقد ساعدت على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العربية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى ليقدموه للحياة العلمية فى مصر ــ فلم يتعلم المصريون اللغة التركية ، وأما التعليم فى الأزهر والمدارس التابعة له ، فقد كان من الطبيعى أن تكون دراسة الفقه والحديث مستندة على مصادرها الأصلية العربية ــ حقيقة ان الاتراك عملوا فى نطاق الشرق العربى على دعم السنة وتقوية هذا المذهب ومحاربة

التيارات الشيعية ، ولكن هذا الموقف كان له شأنه فى التوازن بين الشيعه والسنة فى العراق أو الشام ولم يتأثر المجتمع المصرى بهذه السياسة لأنه كان بعيدا عن هذا التطاحن المذهبى الدينى • وحقيقة ان الاتراك عملوا كذلك على رفع شأن المذهب الحنفى ، على انه لا يجوز المبالغة فى هذا الأمر أيضا ، فقد احترم الاتراك المذهب الشافعى ، وهو المذهب الغالب فى مصر فى ذلك الوقت ، فمنصب مشيخة الازهر طوال العهد العثمانى ظل فى علماء الشافعية •

طبيعة الحكم العثمانى اللامركزى ، وطبيعة تكوين المجتمع المصرى فى العهد العثمانى من أهم الاسباب التى ساعدت على بقاء الحياة العلمية والمؤسسات العلمية بصفة اجمالية كما كانت قبل العصر العثمانى ـ وثمة سبب آخر على جانب كبير من الاهمية فى هذا الوقت ، ألا وهو بقاء نظام الاوقاف المحبوسة على معاهد التعليم والعلماء مما ساعد على بقاء هذه المعاهد قائمة على خدمة الثقافة العربية الاسلامية •

لكل هذه الأسباب ظل المجتمع المصرى فى العهد العثمانى يحتفظ بالكثير من التقاليد الاخلاقيةوالعلمية • فى مقدمة هذه التقاليد نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية واقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء ، من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهد ، وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة ، ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر • كما شارك البكوات المماليك والأثرياء من المصريين فى هذا المضمار • كذلك كان السلطان العثمانى يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا ، أو يأمر بمرتبات من الضربخانة • وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ، ولا سيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر • ومن هذه التقاليد الاسلامية العلمية ، السعى فى سبيل الحصول على العلم ، فالعالم الحق هو الذى يقضى حياته كلها يتلقى العلم من غيره فى مثابرة وجد ، وبدافع حب العلم لذاته • فمن الحقائق المعروفة أن غالبية العلماء فى ذلك العصر لم يكونوا يعيشون على دخلهم من العلم ، باستثناء أساتذة الأروقة فى الأزهر ، بل كان أغلب العلماء يشتغلون بحرفة يتكسبون منها ـ وكان العالم يتجشم الصعاب والسفر فى طلب العلم • لذلك كانت العلاقات وثيقة بين العلماء العرب • وتاريخ الجبرتى حافل بتراجم لعلماء من مختلف انحاء العالم العربى من الذين استقروا فى مصر • وان كانت ظاهرة الترحال فى سبيل العلم أكثر شيوعا بين علماء الشام ـ وكان من عادة العلماء فى ذلك العصر أنه اذا سافر أحد العلماء فانه ينزل فى منزل زميل له ، أو باحدى المدارس التى يدرس بها هذا الزميل • كذلك كان من عادات هذا العهد التصاق الطالب بأستاذه ، فيلازمه ملازمة كلية أو كما كانوا يقولون (لازمه حسا ومعنى) • وقد أشار الجبرتى الى والده الشيخ حسن الجبرتى ، الذى يمكن اتخاذه نموذجا لأسلوب الحياة العلمية فى هذا العصر ، فقال (واذا أتاه

طالب فرح به وأقبل عليه ورغبه وأكرمه خصوصا اذا كان غريبا وربما دعاه للمجاورة عنده وصار من جملة عياله ــ ومنهم من أقام عشرين عاما قياما ونياما لا يتكلف الى شيء من أمر معاشه حتى غسيل ثيابه من غير تعب ولا ضجر) ٠ وهذه كانت روح التضامن فى طلب العلم ، وتشكل جانبا من التقاليد التى عرفتها المجتمعات الاسلامية فى العصور الوسطى وبقيت فى العصر العثمانى ، وكان يدفع اليها بطبيعة الحال أن العلم فى ذلك الوقت كان متصلا بالدين بصفة أساسية ، فتشجيع العلم والثقافة من مظاهر التقوى والورع ٠ لهذا يمكن القول بأن الحياة العلمية لم تمتد اليها يد التلف كما امتدت الى الحياة السياسية والاقتصادية ٠ والعلم كان يؤدى وظيفة اجتماعية فى المحافظة على كيان المجتمع الاسلامى فى عصر من التدهور تعرض له المجتمع ٠

والامر الواضح ان هذه الحياة العلمية لم يكن ما اصابها من إنكماش وتضاؤل راجعا الى نقص فى عدد المدارس والمدرسين والاوقاف المحبوسة على المؤسسات العلمية بل يرجع فى الدرجة الاولى الى تدهور المستوى العلمى نفسه ٠ والقياس هنا ليس بالنسبة للعصر اللاحق للعهد العثمانى ، أى فى عهد الحملة الفرنسية وعهد محمد على ٠ ولكن بالنسبة للعهد السابق للعصر العثمانى ٠ ان الحياة العلمية قد تدهورت فى العصر العثمانى حتى بدأت حركة بعث واحياء على أساس الأخذ من الغرب منذ مطلع القرن التاسع عشر ٠ والأمر بعكس ذلك تماما ، فاذا كان القرن الثامن عشر أخرج مؤرخا مثل عبد الرحمن الجبرتى ، فمن المؤكد أن النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يعرف على الاطلاق تأليفا مبتكرا فى التاريخ ٠ ولعل السبب فى ذلك يرجع الى تغيير اتجاه المجتمع فى حياته الفكرية ، ففى الوقت الذى تدهور فيه الأزهر فى مطلع القرن التاسع عشر ، لم تكن معالم الاتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب قد تبلورت بعد ٠

ولا شك فى أن العصر السابق للعصر العثمانى كان عصر الاشراق الفكرى فى تاريخ المجتمع الاسلامى كله ، بعد سقوط بغداد فى يد المغول وخروج المسلمين من الاندلس ٠ غير أن الحياة الفكرية فى مصر تعرضت لأزمة فى نهاية العصر المملوكى قبل دخول العثمانيين ٠ فأخلدت هذه الحركة الى الركود ، وفقدت روح الابداع والتجديد ، ثم جاء الفتح العثمانى فلم يولد لدى المثقفين ردود فعل انتاجية خصبة ، وهكذا مالت الحياة الفكرية من ركود الى ركود ــ لم يضرب العثمانيون نطاقا غليظا على الفكر والتعليم فى مصر ولم يغلقوا المدارس ، ولم يقفوا سدا منيعا فى وجه الابتكار والتأليف ، بل انهم على العكس من ذلك تركوا ــ كما رأينا ــ الحياة التعليمية فى مصر تسير فى مجراها الطبيعى ، فأبقوا المدارس وأوقافها ، وفتحوا مدارس جديدة ٠ فالاحتلال العثمانى ليس وحده المسئول عن ضعف الحياة الفكرية ولكن شيوع روح النقل والمحافظة وانكماش روح الابتكار والخلق كان السبب وراء هذا الانكماش الفكرى ٠ وكان من مظاهر

ضعف الحياة الفكرية انتشار الطرق الصوفية وزحف التصوف على الحياة العقلية بل والحياة الاجتماعية • ثم انحط التصوف من فلسفة الى دروشة وكان بعض العلماء أنفسهم قد آمنوا بالأولياء ، بل ان بعضهم كان مرشحا لهذه المرتبة ، وهكذا انحط مستواهم الفكرى الى مستوى العامة من الاعتماد على قراءة أدب الكرامات والطقوس الصوفية ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضا فى العصر العثمانى التركيز بصفة مطلقة على علوم الدين دون علوم الدنيا • ولا شك فى أن العثمانيين كان لهم أثر فى هذا الموقف ، فقد عملوا على تشجيع هذا التيار تدعيما للاسلام والسنة خاصة • ونتج عن ذلك اهمال تام للعلوم العقلية أو الدنيوية ، ومنها التاريخ •

ونخلص من هذا كله الى الحقائق التالية :

اولا : ان التدهور العلمى فى العصر العثمانى كان من ناحية الكيف والمستوى لا من ناحية الكم •

ثانيا : ان تدهور المستوى العلمى كان قد بدأ قبل نزول العثمانيين بمصر ، وأن العلم والمعاهد فى مصر فى العصر العثمانى كانت تؤدى وظيفة اجتماعية أكثر منها علمية أو ثقافية •

ثالثا : ان تدهور علم التاريخ يرجع الى تدهور المستوى العلمى العام بالنسبة لعلوم الدنيا أو العلوم العقلية بالذات •

رابعا : ان نقل الكتب التاريخية الى استنبول عقب الفتح العثمانى مباشرة ، الى جانب تسرب هذه الكتب تدريجيا الى اوربا وشمال افريقيه والسودان ، ثم تلف مكتبات المدارس والجوامع ابان الفتن ونتيجه للاهمال ، كل ذلك كان من شأنه تدهور علم التاريخ فى ذلك العصر •

ومع هذا كله ، فالصورة التى قدمها الجبرتى عن موقف الدراسات التاريخية فى مصر مبالغ فيها الى حد بعيد • فمن الواضح أنه لم تكن لدى الجبرتى صورة كاملة عن التأليف التاريخى السابق ، وخصوصا بالنسبة للقرنين العاشر والحادى عشر الهجريين أى قبل ١١٠٠ هـ وهى السنة التى يفتتح بها تاريخه •



ونستطيع ان نقسم مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى الى ثلاثة اقسام :

أولا : مجموعة المؤرخين من العلماء الذين ظلوا أو حاولوا ـ سواء من ناحية فهمهم للتاريخ أو طريقة كتابته ـ متأثرين بمدرسة التاريخ الاسلامى ، يمثل هؤلاء القرن العاشر الهجرى كل من : ابن اياس ، وأحمد شلبى عبد الغنى • وفى القرن الحادى عشر كل من : الاسحاقى وابن أبى السرور

البكرى الصديقى • ويمثلهم فى القرن الثانى عشر : عبد الرحمن الجبرتى وعبد الله الشرقاوى •

ثانيا : مدرسة التراجم ــ وهذه ليست جديدة على التاريخ المصرى السابق للعهد العثمانى ، ولكنها نشطت فى العصر العثمانى بشكل واضح ــ وفى القرن العاشر برز العينى ، وفى القرن الحادى عشر الزبيدى ، والجبرتى فى القرن الثانى عشر •

ثالثا : مدرسة الاجناد • وهذه تبتعد كثيرا عن مدرسة العلماء فى فهمها للتاريخ أو طريقة كتابته ، فهى تفتقر الى أية خطة فى البحث والكتابة ، وأميل الى طريقة الكتابة الشعبية ، وان قدمت مادة تاريخية فريدة فى أهميتها ، ويمثلها : الدمرداش كتخدا عزبان ، ومصطفى ابن الحاج ابراهيم فى القرن الحادى عشر •

مدرسة المؤرخين التقليديين :

ابن اياس ــ الاسحاقى ــ أبو السرور البكرى ــ عبد الرحمن الجبرتى ــ عبد الله الشرقاوى •

افتتح العصر العثمانى بمؤرخ كبير شهد أواخر العصر المملوكى ثم الفتح العثمانى والسنوات الأولى من حكم العثمانيين لمصر ، هو ابن اياس ، واختتم بمؤرخ كبير أيضا هو الجبرتى • وابن اياس ينتمى في نظر مؤرخى العصر المملوكى الى العصر المملوكى أكثر من انتمائه الى العصر العثمانى ، ولذلك وضعه الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى عداد مؤرخى القرن الخامس عشر ، على الرغم من أنه مات فى سنة ١٥٢٤ أى بعد الفتح العثمانى بثمانى سنوات • شاهد وأرخ للفتح العثمانى وللتنظيمات العثمانية الأولى فى مصر ــ ويمكن الرجوع فى دراسة ابن اياس الى ما كتبه الدكتور زيادة (١) ، والى ما كتبه المؤرخ البريطانى مارجوليوث (محاضرات فى المؤرخين العرب) •

وقد عالج ابن اياس الفتح العثمانى والتنظيمات العثمانية الأولى فى كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) ــ ولم يكن ابن اياس من المؤيدين للسادة الجدد ، ولذلك تلمس فى حديثه عن الفتح العثمانى وسياسة العثمانيين فى مصر الكثير من التحقير والنقد اللاذع ــ غير ان أمانة ابن اياس العلمية ودقتة فوق مستوى الشبهات ، فهو لا يزال المرجع الأول عن فترة الفتح العثمانى •

ولكن ابن اياس يقف عند بداية العصر العثمانى ــ والواقع ان المراجع فقيرة فى هذه الناحية بالذات ، وحول هذا الموضوع بصفة خاصة ، وما لدينا بعد ذلك يدخل فى القرن الحادى عشر الهجرى •

---

(١) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى •

واذا كانت مراجع القرن الحادى عشر تتناول المجتمع المصرى ، وقد أصبح عثمانيا فان أهميتها تأتى من أنها تصور الموقف داخل المجتمع المصرى ــ العثمانى في ذلك القرن ، في أوله انهيار النظام العثمانى وتدهور الباشوية المصرية لحساب الاوجاقات العثمانية ــ ثم حوالى منتصفه تدهور الاوجاقات بدورها وبداية ظهور سيطرة البكوات المماليك ٠

★★★

وفى مقدمة المؤرخين الذين تناولوا القرن الحادى عشر اثنان هما : الاسحاقى وابن أبى السرور البكرى الصديقى ــ والاسحاقى هو محمد بن عبد المعطى بن ابى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى ابن على الاسحاقى المنوفى الشافعى ٠ ذكر المحبى فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر أنه كان أديبا وشاعرا ، قرأ ببلده على شيوخ كثيرين وكان يتردد على القاهرة وحضر على عدد كبير من علمائها وتوفى فى عام ١٠٦٠ هـ (١) ٠

وفى عام ١٠٣٣ هـ فرغ من كتابه (لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول) ويعرف بتاريخ الاسحاقى ٠

وقد قسم الاسحاقى كتابه هذا الى مقدمه عن فضائل مصر وذكرها فى كتاب الله وما ورد عنها من أحاديث سيد المرسلين ، ثم يبدأ فى تناوله تاريخ مصر منذ أيام الخلفاء الراشدين والدول التى مرت عليها ، ويشق طريقا طويلا فى ذلك حتى ينحصر نصيب مصر فى العصر العثمانى فى الفصلين التاسع والعاشر ٠

وفى عرضه لهذا التاريخ المصرى فى العصر العثمانى يبدأ الاسحاقى أولا بالكلام عن كل سلطان من السلاطين العثمانيين فى عرض سريع ، ثم يفصل فى الكلام عن كل نائب أو والى من الذين حكموا فى العصر العثمانى ، فيذكر تاريخ تعيين وعزل كل باشا بدقة واضحة ، وأهم الأعمال التى تمت فى عهده حتى ينتهى عند سنة ١٠٣٢ هـ آخر تولى ابراهيم باشا السلحدار ٠

ويتميز الاسحاقى بميزتين الى جانب ما ذكرت : أولا : اهتمامه الواضح بأسعار الحاجات بين وقت وآخر ، ولهذا أهميته فى دراسة الأحوال الاقتصادية فى ذلك الوقت ــ ثانيا : رغم أنه من رجال العلم وبعيد نسبيا عن سياسة الدولة وسلطاتها الا أنه يعطى صورة واضحة لتدهور الباشوية المصرية ٠

اما المؤرخ الآخر الذى يمثل القرن الحادى عشر والمعاصر للاسحاقى فهو السيد محمد بن السيد محمد أبو السرور البكرى الصديقى الشافعى المصرى المعروف بابن أبى السرور ــ والمعلومات التى لدينا عن هذا المؤرخ قليلة للغاية : فهو توفى فى سنة ١٠٨٧ هـ ٠ انما يبدو ان ابن أبى السرور المؤرخ نشأ فى

---

(١) معجم سركيس ص ٤٣١ ٠

بيئة علمية واسعة النفوذ ، وأن البيئة الخاصة التى عاش فيها مكنته من أن يكون أكثر الماما بأحداث عصره من الاسحاقى • فقد ذكر الصديقى فى كتابه (النزهة الزهية) عند كلامه عن محمد باشا الذى تولى سنة ١٠٠٤ هـ (وعمر المشـــهد الحسينى وزينه وتقيد بأمره واتقنه ودرس فيه والدى بحضرته فخرج متعجبا من هذا الدرس وبهجته (١)) •

أما عن غنى الأسرة وجاهها ، فقد ذكر فى حديثه عن محمد باشا أيضـــا (وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحا كان نادرة الزمان وفريدا فى الحسن والاتقان، ابذل فيه أموالا كثيرة وتجمل فيه بتجميلات غزيرة ، أصرف فيه من النقد نحوا من خمسة آلاف دينار ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد عن هذا القدر ، ونزل فيه البكلر بك المذكور (٢) وذلك بمنزل والدى شيخ الاسلام أبى السرور المطل على بركة الرطل المعروف بالشادروان •• فكانت مده الفرح أربعين يوما لم يذق فيها غالب أهل مصر نوما مع الوقدات الوافرة ببركة الرطل) (٣) وربما نفهم من حديثه عن أبيه أنه كان شيخا للجامع الأزهر ، فشيخ الجامع الأزهر كان يلقب بشيخ الاسلام ، الى جانب كونه شافعيا ، ومما يؤكد أن والده كان شيخا للأزهر ما ذكره المؤرخ فى حديثه عن خضر باشا ، قال :

(وكان يغلب عليه الشح الزايد وشرع فى قطع أرزاق العلماء من القمح ، فطلع له والدى رحمه الله وكالمه فى ذلك وأنكاه بالكلام ، فقال للوالد يا مولانا هذا الغالب على الذين لهم القمح تجار وليس فيهم علماء ، فقال له الوالد يا مولانا الوزير نحن نكتب لكم دفترا باسماء العلماء الذين لهم القمح فأجاب الوزير الى ذلك وأمر المقاطعجى بالذهاب الى منزل الوالد فى غير أيام الديوان للنظر فى هذه القضية ثم لم يزل الوالد رحمة الله يتلطف بالوزير الى ان أجاز الاعطاء الخاص والعام (٤)) •

ويتضح من هذا أن ابن أبى السرور نشأ فى بيئة علمية ذات ثراء ، وان ذلك كان له الفضل فى ان المؤرخ كان على صلة بمجريات الأمور ، ولذلك جاءت كتاباته أكثر فهما لتطور الأحداث السياسية من الاسحاقى •

ولا تزال مؤلفات هذا المؤرخ كلها غير منشورة حتى الآن على كثرتها (٥) • وفى مقدمة هذه الكتب ، كتاب (عيون الاخبار ونزهة الابصار) وهو التاريخ

(١) ص ٣١ – النزهة الزهية •

(٢) أى الباشا العثمانى •

(٣) ص ٣١ النزهة الزهية •

(٤) ص ٣٤ • النزهة الزهية •

(٥) يقوم كاتب هذه السطور بنشر كتابه (النزهة الزهية) فى اطار مشروع لجنة نشر مخطوطات مصر العثمانية المشكلة من : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وكاتب هذه السطور •

الكبير لهذا العالم ، ابتداء من الخليقة الى دولة الجراكسة ، ورتبه على تسعة عشر مقصدا : في شرف علم التاريخ واختلاف الناس فيه مقدار الزمان ، وفيمن سكن الأرض قبل آدم ، وقصة آدم ، وذكر ملوك الفرس واليونانيين والروم ، وفى سيرته « صلى الله عليه وسلم » والخلفاء الراشدين بعده ، وخلفاء دولة بنى أمية والعباسيين ، وبنى أميه فى الأندلس ، والدولة الديلمية والفاطمية والسلجوقية والأيوبية والتركية .. الى آخر دولة الجراكسة • فالكتاب كما هــو واضح لا يقتصر على تاريخ مصر ، بل يشمل تاريخ الدول الاسلامية بشكل عام ، فهو بحث فى التاريخ الاسلامى العام •

أما بالنسبة لتاريخ مصر فى العصر العثمانى وهو ما يدخل فى مجـــال دراستنا هذه ، فقد كتب ابن أبى السرور البكرى (النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية) وهو بحث مختصر فى ذكر الخلفاء وملوك مصر ونوابهم منذ أقدم العصور الى دولة السلطان مراد ابن السلطان أحمد فى سنة ١٠٤٢ هـ ثم يختتم الكتاب بفصل عن (خصوصيات مصر وعجائبها ومنتزهاتها وما قيل فيها نظما ونثرا) •

كذلك كتب هذا المؤرخ فيما يتعلق بمصر العثمانية بحثا منفردا عن حوادث مقتل ابراهيم باشا فى سنة ١٠١٢ هـ على يد أجناد الاوجاقات ، والمعارك التى دارت بعد ذلك بين الباشا الجديد محمد باشا الكرجى الخادم والاوجاقات حتى تصفية ثورة الأوجاقات • وسمى هذا (كشف الكربة فى رفع الطلبة) •

والمؤلف التاريخى الرابع للصديقى هو (المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية) ويبدو أنه كتب هذا الكتاب بعد عيون الاخبار وبتكليف من بعض (الفضلاء الائمة النبلاء •) وقد بدأ الكتاب بتاريخ الدولة العثمانية منذ أيام عثمان ، حتى اذا وصل فى الباب التاسع الى السلطان سليم أخذ يذكر ولاة مصر الذين حكموا فى عهد كل سلطان ابتداء من سليم ــ ولما كانت النسخة الوحيدة الموجودة بدار الكتب تنتهى عند عام ١٠٢٩ هـ ، ولما كنا نعلم ــ حسبما ذكر هو فى مقدمة كتابه ــ أنه كتبه بعد تأليفه لعيون الاخبـــار الذى انتهى به الى زمن السلطان مراد سنة ١٠٤٢ هـ ، فلا بد أن للكتاب اجزاء أخرى مفقودة ليست فى متناول يدنا •

على أنه من الواضح من ناحية أخرى أن حديثه عن ولاة مصر فى هذا الكتاب الذى يتناول تاريخ الدولة العثمانية لا يختلف فى كثير أو قليل عما كتبه عن هؤلاء الولاة فى كتابه النزهة الزهية • وعلى ذلك نستطيع أن نقول : أن ابن أبى السرور قد كتب ثلاثة كتب فى التاريخ المصرى تعتبر مكملة بعضها بعضا :

أولا : عيون الاخبار ، فى التاريخ الاسلامى العام مع التركيز على تاريخ مصر حتى نهاية عهد المماليك •

ثانيا : المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية .

ثالثا : النزهة الزهية فى تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى .

وينحصر اهتمامنا فى هذا المجال بكتابه النزهة الزهية . أولا : هناك النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية وهى ناقصة فى أولها - ولكن لدينا الآن نسختان كاملتان :نسخة مكتبة . Rylands بمانشستر بانجلترا ، ونسخة المتحف البريطانى بلندن . وينحصر ما كتبه الصديقى عن مصر العثمانية من ص ٦٢ الى ص ١٠٩ (من نسخة دار الكتب) ثانيا : يسير المؤرخ فى الجزء الخاص بمصر العثمانية على طريقة واحدة ، اذ يذكر تولية كل باشا وتاريخ عزله وما دار فى عصره من الأحداث - كما يعنى بذكر صفات الباشا وموقف المصريين منه - كل ذلك بتفصيل أكثر من الاسحاقى وبفهم أكثر لأمور الباشوية ، فهو مثلا يعنى بذكر أسماء الاوجاقات والوظائف العثمانية . ثالثا : ان أهم ما يقدمه الكتاب أسماء قضاة مصر وتاريخ تعيينهم وعزلهم ، ولذلك يعتبر هذا المرجع من المصادر النادرة فى تاريخ القضاء فى مصر فى العصر العثمانى .

رابعا : وأخيرا يتميز الكتاب بأن فصله الأخير يتناول - فى حديث طويل - النيل ومدن مصر ومتنزهاتها وعجائبها ، فهذا الفصل دراسة للخطط المصرية فى ذلك العصر .

رغم ما ذكرناه عن الاسحاقى والصديقى من أهمية كتاباتهما بالنسبة للعصر العثمانى ولا سيما القرن الحادى عشر ، فان الباحث يحس حين ينتقل من ابن اياس الى الاسحاقى والصديقى أنه قد هبط هبوطا شديدا . فالنظرة النافذة المتفحصة والمثابرة على جمع الحوادث وترتيبها والافاضة فى الكتابه ، كل هذا مما نلمسه فى ابن اياس يكاد يختفى تماما فى القرن الحادى عشر ، وكأن التقاليد التى عرفتها صناعة التاريخ فى العصر المملوكى قد ضعفت ضعفا شديدا ، وبدأت تتكون من جديد معالم مدرسة جديدة للتاريخ تتحسس خطاها مرة أخرى . غير ان هذه الارهاصات المتخلفة تخطو فجأة خطوة كبيرة فى القرن الثانى عشر عند عبد الرحمن الجبرتى ، الذى يختتم هذا الفريق من المؤرخين فى العصر العثمانى .

ويبدو الجبرتى وسط مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى عملاقا ، وأكثر من ذلك أن الكتب التاريخية الأخرى لهذا العصر تستمد أهميتها من وجود تاريخ الجبرتى نفسه ، فهى تعتبر مكملة لتاريخ الجبرتى ، ومن هذه الزاوية فقط تبدو لها بعض الأهمية - لذلك فلامحل فى الحقيقة لمقارنة الجبرتى بالمؤرخين المعاصرين له ، فالجبرتى يتميز عن كل هؤلاء بأنه يقدم صورة كاملة للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى ، والحق ان الجبرتى يعتبر أحد كبار المؤرخين فى العالم الاسلامى فى جميع أزمنته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة .

ويواجه باحث التاريخ مشكلة عويصة فى محاولة تفسير ظهور مؤرخ مثل عبد الرحمن الجبرتى فى العصر الذى عاش فيه ، فالمعقول الا يظهر مؤرخ مثل الجبرتى على الاطلاق فى هذا العصر ، ذلك أن الجبرتى بالنظر الى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، يبدو وكأنه خرج من لا شىء ولا يرجع الى شىء — فالجبرتى ظاهرة من هذه الظواهر التاريخية المعزولة تماما عن عصرها فيما يتعلق بمدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى • ولم يمتد الجبرتى كظاهرة كذلك فى الفترة التى تلته • فحتى الآن لم يحاول أحد داخل مصر ولا خارجها فى العالم العربى أن يسير على خطى هذا المؤرخ • وهذه الظاهرة ، ظهور عبقرية منفردة ، ومعزولة عن الوسط الذى عاشت فيه تبدو غريبة حقا ، ليس فقط بالنسبة لتاريخ الحضارة الاسلامية ، بل بالنسبة لتاريخ البشرية •

ومما يؤكد أن الجبرتى لم يخرج من مدرسة تاريخية معينة :

أولا : ضعف مدرسة التاريخ المصرى بصفة عامة فى العصر العثمانى — هذا الضعف بدأ بعد ابن اياس ، والفترة الأولى من الحكم العثمانى خلت تماما من المؤرخين الذين كان فى قدرتهم أن يقدموا صورة لتحول المجتمع المصرى من مملوكى الى عثمانى أى فى القرن العاشر ، والقرن الحادى عشر شاهد نهضة تاريخية أو حركة بعث فى حدود ضيقة ، ولا سيما فى التراجم ، ثم عاد الموقف الى الركود زمن الجبرتى وقبله بقليل — وحتى حركة البعث والاحياء هذه كانت ضعيفة بالنسبة لمدرسة التاريخ المصرى التقليدية فى العصر المملوكى •

ثانيا : الى جانب هذا الضعف العام فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، كانت عناية الجبرتى بالتاريخ الاسلامى والتاريخ المصرى فى العصور الوسطى ضعيفة أيضا ، فمن المؤكد ان الجبرتى لم يطلع على كتابات المؤرخين فى هذه الفترة ، بل حتى لم يطلع على كتابات الكثير من المؤرخين فى العصر العثمانى نفسه ، فهو لم يذكر سوى أحمد شلبى عبد الغنى الذى تناول تاريخ مصر من الفتح العثمانى حتى ١١٥٠ هـ ، واعتمد الجبرتى عليه فى الفترة السابقة للقرن الثانى عشر لأن الجبرتى بدأ تاريخه سنة ١١٠٠ هـ •

ما الذى يميز الجبرتى عن غيره من المؤرخين :

أولا : دقة الجبرتى — للجبرتى دقة المؤرخ واستقصاؤه للحوادث وتحفظه فى ذكرها • فهو يقول فى مستهل حديثه عن عام ١٢٢٥ هـ (وانقضت السنة بحوادثها التى قصصت بعضها اذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف • وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها ان شاء الله تعالى عند تهذيب

هذه الكتابه) ويقول فى كلامه عن تراجم الامراء (جـ ١ ص ٩٣) (ولم أخترع شيئا من تلقاء نفسى والله مطلع على أمرى وحدسى) ٠

ثانيا : الموضوعية ـ وموضوعية الجبرتى تبين من دقته وتبين كذلك من أنه يؤكد أنه يكتب للحقيقة والتاريخ ـ فهو يقول فى مستهل كتابه (ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى) ولكن هذه الموضوعية لا تجعل من الجبرتى تاريخا باردا ـ فكتابات الجبرتى تفيض بالحياة الدافئة ، والسبب فى ذلك أن الجبرتى ينفعل بالأحداث انفعالا عميقا ـ وأول مايسترعى النظر لمن يقرأ الجبرتى ، حب الرجل لبلده التى شاركها فى أفراحها ومصائبها بكل قطرة فيه ، فهو يكتب عنها وكأنه يكتب بدمه ، فالقارىء للجبرتى يحس دائما أنه يضع يده على نبض الحياة ، وأنه يعيش فى الجو الحقيقى لمصر وللعصر ـ وقد ساعد على ذلك قدرة الجبرتى على الدخول مباشرة الى قلب الموضوع وربسم صورة كاملة ببضع ضربات من فرشته ٠

ثالثا : ما هى على وجه الدقة الأهمية التاريخية للجبرتى ـ ان الجبرتى قد كتب عن عصور ثلاثة ، مصر العثمانية ، والحملة الفرنسية ، وظهور محمد على ٠ وكتاباته عن الحملة الفرنسية وظهور محمد على هامة للمؤرخ ، ولكن يشارك الجبرتى فى هذه الأهمية الكثير من المراجع الأجنبية ولا سيما بالنسبة للحملة الفرنسية ولعصر محمد على ٠ وربما يؤخذ على الجبرتى كتاباته التى حمل فيها على محمد على دون فهم واع لطبيعة حركة محمد على وأعماله ، ولكن مع ذلك فأهمية الجبرتى انما تعطى الصورة الأخرى لعصر محمد على ، على اعتبار أن ما كتبه المؤرخون الآخرون يعطى الصورة الساطعة المشرقه لحكم محمد على ، فالجبرتى يقدم الصورة الأخرى أو الوجه الآخر من هذه الصورة وهو الوجه القاتم من هذا الحكم ، وبذلك تكتمل على يد الجبرتى صورة هذا الحكم ـ ولكن الجبرتى يصور الاحوال فى مصر فى العصر العثمانى فى أدق وأحسن صورة تاريخية ، وبالذات مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى ـ ويبدو أن الفضل الأول فى ذلك يرجع الى نشأة الجبرتى ، فالجبرتى نشأ فى بيت علم وثراء ـ تحس بهذا كله عند قراءة ترجمته لوالده ، فالشيخ حسن الجبرتى كان عالما كبيرا من علماء عصره، وكان بيته مركز التقاء لهؤلاء العلماء ، ثم كان عالما ليس فقط فى علوم الدين بل فى علوم الدنيا ، ولا سيما الفلك والرياضيات ـ ومن ناحية أخرى كان الشيخ حسن رجل دنيا الى جانب كونه رجل دين ، فقد كان على صلة بالدوائر المملوكية والسلطات الحاكمه ، وتولى هو نفسه حكم قلعة الطور فى وقت من الأوقات ـ هذه الحقائق توضح البيئة التى عاش فيها عبد الرحمن الجبرتى ، بيئة العلماء وبيئة المماليك ، ولهذه البيئة فى نظرى الفضل الأكبر فى تفسير كتابة الجبرتى ، فالجبرتى غني جدا فى تصويره للمجتمع العلمى والمجتمع المملوكى فى هذا العصر

بسبب ما ذكرناه — ومع ان الجبرتى يقدم مادة لا بأس بهـا بالنسبة للطوائف الأخرى كالتجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة ، الا أن تصويره يكاد يتركز سواء فى تاريخه أو تراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى ٠

رابعا : كيف سار الجبرتى شى تأليفه التـاريخى ؟ للجبرتى كتابان : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسـيس ، وهو مطبوع الآن طبعـة غير محققة — ويتناول أحداث الحملة الفرنسية ٠ وكتاب آخر اشتهر به وهو : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار — بدأه كما يبدأ المؤرخون بتاريخ مصر منذ أقـدم العصور فى عملية سريعة حتى يدخل مفصلا فى العصر العثمانى ، وينتهى الجـزء الأول عند نهاية مشيخة محمد بك أبو الذهب ٠ والجزء الثانى عن مصر فى عهد ابراهيم بك ومراد بك ، والجزء الثالث عن الحملة الفرنسية حتى توليه محمد على ، والجزء الرابع والأخير عن محمد على حتى ١٨٢١ م (١٢٣٦ هـ) ٠

الجبرتى جمع مذكرات عن الاحداث والتراجم فى حياته ابان الحكم العثمانى وقبل نزول الفرنسيين ، ولكنه بدأ سنة ١٢٢٠ هـ — ١٢٢١ هـ يكتب تاريخا — ففى الجزء الأول يقول الجبرتى ان تاريخ جمع هذا الكتاب (وقتنا هذا) وقرب انتهاء الجزء الأول يشير الى سنة ١٢٢٠ بقوله (وقتنا هذا) وفى أول الجزء الثانى يشير الى وقتنا هذا بسنة ١٢٢٠ فيقول (هذا التاريخ الذى نمشى فيه لغاية سنة ألف ومائتين وعشرين) وفى آخر الجزء الثالث يعود فيقول (وسنقيد ان شاء الله تعالى ما يتجدد بعدها من الحوادث من ابتداء سنة احدى وعشرين التى نحن بها الآن ان امتد الأجل) ٠

اذن الجبرتى ابتداء من ١٢٢٠ — ١٢٢١ هـ يبـدأ فى كتابة تاريخه كتابة منظمة مستمرة ، فماذا عن القرون السابقة لذلك ؟ يفهم من الجبرتى أنه اعتمد على أحمد شلبى عبد الغنى فى الفترة السابقة للفتح العثمانى حتى سنة ١١٠٠ هـ ثم بعد ذلك اعتمد على رواية المسنين ونقوش المقابر ودفاتر الكتبة من ١١٠٠ حتى ١١٧٠ هـ ثم يدعى الجبرتى أنه منذ ١١٧٠ بدأ يعتمد على ذاكرته ٠ ولما كنا نستبعد ذلك لأن الجبرتى ولد سنة ١١٦٨ هـ فالأرجح أنه ظل يعتمد على المصادر التى ذكرها حتى ١١٩٠ هـ والمؤكد أنه بدأ يدون ملاحظاته بشكل منتظم فى صورة مسودات حتى بدأ فى ١٢٢٠ هـ يعمل على جمعها وكتابتها فى شكل تاريخى ٠

خامسا : ما الذى دفع الجبرتى الى تسجيل الحوادث على النحو الذى ذكره أولا ، ثم ما الذى دفعه الى كتابتهـا وتدوين الحوادث فى شـكل منظم بعد ١٢٢٠ هـ ٠

هذا الموضوع يرتبط بقصة علاقته بأستاذه الزبيدى ، وبمؤرخ آخر فى الشام هو المرادى ٠

كيف ألف الجبرتي كتابه :

لقد جاء تفكير الجبرتي في كتابة التاريخ أصــــلا من محمد خليل المرادى الحسيني مفتي دمشق (المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ) ـ فقد كان المرادى مشــــغولا بالترجمة لأعلام المائة الثانية عشرة (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ـ أربعة اجزاء) ولما كانت هذه الدراسة تتطلب جهدا ضـــخما فقد تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره ، لذلك أرســــل المرادى في سنة ١٢٠٠ هـ الى الشيخ أبى الفيض محمد مرتضى الزبيدى (ترجمته في الجبرتي ، الجزء الثاني من عجائب الاثار ، سنة ١٢٠٥ هـ) : وكان الزبيدى من علماء اليمن أصــــلا وينتسب الى زبيد ، ولكنه أقام في مصر في أواخر حياته ، وطلب المرادى من الزبيدى أن يساعده في جمع هذه التراجم ٠ ودأب الزبيدى بالفعل على جمــع بعض التراجم ٠ ولما كان الزبيدى أستاذ الجبرتي فقد دعاه في جمادى الثاني من عام ١٢٠٣ هـ الى الاشتراك معه في هــــذا العمل ـ ومن ثم بدأ الجبرتي كتابته للتاريخ بجمعه لتراجم اعيان القرن الثاني عشر من المصريين ـ ويروى الجبرتي بنفسه قصة هذه التراجم في ترجمته للشيخ محمد خليل المرادى (ج ٢ ـ سنة ١٢٠٦ هـ) فيقول (وكان هو السبب الأعظم الداعي لجمع هذا التاريخ على هذا النسق ٠ فانه كان راسل شيخنا السيد محمد مرتضى والتمس منه نحو ذلك ، فأجابه لطلبته ووعده بأمنيته ، فعند ذلك تابعه بالمرسلات وأتحفه بالصـــــلات المترادفات ، وشرع شـــيخنا المرحـــوم في جمع المطلوب بمعـــونة الفقير ولم يذكر السبب لذلك ، وجمع الحقير أيضا ما تيسر جمعه وذهبت به يوما وعنده بعض الشاميين فأطلعته عليه فسر بذلك كثيرا وطارحنى وطارحته في نحو ذلك بمسمع من الجالس ٠٠ وتنوسي هذا الأمر شهورا) ـ وواضح من هذا أن الزبيدى لم يطلع الجبرتي على سر اهتمامه بهذه التراجم ـ وقد بلغ ما كتبه الزبيدى من التراجم نحو عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء ، وسماها (المعجم المختص) ذكر فيه حسبما يروى الجبرتي ، شيوخه ومن أخذ عنه أو جالسه من رفيق وصاحب وصالح أو من المشاهير ، (وقد ذكرت من أحبنى في الله وأحببته أو استفدت منه شـــيئا أو أنشدنى شيئا أو كاتبنى أو بلوت منـــــه معروفا وكرما) وقد وصف الجبرتي هذا المعجم المختص بقوله (الا ان الكراريس المذكورة لم تكمل وترك في الحروف بياضات كثيرة وغالب ما فيها آفاقيون من أهل المغرب والروم والشام والحجاز والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحيـــــاء والأموات وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم ٠٠) وفي عام ١٢٠٥ هـ توفى الشيخ الزبيدى بالطاعون الذى نزل بمصر ، فاخفت زوجتـــــه وأقاربها موته حتى نقلوا الأشياء النفيســـــه والمال والذخائر والأمتعة والكتب المكلفة ثم أشاعوا موته ٠٠ » ثم بيعت متروكاته بما في ذلك « الكتب والدشتات » وقد اشتراها الجبرتي وفيها المعجم المختص الذى سبق ذكره ٠

وفى أواخر سنة ١٢٠٥ هـ وصل الجبرتى من الشيخ المرادى الحسينى مفتى دمشق كتاب وقرنه بهدية على يد السيد محمد التاجر القباقيبى (يستدعى تحصيل ما جمعه السيد (الزبيدى) من أوراقه وضم ما جمعه الفقير (الجبرتى وما تيسر ضمه أيضا وارساله) ويقول المرادى فى خطابه للجبرتى : « وهذا الأمر ما حررنا بخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار واعتمدنا على الجناب بذلك اعتمادا على المحبه الموروثة ولعلمنا أن جانبكم أولى بذلك من كل أحد ولا سيما ما بلغنا من أن السيد ترجمكم (١) » .

ثم يقول « تجد جنابكم ان سعيكم هذا من أعظم المساعى عندنا لكون محبكم فى غاية الاشتياق الى ذلك ، فنرجو ارسال ذلك أصلا واستكتابا » .

ولقد وصل هذا الخطاب قبل أن يكون الجبرتى قد ظفر بأوراق الشيخ الزبيدى من ورثته ، ولكنه أدرك من هذا الخطاب السبب الذى حدا بأستاذه الشيخ مرتضى الى الاهتمام بترجمة أعلام المائة الماضية (الثانى عشر الهجرى) فلم يكن وليد قريحته ابتداء بل نزولا على رغبة القاضى المرادى ، فلما ظفر الجبرتى بأوراق الزبيدى بدأ بدراسة التراجم التى كان قد أعدها الزبيدى ويعتقد بعض الباحثين المعاصرين ان الجبرتى استرد التراجم التى كان قد كتبها بتكليف من الزبيدى (٢) . ولا يبدو هذا صحيحا :

أولا : ليس هناك ما يشير أصلا الى أن الزبيدى احتفظ بتراجم الجبرتى ، وأغلب الظن ان الجبرتى احتفظ بها ليكملها ، وأنه حين اطلع أستاذه عليها لم يكن قد أتمها .

ثانيا : واضح أيضا من كلام الجبرتى عن « المعجم المختص » أنه كان يشمل تراجم رجال من أهل المغرب والحجاز والسودان ، ولا يشمل تراجم علماء وأعيان مصر ممن ينبغى للجبرتى أن يكون قد عنى بهم .

ثالثا : ينتقد الجبرتى معالجة الزبيدى للتراجم فيقول « انه أهمل من يستحق أن يترجم من العلماء والأعاظم وغيرهم » .

---

(١) يقصد ترجم للشيخ عبد الرحمن الجبرتى ولا يبدو من كلام الجبرتى عن المعجم المختص أن هذا قد حدث .

(٢) يقول الاستاذ محمود الشرقاوى (دراسات فى تاريخ الجبرتى . الجزء الاول . ص ٢٥) « فلما مات هذا (الزبيدى) بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ هـ استولت زوجه على جميع ما خلفه بما فى ذلك كتبه وفيها ما قدمه له الجبرتى عن تاريخه ثم تزوجت أرملته واستطاع الجبرتى أن يشترى ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه » ويستطرد الاستاذ الشرقاوى فيقول « وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه فكان ذلك مشجعا جديدا له » والصواب من ناحية الترتيب الزمنى أن مفتى دمشق أرسل الى الجبرتى خطابه « وكانت أوراق السيد مختوما عليها » ثم لما « فتحت التركة بوصاية الزوجة » اشترى البجرتى ما اشتراه من كتب ودشتات .

ثم يروى الجبرتى بعد ذلك كيف ان خطاب الشيخ المرادى قد شحذ همته للعودة الى هذه الدراسة فيقول « فلما رأيت ذلك وعلمت سببه وتحققت رغبة الطالب لذلك ، جمعت ما كنت سودته وزودت فيه وهى تراجم فقط دون الاخبار والوقائع .. » وفيما هو منشغل بهذا العمل الشاق اذ « ورد علينا نعى المترجم (المرادى) ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الاهمال مدة طويلة .. » ويفهم من ذلك :

أولا : ان الجبرتى قد توقف عن متابعة بحثه حين وصله نبأ وفاة الشيخ المرادى .

ثانيا : ان بحثه من الناحية التاريخية حتى ذلك الوقت لم يعد مجرد سرد تراجم . وانما بدأ مجال الكتابة يتسع امامه فشمل التراجم والاخبار .

ويبدو ان الجبرتى قد انقطع عن كتابة التاريخ بعد ١٢٠٦ هـ حتى عاد اليها فى شكل جديد وهو المذكرات اليومية منذ ١٢١٣ هـ عند نزول الفرنسيين بمصر . وقد كتب الجبرتى تاريخ مصر تحت الاحتلال الفرنسي من ١٢١٣ هـ ـ ١٢١٦ هـ فى كتابه المخطوط « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » فى شكل مذكرات يوميه . ويشير الجبرتى الى هذه الحقيقة فى مقدمة مظهر التقديس بقوله « ولقد كنت سطرت ما حصل من الوثائق من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر الى أن دخلها مولانا الوزير فى أوراق غير منظومه . وكثيرا ما كان يخطر ببالى وان لم يكن ذلك من شأن أمثالى أن أجمع افتراقها وأكسبها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخا مطلعا للبيب عن عجائب الاخبار وغرائب الاثارة تذكرة بعدنا لكل جيل » . ولقد حدث أن صديقه الشيخ حسن العطار كانت تراوده نفس الفكرة فكتب هو الآخر مذكرات عن تاريخ الاحتلال الفرنسى نثرا وشعرا ، وقد أضاف الجبرتى ما كتبه العطار الى ما كتب هو وأخرج منهما كتابه مظهر التقديس (١) . وعلى ذلك فمن المؤكد أن الجبرتى حتى عام ١٢١٦ هـ كان قد قام بعملين علميين هامين ، الأول : تراجم متناثرة لأعيان القرن الثانى عشر الهجرى ، والثانى : يشمل تاريخا كاملا فى شكل مذكرات يومية لأحداث مصر فى ظل الاحتلال الفرنسى . وتبقى بعد ذلك العملية الأخيرة فى تاريخ الجبرتى وهى الربط بين العملين ، ذلك الربط الذى تمخض عنه كتابه المعروف « عجائب الاثار فى التراجم والاخبار » بأجزائه الأربعة . والجبرتى يشير الى هـذا الربط فى ترجمته للمرادى (١٢٠٦ هـ) بقوله « وفى أثناء ذلك ورد علينا نعى المترجم ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الاهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع الى أن حصل عندى باعث من نفسى على جمعها من الوثائق والحوادث والمتجددات على هذا النسق » ومعنى هذا ان الجبرتى جمع من مصادر متعـددة

---

(١) ترجمة حسن العطار : الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٨ وما بعدها .

ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثانى عشر الهجرى حتى عام ١٢١٢ هـ وأخرج من هذا كله الجزء الأول والجزء الثانى من كتابه الذى أطلق عليه عجائب الاثار ، ثم عدل فى مظهر التقديس واخرج منه الجزء الثالث من عجائب الاثار مع اضافة حوادث ما بين سنة ١٢١٦ هـ وسنة ١٢٢٠ هـ ، وبعد أن حذف ما كتبه العطار الا المنظوم منه فيشير اليه بقوله : « كما قال صاحبنا الشيخ حسن العطار » وكان فى مظهر التقديس قد اكتفى بتراجم الأمراء المماليك فأضاف فى عجائب الآثار تراجم المشايخ أيضا • ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع الذى يشمل تاريخ مصر من سنة ١٢٢١ هـ حتى سنة ١٢٣٦ هـ ، ويدل ذلك على ان الجبرتى كان لديه متسع من الوقت لمراجعة وتنظيم وتنسيق الاجزاء الثلاثة الأولى من عجائب الاثار ، ولكنه مرض ثم مات إبان كتابته للجزء الرابع ، وهذا هو التفسير لما يردده المؤرخون من أن الجزء الأخير من عجائب الاثار يتسم بالاضطراب وعدم التناسق (١) •

ويبقى ان نجيب على هذا السؤال : متى ظهر هذا الباعث النفسى الذى اشار اليه الجبرتى وما هى العوامل التى أدت الى ظهوره ؟ لقد بدأ الجبرتى فى كتابة « عجائب الاثار » على النحو السابق فى سنة ١٢٢٠ هـ • ومعنى هذا ان الباعث النفسى لابد ان يكون قد ظهر فى هذه السنة أو قبل ذلك بقليل • ويبدو ان الباعث النفسى كان رغبة الجبرتى فى ان يغير موقفه من الاحداث التى مرت بمصر منذ الغزو الفرنسى حتى سنة ١٢٢٠ هـ ، وان العامل الأساسى الذى دفع إلى ذلك هو خيبة الأمل التى أصابت الجبرتى فى الحكم العثمانى عقب عودة العثمانيين اثر خروج الفرنسيين من مصر ، والتى جعلته يدرك ان الحكم العثمانى لم يكن خيرا من الحكم الفرنسى بل على العكس ربما يكون الحكم الفرنسى من بعض الوجود خيرا من الحكم العثمانى ، ولذلك فالجبرتى يعيد موقفه من الحكم الفرنسى وعودة العثمانيين ليصبح أكثر موضوعية وأقل عاطفية مما كان عليه فى مظهر التقديس •

وأقرب سبيل لفهم هذه الحقيقة ، المقارنة بين مظهر التقديس من ناحية والجزء الثالث من عجائب الآثار من ناحية أخرى ، وهو المستخرج المعدل من مظهر

---

(١) المعنيون بتاريخ مصر يأخذون من اضطراب الجزء الرابع من تاريخ الجبرتى دليلا على أن بعض أجزاءه قد حذفت عند الطبع والبعض الآخر يعتقد ان هذا الحذف يرجع الى ما كتبه الجبرتى عن محمد على • والحقيقة ان الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار يشمل كل ما كان الجبرتى يود أن يقوله فى محمد على • وفى رأينا ان السبب الذى جعل البعض يعتقد ان فقرات قد حذفت من الجزء الرابع هو اضطراب المسودات التى كتبها الجبرتى وهو كبير السن ومرضه ثم وفاته قبل أن يتمكن من تنسيقها وفى البحث الذى قام به الاستاذ محمود الشرقاوى مقارنة بين النسخ المخطوطة للجبرتى قديمها وحديثها والنسخ المطبوعة تؤكد ان الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار لم يحذف منه شىء بالمرة •

التقديس • والحقيقة ان هذا التعديل لا يعنى مجرد التنظيم والتبويب لاخراج جديد ، بل يحمل تغييرا موضوعيا فى تفكير الجبرتى السياسى •

ان الشـــواهد الداخلية والخارجية تجعلنا نحكم على مظهر التقديس بأنه التاريخ الرسمى للحملة الفرنسية ، فالكتاب مهدى الى الوزير يوسف باشا • اذ يقول الجبرتى فى آخره فى ذكر فضائل شهر رمضان المبارك : « وأيضا ان شهر الصيام مقدمة شهر العيد الذى هو موسم السرور المديد وقد كان قدوم المشار اليه (الوزير يوسف ضيا باشا) نظر الله بعين الرعاية اليه مفتاح أبواب المسرات التى طال انغلاقها ومعيد بهجة مصر التى كسف بظلام الكفرة اشراقها ثم لسدته التى هى ملثم شفاه الاقبال ومحط أفاضل الرجال أهدى كأسد هذا التصنيف وخامل هذا الترصيف فان لاحظه بعين القبول وذلك هو المتيقن والمأمول راج فى عالم الأدب سوقه وبطابع السعود شروقه » • وواضح من هذا أن الجبرتى كان يرحب برجوع العثمانيين ويعتبر هذا بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ونهاية حكم فرنسى لم يكن راضيا عنه • وفى مقدمة الكتاب ما يشير الى هذه الحقيقة على نحو أوضح ، فهو من ناحية يلقى اللوم فى تمكن الفرنسيين من احتلال مصر على الامراء المماليك الذين اتكلت عليهم الدولة لحماية الاقليم « فخربوا الثغور واشادوا القصور » ، « فلما دهمت الفرنسيس ثغرها الخالى ووقعت منه على طلل بالى سهل عليهم الحال فاقتحموه ودخلوا من باب الاقليم بدون ان يفتحوه وتقاعدت العساكر المصرية على التسارع لاستنقاذ الثغر فعظم البلا وأخذ العدو يطوى بساط الأرض حتى اذا التقى الجمعان لم يسع القوم الا الفرار فى الفلا » الى أن يقول : « وأناخت دولة الكفار بكلكلها على هذا القطر العظيم وانتشروا فى أرجائه انتشار السم فى جسد السليم •• ولقد كادت تعم الرزية وتصير القضية أندلسية لولا عناية من أيده الله بالنصر والتمكين وتلى عسكره المنصور مهما توجه لمعقل آية الفتح المبين وهو الملك الأعظم والسلطان الأفخم غياث المسلمين ، ملاذ المؤمنين ، مالك رقاب الأمم ملجأ العرب والعجم ، حافظ ناموس الشريعة الغراء بقوة سـطوته باسط بساط العدل والاحسان على كامل رعيته » (١) •

ولاشك أن الجبرتى اتصل بالوزير العثمانى ، وأن الوزير أحسن استقبال الكتاب، لأنه بعد عودته الى دار السلطنة عرضه هناك على السلطان سليم الذى أمـر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله الى التركيـة ففـرغ من ذلك ١٢٢٢ هـ (١٨٠٣ م) ، ومن المرجح أن الوزير وقد أكبر الجبرتى كعالم فلكى عهد اليه بتحرير التقاويم والمواقيت ورتب له جعلا على ذلك •(٢) •

---

(١) ص ٥ ، ٦ ؛ ٧ •

(٢) خيل شيبوب ، عبد الرحمن الجبرتى ص ٨٩ •

ورغم ان مظهر التقديس يمثل فى نظرنا التاريخ (الرسمى) للحملة الفرنسية الا انه يعكس بأمانة كذلك موقف الجبرتى من هــذه الأحداث ، وهو يتلخص فى الحملة الشديدة على الحكم الفرنسى واعتبار البكوات المماليك مسئولين عن نجاح الفرنسيين فى غزو مصر ، ثم التنبؤ بانبثاق عصر جديد من الاستقرار والرفاهية والعدالة بدخول العثمانيين وعودة الحكم العثمانى المباشر ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ ان الجبرتى فى مظهر التقديس لم يلتزم تماما موضـــوعية المؤرخ ، فهو لا ينظر الى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية أو العاطفـــة الوطنية ، ومع أنه فى عجائب الآثار لم يتخل قط عن هاتين العاطفتين ، لكن من الواضح أنهما لم تتحكما فى كتاباته كما حدث فى مظهر التقديس ، ففى مظهر التقديس كان الجبرتى يرى كل ما هو فرنسى كريها ، ويكفى أن يكون الحكم غير اسلامى ليحمل عليه الجبرتى ، أما فى عجائب الآثار فقد أخذ الجبرتى ينظر الى الاحداث بعين الناقد الموضوعى ، فليس كل ما هو غير اسلامى سيئا وليس كل حكم اسلامى طيبا ، فقد أتى الفرنسيس من الأعمال ما يجعلهم أحيانا أفضـل من العثمانيين وليس معنى هذا ان الجبرتى قد أخذ يدافع عن الحكم الفرنسى ، فهو لا يزال شيخا ازهريا متدينا يكره حكما غير اسلامى ، ويرى بحق انه امتلاك بالقسوة والعنف ، ولكن الجبرتى فى عجائب الآثار يشيد بالفرنسيين اذا استحقوا هذا • وخلاصـــة القول أن الجبرتى فى عجائب الآثار يحمل على حكم البكوات المماليك أولا ، وعلى الحكم الفرنسى ثانيا ، وعلى الحكم العثمانى الذى أعقب خروج الفرنسيين ثالثا ــ ليس هذا فقط بل انه يعتبر الحكم العثمانى أشد وطأة رغم اسلاميته من حكم الفرنسيين ، وان حكم الفرنسيين بدوره كان أشد وطأة من حكم البكوات المماليك ، ومن هذا كانت نظرة الجبرتى المتشائمه من تطور الأحداث فى مصر وما نلمسه من أن رأيه فى النهاية كان يعنى أن الاحوال فى مصر تسير من سىء الى اسوأ •

ويشيد الجبرتى بالفرنسيين فى عدة مواقف فى عجائب الآثار لم يشر اليها اطلاقا فى مظهر التقديس ، مثال ذلك : اعجابه بتنظيم الفرنسيين لأعمال الديوان، وتفوقهم العلمى ، ونظامهم فى القضاء كما رآه فى محاكمة قاتل كليبر ، واعجابه بالكرنتيلة الفرنسية حين نزل الطاعون بمصر (شوال ١٢١٥) • وهذا ما كتبه فى عجائب الآثار من وصفه للمعهد العلمى الذى أنشأه الفرنسيون فى حـــارة « الناصرية » وافردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضـــية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحســاب •• حارة الناصرية وما بها من البيوت مثل بيت قاسم بك •• ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون ويحفظونها للطلبة ومن يريد المراجعة يراجعون فيها مرادهم ، فتجمعت الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بســاعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة الخازن فيتفحصون ويراجعون ويكتبون

حتى أسافلهم من العساكر واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف والاقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار » ثم يقول « ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعوني على ذلك ٠٠ وكتب من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم ٠٠ ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن ولهم تطلع زائد فى العلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ويدأبون في الليل والنهـــار وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغـــات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم ما يريدون من أى لغة كانت الى لغتهم فى أقرب وقت » ٠ ثم يصف زيارته لتوت الفلكي وتلامذته فى مكانهم المختص بهم واريجو المصور ورويا الحكيم (الكيمائى) ٠ وبعد وصـــــفه لبعض التجارب الكيماوية والطبيعية يقول « ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبـــة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » (١) ٠

وكتب الجبرتى تعليقا على ما نسميه اليوم بحيثيات الحكم فى قضية قاتل كليبر « ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الفرنسوية والتركية والعربية ٠٠٠٠ وقد كنت قد أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الوقعة وكيفية الحكم ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفـــة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج ٠٠ وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عســـكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القـــاتل وكرروا عليه الســـؤال والاســـتفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحـــوى الســـطور بخلاف ما رأيناه بعـــد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاســـلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنيـــة الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد » ٠

---

(١) عجائب الآثار ج ٣ ذكر حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣ ٠

الجبرتي... والشخصية المصرية

للدكتور يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية البنات • جامعة عين شمس

بينما ظل مؤرخنا العتيد « الشيخ عبد الرحمن الجبرتى » يقـــدم فى كتاباته « تصويرا » دقيقا للشخصية المصرية من خلال تسجيله للحياة اليومية فى مصر ، استمر فى نفس الوقت يعبر عن هذه الشخصية فى ثنايا سطوره من خلال تعليقاته العديدة على أحداث هذه الحياة ، والتى ظل يبثها هنا وهناك ٠

وبهذا المفهوم للشخصية المصرية فى كتابات الجبرتى بين التصوير والتعبير ، يمكن تقسيم محاولة تناول هذه الشخصية بالدراسة الى قسمين :

أولا : الشخصية المصرية فى مجال التصوير :

فى محاولة لاستقراء بعض مواصفات « الشخصية المصرية » من خلال كتابات الجبرتى ، ينبغى التنويه بادىء ذى بدء أن الرجل قد عبر عن هـــذه الشخصية باللاوعى ، أو بما يمكن أن نسميه « بالوجدان الحضارى المصرى » الذى يترتب عليه حس قومى متميز ، أما بالوعى وبالفكر فقد كان الشـــيخ عبد الرحمن الجبرتى منتميا لدولة أشمل هى دولة « العثمنلى » ولعالم أرحب هو عالم المسلمين ٠

يؤكد هذه الحقيقة أن ما جاء فى بعض منشورات سارى عسكر الفرنسيس من عبارات تنبض بالفكرة المصرية لم تلفت نظر الرجل أو تثير لديه بعض مشاعر الانتماء الوطنى ، وهى عبارات جديرة بلفت النظر واثارة المشاعر ٠

فقد جاء فى منشور من هذه المنشورات قرأه أحد المترجمين على أعضاء الديوان الذى تشـــكل من المصريين صبيحة يوم ٢٥ ربيـــع الآخر ١٢١٣ هـ (أكتوبر ١٧٩٨ م) ٠٠ جاء فيه أن « قطر مصر هو المركز الوحيد ، وأنه أخصب البلاد ٠ وكان يجلب اليه المتاجرمن البلاد البعيدة ، وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ، ولكون

قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه ، فملكه أهل بابل ، وملكه اليونانيون والعرب ، والترك الآن • الا أن دولة الترك شددت فى خرابه لأنها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس الا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك متخفين تحت حجاب الفقر ، وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم •

« ثم ان طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة » (١) •

ويسجل الجبرتى هذه العبارات ولا يشد انتباهه ما جاء فى مطلعها من تقرير دور مصر الحضارى الرائد ، وهو ما يمكن أن يشد انتباه أى مصرى من المحدثين ، بل يصدم قارئه حين يعلق عليها بما نصه « ولم يعجبنى فى هذا التركيب الا قوله (المفعمة جهلا وغباوة) بعد قوله (اشتاقت أنفسهم) » (٢) وتحولت المسألة بذلك الى قضية لغوية لا مكان للوطن أو الوطنية فيها •

ملاحظة أخرى : ان الشخصية المصرية ظلت على العهد الذى أرخ له الجبرتى ، كما كان حالها دائما قبل هذا العهد أو بعده ، تمتلك القدرة الهائلة على هضم الوافدين اليها واعادة صياغتهم فى قالبها المتميز •

ومن ثم فان انضواء مصر تحت الراية العثمانية وارتباطها بالعالم الاسلامى الفسيح بكل ما نتج عن ذلك من تعدد موجات الوافدين اليها ، لم يفقد الشخصية المصرية مقوماتها •

يقرر الجبرتى هذا الواقع فى ترجماته المتعددة ، نختار منها هنا ترجمته للشيخ « محمد بن على المعروف بالشافعى التونسى » الذى ولد فى تونس ١١٥٢ وقدم الى مصر ١١٧١ وتوفى فيها عام ١٢٠٢ هـ (١٧٨٨) •• جاء فى هذه الترجمة عن الشيخ المذكور أنه « عاشر اللطفاء والنجباء من أهل مصر ، وتخلق بأخلاقهم ، وطالع كتب التاريخ والأدب ، وصار له ملكة فى استحضار المناسبات الغريبة والنكات ، وتزوج وتزيا بزى أولاد البلد ، وتحلى بذوقهم ، ونظم الشعر الحسن » (٣) • وبتعبير حديث فان الشيخ « الشافعى التونسى » قد (تمصر) شأنه فى ذلك شأن غيره ممن دخلوا نطاق التأثير الحضارى لمصر من الوافدين اليها •

الملاحظة الثالثة : تتصل بالقدرة الغلابة للشخصية المصرية على الاستمرار ، فان قارىء الجبرتى لا يجد صفحة من صفحاته أو حولية من حولياته الا وقد امتلأت بالمظالم الواقعة على هذا الشعب ، بفئة من فئاته أو بمجموع هذه

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والاخبار جـ ٣ ص ٢٣ •

(٢) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ٢٣ •

(٣) عجائب الآثار جـ ٢ ص ١٧٩ •

الفئات ، ثم ان مصادر هذا الظلم قد تعددت من « العسكر العثمنلى » الى اخلاط المماليك أو من أسماهم الجبرتى « بالأمراء المصرلية » الى « كفار الفرنسيس » •

ولا شك أن مثل هذا القارىء لابد وأن تتملكه الدهشة ، كما لابد أن يتملكه الاعجاب أيضا ، من أن تخرج مصر من هذه المظالم المتوالية سليمة فى جوهرها ، أو على الأقل محتفظة بكثير من تراثها الحضارى ، مترسبا فى الوجدان المصرى ، باديا فى تماسك الشخصية المصرية •

تبقى الملاحظة الأخيرة وهى : ان الجبرتى فى تصويره للشخصية المصرية لم يتخذ موقفا محددا حيالها ، سواء بابراز المحاسن على طول الخط ، أو تسجيل المساوىء على طول الخط ، وذلك لما اتصف به من أمانة فى نقل الأحداث من ناحية ، ولطرق تناوله اليومى لتلك الأحداث من ناحية أخرى ، ممـــا جعله ينفعل بها وبالتالى تتعدد مواقفه نحوها •

وقد ترتب على هذا التصوير الأمين أن شاهدنا الشخصية المصرية فى مختلف حالاتها بأبعادها الايجابية وأبعادها السلبية : فمرة يهب المصريون فرادى أو جماعات فى حركة مقاومة رائدة لحاكم ظالم أو محتل أجنبى . ومرة أخرى يؤثرون السلامة وينطوون على أنفسهم منغمسين فى « أمور معايشهم » لا يلقون بالا لما يجرى حواليهم ، وكأن الوطن ليس وطنهم وكأن ما يحدث لن يؤثر فيهم ، وهو يؤثر أشد التأثير •

ومرة يسجل الشخصية المصرية تواقة الى المعرفة باحثة عن مصادرها منبهرة بكل جديد فيها ، ومرة أخرى يرسم لنا صورتها وقد غاصت الى العنق فى لجج من الغيبيات ، واستنامت الى مسلمات قديمة تقودها الى عالم من جمود الفكر وخمول الذهن •

وأشياء كثيرة يصورها الجبرتى ، تستوجب على المؤرخ أن يرى الأبعاد المتناقضة للشخصية المصرية ، سواء كانت هذه الأبعاد بالايجاب أو كانت بالسلب ، فمع كون بعض القيم الحضارية لشعب من الشعوب موروثة من عصور ازدهار تقلب فيها أبناؤه وكانت سببا من أسباب هذا الازدهار ، فان هناك قيما حضارية أخرى يرثها مثل هذا الشعب من بعض عصور التخلف أو الوقوع تحت حكم أجنبى •

وشعب ذو تاريخ طويل مثل الشعب المصرى قد مر بهـــذه العصور أو بتلك ، خرج بحصيلة من قيم تفرد بها •• بعض هذه القيم ذو طبيعـــة ايجابية وبعضها ذو طبيعة سلبية •

بالنسبة للنوع الأول من هذه القيم (الايجابية) ، يمكن ومن خلال كتابات الجبرتى ، تسجيل مجموعة منها على الوجه الآتى :

١ ـ الارتباط الشديد بين المصرى ووطنه بكل ما يصحب هذا الارتباط من « وحشة للوطن » هى لدى المصرى أقوى من أى انسان آخر ، ومن اعتزاز بمصر يصل الى حد التفاخر والمباهاة ٠

فى مجال وحشة الوطن يتحدث الجبرتى عن أحد علماء المصريين الذين قصدوا الى الحرمين الشريفين للاقامة بهما هربا من ظلم وقع عليه فى أرض مصر ،ولكن ، وكما يقول الشيخ المؤرخ بالحرف الواحد « لم يستحسن الاقامة هناك ، **واشتاق لوطنه فعزم على العودة الى مصر** ، فمرض بالطريق ، وتوفى ودفن بالينبع رحمه الله » (٤) ٠

ثم فى ميدان الاعتزاز بمصر يتحدث مؤرخنا عن محاولة أحد الباشوات العثمانيين (على باشا الطرابلسى) دخول القاهرة والاستيلاء على السلطة فيها ، ثم يسجل فشل هذه المحاولة بكلمات تنبض بالاعتزاز الوطنى ٠٠ أو كما قال بالضبط « أراد أن يدبر أمرا ويصطاد العقاب بالغراب فيحوز بذلك سلطنة مجددة ومنقبة مؤبدة فلم تنفعه التدابير ولم تسعفه المقادير ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع بيده مارن أنفه ٠ **ولم يعلم أنها القاهرة ، كم قهرت جبابرة ، وكادت فراعنة** » (٥) ٠

٢ ـ ثم ان المصرى قد ورث ضمن ما ورث من عصور ازدهاره التاريخى ، تلك الرغبة فى البناء والقدرة عليه ٠

ويؤكد الجبرتى انتماءه لمثل هذا الشعب البناء من خلال اهتماماته البالغة بأعمال التشييد واعجابه الواضح بالقائمين بها ، ولعل أوضح مثل على ذلك ما جاء فى ترجمته لعلى بك الكبير فقد شغل الجانب الأكبر من هذه الترجمة ما قام به الرجل من أعمال بناء ٠٠ جوامع أو قباب أو « تلك العمارة العظيمة التى أنشأها بشاطىء النيل ببولاق » أو « داره المطلة على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق والحوض والساقية والطاحون بجوارها » (٦) ٠٠ الى آخر ما تحدث عنه من تلك الانشاءات ٠

وغير على بك الكبير ظل الجبرتى يبدى اهتمامه بهذا الجانب ، مما قد لا يشد انتباه مؤرخ آخر تنقصه مثل هذه الحاسة الحضارية ٠٠ حاسة البناء ٠

٣ ـ وبالرغم من كل المتاعب السياسية التى ظلت تتعرض لها مصر خلال تلك الحقبة التى تصدى لها الجبرتى بالتأريخ ، فان الشخصية المصرية ظلت على دأبها بالعناية بالعلم وبكل ما يصحب ذلك من قيم حضارية ايجابية ٠

---

(٤) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٩٠ ٠
(٥) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٧٧ ٠
(٦) عجائب الآثار جـ ١ ص ٣٨٧ ٠

واذا كانت مصر منبع العلوم في عصورها القديمة ، ومنارة لهـا في عصورها الوسطى (الأزهر ودوره) فانها قد استمرت تسعى حثيثا للقيام بهذا الدور الرائد فى المنطقة ، مما تسجله أجزاء « عجائب الآثار » الأربعة في مجموعة من الملاحظات والحقائق .

من هذه الملاحظات : ذلك الاهتمام البالغ بالعلم والعلماء فى كتابات الجبرتى ، فان الجانب الأكبر من التراجم التى قدمها المؤرخ المصرى قد انصب على العلماء المصريين وانتاجهم .. ومع التسليم بأن هذا الاهتمام قد يعزى فى جانب منه الى انتماء الشيخ عبد الرحمن لهؤلاء ، الا أن تلك الجمهرة الهائلة من المشتغلين بالفكر فى مصر ، وممن لم يقفوا فى اعمال فكرهم على أمور الدين بل تعدوا ذلك الى الفلك والرياضيات وغيرها .. مثل تلك الجمهرة لا يملك قارىء الجبرتى حيالها الا شعورا بالانبهار ، وايمانا بأن الفكر العلمى الذى ولد فى مصر لم ينقطع فى وقت من الأوقات على الرغم من كل ظروفهـا التاريخية .

منها أيضا : تغليب الاشتغال بالعلم على ما عداه مهما كان الاشـتغال بغير العلم مفيدا أو مصدرا لثروة .. يقول الجبرتى فى ترجمته « للسـيد عبد الفتاح بن أحمد بن الحسن الجوهرى » أنه « نشأ فى حجر أبيه ، ولم يكن معتنيا بالعلم ، ولم يلبس زى الفقهاء . وكان يعانى التجارة ويشارك ويضارب ويحاسب ويكاتب . فلما توفى أخوه الأكبر الشيخ أحمد اتفق الحال على تقدم المترجم حفظا للناموس وبقاء لصورة العلم الموروث ، فعند ذلك تزيا بزى الفقهاء ولبس التاج والفراجة الواسعة ، وأقبل على مطالعة العلم ومخالطة أهله وصار يطالع ويذاكر وأقرأ دروس الحديث بالمشهد الحسينى فى رمضان . » (٧)

ومن مواقف الجبرتى القليلة التى عبر فيها عن رضائه عن الفرنسيين أو اعجابه بهم ، كان هذا الموقف الذى سجل فيه وبالتفصيل طريقة حفظهم لكتبهم فى خزائن ونظم الاطلاع عليها ، واهتمامهم البالغ بكل ما يمس مختلف جوانب العلم .. (٨) .

ومثل هذا الرضا أو الاعجاب صادر قبل أى شىء من شعور كامن ذى جذور حضارية بأهمية العلم .

ويبدو مدى رسوخ التقاليد العلمية فى الوجدان المصرى من تلك الصورة التى ينقلها لنا الجبرتى عن احـدى الأسر المصرية – هى أسرة الشرايبى – فيقول : « .. ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة ولايكتبون عليها وقفية ولايدخلونها فى مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها

---

(٧) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦٦ .

(٨) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٣٤ – ٣٦ .

بأغلى الثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفى مجالسهم جميعا وكل من دخل الى بيتهم من أهل العلم الى أى مكان بقصد الاعارة أو المراجعة وجد بغيته ومطلبه فى أى علم كان من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه » (٩) . كما يبدو من تلك المبالغ الهائلة التى كان يدفعها البعض لاقتناء مجلد من كتاب نادر ، ويسجل الجبرتى أن والده قد اشترى كتابا من هذه الكتب هو كتاب « زيج الراصد لغيبك السمرقندى » مقابل اثنى عشر ألف دينار (١٠) ، ولا يفعل ذلك الا سليل شعب له من التقاليد ما يدفعه الى بذل كل هذا المال .

أخيرا ، فان مجالس العلم فى مصر كانت تعنى الأمان والاستقرار وهو ما عبر عنه العلماء بعد أن تفاقمت فتن العسكر خلال عام ١٨٠٥ ، وكان رأيهم أن التباعد عن الفتنة يستلزم « فتح أبواب الجامع الأزهر والتقيد بقراءة الدروس وحضور الطلبة » (١١) .

٤ ـ تعود الشخصية المصرية لتطفو على سطح الحياة التى سجلها الجبرتى فى حولياته فيما كتبه عن احتفالات المصريين ..

لا يمر عام واحد دون تسجيل الاحتفال « بوفاء النيل » وهو الاحتفال المصرى الذى ابتدعه الفراعنة والذى ظل كافة من حكم مصر .. عثمانيون أو مماليك أو فرنسيون يقيمون له الاحتفالات الكبيرة عندما يوفى النيل أذرعه خلال شهر مسرى القبطى .

ولا يجد المصرى المعاصر فارقا كبيرا بين ما يصوره الجبرتى عن احتفالات المصريين برمضان ، وما يجرى حتى اليوم من الاحتفالات فى أحياء القاهرة القديمة ، فهو عندما يعرض للاحتفال برمضان عام ١٢١٣ هـ يتحدث عن « انفتاح الأسواق والدكاكين ، والذهاب والمجىء ، وزيارة الاخوان ليلا ، والمشى على العادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر فى الدور والقهاوى ووفود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحرين والتسلى بالرواية والنقول وترجى المأمول » (١٢) .

٥ ـ عادات أخرى يسجلها الجبرتى وهى وان دلت على شىء انما تدل على ما تميزت به « الشخصية المصرية من قدرة على (العطاء) مما ظل يشكل جانبا هاما من جوانبها الايجابية على امتداد تاريخها .

---

(٩) عجائب الآثار جـ ١ ص ٢٠٩ .
(١٠) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٦٤ ـ ٦٥
(١١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦٦ .
(١٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٤٨ .

يتحدث مؤرخنا فى موضع من كتاباته عما « لأهل مصر من سنن وطرائف فى مكارم الأخلاق لا توجد فى غيرها » ويذكر ضمن تلك السنن مالهم من « عادات وصدقات فى أيام المواسم ، مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالى رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ، ويملأون من ذلك قصاعا ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين » (١٣) .

٦ ـ وبالرغم من المتاعب اليومية والمظالم الكثيفة التى ظل يعانى منها الشعب المصرى طوال تلك الحقبة التاريخية فان الشخصية المصرية لم تفقد فى وقت ما رغبتها الجارفة فى تذوق المتعة والسعى اليها ، وهى بذلك قد رفضت برغم ظروفها التاريخية التعسة أن تتخلى عن روح طالما اشتهرت بها ، أو أن تلبس ثوبا من جمود الطبع مثل ذلك الذى ارتدته الشخصية الأوربية خلال عصورها الوسطى .

وتتأكد هذه الحقيقة من خلال مواضع كثيرة من كتابات الجبرتى ـ يتحدث مثلا عن الهنود الذين حضروا « ومعهم فيل صغير ذهبوا به الى قصر العينى ، وأدخلوه فى الاسطبل الكبير ، وهرع الناس للفرجة عليه ، ووقف الخدم على أبواب القصر يأخذون من المتفرجين دراهم وكذلك سواسه الهنود جمعوا بسببه دراهم كثيرة وصار الناس يأتون اليه بالكعك وقصب السكر ويتفرجون على مصه فى القصب وتناوله بخرطومه » (١٤) . وهو يتحدث فى موضع آخر عن « احتفال الناس بختان أطفالهم فى يوم الجمعة بالطبول » (١٥) وهى عادة لازال كثير من الريفيين يمارسونها فى المناسبات أو فى الموالد . ويسجل فى موضع ثالث الاحتفال الذى أقامه السيد عمر مكرم بمناسبة ختان ابن ابنته وهو أشبه بمهرجان حديث ، فكما يقول « مشى فيه أرباب الحرف والعربات والملاعيب ، وجمعيات وعصب صعايدة وخلافهم ، من أهالى بولاق والكفور والحسينية وغيرها من جميع الأصناف وطبول وزمور وجموع كثيرة . فكان يوما مشهودا اكتريت فيه الأماكن للفرجة » (١٥) . ومواضع أخرى كثيرة تتناول بالوصف مثل هذا المهرجان بل وما هو أكثر منه (١٦) .

٧ ـ أخيرا فان بعض القيم الاجتماعية التى ظل المصرى يعتز بها على امتداد عصوره التاريخية ، مستهدفا منها الحفاظ على تماسك الأسرة المصرية ، تبرز هنا وهناك من خلال وصف الجبرتى للحياة اليومية للمصريين .

---

(١٣) عجائب الآثار جـ ١ ص ٢٠٨ .
(١٤) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢ ـ ٣ .
(١٥) عجائب الآثار جـ ٢ ص ١٣٢ .
(١٦) عجائب الآثار جـ ١ ، جـ ٣ .

ولعل أهم ما يتصل بهذه القيم الحرص على صون « المرأة » والحفاظ على شرفها ، وكما جاء فى يوميات شهر ربيع أول ١٢١٦ هـ ما نصه « طلبت ابنة الشيخ البكرى وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس بمعينين من طرف الوزير • فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعـــد المغرب ، وأحضروها ووالدها فسألوهما عما كانت تفعله فقالت « انى تبت من ذلك » فقالوا لوالدها « ما تقول أنت » فقال : « أقول انى برىء منها » فكسروا رقبتها » (١٧) •

ومثل هذه الصورة الاجتماعية لازالت تتكرر على نحو آخر فى صعيد مصر حتى يومنا هذا كما أن تعبير « كسروا رقبتها » انما هو تعبير مصرى قح •

هناك أيضا جانب السلبيات فى الشخصية المصرية التى صورها لنـــا الجبرتى من خلال كتاباته :

١ ــ فهذا الشعب الذى قدم للدنيا أول تصور لعالم آخر غير عالم الحياة الدنيا ، قد ترسخ فى وجدانه الحضارى كثير من المسلمات الغيبية ظل يلجأ اليها ويجد فيها ــ على ما يبدو ــ كثيرا من الراحة النفسية •

ومن هذه الغيبيات ما قبله فكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، المستنير نسبيا ، بل ان فكر الكثير من المصريين المحدثين مازال يقبله •• بل ويقبل عليه • ومنها ما استهجنه وسجل استياءه منه •

كان الحسد أو « الاصابة بالعين » وهو تعبير استخدمه الجبرتى ومازال المصريون يستخدمونه حتى اليوم •• كانت الاصابة بالعين من أنماط الفكر الغيبى التى لقيت قبولا واسعا فى كتابات الجبرتى • يقول مؤرخنا عن أحد الأمراء المماليك هو « سليمان أغا صالح » وكان ممن قبلوا مصالحة محمد على وقام بعرض لفنون الفروسية أمامه ، يقول ما نصه : « ظهر من حسن رماحة سليمان أغا ما أعجب الباشا ومن حوله من الأتراك بل أصابوه بأعينهم لأنه بعد ذلك سار مع ياسين بك الى ناحية بولاق يترامحون ويتلاعبون • فأخرج طبنجته بيده اليمنى والرمح فى يده اليسرى وكان زنادها مرفوعا فانطلقت رصاصتها وخرقت كفه اليسار القابض على سرع الجواد ونفذت من الجهـــة الأخرى » (١٨) •

هناك أيضا تلك التفسيرات التى ظل يسوقها الشـــيخ الجبرتى والتى غلبت عليها الغيبية ، فهو يتحدث عن هزيمة المماليك فى مواجهة الحمـــلة العثمانية التى قادها حسن باشا قبطان ١٧٨٦ ، فيقول : « تطايرت الأخبار بالكسرة وتيقن الناس ان هذا أمر الهى ليس بفعل فاعل » (١٩) وهو يربط

(١٧) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٩٢ •

(١٨) عجائب الآثار جـ ٤ ص ٥٦ •

(١٩) عجائب الآثار جـ ٢ ص ١١٩ •

بين الغزو الفرنسى لمصر وبين بعض التغييرات الفلكية فيقول « ان أعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع البؤس والاصر بحلول كفرة الفرنسيس ووقوع هذا العذاب البئيس حصول الخسوف الكلى فى شهر ذى الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر » ، كما يتحدث عن المشاركة الانجليزية فى اخراج الفرنسيين من مصر ولا يرى فيها الا « أعظم الاعتبارات والكرامة لدين الاسلام حيث سخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم » (٢١) وأمثلة أخرى كثيرة ٠

الا أن الحق يقال : ان الجبرتى قد استهجن كثيرا من التصرفات الغيبية للشخصية المصرية ، فهو يسجل ما شاع خلال شهر ذى الحجة ١١٤٧ هـ (١٧٣٥) من أن القيامة وشيكة الحدوث وما ترتب على هذه الاشاعة من تصرفات وصفها « بالهرج والمرج » ولم يملك نفسه من أن يدمغها بأنها « هذيانات » (٢٢) ٠

انتقد الجبرتى أيضا اعتقاد المصريين بولاية بعض الأشخاص ، فهو يتحدث فى موضع من كتاباته عن ظهور رجل من أهل الفيوم اجتمع عليه كثير من العوام وادعوا فيه الولاية ٠ ويعلق على ذلك بقوله أنه : « كان يحصل بسببه مفاسد عظيمة » (٢٣) ويبدى ألمه فى موضع آخر من انهماك المصريين فى « عمل موالد الأضرحة التى يرون فرضيتها ، وانها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم الى الله زلفى فى المسالك (٢٤) » ٠

٢ ــ السلبية الأخرى من سلبيات « الشخصية المصرية » البادية فى كتابات الجبرتى ، ان هذه الشخصية قد غلب عليها الطابع المحافظ ٠

واذا سلمنا بأن المؤرخ المصرى كان يعبر الى حد بعيد عن فكر مصر ، فان مواقفه هو شخصيا أو مواقف جماعة العلماء التى كان ينتمى اليها ، تنم عن طبيعة مغالية فى المحافظة ٠

فالجبرتى يرفض ما جاء فى المنشور الأول الذى وزعه الفرنسيون حال نزولهم الى أرض مصر من « أن جميع الناس متساوون عند الله » ويصف القول بالمساواة بين الناس بأنه : « كذب وجهل وحماقة » ويتساءل « كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السموات والأرض (٢٥) » ٠

---

(٢٠) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ص ٤ ٠
(٢١ عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٢٥ ٠
(٢٢) عجائب الآثار جـ ١ ص ١٥٢ ٢٤ ذى الحجة ١١٤٣ هـ ٠
(٢٣ عجائب الآثار جـ ١ ص ٢٩ ٠
(٢٤) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٤٣ ٠
(٢٥) مظهر التقديس ص ٣٣ ٠

هناك أيضا مواقف الشيخ من ثورات القاهرة (الأولى والثانية) ، فهو يتحدث عن ثورة المصريين فى (أكتوبر ١٧٩٨) ويقول بالحرف الواحد : « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور (٢٦) » • وكأنما رأى الجبرتي أن الاحتلال الأجنبى لمصر وهو ما عبر عنه « بالأسر فى القبضة » ليس سببا كافيا للثورة •

نفس الموقف من ثورة القاهرة الثانية (مارس ١٨٠٠) اذ يصف ماجرى فيها بأنه : « التكليف بما لا يطاق ومغالبة الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولغط الحرافيش وغير ذلك مما لا يمكن حصره » (٢٧) •

هناك أيضا ذلك الخوف من التغيير الذى ينتاب المصرى ، مما يشكل جانبا آخر من جوانب شخصيته المحافظة والذى يبدو فى الحكمة المصرية المأثورة بأن : « اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش » ، وقد قال بعض المصريين نفس العبارة تقريبا لدى ورود الأخبار بنزول الانجليز الى الأرض المصرية للمعاونة فى اخراج الفرنسيين •• قالوا « ان الفرنساوية عندنا أحسن من الانكليز لأننا قد عرفنا أخلاقهم ونعلم أن الانكليز انما يريدون بانضمامهم الى العثمانية تنفيذ أغراضهم فقط (٢٨) » •

٣ ــ تتصل السلبية الأخرى من سلبيات الشخصية المصرية بموقف المصريين من حكامهم • فقد خلفت عهود طويلة من الحكم الأجنبى من ناحية ، والحكم والاستبداد من ناحية أخرى ــ سمات معينة على طبيعة العلاقة بين الطرفين : المصريين ومن حكموهم •

من هذه السمات ما ظل يحيط به المصريون حكامهم من نفاق ، الى حد يمكن القول معه ان « صناعة الحكام » ظلت احدى الصناعات المصرية •

ويروى لنا الجبرتى أن الدعاء « لعلى بك الكبير » فى صلاة الجمعة ، وكان من أهم رموز الحكم ، قد تم بمبادرة مصرية صميمة •• يقول فى تسجيله لأحداث أول رمضان ١١٨٣ هـ (١٧٦٩م) « اتفق أن على بك صلى الجمعة الأولى من رمضان بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بيك • فلما انقضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف ، أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك انى سلطان ؟ فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك » • ويعلق الجبرتى بأن ذلك « وافق غرضه الباطنى وهو طمعه فى الاستيلاء على الممالك » (٢٩) وليست هذه الا مجرد حادثة ، ولكن لها مكانتها لما هو معلوم من دور لعبه على بك الكبير كحاكم صنعته مصر •

---

(٢٦) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٥ •
(٢٧) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٩٨ ــ ٩٩ •
(٢٨) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٥٧ •
(٢٩) عجائب الآثار جـ ١ ص ٣٣٩ •

سمة أخرى تتمثل فى لون من الاستضعاف ، كثيرا ما شعر به المصريون ازاء حكامهم أو جماعات منهم فى مرحلة أو أخرى من مراحل التاريخ المصرى ٠ هذا الشعور عبر عنه أحد مشايخ المصريين هو الشيخ العروسى عند لقـــائه هو ومجموعة من زملائه لحسن باشا قبطان قائد الحملة العثمانية المرســـلة ١٧٨٦ لتأديب الأمراء المماليك ٠٠ يقول الشيخ العروسى لحسن باشا لدى دخول الأمير مع قواته الى القاهرة واحداقه بأعدائه : « يا مولانا ٠٠ رعية مصر قوم ضعاف ، وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس » ويرد شيخ آخر عندما يعيب حسن باشا على المصريين قبول « عذاب وظلم » الأمراء المماليك يرد قائلا « يا سلطانم هؤلاء عصبة شديدو البأس ويد واحدة » (٣٠) ٠

ويصل خوف المصريين من حكامهم الى حد فقدان الثقة فى النفس وما استتبع ذلك من تصور عجز المصرى عن ممارسة مهام الحكم ، وقد ظهر هذا تماما بينما كان الفرنسيون فى مصر ، فعندما عرض هؤلاء بعض المناصب على المشايخ قال لهم الأخيرون : « ان سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم » (٣١) ٠

سمة أخرى مؤسفة يسجلها الجبرتى فى علاقة المصريين بحكامهم هى ، ان أبناء الشعب المصرى خاصة عامته ، قد اعتادوا على التضحية ، وأن ثمار التضحية يجنيها دائما أخلاط حكامه ٠٠ يتحدث فى هذا الصدد عن الدور الذى لعبه المصريون فى صد الحملة الانجليزية عن رشـــيد سنة ١٨٠٧ ٠٠ يقول : « خرجوا فى مواكب وطبول وزمور ٠ فلما وصلوا الى متاريس الانكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا فى الحملة عليهم وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا ســـلاحهم وطلبوا الأمان » ٠٠ ثم لا يلبث أن يعلق بقوله : « وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب اليهم فعل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك (٣٢) » ٠٠ وكأنه قد كتب على المصريين أن يزرعوا وأن يحصد غيرهم ، وهم راضون بذلك ٠

٤ ـ السلبية الأخيرة من سلبيات الشخصية المصرية التى يمكن استقراؤها من كتابات الجبرتى ، ماظل ينقص هذه الشخصية على امتداد تاريخها من « مثابرة » على متابعة مطالبها ، اذ ظل يغلب على مواقفها حيال هـــذه المطالب الانفعال أكثر من الفعل ٠ وهناك تعبير طالما استخدمه شيخنا المؤرخ تعليقا على ما كانت تنتهى اليه فى العادة ثورات القاهريين ضد حكامهم ٠٠ كثيرا

(٣٠) عجائب الآثار جـ ٢ ص ١١٨ ٠
(٣١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١١ ٠
(٣٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٥٥ ٠

ما كان يقول فى نهاية كل هبه من تلك الهبات : « انفض الجمع وبردت القضية وراحت على من راح والأمر لله وحده » (٣٣) ٠

ثانيا : الشخصية المصرية فى مجال التعبير :

هذا بعض ما أمكن استقراءه من أبعاد « الشخصية المصرية » الايجابى منها والسلبى من خلال « تصوير » الجبرتى لحياتها اليومية ٠ يبقى بعد ذلك محاولة استلهام بعض ما ظل يعتمل فى أعماق تلك الشخصية من خلال « تعبير » مؤرخنا عنها ٠

ولا يملك قارىء مؤلفات الجبرتى الا الاحساس برائحة أرض مصر الطيبة وقد ملأت صدره كلما صادف تعليقا من تعليقاته على قضية هنا أو حادثة هناك ، وهى تعليقات لازال المصريون المحدثون يتداولونها حتى يومنا هذا ، سواء بالنص أو بالروح ٠ ومع ما تضمنته التعليقات المذكورة من حكمة ظل يتداولها أبناء هذا الشعب بحضارته فى أعماق التاريخ ، فقد انطبعت فى أغلب الأحوال بنبرة من سخرية لاذعة ، كما غلب عليها فى أحوال أخرى مسحة من حزن عميق وأسى بالغ ٠٠ وهى فى كل الأحوال سمات ترسبت فى الوجدان المصرى وأصبحت جزءا أصيلا من تراثه الحضارى ، فمن ذا الذى يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام وهو يطالع كل تلك السخرية التى تضمنتها عرائض « الفلاح الفصيح » يشكو فيها من ظلم وقع عليه ، ومن ذا الذى لا يعتصر نفسه الألم ، وهو يقرأ تلك النصوص البالغة الحزن فى كتاب الموتى الذى خلفه الأقدمون ٠٠ لقد كان الجبرتى فى هذا الجانب ابنا بارا لمصر بكل سخريتها ، وبكل حزنها ٠

فى مجال « السخرية » نال الحكام أوفى نصيب منها ، وهذا شأن المصريين مع حكامهم على امتداد تاريخهم كما يبدو ؛ فالواضح ـ ومع غيبة وسائط التعبير الديموقراطى ومع الطابع الاستبدادى الذى لازم حكام مصر فى أغلب عصورها التاريخية ـ أن أبناء الشعب المصرى لم يملكوا سوى سخريتهم ينفسون بها عن كثير من مكنونات صدورهم ٠

ولما كان الفرنسيون أبعد الحكام عن القبول الشعبى خلال تلك الحقبة التى عاشها الجبرتى واختصها بالتسجيل التفصيلى ، فقد كان من الطبيعى أن يحظوا بقدر هائل من تلك السخرية ، فمؤرخنا العتيد لم يترك موقفا يستطيع أن ينال من خلاله من هؤلاء الا واقتنصه بقلمه اللاذع ٠

يسخر الجبرتى من ذلك الاهتمام البالغ الذى أثاره الفرنسيون لمسألة اضاءة القناديل فى الليل ، وعقابهم لمن لا ينفذ أوامرهم فى هذا الشأن فيقول :

---

(٣٣) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦١ ٠

« حتى كان الناس ليس لهم شغل الا القناديل وتفقد حالها وخصوصا فى ليل الشتاء الطويل (٣٤) » ٠

نفس الفكاهة الطريفة يعلق بها على ما قام به الفرنسيون من هدم مساطب الحوانيت ، فيسجل أنه قد « حصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك ، وصاروا يجلسون فى داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران فى الشقوق (٣٥) » ٠

ولا يخفى الشيخ المؤرخ شماتته لما أصاب الفرنسيين من هزائم على أيدى أعدائهم الانجليز ويعلق على ما قاله « ستيف » لرجال الديوان عن الانجليز من أن « بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة ولو كان بينهم وبين الفرنساوية طريق مسلوك من البر لانمحى أثرهم ونسى ذكرهم من زمان مديد » يعلق على ذلك بأنه « كلام من بحر الغفلة » (٣٦) ٠

وتتملك الجبرتى روح السخرية المريرة من الحكام وهو يترجم « لمراد بك » فى عام وفاته (١٢١٥هـ) ، فى عبارات بليغة يقول عن الأمير المملوكى المشهور « اذا بلغه قدوم من يختشيه أو وصول من يرتجيه وكان يستحى من رده أو يخشى عاقبة صده ركب فى الحال وصعد الى الجبال وربما وصله الغريم على غفله فيجده قد شمع الفتلة فان صادفه واجتمع عليه أعطاه ما فى يديه أو وعده بالخير أو وهبه ملك الغير (٣٧) » ٠

نفس اللسان اللاذع يتناول أعمال العساكر العثمانية الذين عاثوا فسادا بالبلاد بعد خروج الفرنسيين ولا يجد المصريون سبيلا الا أن يصلوهم بالنكات ٠

يسجل الجبرتى حادثة عن أحد الأرنؤد ، شرب شربة عرقسوس ولم يدفع ثمنها مما أدى الى تدخل آخرين من عساكر الانكشارية وتبادل اطلاق النار بين الجانبين ، كان نتيجته على حد تعبير صاحب القلم المصرى : « مات تسعة أشخاص فى شربة عرقسوس » (٣٨) ثم فى مكان آخر وعن حوادث هؤلاء أيضا يقول : « وقع بالأزبكية معركة بين العسكر قتل بها واحد من أعيانهم واثنان آخران ورجل سائس وبغل وفرس وحمار » (٣٩) ومن الواضح أن الجبرتى لم يقصد احصاء القتلى من الحيوانات بقدر ما قصد السخرية من المقتتلين ٠

والملاحظ أن تهكم الجبرتى لم يقتصر على المماليك دون العثمانيين ، كما أنه لم يقتصر على حاكم دون آخر ٠

(٣٤) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٨ ٠
(٣٥) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦١ ٠
(٣٦) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٧٩ ٠
(٣٧) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦٩ ٠
(٣٨) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٨٩ ٠
(٣٩) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٤٥ ٠

يتهكم مؤرخنا فى شهر ذو الحجة ١٢١٩ هـ (مارس ١٨٠٥) على مبالغات خورشيد باشا فى استقباله لبعض أنباء الانتصارات العثمانية على المماليك فيقول : « حضر ططرى من ناحية قبلى وأخبر أن العسكر دخلوا المنية وملكوها فضربوا مدافع كثيرة من القلعة وعملوا شنكا وأظهر العثمانية وأغراضهم الفرح والسرور وكأنهم ملكوا مالطة » » (٤٠) ، ثم لا تمضى شهور قليلة على تولية محمد على بعد ذلك الا وتحدث أزمة التولية المشهورة فيتحدث عن تشبث الأرنؤد بمصر فى سخريته المعهودة ويقول : « ما من أحد منهم الا وصار له عدة بيوت وزوجات والتزام بلاد وسيادة لم يتخيلها ولم تخطر بذهنه ولا بفكره ولا يسهل به الانسلاخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه » (٤١) ٠

ومع كل هذه السخرية التى ظلت سمة مميزة للشخصية المصرية : فان كتابات شيخنا المؤرخ قد استمرت تنضح بما يمكن أن نسميه « حكمة مصرية » ممثلة فى تلك الأقوال المأثورة التى ساقها فى هذه الكتابات ، والتى لازال المصريون يتداولون أغلبها حتى يومنا الحاضر ، مما يدعونا الى ذكر بعضها ٠

لازال المصرى المعاصر يصف التلويح باستخدام القوة بأنه « اظهـــار للعين الحمراء » وهو ما يسجله الجبرتى عندما طلب بعض الجند الأرنؤود من الخازندار مفاتيح القلعة فى ٨ محرم ١٢١٨ هـ (أبريل ١٨٠٣) « فمانعهم ولما رأى منهم **العين الحمراء** سلمهم المفاتيح » (٤٢) ٠

ولازال المصرى المعاصر يصف ما يجرى من محاولات التوفيق بين بعض المختلفين دون نجاح حقيقى بأنه رغم التظاهر بقبول التوفيق فان « اللى فى القلب مستقر فيه » (٤٣) ٠

وتبدو الحكمة البليغة فى كتابات المؤرخ المصرى فى تلك الجملة القصيرة والمعبرة التى أراد أن يصف بها زيادة الوفيات نتيجة لانتشار الطاعون فى مصر فى رجب ١٢٠٥ هـ (مارس ١٧٩١) ٠٠ قال الجبرتى « واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى جمعة واحدة » (٤٤) ٠

تبدو نفس الحكمة أيضا عندما يصف تمويهات « محمد على » على بعض الأمراء المماليك فيقول انه قد « زرع له فوق السطوح » (٤٥) وتبدو دقة التعبير عندما نعلم صعوبة بل واستحالة الزراعة فوق الأسطح ٠٠ أو على الأقل أسطح الدور المصرية خلال ذلك العصر ٠

---

(٤٠) عجائب الآثار جـ ٣ ٠

(٤١) عجائب الآثار جـ ٤ ص ١١ ٠

(٤٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٤١ ٠

(٤٣) عجائب الآثار جـ ٤ ص ١٩ ٠

(٤٤) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢٠٣ ٠

(٤٥) عجائب الآثار جـ ٤ ص ٩٢ ٠

يبقى أخيرا ذلك الحزن الكامن لدى الشخصية المصرية مما ظل يعبر عنه الجبرتى في (صورة) هنا أو فى (عبارة) هناك :

الصورة ، يسجلها مؤرخنا فى أحداث ٢٥ ذى القعدة ١٢٠٠ هـ (سبتمبر ١٧٨٦م) يقول : « ببيت المعلم ابراهيم الجوهرى مكان مرتفع مهدوم الدرج وكان ذلك المكان لولده وقد مات من نحو سنتين فلما مات هدم الدرج التى يتوصل منها اليه حزنا عليه وتركه بما فيه » (٤٦) . ولا نعتقد أن مثل هذه الصورة الحقيقية المعبرة عن الحزن البالغ يمكن أن تبرز لدى شخصية كما تبرز لدى الشخصية المصرية .

أما **العبارة** ، والتى نختتم بها دراستنا هـــذه ، فهى تلك التى سجلها الجبرتى على لسان الأمير المملوكى المعروف محمد بك الألفى لدى وفاته ، قال : « يا مصر انظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤود وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك » (٤٧) .

وتؤكد كافة الدلائل ان تلك المرثية كتبها الجبرتى تعبيرا عما كان يخالجه هو نفسه حين بدأ محمد على ينفرد بحكم مصر ، وهو على أى الأحوال لون من الكتابة قد عرفه المصريون الأقدمون قبل أى شعب آخر ، وكأنما كان الجبرتى بهذه المرثية يودع عصره ، لأن مصر كانت تستقبل آنذاك عصرا جديدا من عصورها ، وهو ما عبر عنه أخيرا على لسان الألفى أيضا بأنه قد « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على » (٤٨) .. أو بالأحرى قد قضى الأمر وانقضى ذلك العصر الذى انتمى اليه مؤرخنا المصرى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى .

(٤٦) عجائب الآثار جـ ٢ ص ١٣٢ .
(٤٧) عجائب الآثار جـ ٤ ص ٣٨ .
(٤٨) عجائب الآثار جـ ٤ ص ٣٨ .

منهج عبد الرحمن الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية

للأستاذ صلاح عيسى

تتحدد الصعوبة فى اكتشاف منهج الجبرتى كمؤرخ من خلال عدد من الحقائق يمكن رصدها على النحو التالى :

أولا : أن بعض الباحثين يصنفون الرجل فى خانة الاخباريين ، ويرون ان كتابيه (١) مجرد يوميات كتبت فى أوانها ، أو هى اضمامة تضم جهد مخبر صحفى غير نشيط ، فالجبرتى عند هؤلاء « صحفى تلك الأيام » (٢) التى أرخ لها • وبينما يتحفظ بعضهم فيكتفون باطلاق الحكم — مع بعض قيود — على « مظهر التقديس » فيقولون بأن الجبرتى كان فيه « كاتب مذكرات أكثر منه مؤرخا » (٣) ، فان هذا الحكم يشمل عند آخرين « عجائب الآثار » وبلا تحفظات ، فهو عندهم كتاب « ليس من التاريخ على أسلوبه الصحيح فى شىء ، انما هو مذكرات وروايات قيد المؤلف شواردها بغير ترتيب ولا تنسيق تصلح أن تكون مادة للمؤرخ مع شىء غير قليل من الصعوبة والعناء » (٤) • ولأن الاخباريين فى رأى البعض — ليسوا أصحاب منهج أو موقف فان البحث فى ذلك عند الجبرتى أمر غير وارد •

ثانيا : ويتفرع عن هذه الصعوبة أن الجبرتى كان معاصرا لمرحلة تزيد عن ٤٥ عاما تشكل أكثر من ثلث الزمن الذى أرخ له ، فبعض من ترجم لهم كانت تربطه بهم وشائج وصلات : بين صاحب له (٥) ، وشيخ تلقى عنه العلم (٦) ، فضلا عن تلامذة أبيه وأنداده (٧) • وبعض الحوادث التى يؤرخها كانت طرفا فيها • وهو ما يجعل جهده كمؤرخ معيبا بالمعاصرة وهى حجاب يحول دون الرؤية الموضوعية ، وينقله الى حيث يصبح مجرد « شهادة معاصر » وليس تأريخا • وبالتالى فلا محل لاكتشاف منهج أو رؤية •

ثالثا : ويتعقد الموقف لأن الجبرتى نفسه قليل التعليقات ، ومعظم أخباره صماء لا يتجاوزها الى مقارنتها أو تحقيقها أو تفسيرها ، وهو يصوغ أحكامه

ــ غالبــا ــ فى كلمات مبتسرة تتضـــمن أحكاما خلقية ، فهـــذا التصرف « ظلم » (٨) أو « سخافة » (٩) أو « خزعبـــلات » وهذا الأمر « شـــنيع جدا » (١٠) وهذا الشخص « لعين أو كافر » (١١) وبعضها عبارات لا تعكس رأيا فى الحدث ولكن استكمالا للخبر · ولا جدال فى أن هذه ليســت كل الصعوبات ولكن أهمها فقط · لكننا لا نريد أن نلوى على أعقابنا دون أن نكتشف القـــوانين التى تحكم عالم التاريخ عنـــد الجبرتى · وبالقطع فان مارجوليوث (١٢) كان مصيبا عنـــدما قال : ان ابن خلدون كان مؤرخا نادر المثال فى كل آداب عصر ما قبل الطباعة ، لأنه كان صاحب منهج وفلسفة فى النظر الى ظواهر التاريخ ، لكن مارجوليوث لم يصب تماما فى نظره الى كتب اللاحقين لابن خلدون من المؤرخين العرب ، فليست كلها كتبا آلية تعيد نصوصا أو روايات موجودة من قبل ، فاذا كان ابن خلدون قد ملك القدرة على تنظير رؤيته للتاريخ فى مقدمته فان الآخرين قد يملكون هذه النظرية أو تلك يفسرون بها حوادثه دون أن يعنوا بافراد مقدمة لها · ومهمتنا أن نحاول استكشاف وجهة النظر التى لم يستخلصها لنا صاحبها وأن ننظر ما عزف ــ أو عجز ــ عن تنظيره · لعلها تكون مهمة شاقة ، لكنها ضرورية ·

وما يدفع لارتياد هذا المنهل الصعب ، هو اليقين بأن الجبرتى قد ترك لنا وثيقة من أخطر الوثائق فى تاريخنا الحديث كله ، فهى لا تحتوى فحسب على مادة تاريخية نادرة عن المرحلة التى تؤرخ لها فى ظواهرها السياســـية والاجتماعية ، ولكنها أيضا وثيقة هامة تعكس فكر الانتلجنســـيا المصرية فى عصره وآراءها فيما تقلب على الوطن من نظم ســـياسية واجتماعية لم تكن استمرارا تقليديا للظاهرة المصرية فى العصور الوسطى ، بل مثلت انتقـالة واضحة وشاملة وفى اتجاه مختلف تماما ، فقد شاءت ظروف الجبرتى أن يكون معاصرا لثلاثة انقلابات خطيرة الشأن فى التاريخ المصرى الحديث ، بل لعلها ــ من حيث نتائجها ــ أخطر هذه الانقلابات على الاطلاق ، فقد شهد ثورة على بك الكبير ومحاولته للاستقلال بمصر (١٧٦٩م) وكان حدثا فى الخامســـة عشرة ، وشهد فى كهولته ــ وبعد هذا التاريخ بثلاثين عاما ــ الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١م) وما تخللها من احتكاك بين العقل المصرى والعقل الأوروبى الذى وفد آنذاك بتطبيقات الفـــكرة الليبرالية فى ميادين السياسة والاجتماع ، وهو قد عاصر السنوات التى تلت عودة الحـــكم العثمانى المباشر لمصر ، تلك التى انتهت باسقاط الحـــكم المملوكى العثمانى فى عامى ١٨٠٤ و ١٨٠٥ على التعاقب ، وتولية محمد على حكم مصر داخلا بها الى آفاق عصر القومية بخطى حثيثة ولكن ليست حاسمة ·

واذن فان الجبرتى قد عاصر أو شاهد لحظات احتدام تاريخى تتغير فيها الظواهر وتنقلب فيها الأوضاع ، ورصد حوادثها التى كان محتملا أن يضيع كثير من تفصيلاتها لولا أنه احتفظ بها وسجلها ، ولكن الأهم من هذا وذاك أن

كتابيه يظلان وثيقتين فكريتين شديدتى الأهمية بالغتى الخطورة . اذ تعكسان رؤية فكرية محددة لهذه السنوات التى تغيرت فيها مصر تغيرات ماتزال فاعلة فى أوضاعها الراهنة ومؤثرة فيها ·

وهذه الأهمية البالغة لجهد الرجل هى التى تدفع لارتياد عالم مجهول وملىء بأدغال لغة ليست ـ بالضبط لغة زماننا . وأسلوب تأليف لا تتسلسل فيه الأفكار ، ولا تنبنى فى سياق واحد ، وتلك صعوبة شكلية يمكن دائما التغلب عليها ، أما الصعوبات الموضوعية الثلاث التى ذكرناها فيمكن أن نزيحها اذا علمنا :

أولا : أن تصنيف الجبرتى فى خانة الاخباريين بشكل مطلق هو خطأ بلا جدال ، ولكننا مع افتراض صحته لا نرى أن الاخباريين ليسوا أصحاب منهج أو موقف ، والواقع أن اختيار أخبار معينة واهمال غيرها والحرص على الترجمة لأفراد معينين وترك الآخرين ، يعكس وجهة نظر متضمنة ، وعلى سبيل المثال فان الجبرتى « فى مظهر التقديس » قد أغفل من حوادث شهر ربيع الأول ١٢١٦ هـ (يوليو ١٨٠١م) وشهر ربيع الثانى من نفس السنة ، أكثر من نصف حوادثهما · وقد عاد فى كتابه الثانى « عجائب الآثار » فأورد حوادث الشهرين متكاملة ـ بحسب جهده فى التجميع ـ ويفسر حجب هذه الأخبار ثم ايرادها موقفا له ، فقد كانت كلها تسجيلا لقبائح وجرائم ارتكبها العثمانيون عندما دخلوا القاهرة مرة ثانية · وبصرف النظر عن دلالة هذا فيما يتعلق بموقفه من العثمانيين ، فهو أيضا يعكس دلالة أن الخبر ليس دائما عرضا لواقع أصم ولكنه اختيار من هذا الواقع ، وما يتحكم فى الاختيار هو « وجهة النظر » أو « المنهج » ، بل ان ترتيب بعض مباحث الكتاب نفسها يمكن أن تكون ذات دلالة ، فالجبرتى الذى يعتبر العلماء « أمناء الله فى العالم وخلاصة بنى آدم وهم خلاصة خاصة الله من خلقه » (١٣) ، يحرص دائما على أن يقدم تراجم من يموت منهم على تراجم الأمراء مهما علا شأنهم ولا يخلطهم بغيرهم ، أو يخل بتلك القاعدة فى أى سنة من السنوات التى أعقبها بذكر تراجم الوفيات ·

ثانيا : أن معاصرة المؤلف برغم أنها عنصر له تأثيره ، الا أن هذا التأثير يقل كثيرا لأننا نعلم أن الجبرتى لم يسجل أخباره هكذا فى حينها ، تاركا اياها « مادة خام » دون تنسيق أو تعديل ، والدافع للجبرتى على كتابة تاريخه معروف ، فقد كلفه أستاذه الزبيدى (١٧٣٢م ـ ١٧٩٠م) فى عام ١٧٧٩ ـ وكان الجبرتى فى الخامسة والعشرين من عمره ـ بمساعدته فى الترجمة لأعلام المائة المنصرمة من مصريين وحجازيين · والمراحل التى مر بها هذا التكليف جعلته يبدأ بالترجمة للأعلام ثم يجمع بعض المصادر ليستكمل بها تاريخ القرن الثالث عشر ، ثم دون بعد ذلك يوميات للمراحل التى عاصرها · والمهم فى هذا كله أن النص الذى تركه لنا الجبرتى ليس هو نص (قيوداته) اليومية

التى كان يسجلها على « طيارات » ورقية ، ولكنه عمل تفرغ فى عامى ١٢٢٠ و ١٢٢١ هـ (١٨٠٥ م - ١٨٠٦) لاعادة تنسيق ما كتب وتبويبه (١٤) • وكان وقتها قد جاوز الخمسين من عمره ، كما أن بعض الظواهر التاريخية كانت قد استكملت ملامحها ، وهو بالقطع ما أتاح للجبرتى فرصة للتخلص من تأثير المعاصرة فى حدودها الضيقة ، ومكنه من استخلاص نتائج ربما لم تكن واضحة أمامه وهو يسجل الأحداث اليومية وقت حدوثها • ونقل عمله بدرجة محدودة من اطار الأخبار الأصم الى أفق أكثر رحابة •

ثالثا : وصحيح أن تعليقات الجبرتى على عجائب أخباره قليلة ، وبعض هذا القليل غير ذى جدوى ، لكنها مع قلتها وندرتها اذا ما رصدت بشكل دقيق وقورنت بغيرها وربطت بالحدث الذى تتلوه ، كفيلة بأن تكشف ملامح وجهة نظره ، والقوانين التى ينظر الى التاريخ بمقتضاها ، خاصة أن الجبرتى عندما نسق كتابه قد زوده بمقدمة شبه نظرية يحاول بها أن يقدم مفهومه للتاريخ ورأيه فى العوامل التى تحكم سير المجتمع الانسانى ، فاذا أضفنا الى هذا ما يمكن أن نستخلصه من طريقته فى الرواية ، والأخبار التى يخفيها - اذا توفر مصدر آخر موثوق به للمقارنة - أو التى يعطيها صدارة ، فان دلالة هذا كله تصبح جزءا من التعليقات والتفسيرات تضاف الى ما ورد فى النص ، وتوفر مادة للبحث فى منهج الجبرتى •

واذا كان ممكنا - فى ضوء ما سبق - أن نقلل الى الحد الأدنى من تأثير هذه العوامل والصعوبات على موضوع بحثنا بحيث لا تجعله غير ذى جدوى ، فان التخلص نهائيا من تأثيرها يخل بموضوعيته وأمانته ، وبالذات جانب المعاصرة الذى أثر الى حد كبير فى رؤية الجبرتى لظواهر عصره ، ونقل جزءا كبيرا من عمله الى آفاق الشهادات التاريخية ، وعكس موقفا سياسيا أكثر مما عكس رؤية منهجية ، واذا كان صحيحا أن أى رؤية منهجية هى فى المحصل النهائى رؤية سياسية ، فان علينا دائما أن نحذر أن تفسد السياسة - بمفهومها كمواقف يومية آنية قد تكون قصيرة النظر - العلم • فرأى الجبرتى فى محمد على مثلا أو فى المماليك لا يمكن أن يخلو من تأثير علاقته بهم سلبا أو ايجابا ، أو تأثير مواقفهم السياسية على مصالحه الخاصة أو معتقداته وأفكاره •

ولكى يكون لهذا الاستخلاص موقعه فى البحث ، فانا نفضل أن ندمج رؤيته المنهجية فى موقفه السياسى - مع وضع عامل المعاصرة فى الاعتبار - وذلك فى ضوء مفهوم يرى أن الجبرتى قد تفاعل مع ظواهر عصره بعقلية ساهم فى تكوينها هذا العصر بكل ظواهره ، وأنه فى حكمه على هذه الظواهر كان ابنا للانتلجنسيا المصرية الاسلامية وممثلا لها ، ولأنها فى تلك المرحلة كانت شريحة اجتماعية شديدة الفاعلية والتأثير ، بحكم مصالح طبقية واضحة ، فان رصد موقعها على الخريطة الاجتماعية فى مصر وقتها هو المدخل الطبيعى لفهم موقف الجبرتى مؤرخا وسياسيا •

أين يقف الجبرتي ؟

ما يهمنا من تاريخ حياة الجبرتي المؤرخ هو تحديد موقعـــه الاجتماعي بالنسبة لعصره ، وعلى قلة ما يذكره عن نفسه ، فقد أفاض فى الترجمة لوالده لدرجة أن « ديباجة ألقابه ومرادفات تشريفه بلغت أكثر من ستين لقبا ، ولم يؤثر عنه فى مئات من التراجم لفحول الأمراء والعلماء أنه خلع عليهم بعض تلك الأوصاف » (١٥) • والظاهر من الرواية التي يقدمها لتاريخ أسرته (١٦) أن جده السابع وسميه الشيخ عبد الرحمن هو أول من هاجر من أجداده الى مصر لتلقى العلم فى الجامع الأزهر ، حيث أصبح شيخا لرواق الجبرتية ، وبدءا من جده الخامس بدأت أخبار ثروة الأسرة تصل الينا ، فقـــد تزوج ب « زينب الجوينية » ــ ابنة الامام العلامة القاضى عبد الرحمن الجوينى ــ التى كان لهـــا « أماكن جارية فى ملكها وقفتها على ولدى زوجها » ، وتنقطع أخبار ثروة الأسرة لتقف بنا عند جده الأول الذى مات تاركا والد عبد الرحمن ــ الشيخ حسن الجبرتى ــ فى كفالة جدته ، وتحت وصاية الامام الشيخ محمـــد النشرتى ، ويبدو أن الجدة المذكورة كانت شديدة الثراء ، فقد كان لها « مكان مشرف على النيل بربع الخرنوب » فكان للوالد « حاصل فى هذا الربع » الذى كان فيه « أشياء كثيرة من المتاع والصينى القديم » ، كما كان للجدة أيضا « مكان بمصر العتيقة أيام النيل بقصد النزهة » • باختصار فان هذه الجدة كانت « ذات غنى وثروة ولها أملاك وعقارات » • وعندما ماتت « وقفت عليه ــ أى على الشيخ حسن الجبرتى ــ أماكن ومنها الوكالة بالصنادقية والحوانيت بجوارها وبالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الأقبغاوية ، ورتبت فى وقفهـــا عدة خيرات ومكتبة لاقراء أيتام المسلمين بالحانوت المواجه للوكالة المذكورة وربعة تقرأ فى كل يوم وختمات فى ليالى المواسم وقصعتى ثريد فى كل ليلة من ليالى رمضان وثلاث جواميس تفرق لحمها على الفقهاء والأيتام والفقراء فى الأضحية » •

والأرجح أن الشيخ الجبرتى الأب قد ضاعف هذه الثروة بالمصاهرة ، فقد تزوج من بنت رمضان جلبى بن يوسف المعروف بالخشاب « وهم بيت مجد وثروة ببولاق ولهم أملاك وعقارات وأوقاف ، من ذلك : وكالة الكتان وربع وحوانيت تجاه جامع الزردكاش ، وبيت كبير بساحل النيل ، وآخر تجاه جامع مرزة جربجى » • وغالبا فان هذا كله ــ أو جزء كبير منه ــ قد آل الى الشيخ حسن ، فقد توفى رمضان جلبى فى حياة ابنته ، وظلت فى عصمة زوجها الى أن ماتت فى حياته • وقد تضاعفت الثروة أيضا بالتجارة والاستثمار ، فالشيخ حسن كان « مع اشتغاله بالعلم يعـانى التجـــارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمقايضة » ، ويمكن تقدير حجم ثروته اذا ما وضعنا فى الاعتبار أنه كانت له « ثلاثة مساكن احـــداها بالقرب من الأزهر والآخر بالابرازية بشاطىء النيل ومنزل زوجته القديمة تجاه جامع مرزة ، وله فى كل منزل زوجة وسرارى وخدم » وأنه كان يقتنى « المماليك والعبيد والجوارى البيض

والحبوش والسود » (١٧) . ويبدو أن هذه الثروة قد تضاعفت على يد المؤرخ الجبرتى ، فنحن نعلم من تاريخه أنه جدد داره التى بالصنادقية بشكل يقترب بها من دور الأمراء وكان لها حديقة صغيرة وبها اصطبل للدواب وهرى للغلال ، ومطبخ كبير به حاصل تخزن فيه الأحطاب والفحم ، وحفر بئرا بجانبه وبنى بصدر الوحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها لسكن الخدم والعبيد ، وبعضها للضيوف والاستراحة ، ووصف الدار على ما أورده يؤكد أن دخله كان وافرا (١٨) . ويفسر بعض الباحثين جولته فى الوجه البحرى التى قام بها فى عام ١١٨٩ هـ وعقب وفاة والده بأنها كانت للاشراف على أملاكه وضبطها (١٩) ، وكان بعضها فى ابيار (٢٠) — وهى بلدة قريبة من كفر الزيات — ولها أملاك فى ادكو « حيث تفقد أوقاف الجبرتية وهى مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة ، كان أبوه ناظرا عليها ثم انتقلت نظارتها اليه بعد وفاة أبيه » (٢١)

ولا شك فى أن الجبرتى المؤرخ قد انتقلت اليه النظارة على أوقاف عدة كان من بينها أوقاف رواق الجبرتية رغم قلة عدد طلابه . ويذكر صاحب الذيل على المقريزى أن هذا الرواق كان عامرا الى القرن التاسع وكان به قليل من الطلبة ولهم ١٥٠ رغيفا فى اليوم (٢٢) ، وتدل ميزانية الأزهر فى عام ١٩٦٣ على أن هذا الرواق كانت له أوقاف خاصة به يحسب دخلها فى ميزانية الأزهر (٢٣) ، كما أننا نعلم من بعض اشارات عبد الرحمن الجبرتى أنه كان ينتظر على أوقاف بعض الأضرحة ، ومنها قرافة الامام أبى جعفر الطحطاوى التى ورث التنظر عليها عن صهره على ابن عبد الله الرومى الذى توفى عام ١١٩٩ هـ (٢٤) . فضلا عن أوقاف جدة أبيه السابق الاشارة اليها . من هذه الثروة الوافرة كان الجبرتى الأب « يقتنى الكتب النفيسة غير المتداولة » (٢٥) ويشترى « الآلات الفلكية من ورثة المشتغلين بها » (٢٦) . وكان كل من الأب والابن كريمين فى استضافة الشيوخ والتلاميذ ، لدرجة أن أولهما أنشأ مكتبة عامة فى منزله وضع فيها « نسخا من الكتب التى يتداول علماء الأزهر قراءتها للطلبة ، فكانوا يأتون الى ذلك المكان ويأخذون ويغيرون وينقلون من غير استئذان » (٢٧) أبقى عليها الابن .

وكان طبيعيا وهذه ثروة الأسرة ومكانتها أن ترتبط بالعناصر المسيطرة على المجتمع المصرى ، فنحن نعرف من بين أسلافه « الولى العارف بالله الشيخ على الجبرتى الذى كان يعتقده السلطان الأشرف قايتباى » (٢٨) ، كما أن جدة أبيه قد تزوجت بالأمير على أغا باش اختيار متفرقة المعروف بالطورى — نسبة الى جبل الطور — وتزوج أبوه ابنة الأمير نفسه الذى كان حاكما على قلاع الطور والسويس والمويلح ، وكانت اذ ذاك عامرة وبها المرابطون ويصرف عليهم العلوفات والاحتياجات ، ولما مات الأمير تولى حسن الجبرتى وظيفته مع كونه فى

عداد العلماء فأرسل نائبا عنه على قلعة المويلح فلما قتل تكدر لذلك وترك هذا الأمر ، وأعرض عنه وعاد الى شأنه (٢٩) الا أنه وان ترك ذلك فان علاقته بالسلطة المملوكية فى مصر لم تنقطع ، فقد كانت للأب « منزلة عظيمة فى قلوب الأكابر والأمراء والوزراء والأعيان ، ويسعون اليه ويذهب لبعض المقتضيات والشفاعات ويرسل اليهم فلا يردون شفاعة ، ولا يتوانون فى حاجة يتكلم فيها ، وله عندهم محبة ومنزلة فى قلوبهم زيادة عن نظرائه من الأشياخ لمعرفته بلسانهم واصطلاحهم ورغبتهم فيما يعلمونه فيه من المزايا والأسرار والمعارف المختص بها دون غيره وخصوصا أكابر العثمانيين والوزراء وأهل العلوم والفضائل منهم » (٣٠) ، وتبلغ هذه المكانة قمتها اذ يرسل اليه السلطان العثمانى مصطفى نسخا من الكتب المودعة بخزائنه ، وكذلك أكابر الدولة بالروم ومصر وباشة تونس والجزائر (٣١) · وكان للابن بعض مكانة الأب ، فنحن نعرف من بعض ما أورده فى تاريخه أنه كان على صلة بالأمير المملوكى محمد الألفى لدرجة يتحدث فيها الأمير معه عن همومه ويسب امراءه أمامه ويصفهم بالمغلفين (٣٢) · وأنه كان على صلة وثيقة بالأمير رضوان كتخدا ابراهيم بك وصلت الى درجة أن بلاه سفرا وحضرا يافعا وكهلا (٣٣) ولا نستبعد أن تكون له علاقة ما بالأمير ابراهيم بك الذى تحدث عنه دائما بود مشوب بالعطف (٣٤) ·

ولا نجد بين أيدينا نصا يؤكد أن الجبرتى كان له التزام كما كان لكبار الشيوخ فى عصره ، لكننا مع ذلك لا نستبعده ، وحتى اذا استبعدناه ، فان الجبرتى يقف إجتماعيا حيث كانت القيادة العليا لشرائح الانتلجنسيا المصرية تقف ، فى صف المستثمرين المرتبطين بالحكم المملوكى بوشائج اقتصادية قوية ، ويمثلون مع هذا ولصفاتهم الخاصة « المظهر الوحيد القريب من طبقة متوسطة فى مصر » (٣٥) · فالظاهرة الملفتة للنظر فى أواخر العصر المملوكى هى تحول المشايخ الى شريحة فاعلة فى النشاط الاقتصادى للمجتمع المملوكى ·· وكانت مظاهر هذا النشاط متعددة وعلى النحو التالى :

أولا : أنه كانت لهم حقوق التنظر على أراضى الأوقاف الخيرية ، ولبيان مساحة الأراضى التى كانت موقوفة على الخيرات يذكر الجبرتى أن الذين مسحوا أراضى الوجه القبلى والقاهرة قد « أحصوا جميع الرزق الاحباسية المرصدة على المساجد والبر والصدقة بالصعيد ومصر فبلغت ستمائة ألف فدان » (٣٦) هذا فى الوقت الذى كانت فيه الأراضى الزراعية لا تزيد عن مليونى فدان · وكمثال لهذه الأوقاف يذكر أنه كان « بناحية سوهاج دار الشيخ عارف وهو رجل مشهور كأسلافه ومعتقد بتلك الناحية وغيرها ، ورزقته المرصدة التى يزرعها وينفق منها ستمائة فدان » (٣٧) · ويعتبر الشيخ السادات نموذجا لرجال الدين الذين أثروا من التنظر على أوقاف الأضرحة « الكثيرة الايراد التى تصاد بها الدنيا من كل ناد وتأتيها الخلائق بالقرابات وأنواع النذورات » ، وكان لذلك يتنمر حتى للأوقاف التى يعلم من شروطها أنه بعد وفاة المتنظرين

اليها ستؤول اليه بحكم منصبه الدينى (٣٨) ويدخل فى ذلك الأوقاف الكثيرة التى كانت محبوسة على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة وفقرائهما (٣٩) ، وكان كبـــار مشايخ الأزهر يتقاضـــون معاشات من ايراد وقف أراضى الحرمين (٤٠) فضلا عن المنح والهدايا والأوقاف التى كان يمنحها سلطان المغرب لعلماء الأزهر (٤١) ٠

ثانيا : الالتزام فبرغم أن الملتزمين كانوا فى الأغلب الأعم من المماليك ، الا أن بعض علماء الأزهر كانت لهم التزامات ، ويقول الجبرتى أن العلماء قد « أكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة » ـ أى بأقل من أسعارها ـ وأنهم فى اجتماعاتهم لم يكونوا يذكرون سوى « الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحســـاب الميرى والفائظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى » (٤٢) ٠ والرواية المشهورة عن (المجناكارتا) المصرية سببها التزام فى احدى قرى بلبيس لأحد مشايخ الأزهر ٠ فالجبرتى يقـــدم للرواية بأن « الشيخ الشرقاوى له حصة فى قرية بشرقية بلبيس » (٤٣) وهو لفظ يستخدمه الجبرتى اصطلاحيا للدلالة على حصص الالتزام ٠ كذلك فان الشيخ محمد المهدى كانت له التزامات فى محافظات البحيرة والمنوفية والجيزة والفيوم (٤٤) ٠

ثالثا : الاستثمار التجارى ، وقد رأينا صورة له فيما ذكره الجبرتى عن والده الذى كان يمارس التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمقايضة ، ومن صوره الأخرى أن الشيخ سليمان الجوسقى ـ زعيم ثورة القاهرة الأولى على عهد الحملة الفرنسية ـ كان يخزن الغلال « ويبيعها فى سنى الغـــلوات بالسواحل والرقع بأقصى القيمة » (٤٥) ٠ والشيخ المهدى كان يستثمر أمواله فى تجارة الكتان والقطن والأرز (٤٦) ٠ ويدخل فى هـــذا تملك العقارات وخصوصا محلات التجارة ، فزوجة الشيخ السادات قد « اشـــترت الأملاك والعقارات والحمامات والحوانيت بما يغـــل ايراده مبلغا فى كل شـــهر له صورة » (٤٧) ٠

وكان طبيعيا وكبار المشايخ هم جزء من الشرائح المستثمرة فى المجتمع أن يمارسوا نفس ما يفعله المستثمرون « فقد صار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقـــدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج المعروفة ، واستخدموا كتبـــه الأقباط وقطاع الجرائم فى الارساليات للبلاد ، وقدروا حق طرق لاتباعهم وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شـــكاوى الفلاحين ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية » (٤٨) ، وهو ما قاد بعضهم ـ وربما معظمهم ـ الى مزيد من الشره الى المال ٠

وبالاضافة الى هذا كله ، كان المشايخ يعتمدون على رعاية ومنح وعطايا الطبقات والفئات الأعلى فى المجتمع المملوكى ، فكانوا لذلك مرتبطين ببيوت

المماليك أو حتى بيوت التجـــار « حيث كانوا يقومون بتعـــليم أفراد البيت أو يقرأون القرآن فى مناسبات خاصة ويتقبلون العطايا منهم ، أحيانا فى شكل رواتب شهرية أو فى شكل هدايا مباشرة » (٤٩) ، وتأكيدا لهذا يذكر الجبرتى أن العلماء جبلوا على « الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الأعين والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء والقراءة والمعاتبة عليها ان لم يدعوا اليها والتعريض بالطلب واظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدائرة » (٥٠) ٠

بهذا الوضع أصبح كبار علماء الأزهر جزءا من الظاهرة المملوكية فى بعض جوانبها ، ذلك أن كل هذه الموارد كانت « بشكل عام معاشات فى أيدى المماليك بحيث كان العلماء معتمدين عليهم لاعالتهم » ، وفى الجانب الآخر فان تفتت السلطة المملوكية وظهور التنافس بين الأمراء حول السلطة جعل كلا منهم فى حاجة الى دعم جماهيرى « ولذلك ضاعفوا من هداياهم الى العلماء ، الذين أدركوا أن المماليك كانوا فى حاجة اليهم كوسطاء بينهم وبين الشعب وكمفاوضين وتضاعفت أهميتهم السياسية وزادت ثرواتهم حتى شغلوا مكان طبقة حاكمة ثابتة ٠ وفى هذا الصدد لابد أن نرصد الملاحظات الثلاث التالية :

الأولى : أن هذا التحالف مع المماليك كان قاصرا على الشرائح العليا من علماء الأزهر ورجال الدين ، الذين كانوا فى مكانة تتيح لهم الاستثمار التجارى وبيع حصص الالتزام ، والتنظر على الأوقاف الكبيرة ، لكنه لم يكن تحالفهـــا بنفس القوة بالنسبة للشرائح الأقل غنى وثروة من المشايخ ، كما أن الفقراء منهم وهم الغالبية العظمى من مجـــاورى الأزهر وصـــغار الشيوخ والفقهاء لم يكونوا طرفا فيه ٠

الثانية : أنه كان تحالفا بين شرائح ذات مصالح مشتركة ، وقد تتفاقم تناقضاته وتتفجر عاكسة بذلك الصراع بين شريحتين حاكمتين مستغلتين ، واذا كان المماليك يحوزون القوة العسكرية التى قد تمكنهم دائما من حسم هذا الصراع لصالحهم ، فان المكانة الدينية التى يحتلها العلماء قد مكنتهم كثيرا من اثارة النوازع الدينية لجماهير الشعب ، واستخدام هذه الجماهير لدفع مظالم المماليك وموازنة قدرتهم العسكرية ، خاصة وأن دوافع الثورة لدى عامة الشعب كانت متوفرة لكثرة وتوالى المظالم المملوكية ٠

الثالثة : أن كل انتفاضة شعبية تصدى المشايخ ـ الكبـــار بالذات ـ لقيادتها كانت تجهض عند مرحلة معينة لكى لا تتجاوز طلب الاصلاح فى الاطار القائم ٠

ونحن نلاحظ أن الدور السياسى لعلماء الأزهر الكبار وخاصة فى العقود السابقة على الحملة الفرنسية مباشرة ، كان يدور فى اطـار هذا التحالف ومن مظاهره :

أولا : القيام بالوساطة بين أمراء المماليك ، فعندما سافر مراد بك فى سنة ١١٩٨ هـ الصعيد غاضبا ، أرسل ابراهيم بك والأمراء الذين معه المشايخ : البكرى والسادات والعروسى اليه ليأخذوا خاطره ويطلبوه للصلح مع خشداشينه (٥١) ٠

ثانيا : الوساطة بين أمراء المماليك والوالى العثمانى : ففى الأزمة الخطيرة التى تعرض لها المماليك عندما منعوا ارسال المال الى خزينة السلطان والتى انتهت بارسال حملة حسن باشا الجزائرلى فى عام ١٢٠٠ هـ ، طلع ابراهيم بك ومراد بك والمشايخ : البكرى والسادات والعروسى والدردير والحريرى ، وقابلوا الباشا وعرضوا عليه عرضحالات كتبها المشايخ للدولة ولحسن باشا يطلبون للأمراء مهلة لسداد ما عليهم من أموال ، وسأل الوالى العثمانى والأمراء عمن يضمن وفاءهم بما يتعهدون به فقال ابراهيم بك ، أنا الضامن لذلك ثم ضمانى على المشايخ والاختيارية (٥٢) ٠

ثالثا : تهدئة الجماهير الشعبية فى بعض الأحوال لحساب النظام القائم : ففى سنة ١٢٠٠ هـ وفى عمليات الصراع الدائر بين أمراء المماليك هاجم أحدهم بعض البيوت ونهبها ، فثار أهالى الحسينية وذهبوا الى الجامع وتجمعوا حول الشيخ الدردير الذى قال لهم : فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، ولكن الشيخ لم ينفذ وعده اذ اجتمع فى المساء وكيل ابراهيم بك ووكيل والى القاهرة ، وانتهت المسألة الى مجلس عقد فى الصباح لدى الوالى العثمانى ، وعلى حد تعبير الجبرتى فقد « انفض المجلس وبردت القضية » (٥٣) ٠ وقد تكرر نفس الأمر عندما وفدت حملة حسن باشا الجزائرلى ، فقد طلب ابراهيم بك من المشايخ أن يمنعوا قيام الرعية ضدهم فى هذا الوقت الحرج ، وصحيح أنه « تصاغر فى نفسه جدا » (٥٤) ولكن المشايخ استجابوا له فيما هو ظاهر من رواية الجبرتى ، فعلى الرغم من فرحة المصريين لعودة العثمانيين ببرنامج جديد للحكم — فيما بدا لهم — ، فان المشايخ لم يستثمروا ذلك ضد المماليك ٠ بل العكس من ذلك تدخلوا لمصلحتهم لدرجة أن الباشا قال لهم عندما ذهبوا لمقابلته والتوسط لديه — وكان مازال برشيد ولم يصل القاهرة بعد — « كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاما عليكم يسومونكم العذاب والظلم ٠٠ لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم » (٥٥) ، فاعتذر المشايخ بأنهما شديدا البأس ٠ ومع ذلك فنحن نلاحظ أن المشايخ لم يظهروا فى ذلك الوقت الا للوساطة لحساب المماليك ، فمرة يتشفعون فى زوجة ابراهيم بك التى صادرها المبعوث العثمانى ، الذى نهبهم لأن أمراء المماليك « لهم مدة سنين ينهبون البلاد ويأكلون أموال السلطان والرعية وقد خرجوا من مصر على خيولهم وتركوا الأموال عند النساء » (٥٦) واحتج المشايخ على بيع المماليك مرة أخرى ، وصعدوا الى حسن باشا وكلموه

فى الأمر ، وقال الشيخ السادات : هذا الفعل لا يجوز ولا يحل بيع الأحرار وأمهات الأولاد (٥٧) ٠

رابعا : وطبيعى أن ينهض المشايخ لرد المظالم التى يرون أنهـا تحل بطائفتهم وكيانهم ومن ذلك : أن الشيخ سليمان مصطفى المنصورى المتوفى سنة ١١٦٩ هـ (١٧٥٦م) ، والذى يصفه الجبرتى بأنه « أحد الصدور المشار اليهم » تحدى السلطان وأعلن فى مواجهة قاضى القضاة العثمانى أنه لن ينفذ أمرا أصدره ، لأنه مخالف للشريعة ، وهذه المخالفة للشريعة تمثلت فى أمر أصدره السلطان العثمانى بابطال مرتبات الأولاد والعيال وابطال التوجيهات وأن المال يقبض الى الديوان ويصرف من الديوان ، وقال الشيخ فى تفسير هذا الأمر « هذا شىء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشترى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة ولا يجـوز ابطال ذلك واذ بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، فلا يجوز لأحـد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك » (٥٨) ٠ وعندما هاجم بعض أتباع محمد بك الألفى ، الفلاحين التابعين لالتزام الشيخ عبـد الله الشرقاوى حضر هؤلاء الى الشيخ شاكين واستغاثوا به ، وخاطب الشيخ مراد بك وابراهيم بك فلم يبديا شيئا و « فى ثانى يوم قفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم » وتكشف ظروف الثورة عن أن المطالب التى تقدم بها المشايخ كانت فى الأصل محددة بمصالحهم ، ثم اتسعت لتتضمن ـ فى الغالب ـ تجنيد العامة خلفهم فأصبحت « اقامة العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات » ، وفى مواجهة الاثارة الجماهيرية التى قادها المشايخ اضطر المماليك الى الخضوع وأرسلوا يطلبون المشايخ للمفاوضة ، وهنا بدأوا ينفردون بالأمر فتوجهوا وحدهم « ومنعـوا العامة من السعى خلفهم » ، غير أن هذه الخطوة لم تكن النهائية فقد رفض الأمراء دفع المنكسر من جامكية المشايخ ـ أو مرتباتهم ـ فاستمرت الثورة ليـلة أخرى ـ ثم انحط الأمر على دفع جامكية تلك السنة وحدها وعلى ثلاثة أقساط ٠ وحوادث الثورة بهذا المعنى تؤكد أنها لم تكن ضد تحالف المشايخ والمماليك ، وأن الخلاف كان على توزيع أنصبة الحلفاء وليس على مصالح العامة ٠ على أن الأرضية الاجتماعية والسياسية التى كان الجبرتى ينطلق منها ـ كجزء من مجتمع العلماء ـ لا تتكامل الا اذا رصدنا تكوينه الفكرى وكان هو الآخر جزءا من التكوين لمجتمع العلماء ـ ذلك أن التفاعل بين ثقافة الجبرتى ووضـعه الاجتماعى هو الذى حدد نظره لظواهر التاريخ ومواقف السياسة ٠

والثابت أن العلم فى مصر منذ أوائل العصر العثمانى أخذ يتدهور شيئا فشيئا كمظهر من مظاهر التدهور الاجتماعى والاقتصادى للبلاد ، وصحيح أن الأوقاف على المدارس والمعاهد والمساجد كانت تتزايد ، الا أن « المعقول » كان ينكمش و « المنقول » كان يتصدر ٠ كما انتشر التصوف وبولغ فيه الى حد

الاعتقاد فى الأولياء والكرامات « حتى قيل فى هذا الصدد أن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة » (٥٩) ، ثم مالبث التصـــوف أن انحط « من فلســـفة الى دروشة » (٦٠) ، مع ما يصحب الدروشة من خرافات وكرامات وغيرها من الظواهر التى تؤدى الى اليقين بعدم قيمة العقل والزعم بالقدرة على تحطيم القانون الطبيعى ٠

وهكذا تفتح الجبرتى فى مناخ فكرى شديد التخلف ، وفى مرحلة كان العقل المصرى يعانى حالة حصر ذهنى مميت ، وما يدل على ذلك ما رواه هو نفسه فى حوادث ١٧٤٨م من أن الوالى التركى أحمد باشا استقبل شـــيخ الأزهر عبد الله الشبراوى ومعـــه لفيف من المشايخ ، فتكلم معه وناقشهم وباحثهم ، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا لا نعرف هذه العلوم ، فتعجب الباشا وطلب تفسيرا ، فقال شيخ الأزهر : « ان غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأحوال ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع وأهل الأزهر بخلاف ذلك » ٠

واذا كان الأزهريون – الانتلجنسيا المصرية اذ ذاك – محصورين ذهنيا فى حدود تطبيق المعاملات الاسلامية ، فان درجة تخلف العقل المصرى يمكن أن تقاس اذا عرفنا أن العقود المتوسطة من القرن الثامن عشر ، قد شهدت حركة التنوير الأوربية ، ففيها اكتشف دارون نظرية التطور ، وبدأ الحوار الخصب بين الانسكلوبيديين حول الحق الطبيعى والحق الالهى ، وكتب فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) ، وروسو (١٧١٧ – ١٧٧٨م) ، وديدرو (١٧١٣ – ١٧٨٤م) وغيرهم أبرز أعمالهم ٠

ويصف الجبرتى علماء الأزهر فى هذا الوقت بأنهم « افتتنوا بالدنيـــا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقـــدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية » (٦١) ٠ وهو يصف الشيخ سليمان الفيومى بأنه : « كان قليل البضاعة فى العلم » ٠ ولا يبدو أنه هو ذاته كان من المتبحرين فى العلوم الدينية ، فلغته العربية ليست جزلة ، وأسلوبه ركيك ملىء بخليط من الألفاظ التركية والعامية ، وهو يذكر عند الحديث عن صديقه على الصعيدى أنه درس معه على الجبرتى الأب ففاقة صديقه (٦٢) ٠

على أن السمة العامة للفكر المصرى فى تلك المرحلة هى التدهور العـام فى التفكير لدرجة الوقوع فى أسر الخرافة ، فقد كان معظم علماء الأزهر ينتمون للطرق الصوفية ، لدرجة أن بعضهم « آمن بالأولياء بل ان بعضهم كان مرشحا لهذه المرتبة ، وشاركوا العامة في قراءة أدب الكرامات والطقوس الصوفية » (٦٣) ٠

وكان الجبرتى ــ كوالده ــ سنيا حنفيا صوفيا ، ينتمى للطريقة الخلوتية ٠ لكنه كان معاديا لخرافات العامة شديد الضيق بمـــا شاع فى أيامه من خرافات وخزعبلات ، ولعل رفضه لمواكب المتصوفة من العامة كان رفضا اجتماعيا وتعاليا فكريا عليهم ٠

وبينما يبدو الجبرتى فى نقده للمشايخ مبررا لتدهورهم العقلى باقبالهم على الدنيا ، فان ذلك لا يبدو المبرر الحقيقى ٠

كيف يسير التاريخ ؟

فى اطار المناخ الفكرى الذى كان يسود عصره ــ وانطلاقا منه ــ نظر الجبرتى للتاريخ ولظواهره ، فهــو لم يستطع أن يرتفع عن مستوى عصره الا بدرجة محــــدودة ، وظل مرهقا بهذا العصر لا يستخلص العبرة البادرة ولا الحقيقة الاجتماعية (٦٤) ٠

والخط العام الذى يحكم فهم الجبرتى للتــــاريخ هو النظر اليه باعتباره محكوما بحتمية جبرية تحقق الارادة العليا أو الخالدة ، ولا شك أنه انطلق الى هذا الفهم من ثقافته الدينية وتعصبه السنى وانتمائه الصوفى ، ولا شك أن اطارا من الفهم الأسطورى قد أحاط بهذا كله نتيجة للتدهور العقلى الذى كان سائدا فى عصره ، فهو فى مقدمة « مظهر التقديس » مثلا ، يشير الى امكانية التنبؤ بالوقائع التاريخية من حركة النجوم ، فعنده أن « وقائع الأيام وخطوبها وحوادث الحادثات وكروبها ، لم تزل من حين خلق الله العالم متتالية ومن ضمن الليالى والأيام متوارية » (٦٥) وهو يرى أن الله أودع فى الكواكب خصائص عند اقتران بعضها ببعض ، يربط بينها وبين ما يحدث على الأرض ، وأن هناك من البشر من أودع الله فى نفوسهم خاصية التنبؤ بالحدث التاريخى « اما بالهام أو باكتساب ونظر فى علم الأحكام » ٠ وتطبيقا لهذا يقول « ان من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع البؤس والاصر بحــــلول كفرة الفرنسيس ، ووقوع هذا العذاب البئيس حصول الكسوف الكلى فى شهرى ذى الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر » (٦٦) ٠

لكن هذا الفكر البالغ التدهور يتوارى الى درجة ما فى المقدمة النظرية المحدودة التى كتبها لعجائب الآثار ، والتى تكشف ــ بدرجة أدق ــ مفهومه للتاريخ ، وهو ينطلق فيها من اليقين بأن الانسان حيوان اجتماعى اذ « خلق الله الانسان ضعيفا لا يستقل وحده بأمر معاشه لاحتياجه الى غذاء ومسكن ولباس وسلاح ، فجعلهم الله يتعاونون فى تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذاك ويخبز ذاك لهذا ، وعلى هذا القياس تتم سائر أمورهم ومصالحهم (٦٧) ٠ وعنده أن موضوع التاريخ هو أحوال هذا المجتمع فهو ، « علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأنسابهم ووفياتهم » ، لكنه يحفظ للشخصيات البارزة مكانها فى هذا الموضوع مثـــل : « الأنبياء والأولياء والعلماء والشعراء والسلاطين وغيرهم » (٦٨) ٠

وهدف قراءة التاريخ هو العظة والاعتبار أو قياس الحاضر على الماضى ، فهو علم نفعى له قيمة فى حياة الانسان الراهنة ، فقارئه « يستفيد ما يرومه من المنفعة ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى اذا لحقه مصاب ويتذكر بحوادث الدهر » (٦٩) ، وهو ما يمكن العاقل من أن يقيس نفسه على من مضى من أمثاله فى هذه الدار الدنيا (٧٠) • وجوهر نفعية التاريخ يتمثل فى « حصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال •• الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ويستجلب خيار أفعالهم ويجتنب سوء أقوالهم ويزهد فى الفانى ويجتهد فى طلب الباقى » (٧١) •

واذن فعلم التاريخ ــ عند الجبرتى ــ فيه عبر ، وله مسار من عرفه أمن شر الوقوع فى أسر الفناء ، وهذا المسار ليس عشوائيا وليس مجرد عبرة ترتبط بكل حادث على حدة ، كما قد يبدو للنظرة المتعجلة فى نصوص الجبرتى ، ولكنه مسار يخضع لقوانين كلية ولحتمية مسبقة ترتبط فيها الأسباب بالنتائج والعلة بالمعلول ، لكن هذه الأسباب ليست دنيوية الا بمقدار خضوعها للناموس الالهى الذى حدد كل شىء سلفا •

وحركة التاريخ لدى الجبرتى تتجه الى تحقيق العدل ، والله « هو العادل الحقيقى الذى جعل لكل شىء قدرا » ، والانسان لذلك لا يستطيع أن يعدل اذا تجاوز أوامره ونواهيه ، بل ان نظام حياته الاجتماعية يختل ، اذ « لو فرض فارض زائدا عليه أو ناقصا عنه لم ينتظم الوجود على هذا النظام بهذا التمام والكمال » (٧٢) • وصحيح أن « الظلم والعدل » خاصتان وضعهما الله فى الانسان أو « ركزهما فى نفسه » ، الا أن الله قد وضع أيضا « ميزانا للعدالة وقانونا للسياسة توزن به حركاتهم وسكناتهم ، وترجع اليه طاعتهم ومعاملاتهم » • والقانون السياسى هو كتاب الله ، والميزان الذى يحكم به على الناس هو « العدل » ، ولأن مباشرة هذا الأمر بواسطة الله « هو على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة » فانه قد « استخلف فيهم خلائف وضع فى قلوبهم العلم ــ أى القرآن ــ والعدل ــ أى الميزان ــ ليحكموا بها بين الناس » • والنظام الاجتماعى كله يفسد فى رأى الجبرتى اذا تنازع هؤلاء الخلفاء « فى وضع الشريعة » (٧٣) •

ويخضع العالم التاريخى فى منظور الجبرتى لجبرية مسيطرة ، والخلافة خاضعة لها ، ومعناها عنده « أن ينوب أحد مناب آخر فى التصرف واقفا على حدود أوامره ونواهيه » (٧٤) ، فالخلافة ليست اجتهادا ولكنها قيام بالواجب المحدد • وحتى العدل ليس ارادة انسانية ، فالانسان يسمى عادلا « لما وهبه الله قسطا من عدله وجعله سببا وواسطة لايصال فيض فضله واستخلفه فى أرضه بهذه الصفة حتى يحكم بين الناس » (٧٥) •

وخلائف الله فى أرضه الذين يقومون بتطبيق العدل هم خمس فئات تتوزع فى نظام طبقى هرمى حديدى ، تبعا للرقعة التى يمارسون عليهم خلافتهم هل

هى ضيقة أم متسعة ، وهل هم مسئولون عن غيرهم أم عن أنفسهم فقط ، وهذه الفئات الخمس هى : « الأنبياء والعلماء وولاة الأمور وأوساط الناس وأخيرا القائمون بسياسة نفوسهم » (٧٦) ٠ ٠ وفى هذا النظام فان الأنبياء هم « أدلاء الأمة وعمد الدين ومعادن حكم الكتاب وأمناء الله في خلقه » (٧٧) ، وبما أن النبوات قد ختمت برسالة محمد (صلعم) فان العلماء ــ وهم الطبقة الثانية ــ يقومون بدور هؤلاء الأنبياء فهم « ورثة الأنبياء » وهم « أحباب الله وصفوته من خلقه ومشرق نور حكمته » و « أمناء الله فى العالم وخلاصة بنى آدم » بل « خلاصة خاصة الله من خلقه » (٧٨) ٠

والملوك والأمراء هم خلائف للعلماء ، أى أن درجتهم فى الخلافة درجة أقل من درجة العلماء ، اذ الواجب على الملك أن لا يقطع فى باب العدل « الا بالكتاب والسنة ، لأنه يتصرف فى ملك الله وعباد الله بشريعة نبيه ورسوله » (٧٩) ، وهو يعطى هؤلاء الملوك حتى تطبيق الناموس « اذ لولا قهرهم وسلطتهم لتسلط القوى على الضعيف والدنىء على الشريف » ولولاه أيضا « لم يقدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على سفره » (٨٠) ٠ على أن العـدل والانصاف عنده يتسع ليكون أساسا لكل مملكة سواء كانت اسلامية أم غير اسلامية ، لكن المفهوم أن الدولة الاسلامية لا تكون عادلة الا اذا طبقت الاسلام ٠ وهو يرى العدل أساس استقرار الممالك ، وأن فيه مصلحة للحاكم نفسه ، فهو اذا عدل « نصره الحق وصفت له النعمى وأقبلت عليه الدنيا فتهنأ بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن الحروب وصارت طاعته فرضا وظلت رعيته جندا » (٨١) ٠

ويلى الملوك فى الخلافة أوساط الناس ، الذين يتحكمون فيمن هم أدنى منهم ، وهؤلاء مسئولون على أن « يراعوا العدل فى معاملتهم . وأروش (٨٢) جناياتهم بالانصاف فهم يكافأون الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها » (٨٣) ٠ وفى الطبقة الأخيرة يقبع « القائمون بسياسة نفوسهم » هؤلاء الذين لا يترأسون على أحد ، ولا يتحكمون فى أتباع ، وهم مطالبون بالعدل مع أنفسهم ، برعاية جوارحهم وضبط غرائزهم ، لأن كل فرد من أفراد الانسان مسئول عن رعاية رعيته التى هى جوارحه وقواه (٨٤) ٠

ولا نستطيع أن نقول ان الجبرتى قد نظر الى التاريخ من خلال الاطارات الضيقة والمحدودة لهذه الرؤية ، ــ وهى خليط من الأفكار السنية التى تعلى شأن النص وتتعصب له ، ومن التصوف المعتدل المقبول لدى أهل السنة ــ بيد أن الاطار الواسع لهذا هو الذى يفسر كل الظواهر التاريخية عنـــده ٠ ولا جدال فى أن الجبرتى عندما أعاد النظر فيما عاصره من مراحل وصاغ تاريخه ما لبث أن ظن أنه يعيش مرحلة تدهور ، ولعله قد فزع من الانقلاب الحاد الذى نتج من تعدد الثورات على عهد الحملة الفرنسية وما تلاها ، وما أحدثه محمد على من تغيير حاد فى نمط الحياة المصرية وفى نظـــام المجتمع المصرى الاقتصادى

والاجتماعى ، واختفاء جماعات سياسية قديمة وظهور غيرها . ولأنه سنى محافظ ، فقد هاله هذا ولم يدرك ـ وهو المثقل برؤى عصره ـ أنه أمام انبعاثة قومية جديدة فى كل شىء ، ومن هنا فسر هذا التدهور والانحلال طبقا لنظريته تلك بتدهور العدل وبالعدول عن سنن الله ، وهو ما تمثل فى رأيه فى انهيار أهم الخلفاء عند الله ـ بعد انتهاء النبوات ـ وهم العلماء .

وربما لهذا شغف الجبرتى شغفا شديدا بابراز انحراف العلماء عن الناموس ، واذا صرفنا النظر عن الاحتمال الوارد بتأثره فى ذلك بمنافسات وأحقاد شخصية ، فان هذا الحرص هو جزء من تفسيره للظاهرة المرتبطة باختلال النظام فى عصره كتعبير عن اختلال العدل لعدم قيام خلائف الله بدورهم ، وهو يرصد حتى فى قمة حديثه عن العلماء كخلفاء أنه « ظهر فى هذا الزمان اختلال فى حال البعض من العلماء ـ من حب الجاه والمال والرياسة والمنصب والحسد والحقد » (٨٥) .

ومظاهر هذا الشغف متعددة ، فالى اهتمامه بذكر تحول العلماء الى مستثمرين وماليين وتجار ، وهو ما استشهدنا به عند حديثنا عن وضعه الاجتماعى ضمن ظاهرة التحالف بين العلماء والمماليك ، فقد اهتم أيضا بذكر مثالبهم الخلقية ـ فى ضوء المقياس الخلقى لعصره ـ فالشيخ السادات قد « أفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجوارى والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس واستخراج الأدهان والعطريات المفرحة والمنعشة للقوة (٨٦) وتعاظم فى نفسه وتعالى على أبناء جنسه » (٨٧) ، والشيخ الشرقاوى استولى على تركات الهاربين الذين ماتوا فى منفاهم أثناء الحملة الفرنسية « واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها » (٨٨) ، والشيخ السنديونى كان يرتكب أمورا « يستحى من ذكرها فى حق مثله » (٨٩) ، أما الشيخ الجوسقى فكان ذا صرامة وجبروت (٩٠) ، أما الشيخ حسين بن سالم الهوارى ـ شيخ رواق الصعايدة ـ فقد كان فيه « صلابة زائدة وقوة جنان وشدة تجارى » لدرجة أنه تعدى على مكتب لتحفيظ القرآن فهدمه وأدخل أرضه فى داره « من غير تحاشى أو خشية لوم مخلوق أو خوف خالق » وكان يسخر المارة فى بناء هذه الدار ويأخذ من مياسير الناس والسوقة دراهم « على سبيل القرض الذى لا يرد » (٩١) . ومن الواضح أن السلوك الاجتماعى للعلماء كان فى رأى الجبرتى مرفوضا بشدة لأنهم كانوا يرتكبون « الأمور المخلة بالمروءة والمسقطة للعدالة » ويضرب مثلا لذلك اجتماع العلماء « فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطربة واعطاء الجوائز والنقود بمناداة الخلبوص وقوله و « علاماه » فى السامر ، وهو يقول فى سامر الجمع بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى وهو يخاطب رئيسة المغانى :

« ـ يا ستى ، حضرة شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان منه كذا وكذا من النصفيات الذهب » .

« قدر مسماه كثير وجرمه قليل ، نتيجته التفاخر الكاذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم فى فعل المحرمات الواجب عليهم النهى عنها ، كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعض فى كل مجمع ، ومواظبتهم على الهزليات والمضحكات وألفاظ الكناية معبر عنها عند أولاد البلد بالأنقاط ، والتنافس فى الأحداث (٩٢) الى غير ذلك » (٩٣) .

وهذا السلوك الاجتماعى الردىء ـ فيما يرى الجبرتى المتزمت فيما يبدو ـ يقابله صفات نفسية متدينة لدى العلماء الذين « انقلب الوضع فيهم لضده » وسيطرت عليهم صفات « التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة فى طباعهم الخبيثة » فضلا عن « التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية » (٩٤) ، ومن الطبيعى لذلك ألا يجمعوا على عمل مشترك فيه مصلحة الشريعة ففيهم وأغراض نفسانية وفشل مستمر » (٩٥) .

وربما يرى الذوق العصرى أن الجبرتى مبالغ فى تزمته ، وأن علماء الأزهر كانوا عمليين وواقعيين تجاه عصرهم لكن تزمت الجبرتى ليس صفة أخلاقية يحكم بمقتضاها على حفنة من الأشخاص ، ولكنه كان يحكم بها على المسار التاريخى ، فالتاريخ عنده تحقيق لحتمية فرضتها الارادة العليا بالكتاب والميزان وأنابت عنها خلائف ليطبعوا الكتاب ويعملوا بالميزان ، وأهم هؤلاء الخلائف أو طبقتهم العليا هم العلماء ، ولهذا انهار التاريخ بانهيارهم وذهبت مصر عندما ضاعوا ، فمن المعتمد لديه « أن صلاح الأمة بالعلماء والملوك وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء وفساد اللازم بفساد الملزوم فما بالك بفقده » ان فساد العلماء اختلال لنظام العالم ، اذ معنى هذا أن الخلفاء لم يصبحوا أمناء على الرسالة و « اذا لم يكن فى الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الهندى فسد نظام العالم وتنافرت القلوب » (٩٦) . وتطبيقا لهذه الرؤية فان الجبرتى قد اعتبر أن وفاة القطب الصوفى الامام محمد بن سالم الحفاوى الشافعى الخلوتى الذى توفى عام ١١٨١ هـ ، هو بداية «نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية وظهر مصداق قول الراغب أن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء وهذا من المشاهد والمحسوس » ، ولما كانت الرحى لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية ، ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها الا باطلاعه وباذنه » فان رفض أمراء المماليك تنفيذ أوامره قد أدى الى أن « نزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض » (٩٧) .

ومظاهر البلاء بعد تلك الخسارة بوفاة القطب الصوفى واختلال الطبقة الممتازة من الخلائف يرصدها الجبرتى ويسجلها ، فهو يعتبر حركة على بك الكبير ـ جزءا من البلاء الذى حل بمصر (٩٨) ، كما يعتبر انحراف المماليك عن العدل ـ أى عن تطبيق الشريعة ـ الأمر الذى حدث بعد وفاة محمد أبى الذهب الذى أكثر من المماليك « وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم عن قبول العدالة ومالوا الى طريق الجهالة واشتروا المماليك فمشوا على طرائقهم وزادوا عن سوابقهم وألفوا المظالم وظنوها مغانم وتمادوا على الجور وتلاحقوا فى البغى على الفور الى أن حصل ما حصل ونزل بهم من الناس ما نزل » (٩٩) ٠ وتتسع الجبرية عنده لتسع الخراب وتجعله عقابا مقدرا سلفا على الذين خرقوا الناموس ، وهو يبدأ الجزء الثالث من عجائب الآثار ـ الذى يروى تاريخ الحملة الفرنسية وما تلاها ـ فيتحدث عن سنة ١٢١٣ هـ ـ عام الحملة ـ ويراه « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال ، وفساد التدابير ، وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١٠٠) ، فما حدث هو عقاب من الله ، ولا يبدو الجبرتى هنا متنبها لأن العقاب شمل الظالمين والمظلومين ٠ ولعله يعتبر الكل ظالمين ٠

وتتوشح الجبرية عند الجبرتى بنظرة أخلاقية واضحة ، فانحراف الناس عن العدل وعدم ضبطهم لجوارحهم وانغماسهم فى الاثم الخلقى ـ بالمفهوم الدينى ـ وهدمهم للتقاليد الثابتة هو سبب من أسباب انهيار الدولة ، ثم انهم يجازون على ذلك بتسليط آخرين يمارسون الشر ضدهم ، وهذا وذاك ارادة لله ٠ فعندما استذل أهل الذمة المسلمين فى عهد الحملة الفرنسية كان ذلك « بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد والحال والمركوز فى الطبع مازال » (١٠١) ، وينسحب هذا العقاب المقدر على السيد عمر مكرم الذى يرى الجبرتى أن نفى محمد على له كان « بعض ما يستحقه ومن أعان ظالما سلط عليه ولا يظلم ربك أحدا » (١٠٢) وتدور الدائرة على الشيخ الدواخلى فينفيه محمد على الى دسوق ، ويطبق الجبرتى نفس القاعدة عليه ، فيرى أن ما حدث له « انما هو قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه وأخرجوه من مصر والجزاء من جنس العمل » (١٠٣) ، ذلك أيضا يفسر ما جرى للشريف غالب الذى كان سيف نقمة على الوهابيين فى الحجاز ، ثم أوقع به محمد على « فليعتبر من يعتبر وكل الذى وقع له وما سيقع له بعد من التغريب وغيره فمما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة والطمع فى الدنيا وتحصيلها بأى طريق » (١٠٤) ٠ بل انه يرى فى كل ظاهرة من ظواهر الظلم نفس الرؤية ، حتى الجرائم البشعة التى ارتكبها الجنود فى حق الشعب كلها « تقادير الهية وقضايا سماوية ونقمة حلت بالاقليم وأهله من كل ناحية » (١٠٥) ٠

ولأن التاريخ عند الجبرتى هو تحقيق لارادة عليـــا لا يملك الانسان الفكاك منها ، وكل ما حدث له من مظالم هو انتقام سماوى لخروجه عن الناموس ، فقد كان طبيعيا أن ينظر الى التكوين الاجتماعى باعتباره خاضعا لتركيب طبقى حديدى ، يخضع فيه الصغير للكبير والدنىء للشريف والأدنى للأعلى • فى هذا الصدد يبدو الجبرتى أكثر تزمتا من أى شيء آخر ، فكل شيء لا يدانى عنـــده الاخلال بالتصميم الاجتماعى المستقر ، فعلى المماليك أن يتبعوا تقاليدهم تجاه أمرائهم ، فاذا ما خرجوا عنها أثاروا غضبه •• وهو يرى أن من الأحداث التى تستحق الرواية أن المماليك قد تزوجوا « وصار لهم بيوت وخـــدم ويركبون ويغدون ويرحون ويشربون الدخان وهم راكبون فى الشارع الأعظم وفى أيديهم شبكات الدخان من غير انكار وهم فى الرق ولا يخطر ببالهم خروجهم عن الأدب لعدم انكار أسيادهم وترخيصهم لهم فى الأمور » (١٠٦) •

ويعتبر الجبرتى أن انطلاق انسان من أصل متدن الى طبقة أعلى مما يستحق التسجيل والتعليق والهجوم أحيانا ، فهو يتحدث عن عبد العال الذى عين « أغات مستحفظان ومحتسبا وكان ذلك من جملة النوادر والعبر ، فان عبد العال هذا كان من أسافل العامه » (١٠٧) • وهو يذكر تهديد هذا السفل لبعض الوجاقلية فيقول « فسبحان الفعال لما يريد فان عبد العال هذا الذى يتهددهم ربما كان لا يقدر على الوصول الى الوقوف بين يدى بعض أتباعهم فضـــلا عنهم » (١٠٨) • وهو أحيانا يسجل الأصل الوضيع دون أن يعلق عليه ولكنه يلفت نظره ، وذلك ما فعله عندما أرخ للشيخين عبد الله الشرقاوى وســـليمان الفيومى •

وانطلاقا من هذا المفهوم فاننا نلمح فى تأريخ الجبرتى للثورات الشعبية رفضا لها ، قد يفسر لدى البعض بأنه كان ضد العنف ، ولكن العصر كان دمويا قاسى القلب ، وما كان يرتكبه الأمراء من مظالم وجرائم كان يبرر بلاشك أى عنف مضاد قد تمارسه الجماهير ، ولكن المسألة فيما نظر اليها الجبرتى كانت مسألة انقلاب الوضع الطبقى الحديدى ، خاصة أن أول ثورة شـــعبية عنيفة شاهدها الجبرتى وهى ثورة القاهرة الأولى قد تضمنت نهبا عرض ممتلكات الأثرياء للخطر ، وكان حس الملكية لديه شديد اليقظة •

الثورة عند الجبرتى هى بتركيز « مغالبة للجهلاء على العقـــلاء وتطاول للسفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولفظ الحرافيش وغير ذلك » (١٠٩) ، وهى ككل الحوادث الجسيمة فى تاريخه تعبير عن غضب الارادة العليا على الذين خرجوا عن الناموس ، ولذلك اعتبر تخريب مساكن المماليك فى ثورة القاهرة الثانية قدرا وانتقاما الهيا مما ارتكبوه فصارت مساكنهم « كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات ويتذكر بها ما يتلى فى حق الظالمين من الآيات ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعقـــلون ، وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون » (١١٠) ، لكنه لا يعتبر مع ذلك أن

العامة من الثائرين المخربين ، أداة انتقام ربانية ، أو عدل بالعنف ، بل ينظر اليهم كمرتكبين لاثم جديد « ان الله سلط ظالما على ظالم » وشريرا على شرير ، والأساس عنده هو أن خللا قد حدث وأوجب هذا كله ٠

كانت نظرته للفلاحين في عصره أشبه بنظرة الأمير المملوكي أو الملتزم ، وهي في مجملها لا تختلف عن نظرة الشيخ يوسف الشربيني صاحب هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف ، لذلك تأسى لأنهم رفضوا – في عهد محمد علي – العمل لحساب الملتزمين السابقين ، عندما سمح لهؤلاء الملتزمين في عام ١٢٢٩ هـ بحصاد زراعاتهم ، وقال ان كل ملتزم كان « لا يجد من يطيعه منهم ، وتطاولوا – الفلاحون – عليهم بالألسنة فيقول الحرفوش منهم اذا دعي للشغل : روح أنظر غيري أنا مشغول في شغلي ٠٠ أنتم ايش بقى لكم في البلاد فقد انقضت أيامكم ٠٠ احنا صرنا فلاحين الباشا » ٠ ويعلق على ذلك بأنهم « قد كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشترى » فلا يكون هذا التوصيف داعية لسروره لأنهم تحرروا من رق الالتزام وتخلصوا من بعض مظاهر القنانة ، ولكن مدخلا للسخرية من الفلاحين وتصويرهم في صورة العناصر ذات النفسية المستذلة التي لا تحب الا من يضطهدها ثم يقول « وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين لسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم ، كما قال فيهم البدر الحجازي :

وسبعة بالفلح قد أنزلت	لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم ، أستاذهم ، والمشد	والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى كاشف الناحية	وزد عليها كدهم في اشتغال
وفقرهم ما بين أعينهم	مع اسوداد الوجه هذا النكال (١١١)

وهي رؤية تنسجم مع الموقف العام للجبرتي الذي يرى القهر الطبقي عقابا الهيا ، أنزله الله بالفلاحين وغيرهم عقابا لهم ، وهو مالم يمنعه من النظر الى فعلهم كعقوبة من الله أيضا للملتزمين !

ولا يختلف الأمر بالنسبة لعامة المدن الذين لا يصفهم الجبرتي الا بأنهم « جعيدية » و « أوباش » و « زعر » و « حرافيش » ، وبالتالي فان ثوراتهم لم تكن تروقه ، وقد حكم على ثورة القاهرة الثانية أيام الفرنسيين قياسا على نتائجها من حيث وفرة الضحايا « وما استفاد الناس من هذه العمارة وما جرى من الغارة الا الخراب والسخام والهباب ، فكانت مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاث أيام الهدنة سبعة وثلاثين يوما وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك الأحرار » (١١٢) ٠ وقد أثاره بشدة الاعتداء على المشايخ خلال الثورة عندما حاولوا ايقاف القتال والتهادن مع الفرنسيين فهاجمهم العامة ورفضوا الصلح ، وهو ما اعتبره «فضولا» أو تزايدا من السفلة والغوغاء (١١٣)

وناقش مسعى المشايخ لوقف القتال فقال انهم لم يامروا بذلك « ولم يذكروا صلحا ولا غيره ، انما بلغوا صورة المجلس الذى طلبوا لأجله لحضرة الكتخدا فمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام وسبوهم وشتموهم » (١١٤) ، وأشار الى الدور الذى لعبه مولاى محمد وهو رجل مغربى كان يزعم المهدوية ، ولعب دورا هاما فى مقاومة الفرنسيين فى البحيرة ، ثم ظهر مرة أخرى فى ثورة القاهرة الثانية ، وكان من أعلى الأصوات الرافضة لتهادن المشايخ ، وقد علق الجبرتى على رفضه للصلح فقال ان هذا « منه افتيات وفضول ودخول فيما لا يعنى حيث كان فى البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية ، فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحا أو يبرمه ، وأى شيء هو حتى ينادى أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك ، لكنها لفتن يستنسر فيها البغاث سيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغاء ، اذا كان ذلك مما يوافق أغراضهم » (١١٥) .

الثورة عند الجبرتى « فتنة » تطلق عنان هذه العناصر من الرعاع ، فيصبحون خطرا على من يملكون ، فالواحد منهم « ليس ممن له فى مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك » (١١٦) لذلك روى الجبرتى أخبار ثورة القاهرة الأولى بشكل يوحى برفضه لها ، وهو يرى أن شرارتها قد نجمت من الرعاع ، اذ « انتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور » (١١٧) وقد أزعجه بشدة ما ارتكبه العامة من عدوان على الممتلكات ، فقد خرجوا « عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات والموجودات وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب (١١٨) ، وهو ينظر الى اقتحام الفرنسيين للأزهر وانتهاكهم لحرمته فيعتبره نتيجة للثورة — وليس خطأ فاحشا من المستعمرين — اذ قال « وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ويرغب الناس فى سكناها ويودعون عند أهلها فى الباطن والظاهر فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع وانخفض على القياس على القياس المرفوع » (١١٩) لم يكن غريبا أن يكون من أعمال الديوان الذى كان الجبرتى من أعضائه — على عهد قيادة الجنرال مينو للحملة الفرنسية — أن يحذره بشدة من الثورة ، وأن يصوغ تحذيره فى أن الثورة يقوم بها الدهماء فلا يخسرون شيئا ، وانما يخسر الذين يملكون المال أو النفوذ ، فقد ذكر أن أعضاء الديوان المذكور دعوا مشايخ الحارات والأخطاط وحذروهم مما يترتب على « قيام المفسدين الجاهلين ، وأنهم — مشايخ الحارات — هم المأخوذون بذلك كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم فالعاقل يشتغل بما يعينه » (١٢٠) .

والعزوف عن الثورة أو الدعوة اليها يلازمه حتى بعد ذلك التاريخ بسنوات ، فعندما عفا محمد على عن عمر مكرم وعاد من منفاه ، امتلأت داره

بالناس الذين جاءوا يهنئونه ، واستشعر الرجل الحرج ، ولعله خاف من مغبة النفى مرة أخرى ، فاعتكف بحجرته الخاصة فلا يجتمع به الا بعض من يريد من الأفراد ، فاعتبر الجبرتى هذا العكوف « من حسن الرأى » (١٢١) ، لكن الشيخ سليمان الجوسقى ـ شيخ العميان ـ الذى قاد ثورة القـــاهرة الأولى وأعدم بفشلها لم يكن حسن الرأى ، لذلك فالجبرتى يرى أن ما حمله على الدعوة للثورة هو « التفاخر » فتولى « كبر اثارة الفتنة التى أصابته وغيره » (١٢٢) •

ولا يبدو الجبرتى فى تأريخه لثورة ١٨٠٥ معارضا لها كما كان معارضا لغيرها ، بل اننا نستشعر روحا من التعاطف فى روايته لأحداثها ، فقد خلت عباراته من أوصاف « الجعيدية » و « الأشرار » و « أوباش الناس » فى وصف الجماهير ، وفى كل المناقشات التى دارت بين قادة الثورة والوالى العثمانى ، والتى كان الثوار فيها يستندون الى أن من حقهم بمقتضى الشريعة أن يعزلوا ولى الأمر اذا سار فيهم بالظلم ، بدا الجبرتى موافقا على هذا الرأى ووصف رفض الوالى له بأنه « خلاف وعناد » (١٢٣) ، لكنه يبدو فى أحيان أخرى رافضا للكل ، فهى « قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة » (١٢٤) •

ولا يستبعد الأستاذ خليل شيبوب أن يكون الجبرتى واحدا من المشايخ الذين وقعوا العرائض التى كتبها العلماء الى السلطان يطالبون فيها بتثبيت ولاية محمد على على مصر بعد هذه الثورة (١٢٥) • وعلى أنه من المؤكد أن الجبرتى قد غير هذا الرأى فيما بعد ، بمعارضته الصريحة لحكم محمد على وتقييمه لموقف عمر مكرم بأنه أعان ظالما فسلطه الله عليه • واذا كان من الصعب التيقن من موقف الجبرتى السياسى من هذه الثورة فى أثنائها ، فان تفسير عدم هجومه الحاد عليها ـ كشأنه مع غيرها من انتفاضات العوام ـ يكمن فى طبيعتها ، اذ كانت ثورة منضبطة ـ اذا صح التعبير ـ تحكم المشايخ فى مسارها وكبحوا جماح التطرف فيها ، وبهذا لم تنطلق غرائز الجماهير المشوقة الى العدل الاجتماعى لتحققه بالنهب والسلب ممن يملكون ، وهو نوع من العدل كان الجبرتى يخشاه ويرفضه • ذلك أن مفهوم العدل عنده كان يتضمن أن يلتزم كل انسان وضعه الاجتماعى فلا يصعد الى سواه ، ولا يهبط الى ما هو أدنى منه •

ولأن التركيب الطبقى الحديدى ينبغى أن يحترم ، فان الجبرتى لم يغفر أبدا « لأهل الذمة » محاولتهم الخروج على هذه القاعدة ، وخرقهم للناموس وتطاولهم على المسلمين • ولا شك أن الجبرتى كان ابن عصره فى ذلك الوقت ، وأنه لم يكن قوميا ولا علمانيا ، ولا من الذين يؤمنون بالمساواة بمفهومها الذى أرسته بعد ذلك الثورات القومية فى أوربا ومصر • ومن هنا حرص دائما على التنديد بأهل الذمة لأنهم لم يبقوا فى مكانتهم ، وهى عنده دائما أقل من مكانة المسلمين • وهو يعترض على الاخلال بهذه القاعدة سواء كان خرقها يسيرا أو جسيما •

ورغم أن كثيرا من القيود التى وضعت على الأقباط - وغيرهم من المسيحيين - كانت دنيوية محضة لا علاقة لها بالدين ، مثل اجبارهم على لبس العمائم السوداء والزرقاء ، وتمييز المسلمين بلبس العمامة البيضاء والسير فى الطرقات على الجانب الأيمن (١٢٦) ، وبعضها يشكل قيودا على حرية الانسان - مهما كان دينه - مثل تحريم التجاهر بالافطار فى رمضان ، وتحريم المرور أمام المساجد وهم يركبون دابة ·· الخ برغم هذا فان الجبرتى كان يقظا لكل خرق لهذه القيود الدنيوية يرتكبه أهل الذمة ، بينما نفهم منه فى ايماءات أخرى أن بعض المسلمين - وخاصة الجنود العثمانيين - لم يكونوا يلتزمون بأى قيود دينية ، وأنهم كانوا يجهرون بالافطار فى رمضان ، فضلا عن تحللهم الجنسى ومظالمهم الأخرى ، لدرجة أن أحد الجنود زنا بامرأة فى أحد المساجد فى ظهر يوم من رمضان · وصحيح أن الجبرتى كان يغضب لهذه التجاوزات كلها ، لكننا نشعر أن غضبه فى حالة خروج المسيحيين عن قيودهم الاجتماعية أشد · وهو ما يدفعنا للاستنتاج بأن الأمر قد استقر فى وجدان الجبرتى على أساس وضع أقل يشغله أهل الذمة ، وهو ما كان يستثيره ويدفعه لرصد كل تجاوزاتهم بغيظ شديد · وقد ذكر من بين مصائب العام الأول للحملة الفرنسية « ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين (١٢٧) · وفى عهد محمد على أشار الى الأقباط فقال بلهجة عدم الرضا أن « الباشا كان يراعى جانبهم لأنهم صاروا أخصاء الدولة وجلساء الحضرة وندماء الصحبة (١٢٨) ولعلها واحدة من المرات القليلة التى أبدى فيها الجبرتى ارتياحه لشىء من تصرفات محمد على ، عندما أعلن منع الأقباط من الخروج عن الحد فى كل شىء · فقد علق الجبرتى على هذا الاعلان بقوله « فما أحسن هذا النهى لو دام » (١٢٩) ·

ان الحدود بين الطبقات والفئات هى جزء من بنيان العالم عند الجبرتى يختل باختلالها ، ومن هذه الحدود أن تظل المرأة فى مكانة أقل من الرجل ، لا ينبغى لها أن تتجاوزها والا اختل ميزان العدل ·· وعندما ترجم للحاج أحمد بن محمد الشرايبى المتوفى فى عام ١٧٥٧ م وهو من « أعيان التجار المشتهرين كأسلافه » أبدى تقديره لتقاليد الأسرة ومن بينها أنه « لا تخرج من بيتهم امرأة الا للمقبرة » واذا كانت صياغة أى حقيقة تتضمن دلالة اجتماعية فسوف نجد الجبرتى يروى خبر زواج احدى الأرامل بقوله « عقد ابراهيم بك الكبير عقد ابنته عديلة هانم التى كانت تحت ابراهيم بيك الصغير المعروف بالوالى » والدلالة الاجتماعية لتعبير الجبرتى لا تكمن فى انبعاثه من رؤية جنسية بقدر ما تكمن فى رأيه فى المرأة ككل كجنس محكوم وتابع « وتحت » الرجل ·

ونحن نلاحظ أن الجبرتى قد اشمئز بشدة من مظاهر تحرر المرأة التى جاءت بها الحملة الفرنسية ، فقد استفزه خروج نساء الفرنسيين فى الشوارع

« وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهم الطرح الكشميرى » ، وقد غضب من النـوادى التى أنشأوها وسماها دور الخلاعة ، وذكر « أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليه قدرا مخصوصا » (١٣٠) ، وتحدث عن احتفالهم برأس السنة فقال « وتجمعوا بدار الخلاعة نساء ورجالا وتراقصوا وتسابقوا وأوقدوا سروجا وشموعا وغير ذلك » (١٣١) ٠

ولا نستطيع أن ننكر أن الفرنسيين قد بالغوا فيما يتعلق باسـتفزاز المفاهيم الخلقية الثابتة للمصريين ، لكن درجة الاستفزاز كما يعكسها «الجبرتى» تبدو أشد مما حدث فى الواقع ، وذلك فى ضوء الحقائق التى يقدمها لنـا الجبرتى نفسه فى تاريخه ، اذ لم يكن المجتمع المصرى متزمتا أخلاقيا الا فى الظاهر ، فقد كانت نساء الطبقات اللاتى تخرجن للأسواق ، والجنود فى كل وقت « يلاقشون النساء فى مجامع الأسواق من غير احتشام ولا حياء » ، وكان البغاء معروفا ، بل اننا نفهم من ترجمة المرأة الوحيدة التى اهتم بها الجبرتى وهى نفيسة المرادية ــ زوجة الأمير المملوكى مراد بك أنها كانت تقابل مشايخ الديوان لكى يتوسطوا بينها وبين الفرنسيين فى بعض الأمور الخاصة بها ٠ كذلك فان القاهرة لم تكن خالية قبل الفرنسيين من الأماكن الترفيهية التى تضم الرجال والنساء ٠

ولعل ما استفز الجبرتى بشدة كان خروج نساء الطبقات الوسطى عن التقاليد ، وتزوجهن ببعض الفرنسيين الذين كانوا ينطقون الشهادتين بشكل آلى ليتزوجوا ٠ والدليل على أن الجبرتى لم يكن ينظر الى المسألة بهذا المنظور الأخلاقى ، أنه لم يستفز ولم يغضب للشذوذ الجنسى الذى كان منتشرا فى فى مصر أيامها ، ولعل « هيرولد » كان على حق عندما قال « وقد لاحظ الجبرتى وغيره من الاخباريين العرب عموما غرام الفرنسيين بالنساء ، ولعلهم ما كانوا يلحظونه لو كان الفرنسيون يؤثرون الغلمان » (١٣٢) ٠ وقد يبدو غريبا أن الجبرتى الذى استبشع مظاهر المرأة المتحررة لم يستبشع بنفس الدرجة انتشار الشذوذ الجنسى فى مصر ٠

وتلك هى قمة الجبرتى كمفكر محافظ ، ينظر للواقع الاجتمـاعى من خارجه ، ويعادى حرية الانسان بكل أشكالها ، فيسلكه فى اطار جبرية لا يمكن أن يعيها ٠٠ انها ضرورة بلا حرية ، لأن الوعى بها يتطلب ألا يكون الانسان فى الأرض ٠٠ لكن فى كواكب أخرى (١٣٣) ٠

هوامش البحث

(١) الطبعة التى استخدمناها من عجائب الآثار صادرة عن دار الفارس فى بيروت ـ مطبعة سبها دون ذكر سنة الطبع وهى فى ثلاثة مجلدات تضم الأجزاء الأربعة • وسنختصر اسمها فى هذه الهوامش الى العجائب ثم رقم المجلد فرقم الصفحة • والطبعة المستخدمة من مظهر التقديس هى طبعة وزارة التربية والتعليم ـ القاهرة ـ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦١ • فى جزءين من تحقيق • أحمد زكى عطية وعبد المنعم عامر ومحمد فهمى عبد اللطيف وراجعه وحقق الجانب التاريخى والاعلام حنفى عامر • وسنختصره الى « مظهر » ثم رقم الجزء فالصفحة •

(٢) أحمد حافظ عوض • فتح مصر الحديث ـ مطبعة مصر القاهرة ـ ١٩٢٥ ص ١٣٧ •

(٣) د• محمد أنيس • مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ـ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ـ دار الجيل للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٥ •

(٤) أ • حافظ عوض ص ٤٣٥ •

(٥) من أصدقائه الذين ترجم لهم الشيخ مصطفى بن جاد (١٢٠٢ هـ) السيد على العلوى (١١٩٩ هـ) ، والشيخ موسى الجناحى (١٢٠٠ هـ) • والسيد اسماعيل الخشاب •

(٦) ومن شيوخه المشايخ محمود الكردى (١١٩٤ هـ) ، محمد مرتضى الزبيدى (١٢٠٥) •

(٧) من تلاميذ والده الذين ترجم لهم ، المشايخ : محمد اسماعيل النفراوى وعبد الرحمن العريشى وعبد الرحمن البشبيشى •

(٨) العجائب ١٦/١ ، ١٨

(٩) العجائب ١٧/٣ ، ٤٣٥

(١٠) العجائب ٢٢٥/١ •

(١١) معظم صفحات مظهر التقديس •

(١٢) العجائب ١/١٦ ٠

(١٣) يذكر أ٠ حافظ عوض ص ٤٥ أنه كتبه عام ١٢٢٦ ويستدل بهذا على خطأ بعض أخباره ، ولكن الوارد فى العجائب هو أنه أعاد الصياغة عامى ١٢٢٠ و ١٢٢١ هـ العجائب ٣/١١٠ ٠

(١٤) ابراهيم جلال بك ٠ من يوميات الجبرتى ـ القاهرة ـ مطابع أخبار اليوم ص ١٣ ٠

(١٥) العجائب ١/٤٤٦ ـ ٤٥٤ ٠

(١٦) العجائب ١/٤٥١ ٠

(١٧) العجائب ١/١٩ ٠

(١٨) خليل شيبوب ٠ عبد الرحمن الجبرتى ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(١٩) المصدر نفسه ص ٣٤ ٠

(٢٠) نفسه ص ٣٥ ٠

(٢١) نفسه ص ٣٦ والعجائب ١/٤٤١

(٢٢) حسن عبد الوهاب ٠ الأزهر عمارة وفنا ـ فصل فى كتاب الأزهر تاريخه وتطوره ـ وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧١ ٠

(٢٣) نفسه ص ١٧٨ ، ١٨٥ ٠

(٢٤) العجائب ١/٥٩٨ ٠

(٢٥) العجائب ١/٤٦٠ ٠

(٢٦) العجائب ١/٤٦١ ٠

(٢٧) العجائب ١/٤٦٠ ٠

(٢٨) العجائب ١/٤٤١ ٠

(٢٩) العجائب ١/٤٥٠ ٠

(٣٠) العجائب ١/٤٥٨ ٠

(٣١) العجائب ١/٤٦٠ ٠

(٣٢) العجائب ٣/١٥٣ ٠

(٣٣) العجائب ٢/٦٤٧ ٠

(٣٤) راجع ترجمته العجائب ٣/٥٣٨ ·

(٣٥) د· عفاف لطفى السيد ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعلماء القاهرة ـ ترجمة د· أمين العيوطى ـ الفكر المعاصر عدد ٥١ ـ القاهرة ١٩٦٩ ·

(٣٦) العجائب ٣/٣٤٥ ·

(٣٧) العجائب ٣/٤١٦ ·

(٣٨) العجائب ٣/٤٢٦ ·

(٣٩) د· محمد أنيس · دراسة فى المجتمع المصرى من الاقطاع الى الاشتراكية ـ محاضرات فى المعهد العالى للدراسات الاشتراكية · القاهرة ·

(٤٠) د· عفاف لطفى السيد ، مرجع سابق ·

(٤١) د· محمد أنيس دراسة فى المجتمع المصرى · راجع أيضا العجائب ١/٦١٩ ·

(٤٢) العجائب ٣/٢١٩ ·

(٤٣) العجائب ٢/١٦٦ ·

(٤٤) د· عفاف لطفى ، مرجع سابق ·

(٤٥) العجائب ٣/٣٧٨ ·

(٤٦) د· عفاف لطفى ، مرجع سابق ·

(٤٧) العجائب ٣/٣٧٨ ، وقد ذكر الجبرتى عن شيخ الأزهر محمد شنن المالكى أنه كان مليئا متمولا أغنى أهل زمانه بين أقرانه ـ العجائب ١/١٢٨ ·

(٤٨) العجائب ٣/٢٦٩ ·

(٤٩) د· عفاف لطفى ، مصدر سابق ·

(٥٠) العجائب ٣/٢١٩ ·

(٥١) العجائب ١/٥٧٥ ·

(٥٢) العجائب ١/٦١٨ ، ٦١٩ ·

(٥٣) العجائب ١/٦١٠ ·

(٥٤) العجائب ١/٦٢٤ ·

(٥٥) العجائب ١/٦٣٣ ·

(٥٦) العجائب ١/٦٤٦ ·

(٥٧) العجائب ١/٦٣٨ ·

(٥٨) العجائب ١/٢٢١ ·

(٥٩) د٠ عبد العزيز محمد الشناوى ٠ دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى ـ بحث فى ندوة تاريخ القاهرة ـ الجزء الثانى من أبحاث الندوة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧١ ، ص ٦٧٦ ٠

(٦٠) د٠ محمد أنيس ، مدرسة التاريخ ص ١٧ ٠

(٦١) العجائب ٣/٢٢٠ ٠

(٦٢) من أمثلة ذلك الرفض الشديد الذى أبداه علماء الأزهر أعضاء الديوان أثناء الحملة الفرنسية للحجر الصحى ، وخاصة فى الديوان الثالث الذى كان عضوا فيه ٠ ويفسر رفاعة الطهطاوى فى كتابه تلخيص الابريز ذلك عندما يروى حوارا دار بين عالمين فى جامع الزيتونة بتونس حول جواز الكورنتينة أو الحجر الصحى فيقول ان المعترض كان يرفضها لأنها من جملة الفرار من القدر (ص ٩٧ طبعة وزارة الثقافة ١٩٥٨) ٠

(٦٣) د٠ محمد أنيس ٠ مدرسة التاريخ ص ١٧ ٠

(٦٤) خليل شيبوب ٠ مرجع سابق ص ٩٩ ٠

(٦٥) مظهر ١/٢٠ ٠

(٦٦) مظهر ١/٢١ ٠

(٦٧) العجائب ١/١٣ ٠

(٦٨) العجائب ١/٦ ٠

(٦٩) المصدر نفسه ٠

(٧٠) العجائب ١/٨ ٠

(٧١) العجائب ١/٦ ٠

(٧٢) العجائب ١/١٤ ٠

(٧٣) العجائب ١/١٣ ٠

(٧٤) العجائب ١/١٤ ٠

(٧٥) المصدر نفسه ٠

(٧٦) المصدر نفسه ٠

(٧٧) العجائب ١/١٥ ٠

(٧٨) العجائب ١/١٦ ٠

(٧٩) العجائب ١/١٨ ٠

(٨٠) المصدر نفسه ٠

(٨١) المصدر نفسه ٠

(٨٢) الأرش يوزن العرش هى دية الجنايات مختار الصحاح ٠

(٨٣) العجائب ١/١٨ ٠
(٨٤) العجائب ١/١٨ ـ ١٩ ٠
(٨٥) العجائب ١/١٥ ٠
(٨٦) واضح من السـياق أنها مقويات جنسية ويبدو أن الجبرتي كان
(٨٧) العجائب ٢/٤٢٨ ٠
(٨٨) العجائب ٣/٣٧٨ ٠
(٨٩) العجائب ٣/٣٦ ٠
(٩٠) العجائب ٢/٢٧٩ ٠
(٩١) العجائب ٣/٢١٩ ٠
(٩٢) لعله يتهمهم فى هذه العبارة بالشذوذ الجنسى ٠
(٩٣) العجائب ٣/٢١٩ ٠
(٩٤) العجائب ٣/٦٠ ٠
(٩٥) العجائب ٣/١ ٠
(٩٦) العجائب ١/٣٥٤ ٠
(٩٧) العجائب ١/٣٥٤ ٠
(٩٨) العجائب ١/٣٥٤ ٠
(٩٩) العجائب ١/٤٨٥ ٠
(١٠٠) العجائب ٢/١٧٩ ٠
(١٠١) العجائب ٢/٢٥٠ ٠
(١٠٢) العجائب ٣/٢٧٥ ٠
(١٠٣) العجائب ٢/٥٠٦ ٠
(١٠٤) العجائب ٣/٤٤٨ ٠
(١٠٥) العجائب ٣/٤٩١ ٠
(١٠٦) العجائب ٢/٢٩ ٠
(١٠٧) العجائب ٢/٤١٨ ٠
(١٠٨) العجائب ٢/٤٣٠ ٠
(١٠٩) العجائب ٢/٣٣٤ ٠
(١١٠) العجائب ٢/٣٤٣ ٠
(١١١) العجائب ٣/٤٥٧ ٠
(١١٢) العجائب ٢/٣٤٤ ٠
(١١٣) العجائب ٢/٣٣٥ ٠
(١١٤) العجائب ٢/٣٣٧ ٠
(١١٥) العجائب ٢/٣٣٦ ٠
(١١٦) المصدر نفسه ٠
(١١٧) العجائب ٢/٢١٨ ٠
(١١٨) العجائب ٢/٢١٩ ٠

(١١٩) العجائب ٢٢١/٢ ٠

(١٢٠) العجائب ٤١٥/٢ ٠

(١٢١) العجائب ١٣ ٠

(١٢٢) العجائب ٢٧٩/٢ ٠

(١٢٣) العجائب ٦٦/٣ ٠

(١٢٤) العجائب ٦٩/٣ ٠

(١٢٥) خليل شيبوب ص ٩٤ ٠

(١٢٦) د٠ عبد العزيز محمد الشناوى ٠ صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى فى أواخر القرن الثامن عشر ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٩٢ ٠

(١٢٧) العجائب ٢٥٠/٢ ٠

(١٢٨) العجائب ٥٦٦/٣ ٠

(١٢٩) العجائب ٣٧٨/٣ ٠

(١٣٠) العجائب ٢٣١/٢ ٠

(١٣١) العجائب ٢٦٢/٢ ٠

(١٣٢) همروالد (ج ٠ كرستوفر) ـ بونابرت فى مصر ٠ ترجمة فؤاد اندراوس ـ دار الكاتب العربى ٠ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص ٢١٧ ٠

(١٣٣) كان مفروضا أن يتناول هـذا البحث تحليل مواقف الجبرتى السياسية من المماليك والعثمانيين والحملة الفرنسية ومحمـد على ، أما وقد اضطرنى تجاوز المساحة المحددة الى اجراء اختصارات فى هذا الجزء منه فقد آثرت الاحتفاظ بالباقى وآمل أن أنشره قريبا ٠

القسم الثاني

مؤلفات الجبرتي

مؤلفات الجبرتي مخطوطة ومطبوعة

للأستاذ محمد رشاد عبد المطلب

نبدأ بأهم كتب الجبرتي وأشهرها وهو كتابه الكبير :

١ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار

جمع فيه مؤلفه حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه من أوائل القرن الثالث عشر ، وذكر بعض الوقائع اجمالية وبعضها الآخر تفصيلية ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء ، ولمع من أخبارهم وأحوالهم وتواريخ مواليدهم ووفياتهم ، ورتبه على السنين الهجرية وانتهى فيه الى آخر سنة ١٢٣٦ هـ ٠

(أ) المخطوطات

(١) البلاد العربية

مصر ـ القاهرة

دار الكتب المصرية ٠ أنظر فهرست الدار ، ج ٥ ص ٢٦٢ ٠

(١) الجزء الثاني من نسخة في مجلد مخطوط بقلم معتاد ، تم كتابته في شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٢ هـ ، ويبتدىء من سنة ١١٩٠ هـ وينتهي الى سنة ١٢١٢ هـ ، وفي أوله : بخط علي فهمي رفاعة بك رافع ما يفيد أنه طالعه رقم ٢٧٣ تاريخ

(٢) الجزء الثالث من نسخة أخرى في مجلد ، مخطوط بقلم معتاد بخط قديم ، ويبتدىء من سنة ١٢١٣ هـ وينتهي الى سنة ١٢٢٠ هـ رقم ١٧٤ تاريخ

(٣) نسخة أخرى في أربعة مجلدات مخطوطة بقلم معتاد بخطوط مختلفة ، الأول والثاني منها بخط الحاج محمد حسين بن أحمد ، فرغ من كتابتهما في سنة ١٢٧٢ هـ ، وبالجزء الرابع خرم ٠ رقم ٤٦٦ تاريخ

(٤) نسخة أخرى فى أربعة أجزاء فى خمسة مجلدات ، مخطوطة بقلم معتاد بخط أحمد ابن موسى الشاهد ، الجزء الأول فى مجلدين ، فرغ من كتابته فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٨٩ هـ ، والثانى والثالث والرابع فى ثلاثة مجلدات ، فرغ من الثانى فى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٩٠ هـ ، ومن الثالث فى يوم الأحد الثامن عشر من شهر شوال من السنة المذكورة ، ومن الرابع فى يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ هـ برقم ١٤٢٤ تاريخ

« قلت : يبدو أن الكاتب لم يكتب أجزاء النسخة حسب ترتيب أجزائها ولكنه كتب بعض الأجزاء قبل الأجزاء الأخرى دون ترتيب » .

(٥) نسخة أخرى ، أربعة أجزاء فى أربعة مجلدات ، مخطوطة بقلم معتاد بخطوط مختلفة ، الأول والثانى بخط محمد أحمد الشافعى ، والثالث بخط أحمد يونس أبى التيسير فرغ من كتابته فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ ، والرابع تمت كتابته فى يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ هـ برقم ١٤٢٥ تاريخ

(٦) الجزآن الثالث والرابع من نسخة أخرى فى مجلدين مخطوطين بقلم معتاد ، يبتدىء الثالث من سنة ١٢١٣ هـ ، وينتهى الرابع الى آخر الكتاب ، تمت كتابته فى أواخر شهر شوال سنة ١٢٩٦ هـ . برقم ١٤٢٦ تاريخ .

(٧) الجزآن الثالث والرابع من نسخة أخرى فى مجلدين مخطوطين بقلم معتاد بخطوط مختلفة ، يبتدىء الثالث من سنة ١٢٢١ هـ ، وينتهى الرابع الى آخر الكتاب ، وهو بخط السيد يوسف ، فرغ من كتابته فى يوم الجمعة التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٢ هـ ، برقم ١٤٢٧ تاريخ

(٨) الجزآن الأول والثانى من نسخة أخرى فى مجلدين مخطوطين بقلم معتاد بخط رضوان بن مصطفى الدمهوجى ، فرغ من كتابة الجزء الثانى فى ليلة الثلاثاء لتسع وعشرين خلت من شهر صفر سنة ١٢٩٠ هـ ، وينتهيان الى سنة ١٢١٢ هـ . برقم ١٤٢٨ تاريخ

(٩) قطعة من نسخة أخرى فى مجلد مخطوطة بقلم معتاد ، ناقصة من أولها وآخرها ، وهى من أول الكتاب برقم ٢١٣٩ تاريخ

(١٠) نسخة أخرى فى أربعة أجزاء ، فى أربعة مجلدات ، مخطوطة بقلم معتاد ، تمت كتابته فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٢٦٢ هـ ، وهى منقولة عن نسخة بخط المؤلف . رقم ٢٢٨٧ تاريخ

(١١) قطعة من الجزء الأول من نسخة أخرى ، تبتدىء بأثناء ترجمة الشيخ على بن تاج الدين محمد بن عبد المحسن بن محمد بن سالم القلعى الحنفى مجلدة مخطوطة بقلم معتاد ، تمت كتابته فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٧٨ هـ .

المكتبة الأزهرية

(١) نسخة فى أربعة مجلدات بقلم معتاد برقم (٢٦٤) أباظة ٦٥٧٠ ·

(٢) نسخة أخرى فى ثلاثة مجلدات بقلم معتاد ، بخط خليل بن ابراهيم العجوز سنة ١٢٨٩ هـ برقم (٥٨٤) ٨٥٣٨

(٣) نسخة أخرى فى سبعة مجلدات بقلم معتاد برقم (١٣٠٦) ٢١٥٩٤

العراق ـ بغداد

مكتبة المتحف العراقى ، بغداد

(١) نسخة فى مجلد مخطوط فى ٤٠٥ صفحة صفحة بخط المؤلف وهى غير كاملة

وعنها صورة فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية

قلت : كتب الأب انستاس الكرملى على النسخة أنها بخط المؤلف وقد اعتمد المفهرس هذا القول وهو أمر يحتاج الى تحقيق ·

أنظر فهرست المخطوطات التاريخية فى المتحف العراقى ببغداد ، فى مجلة سومر المجلد ١٣ سنة ١٩٥٧ ص ٦٣ ·

٢ ـ البلاد الآسيوية

الهنـــد

(١) بانكيبور بولاية بهار مجموعة خدابخش

أنظر الفهرست الجديد ج ١٥ رقم ٨٣/١٠٧٦

(٢) رامبور ·

أنظر الفهرست القديم ج ١ ص ٦٤١ (٨/١٦٥) ·

٣ ـ البلاد الأوربية

الاتحاد السوفيتى

(١) بيترسبورج (لينينجراد الآن) أنظر فهرست روزن ص ٦٠ ·

ولعلها النسخة المذكورة فى فهرست لينينجراد الجديد باللغة الروسية للمخطوطات العربية المتعلقة بالتاريخ ، ص ١٤٠ رقم ٩٦ (٧٣٢) المطبوع فى

روسيا سنة ١٩٦٥ ويذكر بروكلمن الملحق ٢ ص ٧٣٠ أن فى بيتر سبورج (جيرجاس) نسخة رقم ٨٤٠

وقد كتب كراتشكوفسكى مقالة عنها نشرها ،

(كراسات الاكاديمية الروسية سنة ١٩٢٧ ص ١٦٢) •

ألمانيا

(١) برلين انظر فهرست اهلواردت رقم ٩٤٨٧/٩٠ •

(٢) ميونخ رقم ٤٠٠

بريطانيا

(١) المتحف البريطانى بلندن رقم ١٤٩٧/٩ •

(٢) المتحف البريطانى (ملحق) رقم ١٢٨٠/٢ •

(٣) مانشستر رقم ٢٧٨/٢٨٠ •

(٤) مجموعة منجانا المحفوظة الآن فى كليات سيلى أوك فى برمنجهام رقم ٩٠٨/١١ وهى نسخة فى أربعة مجلدات كتبت سنة ١٢٩٦ عن نسخة بخط المؤلف •

فرنسا

(١) نسخة فى المكتبة الأهلية فى باريس برقم ١٨٦١/١٨٦٣ فى ثلاثة مجلدات •

(٢) نسخة فى المكتبة الأهلية فى باريس برقم ١٨٦٤/١٨٦٦ فى ثلاثة مجلدات وهى منسوخة عن نسخة المؤلف •

هولندا — ليدن

(١) نسخة فى مكتبة جامعة ليدن برقم ٩٨٨ بخط المؤلف انظر فهرست مخطوطات جامعة ليدن عمله فورهوف ص ٣ الرقم الحالى ٢٤٣٧ شرقى •

ب — طبعات الكتاب

(١) طبع الجزء الثالث ، فى مجلد ، فى مطبعة جريدة مصر بثغر الاسكندرية سنة ١٢٩٥ هـ الموافقة لسنة ١٨٧٨ م ، ويشتمل على تاريخ الفرنساويين فى مصر ويبتدىء بسنة ١٢١٣ هـ •

(٢) طبعة مطبعة بولاق بالقاهرة ، فى أربعة مجلدات سنة ١٢٩٧ هـ ٠

(٣) طبعة بهامش كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير فى اثنى عشر جزءا بالمطبعة الأزهرية ٠ سنة ١٣٠١/١٣٠٢ هـ بالقاهرة ٠

(٤) طبعة المطبعة الشرفية بالقاهرة فى أربعة أجزاء ، سنة ١٣٢٢/١٣٢٣ هـ ٠

(٥) طبعة لجنة البيان العربى فى سبعة أجزاء بتحقيق حسن محمد جوهر عبد الفتاح السرنجاوى ، عمر الدسوقى والسيد ابراهيم سالم ، القاهرة ١٩٥٨/١٩٦٧م ، وقد ألحق بكل جزء منها فهارس عامة له ٠

ج ـ الترجمات

(١) ترجمة فرنسية قام بها ، شفيق منصور ، عبد العزيز كحيل وجبرائيل نيقولا كحيل واسكندر عامون ، وقد طبعت الترجمة فى القاهرة من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٤ م ٠

(٢) ترجمة روسية سنة ١٩٦٢م ٠ الجزء الأول من المجلد الثالث (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ترجمه من اللغة العربية الى اللغة الروسية الأستاذ الدكتور أ٠م٠ فيلشتنسكى ـ دار النشر للآداب الشرقية ـ موسكو ١٩٦٢ معهد شعوب آسيا ـ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ٠

د ـ فهارس الكتاب

(١) فهرست عجائب الآثار عمله توفيق اسكاروس رئيس المغيرين بالقسم الافرنجى بدار الكتب المصرية ٠ بخطه ويحتوى على فهرست بأسماء العلماء الموجودين فى الكتاب وهو مرتب على الحروف ٠ وهو ملحق بالنسخة المخطوطة فى دار الكتب المصرية برقم ٤٨٥ تاريخ ٠

(٢) فهرست عجائب الآثار عمله أحمد تيمور باشا مخطوط محفوظ فى مجموعته التى آلت الى دار الكتب المصرية ٠

(٣) فهرست عجائب الآثار ، عمله جاستون فييت بالفرنسية ، ونقله الى العربية وراجعه وأشرف على طبعه الدكتور عبد الرحمن زكى وصدر ضمن مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م ٠

(٤) فهرست مفصل لكل جزء من أجزاء طبعة لجان البيان العربى التى صدرت فى سبعة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٨/١٩٦٧ م ٠

٣ ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس

صدره بمقدمة مختصرة فى تاريخ مصر ، يبتدىء من المحرم سنة ١٠١٣ هـ وينتهى الى وقت تأليفه سنة ١٢١٦ هـ ، ثم تكلم على الحملة الفرنسية على مصر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وخروجه منها ، وضم اليه زيادات مما نمقه معاصره وصاحبه العلامة الشيخ حسن بن محمد الشهير بالعطار من منظومه ومنثوره ، وفرغ من تأليفه فى شهر شعبان سنة ١٢١٦ هـ .

(أ) المخطوطات

(١) البلاد العربية

مصر ـ القاهرة

دار الكتب المصرية

(١) نسخة فى مجلد مخطوطة بقلم معتاد بخط أحمد رزق فرغ من كتابتها سنة ١٢٩٣ هـ رقم ٣٣٠ تاريخ

(٢) نسخة أخرى فى مجلد مخطوطة بقلم معتاد ، تمت كتابته سنة ١٢٢٤ هـ .

١٠١ تاريخ

(٢) البلاد الآسيوية

تركيا ـ اصطمبول

(١) نسخة بخط المؤلف فى مكتبة بايزيد برقم ٧٦

(٢) نسخة أخرى فى مكتبة جار الله برقم ٦١٣

الهند بتنا (بولاية بهار)

نسخة فى مكتبة بانكيبور (خدابخش) انظر الفهرست الجديد ج ١٥ رقم ١٠٥٥

(٣) البلاد الأوربية

بريطانيا

(١) نسخة فى كيمبردج ، انظر فهرست بوركهارت ص ١٢ رقم ٦

(٢) نسخة فى المتحف البريطانى بلندن (ملحق) برقم ٥٧١ .

(١) نسخة فى مؤسسة بريل مجموعة هوتسما ، أنظر فهرست المجموعة رقم ١٨٧ ٠

(٢) نسخة أخرى فى مؤسسة بريل مجموعة لندبرج رقم ٦١ بعنوان : « مدة دخول الفرنسيس بمصر »

ب ـ طبعات الكتاب

(١) طبعة فى عددين من سلسلة اخترنا لك ، نشرها محمد عطا ، دار المعارف ، القاهرة ٠

(٢) طبعة فى جزءين بتحقيق أحمد زكى عطية ، عبد المنعم عامر ، محمد فهمى عبد اللطيف ، وحنفى عامر ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦١ م

(٣) طبعة فى مجلد بتحقيق ، حسن جوهر وعمر الدسوقى ، مطبعة لجنة البيان العربى القاهرة ، ١٩٦٩ م ٠

ج ـ الترجمات

(١) ترجمة فرنسية طبعت فى الاسكندرية سنة ١٨٣٥ م قام بها اسكندر كاردان مترجم قنصل فرنسا العام بمدينة الاسكندرية ٠

(٢) طبعة ثانية من الترجمة الأولى فى باريس سنة ١٨٣٨ م ، وقد ألحق بها المترجم قسما من « تملك جمهور الفرنساوية » تأليف نيقولا بن يوسف الترك بعنوان

Journal d'Aburrahman Gabarti pendant l'occupation française en Egypte suivi d'un précis de la même compagne par Moallem Nicolas Turki, Secrétaire du Prince du Druze. Traduit de l'arabe par Alexandre Cardin, drogman (sic) Chancelier du Consulat Général de France à Alexandrie, Alexandrie 1835, 1 vol., Paris, 1838.

(٣) ترجمة تركية قام بها مصطفى بهجت أفندى واطلع عليها السلطان سليم الثالث ، وظلت مخطوطة حيث طبعت فى اصطمبول سنة ١٣١٧ هـ ٠

(٣) **مختصر تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب** ، المعروف بتذكرة داود فى الطب ، تأليف داود بن عمر الأنطاكى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٨ هـ

المخطوطات

مصر ـ القاهرة

دار الكتب المصرية ، انظر فهرست الدار القديم ج ٦ ص ٣٩ ٠

(١) نسخة مخطوطة فى مجلد بقلم معتاد بخط هلال بن محمد بن هلال ، تمت كتابته فى الحادى عشر من جمادى الثانية سنة ١٢٣٦ هـ برقم ١٣٦ طب ٠

المكتبة الأزهرية ، انظر فهرست المكتبة ج ٦ ص ١٣٠ ٠

(٢) نسخة فى مجلد بقلم معتاد بخط عبد الرحمن بن ناصر تمت كتابته سنة ١٢٥٩ هـ رقم (١٢٩) حسونة ١٣٠٣١

---

(٤) دستور تقويم الكواكب السبعة والجواهر والأهلة والتواريخ الثلاثة

ومواسمها وتواقيعها فى سنة ١٢٠٩ هـ ، حساب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى

المخطوطات

مصر ـ القاهرة

دار الكتب المصرية ٠ انظر فهرست الدار القديم ج ٥ ص ٢٤٦ ٠

نسخة فى مجلد بقلم معتاد برقم ٨٦ ميقات ٠

عبد الرحمن الجبرتي
وأحمد شلبي بن عبد الغني

"دراسة مقارنة"

للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
كلية البنات - جامعة الأزهر

تمهيد

تتناول هذه الدراسة المقارنة ، مصدرين من مصادر تاريخ مصر ، فى العصر العثمانى هما :

(١) « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، تأليف : عبد الرحمن ابن حسن الجبرتى .

(٢) « أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » * تأليف : أحمد شلبى بن عبدالغنى .

وهذان المصدران يمثلان حلقتين متصلتين ومتعاقبتين فى سلسلة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ** .

* حصلت على صورة لهذه المخطوطة ، من نسختها الوحيدة المحفوظة بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية ، وأقوم حاليا باعدادها للنشر .

** يعتقد بعض الباحثين أن مصادر تاريخ مصر فى العصر العثمانى جد نادرة ؛ والحقيقة غير ذلك ويكفى أن نذكر أسماء بعض مؤرخى هذا العصر ومؤلفاتهم لنقف على تلك الحقيقة :

١ ـ ابراهيم الصوالحى العوفى .

ـ الصواعق فى واقعة الصناجق (١٠٧١ ـ ١١٦٣ هـ ، ١٦٦٠ ـ ١٧٠١ م) دار الكتب رقم ١٢١٨٣ هـ .

٢ ـ أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان .

ـ الدرة المنصانة فى أخبار الكنانة . (تتناول الفترة ١٠٩٩ ـ ١١٦٩هـ، ١٦٨٨ ـ ١٧٥٦م)

٣ ـ أحمد بن زنبل الرمال .

ـ وقعة السلطان سليم بن عثمان فى فتوح مصر مع السلطان الغورى وطومانباى . وقد حققه ، عبد المنعم عامر ، ونشر ضمن سلسلة كتب ثقافية العدد (١٥٣) . تحت اسم « أخرة المماليك » ، القاهرة ١٩٦٢ م .

٤ ـ عبد الله الشبراوى .

ـ رسالة شرح الصدر فى غزوة بدر : يوجد بآخرها نبذة فى تاريخ ولاة مصر الى نهاية حكم على باشا الحكيم ١١٢٩ هـ ـ ١٧١٧ م . =

فأحمد شلبى بن عبد الغنى ، رغم أنه سكت عن الترجمة لنفسه ولأسرته ، ورغم أن الجبرتى نفسه ، أعجب بكتاب أحمد شلبى ، فانه سكت عن الترجمة له ، واعتبره شخصا مجهولا ، الا أنه بناء على بعض الاشارات ، التى ذكرها

= ٥ ـ على بن محمد الشاذلى الفرا .
ـ ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة (١١٢٣ هـ ـ ١٧١١ م) . تحقيق الدكتور عبد القادر أحمد طليمات ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع عشر ، ١٩٦٨ م .

٦ ـ محمد بن أحمد بن اياس الحنفى (٨٥٢ ـ ٩٣٠ هـ ، ١٤٤٨ ـ ١٥٢٣ م) .
ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، خمسة أجزاء ؛ حققها وكتب لها المقدمة والفهارس ، محمد مصطفى ؛ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ م .

٧ ـ محمد البرلسى الشافعى .
ـ « نهاية الأدب فى رفع الطلب » معهد المخطوطات ، بجامعة الدول العربية ، ميكروفلم ، رقم ٢٦ .
ـ محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن على الاسحاقى ، المتوفى ١٠٦٠ هـ ـ ١٦٥٠ م .
ـ « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » . المطبعة العثمانية ؛ القاهرة ١٣١٥ هـ ـ ١٨٩٧ م .

٩ ـ محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى : المتوفى ١٠٨٧ هـ ـ ١٦٧٦ م . له عدة مؤلفات كلها مخطوطة ؛ ومحفوظة بدار الكتب المصرية عدا المؤلف الأخير من هذا الترتيب محفوظ بمكتبة سسوهاج ، وله ميكروفيلم ، بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .
ـ عيون الاخبار ونزهة الابصار ، دار الكتب رقم ٧٢ تاريخ .
ـ الكواكب السائرة فى أخبار مصر القاهرة ، معهد المخطوطات العربية ، رقم ٤١٩ تاريخ
ـ النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دار الكتب رقم ٢٢٦٦ تاريخ .
ـ المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية ، دار الكتب رقم ١٩٢٦ تاريخ .
ـ اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ، دار الكتب رقم ٨٠ م .
ـ الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة ، دار الكتب رقم ٢٢٦١ تاريخ .
ـ كشف الكربة فى رفع الطلبة ، قمت باعداد هذه المخطوطة للنشر بالمجلد الثالث والعشرين من المجلة التاريخية المصرية ، والذى سيصدر هذا العام (١٩٧٦) .

١٠ ـ مصطفى بن الحاج ابراهيم .
تاريخ وقائع مصر (القاهرة) ، (١١٠٠ ـ ١١٥٠ هـ ، ١٦٨٩ ـ ١٧٣٧ م) . دار الكتب رقم ٨٥٠٥ .

١١ ـ مؤلف مجهول .
ـ تاريخ ملوك آل عثمان ونوابهم الى ولاية على باشا المتوفى سنة ١١٢٩ هـ ـ ١٧١٧ م ، دار الكتب ، مكتبة تيمور رقم ٢٤٠٨ تاريخ .

١٢ ـ يوسف الشربينى .
ـ هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف . توجد لهذا الكتاب عدة طبعات أولها صدرت سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م ، وأخرها طبعة المطبعة المحمودية بدون تاريخ تحت عنوان « نكت وفكاهة وادب المعروف بهز القحوف » .

١٣ ـ يوسف الملوانى :
ـ تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ؛ ينتهى ١١٣٦هـ/١٧٢٣ م . توجد =

أحمد شلبى فى كتابه ، نستطيع أن نؤكد أنه كان واعيا للأحداث التى شغلت مصر فى الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) ، وحتى وفاته ١١٥٠هـ ، ١٧٣٧ م ، كما سنرى فى موضعه من البحث ، وهو حينما يروى أحداث عام ١٠٩٧هـ ١٦٨٥م كشاهد عيان ، ويتحدث عن الطاعون الذى حل بالبلاد فى هذا العام (١) يذكر أن أسرته لم تنج من هذا الطاعون ، فقد توفى فيه والده الشيخ عبد الغنى ، ومن هنا تأتى أهمية أحمد شلبى ابن عبد الغنى كمؤرخ معاصر للأحداث يرصدها ويسجلها ويتقصى أسبابها ونتائجها ٠

أما الجبرتى فقد ولد سنة ١١٦٧ هـ ـ ١٧٥٤ م ، وعاش حتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وترجم لأسرته ترجمة وافية ، ورسم لنا صورة واضحة عن البيئة التى عاش فيها وعاصرها ٠ وفعل مثل أحمد شلبى فى رصده لأحداث الفترة التى عاصرها ووعاها ٠

واستطاع هذان المؤرخان كشاهدى عيان أن يغطيا أحداث تاريخ مصر ـ فى الفترة الممتدة من الربع الأخير من القرن السابع عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر ـ بجوانبه المختلفة : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انه مما يجدر ذكره ، أن أحمد شلبى بن عبد الغنى يذكر فى كتابه حقائق على درجة كبيرة من الأهمية ، فيما يتعلق بالنواحى الادارية والاقتصادية ، تسكت عنها المصادر الأخرى المعاصرة وغير المعاصرة (٢) ، وثبت لنا صحتها من واقع الوثائق الرسمية المحفوظة بدار المحفوظات العمومية وأرشيف المحكمة الشرعية ، كما سنرى ذلك فيما بعد ٠

= النسخة الأصلية بمكتبة سوهاج تحت رقم ٨٠ تاريخ ؛ وتوجد نسخة مصورة عنها بدار الكتب تحت رقم ٥٦٢٣ تاريخ فى ٤٠٣ لوحة فى مجلدين ٠

وجميع هذه المصادر تؤرخ للفترة السابقة على تاريخ الجبرتى ، أو السنوات الاولى من تاريخه ومما تجدر الاشارة اليه أنه اذا كانت أسماء معظم هذه المصادر توحى بأنها تاريخ للوزراء والولاة ، الا أنها جميعا تصف أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عهد هؤلاء الولاة ، فاذا أضفنا الى هذه المصادر المتوفرة ، وثائق العصر العثمانى ، وهى متوفرة كذلك وثرية فى مادتها العلمية والرسمية والمحفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة ، وارشيف المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بالقاهرة ، وكذلك وثائق محاكم الاقاليم التى كانت قائمة انذاك ، والمحفوظة وثائق بعضها بدار المحفوظات اذا اضفنا هذه الوثائق الى المصادر السابقة ، يتضح بصورة لا تقبل الشك أن مصادر تاريخ مصر فى العصر العثمانى متوفرة ، ولا تحتاج سوى الاهتمام بها ودراستها الدراسة العلمية التى على اساسها يكتب تاريخ مصر فى تلك الفترة كتابة علمية اكاديمية ٠

(١) أحمد شلبى بن عبد الغنى ؛ أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، ص ٥٥ ٠

(٢) أحمد شلبى ، المصدر السابق ؛ ص ٤٨ ٠

ولنلق الآن نظرة موجزة على العوامل التى نرى أنها دفعت بهذين المؤرخين الى الاقدام على عملهما هذا ، الذى حفظ لنا أحداث تاريخ مصر فى الفترة المشار اليها ، ويمكن اجمال هذه العوامل فيما يلى :

أولا — اهتمام المؤرخين الذاتى بعلم التاريخ كعلم ذى أهمية فى حياة الأمم والشعوب ، وأنه المقياس الأول لضبط الوقائع والأحداث ، وضبط عمليات التزوير ، ومعرفة الغالب من المغلوب ، والسابق من المسبوق ، والعبرة بتلك الأحوال والتنصح بها والاستفادة منها وليس مجرد أحداث للرواية والترجمة ، وقد دفعهما هذا الاهتمام الذاتى الى تتبع الحقيقة التاريخية واستقصائها وتسجيلها وتوثيقها كلما أمكن الى ذلك سبيلا (١) ٠

ثانيا — البيئة العلمية المناسبة التى زودتهما بدفعة قوية فى الاتجاه نحو كتابة التاريخ ، ومكنتهما من الاطلاع على مؤلفات السابقين فى علم التاريخ ، فمن المعروف أن البيئة التى عاش فيها الجبرتى هيأت له اطلاعا واسعا ، وجعلته متمكنا من الأسلوب الى حد كبير بالنسبة لمعاصريه ، فلاشك فى أن اختلافه الى حلقات الدرس فى الأزهر وحضوره دروس والده فى المنزل جعله يلم بكثير من العلوم النقلية والعقلية ، هذا الى جانب المامه بأحداث العصر ودسائسه ، وأخبار الولاة والأمراء والمشايخ ، عن طريق ما كان يروى على مسمع منه فى منزل والده ، هكذا تهيأت للجبرتى البيئة الصالحة التى لا شك أنها نبهته الى كتابة التاريخ ٠

أما أحمد شلبى بن عبد الغنى ، فقد ذكر أن والده كان شيخا ، وذلك فى معرض حديثه عن الطاعون الذى حل بمصر عام ١٠٩٧هـ — ١٦٨٥م ، حيث قال : « وفيه توفى والدى الشيخ عبد الغنى رحمة الله عليه » ويذكر فى مواضع كثيرة من كتابه ، الصداقة التى كانت تربط بينه وبين علماء عصره وقضاته ومتصوفيه ٠ هذا الى جانب اهتمامه بالاطلاع على مصنفات السابقين ، وبخاصة التاريخية منها ، التى رأى فيها اما محض تلخيص لما سبقها ، أو شرح لبعضها ، أو جمع لمتفرق منها أو اكمال النقص فى بعضها ثم قال : « وليس كتابى هذا بشىء من ذلك ، وانما مقصود به سلوك ما سلكه العلماء من المسالك رجاء بركتهم والتمسك بأذيال الأعلام من باب التطفل على أبواب الكرام وقد قال بعضهم تشبهوا بهم وان لم تكونوا مثلهم (٢) » ٠

ثالثا — الأحداث المعاصرة : فقد عاش المؤرخان فى فترة زخرت بالصراعات العسكرية ، نتيجة لازدياد نفوذ الجند على السلطة ، وبخاصة جند الاسباهية

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، جـ ١ ، ص ٤ ، أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ٥ ٠

(٢) أحمد شلبى ؛ المصدر السابق ، ص ٥ ٠

وثوراتهم المتكررة ضد الادارة ، وطغيانهم وظلمهم للسكان وفرضهم للاتاوات المتكررة عليهم • مما أدى بدوره الى سوء أحوال الأهالى وبخاصة الفلاحين • هذا الى جانب ازدياد نفوذ الأمراء المماليك على نفوذ الباشوات العثمانيين حتى اصبح عزل هؤلاء الباشوات يتم فى معظم الأحوال بيد هؤلاء الأمراء • ولكن مما يجب ذكره أن ازدياد نفوذ الأمراء المماليك صحبه انقسامهم الى بيوتات متصارعة على الحكم ، الأمر الذى أدى الى الحروب العديدة التى وقعت فيما بينهم طوال القرن الثامن عشر وكان لها تأثير سىء على اقتصاديات البلاد • يضاف الى ذلك الكوارث الطبيعية التى كانت تحل بالبلاد وتأثيرها على الأهالى ، ثم ما حل بمصر فى أواخر القرن الثامن عشر من غزو فرنسى ، ثم فترة الاضطراب السياسى التى عاشتها البلاد بعد خروج الحملة الفرنسية ووصول محمد على الى الحكم فى أوائل القرن التاسع عشر ، وفترة حكمه الأولى ومحاولته اقامة الدولة الحديثة •

لا شك أن كل هذه الأحداث من سياسية واقتصادية واجتماعية جذبت كلا من المؤرخين فى الفترة التى عاش فيها من هذه الفترة الزمنية ـ الممتدة من الربع الأخير من القرن السابع عشر وحتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ـ الى تسجيل هذه الأحداث وتدوينها ، وقد ذكرا لنا هذه الحقيقـــة فى كتابيهما ، فالجبرتى يقول : « انى كنت سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر ، وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققة تفصـــيلية وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق متسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ، ويستفيد مما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى اذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر « انما يتذكر أولو الألباب » ، فانها حوادث غريبة فى بابها متنـــوعة فى عجائبها » (١) •

كذلك فعل أحمد شلبى بن عبد الغنى • حيث يذكر أنه كان مهتمـــا بالأحداث وتسجيلها ، وأراد وضع كتاب فيمن تولى مصر القاهرة المعزية من الوزراء والباشات ذوى الرتب العلية « أسميته » أوضح الاشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ولقبته بالتاريخ العينى لابن عبد الغنى ، ورتبته على مقدمة وباب راجيا من الله الثواب والمقدمة فى فضل التاريخ ، والباب فى ذكر الوزراء والباشات من غير اطناب وما حصل بينهم وبين أهل القاهرة من

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢ •

الحكايات العجيبة والأمور الغريبة » (١) وبذلك يتضح أن المؤرخين كانا مدفوعين بأحداث العصر وتسجيلها عند كتابتهما لكتابيهما ٠

رابعا ـ تكليف بعض الأصدقاء والأصحاب للمؤرخين كتابة بعض التراجم أو تاريخ لوزراء مصر ، ولدت فى ذهن المؤلفين كتابة كتابيهما ، فمعروف أن فكرة كتابة مؤلف عبد الرحمن الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » نبتت عنده بناء على تكليف من السيد مرتضى الزبيدى بكتابة تراجم لأعلام القرن الثانى عشر الهجرى « الثامن عشر الميلادى » ، وما كاد الجبرتى يشرع فى كتابة تراجم أعلام القرن الثانى عشر حتى تشعبت أمامه السبل ، وراح يدون أسماء العلماء وأمراء الأوجاقات والصناجق وغيرهم ، وراح يتخبط فى متاهة لا يعرف لنفسه منها مخرجا » (٢) ٠

وبدأ الجبرتى يجمع مادته متبعا فى ذلك شتى السبل ، ومستعينا بصديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى كان قد التحق شاهدا بالمحكمة الشرعية ، وكان يتردد على الديوان ويطلع على السجلات ، وينقب عما يعين صديقه فى مهمته ، والحقيقة التى نريد أن نخلص لهـا ، أن تكليف السيد مرتضى الزبيدى للجبرتى تمخض فى نهاية المطاف بتعلق الجبرتى بكتابة تاريخ بلاده ، منذ مطلع القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى) ، وحتى وفاته ، وذلك فى كتابه العظيم « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ٠

كذلك يذكر أحمد شلبى بن عبد الغنى أن فكرة كتابته لكتاب « أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » جاءت من بعض الأصحاب ، حيث يذكر صراحة فى مقدمته : « هذا كتاب قد سألنى فيه بعض الأصحاب فيمن تولى مصر القاهرة المعزية من الوزراء والباشات ذوى الرتب العلية » (٣) ٠

هكذا نرى أنه الى جانب الاهتمام الذاتى للشيخين بعلم التاريخ ، وتأثير أحداث العصر عليهما ، فانه من بين العوامل التى شجعتها على الاقدام على عملهما ، طلب بعض الأصدقاء منهما القيام بهذا العمل ، لثقة هؤلاء الأصدقاء فى قدرة الشيخين على كتابة أحداث العصر وتحرى الدقة فى تسجيل هـذه الأحداث ٠

منهج المؤلفين :

أما عن منهج الشيخين فى تسجيل الأحداث ، فالجبرتى يسير على الطريقة الحولية المعروفة ، أى كتابة أحداث السنة مرتبة حسب الشهور والأيام ، وحينما

---

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ؛ ص ٢ ٠

(٢) خليل شيبوب ٠ عبد الرحمن الجبرتى ؛ ص ٥٢

(٣) احمد شلبى ، المصدر السابق ؛ ص ٢ ٠

ينتهى من أحداث سنة يبدأ فى السنة التى تليها متبعا نفس الأسلوب ، وهكذا وفى ثنايا سرده للأحداث يسجل أسماء الوزراء والباشوات ، ووقت حضورهم الى القاهرة ، ومدة اقامتهم فى مصر والأحداث التى حدثت فى عهد كل منهم ، وحين يعزل الباشا يذكر ذلك ضمن أحداث العام الذى يدون أحداثه ، ثم يذكر تراجم من توفى من العظماء فى كل عام •

أما أحمد شلبى بن عبد الغنى ، فانه اتبع أسلوبا آخر يجمع بين الطريقة الحولية وطريقة التراجم ، وربما كان متأثرا فى ذلك بموضوع كتابه « أوضح الاشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » ، ففكرة الكتاب أساسا قائمة على تدوين أحداث مصر فى عهد كل وزير أو باشا • ولذا فان أحمد شلبى يدون الأحداث التى مرت بها البلاد فى عهد كل باشا ، متبعا فى ذلك الطريقة الحولية فهو يذكر تولية الباشا وتاريخ وصوله الى مصر ، ومدة اقامته فيها بالسنة والشهر واليوم ، وتاريخ مغادرته البلاد ثم يسترسل بعد ذلك فى ذكر الأحداث التى وقعت فى عهده ، والترتيب الزمنى للأحداث سنة فشهرا فيوما • حتى اذا عزل الباشا يؤكد تولية الباشا الذى أتى بعده بنفس الأسلوب • ويستمر فى سرد الأحداث دون أن يترك فترة زمنية بدون تسجيل •

وقد اتبع الشيخان حقيقة المنهج العلمى فى تدوينهما للحوادث التى عاصراها والتى لم يعاصراها ، فالأحداث السابقة لعصر كل منهما اعتمدا فى تسجيلها على كتابات السابقين مع مقارنتها بوثائق العصر ، أو تأكيدها من أفواه المعاصرين لها ما أمكن الى ذلك سبيلا •

أما الأحداث التى عاصراها فقد سجلاها تسجيل شاهد عيان لها ، مع نقدهما لما لا يروقهما منها ، حتى ان الشيخ الزرقانى نهى أحمد شلبى ابن عبد الغنى عن نقده للأفعال التى كان يرتكبها العليمى الرجال ، الذى ظهر ١١١٠هـ ـ ١٦٩٨م • وتعلق الناس من رجال ونساء بهذه الأفعال ، وذلك بقوله : « يا أحمد اعتقد ولا تنتقد » (١) ، ويذكر أحمد شلبى فى مواضع كثيرة من كتابه تنقله بين أحياء القاهرة لمشاهدة الأحداث وتسجيلها واستقصاء أسبابها ، وما تمخضت عنه من نتائج • وتصادفنا فى مواضع كثيرة من الكتاب العبارات الدالة على حرص المؤلف على مشاهدة الوقائع بنفسه مثل قوله : « وكنت واقفا » و « كنت شاهدا » (٢) •

وكان أحمد شلبى يعتمد فى تسجيله فيما يتعلق بالأمور المالية والأحوال الاقتصادية على موظفى الادارة المسئولين عن هذه الأمور ، ممن يثق بهم ويلقى مسئولية صحة هذه البيانات عليهم ، وذلك فى مثل قوله : « ولقد أخبرنى

---

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ •

(٢) نفسه ، ص ٨٢ •

الفاضلي كاتب بيت المال ان الذى ضبطه بالقائمة التى عرضت على الوزير .. »
أو قوله : وذكر لى ذلك « وكيل الخرج الذى كان متقيدا بهذا الأمر » .

أما الجبرتى فقد ذكر عن طريقة تسجيله لأحداث الفترة التى عاصرها قوله « أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها الى أن تم ما قصدنا بأى وجه كان ، وانتظم ما أردنا استطراده من وقتنا الى ذلك الأوان » (١) .

أما اعتماده فى تسجيل الجوانب الاقتصادية والمالية ، فكان قائما على أخذ معلومات هذه الجوانب من موظفى الادارة المسئولين كما فعل أحمد شلبى ، فهو يذكر فى مواضع كثيرة من كتابه أن هذه المعلومات أخذت من الكتبة والمباشرين ، أو من المسئولين عن الروزنامة وادارة الشئون المالية ، وقد ثبت لنا من دراسة سجلات الرونامة وسجلات الديوان العالى ، وثائق المحكمة الشرعية أن كتاب الجبرتى يحوى الكثير من الوثائق ويحفظ لنا نصوصها .

ولذا فان الكتابين يعتبران مصدرين وثائقيين عن أحداث التاريخ المصرى منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر ، وحتى وفاة الجبرتى فى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر .



وقد جاءت كتابات المؤرخين عن الفترة التى لم يعاصرها كل منهما مجملة ، نلحظ ذلك عند أحمد شلبى ، حيث نجده يبدأ الاسهاب والاستطراد فى ذكر الأحداث منذ أحداث سنة ١٠٩٧هـ ــ ١٦٨٥م ، أما الفترة السابقة على ذلك فيجمل أحداثها ، ويذكرها بأسلوب أكثر اجمالا من أسلوب المشاهدة ، الذى يسترسل فيه الشخص فى ذكر ما شاهد بعينيه ، حيث تستهويه الرواية والتسجيل فيسهب ، أما ما يعتمد فى تسجيله على مصادر أخرى فيحاول دائما أن يوجزه وكذلك فعل الجبرتى عند تسجيله لأحداث الفترة التى لم يعاصرها ، فهو عندما بدأ يبيض أوراقه التى سودها ، وأراد أن يصل الأحداث بما قبلها ، لجأ الى كتابات السابقين عليه قائلا : « ولما عزمت على جمع ما كنت سودته أردت أن أوصله بشىء قبله ، فلم أجد بعد البحث والتفتيش الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ، ركيكة التركيب ، مختلة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص من مواضع فى خلال بعض الوقائع ، وكنت ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ، لكنه على نسق فى الجملة مطبوع ، لشخص يقال له أحمد جلبى بن عبد الغنى ، مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار المصرية ، وينتهى كغيره مما ذكرناه الى خمسين ومائة وألف

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

هجرية ، ثم أن ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم ، ووقع فى صندوق العدم » (١) ٠

وهنا نصل الى نقطة هامة فى هذه الدراسة ، فاذا كان الجبرتى يذكر عن كتاب أحمد شلبى ، أن بعض الأصحاب استعاره منه وضاع منه ، واذا كان الجبرتى قد بدأ يعد ما سوده من المـــادة التى جمعها بعد عام ١٢٠٣ هـ ـ ١٧٨٨م أى بعد العام الذى كلفه فيه السيد مرتضى الزبيدى بجمع تراجم لأعيان القرن الثانى عشر ، ولا شك أن ذلك حدث بعد فترة من الزمن ، وعندما عزم الجبرتى على هذا العمل وجد أن كتاب أحمد شلبى قد ضاع ، فانه مما يسترعى الانتباه أننا نجد أن الكاتب السيد مصطفى خرجه الذى نسخ النسخة المحفوظة حاليا بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية ، يذكر فى نهاية الكتاب تاريخ انتهائه من النسخ فى فترة متقاربة جدا ، ولا ندرى كيف وصل اليه الكتاب ، فقد ذكر : « وقد كتبه الآن العبد الفقير الذليل الحقير الكاتب مصطفى خرجه بن قاسم بن عبد الله قرشى النسب طرابلسى الدار حنفى المذهب ، أشعرى الطريقة ، لنفسه ولمن يشاء من بعده طالبا للأجر وجزيل الزخر فى أواخر ثانى الربيعين من سنة ١٢١٠ هـ ـ ١٧٩٥ م من الهجرة النبوية » (٢) ٠

أى أن هذا الكاتب كان يعمل فى نسخه لنفسه كما ذكر فى الوقت الذى كان فيه الجبرتى يبحث عنه ليراجع عليه ما سوده منه من النصوص ، حيث اتضح لنا من استقراء كتاب أحمد شلبى ، والفترة التى أرخ لها الجبرتى من سنة ١٠٩٩ هـ ـ ١٦٨٨ م ، الى سنة ١١٥٠ هـ ـ ١٧٣٧ م ، أنه كان أمينا الى حد كبير فى حفظه نص أحمد شلبى لنا ، فقد نقل منه أحداث هذه الفترة ، مع مراعاة بعض الملحوظات التى يجب أن يتنبه القارىء لها ، وكيف أن اعجاب الجبرتى بهذا المصدر جعله ينقله ، أو بتعبير أدق يهذبه ويضعه فى متن كتابه عجائب الآثار ٠ والملحوظات التى ننبه القارىء اليها هى :

أولا ـ أن الجبرتى مع نقله للأحداث من كتاب أوضح الاشارات بترتيب العبارات ، وتسلسلها وألفاظها من عامية وفصحى الا أنه فى بعض الأحيان يستعمل المصادر حيث يستعمل أحمد شلبى الأفعال ٠

ثانيا ـ فى كثير من المواضع يهمل الجبرتى التفاصيل والأرقام والأسماء التى يذكرها أحمد شلبى بن عبد الغنى ، ويكتفى بالعبارات الأخيرة من نص أحمد شلبى التى تلى هذه التفاصيل ، والتى تحوى فى الغـــالب معنى هذه التفاصيل أو تكون اجمالا لها ٠

---

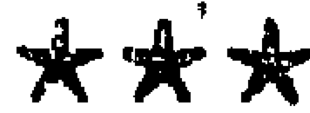
(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦ ٠

(٢) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ٥٣٢ ٠

ثالثا ـ عندما بدأ الجبرتي يدون أحداث القرن الثاني عشر ، وبخاصة منذ أحداث سنة ١١٠٦ هـ ـ ١٦٩٤ م ، وهو الموضوع الأساسي لكتابه كما ذكر ، نلحظ أن الجبرتي يحفظ لنا نصا شعريا آخر عن أحداث العصر ، ويضيفه الى نص أحمد شلبي • ونعني بهذا المصدر الشعري شعر الشيخ حسن البدر الحجازي الذي دأب على تسجيل الأحداث التي عاصرها من سياسية واقتصادية واجتماعية بأسلوب شعري ساخر ، ولذا فاننـــا نجد أن الجبرتي يدون نص أحمد شلبي بالأسلوب الذي سار عليه ، ثم يردفه بشعر الشيخ حسن البدر الحجازي الذي قاله في نفس المعنى ، كما سنرى ذلك في النصوص •

رابعا ـ يلحظ الدارس للمصدرين أن الجبرتي اهتم بصورة واضـــحة بالتراجم أكثر مما فعل أحمد شلبي • والجبرتي له في ذلك كل الحق ، حيث أن فكرة تدوينه للكتاب منذ البداية كانت قائمة على أن يكون تراجم للأعيان والمشهورين ، ولذا فان استقصاء الجبرتي للتراجم أوفى بكثير من استقصاء أحمد شلبي الذي لا يهتم بالتراجم اطلاقا ، فهو اذا عرض لشخصية عالم أو عين من الأعيان لا يذكر سوى وفاته ووظيفته ولا يطيل في الترجمة له مهما كانت مكانته ، وهذا ما فعله حتى في ترجمته لوالده الذي ذكر لنا تاريخ وفاته فقط ، وربما كان لأحمد شلبي كذلك عذره في هذه الناحية حيث أنه كان مطلوبا منه وضع كتاب عن الوزراء والباشات ، وليس كتاب تراجم ، ولذا فاننا نجد أن اهتمامه الأساسي بالوزراء والباشوات ، وما حدث في أيامهم من أمور عجيبة على حد تعبيره •

خامسا ـ في الفترة التي لم يعرض لها كتاب الجبرتي ، وهي الفترة الممتدة من بداية الحكم العثماني وحتى أواخر القرن السابع عشر ، نجد أن أحمد شلبي يلقي لنا أضواء جديدة وكثيرة على الجوانب الادارية والاقتصادية والاجتماعية التي سكتت عنها المصادر الأخرى ، وسنعرض لها في خاتمة هذه الدراسة •



الدراسة النصية :

نبدأ الآن بمقارنة مقتطفات نصية من المصدرين ، نختارها من أحداث سنوات مختلفة ، ومعبرة عن حوادث مختلفة ، ليرى القارىء الى أي حد اعتمد الجبرتي في تدوينه لأحداث الفترة الأولى من تاريخه وحتى عام ١١٥٠ هـ ـ ١٧٣٧ م ، على كتاب أحمد شلبي بن عبد الغني ، وبذلك حفظ لنا نص هذا الكتاب مع تهذيبه ، ولتكن البداية عام ١٠٩٩ هـ ـ ١٦٨٧ م وهو العام الذي ابتدأ الجبرتي يهتم فيه بعد المقدمة بتسجيل أحداث مصر منذ أواخر القرن

الحادي عشر لتمهيد لبداية القرن الثاني عشر موضوع كتابه ، وسوف نذكر في هذا الجزء دائما نص أحمد شلبي أولا باعتباره هو الأساس ، ثم نتبعه بنص الجبرتي :

اولا — في عام ١٠٩٩هـ — ١٦٨٧م حدثت معركة بين ابراهيم بيك الفقاري وبعض قبائل العرب خلف جبل الجيوشي ، وقتل كثير من العرب في هـــذه المعركة وأسر بعضهم ، ونهبت أرزاقهم ومواشيهم ، وانتقاما لهذه الحادثة ترصد العرب للحج المصري ، وأنزلوا به كثيرا من الخسائر في الأرواح والأموال . وننقل هنا نص المصدرين في هذه الواقعة لنلقي على النصين نظرة مقارنة :

— أحمد شـــلبي :

« وفي ثالث عشر الحجة ختام ١٠٩٩هـ — ١٦٨٧م كانت وقعة ابراهيم بيك أبو شنب الفقاري مع العرب ، وراء جبل الجيوشي ، وقتاله لهم ، هو والصناجق والأغوات .. وقتل من العرب نحو ألف وخمسمائة ، ومسكوا بالحياة نحـــو الخمسماية ، وأتوا بهم الى الوزير ، فأمر بحبسهم في العرقانة ، ونهبت العسكر جميع جمالهم وأحمالهم ومتاعهم ، فاتفق رأيهم (العرب) أنهم ينهبوا الحاج تلك السنة .. ثم ورد نجاب الى مصر (القاهرة) ، أخبر أن العرب طلعت على الحاج وتقاتلوا هم واياهم في الشرقية ، فقتل خلق كثير ، وقتل خليل أغا كيخية الحاج ، وأخذوا نحو ألف جمل بأحمالها وأسروا النساء .. فعندما بلغ الوزير هذا الخبر عين خمسة صناجق .. قيطاز بيك بتاع قناطر السباع ، ودرويش بيك ، ومراد بيك ، واسماعيل بيك الدفتردار ، ومصطفى الخطاط ، وصحبتهم ماية وخمسين نفرا من طايفة الاسباهية ، ورحلوا من البركة في غاية محرم الحرام ، فلما وصلوا الى نخل قعدت الصناجق في نخل ، وأما درويش بيك فانه أبى القعاد وسافر الى أن وصل العقبة هو وجميع طايفته فقط فلما علم ابراهيم بيك بوصول درويش بيك خرج ، وخرج الحاج ، واطمأن وحصل له غـــاية السرور ، وأما العـــرب فان الله ألقى الرعب في قلوبهم فهـــربوا جميعا (١) .

— الجبرتي :

« وفي أواخر الحجة سنة تسع وتسعين ، حصلت واقعة عظيمة بين ابراهيم بك ابن ذي الفقار وبين العرب الحجازيين ، خلف جبل الجيوشي ، وقتلوا كثيرا من العرب ، ونهبوا أرزاقهم ومواشيهم ، وأحضروا منهم أسرى كثيرة ، ووقفت العرب في طريق الحج في تلك السنة بالشرقية ، فقتلوا من الحاج خلقا كثيرة

---

(١) أحمد شلبي ، المصدر الســـابق : ص ٥٧ .

وأخذوا نحو ألف جمل بأحمالها وقتلوا خليل كتخدا الحج ، فعين عليهم خمسة أمراء من الصناجق ، فوصلوا الى العقبة ، وهرب العربان (١) .

فاذا نظرنا الى النصين ، وجدنا أن الجبرتى ، اختار العبارات الاجمالية من نص أحمد شلبى مع تقديم أو تأخير بعض الألفاظ لتصبح العبارة أسلس أسلوبا ، فأحمد شلبى مثلا يقول : « العرب طلعت على الحاج وتقاتلوا هم ، واياهم فى الشرقية ،فقتل خلق كثير » فيصوغ الجبرتي هذه العبارة بقوله : « ووقفت العرب فى طريق الحج فى تلك السنة بالشرقية فقتلوا من الحاج خلقا كثيرة » ، وأحمد شلبى يقول : « وقتل خليل أغا كيخية الحاج وأخذوا نحو ألف جمل بأحمالها » والجبرتى يذكر هذه العبارة بقوله : « وأخذوا نحو ألف جمل بأحمالها وقتلوا خليل كتخدا الحج » ، ويختتم أحمد شلبى أحداث هذه الواقعة بقوله : وأما العرب فان الله ألقى الرعب فى قلوبهم جميعا » أما الجبرتى فيختمها بتعبير اجمالى « وهرب العربان » .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أنه اذا كان الجبرتى قد لجأ الى أسلوب الاختصار من نص أحمد شلبى فان هذا الأسلوب نجده قاصرا على حوادث السنوات السابقة على عام ١١٠٦ هـ ـ ١٦٩٤ م ، فبدءا من أحداث هذا العام يلتزم الجبرتى بنص أحمد شلبى ولا يزيد عمله على تهذيب بعض الألفاظ أو ذكر نص شعرى للشيخ حسن الحجازى .

ثانيا : فى عام ١١٠١هـ ـ ١٦٨٩م ازداد نفوذ العربان وطغيانهم فى كل من ولايتى البحيرة والبهنسا ، فاضطرت الادارة الى ارســال تجريدة لمحاربة هؤلاء العربان ، والقضاء على نفوذهم ، وقد سجل أحمد شلبى هذا الحادث ونقله عنه الجبرتى :

ـ أحمد شلبى :

« وفى هذا التاريخ كانت التجريدة الكبرى الى البحيرة والبهنسا وأرسلوا صنجقين وألفين نفر من السبع وجاقات » ويختم أحداث هذه الواقعة بقوله : « ثم انهم تلاقوا مع عربان ابن وافى مرارا ، وهم ينكسروا من العرب ثم ان الوزير أرسل قيطاز بيك وأغوات السبع بلكات ، وكتخدا الجاويشية وفى آخر الأمر وهى الوقعة الطامة هزموا العرب وولوا هاربين نحــو الفرزدق ثم ان قيطاز بيك وحسن أغا بلفية ، وكتخدا الوزير صادفوا شرذمة قليلة فأخذوهم ونهبوا أموالهم وجمالهم وقطعوا رءوسهم وهم سبعة أنفار » .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤ .

- الجبرتى :

« وفى هذا التاريخ سافرت تجريدة عظيمة الى ولاية البحيرة والبهنسا وعليهم صنجقان » • ويختم أحداث هذه الواقعة بقوله : « وحاربوا ابن وافى وعربانه مرارا ثم وقعت بينهم وقعة كبيرة ، فهزم فيها الأحزاب ، وولوا منهزمين نحو الفرق ، وأما قيطاس بك وحسن أغا بلفيا ، وكتخدا الباشا ، فانهم صادفوا جمعا من العرب فى طريقهم فأخذوهم ونهبوا مالهم ، وقطعوا منهم رءوسا » •

وبمقارنة النصين يتضح أنهما متشابهان ، وتكاد الألفاظ بترتيبها فى العبارات تكون واحدة ، بل انه مما يسترعى الانتباه أن أحمد شلبى ذكر لفظا غامضا فى نصه وذلك فى قوله : « **وولوا هاربين نحو الفرزدق** » ، ولفظ الفرزدق غامض وغير معروف أهو اسم لجهة أو قرية ، فنقل الجبرتى هذا النص بصورة غامضة مع تحريف زاده غموضا بقوله : « **ولوا منهزمين نحو الفرق** » ، وكذلك يختم الجبرتى نصه بنفس عبارة أحمد شلبى بدون تغيير سوى حذف لفظ « وجمالهم » وتعبير « وهم سبعة أنفار » أما فيما عدا ذلك فهما متفقان فى ترتيب العبارات والألفاظ دون تقديم أو تأخير •

ثالثا : وفى عام ١١٠٣هـ ــ ١٦٩١م حدثت فتنة فى باب مستحفظان ، وقتل فيها خليل كتخدا باب مستحفظان • فذكر أحمد شلبى أحداث هذه الفتنة كشاهد عيان ونقلها عنه الجبرتى •

- أحمد شلبى :

« وفى سبعة عشرين من شوال من السنة المذكورة قتل جلب خليل فى باب مستحفظان وكان كتخدا وقامت الفتنة وأصلها من كشك محمد وأخرجوا سليم أفندى ورجب كتخدا الكبير من ملكهم وألبسوهم الصنجقية وأدخلوا كشك محمد ثالث مرة ، وعمل باش الاضباشية مثل أول ، فأبطل الحمايات التى كانت بباب مستحفظان وباب العزب باتفاق جميع الصناجق والوجاقات السبعة ونادوا فى مصر وبولاق بيد المنادى ، وأغا من طرف الوزير ، ومن كل بلد جاويش ، وأشهروا المنادات بالشوارع والأسواق ، وكان يوما مشهودا (١) •

- الجبرتى :

« قتل جلب خليل كتخدا مستحفظان ببابهم وحصلت فى بابهم فتنة أثارها كجك محمد ، وأخرجوا سليم أفندى من بلكهم ورجب كتخدا وألبسوهما الصنجقية ، فى ثالث عشرينه ، وأبطل كجك محمد الحمايات من مصر باتفاق

---

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ٦١ •

السبع بلكات ، وأبطلوا جميع ما يتعلق بالعرب والانكشارية من الحمايات بالثغور وغيرها وكتب بذلك بيور لدى ، ونادى به فى الشوارع » (١) ٠

واضح تماما من المقارنة أن الجبرتى التزم فى هذا النص الى حد كبير بأسلوب أحمد شلبى فانظر مثلا قول أحمد شلبى : « قتل جلب خليل فى باب مستحفظان وكان كتخدا وقامت الفتنة وأصلها من كشك محمد ، وأخرجوا سليم أفندى ورجب كتخدا » ٠ وقول الجبرتى : « وقتل جلب خليل كتخدا مستحفظان ببابهم وحصلت فى بابهم فتنة أثارها كجك محمد وأخرجوا سليم أفندى من بلكهم ورجب كتخدا » وندع للقارىء مقارنة ألفاظ النصين وترتيب هذه الألفاظ حسب ورودها فى النصين ليدرك مدى التزام الجبرتى بنص أحمد شلبى ٠

رابعا : فى عام ١١٠٧هـ ـ ١٦٩٥م اشتد الغلاء ، وضاق الحال بالفقراء ، فخرجوا فى مظاهرة صاخبة ٠ وطلعوا الى القلعة وهاجموا الديوان وطالبوا بالغذاء ولما لم تجد نداءاتهم جوابا أخذوا يقذفون الديوان بالحجارة ، واضطروا فى هذا اليوم الى نهب الغلال وكسر الحواصل وكان من بينها حاصل كتخدا الوزير الذى كان مملوءا بالفول والشعير ، وسجل أحمد شلبى هذه الواقعة كشاهد عيان ، ونقلها عنه الجبرتى بنفس الأسلوب الذى سبقت الاشارة اليه ٠

ـ أحمد شلبى :

« وفى غرة محرم الحرام ١١٠٧هـ ـ ١٦٩٥م اجتمعت الفقراء والشحاتين من النساء والرجال والصبيان وطلعوا الى حوش الديوان ، وصاحوا ونادوا متنا من الجوع ، وشدة الغلا ـ فلم يرد عليهم أحد جوابا ، فأخذوا الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان فضربهم الوالى جميعا ، وطردهم فنزلوا الى الرميلة فنهبوا جميع الغلال التى بالرقعة وكسروا الحواصل ، ونهبوا جميع ما كان فيها من قمح وفول وشعير ونهبوا حاصل كتخدا الوزير ، وكان ملان فول وشعير ، وكانت هذه الفعلة ابتداء الغلا فى جميع المأكولات ، ثم أخذت الأسعار فى الزيادة من محرم ١١٠٧هـ ـ ١٦٩٥م ، واستمرت فى الزيادة الى أن بيع القمح بستماية فضة الاردب ، والفول بخمسماية فضة والشعير بأربعمائة فضة والعدس لم وجد ، والرز بثمانمائة فضة واللحم الضانى بخمسة أنصاف الرطل والجاموسى الرضيع بثلاثة أنصاف ، والسمن بألف فضة القنطار ، والعسل النحل بستماية درهم ديوانى ، وحصل للناس بسبب ذلك الغلا الشديد فى مصر واقليمها ، حتى ان غالب أهل الأرياف والبلاد جاءوا مصر ، ولكن أكثرهم من البهنسا والفيوم وامتلأت أزقة مصر وحاراتها وأسواقها واشتد

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥ ٠

الكرب والبلا وأكلت الناس الجيف ، ووالله رأيت بعيني أم رأسي جمعا من النساء والفقراء أخذوا خاروفا ميتا كان مرميا عند جامع البرمشية وأدخلوه الفرن الذى بجانب الدرب الذى بحارة الجودرية وحطوه فى جورة الفرن ثم صاروا يتقاتلون عليه وهم يأكلون فيه والدم والصديد وتراب الجورة • وافتقرت الأغنيا وتهتكت الأحرار ، وهجت النـــاس جوعا بحيث أن الأزقة والحـارات والأسواق امتلأت بالأموات ، وهلك أهل القرى حتى ان المسافر يمر بالقرية فلم يجد بها الا القليل ويجد بعض الدور مفتحة ولم يكن فيها أحد ، وصارت الفقراء يخطفون الخبز من الأسواق والعجين وهو رايح الفرن وكل من أراد أن يخبز الخبز ، ولده يشيله والناس يخرجون ويقولوا اوعى الحرامى والخبازين الذين يبيعون الخبز اصطنعوا لهم أقفاص مثل أقفاص الفراخ فاذا اشترى انسان خبزا يأتى الرجل الى الخباز ليأخذ منه يقول بكم تأخذ فيقول بالشىء الفلانى ، فيأخذ منه الدراهم ويفتح القفص ويعطيه ، يكون الحرامى حاضر فيخطف الخبز بالفوطة ويطير فما أحد يقدر يدركه لشدة جريه ، واذا سرح الخباز يكن معه رجلان واحد أمامه والثانى خلفه بالعصا ثم ان الخطافين صاروا يجتمعون ثلاثة أو أربعة ، ويأتى واحد فى حزو الخباز والآخر من خلفه ، والذى من خلف الخباز يدفعه يكون الذى فى حزوه منحنى قدام الخباز فيتعنطر الخباز يقع ، ويقوم الثالث يخطف القفص ويفر هاربا فلم أحد يدركه ، والرابع يحوش الناس عنه ثم أنهم يأكلون » (١) •

- الجبرتى :

وفى منتصف المحرم سنة سبع ومائة وألف اجتمع الفقراء والشحاذون رجالا ونساءا وصبيانا وطلعوا الى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبهم أحد ، فرجموا بالأحجار ، فركب الوالى وطردهم ، فنزلوا الى الرميلة ، ونهبوا حواصل الغلة التى بها ، ووكالة القمح ، وحاصل كتخدا الباشا ، وكان ملآنا بالشعير والفول ، وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء حتى بيع الأردب بستماية نصف فضة والشعير بثلثمائة • والفول بأربعمائة وخمسين والأرز بثمانمائة نصف فضة وأما العدس فلا يوجد ، وحصل شدة عظيمة بمصر وأقاليمها ، وحضرت أهالى القرى والأرياف حتى امتلأت منهم الأزقة ، واشتد الكرب ، حتى أكل الناس الجيف ، ومات الكثير من الجوع وخلت القرى من أهاليها وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ، ومن الأفران ، ومن على رءوس الخبازين ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق يحرســـونه من الخطف ، وبأيديهم العصى حتى يخبزونه بالفرن ثم يعودون به واستمر الأمر على ذلك الى أن عزل على باشا فى ثامن عشرى المحرم سنة سبع ومائة وألف (٢) •

---

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ص ٦٦ — ٦٧ •
(٢) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦ •

واضح أن عمل الجبرتى فى هذا النص لم يزد عن حذفه العبارات التى جاءت على لسان أحمد شلبى كشاهد عيان لبعض أحداث هذه الأزمة الطاحنة التى حلت بالبلاد كما هذب الألفاظ العامية التى استعملها أحمد شلبى فى وصفه ، أما فيما عدا ذلك فقد حافظ على ترتيب النص الأصلى الذى كتبه أحمد شلبى ٠

خامسا : واذا انتقلنا الى أحداث ١١١٠هـ ـ ١٦٩٨م ، نجد أن حادثة قد وقعت بين المغاربة من أهل تونس وفاس أثناء الطواف بالكسوة الشريفة فى شوارع القاهرة ، ذكرها أحمد شلبى بن عبد الغنى كشاهد عيان ، ونقل الجبرتى هذه الواقعة كذلك بنصها ، لا تغيير فيها سوى التهذيب اللغوى لبعض الألفاظ كى تتمشى وأسلوبه ٠ وهاك النص :

ـ أحمد شلبى :

« وفى سابع شوال سنة ١١١٠ هـ ، كانت واقعة المغاربة مع أهل مصر ، وذلك أن المغاربة كان من عادتهم أنهم يحملون الكسوة الشريفة التى تعمل كل سنة ، ويمرون بها فى شوارع القاهرة ، وأنهم يضربون كل من يروه يشرب الدخان وقت مرورهم بالكسوة الشريفة ، فاتفق لهم أنهم ضربوا رجلا من أتباع مصطفى كتخدا القزداغلى فشجوا وجهه أى رأسه وكانوا اذ ذاك مسلحين فتشاجروا ووقع بينهم الضرب بالسلاح وطالت القضية واتسعت فقام عليهم أهل السوق وضربوهم فأدركهم أوضباشة البوابة وكان اذ ذاك مصطفى أوضباشة تابع ابراهيم ٠٠ فقبض على أكثرهم وأودعهم القلعة ثم فى ثانى يوم أعرضوهم على الوزير وعرفوه بحالهم فأمر بهم الى العرقانة ولم يزالوا مسجونين الى أن سافر الحاج ، ومات أكثرهم فى العرقانة فتشفعت أرباب الدولة فى الباقى بواسطة الخواجة محمد الشرايبى بدراهم عملوها لاسماعيل بيك الدفتردار فأفرج عنهم الوزير » (١) ٠

ـ الجبرتى :

وفى رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من أهل تونس وفاس وذلك أن عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة التى تحمل كل سنة للبيت الحرام ويمرون بها فى وسط القاهرة وتحمل المغاربة جانبا منها للتبرك بها ، ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى طريق مرورهم ، فرأوا رجلا من أتباع مصطفى كتخدا القازدغلى فكسروا أنبوبته وتشاجروا معه وشجوا رأسه ، وكان فى مقدمتهم طائفة متسلحون ، وزاد التشاجر واتسعت القضية وقام عليهم أهل السوق

---

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ ٠

وحضر أوده باشه البوابة فقبض على أكثرهم ووضعهم فى الحديد وطلع بهم الى الباشا وأخبروه بالقضية فأمر بسجنهم بالعرقانة فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ومات منهم جماعة فى السجن ثم أفرج عن باقيهم (١) •

يتضح من النصين أنهما متفقان تماما فى ترتيب العبـــارة والألفاظ ولا يزيد الفرق بينهما عن عملية التهذيب اللغوى كما سبقت الاشارة •

سادسا : واذا تابعنا عملية المقارنة بين النصين : نص أحمد شلبى ونص الجبرتى ، لوجدنا أن الجبرتى حفظ لنا نص أحمد شلبى ، وان كان بدأ يزيد عليه منذ أحداث سنة ١١١٠ هـ ـ ١٦٩٨ م نصا آخر هو شعر الشيخ حسن الحجازى ، فمنذ أحداث هذه الفترة نجد الجبرتى يذكر نص أحمد شلبى ويردفه بالنص الشعرى الذى نظمه الشيخ حسن الحجازى فى معنى الواقعة الحاصلة • فمثلا عندما توقف النيل عن الزيادة واشتد الغلاء فى عهد محمد باشا سنة ١١١٦هـ ـ ١٧٠٤م سجل أحمد شلبى هذه الأحداث كشاهد عيان على النحو التالى :

ـ أحمد شلبى :

وفى أيامه توقف النيل عن الزيادة وهرعت الناس بطلب الدعا ، وأمر الوزير العلما وأولاد المكاتب وجميع أهل القاهرة أن يطلعوا للاستسقا ، ثم نادى المنادى بأن أول يوم الى الجيوشى والثانى فى جامع عمرو ، والثالث فى سبيل على باشا وكان بجانبى رجل شريف فتوفى فى حالة الدعاء واستجاب الله دعاءهم وأوفى البحر حادى عشر توت القبطى وعملوا له تاريخا •

البحر لمـــا تأخـــر الى تـــوت حـــارت النواظر
جـــاد الاله بفضـــل فى يـــوم أحـــد وعاشر
فقـــلت فيـــه مـــودهم لله جبـــر الخـــواطر

فرويت بعض البلاد ، وهبط سريعا ، فجعل الغلاء الشديد وبلغ القمح مأتين وأربعين الاردب والشعير مائة وخمسين ، والفـــول ماية وثمانين والأرز بأربعمائة فضة ، واللحم بثلاثة فضة للرطل والدجاجة بعشرة والشمع واللحم بثمانية الرطل ، وقس على هذا • وكثرت الشحاتين فى الأسواق والأزقة ولم يأت فى تلك السنة بن من اليمن ولا قماش هندى من بلاد الهند ولا البن بأن أبيع بمائتين وخمسين ريالا حجرا القنطار من بعـــد ما كان بأحد عشرين ريال والشاش الهندى لم يوجد ولبست الناس الخاصة والأكابر وصاروا يقطعون

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٩ •

الخاصة ويشتغلوا له طرفا بالقصب شغل الابرة وكانت أيامه نحس كلها على مصر » (١) .

- الجبرتي :

وفي تلك السنة توقف النيل عن الزيادة ، فضج الناس واستهلوا بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على جبل الجيوشي وغيره من الأماكن المعروفة باجابة الدعاء فاستجاب الله لهم في حادي عشر توت ، وشد ذلك من النوازل وقد أرخه بعضهم فقال :

النيل في مصر أوفى في توت حادى وعاشر
والناس قد أرخوه لله جبر الخواطر

وفي ذلك يقول الشيخ حسن الحجازى :

لأهل مصر أنكر ما قوقه قط نكر
نفاقهم ليس يحصى وكذبهم لم يأت جبر
فعقد ذا الكذب منهم قد فاض ما فيه حصر
لكل يوم وفاء صبح وظهر وعصر
ويحلفون على ذا يرون ما فيه وزر
للبحر كل نهار يغدون يرقب جسر
علا على الناس ضج فكاد يحصل كفر
ليأسهم واستمروا يدعون لم يستقروا
حتى أتى من قدير قد جل فتح ونصر
النيل أوفاه فضلا وزال بالكسر كسر
في حادي عشر توت ذاك الوفاء المسر
وسبع عشر ذراعا قد كان ذاك ونزر
فلم يصح الأراضي وزاد في القوت سعر
وعند ذاك الحجازى حسن تغشاه يسر
العالم ذلك أرخ وجب في توت بحر .

فروى بعض البلاد وهبط سريعا فحصل الغلاء ، وبلغ سعر الازدب القمح مائتين وأربعين فضة ، والفول كذلك والعدس مائتى نصف فضة والشعير مائة

---

(١) أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص ص ٨٢ - ٨٣ .

نصف فضة ، والأرز اربعمائة نصف فضة الاردب وبيع اللحم الضانى كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسى والبقرى بنصفى فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلثمائة وخمسين ، والدجاجة بثمانية أنصاف وعلى هذا فقس ، والبيض كل ثلاث بيضات بنصف والرطل الشمع الدهن بثمانية أنصاف ، وكثر الشحاذون فى الأزقة (١) •

هكذا نرى مدى التطابق بين النصين • والدراسة المقارنة تظهر بوضوح أن الجبرتى لم يزد فى عمله هذا سوى أنه نقل نص أحمد شلبى مع تهذيب بعض الكلمات وحذف كلمات تفصيلية ثم أردفه بنص شعرى فى نفس الواقعة للشيخ الحجازى فله فضل حفظ هذه النصوص من الضياع •

سابعاً : معروف أن القرن الثامن عشر يعتبر بحق عصر الصراعات العسكرية والتنازع بين فرق الحامية العثمانية فى مصر مع ضعفها • وفى مطلع القرن الثامن عشر حدثت فتنة بين العزب والمتفرقة ، وسجل أحمد شلبى أحداث هذه الفتنة كمعاصر لها ، ثم أتى الجبرتى فنقل ما ذكره أحمد شلبى بأسلوبه وترتيب الكلمات والعبارات وسياق التعبير • وهاك النص :

ـ أحمد شلبى :

فى ثامن عشر رمضان وقعت فتنة بين العزب والمتفرقة وسببها أن رجلا من العزب يسمى محمد أفندى كان كاتب صغير فى باب العزب ثم عزل وتولى خليفة المقابلة بالديوان العالى فحصلت له تهمة فعزل عنها من المقابلة ثم عمل سردارا بثغر اسكندرية على طايفة العزب وعمل كتخدا القبطان وركب فى المراكب فأشيع أنه غرق فى البحر فحلوا اسمه وجميع تعلقاته التى فى باب العزب ثم ظهر خلاف ذلك وحضر الرجل الى الديوان وصحح تعلقاته جميعا التى بباب العزب ، وعجز عن بعض تعلقات خارجة عن تعلقاته التى بباب العزب وظهر له من العزب عدم اهتمام له ومساعدة فى استخلاصها فلما رأى ذلك منهم توجه الى بلك المتفرقة والتجأ اليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب ويأخذوه عندهم • وجعل يركب معهم فى كل ديوان ويمر من باب العزب فبينما هو ذات يوم طالع الى الديوان واذا بجماعة من العزب قبضوا عليه وحبسوه فى القلعة عندهم وبلغ الخبر الى المتفرقة وهم فى الديوان وكان محمد جاويش أمين بيت المال العزب وكان اذ ذاك وكيلا عن باش جاويش العزب لتمرضه فعاتبته جماعة المتفرقة على ما فعلوا جماعته فأغلظ عليهم فى الجواب فمسكوه من أطواقه وأرادوا ضربه فدخل بينهم المصلحون وخلصوه من بين أيديهم فنزل الى باب العزب وأخبرهم بما فعلت طايفة المتفرقة فاجتمع طايفة العزب ووقفوا

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ج ١ ، ص ص ٣٠ — ٣١ •

على باب العزب فلما مر أبطال وصارى وعلى واسماعيل بيك وجاوزوا باب العزب قامت عليهم طايفة العزب قومة واحدة وأنزلوا أبطال وصارى على من على الخيل وضربوهم الضرب الشديد وأخذوا جميع ما كان عليهم من القماش وتمزق صوف اسماعيل بيك ولم يراعوه ففر هاربا بالجواد فلما بلغ المتفرقة والصناجق ما فعله العزب اجتمعوا فى باب البنجشرية وأقاموا ثلاثة أيام الى أن وقع التوافق على نفي أربعة أنفار الذين كانوا سبب ذلك أحمد كتخدا العزب • ومحمد أمين بيت المال ، وشريف باش الأوضباشية ، محمد أفندى قاضى أوغلى ، وأنزلوهم فى مركب ونفوهم الى جرجة مع جماعة محافظين عليهم » (١) •

- الجبرتى :

وفي أواخر هذا الشهر وقعت فتنة بين العزب والمتفرقة وسببها ان شخصا من بلك العزب يسمى محمد أفندى كاتب صغير سابقا ثم بعد عزله تولى خليفة في ديوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بها من المقابلة ثم عمل سردارا بالاسكندرية على طايفة العزب ، وعمل كتخدا القيودات وركب فى المراكب وأشيع أنه غرق فى البحر ، حلوا اسمه ، وماله من التعلقات فى بابه وغيره ، وبعد مدة حضر الى مصر وطلع الى الديوان وصحح اسمه الذى فى العزب وجراياته وتعلقاته ، وبقى له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه وأهملوا أمره فتغير خاطره منهم وذهب الى بلك المتفرقة وانضم اليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب ويدخلوه فيهم ، وجعل يركب معهم كل يوم للديوان ، ويمر على باب العزب فبينما هو ذات يوم طالع الى الديوان اذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا على لجام فرسه وأنزلوه من على فرسه وحبسوه فى بابهم وبلغ الخبر المتفرقة وهم فى الديوان وحضر محمد أمين بيت المال فى العزب وكان فى ذلك اليوم نائبا عن باش جاويش لتمرضه فعاتبه جماعة المتفرقة على ما فعله جماعته فأغلظ عليهم فى الجواب فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه ، فدخل المصلحون وخلصوه من أيديهم فنزل الى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فلما مر عليهم اثنان من جماعة المتفرقة نازلين الى منازلهما وهما محمد الابدال وصارى على ، فلما حازياهم هجم عليهما طايفة العزب هجمة واحدة وضربوهما ضربا مؤلما ونزلوهما عن الخيل وشجوهما ونهبوا ما على الخيل من العدد وأخذوا ما عليهما من الملبوس ، فلما وصل الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وقعدوا فى باب البنكجرية وأنهوا أمرهم الى الاغوات والصناجق وأهل الحل والعقد واستمروا على ذلك ثلاثة أيام الى أن وقع التوافق على اخراج أربعة أنفار الذين كانوا سببا لاشعال نار الفتنة ونفيهم من مصر وهم ، أحمد كتخدا

---

(١) احمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ص ٨٤ - ٨٥ •

العزب ، ومحمد آمين بيت المال ، والشريف محمد باش أوده باشه ومحمد أفندى قاضى أوغلى الذى كان الباعث على ذلك فوافق على ذلك الجميع وصمموا عليه فسفروهم الى جهة الصعيد (١) » •

واضح تماما من النظرة الأولى للنصين أنه لا يوجد فرق بينهما ، لا فى التعبير ولا فى الألفاظ وترتيب ورودها فى الجمل • والفرق الوحيد الذى يلحظه القارىء أن الجبرتى يعمل فى بعض الأحيان قلمه لتهذيب بعض الألفـــاظ ، أو استعمال المصادر بدل الأفعال التى يستعملها أحمد شلبى •

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ج ١ ص ص ٣١ — ٣٢ •

خاتمـــــة

ان استمرار المقارنة بين نص أحمد شلبى فى أوضح الاشـــارات والذى يقع فى ٥٣٢ صـــفحة ، ونص عبد الرحمن الجبرتى فى عجـائب الآثـار الخاص بحوادث النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى حتى ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧م يوضح بصورة لا تقبل الشك أن عبد الرحمن الجبرتى حفظ عن طريق النقل ـ نص أحمد شلبى ، مع تهذيبه فى بعض المواضع ، بل انه التزم بترتيب العبارات والألفاظ فى معظم الأحيان ، ويكفى للباحث أن يرجع للنصـــين ويختار أحداث أية سنة شاء أو أى واقعة أراد ، فسيجد هذه الحقيقة واضـــحة لا تحتـاج الى برهان •

وهنا يجب أن نذكر للمؤرخ أحمد شلبى بن عبد الغنى فضله فى القاء كثير من الأضواء فى كتابه على كثير من وقائع التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، وبخاصة فى القرنين السادس عشر والســابع عشر ، فرغم كتابته المختصرة عن الفترة السابقة على عهده ، فانه سجل حقائق على قدر كبير من الأهمية ســكتت عنهـا المصادر الأخرى وأثبتتها الوثائق المعاصرة له ، ومن ذلك أنه يوضـــح أن أول فساد حدث فى العملة المصرية فى العصر العثمانى كان فى عهد على باشا الصوفى (٩٧١ ـ ٩٧٢ هـ) ١٥٦٣ ـ ١٥٦٥ م فيذكر : « وهو أول من أوقع الفســاد فى المعاملة لأنه أمر دار الضرب بالمقاطعة •• خلط النحاس الزائد على القانون ، وصار أمناء دار الضراب يخلطون فى المائة درهم ثلاثين درهما نحاسا ، فثقل الأمر وقامت الرعايا وكثرت اللصوص والمفسدون فلما وصل خبره الى الديار الرومية أتى الأمر بعزلانه (١) ، كما يتفق مع وثائق الروزنامة المحفوظة بدار المحفوظات بأن أول « مضـــاف » أى أول زيادة فى ضريبة الأراضى فى العصر العثمانى حدث فى عهد ابراهيم باشا البستانجى (١٠٧١ ـ ١٠٧٤ هـ ١٦٦٠ـ ١٦٦٣ م) فيقول « وجعل على الملتزمين مالا سماه المضاف على كل كيس خمسة آلاف نصف فضة » (٢) •

---

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ١١ •

(٢) نفسه ص ٤٢ •

ـ دار المحفوظات العمومية ، مخزن (١) تركى ، عين (١) دفتر الالتزام رقم (٢) •

ـ الكيسة كانت تساوى (٢٥٠٠٠) نصفه فضة •

وأحمد شلبي يسجل فساد بعض الأجهزة الادارية وتلاعبها ، فيذكر أنه في عام ١٠٨١ ـ ١٦٧٠ أحرقت الدفاتر الديوانية بعلم بعض رجال الادارة تمويها لبعض الاختلاسات والتلاعب بالأموال السلطانية ، فاستدعى كل من الروزنامجى وقايم مقام ويوسف بيك الى الديار الرومية وحوسبوا وظهر عليهم بعض متأخرات ، فأمر السلطان ببيع موجوداتهم وتسديد ما عليهم من متأخرات وحجزهم في دار السلطنة ، واضطر الوالى ابراهيم باشا على أثر هذا الحادث الى ضبط الخزينة من توت لتوت (١) كما اضطر أحمد باشا الدفتردار الى الاستغناء عن الصيارفة اليهود لخراب ذممهم والاستعانة بصيارفة من المسلمين، فيذكر : « ولما جلس فى الديوان أبطل اليهود الصرافين وأشرك معه صالح أفندى كاتب الحوالات ، وأقاموا لهم صيارف من تحت أيديهم من المسلمين (٢) ويسجل أحمدشلبى أن تقلد الوظائف الادارية الكبيرة فى مصر فى العصر العثمانى كان يأتى الأمر به من السلطان مباشرة ، وبخاصة المناصب الحساسة مثل : الدفتردار لأن الدفتردارية كانت تأتى من الديار العلية ، وكان يأتى بها أغا تحت الباشوية (٣) ٠

ويلقى أحمد شلبى ضوءا على بروز فئة التجار والدور الكبير الذى لعبوه فى حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، وكيف أن هذه الفئة استغلت رأس مالها فى نواح أخرى غير التجارة بهدف الربح والاستثمار ، فاستثمرته فى اقراض الناس بالربا ورهن البلاد من الملتزمين والأمراء ٠ ويذكر أن أول من أحدث الربا ورهن البلاد فى مصر داده الشرايبى ، وتبعه فى هذا المجال الخربطلية والعنتبلية ٠

هذه اشارات قليلة لبعض ما يذكره أحمد شلبى من نواح جديرة بالدراسة من تاريخ مصر فى العصر العثمانى ، فكتاب أحمد شلبى « أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » مصدر هام وجدير بالعناية والاهتمام ، لما فيه من تسجيل لوقائع تاريخ مصر منذ بداية الحكم العثمانى حتى ١١٥٠ هـ ـ ١٧٣٧م ، من النواحى : السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واذا كان الجبرتى قد اعتقد أن هذا الكتاب قد وقع فى صندوق العدم ، فحفظه لنا فى متن كتابه عجائب الآثار ، فقد شاءالقدر بدوره أن يحفظ هذا المصدر من العدم ٠

(١) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ص ٤٨ ـ ٤٦ ٠

(٢) نفسه ، ص ٥١ ٠

(٣) نفسه ، ص ١٤ ٠

عجائب الآثار ومظهر التقديس

"دراسة مقارنة"

للدكتور محمد محمود السروجي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب

جامعة الاسكندرية

شدت الحملة الفرنسية على مصر فى ختام القرن الثامن عشر انتباه كثيرون من اؤرخين من مصريين وأجانب ، وأطول المؤرخين المصريين باعا فى تاريخ تلك الحملة الشيخ عبدالرحمن الجبرتى .

ولقد لقيت كتابات الجبرتى عناية خاصة من قبل العلماء الأجانب المهتمين بدراسات الشرق من أمثال : ادوارد لين (١) E. W. Lane وفون كريمر (٢) A. Von Kremer وجب (٣) H. A. R. Gibb ، وبون H. Bowene ، هيوارث دن (٤) Heyworth Dunne ومكدونالد (٥) Macdonald ، ايالون (٦) D. Ayalon ودوريه (٧) S. Moreh

وأهمية كتابات الجبرتى عن الحملة الفرنسية ترجع الى أنه كان معاصرا لأحداثها ، بل مشتركا فيها ، تحرى الدقة فى الكتابة عنها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولم تكن مهمته كمؤرخ فى تلك الفترة المضطربة سهلة أو ميسورة .

---

(١) Lane, E. W. (Th.) : The Arabian Night's Entertainments, London, 1881.

(٢) Kremer, A. V. : Beitrage zur Arabischen Lexikographie, Wien, 1883-4.

(٣) Gibb, H. A. R. and Bowen, H. : Islamic Society and the West, vol. 1, Islamic Society in the eighteenth century, 2 parts, London, 1950, 1957.

(٤) Heyworth-Dunne, J. : An Introduction to the History of Education in Modern Egypt, London, 1938.

(٥) Macdonald, (art. « al-Djabardi » in Encyclopaedia of Islam, 1st ed., Leiden, 1913-34.

(٦) Ayalon : The Historian al-Jabarti and his Background. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. XXIII. part 2, 1965.

(٧) Moreh, S. : Reputed Autographs of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and related problems, BSOAS, XXVIII, part 3, 1965.

كما أن قيمته كمؤرخ تعود الى كونه أول من عمل على احياء حركة التأليف التاريخي في مصر ، بعد أن ضعفت الى حد كبير في القرون الثلاثة : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، فهو يعد بحق أول من استأنف كتابة تاريخ على نسق علمي واضح بعد ابن اياس وابن زنبل (١) .

وأهم مؤلفات الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » المكون من أربعة أجزاء ، ويليه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » (٢) وان كان للجبرتي مؤلفات أخرى لم يشر اليها في كتابه الكبير « عجائب الآثار » مثل مخطوط « مدة دخول الفرنسيس بمصر » أو « مدة الفرنسيس بمصر » (٣) وهو يشتمل على أحداث الأشهر السبعة الأولى للحملة الفرنسية بمصر ، ولم يشر الجبرتي كذلك للمختصر الذي دونه لكتاب « تذكرة أولي الألباب » لداود الانطاكي (٤) ، ولا لمؤلفه « الف ليلة وليلة » الذي أعاد كتابته بعد أن حذف منه العبارات النابية (٥) .

وتهمنا في هذا المقام المؤلفات الثلاثة لأولى بصفة عامة ، وهي «مدة الفرنسيس بمصر » ، و « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » ، والمؤلفان الأخيران بصفة خاصة ، وهما موضوع هذه الدراسة .

مراحل التأليف وتطوره :

اختلف الباحثون حول الترتيب الزمني للمخطوطات الثلاثة التي أشرنا اليها ، ولكن الدراسة التي قمت بها توضح أن الجبرتي قد مر في كتابته لتلك المخطوطات بمراحل أربع .

المرحلة الأولى : ترجمته لأعلام القرن الثاني عشر الهجري بتكليف من أستاذه أبي الفيض محمد مرتضى الزبيدي في عام ١٢٠٣هـ (١٧٨٩/٨٨م) ، واستمر في عمله هذا بناء على طلب من الشيخ محمد خليل المرادي ـ الى وفاة المرادي في سنة ١٢٠٦هـ حيث توقف عن الكتابة .

---

(١) عمر عبد العزيز : دراسة لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية ، ص ٤٢ .

(٢) يوجد مخطوط لمظهر التقديس بمكتبة جامعة كمبردج عنوانه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين » انظر :
Browne : A hand-list of Muhammadan Manuscripts, I, 207, No. 1058 (Qq 214).
وقد اختلف العلماء حول اعتبار هذا المخطوط مؤلفا مستقلا .

(٣) Von Landberge : Catalogue de manuscrits arabes provenant d'une bibliothèque privée à El-Médina, appartenant à la maison E.J. Brill, 1883, p. 21, No. 61.
انظر بحث د . مصطفى رمضان في هذا الكتاب .

(٤) Moreh, S. : Reputed autographs, BSOAS, vol. XXVIII, part 3, p. 524.

(٥) Lane, E.W. : The Arabian Nights, Note to Ch. i, p. 66.

المرحلة الثانية : وتبدأ بنزول الفرنسيين أرض مصر فى سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) حيث أخذ الجبرتى فى تدوين أحداث مخطوط « مدة الفرنسيس بمصر » ، واستغرق هذا العمل طوال وجود الفرنسيين بمصر أى الى سنة ١٢١٦ هـ . ثم كتابة « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » بناء على تكليف يوسف باشا الصدر الأعظم .

المرحلة الثالثة : وتبدأ فى عام ١٢٢٠ هـ حيث بدأ الجبرتى فى اخراج الجزءين الأولين من كتاب « عجائب الآثار » واعادة كتابة « مظهر التقديس » بعد أن تناوله بالتعديل مع اضافة أحداث السنوات من سنة ١٢١٦ هـ الى سنة ١٢٢٠ هـ ليصبح الجزء الثالث من « عجائب الآثار » .

المرحلة الرابعة : وفيها دون الجبرتى الجزء الرابع من « عجائب الآثار » ليضم أحداث السنوات من ١٢٢١ الى ١٢٢٦ هـ .

المرحلة الأولى :

سلك عبد الرحمن الجبرتى مسلك والده الشيخ حسن الجبرتى فى دراسة علوم الدين ، وفى أن يخلفه فى التدريس بالجامع الأزهر ، واهتم الى جانب دراسته الدينية بعلوم الفلك والرياضيات مثل والده . ولم يكن من اهتماماته كتابة التاريخ ، الى أن نزل بأرض مصر السيد أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدى صاحب كتاب « تاج العروس فى شرح القاموس » ، وهو من كبار علماء عصره ، فأسند الى الجبرتى فى سنة ١٢٠٣ هـ كتابة تراجم أعلام القرن الثانى عشر من مصريين وحجازيين . وكان الشيخ الزبيدى قد كلف بهذا العمل من قبل الشيخ محمد خليل المرادى الحسينى مفتى دمشق (١) . وباسناد تلك المهمة الى الجبرتى انصرف الى كتابة التراجم والتاريخ حتى أصبح أعظم مؤرخى عصره .

وبينما كان منهمكا فى انجاز ما كلف به توفى الزبيدى سنة ١٢٠٦ هـ ، فتوقف عن البحث والتدوين ، ولكن مالبث أن وصلته رسالة من المرادى يطلب فيها ارسال ما كتبه الجبرتى والزبيدى من تراجم .

وتمكن الجبرتى فى ذلك الوقت من شراء ما خلفه الزبيدى من كتب بما فيها « المعجم المختص » الذى يشتمل على التراجم التى دونها الزبيدى فى عشر كراريس ، مرتبة على حروف الهجاء . ويعلق الجبرتى على هذا المعجم بقوله : « الا أن الكراريس المذكورة لم تكمل ، وترك فى الحروف بياضات كثيرة ، وغالب ما فيها آفاقيون من أهل المغرب ، والروم والشام والحجاز والسودان ،

---

(١) **الجبرتى : عجائب الآثار** (ترجمة المرادى) جـ ٢ ص ٢٤٨ .

والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم .. » (١) .

وفي خلال جمعه وترتيبه لتلك التراجم « دون الأخبار والوقائع » (٢) ، فوجيء الجبرتي بوفاة الشيخ المرادى (سنة ١٢٠٦ هـ) وفي هذا يقـــول : « ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق في زوايا الاهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع » (٣) .

ومعنى ذلك أن الجبرتي قد انقطع عن الكتابة (التراجم) بعـــد سنة ١٢٠٦ هـ ، ولم يعد اليها في شكلها الجديد ، أي كتابة المذكرات اليومية الا في سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) وقت نزول الحملة الفرنسية أرض مصر (٤) .

المرحلة الثانية :

أغرى مجيء الحملة الفرنسية الى أرض مصر الجبرتي على معاودة الكتابة من جديد ، وفي صورة جديدة تؤرخ لأحداث مصر في عهد الحملة على هيئة يوميات ، وأول كتاب أقدم الجبرتي على تدوينه على هذا النحو مخطوط « مدة الفرنسيس بمصر » الذى يتناول أحداث الاحتـــلال الفرنسى من ١٠ المحرم سنة ١٢١٣ هـ (٢٥ يونيو ١٧٩٨) وينتهى بأحداث نهاية شهر رجب سنة ١٢١٣ هـ (ديسمبر ١٧٩٨) (٥) . ومن الواضح أنه كتب أثناء مجرى الأحداث بمصر ، وذلك لاحتوائه على تفاصيل أوفى وأهم مما جاء « بمظهر التقديس » أو « عجائب الآثار » عن نفس الفترة (٦) .

واذا كان مخطوط « مدة الفرنسيس » قد تناول أحداث الشهور السبعة الأولى للحملة بشيء من الاسهاب والتفصيل ، الا أنه لا يؤرخ لكل فترة الحملة ، ولذا جاء كتاب « مظهر التقديس » ليملأ هذا الفراغ .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٩ وهذا يخالف ما استنتجه موريه Moreh في بحثه Reputed autographs المنشور في BSOAS المجلد ٢٨ الجزء الثالث حاشية ص ٥٣٦ من أن الجبرتي جمع مادة تاريخية الى جانب التراجم في تلك الفترة .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٤) محمد أنيس : الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ المجلد الثامن عشر ـ الجزء الاول مايو ١٩٥٦ .

انظر أيضا :

Ayalon : The historian al-Jabarti and his background, BSOAS, vol. XXIII, 2 pp. 227-228.

(٥) Moreh : Reputed autographs, BSOAS, XXVIII, Part 2, p. 532.

(٦) المصدر السابق ؛ ص ٥٣٥ ـ يحتوى مخطوط المدة على ٤١ فقرة بها تفاصيل أهم وأكثر وتوضح كثيرا من النصوص المبهمة في الكتابين الآخرين .

ومما يدل على أن مخطوط « مدة الفرنسيس » كان أول عمل يقوم الجبرتى بتدوينه أنه ذكر فى مقدمة كتابه « مظهر التقديس » قوله : « ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع ، من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر الى أن دخلها مولانا الوزير (يقصد يوسف باشا) » (١) • فمما لا شك فيه أن مخطوط « مدة الفرنسيس » كان يمثل جزءا مما سجله الجبرتى من أحداث •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الجبرتى عندما كلف من الصدر الأعظم بكتابة تاريخ فترة الاحتلال الفرنسى لمصر ، بدأ فى كتابته فى شهر صفر سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠٢م) ، وانتهى منه فى شهر شعبان عن نفس السنة ، أى أن تأليف الكتاب قد استغرق ستة شهور وهى مدة وجيزة ، نظرا لما يحتويه الكتاب من تفاصيل • ولن يتيسر هذا للجبرتى الا اذا ضم فى « مظهر التقديس » ما كتبه فى « مدة الفرنسيس » مع اختصار تفاصيله ، لا سيما وأن أحداث الشهور الأولى من الحملة كانت كثيرة •

وبذلك يمكننا القول بأن الجبرتى قام فى خلال تلك المرحلة بعمليتين هامتين هما : ترجمة أعيان القرن الثانى عشر الهجرى ، وكتابة تاريخ كامل فى شكل مذكرات يومية لأحداث مصر فى فترة الاحتلال الفرنسى (٢) •

وقد عزا أحد الأشخاص ويدعى (الشيخ ابراهيم بوركهارت) سبب تدوين الجبرتى لمخطوط « مظهر التقديس » فى ملحوظة كتبها على الجانب الأيسر من صفحة العنوان للنسخة التى اشتراها من المؤلف ، والمحفوظة بمكتبة جامعة كمبردج حيث يقول : « وكان الشيخ الجبرتى أحد من علماء الديوان الذى نصبوه الفرنسيس فى مصر فهو رجل ماهر فى علوم الأدب وعلم الفلك والميقات ، فحيثما كان يعاشر علماء الفرنسيس وقت قيامهم فى القاهرة خاف على نفسه من بعد ذهابهم وألف هذا الكتاب ليبرى ذمتـــه وليظهر محبته الى الدولة العالية » (٣) •

المرحلة الثالثة :

بدأ الجبرتى فى هذه المرحلة من التدوين ــ وفى عام ١٢٢٠ هـ على وجه التحديد ــ فى جمع المادة التاريخية لكتابه « عجائب الآثار » ، ولا سيما الجزءين الأول والثانى منه ، اللذين سيتناولان تاريخ مصر فى ظل الحكم العثمانى حتى مجىء الفرنسيين • ويوضح فى مقدمة (٤) الكتاب الصعوبات التى واجهته فى

---

(١) الجبرتى : مظهر التقديس ــ طبعة محمد عطا ج ١ ص ٢٠ •
(٢) محمد أنيس : المصدر السابق •
(٣) الجبرتى : عجائب الآثار ج ١ المقدمة •
(٤) أنظر : Moreh المصدر السابق ص ٥٢٩ •

كتابة تاريخ تلك الفترة لخلوها من المصادر • ويبين بأنه بعد بحث واستقصاء عثر على مصدرين ، أحدهما يتكون من كراسات كتبها بعض العامة من الأجناد ، والثاني لمؤلف يدعى أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أرخ لمصر من الفتح العثمانى الى عام ١١٥٠ هـ (١) • وقد نعتها الجبرتى بالركاكة وسوء الترتيب •

أما الفترة السابقة لعام ١١٧٠ هـ فقد لجأ الجبرتى الى الاعتماد على رواية المسنين وعلى دفاتر المكتبة ونقوش المقابر للحصول على المعلومات التاريخية • أما أحداث الفترة التى تبدأ بعام ١١٧٠ هـ فقد شاهدها الجبرتى ووعاها وأسهم فيها •

أما الجزء الثالث من « عجائب الآثار » فكانت نواته ما دونه فى « مظهر التقديس » بعد أن تناوله بالتعديل ، وبحذف ما كتبه الشيخ العطار من أشعار ، مع اضافة أحداث السنوات من ١٢١٦ هـ الى ١٢٢٠ هـ •

ويحاول الدكتور محمد أنيس تفسير الباعث النفسى الذى أشار اليه الجبرتى (٢) والذى دفعه الى كتابة « عجائب الآثار » على النحو السابق فى عام ١٢٢٠ هـ ، بأنه « رغبة الجبرتى فى أن يغير موقفه من الأحداث التى مرت بمصر منذ الغزو الفرنسى حتى ١٢٢٠ هـ (٣) » مدفوعا بخيبة الأمل التى أصابت الجبرتى بعد عودة العثمانيين ، وانتشار الفوضى والاضطراب مدركا بأن الحكم الفرنسى لمصر لم يكن شرا كله ، وأن الحكم العثمانى لم يكن خيرا كله ، بل ربما كان الحكم الفرنسى يفضله من بعض الوجوه • ولذا فقد أراد أن يعيد موقفه من أحداث تلك الفترة بعيدا عن العاطفة ، وبنظرة المؤرخ القائمة على الموضوعية والبعد عن الهوى •

ويعبر الجبرتى عن هذا المعنى أصدق تعبير فيما ذكره بهذا الخصوص فى مقدمة الكتاب حيث يقول : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى » (٤) •

المرحلة الرابعة :

بعد أن فرغ الجبرتى من كتابة الجزء الثالث الخاص بأحداث الحملة الفرنسية أفرد الجزء الرابع لأحداث الفترة الأولى من حكم محمد على والتى تمتد من سنة ١٢٢١ هـ الى سنة ١٢٣٦ هـ ، فجاء على عجل ، ولم يكن للجبرتى

---

(١) انظر بحث « د• عبد الرحيم عبد الرحمن فى هذا الكتاب » •

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢٤٩ .

(٣) محمد أنيس : المصدر السابق .

(٤) الجبرتى : المصدر السابق جـ ١ المقدمة .

متسع من الوقت لمراجعته أو تنقيحه ، نظرا للظروف الصعبة التي أحاطت به فى أخريات أيامه • لاعتزاله الحياة العامة ومرضه ، والتى عبر عنها أصدق تعبير فى أحداث سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠) اذ يقول : « وانقضت السنة بحوادثها التى قصصنا بعضها ، اذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور ، وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة ، وزيادتهم ونقصهم فى الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف ، وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ، ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها ان شاء الله عند تهذيب هذه الكتابة ، وكل هذا من تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن •• » (١) •

وبناء على تلك المراحل التى مر بها الجبرتى فى تدوينه لمؤلفاته الثلاثة ، يمكننا القول بأن أول عمل دونه الجبرتى هو مخطوط « مدة الفرنسيس بمصر » ، وكان ذلك فى حوالى سنة ١٧٩٨م تحت الاحتلال الفرنسى لمصر • وعمله الثانى كان « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ، وقد فرغ منه فى نهاية شعبان سنة ١٢١٦ هـ (ديسمبر ١٨٠١ م) وحرره بشىء من العجلة لرغبة الصدر الأعظم ، وحتى يبرىء نفسه من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين •

أما العمل الثالث والأخير ، فهو « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » فى سنة ١٢٢٠ هـ ــ ١٢٢١ هـ (١٨٠٥ ــ ١٨٠٦ م) •

دراسة لمظهر التقديس بذهاب أو (بزوال) دولة الفرنسيس :

يوجد من هذا المخطوط بدار الكتب المصرية نسختان : احداهما بخط أحمد رزق النساخ ، والأخرى ناسخها غير معروف •

أما خارج مصر فتوجد عدة مخطوطات ، فى بريطانيا ، وهولندا ، وتركيا ، والهند • بعضها بخط المؤلف نفسه ، وبعضها الآخر بقلم نساخ آخرين •

وقام محمد عطا بنشر هذا المؤلف تحت عنوان : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ــ « يوميات الجبرتى » فى جزءين ، ضمن مجموعة (اخترنا لك) فى القاهرة سنة ١٩٥٨ •

الجزء الأول ــ ويبدأ بعد مقدمة تاريخية سريعة ــ بأحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وينتهى عند أحداث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٤ هـ •

---

(١) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٣٢ •

أما الجزء الثانى – فيبدأ بأحداث شهر رجب سنة ١٢١٤ هـ ، وينتهى بأحداث شهر شعبان سنة ١٢١٦ هـ •

ويشير الناشر فى مقدمة الكتاب بأنه اعتمد فى نشره على « النسخ الخطية المستعارة من دار الكتب المصرية » (١) دون أن يدلى بأية تفصيلات عن تلك النسخ •

ومن الدراسة المقارنة التى أجراها موريه (٢) Moreh بين المخطوطات الأربعة ، والنسخة المطبوعة بمعرفة محمد عطا ، اتضح له أن نصوص مخطوطات مكتبة بايزيد ومكتبة رامبور ، ومكتبة المتحف البريطانى يطابق بعضها بعضا كلمة بكلمة •

أما مخطوط كمبردج ، فلا يشتمل على نفس النص ، لأن بعض فقراته ناقصة • وبناء على هذا فان نصوص مخطوطات رامبور وبايزيد والمتحف البريطانى أكثر صحة ، وأقل اقتضابا من مخطوط كمبردج • كما أن هذه المخطوطات الثلاثة – وان كانت تتفق مع طبعة محمد عطا – الا أنها أقل منها أخطاء ، وأقل فى سجعها ، وسوء استخدام الألفاظ فيها عما جاء بطبعة محمد عطا • هذا بالاضافة الى أن طبعة محمد عطا تشتمل على تفصيلات أكثر مما فى مخطوط كمبردج ، لكل هذه الأسباب مجتمعة استنتج موريه بأن المخطوط الذى نقل عنه محمد عطا كان مسودة للنص الثانى لهذا الكتاب (٣) •

وفى عام ١٩٦١ قام الأساتذة : أحمد زكى عطية ، عبد المنعم عامر ، محمد فهمى عبد اللطيف ، بنشر هذا الكتاب بعد تحقيقه تحت عنوان : « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » فى جزءين ، الأول ويبدأ بأحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣ هـ وينتهى بوقائع شهر رجب سنة ١٢١٤ هـ • والثانى يبدأ بأحداث شهر شعبان سنة ١٢١٤ هـ (٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٩) ويقف عند شهر شعبان سنة ١٢١٦ هـ (٧ ديسمبر سنة ١٨٠١) •

ويشير الناشرون الى أنهم قد اعتمدوا فى اخراج هذا الكتاب على ثلاثة مخطوطات : المخطوط الأول محفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٠٤١م تاريخ ، وناسخه مجهول ، وهو أقدم النسخ ، وأوراقه كاملة •

والثانى بدار الكتب أيضا تحت رقم ٣٣٠ تاريخ ، وناسخه أحمد رزق •

وقد بذل الناشرون المحققون جهدا فى شرح الألفاظ المستغلة والاصطلاحات

---

(١) الجبرتى : مظهر التقديس .. نشر محمد عطا جـ ١ ص ٦ •

(٢) Moreh : Ibid., p. 535.

(٣) المصدر السابق •

العامية التي كان يؤثرها الجبرتي ، وفي بيان معاني العبارات التي ترجع أصولها الى اللغات : التركية أو الفرنسية أو الفارسية ·

وقد اعترف الناشرون بأنهم لم يمسوا أسلوب الجبرتي نفسه ، أو عبارته التي تحوي بعض الأخطاء النحوية ، حرصا منهم على أن يجيء الكتاب صورة لأسلوب عصره ·

ويعلل هؤلاء وجود الأخطاء النحوية بعدم جهل الجبرتي بها : « ولكنه رأى أن يكون قريبا من العامة في تعبيره ، فآثر أن تبقى أخطاؤهم في تعبيرهم وفي كتابه » (١) ·

أهمية الكتاب :

يعتبر هذا الكتاب ـ دون شك ـ وثيقة تاريخية هامة بالنسبة لفترة من أخطر فترات مصر · والدارس المتعمق لهذا الكتاب يلاحظ أن به نقاط قوة ، وبعض نقاط ضعف ، ويمكننا أن نجمل أوجه القوة فيما يلي :

أولا : احتواء الكتاب على مجموعة كبيرة من المنشورات والبيانات والمكاتبات الرسمية التي أصدرتها سلطات الاحتلال الفرنسي بمصر · وهذه الوثائق الرسمية التي يقدمها لنا الجبرتي لا يمكن الحصول عليها الا من دار الوثائق الفرنسية ·

ثانيا : أن تدوين الجبرتي لتاريخ تلك الفترة على هيئة يوميات قد أعطانا الكثير من التفصيلات التي لا يمكن الحصول عليها لو كتب تاريخه في شكل موضوعات ·

ثالثا : بذل الجبرتي الكثير من الجهد لتقصي الحقائق ، وتحري الدقة فيما يرويه من أحداث ، في وقت ساد فيه الجهل والفقر والاضطراب وغلبة الشائعات ·

رابعا : ظهور شخصية الجبرتي فيما يكتبه ، فيشرح ويفصل ، ويبدي رأيه فيما يقول وفيما يسمع ·

خامسا : اذا قارنا هذا الكتاب بما كتبه معاصروه عن نفس الموضوع لوجدنا بينهما فارقا كبيرا ، فكتابات الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ المهدي الكبير ، ونقولا ترك اللبناني الأصل ، أقل قيمة من مظهر التقديس ، نظرا لعدم تعمق الأولين ، ولانحياز الثالث للفرنسيين ·

---

(١) الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ـ نشر أحمد زكي عطية ، وآخرين، جـ ١ (المقدمة) ·

سادسا : حرص الجبرتى على كتابة تاريخ تلك الفترة من أفـــواه عامة الشعب ، فدون بأمانة ما كان ينادى به الشعب بأسلوبه ولغته • ولم يقم وزنا ــ وهو من رجال اللغة العربية ــ للأخطاء النحوية أو اللغوية •

سابعا : تأثر الجبرتى بأسلوب المقريزى فى اهتمامه بتدوين كل ما يتصل بالمكاييل والموازين ، وأسعار حاجيات المعيشة ، وغيرها مما يهم الدارســـين للنواحى الاقتصادية •

ثامنا : حرصه الشديد على تدوين اصطلاحات أصحاب الحرف والصناعات ، وما اصطلحوا عليه من ألفاظ •

أما عن نقاط الضعف فى هذا الكتاب فيمكن اجمالها فيما يلى :

أولا : ان البحث فى هذا النوع من الكتابة (فى شكل يوميات) شاق وعسير ، فالباحث الذى يجمع مادة لموضوع معين ، عليه أن يتتبع هذا الموضوع فى كل ما كتبه الجبرتى من يوميات لا سيما اذا كان يمتد لفترة طويلة ــ لجمع شتات مادته •

ثانيا : تفاوتت كتابته قوة وضعفا ، تبعا للموضوع الذى يعالجه • فاذا كتب عن المعارك والمواقع آثر السجع مع قوة البيان • أما اذا انغمس فى كتابة التفصيلات فان لغته تقرب الى لغة العامة منها الى لغة المؤرخ •

ثالثا : ظهور عاطفته فى ثنايا كتاباته ، واذا ظهرت العاطفة توارت النظرة الموضوعية •

رابعا : اسراف الجبرتى فى مدح العثمانيين ، ويعزو بعض الكتاب هذا الى أنه كان مكلفا بكتابة تاريخ تلك الفترة بتكليف من الصدر الأعظم ، فوجد نفسه مضطرا الى مجاملة العثمانيين • وقد كوفىء على هـــذا العمل مكافأة سخية •

ويرجع البعض الآخر هذا الاسراف الى اعتقـــاد الجبرتى بأن خروج الفرنسيين وعودة العثمانيين سيؤدى الى استقرار الأمور ، وتحسين الأحوال الاقتصادية التى ساءت فى أواخر أيام الحملة الى حد كبير • ومادرى الجبرتى أن السنوات الأربع التى تلت خروجهم من مصر ستكون من أحلك فترات حياتها • وسيدعوه هذا الى اعادة النظر فيما كتبه •

وفريق ثالث أرجعه الى خشية الجبرتى من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين ، بصفته أحد أعضاء الديوان الذى أنشأه مينو ، فأراد أن يبرىء نفسه من هذا الاتهام عن طريق الاسراف فى مدح العثمانيين وذم الفرنسيين •

خامسا : ورود كثير من ألفاظ السباب للفرنسيين مثل : شرار الأشرار ، الكفار ، اللعين ، وغيرها ٠

ونظرا لاهتمام الدولة العثمانية بهذا الكتاب فقد كلف السلطان العثماني ، مصطفى بهجت كبير أطبائه بترجمته الى اللغة التركية (١) ، وبدأ هذا العمل فى المحرم سنة ١٢٢٢ (مارس سنة ١٨٠٧) وانتهى منه فى ربيع أول سنة ١٢٢٥ (أبريل سنة ١٨١٠) ٠ ومهما يكن من شيء فمظهر التقديس وثيقة تاريخية هامة لا غنى عنها ، رغم وجود الجزء الثالث من عجائب الآثار ٠

دراسة لعجائب الآثار فى التراجم والأخبار :

يعتبر كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار من أكبر أعمال الجبرتى ومن أعظمها شأنا ، واستحق ما وصفه به الأستاذ مكدونالد فى دائرة المعارف الاسلامية بأنه أعظم تواريخ مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين ، أى القرنين الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين (٢) ٠

يوجد من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية احدى عشرة مخطوطة ، بعضها كامل ، وبعضها الآخر يمثل أجزاء ناقصة (٣) ، وبالمكتبة الأزهرية نسختان ٠ كذلك توجد عدة نسخ منه فى العراق ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وهولندا ، والاتحاد السوفييتى ، والهند ٠

وقد طبع هذا الكتاب بمصر عدة مرات ٠

وبمقارنة الأستاذ موريه (٤) لطبعة بولاق ، بمخطوطات كمبردج ، ودار الكتب الأهلية بباريس ، والمتحف البريطانى نجد أن هناك فقرات عديدة فى طبعة بولاق غير موجودة فى المخطوطات المذكورة ٠ هذا فضلا عن وجود اختلافات كثيرة فى الأسلوب والقواعد بين هذه المخطوطات وطبعة بولاق ٠

ومن المرجح أن ناشر طبعة بولاق قد استخدم عدة مخطوطات لعجائب الآثار ، ولكنه لم يذكر ما اذا كان أحدها بخط المؤلف ٠

---

(١) يوجد ميكروفيلم للمخطوط المترجم بواسطة مصطفى بهجت بالمكتبة الأهلية بفينا ، انظر :

Die arabischen, persischen und turkischen handschiften der kaiserlich-Koniglichen Hofbibliothek zu Wien, Wien, 1865-7, II, p. 316, Nr. 1144.

ويذكر الاستاذ موريه Moreh بانه استطاع بمساعدة الدكتور حسين اطاى من جامعة أنقره فحص المخطوط المصور ووجد انه ملخص مترجم لمظهر التقديس ، كتب بأسلوب تركى بليغ ومعه مقدمة كتبها المترجم عن الثورة الفرنسية وتطورها الى احتلال الفرنسيين مصر ٠

(انظر حاشية ص ٥٣٩ لمقال موريه فى BSOAS, XXVIII, Part 3.

(٢) Macdonald, (art. al-Djabarti) E. I., vol. I, p. 986.

(٣) انظر البحث الذى تقدم به الاستاذ محمد رشاد عبد المطلب عن « مؤلفات الجبرتى مخطوطة ومطبوعة » لندوة « عبد الرحمن الجبرتى وعصره » والمنشور فى هذا الكتاب ٠

(٤) موريه : المصدر السابق : ص ٥٣٤ ٠

واتضح من المقارنة أيضا أن نصوص طبعة بولاق • ونصـــوص بعض المخطوطات التى أشار اليها فى الهامش ، تبين أن بعض المخطوطات التى كانت لدى الناشر تضم نصوصا مختلفة ، وأن ببعضها بيانات أكثر من البيانات الموجودة بمخطوطات كمبردج •

كذلك بينت الدراسة المقارنة أن الناشر لطبعة بولاق قد صحح بنفسه الأخطاء النحوية والأسلوب الركيك وحتى النصوص والوثائق التى نقل منها الجبرتى بدقة ، رغم تأكيده بأنه نقل بأمانة ما دونه الجبرتى ، وكذلك النصوص والوثائق التى نقل عنها المؤلف •

أهمية الكتاب :

لا شك أن كتاب « عجائب الآثار » يحتل منزلة خاصة بين المؤلفات التى ارخت لمصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص • ويمكننا أن نوضح وجوه الأهمية فى النقاط التالية :

أولا : أبدأ بما كتبه أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال فى تقديمه (١) للطبعة الجديدة للكتاب ، اذ يقول ، ان هذ الكتاب « فى ذاته أثر فنى رائع ، وروعته ليست فى اكتمال الصنعة أو تمام الصقل ، بل هى فى انتقال الكتاب لقرائه على النحو الذى نما به فى يد المؤلف ، فهو تقييدات بنت ساعتها ، وهو وثائق وروايات مسجلة بنصوصها وعربيتهـــا وأعجميتها ، وهو قطع منمقة ، وهو خواطر تسنح ، والعجيب أن ذلك كله لا يتنافر ، بل تنسجم عناصره المتباينة فى تركيب متوزان ، وينتقل القارىء من متن الى متن — ان صح القول — دون أن يضطرب انتباهه أو ينفر من الكتاب ، وقد يرجع هذا الى أن الجبرتى أضفى على المادة من شخصيته ما أكسبها هذا الانسجام العجيب ، أو لأن الجبرتى (رجل فن) عرف كيف يخفى الصنعة بتجنب مظاهر الصنعة » •

ثانيا : تأريخ الحياة الاجتماعية فى مصر من الخصائص التى يكاد ينفرد الجبرتى بالعناية بها ، واهتمامه بها كبير ، كما وكيفا • وهى من الميزات البارزة التى تجعل لتاريخه أهمية خاصة • ولم تغب هذه الحقيقة عن أذهان المؤرخين الأوربيين ، فذكرت دائرة المعارف الاسلامية « أن هذا التاريخ ، له أهميـــة اجتماعية كبيرة ، لأنه صورة مفصلة عن حياة الشرقيين • وقد أفاد منه لين وهو يعلق على الطبعة التى أخرجها من ألف ليلة وليلة » (٢) •

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار (الطبعة الجديدة) جـ ١ المقدمة ص ٢ •

(٢) Macdonald, D.B. (Art. Djabarti), Encyclopaedia of Islam, vol. I, p. 986.

ثالثا : ملاحظته القوية للتطورات التى حدثت نتيجة لوجود الفرنسيين الغربيين المسيحيين فى مجتمع شرقى اسلامى له تقاليده المغايرة تماما لتقاليدهم . ومن أبرز ما سجله تأثر بعض النساء المصريات بالفرنسيات ، فعرفت القاهرة الاختلاط العلنى بين الرجل والمرأة ، فيذكر فى هذا الصدد أن الفرنسيين أنشئوا متنزها بالأزبكية ، ويصفه بأنه عبارة عن « أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة ، فى أوقات مخصوصة . وجعلوا على كل من يدخل قدرا مخصوصا يدفعه أو يكون مأذونا وبيده ورقة » (١) .

رابعا : عرفت القاهرة لأول مرة المسرح والتمثيل ، ولم يفت الجبرتى تسجيل هذه الظاهرة فيقول بأن هذا المكان يؤمه الناس ليشاهدوا « ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلى والملاهى » (٢) .

خامسا : ادراك الجبرتى لقيمة العلم وأهمية الأجهزة العلمية التى جاءت مع علماء الحملة ، ووصفه للتجارب العلمية التى أجريت أمامه وصفا دقيقا دون أن يدرك كنهها ، فيقول : « ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فغلى الماءان ، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه .. وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القربانة (البندقية) انزعجنا منه ، فضحكوا منا » (٣) .

سادسا : تصويره للصراع الدموى بين المماليك الذين حكموا مصر فى ظل السيادة العثمانية ، والذى طبع تاريخ البلاد فى تلك الفترة بطابع خاص ، وقد دمغ الصراع بينهم تاريخ مصر خلال القرن الثامن عشر بطابع العنف ، اذ اشتدت بينهم الخصومة ، وحدثت بينهم معارك كثيرة أضرت بالبلاد ضررا بليغا ، وفى هذا المعنى يقول الجبرتى : « فكم ضربت بلاد ، وقتلت أمجاد ، وهدمت دور ، وأحرقت قصور ، وسبيت نساء ، وقهرت أخيار » .

سابعا : أضافت التراجم التى اهتم بها الجبرتى مادة تاريخية جديدة أكملت بعض النقص فى الجوانب التاريخية أثناء سرده لأحداث مصر . ومن هذه التراجم نستطيع أن نتعرف على حياة الجبرتى نفسه ، بل فى تراجمه للعلماء

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار (الطبعة القديمة) جـ ٣ ص ٣٤ .

(٢) محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى جـ ١ ص ١٧٩ .

(٣) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٥ .

الذين تتلمذ عليهم أو الذين عاصرهم ، أو اختلط بهم ، يعطينا صورة واضحة وصادقة للبيئة العلمية فى مصر ·

ثامنا : استطاع الجبرتى أن يصور أصدق تصوير أنواع المظالم التى عاناها شعب مصر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من الحاكم المستبد الجاهل ، وموقف المصريين ومقاومتهم لهؤلاء الحكام البغاة · وكيف كان شيوخ الأزهر وسطاء لوقف طغيان المماليك · وكيف كان يحتل الأزهر مكانة مرموقة فى الحياة المصرية ·

وفى ثنايا كتاباته نلمس تتبعه لأصداء ثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية فى الأقاليم ، وما أظهره شعب مصر من ضروب المقاومة فى كل مكان وبشتى الوسائل ·

ونظرا لأهمية هذا الجزء من الكتاب بالنسبة لفرنسا ، قام كردان Cardin مترجم القنصلية الفرنسية بمصر فى عام ١٨٣٨ بترجمته الى اللغة الفرنسية ترجمة تحتوى على الكثير من الأخطاء وذلك تحت عنوان :

Journal d'Abdurrahman Gabarti, pendant l'occupation française en Egypte, suivi d'un précis de la même campagne, par Mou'allem Nicolas El-Turki, secrétaire du prince des Druzes : Traduits de l'Arabe, par Alexandre Cardin, drogman chancelier du Consulat Général de France en Egypte, edited by T.X. Bianchi, Paris, 1838.

والحق بالترجمة خلاصة لتاريخ المعلم نقولا الترك عن نفس الفترة ، والمسمى « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية » .

وقد ظن بعض العلماء والكتاب خطأ أن كردان قد ترجم « مظهر التقديس » وليس الجزء الثالث من عجائب الآثار · ويبدو أن مصدر هذا الخطأ الأستاذ فون كريمر Von Kremer فهو أول من نادى بهذا (١) الرأى ، وتبعه علماء آخرون من أمثال : بروكلمان (٢) ، وسركيس (٣) ، والدكتور الشيال (٤) ، وماكدونالد (٥) وخليل شيبوب (٦) ·

وفى الحقيقة ، اذا قارنا ترجمة كردان الفرنسية بنص « مظهر التقديس » نجد أنها ترجمة ناقصة وغير دقيقة ومقتضبة ، وتشتمل على فقرات لا وجود لها فى مظهر التقديس ، ولا فى « مدة الفرنسيس بمصر » ، وانما توجد فى الجزء الثالث من عجائب الآثار ·

---

(١) موريه : المصدر السابق ص ٥٣٧ ·

(٢) Gal, II, 2nd ed., p. 632.

(٣) سركيس : معجم المطبوعات ، عامود ٦٧٦ ·

(٤) جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر ص ٢٦ ·

(٥) Macdonald, (art. al-Djabarti E.I., first ed., p. 986.

(٦) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ، ص ١١٢ ·

زد على ذلك ، أن أحداث مظهر التقديس تقف عند ٥ شعبان سنة ١٢١٦ هـ بينما ترجمة كردان تنتهي عند أحداث ١٠ شوال سنة ١٢١٦ هـ وهو تاريخ نهاية أحداث الجزء الثالث من عجائب الآثار • ومن ثم فترجمة كردان هي لهذا الجزء من الكتاب •

ومن الطريف أن نعلم أن السبب الذى دفع كثيرين من الكتاب الى الظن بأن ترجمة كردان هي لمظهر التقديس ، أن كردان أعطى لترجمته عنوانا لا يدل حقيقة على اسم الكتاب المترجم • هذا فضلا عن أن كردان ذكر فى فاتحة الكتاب فقرة من مقدمة مصطفى بهجت فى ترجمته التركية بعنوان « مظهر التقديس بخروج طائفة الفرنسيس » وهي التى ترجمها كردان الى :
Délivrance de l'Egypte par la sortie de la nation française.

ويبـــدو أن كل الذين كتبوا عن الترجمة الفرنســية قد ضللتهم تلك الملابسات •

وهناك ترجمة روسية لهذا الجزء أيضا قام بها الأستاذ I. M. Fil'shtinisky مع مقدمة وتعليقات •

أما الجزء الرابع والأخير من عجائب الآثار فخاص بالفترة الأولى من حكم محمد على الى العشرينات من القرن التاسع عشر • ويؤرخ فيه الجبرتى للأحداث الهامة التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر ، والتى اتســمت بالصراع بين القوى التى ظهرت على المسرح ، الى أن تمكن محمد على بتأييد من رجال مصر وعلى رأسهم السيد عمر مكرم من أن يتولى حكم البلاد •

وهذا الجزء ــ من وجهة نظرى ــ أضعف أجزاء الكتاب ، وذلك لأسباب خارجة عن ارادة مؤلفه • فنظرا للعداء الذي استحكم بين محمد على والجبرتى فقد ابتعد الأخير عن الحياة العامة ، فلم يشترك فيها ، وعاش سنواته الأخيرة حبيسا فى داره •

ويرى بعض (١) الكتاب أن يد العبث قد امتدت الى هذا الجزء من الكتاب بالحذف بعد موت الجبرتى ، مستدلين على ذلك من العبارات المبتورة ، ومن بعض الفصول التى جاءت مضطربة ومقتضبة ، مما لا يتفق مع طريقة الجبرتى • ولكنى لا آخذ بهذا الرأى فمن المحتمل أن يكون هذا الاضطراب البادى فى كتابته يرجع الى كبر سنه ، والى مرضه وعدم قدرته على مراجعة وتنقيح ما كتب كما أشرنا الى ذلك فى موضع سابق •

وقد قامت لجنة من أربعة أساتذة بترجمة الكتاب كله ترجمة كاملة ودقيقة • وتتكون من ، شفيق منصور بك ، وعبد العزيز خليل بك ، وجابرييل نقولاسى

(١) الجبرتى : مظهر التقديس ج ١ مقدمة المحققين ص ١٢ •

خليل بك ، واسكندر عامرن أفندى ، وذلك فيما بين عامى ١٨٨٨م ، ١٨٩٦م ، تحت عنوان

Merveilles biographiques et historiques, ou chroniques du Cheikh Abd-el-Rahman el-Djabarti.

مقارنة بين « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » :

اذا قارنا بين كتابى مظهر التقديس ، وعجائب الآثار ، نجد أن الكتاب الأخير يفوق فى قيمته العلمية الكتاب الأول من عدة وجوه يمكن اجمالها فيما يلى :

أولا : ان عجائب الآثار مؤلف ضخم يتناول ثلاثة عصور من تاريخ مصر : مصر العثمانية ، والحملة الفرنسية ، وعصر محمد على . فهو أعم وأشمل من مظهر التقديس الذى اقتصر على فترة الحملة الفرنسية فقط .

ثانيا : ان عجائب الآثار كان التجربة التاريخية الثالثة للجبرتى ــ كما سبق أن أوضحنا ــ فقد سبقته تجربتان فى التأليف التاريخى : الأولى ، كتابة تاريخ « مدة الفرنسيس بمصر » ، والثانية « مظهر التقديس » . وقد استفاد فعلا من هاتين التجربتين فى كتابة عجائب الآثار .

ثالثا : نظرا لأن كتاب مظهر التقديس قد كتب فى أعقاب خروج الفرنسيين من مصر بتكليف من الصدر الأعظم وخوفا من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين ، فقد سيطر عليه هذان الاعتباران أثناء كتابته فجاء بالكتاب الكثير من المدح للعثمانيين والذم والسباب للفرنسيين ، بينما يخلو عجائب الآثار من ذلك .

رابعا : بعد أن انتهت أحداث الحملة وساد مصر صراع شديد بين القوى المختلفة ممثلة فى الوجود الانجليزى والتركى والمملوكى والمصرى ، بدأ الجبرتى يدرك ويقيم أحداث الحملة الفرنسية ، فأصبح كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم « بعد الحملة أدق وأكثر نقدا لسير الحوادث ورجالها مما كان عليه قبل الحملة » (١) .

خامسا : كان اتجاه الجبرتى فى تسجيل يومياته عن الحملة فى مظهر التقديس يختلف اختلافا بينا عن اتجاهه فى « عجائب الآثار » حتى أن كلا منهما يمثل تفكيرا سياسيا مغايرا (٢) .

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٢٤ .

(٢) د . محمد أنيس : الجبرتى بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ــ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة جـ ١ مايو ١٩٥٦ .

سادسا : عالج الجبرتى بروح الانصاف والحياد فى كتابه عجائب الآثار أحداث الحملة ، ولنأخذ على سبيل المثال موقفه من مقتل الجنرال كليبر ، فانه يذكر بالاعجاب موقف السلطات الفرنسية وعدالتها فى محاكمة سليمان الحلبى . فرغم ضبطه متلبسا بجريمته ، « لم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة . ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ، ثم نفذوا العقوبة فيهم بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك فحوى المسطور » .

ثم يتأسف الجبرتى لما وصل اليه حالة البلاد بعد ذلك من فقدان الأمن والعدالة ويستطرد قائلا : « بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام يزعمون أنهم يجاهدون وقتلهم الأنفس ، وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد » (١) .

سابعا : يوجد بمظهر التقديس واحد وثلاثون فقرة تخالف ما جاء بعجائب الآثار ، منها اثنتان وعشرون فقرة فيها سب للفرنسيين ، وثلاث عشرة فقرة مقتضبة فى عجائب الآثار ، جاءت مفصلة فى مظهر التقديس . بينما تشابهت عشر فقرات فقط فى كل من « عجائب الآثار » و « مدة الفرنسيس » . ومن ثم فالتشابه بين « مدة الفرنسيس » و « مظهر التقديس » ، أكثر مما بين « مدة الفرنسيس » و « عجائب الآثار » (٢) .

وخير ما أختتم به بحثى هذا ؛ تقييم أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال للجبرتى ولمؤلفه عجائب الآثار ؛ قوله : « كتاب الجبرتى هو فى صميم الأمر كتاب فى التربية الوطنية ، وليس ذلك لأن الرجل تصدى لتلقينها ، فقد كان مؤرخا قبل كل شىء ، ولكن جاء كتابه لازما لتكوين الجيل ، لأن العصر الذى عاش فيه كان عصر انتقال من حال الى حال ، وهو عصر الثورة المصرية ، الثورة الكبرى التى انتقلت بها مصر من طور من أطوار تاريخها الطويل المفعم بعبر الدهر ، الى الطور الذى امتد الى الزمن الذى نعيش فيه . وقد صور الجبرتى هذا الانتقال فأبدع فى التصوير » (٣) .

---

(١) الجبرتى : عجائب ج ٣ ص ١٢٢ .

(٢) موريه : المصدر السابق ص ٥٣٦ .

(٣) الجبرتى : عجائب الآثار (مقدمة الأستاذ محمد شفيق غربال) ج ١ الطبعة الجديدة ص ١ .

مراجع البحث

المراجع العربية :

١ ـ د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٣٩ .

٢ ـ د . جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ـ جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية .

٤ ـ خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ، القاهرة ١٩٤٨ .

٥ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، مصر المحمية ١٣٢٢ هـ .

٦ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، قام بنشرها وتحقيقها الأساتذة حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقى ، السيد ابراهيم سالم ، ٧ أجزاء ، القاهرة ٥٧ ـ ١٩٦٧ .

٧ ـ عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ـ يوميات الجبرتى ، جزءان ، نشر محمد عطا (اخترنا لك) القاهرة ١٩٥٨ .

٨ ـ عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، جزءان ، تحقيق الأساتذة أحمد زكى عطية ، عبد المنعم عامر ، محمد فهمى عبد اللطيف ، القاهرة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١) .

٩ ـ د . عمر عبد العزيز : دراسة لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية ، بدون تاريخ (بحث مطبوع بالاستنسل) .

١٠ ـ د. محمد أنيس : الجبرتى بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٦ .

١١ ـ محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى ـ مصر فى القرن الثامن عشر ، ٣ أجزاء ، القاهرة ٥٥ ـ ١٩٥٦ .

المراجع الأجنبية :

1. Ayalon, D. : The historian al-Jabarti and his background, BSOAS, XXIII, 2, 1960.

2. Brockelmann, C. : Geschichte der Arabischen Litteratur, II.

3. Browne, E.G. : A hand list of the Muhammadan manuscripts, Cambridge, 1900, 1, 207, No. 1058, Qq 214).

4. Cardin, A. : Journal d'Abdurrahman Gabarti, pendant l'occupation française en Egypte, suivi d'un précis du prince des Druzes, traduits de l'Arabe, par Alexandre Cardin, drogman chancelier du Consulat Général de France en Egypte, edited by T.X. Bianchi, Paris, 1838.

5. Lane, E. W. (tr.) : The Arabian Nights Entertainments, London, 1881.

6. Macdonald, D. B. : (art. « al-Djabarti », Encyclopedia Britannica, first edition, 1913.

7. Mansour, C. Kalil, A. Nicolas, G. Ammoun I. : Merveilles Biographiques et historiques du Cheikh Abd-el-Rahman el-Djabarti, traduite de l'Arabe, 9 vols., Cairo, 1888-96.

8. Moreh, S. : Reputed autographs of Abd 'Al-Rahman Al-Jabarti and related problems. Bulletin of the school of Oriental African Studies, University of London, vol. XXVIII, Part 3, 1965.

9. Wright, W. : A Grammar of the Arabic Language, third edition, Cambridge, 1955.

مخطوطة من تآليف الجبرتي في ليدن
دراسة مقارنة بينها وبين
"عجائب الآثار"، "مظهر التقديس"

للدكتور مصطفى محمد رمضان
جامعة الأزهر

الدراسة المقارنة بين نصوص مختلفة لمؤرخين مختلفين لها طبيعتها الخاصة ، حيث يتجه جهد الباحث فيها الى التعرف على منهج كل مؤرخ على حدة ، ثم ابراز مظاهر الاختلاف والاشتراك بين كل منهم والعوامل التى أدت الى ذلك ، سواء أكانت اجتماعية أم سياسية ، وما الى ذلك من العوامل التى تؤثر فى المؤرخ ٠

أما الدراسة المقارنة بين نصين مختلفين أو أكثر لمؤرخ واحد لفترة زمنية واحدة فلها منهج آخر ، حيث يتجه جهد الباحث الى دراسة الظروف والملابسات السياسية التى دفعت المؤرخ لكتابة هذه الأعمال المتباينة ، ثم الاشارة الى مواطن الاختلاف فى كل منها ٠

وعلى هذا المنهج الأخير سوف تكون دراستنا لقطعة أو كراسة مخطوطة من يوميات الجبرتى الخاصة عن فترة من عهد الحملة الفرنسية ، دراسة مقارنة بينها وبين كتابيه : « عجائب الآثار » و « مظهر التقديس » ٠

دون الجبرتى أحداث الحملة الفرنسية بادىء ذى بدء فى يوميات خاصة بخط يده ، وقد عثرنا على قطعة منها محفوظة بمكتبة جامعة ليدن بهولندا ، وقد أشار اليها المستشرق (موريه Moreh) فى مقال كتبه عن مجموعة من مخطوطات الجبرتى الأصلية فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية ٠
Bulletin of the School of Oriental and African Studies (١)

وقد حصلنا على نسخة منها عن طريق التصوير بالميكروفيلم ٠

(١) S. Moreh, Reputed autographs of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and related problems, (BSOAS), London, 1965, vol. XXVIII, part 3, pp. 524-540.

وهذه القطعة من ناحيــة الشكل تقع فى احــدى وخمسين صفحة ، تؤرخ لسبعة أشهر من أوائل المحرم (١٠ من المحرم) ١٢١٣ هـ حتى نهاية رجب من السنة نفسها ، وهى مكتوبة بخط الرقعة الجميل ، وعدد الأسطر فى كل صفحة يتراوح بين ٢٥ ، ٣٢ سطرا فى كل سطر ما بين ١٠ ، ٢٠ كلمة ، وتوجد بها بعض الاضافات الهامشــية لبعض الأحــداث التى يكون قد نســيها الجبرتى ، أو لم تكن فى متناول يده ابان كتابتها ، فاستدركها بعدئذ وسجلها بالهامش بالخط ذاته ، ويوجد على صفحة العنوان الكتابة الآتية :

هذا تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ

الى ســنة ١٢١٦ هـ تأليف العــلامة عبد الرحمن

الجبرتى المصــــرى بخطـــه رحمــــه الله

ومكتوب على الصفحة ذاتها فى الركن الأيسر فوق العنوان : تمليك باسم الشيخ محمد الأمير الحنفى الرشيدى بتاريخ ٦ ج (جمادى الأولى) سنة ٨١ (١٢٨١ هـ) ومدون عليها ثمنها وقتذاك وهو ٩ قروش (١) •

ويتبين لنا من صفحة العنوان الحقائق التالية :

أولا : التنويه بأنها مخطوطة بخط الجبرتى ، مما يجعل لها أهمية خاصة ، وقد رجح المستشرق (موريه Moreh) أنها بخط الجبرتى ؛ لأن خطها يتفق مع مخطوطة أخرى لمظهر التقديس مودعة بمكتبة جامعة كمبردج مكتوب عليها أنها بخط الجبرتى ، ويتفق أيضا مع مخطوطة ثالثة للجزء الثالث من عجائب الآثار فى مكتبة جامعة كمبردج أيضا ، مدون فى نهايتها أنها بخط الجبرتى (٢) •

ثانيا : أن هذه المخطوطة انتقلت الى حــوزة الشيخ الرشــيدى عن طريق الشراء بعد وفاة عبد الرحمن الجبرتى بحوالى أربعين سنة هجرية (٣) •

ثالثا : أن هذه المخطوطة من تأليف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى وحده ، وهى بذلك تختلف عن كتاب مظهر التقديس الذى اشترك فى تأليفه مع الجبرتى صديقه الشيخ حسن العطار ، فهى بذلك تحمل طابعه فى الكتابة وحده ، وأسلوبه ومنهجه •

رابعا : يستفاد من عنوان المخطوطة أن الجبرتى كان قد دون « تاريخ مدة

---

(١) انظر : لوحة رقم : ١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أنظر : لوحات رقم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

الفرنسيس » كاملا فى مؤلف خاص به ابان حوادث الحملة (١) ، وقد ضاعت بقية هذا المؤلف ، ولم يبق منه سوى قطعة تؤرخ لمدة السبعة الأشهر التى تضمنتها هذه المخطوطة (٢) ٠

وعلى ذلك لم يكن الجبرتى فى حاجة الى أن يعدل فى كتابه « مظهر التقديس » ويخرج منه الجزء الثالث من كتابه « عجائب الآثار » كما ذهب الى ذلك بعض المؤرخين (٣) ، لأن الجبرتى كان لديه مؤلف خاص لتاريخ مدة الفرنسيس بمصر ، اعتمد عليه فى اخراج الجزء الثالث من عجائب الآثار بعد ما أضاف اليه تاريخ مصر من سنة ١٢١٦ هـ الى سنة ١٢٢٠ هـ ، مع اضافات بسيطة من أشعار صديقه الشيخ حسن العطار التى كان يشير اليها بقوله : « كما قال صاحبنا الشيخ حسن العطار » ٠

الظروف والملابسات السياسية التى كتب فيها الجبرتى هذه المخطوطة :

كانت مظالم المماليك بزعامة ابراهيم بك ومراد بك قد عمت آفاق القطر المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأصبحت الحياة فى مصر لا تطاق ، وفجأة هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر فى صيف عام ١٧٩٨ م وسرعان ما ظهر فشل مؤسسة المماليك العسكرية فى الدفاع عن البلاد ، وزحف الجيش الفرنسى

---

(١) أشار الجبرتى الى هذا المؤلف فى مقدمة مظهر التقديس بقوله : « ولقد كنت سطرت ما وقع وحصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر الى أن دخلها مولانا الوزير فى أوراق غير منظومة فى سلك الاجتماع والاتفاق وكثيرا ما كان يخطر ببالى وان لم يكن ذلك من شأن أمثالى أن أجمع افتراقها وألبسها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخا مطلعا اللبيب على عجائب الأخبار وغرائب الآثار وتذكرة بعدنا لكل جيل » ٠ ويبدو من هذه الاشارة ان هذا المؤلف كان قطعا فى كراريس تشتمل كل قطعة منها على عدة أشهر ، ولهذا فضلنا تسمية هذه المخطوطة التى نعرضها الآن باسم قطعة من يوميات الجبرتى ٠

انظر : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » طبعة لجنة البيان العربى فى مجلد واحد ، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقى ، القاهرة ١٩٦٩ ص ١٤ ٠

(٢) بذلك يكون الجزء الضائع هو غالبية تلك المخطوطة (من بداية شعبان ١٢١٣ هـ حتى أواخر صفر ١٢١٦ هـ) لأن هذه المدة هى التى حددها الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » فهو يقول : « فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم الديار المصرية ثلاث سنوات واحدى وعشرين يوما فانهم ملكوا بر امبابة والجيزة وكسروا الأمراء المصرية يوم السبت تاسع عشر صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وكان انتقالهم ونزولهم من القلاع وخلو المدينة منهم وانخلاعهم عن التصرف والتحكم ليلة الجمعة الحادى والعشرين من شهر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف » وبذلك تكون المدة التى اعتبرها الجبرتى هى مدة اقامتهم بالقاهرة وضواحيها فقط ، أما المدة من بداية احتلالهم الاسكندرية حتى جلائهم عنها فهى من ١٩ محرم ١٢١٣ هـ الى نهاية ربيع الثانى ١٢١٦ هـ (٢ يوليو ١٧٩٨ م — ٨ سبتمبر ١٨٠١) ٠ انظر : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، طبعة المطبعة العامرية الشرقية ؛ القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ج ٣ ص ١٩٩ ، ص ٢٠٧ ٠

(٣) د ٠ محمد أنيس ، الجبرتى بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد ١٨ سنة ١٩٥٦ ص ٦٣ ٠

على القاهرة بعد اجتياح الاسكندرية بلا مقاومة تذكر ، واكتسح أمامه قوات المماليك المنهارة وسقطت عاصمة البلاد فى يد الفرنسيين ، ووجد الشعب نفسه أعزل أمام قوات أجنبية مسيحية لأول مرة فى تاريخه الحديث ٠

آثرت هذه الأحداث بتلاحقها وسرعتها فى نفسية الشعب المصرى الذى كان يخضع لحماية الدولة العثمانية المسلمة التى يرى فيها رمزا للخلافة الاسلامية ، ويشعر فى ظلها بالأمن والطمأنينة والسلام والاستقرار ، وقد سجل لنا الجبرتى فى هذه المخطوطة صورا حية من أحاسيس الشعب المصرى ؛ يروى فيها وقوع الصدمة بصدق وأمانة وواقعية ٠

وبدراسة هذه المخطوطة نرى أن الجبرتى قد سلك فيها منهجا معتدلا ، فالحقائق والأحداث التاريخية وان كانت بها ثابتة ، وتتفق مع ما جاء فى كتابيه : « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » ؛ الا أن تفسير الجبرتى لهذه الأحداث وتعليقه عليها هو الذى يختلف ٠

وجه الجبرتى نقده الى جميع الأطراف (العثمانيين والمماليك والفرنسيين وحتى العلماء) وأصدر أحكامه عليهم غير هياب ولا وجل ، ولم تؤثر فيه عوامل المعاصرة التى تؤثر فى المؤرخ : كالرغبة والرهبة التى ظهرت الى حد كبير فى كتابه (مظهر التقديس) ، والى حد ما فى كتابه « عجائب الآثار » ، لأن نظام الحكم الذى كان قائما قد تحطم ، وأصبح فى مأمن من عسف الحاكم فى ظل احتلال لم يستقر بعد ٠

وعلى سبيل المثال نراه ينتقد الموقف العثمانى المملوكى برمته ، لتقصير العثمانيين والمماليك فى الدفاع عن البلاد وحمايتها من الغزو الفرنسى عقب سماعهم بنزول الحملة بالاسكندرية ، وذلك عندما علق على الاجتماع الذى عقد بقصر العينى بالقاهرة ؛ ودارت فيه مناقشة حامية بين العلماء وأمراء المماليك ، فيقول : « فركب ابراهيم بيك الى قصر العينى وحضر عنده مراد بيك والأمراء والقاضى والمشايخ وتكلموا فى شأن ذلك ، فقال بعض المشايخ كل هذا من تغافل أمر الثغور واهمال الأمور حتى تمكن العدو وملك ثغر الاسلام ، فقال مراد بيك وايش نعمل واذا قصدنا تعمير ذلك وتحصينه تقولوا مرادهم العصيان على السلطان نهذا هو المانع لنا من ذلك » ، ثم علق الجبرتى على كلام مراد بك بأنه : « أوهى من بيت العنكبوت لأن الثغر من أيام على بيك لم يلتفتوا له جملة كاملة بل أخذوا ما كان به من آلات القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التى كانت للمرابطين والعسكر المتقيدين وأكلوا علوفاتهم وقطعوا عوايدهم ولم يبق به شىء من آلات الحرب الا بعض مدافع مكسرين لا تنفع ولا تدفع حتى انهم احتاجوا مرة لضرب مدفع العيد بارود فلم يجدوا التعميرة بل اشتروها من عند العطار بعد أن كانت اسكندرية وأبراجها فى غاية العمارة والتحصين وحولها السور المتقن الذى اعتنت به الأوايل وبه ثلثمائة وستين برجا على عدد أيام السنة كل

برج بجبخانته وعدده ورجاله ، فأهمل ذلك جميعه حتى لم يبق منه شيء وتهدم السور وما به من أبراج وساوت حيطانه من بعض الجهات الأرض الى غير ذلك » .

وعندما صدرت توصية من المجتمعين في قصر العيني بكتابة عرضحال الى الدولة العثمانية بخبر الحملة وارسـاله اليها ، علق الجبرتى على ذلك متهكما بأسلوب لاذع :« ظنوا أن الموجوع أو المريض الملسوع يستمر بحاله حتى يأتيه الترياق من العراق » (١) .

ويلاحظ أن هذه المناقشة وما أعقبها من تعليق لم يسجلها الجبرتي في « مظهر التقديس » وانما قال : « وأما ما كان من حال الأمراء فان ابراهيم بيك ركب لقصر العيني ، وحضر عنده مراد بيك من الجيزة لأنه كان مقيما بها وحضروا بقية الأمراء والقاضي والعلماء وتكلموا في شأن هذا الأمر الذى دهم المسلمين فاتفق الرأى على أنهم يرسلون مكاتبة للدولة العلية بخبر هذه الحادثة فأرسلها باشا مصر اذ ذاك وهو بكر باشا على يد قاصد من جهة البر » (٢) .

ونراه ينتقد قيادة مراد بك ويذكر أن الشعب تنبأ بهزيمته عند خروجه لملاقات الفرنسيين ؛ فيقول : « ثم انهـم اتفقوا على خـروج عسـاكر وصارى عسكرهم مراد بيك ، فتحدث الناس بأن مراد بيك لم يتوجه الى جهة ويحصل لها النصر » (٣) .

وعندما التقى مراد بك الجيش الفرنسى عند شبراخيت وانهزم ، قال : « التقى العسـكر المصرى مع الفرنج فلم تكن الا ساعة وانهزم مراد بيك ومن معه ولم يثبتوا لحربهم .. واحترقت ذهبيـة مراد بيك بما فيهـا من الجبخانة والعدد .. فلما عاين ذلك مراد بيك ولى منهزما وترك أثقاله وجملة من المدافع وتبعه عساكره وكان فى عدة وافرة » (٤) .

وتحـدث الجبرتى عن العوامل التى تسببت فى خـذلان المماليـك أمام الفرنسيين ، وقارنها بما للجيش الفرنسى من صـفات ، وأثنى على نظامهم العسـكرى المحكم فى الضبط والربط واطاعة الأوامر ، وخضوعهم للحيـاة العسكرية ، وغير ذلك من الأشياء التى هى من سمات الجيوش المنظمة ، فيقول :

« وهذا بخلاف الطائفة الأخرى الفرنسـاوية فانهـم بالعكس فى جميع ما ذكر كأنهـم مقتفين لآثار الأمة فى صدر الاسـلام ويرون أنفسـهم مجاهدين

---

(١) الجبرتى ، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ الى سنة ١٢١٦ هـ ص ١ – ٢
(٢) مظهر التقديس ص ٢٦ .
(٣) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ، ص ٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٩ .

ولا يستكثرون عدد عدوهم ولا يبالون بمن قتـل منهم ، ويرون أن من ولى منهم كفر وخرج من دينه وطريقته ينقادون لأمر أميرهم ويمتثلون طاعة كبيرهم ، مظلة أحدهم شبقته التى على رأسه ومركبه قدميه وطعامه وشرابه بلغة وجرعة معلقان تحت ابطه ، ومتاعه وما يغيره من ملبوسه معلق خلف ظهره كالوسادة ، فاذا نام اضطجع عليها كالعـادة ولهم علامات واشـارات فيما بينهـم يقفون عنـدها ولا يتعدون حدها » (١) ٠

ولم يذكر الجبرتى هذا الوصف المنصف لنظام الفرنسـيين العسكرى فى كتابيه : مظهر التقديس ، وعجائب الآثار ، وحـذفه مخافة أن يتهـم بأنه يمالىء الجيش الفرنسى ٠

ولم يكن الجبرتى راضيا عن قيادة المماليك ، وانتقد فى مذكراته سوء تدبير المماليك لملاقات الجيش الفرنسى ، فبينما كان مراد بك عند امبابة ، كان ابراهيم بك بالبر الشرقى للنيل عند بولاق ومعه عدد كبير من العربان والمتطوعين من الشعب ، ولم تتح لهم فرصـة الاشتراك فى معركة امبـابة لعدم تمكنهم من عبور النيل ، فلم يكن لهذه الجموع الغفيرة أى دور ايجابى فى المعركة ، لأن بونابرت قد حسم الموقف بانتصار خاطف فى ثلاثة أرباع الساعة ، فقال الجبرتى يصف تجمع الناس بالبر الشرقى وصياحهم غير المجدى :

« هذا وبر بولاق يغلى بكثرة الناس من العامة والخاصـــة وخلافهم وهم واقفون زمرا ويعضون أكفهم حسرة وأســـفا لتخلفهم عن الوصول لعدم المعادى فلم يكن فى قدرتهم الا رفع أصواتهم وقولهم يالطيف وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وغير ذلك وصـــار لهم جلبة وغاغة عظيمة وكأنهم يقـــاتلون بضـــجيجهم وصياحهم » (٢) ٠

ويستطرد الجبرتى فى انتقاد موقف ابراهيم بك لفراره عندما عاين هزيمة جيش مراد بمعركة امبابة ، فيقول :

« ولما رأى ابراهيم بك والباشا ومن معهم فى المتاريس وقوع الكسرة على أهل البر الغربى لم يثبتوا بل ركبوا وتركوا المتاريس والخيام وذهبوا الى جهة العادلية فى الطريق الى الشام ٠٠ فلما رأى الناس هروب ابراهيم بيك ومن معه وتراسل الضرب فهاجوا وانهزموا بأنفسهم الى داخل بولاق وجهة المدينة وانزعجوا انزعاجا شـــديدا وولوا الأدبار كأمواج البحـــار وصار الشاطر فيهم هو الذى يسبق رفيقه » (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١١ ٠
(٢) المصدر السابق ص ١١ ـ ١٢ ٠
(٣) المصدر السابق ص ١٢ ٠

ولقد كان لموقف المماليك المخزى وقعه المؤلم فى نفسية الشعب ، وقد عبر الجبرتى عن خيبة أمل الجماهير فى جيش المماليك لفشلهم فى الدفاع عن البلاد ؛ فقال :

« وخابت فى عسكر مصر الظنون أولا وثانيا (١) وولوا الادبار وجمعوا بين النار والعار (٢) والحكم لله الواحد القهار » (٣) ٠

وبطبيعة الحال لم يتعرض الجبرتى لنقد الموقف العسكرى المملوكى بمثل هذا الوضوح فى مظهر التقديس وعجائب الآثار ، بل انه حذف أغلب هذا النقد وخاصة تلك الفقرة الأخيرة ٠

موقف العلماء :

أوضحت لنا هذه المخطوطة بعض الحقائق الغامضة عن موقف العلماء ابان فترة الحملة الفرنسية ، وخاصة بالنسبة لخروج بعضهم من القاهرة غداة معركة امبابة ، وسلوكهم بالقاهرة تجاه المحتلين بعد هروب المماليك ٠

وقد أعطتنا بعض التفصيلات الدقيقة بالنسبة لخروج العلماء من القاهرة غداة معركة امبابة ، ففى حين يورد الجبرتى الخبر موجزا فى « مظهر التقديس » و « وعجائب الآثار » على النحو التالى :

« وخرج أعيان الناس أفندية الأوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين » (٤) ٠

يقول فى يومياته الخاصة (مخطوطة ليدن) : « بعد هجعة من الليل (ليلة الأحد ٨ صفر ١٢١٣ هـ ٢٢ يوليو ١٧٩٨ م) أشار بعض أصحاب الشيخ عبد الله الشرقاوى عليه بالرحيل فان الفرنج وصلوا الى باب الحديد (٥) وحرقوه

---

(١) خابت فيهم الظنون أولا : لانهم هزموا فى معركة شبراخيت السالفة ولم يثبتوا ساعة للعدو وفروا ، وثانيا : لهزيمتهم فى معركة امبابة ٠

(٢) اشارة الى المثل القائل (النار ولا العار) يعنى الموت بالنار أفضل من عار الفرار ولكنهم جمعوا بين النار والعار بهزيمتهم وفرارهم ٠

(٣) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ١٢ ٠

(٤) انظر : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار جـ ٣ ص ٩ ٠
وانظر أيضا : مظهر التقديس ص ٤١ — ٤٢ ٠

(٥) باب الحديد : من أبواب سور القاهرة الصلاحية الشمالى التى شيدت فى عصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان يعرف أيضا بباب المقس لوقوعه فى قرية المقس التى كان يقال لها المقسم أو باب البحر لانه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لانه كان مركبا عليه بوابة من الحديد ، ونسب اليه ميدان باب الحديد (ميدان رمسيس الحالى) ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧ م ٠
انظر : د ٠ عبد الرحمن زكى — القاهرة وتاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ ؛ القاهرة ، ١٩٦٦ ص ٦٩ ٠

وعبروا منه وهم الآن ينهبون ويقتلون فى أهل تلك الناحية ويفسقون فى نسائهم وان مكثنا أو توانينا بعد ساعتين يصلوا الينا فأرسل الشيخ عبد الله (الشرقاوى) الى الشيخ السادات من أزعجه وأقلقه استحثه في سرعة الركوب ، فحمل ما خف وما يلزم وركب وخرج بصحبته من باب البرقية (١) وكذلك ركب السيد عمر (مكرم) النقيب ٠الشيخ (محمد) الأمير والشيخ خليل البكرى » ٠

ثم تتبع الجبرتى أخبار من خرجوا من العلماء ، فذكر أن بعضهم لم يتمكن من اللحاق بجيش ابراهيم بك لأن العربان تعرضوا لهم ونهبوا متاعهم ، وهم : « الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى فانهم لما رأوا هذا الحال ، وأخذ العرب من الشيخ الشرقاوى جملين بما عليهم انحازوا الى المطرية وأرسلوا الى أبو طويله فحضر اليهم ودفع عنهم العربان الذين كانوا محتاطين بهم واستمر محافظاً عليهم » (٢) ٠

ولم يتمكن من اللحق بجيش ابراهيم بك سوى : « السيد عمر مكرم » النقيب والشيخ (محمد) الأمير والشيخ سالم مسعود شيخ رواق المغاربة ذهبوا الى عرضى (٣) ابراهيم بيك بعد أخذ متاع الشيخ سالم ومتاع حريمه وودايع كانت تصحبهم » ٠

وقد كشف لنا هذه المخطوطة عن معلومات جديدة بشأن تتبع الجبرتى لأخبار من خرجوا من القاهرة ، فقد كان السائد قبل ذلك أن الشيخ محمد الأمير قد بقي بالقاهرة ولم يخرج منها ، وأبى أن يشترك بالديوان الذى أنشأه بونابرت (٤) بيد أن الجبرتى يقطع فى هذه المخطوطة بأن الشيخ الأمير خرج مع عمر مكرم الى الشام ولم يحضر على الرغم من ارسال بونابرت الى العلماء بالأمان فيقول : « فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى من المطرية وكذلك البكرى من محل ما كان فى يوم الثلاثاء ، وأما النقيب (عمر مكرم) فلم يطمئن للرسالة وذهب مع ابراهيم بك وكذلك الشيخ سالم (بن مسعود شيخ رواق المغاربة) ٠٠ وكذلك الشيخ الأمير لم يحضر » (٥) ٠

وبذلك انهت لنا هذه المخطوطة الجدل القائم حول عدم اشتراك الشيخ

---

(١) باب البرقية : من أبواب سور القاهرة الصلاحية ، ونسب الى جنود برقة فى الجيش الفاطمى ، وقد عرف ايضا بباب الغريب ، ولا يزال هذا الباب موجودا بأكمله ، ومحتفظا بشكله الأصلى من الأساس الى الشرفات ، المصدر السابق : ص ٧٠ ٠

(٢) الجبرتى : تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ١٣ ــ ١٤ ٠

(٣) عرضى : مأخوذة من الكلمة التركية (أوردو) ومعناها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر ٠

(٤) ذهب الى ذلك المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه : تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٩٥ الطبعة الرابعة ــ النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ٠

(٥) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ١٤ ــ ١٥ ٠

Cod. Or. 2437



لوحة رقم : ١

سنة ثلاث عشرة ومايتين والف استهلت هذه السنة وسلطان الاسلام السلطان سليم
بن مصطفى العثماني وباشة مصر بكر باشا وباشة الشام عبد الله باشا بن العظم واحمد باشا
الجزار المتغلب على الشام متحصن بعكا والوزير الاعظم محمد باشا عزت وامرا مصر ابراهيم
بيك ومراد بيك وخشداشينهم وهم سليمان بيك الاغا وابراهيم بيك الوالي وعثمان بيك
الشرقاوي وايوب بيك الكبير وايوب بيك الدفتردار ومحمد بيك الكلارجي ومصطفى بيك
وصالح بيك امير الحاج وقاسم بيك ابو سيف وصناجق ابراهيم بيك عثمان بيك الاشقر وولده
وعبد الرحمن بيك وقاسم بيك الموسقو وقاسم بيك امين البحرين ومراد بيك الصغير ورشوان بيك
وصناجق مراد بيك محمد بيك الالفي وعثمان بيك الجوخدار وعثمان بيك البرديسي وسليم بيك
ابو دياب ومحمد بيك المنفوخ وامراهم وكشافهم لا يحصون كثرة لكل كاشف عنده نحو الخمسين
مملوك واكثر واقل والصناجق المعزولين وهم عثمان بيك طبل الاسماعيلي ومحمد بيك المبدول
وبكير بيك ومحمد بيك كشكش وحسن بيك قصبة رضوان وزين الفقار بيك وخلافهم وباقي رجال
الدولة والوجاقات ومن الحوادث ان في يوم الاحد عاشر المحرم وردت مكاتبات
على يد السعاة ان في يوم الخميس ثامنه حضر الى الثغر سكندرية عشرة مراكب من مراكب الافرنج
ووقفوا على البعد بحيث يراهم اهل الثغر وبعد قليل حضر ايضا خمسة عشر مركبا ايضا فانتظر
اهل الثغر ما قصدهم واذا بقارب واصل منهم وفيه عشرة انفار فوصلوا الى البر فكلموا اهل
البلد واستخبروهم عن قصدهم فاخبروا انهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس فقالوا لهم
لم يكن عندنا الا المتوطنين بالثغر فعرفوهم ان الفرنسيس خرجوا بعمارة عظيمة وسيحضرون اليكم
لاهل الثغر فلقلقه وحوسه بسبب ذلك وارسلوا الى كاشف البحيرة والعربان بالحضور للمحافظة
فشرعت هذه المكاتبة بين الناس وتحدثوا بها بينهم ثم في ثالث يوم حضرت ايضا مكاتبات بان المراكب
غابوا عن اعينهم فاطمانت الناس وبطلت القالة واما الامرا فلم يهتموا بذلك ولم يكترثوا فلما
كان يوم الاربعا عشرين المحرم وردت الاخبار والمكاتبات من ثغر سكندرية ورشيد ودمنهور
بان في يوم الاثنين ثامن عشره لم يشعروا اهل الثغر الا والفرنج ومراكبهم عند العجمي وزاحفين على البلد من البر
في صلاة الصبح فهم كالجراد المنتشر فهاج الناس وعلا الصياح وخرج عليهم اهل الثغر وكاشف
البحيرة ومن معه من العربان وقاتلوهم اشد القتال فقتل من اهل الثغر عدة وافرة وانهزموا وهرب
الكاشف ومن معه والفرنج لا يزدادون الا كثرة وتسلقوا من حيطان السور المتهدم ودخلوا الى
البلد فنظر الناس فوجدوهم خلفهم فرجعوا القهقرى الى دورهم مرتجفين والمنازل لهم طالبين ووجدوا الفرنج
ملكوا القشلة الجديدة واحتاطوا بالاسوار واهل البلد دخلوا الى الوكائل والخانات والبيوت واغلقوا
عليهم الابواب وكذلك تحصنوا بالبرج الكبير والقلعة واستمروا واعتصموا يضربون من اعالي البيوت والطيقان
بالبندق والرصاص الا انهم لم يكن عندهم بارود ولا استعداد والقلعة والبرج خاليين من الجبخانة وورقا

لوحة رقم : ٢

السيران اخذتهم من كل جانب فطلبوا الامان فامنوهم ورفعوا القتال عنهم ونادوا بالامان
وخرج اليهم اعيان البلد وقابلوهم واقاموا اعلامهم المعروفة عندهم بالبندرات واخذوا اسلحتهم
وخيطوا لهم العلامة في صدورهم وطلبوا منهم الكلف والمال فلما وردت هذه الاخبار انزعجت
القلوب وركب ابراهيم بيك الى قصر العيني وحضر عنده مراد بيك والامرا والقاضي والمشايخ
وتكلموا في شان ذلك فقال بعض المشايخ كان هذا من تهاملكم واهمالكم امر الثغور واهمال الامور حتى
تمكن العدو وملك ثغر الاسلام فقال مراد بيك وايش نعمل واذا قصدنا تعمير ذلك وتحصينه تقولوا
مرادهم العصيان على السلطان فهذا هو المانع لنا من ذلك ومثل هذا الكلام الذي هو اوهى
من بيت العنكبوت لان الثغر من ايام علي بيك لم يلتفت اليه جملة كافية بل اخذوا ما كان به من الالات
القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التي كانت للمرابطين والعسكر المتقيدين واكلوا علوفاتهم
وقطعوا ايديهم ولم يبق به شي من الات الحرب الا بعض مدافع مكسرين لا تنفع ولا تدفع حتى
انهم احتاجوا مرة لضرب مدفع العيد بارود فلم يجدوا الثغر به بل اشتروه من عند
العطار بعد ان كانت اسكندرية وابراجها في غاية العمارة والتحصين وحولها السور
المتين الذي عقدت به الاوايل وبه ثلثمائة وستين برجا عدد ايام السنة كل برج بجبخانته
وعدده ورجاله فاهملوا ذلك جميعه حتى لم يبق منه شي وتهدم السور وما به من الابراج وسلوه [illegible]
حيطانه من بعض الجهات [illegible] ثم انهم اتفقوا على خروج عساكر وصاري عسكرهم
مراد بيك فتحدث الناس بان مراد بيك [illegible] الى الجهة وحصل لها النهب وشرعوا في تشهيل احوالهم
وترتيب نظامهم فلم يجدوا عندهم شي من الادوات الا القليل وصاروا [illegible] على الضرب
ونحوها فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ركب مراد بيك الى الجسر الاسود ومكث به يومين حتى
تكاملت عساكره وجموعه وصناجقه [illegible] على باشا الطرابلسي ونصوح باشا
واخذ صحبته كثيرا من المدافع والقنابر والمنجنيقات والجبخانة من البارود والكلل
وغير ذلك وصحبه جملة كبيرة من عسكر المغاربة والطبجية واخذ عدة من المراكب [illegible]
البحرية والغلايين الصغار التي صنعهم لانه كان صنع جملة غلايين منهم غلايين [illegible]
السلطانية واصرف عليهم مالا كثيرا من المال ورتب بهم عسكرا وبحرية بالعلوفات والرواتب الكثيرة
واوعدهم قبالة [illegible] بالجيزة من مدة مديدة [illegible] وتفاخروا على [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

لوحة رقم : ٣

لوحة رقم : ٤

الامير بديوان بونابرت على الرغم من تكليفه فى مشروع تشكيل الديوان ، ويبدو أنه لم يعد الى القاهرة الا بعد أن احتل الفرنسيس يافا ، فعاد مع عمر مكرم ، على الرغم من أن الجبرتى لم يفصح لنا بعد ذلك عن أمر عودته من يافا مع عمر مكرم ، فى مظهر التقديس أو عجائب الآثار .

وقد أوضحت هذه المخطوطة كثيرا من مواطن الغموض والتعمية التى لجأ اليهما الجبرتى فى كتابيه « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » ، فكثيرا ما لجأ الجبرتى الى التعمية مستعملا بعض التعبيرات التى تلتبس على القارىء فعلى سبيل المثال : فى الجلسة الأولى لديوان القاهرة (١٢ صفر ١٢١٣ هـ) أشار العلماء بتعيين بعض أمراء المماليك للمحافظة على الأمن بالقاهرة ، غير أنه أورد الخبر فى عجائب الآثار على الوجه التالى :

« وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وذلك باشارة أرباب الديوان ، فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس مملوك فعرفوهم أن ســـوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم » وتتفق رواية مظهر التقديس مع النص السابق (١) .

ونظرا لهذا الغموض الذى أحاط بعبارة الجبرتى ، فقد اختلفت التفسيرات حول من أشار بتعيين هؤلاء ، هل هم العلماء ؟ أم أن الفرنسيين هم الذين أشاروا بذلك (٢) ، وقد قطعت مخطوطة ليدن الشك باليقين ، فقد ورد فيها صراحة أن المشايخ هم الذين أشاروا بهذا التعيين ، قال الجبرتى :

« وعملوا محمد أغا المسلمانى كتخدا (٣) مستحفظان والوالى على أغـا الشعراوى والمحتسب حسن أغا محرم وذلك بعد علاج ، وقولهم لا يتولى المناصب جنس مملوك وقول المشايخ أن سوقة مصر لا يخافون الا من جنس المملوك » (٤) .

---

(١) انظر : عجائب الآثار ، جـ ٣ ص ١١ وانظر أيضا : مظهر التقديس ص ٤٦ .

(٢) ذهب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى الى أن المشـــايخ هم الذين أشاروا على الفرنسيس بهـذا التعيين ، بينما ذهب الدكتور محمد فؤاد شكرى الى أن الفرنسيين هم الذين أشاروا بهذا التعيين واضطر أعضاء الديوان الى الاذعان بعد ان كانوا ممتنعين . انظر : عبـد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، جـ ١ ص ٩٧ ــ ٩٨

وانظر أيضا : د . محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى ، القاهرة لم تذكر سنة الطبع ، ص ١٠٢ .

(٣) الأصح أغا مستحفظان (يعنى رئيســا لقــوات حفظ الأمن بالقــاهرة) اما منصب كتخدا (وكيل اول نائب) مستحفظان فقد عين به برتلمى اليــونانى كمــا ذكر الجبرتى بنفس الصفحة .

انظر : تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ١٥ .

(٤) المصدر السابق ، ذات الصفحة .

ومن الامور التى لجأ فيها الجبرتى الى استعمال الغموض ، موضوع قيام الشيخ محمد المهدى سكرتير ديوان القاهرة بصياغة منشورات بونابرت باللغة العربية ٠

فقد كان الشيخ محمد المهدى هو الذى يتولى صياغة منشورات بونابرت باللغة العربية بعد أن تكتب بالفرنسية ثم تقوم بترجمتها الى العربية أجهزة الترجمة الملحقة بالحملة ، وقد ذكر الجبرتى ذلك صراحة فى مخطوطة ليدن ، فقال فى نهاية المنشور الذى كتبه الفرنسيون على لسان المشايخ الى أقاليم مصر ، بعد قمع ثورة القاهرة الأولى :

« وذلك انشاء كاتب الديوان الشيخ محمد المهدى » (١) ٠

ثم عاد الجبرتى فحذف اسم الشيخ المهدى عندما أخرج كتابيه : « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » واكتفى بالاشارة الغامضة الى الشيخ المهدى ، اشارة يفهمها معاصروه ، فذكر عن المنشور الذى أذاعه بونابرت على لسان أعضاء الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا أنه « من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » (٢) وهو يقصد الشيخ المهدى ٠ وتتفق المراجع الفرنسية مع مخطوطة ليدن فى أن الشيخ المهدى هو الواضع لمنشورات بونابرت فى قالبها العربى ، فقد ثبت فى رسالة بعث بها بونابرت من يافا الى « بوسليج » مدير الشئون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا يقول ما ترجمته :

« عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التى يبعث بها فانتور الى الديوان وأن تضيفوا اليها المحسنات والتنميقات التى يرى الشيخ المهدى ادخالها وأن تنشروها فى أنحاء مصر » (٣) ٠

ومن الأمور التى أوضحتها هذه المخطوطة أيضا ، أن الشيخ السادات هو الذى تدخل لحل الموقف المتأزم بين مشايخ الديوان وبين بونابرت بسبب الخلاف على وضع بعض الشارات الفرنسية ، وقد شعر بونابرت بنوع من الاهانة من شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة عندما رمى بالشارة الفرنسية على الأرض بعد أن وضعها له بونابرت ، وأبى أن يزين بها كتفه ٠

فقد حدث أن استدعى بونابرت اليه الشيخ الشرقاوى ومعه جماعة من العلماء ، فلما استقر بهم المجلس نهض بونابرت واتى بشارة الجمهورية الفرنسية ، والتى يسميها الجبرتى « الطيلسان » المثلث الألوان ، ووضعه على

---

(١) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٤٦ ٠

(٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٧٣ مظهر التقديس ص ١٥٥ ٠

(٣) الرافعى ، تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٣١١ ٠

كتف شيخ الأزهر تكويما له ، ولكن شيخ الأزهر « رمى به الى الأرض وامتقع لونه واحتد طبعه » (١) ، كما تغير وجه بونابرت لهذه الاهانة وتميز غضبا ، فتدخل الترجمان وقال للعلماء « يامشايخ أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم » (٢) فرد عليه المشايخ قائلين : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين » فاغتاظ بونابرت من ذلك ، وطلب بقية العلماء من بونابرت اعفاءهم من لبسها ، فأذعن بونابرت لطلبهم فى أمر هذه الطيالس ، ولكنه أصر على أن يضعوا في صدورهم ـ على الأقل ـ الشارة المثلثة الألوان (الجوكار) (٣) فطلب العلماء منه مهلة اثنى عشر يوما ٠

بيد أن بونابرت أرسل فى اليوم ذاته الى الشيخ محمد السادات فحضر اليه ، وصادف أعضاء الديوان منصرفين ، ولما استقر به المجلس تملقه بونابرت وأخذ يتحدث اليه بلطيف القول الذى يعربه الترجمان ويضاحكه « ويقبل يده تارة وركبته (٤) أخرى » (٥) وأظهر بونابرت للسادات المحبة والصداقة ، وأهدى اليه خاتما من الماس ، وطلب منه الحضور فى اليوم التالى ، وعند حضوره وضع بونابرت له الجوكار على كتفه ، فسكت السادات وسايره ، وهذا مجمل ما ذكره الجبرتى فى مظهر التقديس وعجائب الآثار (٦) ٠

غير أن الجديد فى مخطوطة « ليدن » أن الجبرتى يذكر أن الشيخ السادات تدخل فى اليوم ذاته لحل الموقف المتأزم بين مشايخ الديوان وبين بونابرت ، فقال للمشايخ في الجلسة نفسها : « اجبروا أنتم الآخرين خاطر صارى عسكر ولا تخالفوه في وضع الوردة واذا قمتم من مجلسه ارفعوها فسكتوا ونهض

(١، ٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٧ ٠

(٣) الجوكار : ذكر الجبرتى فى وصف هذه الشارة انها : « العلامة المعروفة بالوردة وهى عبارة عن ثلاث دواير من جوخ أو غيره متلاصقة ثلاثة الوان : أزرق وأبيض وأحمر فى قدر مقعر الكف وأصغر وأكبر دوايرها متصاغرة الثانية أصغر من الأولى والثالثة أصغر منها بحيث تبقى الألوان الثلاثة ظاهرة ، وربما شرشروا أطراف الدواير وتفننوا فى تحسينها وهى عبارة عن الطاعة وعلامة على الامتثال » أما الطيلسان : فيذكر الجبرتى عنه انه مكون من « ثلاث شقق (أشرطة) ابيض واحمر وكحلى » توضع على الكتف وسماها الجبرتى باسم آخر وهو « الشالات » لانها تشبه الشال فى وضعها على الكتف وتتدلى عى الصدر ٠

انظر : الجبرتى ، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

(٤) ليس فى رواية الجبرتى هذه مبالغة لان بونابرت هو الذى قال لأحد جنرالاته فيما بعد وهو يهرب من روسيا فى غير هوادة : « اننى حين اكون فى حاجة الى زيد من الناس لا احجم عن شىء فاننى اقبل (٠٠٠) » ٠

انظر : كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٥٦ ٠

(٥) الجبرتى ، مظهر التقديس ، ص ٦٠ ٠

(٦) انظر : مظهر التقديس ، ص ٥٩ ـ ٦٠ وانظر ايضا : عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٧ ٠

(بونابرت) فرشق لكل واحد واحدة وهم مظهرين البشاشـة وهو مسرور بذلك » (١) أى أنه أشار عليهم بأن يجعلوهم جواز مرور (٢) .

ويبدو أن الجبرتى لم يشر الى هذا الموقف الأخير المتعلق بتوسط السادات بين بونابرت والمشايخ فى مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مخـافة أن يتهم العثمانيون السادات بالتعاون مع جيش الاحتلال الفرنسى ، كما كان للشيخ السادات نفوذ شعبى جارف يخشى جانبه ، وكان الجبرتى على علاقة وثيقـة به (٣) .

وعلى الرغم من أن الشيخ السادات لم يقبل عضـوية ديوان القاهرة أو الاشتراك فى أى نشاط سياسى آخر مع الفرنسيين ، الا أنه كان دائم الاتصال ببونابرت كما يبدو من مخطوطة ليـدن ، فقد سجل بها الجبرتى أن الشيخ السادات أقام حفل عشاء بمناسبة الاحتفال بمولد السيدة زينب فى أوائل رجب ١٢١٣ هـ ، ودعا اليه بونابرت وجماعة من خواصه ، يقول فى ذلك :

« فى ثالثه (أى فى الثالث من رجب) عمل الشيخ السادات مولد السيدة زينب بقناطر السباع ودعى صارى عسكر بونابرته فحضر فى عصريتها فى البيت الذى سكن به الشيخ وهو بيت أيوب جاويش وتعشى هناك هو وخواصه ثم ركب وعاد الى داره » (٤) .

ولم يشر الجبرتى الى هذه الواقعة مطلقا فى كتابه مظهر التقديس ، مراعاة لجانب السادات وحفاظا على سمعته لدى العثمانيين بعد عودتهم ، ثم عاد فأشار اليها بصفة عامة بعد وفاة السادات عندما ترجم له فى عجائب الآثار فقال :

« ولما قدمت الفرنساوية الى الديار المصرية فى أوائل سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف لم يتعرضوا له فى شىء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته ، وقبلوا شفاعته وتردد اليه كبيرهم وأعاظمهم وعمل لهم ولائم » (٥) .

---

(١) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) عندما وجد بونابرت ان الشعب (بزعامة علمائه) لا يقبل شارة الجمهورية الفرنسية الغاها بالنسبة للعامة ، ونادى مناد بابطال هذه الشارة عن العامة ، وما لبث الأمر كله أن الغى بعد قيام ثورة القاهرة الأولى ، على الرغم من أن بونابرت كافح من أجل هذا الغرض كثيرا لدرجة انه ارتدى يوما الملابس الشرقية المكونة من العمامة والقفطان ليستقبل بها أعضاء الديوان حتى يخجل المشايخ ويحملهم على أن يضعوا الشارة على الأقل .

(٣) قال فى هذا الصدد « وقد كنت أصاحبه فى الذهاب الى مساكنهم (مساكن الفرنسيين) والتفرج على صنائعهم ونقوشهم وتصاويرهم »

انظر : الجبرتى ، عجائب الآثار جـ ٤ ص ٢٠٥ .

(٤) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٤٩ .

(٥) عجائب الآثار جـ ٤ ص ٢٠٥ .

ومن الاضافات الجديدة التى أبرزتها هذه المخطوطة ، مطالبة علماء الازهر بمرتباتهم التى كانوا يتقاضونها قبل مجىء الحملة ، وقطعت عنهم بسبب ظروف الاحتلال الفرنسى ، فطالبوا بها مرارا وتكرارا ، بيد أن الفرنسيين ما طلوهم ولم يدفعوا لهم شيئا ، وقال الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الأول ١٢١٣ هـ :

« فيه طلب المشايخ رواتبهم فى الضربخانة وكانوا سألوا فى ذلك عدة مرار وهم يواعدوهم وبعد ذلك قال لهم الترجمان اكتبوا قايمة بعلم الذى يخصكم فكتبوا بذلك قايمة فكان الذى يخصهم ويخص بعض أفراد نحو ألف فضة فى كل يوم فلما اطلعوا على ذلك وواعدوهم بامضاه عدة مرار ، قالوا لهم فى هذه المرة نعطيكم عوضه التزام فقالوا وايش نعمل بالالتزام ، وهذا شىء متفرق الجزئيات، فينا من له خمسين فضة ومن له ثلاثين ومن له عشرين ، فقالوا يتولى ذلك أحدكم ويجمعه ويفرقه على اخوانه فى كل سنة فلم يرتضوا ذلك ثم أعرضوا عن ذلك لتحققهم شحة نفوسهم به » .

ثم أورد مقدار ما كان يتقاضاه العلماء فى كل يوم قبل مجىء الحملة فقال :

« وكانت المرتبات قبل مجيئهم نيفا واثنين وثلاثين ألف فضة فى كل يوم » (١) وقد حذف الجبرتى هذا الموضوع ولم يشر اليه مطلقا فى كتابيه مظهر التقديس وعجائب الآثار مخافة أن يتهم العلماء بالتعامل مع الفرنسيين وحرصا على أن تظل صفحتهم مضيئة أمام العثمانيين .

ومن المعلومات الطريفة التى سجلها الجبرتى فى هذه المخطوطة ، ذلك التفسير المعقول للصراع الانجليزى الفرنسى والعوامل التى دفعت الفرنسيين لاحتلال مصر ، قال فى حوادث ربيع الأول ١٢١٣ هـ أثناء تعرضه لرواية معركة أبى قير البحرية (٦ ربيع الأول ١٢١٣ هـ — ١٨ أغسطس ١٧٩٨ م) :

« وخبر هولا (هؤلاء) الانجليز أنهم معادين لطايفة الفرنسيس وأن الفرنسيسى (بونابرت) لما أغار على البنادقة والونديك والجورنه وغيرهم قصد الاغارة على الانجليز أيضا فلم يتمكن للعبور اليهم من طريق البر فحاربهم فى البحر فلم يطيقوهم لأن الانجيز موصوفون فى الشدة وقوة البأس فى محاربة المراكب فى البحر والفرنسيسى بالعكس فعلم الفرنسيسى أنه لا يتمكن من غرضه معهم الا من جهة البر ولا طريق له الا من الهند ، ولا طريق للهند الا من بحر القلزوم والانجليز يعلم فلما وجده ملك الاسكندرية وعبر الممالك المصرية علم أنه يصل اليهم بعد ذلك من هذه الجهة ولا بد من تتابع الامداد والعساكر فحضر على أثرهم بعدة مراكب مشحونة بالمقاتلين الى الاسكندرية وحاربوا المراكب

(١) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٢١ .

التى وجدوها خارج المينة وبوقير فنالوا منهم ••• واستمروا بمراكبهم قبالة الاسكندرية يذهبون ويجيئون ويشرقون ويغربون وينتظرون ما يأتى للفرنسيس من المدد أو يرسلونه الى بلادهم فيقطعون عليهم الطريق ويقفون لهم فى كل مضيق » (١) •

ولم يتعرض الجبرتى لهذا الموضوع بمثل هذه الاضافة فى كتابيه مظهر التقديس وعجائب الآثار ، وكل ما ذكره أنه أورد خبر معركة أبى قير فى صورة موجزة ، تكاد تتفق فى كلا المؤلفين ، فقال :

« وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الانجليز الى ثغر اسكندرية ، وحاربوا مراكب الفرنسيس بالميناء وكانت أشيعت هذه الأخبار من مدة أيام وتتحادث بها الناس فصعب ذلك على الافرنج وشق عليهم » (٢)•

ولذا نرى أن الجبرتى أدرك تطورات الصراع الانجليزى الفرنسى ، ولسنا نعرف ماهى الدوافع التى جعلته يحذف هذه المعلومات عندما أعاد كتابتها فى مظهر التقديس وعجائب الآثار •

ومما يلحظ على هذه المخطوطة بوجه عام ، تلك الأمانة المتناهية فى المحافظة على الوثائق التاريخية التى وقعت فى يد الجبرتى وسجلها فى يومياته ولم يغير فى صيغتها أو يصحح ما بها من أخطاء لغوية •

ويظهر هذا الأمر جليا فى منشور بونابرت الأول الذى أعلنه على الشعب المصرى ، فقد سجله الجبرتى كما وصله بما فيه من أخطاء صارخة صححت غالبيتها فى « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » عند طبعهما ، وكان فى استطاعته تصحيح تلك الأخطاء ، ولكن أمانته فى المحافظة على النص وصلت الى درجة متناهية أملت عليه أن يسجله كما هو ، ثم أشار الى هذه الأخطاء وعقب عليها تحت عنوان :

« تفسير ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة » ولم يكن الهدف من هذا التعليق هو اعراب المنشور اعرابا نحويا فحسب ، بل كان الهدف الأكبر هو دحض ادعاءات بونابرت التى أوردها بهذا المنشور ، بطريقة الاعراب التهكمى (٣) ، وعلى سبيل المثال قوله : فى اعراب « واحترم نبيه » « قوله واحترم نبيه معطوف على ما قبله عطف الكذب على الكذب لأنه

---

(١) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ١٩ ــ ٢٠ .

(٢) انظر : مظهر التقديس ص ٥٤ .

وانظر أيضا : عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٥ .

(٣) وذلك مثل طريقة الخطيب الشربينى فى اعراب قصيدة أبى شادوف فى كتابه « هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف » .

لو احترمه لآمن به وصدقه واحترم أمته » وقوله فى اعراب « مسلمين » من جملة « أن الفرنساوية هم أيضا مسلمين » « مسلمين صوابه الرفع ونكتة العدول الى النصب اشارة الى أن اسلامهم نصب » (١) وغير ذلك من الأخطاء التى أشار اليها وأوضح ما اشتملت عليه من مزاعم ظاهرة البطلان .

ولعل هذه الأمانة فى المحافظة على النص عند الجبرتى تعطى لنا مثالا لأسلوب الجبرتى بوجه عام ، فهو يستعمل اللغة الشعبية الدارجة فى رواية الحوادث احتراما لنص الرواية التاريخية كما نقلها الرواة اليه ، فهو بذلك ينقل لنا صورا حية عن أحداث العصر ، فيضع يد القارىء على نبض الحياة المصرية فيجعله يحس أنه يعيش فى الجو الحقيقى لمصر فى عصر الجبرتى (٢) .

والمؤرخ الذى يتناول تاريخ الجبرتى بالدراسة لا يرى فى اسلوبه عيبا أو نقصا يقلل من قيمته التاريخية ، لأن الوثيقة التاريخية لا يعيبها رداءة أسلوبها ، وما دامت الحقائق التاريخية بها واضحة فالاستفادة منها كاملة .

كما يلحظ أخيرا ، أن مخطوطة ليدن ليس لها مقدمة ، ولا تحتوى على البسملة ، وبدأها الجبرتى مباشرة بذكر اسم سلطان الدولة العثمانية « السلطان سليم بن مصطفى العثمانى »، وأسماء حكام مصر والشام وعكا ، وأسماء أمراء مصر من المماليك وأتباعهم ، وليس لها خاتمة ، وانما أنهاها بقوله : « والحكم لله الواحد القهار » (٣) ويبدو من بدايتها أن عبد الرحمن الجبرتى كان يعتبرها من مقتنياته الخاصة وليست للتداول ، نظرا لما تحتوى عليه من آراء لا يرضى عنها أهل عصره ، ولو كانت معدة للتداول لالتزم فيها القواعد السائدة فى التأليف فى عصره ، وهى البداية بالبسملة ووضع مقدمة وخاتمة .

غير أنه مما لا شك فيه أنه اعتمد عليها فيما بعد فى اخراج كتابيه : مظهر التقديس وعجائب الآثار ، بعد أن حذف منها تلك الآراء الصريحة والأخبار التى تسىء الى سمعة بعض الأشخاص ، والواقع أن الجبرتى قد تغيرت آراؤه بتغيير الظروف والملابسات السياسية عندما أعاد كتابة فترة الحملة الفرنسية فى كل من كتابيه السالفين وبقى علينا بعد ذلك أن نتعرف على تلك الظروف التى غيرت آراء الجبرتى ، وهذا ما سوف نحاول التعرف عليه فيما يلى :

عقب جلاء الفرنسيين عن القاهرة فى صفر ١٢١٦ هـ (يوليو ١٨٠١ م) دخلت القوات العثمانية مدينة القاهرة بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا،

---

(١) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٧ — ٨ .

(٢) يغير الجبرتى فى أسلوبه عندما يترجم لأحد الأعلام ؛ فتراه يتخير الالفاظ الجزلة ويلتزم السجع ، فتبدو فى كتابته الصنعة والمحافظة عن طابع الكتابة الذى كان سائدا فى عصره .

(٣) انظر : لوحة رقم (٢) ، (٤) .

وعادت البلاد بذلك الى حظيرة الدولة العثمانية مرة ثانية ، بعد احتلال دام أكثر من ثلاث سنوات ، وابتهج المصريون بهذا الحادث ابتهاجا عظيما ، لأن الشعب في مصر كان ينظر الى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى ، تظل المسلمين بظلها الظليل ، كما كان يرى فيها رمزا للخلافة الاسلامية .

وكان الجبرتي كغيره من المصريين سعيدا بهذا الحدث ، وقد صور لنا شعوره وشعور مواطنيه في كتاب كتبه عن أحداث الحملة اشترك في تأليفه معه صديقه الشيخ حسن العطار ، فقد أعاد الجبرتي صياغة ما كتبه عن فترة الحملة في يومياته الخاصة « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر » وأضاف اليه ما نمقه صديقه العطار (١) ، وأخرجا من ذلك كتابا سمياه : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » .

بدأ الجبرتي في تصنيف هذا الكتاب على أثر خروج الفرنسيس من القاهرة في أواخر صفر من عام ١٢١٦ هـ ، وانتهى منه كما يقول في سلخ شعبان (آخره) (٢) من السنة نفسها ، أي أنه استغرق في ذلك حوالي ستة أشهر ، وأهداه الى الصدر الأعظم ، فقال في خاتمته : « ثم في الختم به ايماءة الى أن من ألف الكتاب باسمه وحليت ديباجته برسمه ، وهو مولانا الوزير دام علاه وتحلت الأيام بوجودها فيه وبقاه .. ثم لسدته التي هي ملثم شفاه الاقبال ، ومحط رجال أفاضل الرجال أهدي كاسد هذا التصنيف وخامل هذا الترصيف ، فان لاحظه بعين القبول ، وذلك هو المبتغى والمأمول ، راج في معالم الأدب سوقه وبطالع السعود لاح شروقه » (٣) .

ويبدو من هذا الاهداء ان الكتاب الف باشارة من الصدر الأعظم ، فأخذ بذلك طابعه الرسمي .

والكتاب من حيث اشتراك العطار في تأليف يختلف بعض الشيء عما سجله الجبرتي في يومياته الخاصة (مخطوطة ليدن) ، فهو يحمل بذلك طابعا مزدوجا لمنهج المؤلفين (الجبرتي والعطار) ، حيث نرى فيه اهتماما بالمحسنات اللفظية في كثير من المواطن ، وتضمن كثيرا من القطع الأدبية والشعرية ، لأن العطار أديب

---

(١) يشير الجبرتي في مقدمة مظهر التقديس الى اشتراك العطار بقوله : « وكان ممن اعتنى بجمع تلك الأخبار ونقل غرائب هاتيك الآثار قطب الفضلا .. صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار نظمنا الله وأياه في مسلك الأخيار فضممت ما نمقه مع بعض منظومه ومنثوره بحسب المناسبة الى هذا السفر لينتظم معنا في سلك حسن الذكر وسميناه : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٨٠ — ٣٨١ .

وشاعر يأسره الأسلوب الأدبى ، ويعبر عن الحوادث بشعر أخاذ ، وعلى سبيل المثال ، قال فى قصيدته التى أهداها الى الصدر الأعظم :

لا رعى الله ما مضى من زمان ... فيه سارت أسافل الأوغاد
واستبدت بملك مصر الفرنسيس ... وعاثوا فيها بكل فساد
حل فيها منهم شياطين أنس ... هم بقايا الهلاك من قوم عاد
شوهوا حسنها بأسود كفر ... حين جاءوا بجيشهم كالجراد
واستباحوا الأموال والدم وال ... عرض وجاءوا بالخسر والالحاد
ثم زالوا عنها سريعا وبادوا ... وعليهم خزى المخاوف بادى
بقدوم الوزير دام علاه ... مقدم الغيث حل محل البلاد
فاكتست مصر بهجة وسناء ... وأماطت عنها ثياب الحداد (١)

والكتاب من حيث تأليفه (برسم) الصدر الأعظم يعد بمثابة التاريخ الرسمى للحملة ، فاشتمل على مقدمة ضافية حمل فيها الجبرتى المماليك وحدهم مسئولية وقوع البلاد تحت وطأة الاحتلال الفرنسى ، وأرجع ذلك الى تطرق الخلل الى دولتهم بسبب ما ابتدعوه من المصادرات التى أفقرت البلاد ، واهمالهم تحصين الثغور حتى داهمها الفرنسيين • وأثنى على حكومة الدولة العثمانية بقيادة سلطانها (الغازى سليم) التى « توجهت انتصارا للاسلام عزيمته وتسامت لاستنقاذ مصر من أيدى أولئك الأشرار همته فوجه اليها بوجوه دولته وعساكر حمايته من كل رئيس بصير بأمور العواقب » (٢) ، ورحب بعودة الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم « لأنه أزال دولة الكفار وجدد دولة الأخيار وعادت به بهجة مصر بعد انمحاقها وأشرقت شمس طلعته على آفاقها فانصلح بعد الفساد حالها » (٣) •

ومن ثم كان طابع الكتاب الظاهر هو الاشادة بالدولة العثمانية ، بالثناء عليها والحط من قدر المماليك الذين انحدرت جماعتهم ، وأهملوا أمر الدفاع عن البلاد ، ثم الحملة الشديدة على فترة الحكم الفرنسى الأجنبى للبلاد ، واظهار الفرح بزوالهم • وحذف كثيرا من المواقف التى ظن أنها تسىء الى سمعة العلماء أو تضعف من مركزهم أمام السلطات العثمانية العائدة •

والكتاب من ناحية ثالثة ؛ يمثل تسجيلا أمينا لشعور المصريين وابتهاجهم لجلاء الفرنسيين عن البلاد ، وتعليقات الجبرتى فيه تدل على كراهية ظاهرة لهذا الاحتلال ، ومرد هذه الكراهية ما رآه من استيلاء دولة أجنبية لوطنه تختلف فى

---

(١) المصدر السابق ص٣٦٢ وانظر أيضا للعطار بعض القطع الأدبية صفحات ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٦٧ و ٣٦١ — ٣٦٢ •
(٢) المصدر السابق ص ٩ •
(٣) المصدر السابق ص ١٢ — ١٣ •

دينها وعاداتها وتقاليدها عن المصريين المسلمين . رأى الجبرتى تبرج النساء وشرب الخمر علنا ، وتحويل بعض البيوت الى أماكن عامة للتسلية والمجون ، تقدم الخمر لروادها وتهيء لهم الاختلاط بالنساء ، وفتح الفرنسيون كثيرا من المحال للدعارة في بعض أنحاء القاهرة . كانت هذه العادات والتقاليد الخليعة تتعارض مع تقاليد المصريين الاسلامية فسلط عليها الجبرتى قلمه الناقد (١) .

وتأصلت كراهية الفرنسيين فى نفسية الجبرتى بسبب فظائعهم التى ارتكبوها فى البلاد بسبب مقاومة الشعب لهم ، وخاصة أنهم استهدفوا الأزهر بسخطهم ، وانزلوا بأهله أشد ضروب الانتقام ، وكانت أشد الفعال وقعا فى نفسية الجبرتى ، هى دخول الفرنسيين الجامع الأزهر بخيولهم بعد قمع ثورة القاهرة الأولى (فى ليلة الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ ـ ١٣ أكتوبر ١٧٩٨م)، يقول الجبرتى في وصف هذا المشهد :

« ثم دخلوا أولئك الوعول الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول .. وداس فيه المشاة بالنعالات ، وهم حاملون السلاح والبندقيات وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات .. وشققوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا بالمسجد وبالوا وتغوطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه من ثيابه أخرجوه » (٢) .

ويرجع الجبرتى هذا العمل الهمجى الى العداوة الدينية فيقول : « وفعلوا بذلك الأزهر ما ليس عليهم بمستنكر لأنهم أعداء الدين وأخصام متغلبون وغرماء متشمتون » .

ونلاحظ ان الجبرتى فى كتابه « مظهر التقديس » يشير الى الفرنسيين فى كثير من المواطن بقوله : « الكفار » يقول : « وان من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر وحل به لأهلها تنوع البؤس والاصر بحلول كفرة الفرنسيس » وقوله عن الصدر الأعظم « أنه أزال دولة الكفر » و « عصابة الكفار » وقوله عنهم أيضا : « خسرة الكفار » ولا يذكر اسما لقائد من قوادهم الا مصحوبا بوصف مهين كقوله : « اللعين دبوى » و « التعس بونابرته » وغير ذلك من الأوصاف التى يلحظها من يتصفح الكتاب (٣) .

---

(١) انظر حديث الجبرتى عن هذه البدع فى مظهر التقديس : ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٢) مظهر التقديس ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٣) انظر هذه الأوصاف على سبيل المثال فى مظهر التقديس ، صفحات ٤ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٧٩ ، ٢٠٧ ، ٢٥٠ .

ويمكننا القول بأن رؤية فرنسا غازية قاهرة لمصر ، وأعمالها الحربية القاسية التى باشرتها فى البلاد ، ومخالفة الغزاة للمصريين فى الدين والتقاليد ، واقتحامهم للأزهر بخيولهم ، كل ذلك أقام حاجزا من عدم الثقة وسوء النية بين الغزاة وأهل البلاد ، وقد عبر الجبرتى عن شعور مواطنيه ، ووقف موقف الرفض لتلك الحملة مهما أبدت من جوانب حضارية نيرة ، وبرزت فى كتابه « مظهر التقديس » حركة التمسك بالتبعية العثمانية والترحيب بعودة العثمانيين ، واعتبار عودتهم بداية لانبثاق فجر جديد ٠

بيد أن الجبرتى عندما أعاد كتابة فترة الحملة الفرنسية مرة ثالثة فى كتابه الأخير « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » غير آراءه هذه ، وحمل على الدولة العثمانية فى أحكامه واعتبرها مسئولة عن الشقاء الذى عانى منه المصريون ، ثم أثنى على الفرنسيين فى عدة مواضع ، وكانت هناك ظروف وملابسات جعلت الجبرتى ينهج هذا المنهج الجديد ، وهذا ما نحاول أن نوضحه فى النقطة الأخيرة من هذا البحث ٠

عقب جلاء الفرنسيين رزحت البلاد تحت وطأة عهد من الفوضى السياسية امتد من سنة ١٨٠١ ــ ١٨٠٥ ، فقد عاد الأتراك الى مصر والفكرة المسيطرة على أذهانهم هى أنهم نظروا اليها على أنها فتح جديد ، ولهم بفضل هذا الفتح أن ينهبوا ويسلبوا أرزاق المصريين ويسيئوا معاملة الشعب أبلغ اساءة ، وانعكست هذه الفكرة على معظم تصرفاتهم فى البلاد عقب عودتهم ، فقد عزلوا قاضى القضاة المصرى الشيخ أحمد العريشى الذى عينه الفرنسيون ، وعينوا تركيا مكانه ٠

وطلب القاضى العثمانى الجديد من أرباب العقارات والأملاك أن يشتروها مرة ثانية من الدولة العثمانية ، لأنها « صارت ملكا للسلطان لأن مصر قد ملكها الحربيون وبفتحها صارت ملكا للسلطان فيحتاج أن أربابها يشترونها من الميرى ثانيا » (١) وعاد الفساد الى القضاء مرة أخرى ، وتدخل العساكر العثمانيون فى الدعاوى فكانوا يأخذون ضريبة لهم على الدعاوى الشرعية ، وقال الجبرتى فى ذلك :

« واذا تداعى شخص على شخص أو امرأة على زوجها ذهب معهم أتباع القلق (٢) الى المحكمة ان كانت الدعوى شرعية فاذا تمت الدعوى أخذ القاضى محصوله ويأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوى » (٣) ٠

---

(١) الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٣ ص ٢٠٢ ٠

(٢) **القلق** : تحريف للكلمة التركية (قوللق) وهو مركز العسكر أو ما نسميه الآن نقطة الشرطة ، وتطلق أيضا على أحد رجال نقطة الشرطة .

انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، عدد مايو ١٩٣٦ ص ٢٢ حاشية (١) .

(٣) الجبرتى ، عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٠٣ .

وتمادى العثمانيون في سياستهم ، فامتدت أيديهم الى أموال الشعب ، فراحوا ينهبون أرزاقه ويسيئون معاملته أبلغ اساءة (١) ٠

وفي غضـون ذلك بلغ التذمر الشعبى مداه بسبب خيبـة الأمل التى منى بها الشعب ، فقد كان ينتظر العدل والانصاف من العثمانيين المسلمين بعد جلاء الفرنسيين المسيحيين ، وأعلن العلماء رفضهم للظلم أيا كان مصدره ، سواء أكان مصدره الفرنسيون (أعداء الدين) ، أم كان مصدره العثمانيون حماة الدين كما يدعون ٠

وبلغت موجـة العداء للعثمانيين فى هذه الأثناء درجة كبيرة ، جعلت علماء الأزهر يرحبون بمبعوث فرنسا (المسيو سباستيانى) (٢) (Sebastiani) الذى وصل القاهرة فى ٢٦ من أكتوبر ١٨٠٢ م ، وصارحوه بأنهم يتمنون عودة الحكم الفرنسى لمصر مرة أخرى ٠

فقد بادر المبعوث الفرنسى بعد وصوله الى القاهرة بزيارة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر فى بيته فى ٢٧ من أكتوبر ، وعقد معه اجتماعا حضره عدد كبير من كبـار العلماء ، ودار الحديث حول اهتمام بونابرت بمصر ، وأظهر العلماء فى كلامهـم مقدار ما يكنونه لشخص بونابرت من محبـة وود ، وعلق سباستيانى على هذا الاجتماع فى تقريره الى حكومته بقوله : « انه دهش مما أبداه المشايخ من شجاعة فى اعلان رغبتهم فى أن يصبحوا مرة أخرى رعايا القنصل الأول » (٣) ٠

ويبـدو من تقارير المسيو سـباستيانى أن علماء الأزهر بدأوا يعيدون تقييمهم لفترة الحكم الفرنسى لمصر ، وبدأوا يقرون أن العدل يمكن أن يتأتى من الحاكم غير المسلم ، وأن الحكام المسلمين ليسوا فى كثير من الأحيان عادلين ٠

---

(١) راجع أعمال السلب والنهب وايذاء الشـعب التى عرضها الجبرتى فى عجائب الآثار جـ ٣ صفحات : ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ؛ ٢٤٩ ؛ ٢٥١ ، ٢٥٢ ـ ٢٦٠ ٠

(٢) كان المسيو سباستيانى قد وصـل الى مصر فى ١٦ من أكتـوبر ١٨٠٢ م ، بوصفه وزيرا مفوضـا من بونابرت للوقوف على آخـر التطورات بمصر بعد خروج الفرنسـيين ؛ ومعرفة موقف كل طائفة من الطوائف المتصارعة على السلطة والاتصال بهم جميعا ، وكان من خطة المبعوث الفرنسى مقابلة كبار العلماء والتعرف على ميولهم بعد هذه الفترة التى مضت منـذ خروج الفرنسيين ، وقد دون المسيو سباستيانى ملاحظاته فى تقرير قدمه الى حكومة القنصـل الاول ، وقد قامت الحكومة الفرنسية بنشر هذا التقرر الخاص بمهمته فى الجريدة الرسمية فى ٣٠ من يناير ١٨٠٣ ، بعد حذف فقرات منه اقتضت الحكمة السياسية حذفها .
انظر : د ٠ محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، جـ ١ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦ ٠

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٧ ـ ٣٨ ٠

وقد ترجم الجبرتى عن هذا التغيير الجديد عندما أعاد كتابة تاريخ الحملة الفرنسية مرة ثالثة ، وأخرج عنها الجزء الثالث من كتابه الضخم : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » بعد أن أضاف اليها حوادث ما بين ١٢١٦ هـ وسنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠١ ـ ١٨٠٥ م) ، ففى هذه الصياغة الأخيرة تظهر آراء الجبرتى المعتدلة ، فقد أشاد ببعض أعمال الفرنسيين ، وأبدى اعجابه ببعض نظمهم الحضارية ؛ فى عدة مواضع من كتاب عجائب الآثار ، وكان قد أغفل الاشارة اليها فى كتابه مظهر التقديس .

مثال ذلك اعجابه بتفوق الفرنسيين العلمى ، وكان قد سجله فى مخطوطة ليدن « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر (١) ثم أشار اليه اشارة سريعة فى مظهر التقديس (٢) ، ثم توسع فيه أخيرا فى عجائب الآثار (٣) .

وقد سجل الجبرتى منشور بونابرت الأول الذى أعلنه على الشعب المصرى فى يومياته الخاصة « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر » ، وفى « مظهر التقديس » ، وعلق عليه بالنقد والتجريح لجميع ما فيه من أخطاء ومزاعم ، وذلك تحت عنوان : « تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب المنعبكة » (٤) . وهى التعليقات التى سبق أن أشرنا اليها ، أما فى « عجائب الآثار » فقد حذف هذا النقد برمته .

ثم أثنى على تنظيمهم للديوان ، واعطائهم مرتبات مجزية لأعضائه تغنيهم عن الارتشاء ، فيقول فى ذلك : « ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة أربعة عشر ألف فضه فى كل شهر عن كل يوم أربعمائه نصف فضه وللقاضى والمقيد والكاتب العربى والمترجمين وباقى الخدم مقادير متفاوته تكفيهم وتغنيهم عن الارتشاء » (٥) .

ولعل أوضح صورة لهذه المقارنة تظهر عندما تقارن ما كتبه الجبرتى عن حادثة مقتل كليبر ومحاكمة قاتليه ـ فى كلا المؤلفين : ففى (مظهر التقديس (٦) يورد خبر الحادثة موجزا ، ولا يسجل محاضر التحقيق ولا محاضر جلسات المحاكمة التى نشرها الفرنسيون فى حينها .

أما فى (عجائب الآثار)فيورد هذه المحاضر بنصها العربى كما نشرت ، ويعلق عليها تعليقا يدل على اعجابه الظاهر بنظامهم القضائى وضبطهم الأحكام ؛

---

(١) تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) مظهر التقديس ص ٩٥ ـ ٩٦ .
(٣) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٥ ـ ٣٧ .
(٤) مظهر التقديس ص ٣١ ـ ٣٥ .
(٥) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٤٥ .
(٦) مظهر التقديس ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠ .

فيقول : « وقد كنت أعرضت عن ذكرها (يعني محاضر التحقيق) لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة ، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة (المحاكمة) ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجرى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة (الحكم) فيهم بما اقتضاه التحكيم ·· بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد » (١) ·

ويؤخذ من قول الجبرتى الأخير « مما سيتلى عليك بعضه بعد » أنه قد وضع لنفسه منهجا جديدا لبيان مفاسد النظام العثمانى والمقارنة بينه وبين الحكم الفرنسى ، وهذا ما أوضحه فى تلك الصياغة الأخيرة لأحداث الحملة فى كتابه « عجائب الآثار » ·

ويتضح من هذا العرض السريع : أن الجبرتى سجل أحداث الحملة الفرنسية بادىء ذى بدء فى يوميات خاصة (مخطوطة ليدن) كان يحتفظ بها لنفسه ، وكان فى هذا التسجيل الأول مؤرخا أمينا ، يوجه النقد الى جميع الأطراف بموضوعية ونزاهة ، ولم تؤثر فيه عوامل المعاصرة كالرغبة فى التقرب الى الحكام والرهبة منهم ، أو التحرج من بعض الأشخاص ذوى النفوذ ، أو من له بهم صلة ، وهى الأمور التى ظهرت الى حد كبير فى كتابه مظهر التقديس ، والى حد ما في « عجائب الآثار » ·

(١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٢٢ ·

لغة الجبر..

للأستاذ رفعت الفرنوانى

يقفنا تاريخ الدرس اللغوى على أن اللغة العربية قد حظيت بألوان من الدراسات الجليلة على أيدى الأفذاذ خلال القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ٠

ولقد تنوعت هذه الدراسات وتعددت ، حتى شملت كافة مستويات الأداء اللغوى من : أصوات الى صرف الى تراكيب الى معانى المفردات ٠

كانت البدايات قوية وناضجة بشكل يستحق الاهتمام ويثير التأمل ، فكتاب سيبويه الذى يعالج جوانب الأصوات والصرف والنحو ، وكتاب أو معجم العين لأستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدى ؛ يعبران عن بداية لافتة للنظر فى الدراسات اللغوية ، فهما أقرب ما يكونان الى البداية من القمة ، وحقيقة فقد سبق هذان الكتابان الجليلان بمحاولات متعددة ، ولكن هذه المحاولات لم تكن تمثل تمهيدات كافية لظهور هاتين القمتين من قمم الدرس اللغوى ٠

والقفز من القمة دون تمهيدات طبيعية ـ كما تقفنا على ذلك طبائع الأشياء ـ يمكن أن يتحول الى سلاح ذى حدين ، وذلك بالتحديد ما حدث فى الدرس اللغوى للعربية ، حيث ابتدأ علماؤها يدورون فى فلك هاتين القمتين ، يقتربون ولا يجاوزون ، يشرحون ولا يضيفون يختصرون بفهم حينا ، وبدون فهم فى بعض الأحيان ٠

وهذا بعينه ما حدث بعد القرن الرابع الهجرى ، فاكتفى علماء العربية بالنظر الى ما قاله الأقدمون متعصبين لهذا الرأى أو لذاك ، مهملين حقيقة جوهرية تنص على أن اللغة كائن حى يولد وينمو ويتطور أو يموت ، ولقد كان وراء موقفهم المتابع لما قاله الأقدمون سببان هما :

١ ـ العجز عن الاضافة الى تراث الأقدمين ما يساوقه أو يفوقه ٠

٢ ـ الخوف على اللغة الفصحى التى أنزل بها القرآن الكريم ٠

ويحمل لنا هذا السبب الثانى كل دوافع التجمد فى دراسة العربية خلال مراحله التاريخية المتعاقبة ، ابتداء من نهاية عصور الاستشهاد حتى وقتنا الحاضر ٠

وان نظرة واحدة تحاول الربط بالمقارنة بين العربية فى هذا الموقف ـ أو المأزق ـ الذى أوقعها فيه علماء عصور ما بعد القرن الرابع الهجرى ، وبين غيرها من اللغات ، توصلنا الى النتيجة التى نعايشها ، وتشهد على أن العربية دون غيرها من اللغات الحية ، لم تحظ بدراسات لغوية تاريخية تقفنا على مراحل تطورها المتعاقبة ، سواء أكان هذا التطور فى أصواتها ، أم فى بناء كلماتها ، أم فى تراكيبها ، أم فى دلالاتها ، ولعل وراء ذلك ما نحسه من غرابة ونحن نقرأ نصا عربيا ينتمى الى تلك الفترات التاريخية التالية للقرن الرابع الهجرى ، بل ان غرابتنا لتشتد حين نتصفح كتابا مثل « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » لعبد الرحمن الجبرتى ، حيث يبعد الفاصل الزمنى بينه وبين العربية المدروسة ، ولنسمها عربية التراث (١) ، وحيث تقل بالتالى وجوه التشابه بين لغة الجبرتى وبين عربية التراث تلك ، على أساس ما هو مسلم به فى الدراسات اللغوية من تطور فى كافة مستويات اللغة المعينة ، بتطور وتلاحق مراحلها التاريخية ٠

ان اللغة فى التصور البسيط والعميق ـ كذلك ـ ضرورة اجتماعية ، وحين نبدأ من البداية ونوجه الى أنفسنا السؤال التالى : لم نتكلم أو نكتب ؟ تكون الاجابة : لنتفاهم ونقضى حاجاتنا ، وبما أن الحاجات الاجتماعية تتغير من عصر الى عصر ، بل ومن طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعية أخرى ، فى اطار عصر واحد ، فإن النتيجة المحددة هى أنه على اللغة كى تواصل حياتها أن تتغير بتغير الظروف المحيطة بها ، والا كان عليها أن تخلى المسرح لغيرها من اللغات أو للهجات القادرة على تمثل الظروف وعلى التعبير عنها ٠

وعلى هذا الأساس فليس لنا أن نتوقع تماثلا بين اللغة فى فترتين مختلفتين ، ومن الظلم ـ ان لم يكن من الخطأ ـ أن نحكم على اللغة فى مرحلة من مراحلها بمعيارية تستمد أصولها من مرحلة أخرى من مراحل تلك اللغة ، لأن اللغة لا تعيش فى فراغ ، وانما تعيش فى واقع الظروف الاجتماعية التى تسود فتراتها ٠

نقول هذا الكلام فى البداية ؛ رفعا للأوهام الشائعة التى تردد عبارات غامضة عند الحكم على اللغة فى فترة ما من الفترات ؛ بناء على أحوال تلك اللغة فى فترة سابقة ، ولقد كان للغة الجبرتى نصيب من تلك الأحكام العامة ، حيث

نظر اليها من خلال الأسس المستمدة من عربية التراث ، وحكم عليها تبعا بالتخلف أو بالجمود أو بالقصور (٢) •

علينا اذن كى نكون موضوعيين تماما ؛ أن ننظر الى لغة الجبرتى فى اطار عصرها بنواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية ، وحين ننتهى من النظر اليها فى هذا الاطار ، يكون من حقنا أن نعقد المقارنات بينها وبين الفصحى فيما يسمى « عصورها الزاهرة » •

وحتى يكون لتلك السطور العاجلة فائدة فى القاء الضوء على لغة شيخ المؤرخين الجبرتى ، نرى أن نحدد نقاطا من هذا البحث فى :

١ ـ كلمة عامة عن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية واللغوية لعصر شيخ المؤرخين •

٢ ـ عجز الفصحى التقليدية السائدة عن الوفاء بالحاجات الاجتماعية الجديدة •

٣ ـ تناول لغة الجبرتى بالدراسة فى مستوياتها ؛ ابتداء من الأصوات ومرورا بالصيغ والتراكيب ، وانتهاء الى النظر فى بعض الجوانب السيمانتيكية أو الدلالية •

ومن هنا يمكننا الحكم على تلك اللغة ـ ان كان ثمة ما يدعو الى الأحكام ، ومن المفيد أن نحدد أساس الحكم وهو : مدى قدرة لغة الجبرتى على تمثل ظروف العصر وحاجاته والتعبير عنها •

أما ظروف العصر السياسية ؛ فغنى عن الافاضة لفت النظر الى أن مصر كانت احدى الولايات التابعة للسلطنة العثمانية ، وكان يحكمها الوالى أو الباشا التركى الموفد من قبل السلطان فى استامبول وان كان حيم البشوات الأتراك قد أصبح صوريا فى عصر الجبرتى ، وانتقلت السلطة الفعلية فى مصر الى فرسان المماليك بكافة فئاتهم : البكوات ، والصناجق ، وحكام الأقاليم ، حتى احتلت جيوش الفرنسيين مصر فى عام ١٧٩٨ ، ففر المماليك الى الشرقية والوجه القبلى ، واختفى الجنود الأتراك من شوارع القاهرة طيلة الأعوام الثلاثة التى احتل فيها الفرنسيون مصر ، ثم عاد اليها هؤلاء وأولئك عقب خروج الفرنسيين ، فعادت مصر بوجه عام ؛ والقاهرة على وجه الخصوص مسرحا للصراع بين كافة طوائف المماليك والأتراك المتصارعة ، حتى تولى « محمد على » حكم مصر ، وحاول بث روح جديدة فيها بالقضاء على المماليك وتقلص نفوذ طوائف الجنود الأتراك ، والاعتماد على المصريين فى المجال العسكرى بالذات •

وتسلمنا تلك الظروف السياسية الى تصور عن الظروف الاجتماعية .،

ولقد كان هيكل المجتمع المصرى المؤلف من أقل من ثلاثة ملايين ـ يتكون فى أواخر القرن الثامن عشر من طبقتى الحكام والمحكومين ٠

أما الحكام فهم فئة المماليك « الذين استبدوا بحكم البلاد ، وكان عدد المقاتلة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف ، ما بين مقدمين وأمراء وكشاف وضباط وجاقات وأجناد وأتباع (٣) » وعلى رأس هذه الفئة من الناحية الشكلية : الوالى أو الباشا التركى الذى كان يمثل حكومة السلطان فى استامبول ، ولم يكن لهذا الوالى كما قلنا أى نفوذ فى عصر الجبرتى ، فقد كان عديم السلطة ، يعزل فى الوقت الذى يفقد فيه ولاء أمراء المماليك ، أو يقتل ، ليحل محله والى أو باشا جديد ، ليقوم بنفس الدور فى الرياسة الشكلية ، ثم يعزل أو يقتل ، وتمتلىء صفحات الجزءين الأول والثانى من عجائب الآثار (٤) بأخبار هؤلاء الولاة الأتراك الضعاف ٠

وأما المحكومون فهم أبناء الشعب المصرى الذين اشتركوا معا فى حمل عبء المأساة الغاشمة نتيجة لحكم المماليك الأحمق ، ولسيادة الأتراك الجاهلة ، وقد انقسم المصريون الى طبقات أو فئات تختلف فيما بينها من حيث المكانة الاجتماعية : فعلى قمة الهيكل الاجتماعى كان العلماء ورجال الشرع ، والعلماء هنا هم علماء الأزهر ، حيث لم يوجد فى ذلك العصر سواهم ، ويلى تلك الطبقة طبقة الملاك والتجار ، ثم طبقة المزارعين والفلاحين ، ثم طبقة الصناع (٥) ٠

وقد تحملت الطائفتان الأخيرتان ـ كما جرت العادة فى مصر على مدى التاريخ ـ كل ألوان الاذلال والقهر ، فقدمتا العرق ـ كرها ـ للحكام ومن والاهم ، وعاشتا ضحية التعسف والاستغلال ، فحصدت المجاعات الألوف من أبناء هاتين الطائفتين ، وتمتلىء صفحات عجائب الآثار (٦) بأقاصيص الاذلال التى نسجتها تصرفات فرسان المماليك لهؤلاء الضحايا ، سواء فى المدن أو فى القرى ، من نهب الى سرقة الى اغتصاب (برسم حق الطريق وغيره) ، الى قتل الى تشريد الى احراق للبلاد والكفور ، الى انتهاك للأعراض ، ولأبسط المبادىء الانسانية ٠

وليس اغراقا فى العاطفة أن نقول : انها كانت فترة سوداء كريهة وبغيضة فى حياة أسلافنا ، لدرجة أن الأسئلة التى تتوارد على الخاطر تقف حائرة دون اجابة ، ولعل أول هذه الأسئلة : كيف استطاع أجدادنا الحياة فى ظل تلك الظروف البغيضة ، ولعل آخرها : كيف استطاعت مصر نفسها أن تواصل الحياة ؟

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا التنبؤ سلفا بالحالة الثقافية فى عصر الجبرتى ، وتقتضينا تلك الحالة أن نتوقف قليلا عند الأزهر ، حيث كان المعقل الوحيد

للثقافة والفكر فى تلك الفترة المظلمة ، ولما له من فضل خاص على آداب اللغة العربية ، لأنه احتفظ بها فى أثناء « الأجيال المظلمة » (٧) .

ويجمع المؤرخون على أن الجهل كان فاشيا ، وأن الشعب فى تلك الفترة قد رزح « تحت نير الاستغلال وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معـــاهد التعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذى كان قائما منذ قرون ، وبعض المدارس الملحقة بالمساجد ، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت شعلة العلم فى مصر ، وكان فى القاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصـــدقات والأوقاف ، لكنها كانت ضعيفة الأثر فى تبديد ظلام الجهالة فى البلاد » (٨) .

أما المدارس الأخرى التى انتشرت وازدهرت فى عهد الفاطميين وعهـد الأيوبيين ، فقد آل أمر أكثرها الى الخراب « حتى انقطع التدريس منها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات الى عماراتها ومرمتها ، فامتدت أيدى الناس والظلمة الى بيع رحابهـــا وأبوابها وشبابيكها ، حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليـــلة الى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام ، وبعضها زال بالكلية ، وصـــار زريبة أو حوشا أو غير ذلك ، ولله عاقبة الأمور » (٩) .

كما تبددت خزائن الكتب التى كانت عامرة بالكتب فى عهد الفاطميين ، ولم يبق الا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد ، كمكتبة الأزهر التى كان بها الى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣٫٠٠٠ مجلد (١٠) .

وقد ترتب على هذا كله أن قل عدد المثقفين ، وانحصر داخل اطار المتعلمين فى الأزهر ، كما قل عدد من نبغوا فى الحياة الأدبية أو العلمية ، فلا « تكاد تعد فى هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجى والسيد محمد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشـــهور صاحب « تاج العروس فى شرح القـــاموس .. » و ... عبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبى السرور البكرى صاحب الروضة المأنوسة ، والصبان ، وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر ، لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم أو الآداب (١١) .....

ولقد انعكس هذا الفقر الثقافى على حياة مصر وعلى حياة المصريين ، حتى ابتدأت حركة الاصلاح فى عهد محمد على بارسال البعثات الى أوربا ، وما ترتب عليها من محاولة نقل مصر والمصريين من ظلمات العصور الوسطى الى نور العصر الحديث .

كما امتد أثره الى اللغة وهى الوعاء الجوهرى للثقافة ، وقبل أن نتعرف على أحوال اللغة فى عصر الجبرتى ، نرى من المفيد الاشارة الى أن الجبرتى قد تعلم فى الأزهر ، حتى أكمل ذلك التعليم ، وأنه قد تخرج فيه وله من العمر اثنان وعشرون عاما (١٢) •

ولقد كان هناك على وجه العموم مستويان لغويان يسودان عصر الجبرتى ، نستطيع التمييز بينهما بوضوح :

أولهما : مستوى لغة الكتابة الفنية بمقاييس تلك الكتابة فى هذه الفترة ، وهو المستوى الذى لا يعنينا كثيرا فى دراسة لغة الجبرتى ، برغم اعتناقه له فى بعض فقرات من كتاباته ، ونلمحه فى مقدمتى كتابيه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » و « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ، كما نلمحه فى بعض تراجمه لمن توفوا فى حياته من العلماء وأقطاب المجتمع •

وانما لا يعنينا هذا المستوى كثيرا ، لأنه — فضلا عن عدم انتشاره فى لغة الجبرتى — لا يمثل خواص للغة الجبرتى وحدها — وهى موضوع بحثنا هذا — بل يمثل خواص لغة الصنعة اللفظية فى الكتابة ، حيث يسود السجع والجناس والطباق وسائر أنماط المحسنات اللفظية ، تلك الكتابة التى لا يمكن أن يحكم لها أو عليها بأنها تنتمى الى عصر الجبرتى فقط ، فهى تمتد الى الوراء ، الى حيث وضع أسسها عبد الحميد بن يحيى الكاتب فى أخريات العصر الأموى •

ثانيهما : مستوى لغة الكتابة التلقائية ونقصد بها : تلك الكتابة التى لا ترسف فى أغلال المحسنات البديعية ، ولا تئن تحت وطأة الزخارف اللفظية ، وهذا المستوى هو الممثل الحقيقى للغة الجبرتى ، اذا استثنينا مما كتب تلك الصفحات القليلة التى تحكمها الصنعة ويعوق تلقائيتها الزخرف ، ونزعم أن ذلك المستوى هو الذى ساد لغة المحاورات فى الأزهر ، وشاع بين مثقفى تلك الفترة فى مناقشاتهم العلمية وفى مجالسهم الخاصة •

ويقدم لنا بعض مؤرخى الأدب آراءهم فى لغة الكتابة آنذاك ، وهى برغم عموميتها يمكن أن تلقى لنا بعض الضوء على تلك اللغة ؛ من نواح نفسية أو اجتماعية قد لا يحفل بها كثيرا من يدرس خواص لغة علم من أعلامها كالجبرتى •

ويكاد مؤرخو الأدب هؤلاء يجمعون على أن الحركة الأدبية « قد تعطلت فى تلك الفترة ، بل تحجرت ، وانحرفت اللغة العربية بل فسدت ، فكثر فيها التركى والعامى ، وحادت عن قواعد الاعراب ، وابتعدت عن سلامة التركيب العربى الأصيل ، ومن هنا أصبح الأدب فى حالة من السقم تقارب الموت ، فكانت تمثله نماذج نثرية وشعرية هزيلة •• وهى نماذج شاحبة مفتعلة غالبا ، تغطى

ركاكتها فى أكثر الأحيان ألوان من البديع ؛ كثيرا ما تبدو كأكفان ذات ألوان وتطاريز تلف أجداثا وعظاما » (١٣) ٠

ثم يضرب بعضهم المثل على انحطاط لغة الكتابة فى ذلك العهد بلغة ابن اياس صاحب بدائع الزهور ، والجبرتى ، وان كانوا يقررون بالنسبة للجبرتى : أنه يمتاز بكثير من الروح المصرية ذات الومضات التى تلوح من خلال التهافت اللغوى » (١٤)

ونلمح فى آراء هؤلاء المؤرخين أنهم يتوقفون عند لغة الجبرتى ، محاولين اعطاءها بعض الخصائص العامة المميزة لها عن المستويات اللغوية السائدة ، كامتيازها بكثير من الروح المصرية مثلا ، وكاحتوائها على القوة والحيوية التى ترضى القارىء الخاص وتسليه ، وتعجب القارىء العادى وتفيده (١٥) ، فأسلوبه « فى الكتابة قد غلب عليه طابع العصر ، وان كان قد درس فصيح ثعلب وفقه اللغة وأدب الكاتب ٠ ولا نظلمه فنزعم أنه أسلوب عامى ، فان فيه الفصيح والسهل ، والجزل المسجوع ، وقد يعلو ويرتفع ، وينحط ويتضع ، وأحيانا يستمسك ، وطورا يتفكك ، مما يدل على تباعد فترات الكتابة » (١٦) ٠

ويحاول بعضهم اخراج الجبرتى من سلك محترفى الكتابة وصناعها « فالجبرتى لا يزعم أنه كاتب أديب ، وقد كانت الكتابة صناعة أدبية يقوم بها من توفروا على أسبابها من حفظ الرسائل والشعر وفنون الأدب المعرفة » (١٧) ٠

ويلقى لنا هذا الكلام للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ـ الضوء على النقطة الجوهرية المميزة للغة الجبرتى ، وهى التلقائية التى تندّ عن الصنعة وتنأى عن التكلف والافتعال ، ويدلل الأستاذ الرافعى على ذلك بقوله « ومع أن الجبرتى من تلاميذ السيد مرتضى شارح القاموس ، فلم يفده السيد أكثر مما كان يفيده لو أعطاه كتابا من أمهات كتب اللغة ، فوقعت فى تاريخه الأغلاط الكثيرة فى المفردات وفى العبارة وفى الأسلوب ، ويرجع كل ذلك الى أنه لم يفرغ للأدب ولا مهر فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ، ثم عهد الى التاريخ ، فسبيله الدقة والتمحيص ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمعاناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ، وذلك كله قد وفى الرجل به ٠

أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج الى مثل الوقت الذى ألف كتابه فيه ، وأكبر الظن أنه مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب ، فلو كان العمر قد امتد به لنقح وهذب ، وبحث وفتش ، وأضاف الى صناعة التاريخ صناعة الكتابة » (١٨) ٠

ويضيف هذا دليلا جديدا على ما نقوله من تلقائية لغة الجبرتى ، ومن أنها تمثل ـ وبصدق ـ لغة المثقفين فى عصره ، فمن يمسك بقلمه ، ثم يفيض

انتاجه غزيرا فى وقت قصير بالنسبة الى الكم المكتوب ؛ لايمكن أن يلجأ الى الصنعة ، فهدفه محدد فى أن يسجل الحوادث الكثيرة المتلاحقة ، وهى من الكثرة والتلاحق بحيث لاتدع له فرصة التفكير فى طرائق تعبيرية ؛ ترتفع بلغته أو تنخفض بها عن المستوى التعبيرى الشائع فى عصره ؛ وبين أوساط المثقفين الذين ينتمى اليهم ، وهذا اذا وضعنا فى الاعتبار أنه لم يكن يفعل ذلك لقصر ذات يده عن صناعة التفنن والترسل فى القول ، فالجبرتى « لم يكن قليل البضاعة فى الأدب ، فان عباراته فى بعض المواطن تدل على أنه ضرب بسهم فى اللغة وأوضاعها ، لكنه لم يعن بالانشاء والبلاغة ، فأسلوب الجبرتى أسلوب تقريرى لا شأن له بصناعة الترسل ، ولا بفنون الأدب ، وما يتفق من محاسن اللغة والتعبير ؛ فمرجعه الى المصطلحات والألفاظ الشرعية الجارية فى الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الأدب ، وهذه المراجع هى مادة العلم واللغة فى ذلك العصر • وظاهر لمن يحقق النظر فى كتب الجبرتى من الوجهة اللغوية أنه لولا العلوم الشرعية ، وما يجرى فيها من اللغة وأوضاعها لبادت الكتابة العربية فى ذلك العصر ، ولكان تاريخ الجبرتى قد جاءنا فى لغة ليس فيها من العربية الا حروفها » (١٩)

ويشير الأستاذ الرافعى بقوله : وما يتفق من محاسن اللغة والتعبير فمرجعه الى المصطلحات والألفاظ الشرعية •• الى ذلك المستوى التعبيرى الآخر الذى لجأ اليه الجبرتى قليلا فى مقدمة كتابية ، أو فى بعض تراجمه لمن توفوا فى عصره ، والذى لايمثل خواص مميزة للغة الجبرتى وحدها ، وانما يمثل كما سبق القول ـ خواص لغة الكتابة الفنية منذ أرسى أسسها عبد الحميد بن يحيى الكاتب فى أخريات العصر الأموى •

ان ذلك التوقف من مؤرخى الأدب ولغته فى تلك الفترة عند الجبرتى وما كتب ، يؤكد ما نقول من تفرد لغة الجبرتى ببعض الخواص التى لم تتوافر فى كتابات تلك الفترة ، واذا كنا نقسم لغة الكتابة الى مستويين متميزين هما :

١ ـ مستوى لغة الكتابة الفنية بمقاييس العبارة الفنية فى تلك الفترة •

٢ ـ مستوى لغة الكتابة التلقائية كما نجدها عند الجبرتى •

فمرجع ذلك سببان :

أولهما : ما لاحظناه على لغة الجبرتى من عدم التقيد فى معظم أجزائها بقيود الصناعة الأدبية ، وباسترسالها فى تلقائية بسيطة ، تعيد الى الذهن صورة مثقف ثقافة لغوية ودينية يتكلم ، ولا يكتب كتابة صناعية ذات أصول فنية محددة •

واذا كان لنا أن نستعمل التعبيرات المجازية ، فلغة الجبرتى صوت مكتوب ؛ أقرب ما تكون الى تلك اللغة التى يمكن أن يسجل بها أى من المثقفين

ثقافة لغوية ودينية انطباعاته على شريط أحد التسجيلات الصوتية ، ولقد قمت بتجربة معملية لذلك وبرهنت نتائجها على هذا الادعاء ٠

ثانيهما : مالاحظة مؤرخو الأدب على لغته من روح مصرية ، ومن أنه انما مات عن مسـودات كتـاب لاعن كتاب ، ومن أن أسلوبه تقريرى ، لا شأن له بصناعة الترسل ولا بفنون الآداب ، وما يتفق فيـه من محاسن اللغة والتعبير فمرجعه الى المصطلحات والألفاظ الشرعية الجارية في الفقه والحديث والتفسير والمعاملات » (٢٠) ٠

ويؤكد لنا هذان السببان ما سبق أن قلناه من أن لغة الجبرتى فى كتاباته انما تمثل ــ اذا استثنينا منها تلك الصفحـات القليلة التى تجـرى على نمط الكتابة الفنية ــ لغة المثقفين فى عصره ، وهى الثقافة اللغوية الدينية التى كان الأزهر مصدرها آنذاك ، والتى انعكست على محاورات الأزهريين وعلى محاضراتهم فى أروقة هذا المسجد العتيق ٠

ولعل من المناسـب الآن أن نتوقف عند كل مستوى من هذين المستويين وقفة سريعة ؛ لنتكشف من خلال بعض النماذج المسوقة لكل منهما ما نقوله من تقيد بالصناعة فى المستوى الأول ، ومن تلقائيـة تشبه تلك التلقائية فى لغة الكلام فى المستوى الثانى ٠

فمن الكتابات التى تمثل لغة الصنعة قول الزبيدى « فان التصنيف مضمار تنصب اليه خيل السباق من أوب ثم تتجارى ، فمن شاط بعيد الشأو وساع الخطو تشخص الخيول وراءه ، الى ملهم سباق فى الحلبة ، حيفاء على القصبة ، ومن لاحق بالأخريات ، مطـرح خلف الأعقاب ، ملطوم على شـق الغبار موسوم بالسكيت المخلف ، ومن آخذ فى القصد متنزل سطة ما بينهما ، قد انحرف عن الرجوين وجال بين القطرين ، فليس بالسباق المفرط ، ولا اللاحق المفرط ٠

وقد تصديت للانصباب فى هذا المضمار تصدى القاصد بذرعه ، الرابع على ظلعه ، فتدبرت فنون العلم التى أنا كائن بصدد تكميلها ، وقائم بازاء خدمتها وتحصيلها ، فصادفت أصلها الأعظم وهو اللغة العربية خليقة بالميل فى صفو الاعتناء بها والكدح فى تقويم عنادها ، واعطاء بداهة الوكد وعلالته اياها (٢١) ٠

ومنها كذلك ما نلمحه فى مقـدمة عجـائب الآثار للجبرتى « انى كنت سـودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثـانى عشر وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيـه ، جمعت فيهـا بعض الوقائع اجمالية ، وأخـرى محققة تفصيلية ، وغالبهـا محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك سـوابق سـمعتها ، ومن أفواه الشـيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشـهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبـارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، فاحببت جمع شملها ، وتقييد

شواردها في أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعــة ، ويستفيد ما يروقه من المنفعة ، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية ، فيتأسى اذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر « انما يتذكر أولو الألباب » فانها حوادث غريبة في بابها ، متنوعة في عجابها ٠

وسميته « عجائب الآثار في تراجم الأخبار » وانا لنرجو ممن اطلع عليه ، وحل بمحــل القبول لديه ، ألا ينســانا من صالح دعواته ، وأن يغضى عما عثر عليه من هفواته » (٢٢) ٠

ويقدم لنــا هذان النموذجان شــاهدا على المستوى اللغوى الأول الذى تحكمه الصنعة ، ويصعب ارجاعه الى فترة محددة من تلك العصور الطويلة التى انحــدرت فيها لغة الكتــابة بالفصحى وغرقت فى أوحــال الزخرف اللفظى السقيم ٠

ولو أن نص الجبرتى يمتاز عن نص أســتاذه الزبيدى باحتوائه على بعض الحقائق ٠ أما نص الزبيدى برغم ثقله فلا يقدم لنا أكثر من فكرة بسيطة مؤداها أن الناس اما سابقون أو متخلفون أو متوسطون في مجالات أعمالهم ٠

فاذا ما عدنا الى النصين بشىء من التحليل وجدنا :

١ ــ أنهما لا يحتويان على خواص صوتية تند عن تلك الخواص المألوفة فى اللغة الفصحى التقليدية ، وذلك عكس ما سنلمحه من بعض الخواص الصوتية عند تعرضنا للجانب الصوتى فى لغة الجبرتى التلقائية ٠

٢ ــ أنهما لا يحتويان على خواص صرفية تخالف النظام الصرفى المألوف فى اللغة الفصحى التقليدية كذلك ، سواء فى الصيغ أو فى السوابق الصرفية واللواحق والأحشاء ٠

٣ ــ أنهما لايحتويان على خواص تركيبية ، فنظــام جملهما يســـير على النمط المألوف كذلك فى لغة الكتابة بالفصحى ، وقد روعى فيها جانبا المطابقة concord والاعراب ٠

٤ ــ أنهما لايحتويان على خواص معجمية ، فمفرداتهما تســتعمل لأداء نفس المعانى القاموسية المتعارف عليها فى مستوى اللغة الفصحى ٠

٥ ــ أنهما أخيرا من الناحيــة السيمانتيكية لا يحملان مدلولات جديدة تخالف ما يمكن أن نستشفه من تراكيبهما ، لو فرضــنا انتماء هذه التراكيب الى عصور سابقة ٠

لهذا كله نحيل دراســة هذا المســتوى تحليليا على من يريد الاضطلاع بدراسة خواص الكتابة الفنية فى اللغة العربية ، كما أننا لانرضى بالافتراض

القائل بأن هذا المستوى ربما كان تلقائيا كذلك عند الجبرتى ، أو عند غيره من الكتــاب ، ودليلنا على ذلك ما تحفل به نماذجه من محسنات لفظية مصطنعة ، تخرج باصطناعها عن اطار التلقائية ، وان أيا من الناس قد عانى الكتابة لا يمكن أن يسلم بتلقائية لغة تكثر قواعد محسناتها البديعية الى درجة الازعاج •

فمن محسنات لفظية الى أخرى معنوية تشــد ذهن الكاتب ، وتجبره على التفكير فى كل كلمة يكتبها ، لتتلاءم معنــويا أو لفظيا مع كلمة أخرى سابقة أو لاحقة ، ومن رغبة شعورية من الكاتب فى الاجادة والاتقان فضلا عن الصحة فى جانب القواعد •

وهذا كله يجعلهــا تدور فى اطار محــدود لاتعدوه ، والى هذا كله يرجع السبب فى عدم تطور هذا المستوى من الكتابة ؛ من أيام عبد الحميد الى مطالع العصر الحديث •

فاذا ما حاولنــا الاحاطة بهــذا المستوى فى لغة الجبرتى ، باحثين عن الموضــوعات التى يعبر عنها ، وجــدنا انه لايرتبط بموضوع معين ، بل يقتصر دوره على مقدمة « عجائب الآثار » و « مظهر التقديس » ، وعلى قليل من التراجم التى كتبها لمن توفوا فى عصره •

لقد كتب الجبرتى فى كل الموضوعات التى حفل بها عصره تقريبا ، وكان من بينها ما يمت الى النواحى الذهنية أو الوجدانية ، والموضوعات التى تدور فى هذا الاطار ــ كما يعرف ذلك جيدا كل ما عانى صناعة الأدب ــ تلزم الكاتب بقدر من التفنن ومحاولة الاجادة ، كموضوعه عن الحملة الفرنسية فيما « هدمه الفرنساوية وخربوه وما أحدثوه من العمائر وغيرها (٢٣) » وكموضوعه الذى يسميه « ذكر حادثة سماوية » (٢٤) •

ولكنه كتب فى هذه الموضــوعات بنفس الطريقــة التى كتب بها عن موضوعات أقل شأنا كموضوع « اسماعيل الحربوطلى الذى قبض عليه لانه عمل فى تلك الليلة وليمة » (٢٥) •

ومن هنــا يحق القول بأن هذا المستوى الصناعى لايرتبط عند الجبرتى بموضوعات ذات طبيعة معينة ، كما يحق لنا القول كذلك : بأنه لا يمثل خواص للغة الجبرتى وحدها •

وعلى أية حال فنحن لانلمح فى كتابات هذه الفترة ــ وقد حوى عجائب الآثار نماذج كثيرة منها ــ ما يمثل المستوى الثانى (التلقائى) بطريقة أشمل وأصدق من كتابات الجبرتى وسنضرب مثالا واحدا من اللغة التلقائية ، ونحيل من يريد التأكد مما نقول على كل صفحات عجائب الآثار أو مظهر التقديس تقريبا :

« ونصبوا قبالة تلك القبة صوارى ، علقوا بها قناديل وبيارق وشراريب حمرا وصفرا واجتمع حول ذلك غوغاء الناس ، وعملوا قهاوى ، وبياعين الحلو أو المخللات والترمس المملح والفول المقلى ، ودهسوا ما بتلك البقعة من قبور الأموات ، وأما ضـجة الأوباش وصراخهم وفرقعتهم بالبارود وصياحهم ، فقد شاهدنا به ما كنا نسمعه عن عفاريت الترب وضرب المثل بهم ، فهم أقبح منهم ، فان العفاريت الحقيقية لم نر لهم أفعالا مثل هذه » (٢٦) ٠

وخلاصة القول هنا أننا نجد أمامنا مستويين لغويين يمثلان لغة الكتابة فى عصر الجبرتى ، لايصـلح أحـدهما لتمثيل لغة العصر وحدها ، ولا يصـلح كذلك لتمثيل لغة الجبرتى أو لغة الحياة الثقافيـة فى المحاورات العلميـة وفى حلقات الدروس ، لأنه مستوى صناعى ، له قواعده البديعية المختلفة تلك القواعد التى لا يمكن لمتكلم أن يطبقها فى لغته المنطوقة تطبيقا عاديا ، فضلا عن اجادتهـا والالتزام بهـا ، حيث يحتاج تطبيقها الى اعمال الفكر واستحضار قواعد البديع ، وهو المستوى الذى لا نجده الا فى صفحات معدودات فيما كتب الجبرتى ٠

أما المستوى التلقائى ، فهو بحق المستوى الذى يمثـل لغة العصر ، أو بتعبير أدق لغة المثقفين ثقافة دينية ولغوية فى ذلك العصر ، فى محاوراتهم وفى حلقات دروسهم ، لأنه لايتطلب من مستعمله فى الأداء اللغوى أكثر من أن ينطلق على سجيته غير مقيد بأبواب المحسـنات البديعية اللفظية أو المعنـوية ، وهو المستوى الذى نجده فى كل صفحات الجبرتى على وجه العموم ، كما نجده فى كثير من كتابات المثقفين فى عصر الجبرتى (٢٧) ٠

ولعله ليس من فضول القول التنبيه على نفى ما قد يتبادر الى الأذهان من ادعاء أن ما تتميز به لغة الجبرتى من خواص ـ سنرى بعضها عما قليل ـ انما يرجع الى تأثره بأسلافه الأحباش ، ذلك أن الفترة الزمنية التى انقضت على حياة أسلافه فى مصر كفيلة بالقضاء على أية شوائب لهجية يمكن أن تكون قد تسللت الى لغتهم العربية من لغتهم الحبشية الأم ، ومن المعلوم أن هذه الفترة تبـلغ ثلاثة قرون (٢٨) ، قضاها أسلاف الجبرتى فى تولى مشيخة رواق الجبرت فى الجامع الأزهر ٠

أما كون لغة الجبرتى ممثلة لثقافتـه ؛ فذلك مالا يغيب عن البـداهة ، وبما أن ثقافة الجبرتى هى ثقافة العصر ، فليس أمامنـا الا التسليم بأن لغـة الجبرتى انما تمثل ثقافة العصر اللغوية الدينية ٠

لقد كان هذا كله تناولا اجماليا لظروف العصر المختلفة التى أسلمت الى ما رأيناه بطريقة عامة ؛ من تفرد الجبرتى بذلك المستوى التلقائى فى الكتابة ،

وقبل أن نتناول بالبحث جوانب من خواص هذا المستوى ؛ نرى من المناسب لفت النظر الى نقطتين ؛ هما :

١ ــ أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الكلام حقيقة نفسية ولغوية ٠

٢ ــ أن المستوى الصناعى الذى كان شائعا فى الفصحى قد عجز عن تمثل حقائق عصر الجبرتى ٠

ولننظر الى كل من هاتين النقطتين ــ على حدة ــ بشيء من التحليل ٠

فنحن حين نتعامل مع الجبرتى لغويا ؛ انما نتعامل فى الحقيقة مع ما كتب الجبرتى ــ ندرك هذا جيدا ، ونهيىء أنفسنا للتعامل مع نص مكتوب ، ولنا أن نتوقع فى هذه الحالة طرائق لغوية تشابه تلك الطرائق المألوفة لدينا فيما نقرأ من نصوص متخصصة ، مع التسليم باختلافها عما نطالع من نصوص تنتمى الى فترات زمنية سابقة او لاحقة ، ولكن توقعاتنا حين نغذ السير فى القراءة خلال صفحات الجبرتى سرعان ما تتهاوى ، وتسلمنا تلك الحقيقة الى شيء من الحيرة قد تشتد حتى تصل الى درجة الغموض ، وليس فى هذا السلوك أية غرابة ؛ اذا سلمنا ــ وليس لنا الا أن نسلم ــ بقول اللغويين : ان النمط المكتوب والنمط المنطوق من اللغة لا يختلطان أبدا ، ومن الخطأ أن نظن أن النص المكتوب ، يعتبر تمثيلا دقيقا للكلام ، فلسنا نتكلم كما نكتب ، بل أننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا ، وان أقل الناس ثقافة يشعرون بمجرد وضع أيديهم على القلم بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة ، لها قواعدها واستعمالاتها ، كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها (٢٩) ٠

بيد أن قول اللغويين السابق : « اننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا » لاينطبق على كل ما كتب الجبرتى ؛ فقد ينطبق على كتاباته التى تنتمى الى المستوى الصناعى الرسمى ، ولكنه لا ينطبق على كل كتاباته التى تنتمى الى المستوى التلقائى ٠

وينبغى أن يكون هذا واضحا تماما أمام من يقرأ كتابات الجبرتى ، عليه أن يتوقع لغة لا تنتمى تماما الى لغة الكتابة ، ولا تنتمى تماما الى لغة الكلام ، بل هى فى الحقيقة وسط بين اللغتين ٠ ولتزداد المسألة وضوحا فانا نحيل على تجربة بسيطة للغاية ، دعنا نتخيل أحد المثقفين ثقافة لغوية ودينية يتكلم فى احدى قاعات الدرس ، ودعنا نتخيل اننا قد سجلنا ما يقول على أحد المسجلات الصوتية ثم قمنا بكتابة ما على الشريط ، وتركناه فترة زمنية ، ثم عدنا الى ذلك الكلام المكتوب وحاولنا قراءته ، سنجد شيئا محيرا ، قد نحكم عليه تارة بأنه ينتمى الى المستوى الفصيح ، وقد نحكم عليه تارة أخرى ، بأنه ينتمى الى المستوى العامى ، ولهذا فعلى من يقرأ الجبرتى أن يوطن نفسه على

حالة شعورية لم يألفها فى قراءاته السابقة ، وهى أن يكون شديد اليقظة متأهبا للانتقال بين كافة المستويات اللغوية : فصحى التراث ، فصحى الصنعة ، فصحى الجبرتى التلقائية ، عامية مثقفى العصر ، عامية عوام العصر ، وربما عجز القارىء عن الفهم اذا أهمل مراعاة ذلك ، حيث تختلط هذه المستويات جميعها أو معظمها أحيانا فى اطار تركيب واحد لا يعدو ـ كما سنرى ـ عددا محدودا من السطور •

ولقد كان الجبرتى بسلوكه اللغوى ذاك ، الذى تختلط فيه بحدة مستويات الأداء اللغوى ، صادقا مع نفسه ، ومدركا فى صدقه ذاك عجز لغة الصنعة الفصيحة عن تمثل الحقائق التى حفل بها عصره ، ونرى من المحتم الآن تقديم تصور عام عن الظروف والملابسات التى حكمت تلك اللغة ، حتى لا يبقى ثمة مجال للشك فى ادعائنا بتلقائيتنا ، وبعجز لغة الصنعة عن الوفاء بحاجات العصر •

لقد سبق القول بأن تلك التلقائية تمثل الاتجاه العام فى كتابات الجبرتى ، وأنها فضلا عن هذا تمثل لغة المثقفين ثقافة دينية ولغوية ، هؤلاء الذين ينتمون الى علماء الأزهر والمتعلمين فيه ، ولم نحكم على لغة الجبرتى بالتلقائية عفوا ، وانما صدر هذا الحكم بناء على مجموعة من الاعتبارات أهمها :

١ ـ أن الجبرتى قد تعلم فى الأزهر حتى تخرج منه ، وأنه قد درس على أشياخه علوم اللغة والدين ، تلك العلوم التى كانت تمثل الثقافة السائدة فى ذلك العصر ، وبذلك تحقق انتماؤه الى فئة المثقفين ثقافة لغوية ودينية ، ومن غير المعقول أن نفسر كثيرا مما نلاحظه على لغته ، أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمها ودلالاتها ؛ على أساس أنه قد أخطأ من وجهة النظر (الرسمية) للأصوات والصرف والنحو ، تلك التى تمثلها وتحميها قواعد الفصحى كما دونت فى كتاب سيبويه ومن خلفه من اللغويين العرب ، وكما درسها الجبرتى فى حلقات الدروس فى الأزهر وبين أروقته ، أى أن الجبرتى كما تكشف لنا ثقافته وثقافة عصره كان يجيد قواعد القدامى ، ويطبقها فى كثير من الأحايين ، ولكى تتسق الأمور ، لابد من تفسير ما نرى فيه خروجا على المعروف من قواعد الفصحى ؛ على أساس تلقائية اللغة ، حيث ينطلق الكاتب على سجيته متبعا قواعد الفصحى أحيانا ، ومقترضا من العامية أو من غيرها من اللغات التى كانت سائدة آنذاك أحيانا أخرى ، ومتأثرا بهذه أو بتلك فى بعض الأحايين •

٢ ـ أن طبيعة الموضوع الذى كتب فيه الجبرتى ؛ وهو التأريخ لعصره ولرجالاته ؛ تحتم عليه ألا يلجأ الى اللغة المصنوعة المليئة بالمحسنات البديعية الزخارف اللفظية ، لأن ذلك اللجوء ـ فضلا عن صعوبته القصوى نظرا للكم الكبير لما كتب الجبرتى ـ لا يساير طبيعة موضوعاته الجزئية التى تمثل الحياة

بكل مظاهرها ، كالموالد والمآتم والأفراح والحج والمظاهرات والثورات والاحتفالات والنقد والتقريظ ، والضيق من محمد على ، والتعصب للمماليك ، ووصف مظاهر الحياة الأوربية كما وصلت الى مصر على يد علماء الحملة الفرنسية ، ووصف القناطر والفيضانات والضرائب والحروب وأعمال الدواوين والمؤتمرات والانقلابات غيرها ·

٣ ــ ان من يكتب عن الحياة الاجتماعية ــ كما سبق القول ــ مطالب بأن يكتب بلغة هذه الحياة ، لأنه من الصعب على مثقف أزهرى كالجبرتى أن يكتب بالعامية على طول الخط من جهة ، ومن الصعب على الفصحى الرسمية أن تساير طبيعة موضوعاته من جهة مقابلة ، حيث انحدر مستواها وضعف بناؤها ودارت فى فلك المحسنات السقيمة والزخرف الممجوج ، أصبح من المحتم أن يراق الجبرتى فى لغته بين المستوى الفصيح وبين المستوى العامى ، مقترضا من العامية صيغة أو تعبيرا أو فقرات بأكملها ، ليعبر لمجتمعه عما يراه بلغة هذا المجتمع ·

٤ ــ اننا لو نظرنا فى اقتباسات الجبرتى ــ وما أكثرها ــ من لغة غيره وجدنا مصداقا لما نقول من عجز الفصحى التقليدية ــ ان صح القول ــ عن الوفاء بحاجات الحياة ، ومن عجز مثقفى ذلك العصر عن الالتزام المطلق بهذه اللغة مادة وقاعدة ·

وقد أنتجت هذه الأسباب جميعها مانراه أمامنا من لغة تمثل تماما عصرها ، ذلك العصر الذى يشكل عدم الثبت فى اتجاه معين ، أهم قسماته · عدم الثبات فى اتجاه معين لغويا ، حيث الحيرة والتردد بين الفصحى والعامية ، واجتماعيا ، حيث الحيرة بين قيم اجتماعية تنتمى الى العصور الوسطى ، وبين قيم اجتماعية أخرى تنتمى الى العصر الحديث ، أطلت برأسها مع الحملة الفرنسية ، وسياسيا ، حيث الحيرة بين المماليك والأتراك والفرنسيين ، وثقافيا ، حيث الحيرة بين العلوم التقليدية المتوارثة وبين معارف جديدة حملها من أوربا علماء الحملة الفرنسية ·

ولعل من المناسب الآن ــ بعد أن تعرضنا بصفة عامة لمستوى الأداء اللغوى عند الجبرتى ــ أن نلقى الضوء بشيء من التفصيل عن خواص لغته فى مستوياتها المختلفة : أصواتها وصرفها ، ونحوها ، ومعجمها ، ودلالاتها ·

أولا الأصوات :

تشترك العامية مع الفصحى فى نطق جميع الأصوات الساكنة consonait vowek ، باستثناء أصوات الثاء والجيم والذال والظاء والقاف ، حيث تختص الفصحى باستعمال هذه الأصوات ، فى الوقت الذى تنفرد فيه العامية بأصوات الجيم كما ينطقها أهل القاهرة ، والجيم المعطشة الشبيهة بالجيم الشامية فى مثل (بيجامة أو أباجورة) ، والهمزة المتقلبة عن القاف الفصحى فى مثل : ألت =

قلت ، والظاء في مثل ظابط) ، ولا تمثل أصوات الفصحى مشكلة في لغة الجبرتي ، حيث تستعمل جميعها ، أما الأصوات الأخرى التي تنفرد العامية باستعمالها وهي : صوتا الجيم وصوت الهمزة المنقلبة عن القاف الفصحى ، وصوت الظاء ، فهي ــ وبعض الأصوات الأخرى التي سنتعرض لها بعد قليل ــ التي تثير صعوبات أمام دراسة الجانب الصوتي في لغة الجبرتي المكتوبة ، وسنحاول باختصار شديد وبعيدا عن الجانب الفني البحت في الدرس الصوتي ــ أن نعرض لهذه الأصوات في لغة الجبرتي :

١ ــ صوت الجيم :

توجد في لغة الجبرتي ثلاثة أصوات للجيم ، هي الجيم الفصحى كما ينطقها القرآن الكريم الآن ، والجيم المعطشة الشبيهة بالجيم الشامية في الكلمات المقترضة من التركية مثل : (ينكجرية) = انكشارية ، (جيراكسة) = شراكسة ، (جاهين) = شاهين ، (لاجين) = لاشين .

والجيم الموجودة في عامية القاهرة الآن ، وتوجد في الكلمات المقترضة من العامية المصرية : (حجنة) وتعني تلك النباتات الشائكة التي تنمو على حواف المجاري المائية و (جفيط) صفة للحم الرديء ، و (جوخ) نوع من القماش و (جوبات) بمعنى الخطابات ، و (كرباج) بمعنى سوط ، و (خرج) بمعنى وعاء قماش توضع فيه الأشياء .

٢ ــ صوت القاف :

توجد في لغة الجبرتي صورتان للقاف هما : القاف كما ينطقها قراء القرآن الكريم الآن ، وتستعمل في الكلمات الفصحى وفي الكلمات المقترضة من التركية مثل : (قليونجية) بمعنى بحارة (وصنجق) بمعنى أمير و (قابجى) بمعنى رسول و (عرقانة) بمعنى سجن .

والقاف التي تنطق همزة في عامية القاهرة المعاصرة ، وتستعمل في بعض الكلمات المقترضة من العامية المصرية مثل (قفاطين) و (قهوة) بمعنى مقهى ، (شقيقه) بمعنى جانبي الانسان و (رقاصة) بمعنى راقصة و (حراقة) بمعنى حريق و (عراقي) وهي غطاء للرأس في بعض قرى الريف المصري و (غلقان وقفف وقزم) .

٣ ــ صوت الثاء :

لا تستعمل العامية المصرية هذا الصوت ، بل تحل محله صوت السين في مثل : الراجل سابت في مكانه = ثابت ، أو التاء في مثل (تلاته) = ثلاثة .

ومن حسن الحظ أن الكتابة تستطيع مساعدتنا فى هذه الحالة ، ولقد اقترض الجبرتى كلمات من العامية تحتوى على صوت (الثاء) الفصحى ولكنه كان يكتبها أحيانا بالثاء مثل (ثم أن فى ثانى يوم قدموا عرضحال الى الباشا) كما كان يكتبها أحيانا أخرى تاء فى مثل : (كان الجزار يأتى بالغنيمة او الاتنين الجفيط) وفى مثل (ولم يجدوا مكاتبات من الأمراء القبالى ولا أتر لذلك) أو بالسين فى مثل (الخط السلس) و (فلم يكترسوا) و (أساس داره) بمعنى أثاث ٠

وبناء على ذلك نرجح عدم وجود صوت الثاء الفصحى فى لغة الجبرتى مستعملة فى الكلمات المقترضة من العامية ، بل حل محله صوتا التاء ، أو صوت السين ٠

وينطبق ذلك على بقية الأصـــوات ما بين الأسنانية (الذال والظاء) فى الكلمات المقترضة من العاميه ، أو فى أسماء الأعلام ، مثل (ذو الفقار) بالنسبة للذال التى كانت تنطق هنا (زايا) ومثل (واستمر هناك الى آخر النهار فى حظ وكيف) بالنسبة للظاء التى كانت تنطق هنا (ظاء عامية) ٠

صـــوت التـاء :

يقترض الجبرتى من العامية بعض الكلمات التى يستعمل فيها صوت التاء بديلا لصوت الدال فى الفصحى ، فالصيغة (زغاريد) تســـتعمل فى العاميـة (زغاريت) ونجد عند الجبرتى المثال : (وانطلقت النساء بالزغاريت) ٠

والفعل (زغرد) فى الفصحى تستعمله العامية (زغرت) أو (زغرط) وقد استعمل الجبرتى الفعل الأخير فى المثال : (خرج أهل منزلك وزغرطوا) ٠

ونود أن نلفت النظر الى أن الجبرتى قد يستعمل صوت الياء بديلا لصوت الهمزة فى الكلمة (يسيرا) من المثـال : (وهو أخو على باشا الذى كان أخذ يسيرا) أى (أسيرا) وهو الاستعمال الموجود فى العامية فى مثل :

الله الله يابدوى جاب اليسرى ، بمعنى : جاء بالأسرى

كما تشترك العامية مع الفصحى فى نطق أصوات الحركات ، وتزيد عليها باستعمال الأصـوات الحركية : الكسرة الطويلة الممالة كما فى نطق الكلمـات (محمدين ، عوضين ، يوم الاثنين) والضمة الطويلة الممالة كما فى الكلمات (هون ، يوم ، عوف) ، والحركة المركزية ٠

ويستعمل الجبرتى صوت الكسرة الممالة فى بعض الكلمات المقترضة مـن العامية ، مثل كلمة (كيف) بمعنى (مزاج) فى المثال : (واستقر هناك الى آخر النهار فى حظ وكيف ٠)

كما يستعمل صوت الضمة الطويلة الممالة في بعض الكلمات المقترضة عن العامية كذلك ، مثل كلمة (هون) بمعنى وعاء معدني ضخم ، في المثال : (فلما فرغوا ، مرورا بعشرة مدافع كبار على عربات ، وعربتين تحملان هونين قنابر) .

وخلاصة هذا كله أن لغة الجبرتي تحتوي على أصوات الفصحى وعلى أصوات العامية ، وأن هذا يحدث تغييرات في النظام المقطعي للغة ، حيث ينتج لنا أنماطا من المقاطع لا نجدها في فصحى التراث .

ثانيا : الصرف :

سنكتفي في هذا الجانب بلفت النظر الى صيغتي (انفعل) و (تفعل) ، حيث يستعملهما الجبرتي في مواطن كثيرة نفس استعمالاتهما في العامية ، ومن المعلوم أن العامية قد أحلت هاتين الصيغتين محل صيغ المبني للمجهول التقليدية في الفصحى ، وذلك بعد تحويرهما صوتيا بما يتلاءم معهما فصارت صيغة انفعل فيها (فعـــل) مثل : (انضرب = ضرب في الفصحى ، انطعن = طعن في الفصحى) وصـــارت صيـــغة تفعل منها (اتفعل) مثل : (اتكسر = كسر في الفصحى ، اترمى = رمى في الفصحى) .

وبالتأمل في أمثلة الجبرتي ، نجـد أن (أنفعل) يمكن أن يكون مطاوعا ويمكن أن يكون غير مطاوع ، وأن المطاوع قد استخدم في مقابل الصيغ التقليدية للمبني للمجهول في الفصحى المعتمدة ، ومن الأمثلة على ذلك : (انجر الموكب) في مقابل : جر في الفصحى ، (انحط الأمر بينهم) في مقابل : حط في الفصحى ، و (إنحصروا داخـــل الأبراج) في مقـــابل : حـوصروا في الفصـــحى و (انحلت الأسعار) في مقابل : حلت في الفصحى ، و (انفصل عن القضاء) في مقابل فصل في الفصحى ، و (انجرح بينهم جماعة) في مقابل : جرح في الفصحى ، و (انهرس من كان في العلو) في مقـابل : هـرس في الفصحى ، و (انطعن وانغدر) في مقابل طعن ، وغدر به في الفصحى .

أما غير المطاوع من أمثلة هذه الصيغة فلا يستعمل في مقابل الصـــيغ التقليدية للمبني للمجهول ، بل يؤدي وظيفته المألوفة في فصحى التراث ومن أمثلته : (قصر مد النيل وانهبط قبل الصليب) أي هبط ، (فانغرز الحصان في رويه وتحتها الماء العميق) .

وبالتأمل كذلك في أمثلة صيغة (تفعل) عند الجبرتي ، نجد أن بعضها يستخدم للمطاوعة وأن بعضها الآخر لا يستخدم للمطاوعة ، وأن تلك الأمثلة التي تستخدم فيها (تفعل) للمطاوعة وقد حلت محل صيغ الأفعال المبنية للمجهول في الفصحى المعتمدة ومن أمثلتها :

(تقيد بأبواب القاهرة بعض نصارى القبط) في مقابل قيد في الفصحى ،

(وفى آخره تحرز ديوان العشور) فى مقابل حرر فى الفصحى ، و (مما تخرب أنصار حارة المقسى) فى مقابل خرب فى الفصحى ، (وفى عشرينه توكل رجل قبطى بجمع طائفة من الناس) فى مقابل وكل ، و (تعين فى الافتاء) فى مقابل عين ، و (ترقى حتى عمل خازندار) فى مقابل رقى .

أما الأمثلة التى وردت فيها صيغة (تفعل) لغير المطاوعة فانها لاتحل محل صيغ الأفعال المبنية للمجهول فى فصحى التراث ، وانما هى أفعال مبنية للمعلوم ومن أمثلتها :

(وتشفع عند قائم قام) = شفع ، و (فتقلق هؤلاء الثلاثة) = قلق ، و (تحذروا شدة التحذر) = حذروا ، و (تمرض أشهرا) = مرض ، (ترشد فى العلوم) = رشد ، و (تكمل فى الفنون العرفانية) = كمل .

ونلاحظ أن العامية المعاصرة تسلك نفس السلوك فى تعاملها مع الأفعال من صيغة (تفعل) حيث تحل فيها أفعال هذه الصيغة اذا دلت على المطاوعة محل صيغ الأفعال المبنية للمجهول فى الفصحى كما فى مثل (الأرض / أتوحلت) . و (الراجل اتقيد فى الشغل) و (أخوه اتعين فى الحكومة) .

أما الأمثلة (اتشفع فيه ، اتغرب له يومين ، اتلزق فى البنت) فانها لا تدل على المطاوعة ، وتتفق بذلك مع أمثلة هذه الحالة عند الجبرتى ، فهى مثلها لاتدل على حالة البناء للمجهول .

وينبغى ألا يفهم من ذلك أن صيغ المبنى للمجهول التقليدية ، قد اختفت من لغة الجبرتى ، أنها فقط اخلت حيزا من الرقعة التى كانت تحتلها فى الفصحى التقليدية لصيغتى الانفعال والتفعل الزاحفتين ، ومن أمثلة تلك الصيغ التقليدية : (انتهب ، عدم البصل الأحمر ، واستفيض أمر الصلح ، ونوه بشأنه ، ولم يعلم هروبه ، وقتل بعض قتلى ، وأسر بعض أسرى) .

ونفس الشىء ينبغى أن يطبق على العامية ، وان كان ورود صيغة المبنى للمجهول العامية كاد ينتهى ، بحيث لم تبق منه الا أمثلة متخفية فى مثل الكلمات (تشكر ، تكرم ، علم) .

ويحتم المقام ما دمنا نتعرض لموضوع البناء للمعلوم والبناء للمجهول ، أن نلفت النظر الى أن الجبرتى يستعمل فى بعض الأحيان صيغتى (اسم الفاعل واسم المفعول) استعمالا متميزا ، فالصيغة الأولى تدل فى الفصحى على الحدث ومن أوقعه ، والصيغة الثانية تدل على الحدث ومن أوقع عليه هذا الحدث ، بيد أن بعض أمثلة اسم الفاعل عند الجبرتى تدل على الحدث ومن أوقع عليه ، وليس من أوقعه مثل : (وكان هو المتعين فى الافتاء) ويعنى : المعين ، و (وفى يوم السبت .. سافر محمد باشا المنفصل من بولاق الى رشيد) ويعنى المفصول ، و (ثم نزل الباشا المتولى) ويعنى المولى و (انقطع الجالب) ويعنى المجلوب .

أما صيغة اسم المفعول فانها برغم دلالاتها على الحدث ومن أوقع عليه مثل وضعها فى الفصحى ، فانها تثير بعض الملاحظات ، ومن أهمها : استعمال بعض أمثلة لها استعمالا غير مألوف فى الفصحى مثل (مكسوف البال) والفصحى تستعمل كاسف ، ومثل (أوراق مدشته) ولا يوجد فعل لهذه المادة فى الفصحى ، و (التحيلات على المتهومين) ويعنى المتهمين .

كذلك يشيع جمع صيغة اسم المفعول على مفاعيل مثل (مجاريح ، معاليم ، مساتير الناس) وتتفق استعمالات الجبرتى فى هذه الحالة مع العامية .

ثالثا — التراكيب النحوية :

سنعرض للتراكيب النحوية فى لغة الجبرتى من زوايا ثلاث هى : الموقعية Place of words والمطابقة Concord والاعراب .

وسيتركز اهتمامنا نظرا لضيق المجال على بعض الخطوط الرئيسية فقط :

١ — ففيما يختص بالموقعية ، ونعنى بها ترتيب الكلمات فى اطار الجملة بأنواعها ، وتركيب الجمل المتتابعة ، بالنظر الى أدوات الربط فيها نجد أن الجبرتى يكثر فى الجملة الواحدة من استعمال المعادلة التركيبية :

اسم + فعل ماض أو مضارع .

بدلا من الشائع فى الفصحى وهو :

فعل ماض أو مضارع + اسم .

ويكاد الجبرتى يتفق فى استعماله ذلك مع العامية المصرية ، التى يشيع فيها استعمال الجمل المبدوءة بالاسم ، كما فى الأمثلة (الأرض بتتكلم عربى . الواد خرج ، الناس جم) .

ومن أمثلة هذه الحالة عند الجبرتى :

(والمراكب وصلت الى أول متراس) و (المصلون أيضا بذلوا جهدهم) و (عبد العال الأغا طلق زوجته) و (هذه الأربعة أشياء ، أرباب ديوان الخاصة يدبرون رأيهم فى ذلك) و (أهل الأرياف القريبة تأتى بالميرة) و (أن أفرنج أحمد يلبس حكم قانونهم) و (والنساء يلقلقن بألسنتهم من الطيقان) .

وسنكتفى بايراد المثال الأخير فى سياقه عند الجبرتى لنخلص الى بعض النتائج ، يقول الجبرتى : (فرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم والنساء يلقلقن بألسنتهن من الطيقان وفى الأسواق ، وقام للناس جلبة وصياح .. وهؤلاء الداخلون دخلوا من نقب الغريب .. وأما باب النصر والعدوى فهما مغلوقان لم يأذنوا بفتحهما

خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة ، فيقع فيهم الفشل والضرر بالناس ، وباب الفتوح مسدود بالبناء ، فلما تضحى النهار حضر قبى قول وفتح باب النصر ٠٠ ودخلت بلوكات الينكجرية وطافوا بالأسواق ، ووضعوا نشاناتهم ورنكهم على القهاوى والحوانيت والحمامات) ٠

ونلاحظ على هذا التركيب أنه :

(أ) ١ ـ يحتوى من الأصوات التى تنفرد بها الفصحى وتبرزها الكتابة صوت الذال ٠

٢ ـ يختلف عن العامية فى اعراب الأفعال (يتلقونهم) و (يسلمون) و (يباركون) بثبوت النون وفى اعراب جمع المذكر السالم (الداخلون) بالضمة الطويلة ، وفى اعراب المثنى بالفتحة الطويلة (مغلوقتان) وفى استعمال الضمير (هما) للمثنى ٠

٣ ـ يختلف عن العامية فى الحاق لاحقة جماعة الاناث (نون النسوة) بالفعل (يلقلقن)٠

٤ ـ يختلف عن العامية فى استعمال صيغة هؤلاء اشارة الى الجمع ٠

(ب) ١ ـ يستعمل الفعل (يباركون) نفس استعمال العامية :

الفعل + لام الجر + المجرور = يباركون لقدومهم ٠

٢ ـ يستعمل صيغة الوصف (مغلوق) الموجود فى العامية ، والفصحى المعتمدة تستعمل صيغة مغلق من الرباعى (أغلق) (٣٠) ٠

٣ ـ يقترض من التركية صيغ الأسماء (بلوكات) و (الينكجرية) و (نشانات) و (رنك) ٠

٤ ـ يستعمل صيغة الاسم (قهاوى) نفس استعمال العامية له ، حيث يقصد بها المقاهى ، جمع المقهى وهى اسم مكان شرب القهوة ٠

فاذا قمنا بناء على هذه الملاحظات بعملية تضمين للنطق ؛ مراعين كل جوانب المسرح اللغوى ، استطعنا أن نقول فى ضوئها ان هذا التركيب عامى مفصح بالكتابة ، وأنا لوحذفنا منه الظواهر التى تختص بها الفصحى ممثلة فى الملاحظات الأربع الأولى كان عاميا محضا ، وليس أدل على ذلك من الجملة :

(وعلى بك الوزير قتلوه أيضا وهو داخل يظنوه مصطفى بيك) ٠

حيث لا نلمح فيها من الظواهر التى تختص بها الفصحى ، من ناحية المستويات الصوتية والصرفية والنحوية شيئا ، وان كانت تتميز معجميا باستعمال كلمة (أيضا) التى لا تستعملها العامية ، ونحن لا نشك فى أنها كانت تنطق بدون اعراب أواخر كلماتها ، بدليل استعمال صيغة المضارع المرفوع (يظنوه) مجردة من علامة الرفع وهى النون (يظنونه) ٠

وينطبق ما رأيناه من تقديم الاسم على الفعل فى الجمل المثبتة السابقة ؛ على الجمل المنفية كذلك ، كما فى المثال : (وحريم بيت الباشا لم يتمكنوا منه الا بعد يومين من انقضاء الفتنة) ٠

والصور الشائعة لذلك التركيب فى الفصحى هى تقديم الفعل على الاسم كما فى الآية : (لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم) ٠

ولعل الجبرتى بمخالفته هنا لما هو شائع فى الفصحى ؛ قد تأثر بالعامية التى تسلك نفس السلوك ، كما فى الأمثلة (محمد مبينامش) و (أنا مبكلش) و (حسن م بيجيش) ٠

فاذا ما نظرنا الى ذلك السلوك اللغوى ، الذى يجنح الى تقديم الأركان الاسمية فى الجملة على الأركان الفعلية ــ نظرة اجتماعية ، أدركنا أن الجبرتى بوصفه مؤرخا يتعامل مع الأحداث التى هى من صنع البشر ، أو بتعبير أدق ــ من صنع طائفة من البشر تحتل قمة الهرم الاجتماعى فى عصره ٠ كان يهتم بهؤلاء البشر ، بأسمائهم التى تمثل لغويا الأركان الاسمية فى جملها ، باعتبارها أساسا لكل الأحداث التى تتمثل لغويا فى الأركان الفعلية لهذه الجمل ، قبل أن يهتم بما صدر عنهم من أحداث ، ومن ثم فقد جنح الى ما لاحظناه من تقديم الركن الاسمى على الركن الفعلى فى هذه النماذج ٠

بل ان الجبرتى ليذهب الى أبعد من ذلك ، حينما يقصم ظهر التسلسل الطبيعى للأحداث ليدير الكلام حول شخصية ورد ذكرها لمناسبة من المناسبات قد لا تكون جوهرية ، وعلى سبيل المثال : نراه يبدأ الحديث عن طريق خطير ، أو عن رحلة هامة من رحلات الحج مثلا ــ بما كان يكتنف هذه الرحلات من حروب ومفاجآت ، ثم يأتى فى صلب الأحداث اسم شخصية معينة ، وسرعان ما يقطع كلامه عن الموضوع الخطير ليبدأ كلاما مطولا عن هذا الاسم الذى عرض لمناسبة أو لأخرى ، ونستشهد على ما نقول بالتركيب التالى الذى يلقى لنا الضوء على ظاهرة انتشار الجمل ذات الركن الاسمى المتقدم على الركن الفعلى :

(وفى يوم الاثنين حادى عشرين شوال كان خروج المحمل صحبة أمير الحاج مصطفى بيك الكبير فى موكب حقير جدا بالنسبة للمواكب المتقدمة ، ثم ذهب الى البركة يوم الخميس ، وقد كان تأخر له مبلغ من مال الصبورة وخلافها ، فطلب ذلك من ابراهيم بيك فأحاله على مراد بيك من الميرى الذى طرفه وطرف أتباعه ، فقال نعم طرفى ذلك ، لكنه قبض فردة البلاد واختص بها ولم يأخذ منها الا قدرا يسيرا ، وكانوا قبل ذلك قرروا فردة على البلاد وقبضها ابراهيم بك ، ولم يأخذ منها مراد بيك الا أقل من مأموله ، وقصده يقطع ما عليه من الميرى لذلك ، فلم يلتفت ابراهيم بيك لقوله ، وأحال عليه أمير الحاج ، وركب من البركة راجعا الى مصر ، وتركه واياه فلم يسع مراد بك الا الدفع وتشهيل الحج وعاد الى مصر وخرج الى قصره بالروضة وأرسل الى الجماعة الذين بالوجه

القبلى ، فلما علم ابراهيم بيك بذلك أرسل اليه يستعطفه ، وترددت بينهما الرسل من العصر الى بعد العشاء ، ونظر ابراهيم بينك فلم يجد عنده أحد من خشداشينه واجتمعوا كلهم على مراد بيك فضاق صدره وركب الى الرميلة ، فوقف بها ساعة حتى أرسل الحملة صحبة عثمان بيك الأشقر وعلى بيك أباظة وصبر حتى ساروا وتقدموا عليه مسافة ، ثم سار نحو الجبل وذهب الى قبلى وصحبته على أغا كتخدا الجاويشية ، وعلى أغا مستحفظان والمحتسب وصناجقه الأربعة) •

فقد حول الجبرتى موضوع نفقة الحج الى الخلاف بين ابراهيم بك ومراد بك لمناسبة ذكر اسم كل منهما فى معرض مطالبة أمير الحج بالنفقة •

وعلى كل حال فان هذا السلوك طبيعى فى ضـوء مبرراته السالفة ، فالانسان كما يقول ج• فون جبلتس G. von Goblentz لا يستخدم اللغـة فحسب للتعبير عن شىء ، بل للتعبير عن نفسه أيضا » (٣١) •

ويقودنا ما سبق الى تناول اسم الموصول عند الجبرتى ، حيث يشكل جزءا من بناء جملة كبرى ، بمعنى أنها تحوى جملتين من الجمل النواة التى سبق التعرض لها •

والجبرتى فى استعماله اسم الموصول يحرص على الصيغ المعروفة له فى الفصحى ، ولا يلجأ أبدا الى استخدام صيغة الموصول العامية (اللى) ورغم ذلك فانه يستعمل هذه الصيغ الفصحى فى اطار تركيبات تقترب من العامية أكثر من اقترابها للفصحى ومن الأمثلة على ذلك : (وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التى من جملتها أن شريف أفندى كاتب الدفتردار أحدث على الرزق الأحباسية •• مال حماية على كل فدان عشرة أنصاف فضة وأقل) (وصاروا يكسبون الوكائل التى بباب الشعرية) و (وتكفل التجار ومساتير الناس والأعيان بكلفة العساكر المقيمة بالمتاريس المجاورة لهم ، فألزموا الشيخ السادات بكلفة الذى عند قناطر السباع وهم مصـطفى بك ومن معه من العساكر) و (أنه يتحتم ويلزم صاحب كل خمارة أو وكالة أو بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو اقليم أن يعرف عنه حالا حاكم البلد) •

ونلاحظ أن لغة عصره تتبع نفس هذا السلوك فى حرصها على الأشكال الفصحى للموصول داخل تركيبات عامية ، ومنها ما أورده الجبرتى نقـلا عن وثائق محاكمة سليمان الحلبى واصـفا اياها بالركاكة (فأشاروا له (سليمان الحلبى) على جروحاته التى ظاهرة فى دماغه) و (لأن أيضا الستوين بروتاين الذى كان معه عرفه وضربه كم عصاية الذين ضربوه) و (وهناك (فى الأزهر) شاف السيد محمد الغزى و ••• و ••• الذين ساكنون فى الجامع الأزهر) •

ويتخذ الجبرتي في استعمالاته للجمل التي تقع أحوالا أو صفات سلوكا يقترب من السلوك الذي تتبعه العامية مع هذه الجمل ، ويبتعد عن الفصحى ، حيث لا تتحقق لهذه الجمل ما تحدده لها الفصحى من وظائف لغوية معينة ، ومن الأمثلة على ذلك : (فأغرى به رجلا سجمانى كان عنده بناحية طلخا يضرب نشابا) • فقد نعت المفعول به النكرة (رجلا) باسم عامي هو (سجمانى) وهذا يجعلنا لا نقول بأن كلتا الجملتين (كان عنده بناحية طلخا) و (يضرب نشابا) قد وقعتا نعتا لهذا الاسم (رجلا) لسببين :

أولهما : لم يذكر النحويون عند تعدد النعوت لمنعوت واحد الا النعت بالمفرد •

ثانيهما : يحتم النطق الضمني الالتزام بنظام معين من الوقفات ينتج لنا من هذا التركيب ثلاث جمل هي : ١ ـ فأغرى به رجلا سجمانى (وقفة) ٢ ـ كان عنده بناحية طلخا (وقفة) ٣ ـ يضرب نشابا •

وينتج لنا تتابع الجمل أنساقا من الأفعال لا نألف تتابعها في الفصحى مثل :

(وأصبحت خرجت من دارها) و (وأرسل عرفهم بما حصل) و (كان أراد محمد بيك تلبيس مصطفى أغا) و (وقد كان سافر في أواخر ربيع الأول لقلعة كريد) و (وهو أخر على باشا الذى كان أخذ يسيرا من البرديسى من برج مغيرل) و (أريد أقلد صنجقيتين لشخصين يكونان اشراقين) و (فانهم يرسلون يوفونكم بذلك) و (أراد أن يذهب الى الجامع الأزهر يقع على العلماء) و (أرسل الباشا الى مراد بك الدفتردار يعمل جمعية في بيته) و (وطلبوه يركب معهم يأخذون بثأره) •

وأساس ابتعاد هذه الأمثلة وغيرها عن الفصحى أنها تخلو من أدوات الربط المألوفة في الفصحى بين الجمل المتعاقبة ، كأدوات العطف أو الاستقبال أو اللام المصدرية وأن • ويقودنا اهمال استعمال أن المصدرية أحيانا الى التوقف عند استعمالها ، حيث تأتى غالبا في تركيب مكون من : جملة + أن + ضمير + جملة تالية •

أمثلة : (وحلف على أنه يحبسهم) و (وصارت كوما يظن من لم يكن يراه من قبل أنه له مائة عام) و (وحملهم الغيظ على أنهم دخلوا عليه بعد العشاء وقتلوه) •

والتركيب المألوف في الفصحى لهذه الحالة هو :

جملة + أن + جملة أو جملة + أن بدون ضمير متصل بها + جملة •

فالفصحى تستعمل (وحلف على أن يحبسهم) و (صارت كوما يظن من لم يكن يراه من قبل أن له مائة عام) و (وحملهم الغيظ على أن دخلوا عليه بعد العشاء وقتلوه) •

ولعل التشابه واضح بين استعمالات الجبرتى لأن + الضمير وبين استعمالات العامية ٠

على أن أدوات التعليل وعلى الأخص (اللام) فى مثل جئت لكذا يقل استعمالها فى لغة الجبرتى ، ويستعمل بدلها صيغتى (بسبب أو لأجل) المساويتين لصيغة التعليل العامية (علشان) ٠

فاذا ما انتقلنا الى استعمال أدوات العطف عند الجبرتى ، وجدنا تميزا فى استخدام بعضها ، وعلى الأخص : (الفاء والواو وحتى) ٠

ومن الأمثلة على ذلك (أشيع انتقال الأمراء المصرلية من جهة البحيرة وقبلوا الى ناحية الجسر الأسود) حيث عطف الجملة الفعلية (وقبلوا) على المصدر (انتقال) غير ملتفت الى ما يقتضيه العطف من تجانس بين الصيغ المتعاطفة ، ولا ينبغى أن ندخل فى جدال مع معتنقى التأويلات العقلية ، الذين نتخيلهم يصيحون معترضين بأن هذه الواو للحال ، ونطمئنهم سلفا بأن تحكيم المقاييس النحوية على لغة الجبرتى تحكم لا مبرر له ٠

و (ولما وصل الى جمجمون فهدمها عن آخرها وهدم أيضا كفر دسوق) فقد وقعت الفاء فى جواب لما وهذا سلوك غير مألوف فى الفصحى ، ويشيع ورود هذه الفاء بعد لما فى الجزءين الأول والثانى من عجائب الآثار ويقل نسبيا فى الجزءين الثالث والرابع ٠

فاذا ما انتقلنا الى استعمال الجبرتى للعدد ، وجدناه لا يلتزم استعمال الفصحى له ، ولا يلتزم كذلك استعمال العامية له ، بل يراوح بين الاستعمالين ، كما فى المثال : (وصل واحد قابجى) ويذكرنا هذا باستعمالات العامية (واحد شاى ، واحد حلبة ٠ الخ) والعامية فى سلوكها ذلك متأثرة ببعض اللغات الأجنبية ، وكما فى المثال : (واستمر هناك نحو الست سنوات متوالية) والفصحى تقول (الست السنوات) وكما فى المثال : (وقد زادوا عن الأول خمسة عشر عربة) والفصحى تقول : (خمس عشرة عربة) وكما فى المثال : (وانتظروا ثانى يوم فلم يأتهم شىء فأغلقوه (المسجد) ثانيا) والفصحى تقول : (اليوم الثانى أو (ثانى الثلاثة) مثلا ٠ وكما فى المثال : (وأعلمهم أنه يركب ثالث يوم العيد ويشق المدينة) والفصحى تقول فى اليوم الثالث ٠

على أن للجبرتى بالنسبة للأعداد استعمالات متميزة ، تتكرر فى كل صفحات عجائب الآثار تقريبا ، وتتمثل فى تركيب النيف مع صيغة عشر أو مع أحد العقود (من ٢٠ ـ ٩٠) كما فى الأمثلة : (وفى حادى عشرينه) و (فى خامس عشرينه) و (وكانت وفاته رابع عشرين من ربيع الأول) فقد ركبت هنا صيغة (فاعل) ٠٠ حادى وخامس ، رابع مع أحد العقود ، والفصحى تستعمل هذه الصيغ معطوفة هكذا : وفى الحادى والعشرين ، وفى الخامس والعشرين ، وفى الرابع والعشرين ٠

وقد يستعمل صيغة العدد : أحد + أداة عطف + أحد العقود . وهـذه الاستعمالات لم ترد في الفصحى ، ومن أمثلتها : (وقرروا عليهم أحـدا وخمسين ريالا) و (يشتمل على أحد وعشرين مدفعا) و (واستمر هو يتعاطى الأحكام أحدا وتسعين يوما) .

كما يلفت النظر في الاستخدام العددي عنده ، أنه يفصل بين العدد من وزن فاعل وبين الكسر المعطوف عليه بالتمييز ، كما في المثال :

(وكان طالع التحويل في يوم الجمعة في خامس ساعة ونصف من النهار سبع درجات ونصفا) .

ومن الواضح أن الفصحى تقدم في أمثال هذه الحالة التمييز بحيث يكون موصوفا بالعدد هكذا . في الساعة الخامسة والنصف .

وينبغي أن نشير في هذا الصدد الى تلك الاستعمالات المتميزة عنـد الجبرتي ، حيث يستعمل ما تعرفه الفصحى متعديا لازما ، أو العكس ، ويضيق المقام هنا عن التعرض للحالات النحوية المختلفـة لهذه الظـاهرة وسنكتفي بالأمثلة : (حتى غلب الفرنسيس عليهم) والفصحى تقـول حتى غلبهم و (ضربوا عليه) والفصحى تقول (ضربوه) و (كان يحقده ويحسـده) والفصحى تستعمل الفعل الأول لازما (يحقد عليه) .

كما ينبغي أن نلفت النظر الى أن اسـتعمالات الجبرتي لحروف الجر لا تتمشى مع ما نعرفه في الفصحى المعاصر ، ولا تتمشى مع ما نقرؤه في فصحى التراث ، ولا تتمشى مع ما نعرفه في العامية ، وأنها بحاجة الى فرصة أوسع تكفل القاء المزيد من الأضواء عليها .

٢ ــ وفيما يختص بالمطابقة ، وتعني مراعاة القواعد المقررة في الفصحى بالنسبة للتذكير أو التأنيث من جانب ، أو بالنسبة للافراد أو التثنية أو الجمع من جانب آخر ، أو بالنسبة للتعريف أو التنكير من جانب ثالث بالنسبة للأبواب النحوية المختلفة ، نجـد في حالة التذكير أو التأنيث ؛ أن الجبرتي يستخدم استخدامات نوعية مألوفة في الفصحى بالنسبة للفاعل ولاسم الاشارة ، ولاسم الموصول وللنعت بنوعيه ، وللعدد . وحين نقول غير مألوفة ، لا نعني أن الفصحى لم تستعمل بعض ما سنورد أمثلة له من استعمالات الجبرتي ، بل نعني أنها لم تستعمله بصورة مطردة أو شبه مطردة ، وهذا ما تتميز به لغة الجبرتي .

ففي بعض استعمالات الجبرتي نراه لا يلحق تاء التأنيث بالفعل المسند الى الفاعل الجمع للمؤنث العاقل ، مثل : (فتضرر المحترفات منهن) وهو هنا يتكلم عن البغايا ، وتنص قواعد الفصحى على الحاق تاء التأنيث بالفعل هكذا (تضررت) وفي الوقت ذاته نراه يلحق هذه التاء بالفعل المسند الى

الفاعل جمع المذكر السالم ، مثل : (وجلت الفلاحون من بلادهم) و (وفيه هجمت القبليون على المتاريس) و (فلما دخلت المسلمون وحضر زوجها ... أمنها وطمنها) و (فأرسلوا فى طلب غيرها فلم تسعفهم القطاعون) وتنص القواعد المعتمدة على عدم الحاق التاء بالأفعال المسندة الى جمع المذكر السالم .

وفى بعض استعمالات الجبرتى لأسماء الاشارة ، نراه يستعمل صيغتى (تلك وهذه) وهما للمفردة ـ اشارة الى الجمع المذكر مثل (فعينوا عليهم تلك العساكر) و (هذه الجنود) .

وفى بعض استعمالاته لأسماء الموصول نراه يستعمل صيغة (التى) وهى للمفردة المؤنثة عائدة على جمع المذكر ، مثل : (وفى سابع عشرينه رجعت العساكر التى كانت توجهت الى جهة الشرق بحمولهم) .

وبالنسبة للنعت ، نراه يصف الجمع بصيغة المفردة ، مثل : (وأمروا المشايخ الباقية الذين لم يحبسوهم بتقيدهم ونظرهم الى البلد والعامة) و (الغز البطالة) و (أكابر كثيرة) كما نراه يصف المفردة بصيغة المفرد ، مثل : (وأن الحرب القائم بها مستمرة) ، كما نراه لا يلتزم قواعد الفصحى بالنسبة للنعت السببى كما فى المثال (فلما كان فى صبح ذلك اليوم أطلقوا مدافع كثيرة ساعة نبش القبور بالقرب من قصر العينى ، وأخرجوا الصندوق الرصاص الموضوع فيه رمته ليأخذوه الى بلادهم) والفصحى تحتم (الموضوعة) .

وبالنسبة للعدد ، نراه لا يلتزم بما تحتمه قواعد الفصحى فى مراعاة جانب التذكير أو جانب التأنيث ، وقد سبق أن ضربنا بعض الأمثلة على ذلك فى تعرضنا لموضوع العدد .

وفيما يختص بالافراد والتثنية والجمع ، وكذلك التعريف والتنكير ، لا يلتزم الجبرتى ما تنص عليه قواعد الفصحى ، ويضيق المقام عن سرد الأمثلة المختلفة لهاتين الناحيتين .

٣ ـ الاعراب : وفيما يختص بالاعراب ، نحب أن نلفت النظر الى الاجابة على السؤال القائل : هل لغة الجبرتى معربة أو غير معربة ، ليست من السهولة كما قد يتصور البعض ، وينبغى أن نتذكر أن لغة الجبرتى تتوزع بين مستويين هما : المستوى المصنوع ، والمستوى التلقائى ، وأن المستوى الأخير يمتزج فيه جانبا الأداء الفصيح والعامى ، وعلى أساس ذلك فمن الظلم تحكيم المقاييس الاعرابية التقليدية فى لغة الجبرتى بكافة مستوياتها ، والنظرة الموضوعية توقفنا على الاحتكام الى ثلاثة مقاييس للنظر فى جوانب الاعراب فى تلك اللغة ، وهى :

١ ــ مقياس الصحة النحوية العام ، ويندرج تحته ما نراه مسايرا لأحكام النحاة العرب الاعرابية •

٢ ــ مقياس الصحة النحوية الخاص بلغة الجبرتي ، ويندرج تحته ما نرى فيه اطرادا فى الاستعمال عند الجبرتى ، بصرف النظر عن توافقه مع مقاييس النحاة أو عدم توافقه •

٣ ــ مقياس الخطأ النحوى ، ويندرج تحته ما نرى فيه عدم اطراد فى الاستعمال •

ولقد قمت بتطبيق هذه المقاييس الثلاثة على لغة الجبرتى ، ورأيت أن لغته التلقائية تخضع لقواعد اعرابية لم توفها الفصحى من قبل (٣٢) •

رابعا : المعجم :

سبقت الاشارة الى أن الثروة اللفظية عند الجبرتى تتوزع بين ثلاثة مصادر هى : الألفاظ العربية ، والألفاظ المقترضة من اللغات الأجنبية وخاصة التركية والفارسية ، والألفاظ المقترضة من العامية المصرية ، وسنضرب هنا بعض الأمثلة للألفاظ المقترضة من اللغات الأجنبية ، وللألفاظ المقترضة من العامية ، فمن أمثلة الحالة الأولى : أساكل ، أسباهية ، أسكى نازى ، أميراخور ، أنختار أغاس ، باباغورى ، بيتباش ، الجبجية ، جاجرت ، الجنباذية ، جنك ، زنجرلى ، سردار ، سرششمة ، عرظند ، فندقلى ، قنجة ، قيسارية ، كانون ، همايونى ، وجاق ، يارن ألاى ، يطقانات ، ينكجرية ، خجا ، خواجا ، فستانات ، يزدجرى ، بنديره ، كمشارى •

ومن أمثلة الحالة الثانية : ليلة الأربع ، أساس داره ، الأنقاط ، باكية المسجد ، بخت ، براطيش ، بقجة ، بلغ ، بوظة ، تجريس ، تربية ، تريش حاله ، تسليك ، تواخى معه ، جلة ، جملون ، جواب ، حبيظة ، حفان ، حوش ، خرابة ، خرج ، خردة ، خوزقة ، دمغة ، مداس ، ربب البرسيم ، روبة ، زخمة ، زر ، زعر الحسينية ، زوادة ، زياتون ، ست ، خط سلس ، اسهال ، مساوق شوم ، شادوف ، شاش ، شال ، شاهية ، شراميط ، مشاعلى ، شوار ، صرم ، صرماتية ، صيوان ، ضبة ، دار الضرب ، كارى ، طاقية ، طشت ، طموش ، عرقى ، عزومة ، عزوة ، عطف ، عكاكيز ، علاف ، علوفة ، معالق ، عليق الخيول ، عواجز ، عيار الذهب ، غافة ، غرارة ، غلقان ، فوس ، فتوات ، فدان ، فرجه ، فرط ، فراقل ، فطاطرى ، فعله ، فلاتى ، فلقة ، مقاديف ، قرداتية ، قلفط المركب ، قهوة ، قهوجى ، كباب ، كبابجى ، كناسة ، كيف ، لبان ، ملبس ، لجام ، مخلة ، مدود ، مناخير ، نبابيت ، نشوق نقوط ، هلسيات ، مهم ، وقية ، يسير ، يميش •

وينبغى أن نشير فى هذا الصدد الى وجوب استخراج معانى الكلمات من سياق الجبرتى بعد فهمه بدقة ، حتى لا يحدث لبس فى الفهم ، قد ترتب عليه خطأ فى التعليق نتيجة لمحاولة فهم الجبرتى على أساس التحديدات المعجمية للغة الفصحى ، فقد وقع محققو عجائب الآثار فى خلط نتيجة تلك النظرة ، ومن أمثلة ذلك : حددوا معنى كلمة (قونية) التى جاءت فى السياق (وخرج فى السفر وذهب الى عند التترخان ، فأعطاه منصبا وعمله مرزه ، وتزوج بقونية ولم يزل هناك حتى مات) فقد شكلوها قونية . وقالوا فى تحديد معناها (جارية ، والصواب قينة ، قال فى القاموس المحيط : القين العبد ، والقينة الأمة المغنية أو الجارية مطلقا) (٣٣) .

ومن الواضح أن الجبرتى لم يقصد الى ذلك بالمرة ، لأنه ليس من السذاجة ، بحيث يذكر أن أحد الرجال قد تزوج بجارية فى عصر كان الزواج فيه بالجوارى أمرا طبيعيا ، وانما يريد أن (أبا دفية) الذى يتكلم عنه قد تزوج وأقام بقونية ، وهى بلدة فى تركيا .

كما حددوا معنى الكلمتين (مواهى وبرود) تحديدات فيها خلط ، فقد وردت الكلمة الأولى فى السياق (ثم أنهم أقاموا فى أجرود يوما زائدا وهم يفتشون على الصنجق فى الأحمال والمواهى) وقال المحققون فى تحديد معناها (المواهى جمع ماء وهى لغة فى الماء) (٣٤) .

ومن المعروف أن المنطقة التى أقام بها الحجاج (أجرود) أو عجرود حاليا ، منطقة صحراوية قاحلة فى الطريق ما بين القاهرة والسويس ، وقد رأيتها وجبتها ولم أر فيها هذه المياه المزعومة ، فالمياه تجلب اليها من القاهرة أو من السويس ، وانما يقصد الجبرتى بالمواهى جمع (الموهية) وهى وعاء من سعف النخيل (الخوص) أكبر من القفة ، ويستعملها باعة الخضروات فى الريف حتى الآن ، حيث يضعون زوجا منها على جانبى الحمار ، ويعلق هذا الزوج بواسطة عصا غليظة ، وتعرف فى بعض القرى الأخرى باسم الجنب ، ومفردها (جنبة) وهى التى ترد فى احدى الأغنيات الشعبية المعروفة : بياع العنب :

العنب عنبى .. والجنب جنبى

كما وردت الكلمة الثانية (برود) فى السياق (ودخل أمير الحاج الجديد والحجاج عليهم برود) وقال المحققون فى تحديد معناها (برود : جمع برد بضم الباء وسكون الراء وهو الثياب) (٣٥) ومن الواضح أن الجبرتى ليس من السذاجة والفراغ بحيث يقول : ان أمير الحجاج قد دخل عليهم وهم لابسون ثيابهم ، فقد جرت العادة أن لا يقيم الناس مجتمعين على وجه الخصوص - عرايا ، ذلك أمر طبيعى لا يستحق اهتمام المؤرخ ، كما أن هذا الأمير لم يكن فى مناطق الاحرام وقت أن دخل عليهم حتى يأخذ الخبر قيمته من أن الحجاج قد خلعوا ملابس الاحرام وابتدأوا يرتدون الملابس العادية ، وانما دخل عليهم

اميرهم وهم يستعدون لدخول القاهرة عائدين من رحلة الحج ، وعلى أساس هذا فان الجبرتى يقصد (بالبرود) الحزن والوجوم وعدم الاهتمام بدخـول الأمير عليهم وهذا هو نفس ما نجده فى العامية فى مثل (رحت آزور فلان النهارده قابلنى ببرود) .

خامساً : الدلالة :

تتوزع الدلالة فى لغة الجبرتى بين ثلاثة مستويات هى : الدلالة المألوفة للتراكيب فى الفصحى ، والدلالة المألوفة للتراكيب فى عاميتنا المعاصرة ، والدلالة الخاصة بعصر الجبرتى ، ومن أمثلة الحالة الثانية هاف زرع القمح ، مأسور ، مزابل الحمير ، يتسبب فيه (يتـــاجر) ، تحرير الموازين ، جرح سلامة ، البقاشيش ، قرأوا الفاتحة على ذلك .

ومن أمثلة الحالة الأخيرة : (كبسهم على حين غفلة) : هاجمهم ، (يركب على بيته) : يهاجمه ، (قارشه) : نادمه ، (انجمع عنه) : نبذه ، (شق من وسط المدينة) : اخترقها ، (يسلكونهم للخروج) : يسهلون عليهم ذلك ، (الأستاذ المسلك) : الذى يرشد الناس الى الطريق الصوفى السليم ، (اتحد بولد) : صادقه ، (المكتوبجى) : حامل الرسالة ، (القاصد) : الرسول ، (على يده مرسوم) : يحمل مرسوما ، (شركوا الجهات وأبواب المدينة) : ملئوها ، (الترسيم) الحبس ، (المشاعلى) : الجلاد ، (الضوى) : حامل المشعل للسياف ، (العرقانة) السجن ، (عملوا ديوانا) : اجتمعوا ، (عملوا جمعية) : اجتماعا ، (انكسروا كسرة قوية) : انهزموا ، (احترق بحر النيل) : جف ماؤه ، (كان يناقض عليه فى أحكامه) : كان يعارضه بشدة .

لقد كان هذا عرضا سريعا لبعض الجوانب الكثيرة فى لغة الجبرتى ، والحقيقة أنها بحر عميق الأغوار بعيد المسارب ، لا يكفى المرء كى يتعرف على بعض جوانبه أن يقرأ فقرات بسيطة ، وحسبنا شرف محاولة أن نستعرض منها ما سمح لنا به هذا الحيز المحدود .

هوامش البحث

١ ـ د. السعيد محمد بدوى : مستويات العربية المعاصرة فى مصر ص ٥٣ ، ٥٩ وما بعدها .

٢ ـ انظر : تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٤٦٠ ، وكذلك تطور الأدب الحديث فى مصر ، د. أحمد هيكل ص ١٧ ، ١٨ وكذلك عبد الرحمن الجبرتى : خليل شيبوب ص ١٠١ .

٣ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ١/٤٨ ـ ٤٩ .

٤ ـ انظر عجائب الآثار ج ١ ، ج ٢ وكذلك تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ج ١ ص ١٩ ، ٢٠ .

٥ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ١/١١ ـ ١٢ .

٦ ـ انظر عجائب الآثار ومظهر التقديس .

٧ ـ جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤/١٦ .

٨ ـ المرجع السابق ص ١٧ .

٩ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ١/٤٦ ، نقلا عن الخطط التوفيقية .

١٠ ـ المرجع السابق .

١١ ـ المرجع السابق ص ٤٧ .

١٢ ـ د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ٢/١٦ .

١٣ ـ د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ص ١٧ ، ١٨ ط ٢ .

١٤ ـ المرجع السابق ص ١٩ .

١٥ ـ خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ١٠١ .

١٦ ـ المرجع السابق .

١٧ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ٤٦٠/١ ٠

١٨ ـ المرجع السابق ٠

١٩ ـ المرجع السابق ٠

٢٠ ـ المرجع السابق ٠

٢١ ـ الزبيدى ـ تاج العروس ٢/١ ٠

٢٢ ـ الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ تحقيق الأستاذ حسن جوهر وآخرين ٠

٢٣ ـ انظر عجائب الآثار ١٥٩/٣ ٠

٢٤ ـ انظر عجائب الآثار ٢٢٩/٣ ٠

٢٥ ـ انظر عجائب الآثار ٦٩/٣ ٠

٢٦ ـ الجبرتى : عجائب الآثار ١٦٣/٤ ٠

٢٧ ـ انظر عجائب الآثار ٢٠٦/٣ ، فهناك رسالتان للشيخ الخشاب وللشيخ حسن العطار ، نقلها الجبرتى حرفيا ، والرسالتان تؤكدان ما نقوله من تمثيل المستوى التلقائى فى لغة الجبرتى للغة المثقفين فى عصره ٠

٢٨ ـ انظر : تاريخ الحركة القومية ١٥٤/١ ٠

٢٩ ـ فندريس : اللغة ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص ٠

٣٠ ـ انظر : تاج العروس ٣٨/٧ ٠

٣١ ـ فندريس : اللغة ص ١٨٣ ٠

٣٢ ـ انظر : رسالتى للماجستير بعنوان : الخواص التركيبية للغة الجبرتى كما تبدو فى آثاره : الفصل الخامس ص ٢١١ (مخطوط بدار العلوم) ٠

٣٣ ـ انظر : عجائب الآثار ٣٤٨/١ (هامش) تحقيق الأستاذ حسن جوهر وآخرين ٠

٣٤ ـ انظر : عجائب الآثار ٢٩٩/١ (هامش) تحقيق الأستاذ حسن محمد جوهر وآخرين ٠

٣٥ ـ المصدر السابق ٠

القسم الثالث

موقف الجبرتي من قضايا عصره

الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك

من ١١٦٧هـ (١٧٥٣ - ١٧٥٤م)

إلى ١٢٤٤هـ (١٨٢٩م)

للدكتور محمود حلمي مصطفى

لقد رسم السلطان سليم المبادىء العامة التي يقوم عليها ترتيب الديار المصرية وكانت هذه القواعد والمبادىء العامة تستند الى أصول قديمة ترجع الى عهد يوسف عليه السلام وذلك انها متأثرة فى حقيقة الأمر وواقعه بالحياة المصرية وظروفها فى العصور المختلفة واما الفضل فى تدعيم هذا الترتيب فيرجع الى السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) اذ حددا قانونه حقوق وواجبات الهيئات المتنوعة التى اضطلعت بشئون الحكم والادارة ، وكانت الحكومة فى العهد العثمانى المملوكى تتألف من : الباشا وهو الذى يحضر من القسطنطينية لينوب عن السلطان فى الحكم وهو أيضا غير الوالى « زعيم مصر » الذى يتبصر فى القاهرة كما كان عليه جرف الخليج الناصرى فى كل سنة . ولقد رتب السلطان سليم للباشا جنودا وكتخدا ــ وهو الوكيل عن الباشا ــ ومهردارا وخازندارا وترجمانا ورئيس ديوان واغاوات (١) وجعل سكنه بالسرايا داخل القلعة ورتب له ديوان « أفندى » والى جانب الباشا أقام السلطان سليم ديوانا استعيض بديوانين فى عهد السلطان سليمان القانونى الديوان الكبير والديوان الصغير وكان الأول يتألف من رؤساء الأوجاقات وهى الفرق العسكرية العثمانية وضباطها الأغوات . وأمير الحج ورؤساء المذاهب الأربعة والقاضى . أما الديوان الصغير فكان يتكون من كتخدا الباشا والدفتردار . أصبح الباشا فى القرن الثامن عشر خاصة مسلوب السلطة فعلا من كل من الديوانيين كما أن أصحاب الأثر الفعال فى الحكم والادارة والعنصر البارز فى حكومة مصر فى ذلك العهد كانوا الأوجاقات (٢) .

---

(١) الغاوات : رجال من جند وموسيقيين ورسل فى معية الباشا (شفيق غربال) مصر فى مفرق الطرق ص (١٠) .

(٢) شفيق غربال : المرجع السابق ص (١٧ ــ ١٨) .

وكان قوام الأداة الحكومية فى الأقاليم الصناجق « وهم أصحاب الحكم وعددهم متغير ويحتفظ السلطان بحق تعيين صناجق الثغور الهامة وهم قبودان اسكندرية وقبودان دمياط وقبودان السويس ثم كتخذا الوزير «الباشا» ويحضرون من القسطنطينية وأما بقية الصناجق فيعينون فى مصر (١) ٠

وعلى ذلك فقد شاهد العهد العثمانى المملوكى فى مصر وجود سلطات ثلاث : الباشا والأوجاقات والمماليك ٠ ولما كانت حكومة الاستانة تكثر من تولية الباشوات وعزلهم وكان هؤلاء فى خلاف مستمر مع رؤساء وضباط الاوجاقات هذا بينما تعود الجند العثمانى ورجالهم الحياة الهادئة فى مصر فقد انفسح المجال لانفراد المماليك البكوات بالسلطة الفعلية فى البلاد تدريجيا وبخاصة لأن هؤلاء كانوا أقرب فى الحقيقة الى المصريين فى حياتهم واعرف بشئونهم من السلطات الأخرى ٠ ومنذ أواخر القرن السابع عشر استتب للبكوات المماليك الأمر من غير منازع بسبب انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى أوربا ٠ وكذلك استفاد البكوات المماليك من حروب تركيا فى القرن التالى لدرجة ان طغى نفوذهم على كل سلطة للباشا وصارت لزعيمهم الذى عرف باسم شيخ البلد الكلمة العليا يعزل الباشا ويقيم على حبسه فى القلعة ٠

وهكذا لم يكن البنيان المملوكى نفسه ليحظى بحالة من الاستقرار تفوق ما يتمتع به الحاكم العثمانى الذى يقع تحت رحمة المماليك فما كان المماليك يقفون صفا واحدا ضد العثمانيين وفى مواجهة غيرهم من الدخلاء ولكن سادت الفرقة وشاع النفور فى علاقاتهم فانبنى على تفكك وحدتهم ازاء بعضهم بعضا تقلقل مركز كل أمير دواما ٠

كانت السلطة العليا فى يد المماليك حكام مصر وأصلهم من الأرقاء المجلوبين وكانت عناصرهم تتجدد باستمرار بفضل استجلابهم ٠

على أن العهد الذى حاول فى خلاله هؤلاء البكوات المماليك الاستئثار بالسلطة كان فى الحقيقة عهد فوضى واضطراب استمر طيلة القرن الثامن عشر ولعل أهم ما يلاحظ فيه ذلك النضال المستمر بين البكوات أنفسهم وجماعاتهم فى سبيل التمتع بالحكم مع ما يجره ويسببه هذا النضال من اغفال تام للباشا الذى كان يقابل عند تنصيبه وحضوره الى مصر بكل حفاوة واحترام ظاهرين فى مبدأ الأمر حتى اذا استقر به المقام قليلا بدت له الحقيقة الواضحة انه مسلوب السلطة والنفوذ فضلا عن انزال صنوف الارهاق بالأهالى الذين قد تربطهم الظروف بساحة هؤلاء المتخاصمين بينما تظل الاكثرية مادامت بعيدة عن مناطق النزاع لا يحيق بها سوى السوء المترتب على هذه الفوضى عموما والواقع انه ما كان يشترك فى هذه المنازعات المملوكية سوى البكوات واتباعهم وأهل بيوتهم وكان مثار النزاع هو التنافس على مشيخة البلاد .

---

(١) المرجع السابق ص (١٥ ـ ١٦) ٠

عاش الجبرتي احلك عهود مصر هذه ظلاما وكانت فترة مضطربة حافلة وكان بداية الاضطراب عندما اخفقت حركة علي بك الكبير في القبض على زمام الحكم في مصر وانفسح المجال لتخلفه عصبيات مملوكية تعاقبت على السلطه مستغلة اختلال أمر الجند العثماني وبذلك فقد أقام النظام مقوما أساسيا من مقومات توازنه وشهدت مصر منذ انهاء حكم علي بك الكبير حتى مجيء الحملة الفرنسية فترة من أشد الفترات التي مرت بها اضطرابا وفسادا واستغلالا وكان التغيير والتعديل سريعا وكان من مؤدى هذا كله ان ذاق المصريون في هذا العهد الكثير من ظلم الحكام وعنت الولاة مما أثقل كاهلهم • وكان الجبرتي واحد منهم ويعيش بينهم يدون ما رأى وما سمع وما أحس فكان تاريخه من هذه الناحية نفثة مصدور وكان بحق مؤرخ القومية المصرية في القرن الماضي وعلى حد قول الأستاذ شفيق غربال : كان كتابه في صميم الأمر في التربية الوطنية • وليس ذلك • لأن الرجل تصدى لتلقينها فقد كان مؤرخا قبل كل شيء ولكن جاء كتابه لازما لتكوين الجيل لأن العصر الذي عاش فيه كان عصر انتقال من حال الى حال فهو عصر الثورة المصرية الكبرى التي انتقلت بها مصر الى طور من أطوار تاريخها الطويل المفعم بعبر الدهر الذي امتد الى الزمن الذي يعيش فيه .

لقد صور الجبرتي هذا الانتقال فأبدع في التصوير وحكم على الوقائع وعلى الرجال على نظرة من نظرات من عاصروا تلك الوقائع وعرفوا أولئك الرجال ولقد عاونه على ذلك ان بيت والده كان موئل العلماء ومقصد الكبراء وهذا أتاح له أن يتعرف على كبراء العصر من علماء وأمراء فضلا عن انه كان محبا للرحلة حيث أخذ ابتداء من ١١٨١ (١٧٧٥) أثر وفاة والده في التنقل في أنحاء البلاد ليعرف مواقعها وما يتصل بعلمائها وليعرف ألوان الحياة في القرى وما يعانيه الفلاح من شظف العيش (١) .

وكتابة الجبرتي تنم عن عقل راجح واتجاه سليم فهو يعالج مشاكل الحياة في المجتمع معالجة البصير بالأمور ويحكم عليها حكما مقبولا فضلا عن ان أسلوبه اتسم بسمة العصر الذي عاش فيه فيغلب عليه السجع وقد يكون المتكلف خاصة اذا كتب في مسائل علمية أو أبحاث اجتماعية اما اذا دفعته الحوادث للسرد فانه يسجلها كما اقتضتها الظروف ويدبجها عفو الخاطر ووفق طبيعتها لا تكلف ولا تصنع لأن تقلبات الأحوال كانت تسوقه سوقا الى الكتابة .

ولقد جاءت كتابته عن طائفة أمراء المماليك هذه أجود ما كتب وأكثرها اهمية ولعل كتابته بهذا الأسلوب الشعبي وتلك اللغة الدارجة في بعض الظروف وتحري الصدق فيما يكتب جعل تاريخ صوره صادقة حية للعصر الذي كتب فيه ، ومما عاونه على ذلك أن كبار المماليك كانوا أصدقاء والده ،

(١) الجبرتي : المرجع السابق : جـ ١ ص ٥ .

وكبار الشيوخ الذين كانوا أعضاء فى ديوان نابليون وكذلك كاتم سر الديوان اسماعيل الخشاب كانوا أصدقاء له .

بدأ الجبرتى يدون تراجمه لمشايخ الأزهر وشيوخ الأروقة وأرباب الحلقات وكان من بينهم من عرفهم أو سمع عنهم . وبالاضافة الى تراجمه للشيوخ دون أسماء أمراء المماليك والسناجق ومشايخ البلد واعتمد فى ذلك على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى كان من عدول المحكمة الشرعية كما تردد على القرافات يقرأ المنقوش على قبورها للتحقق من تاريخ وفاة أصحابها فضلا عن اتصاله بأقرباء الموتى ليطلع عما قد يكون لديهم من أوراق، وكذلك أخذ كثيرا من المعلومات من أفواه المعمرين (١) .

ولد عبد الرحمن الجبرتى لأب من علماء الأزهر ذى أوقاف وأملاك تدر عليه موارد جمة وتضفى عليه بحبوحة من الرزق ورغد من العيش وتمكنه من الانفاق على كثير من المشايخ الناشئين والمهاجرين الذين كانوا هم وغيرهم دائبى التردد على منزله . وكان الوالد يقص على ابنه أحداث العصر وأخبار الولاة والمشايخ الذين عرفوه ، حتى اذا ما توفى ترك له أموالا طائلة وصداقات وطيدة أطرافها المشايخ والمريدون والأصدقاء من الأمراء والكبراء ولعل هذا يفسر لنا سر اسرافه فى الاطناب بذكر مناقب الكثيرين ممن تربطهم به صلة صداقة ومودة عند كتابته عن تاريخهم .

ولا جدال فى أن الجبرتى تأثر بثقافة والده هذه فى صباه وتركت لديه انطباعات لم تلبث أن أنضجها اعجابه بابن خلدون الذى امتدح مقدمته ووصفها بأنها بحر متلاطم بالعلوم مشحون بنفائس جواهر المنطوق والمفهوم . ثم امتزج هذا كله بما توفر عليه من دراسة تاريخية ومما عايشه من احداث وخرج بنظرة فلسفية للتاريخ قوامها الصراع بين الضدين الخير والشر والعدل والظلم وان مدار حسم هذا الصراع على المستوى الاجتماعى يحتاج الى حاكم عادل وعالم وان من يتجرد عن تلك الصفات ان كان حاكما وجب عزله أما حسم هذا الصراع بالنسبة للافراد فيتم بتعديل قوامهم وضبط جوارحهم لأن كل فرد من أفراد الانسان مسئول عن رعاية رعيته التى هى جوارحه وقواه حسبما ورد فى الحديث (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (٢) .

وعلاوة على هذا كله فان نشأته فى هذا الوسط العلمى الذى نمى وترعرع فيه فضلا عن انه لم يقنع بالعلم التقليدى الذى كان شائعا فى ذلك الوقت والذى كان الأزهر موئله ومستقره كالفقه والحديث وسائر علوم اللغة والدين فانه أضاف الى ذلك معرفة بطائفة من العلوم كالفلك والطب والحساب . كل

---

(١) المرجع السابق : ج ١ ص ٧ .

(٢) الجبرتى : المرجع السابق ج ١ ص ٣٤ — ٣٨ .

هذا أهله لان يضحى اكثر ادراكا وتفهما لما يدور حوله واستعدادا للنقد الدائم لما يراه مخالفا لتكوينه النفسى والثقافى ويتجلى هذا فى نقده اللاذع للسادة الاقطاعيين من أمراء المماليك والاشادة بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام من حيث ادراكه ان العدل فى اعتقاده هو اقامة الشريعة والرفق بالرعية مما جعله يقف موقف الناقد للموبقات التى يرتكبها أمراء المماليك أو تلك المستحدثات التى تتم على أيدى هذه الطغمة الفاسدة والمفسدة من أمراء المماليك أو على ايدى الحملة الفرنسية حسبما سنشير الى ذلك فيما بعد . لقد أدرك الجبرتى أواخر أيام المماليك الذين كانوا يستجلبون الى مصر أو يستولدون بها ثم يؤمرون عليها ويصيرون حكامها وسادتها ينعمون بألوان الثراء ويتقلبون فى مباهج التعليم . وكان آخر عصرهم فتن وعراك وسلب ونهب فلا يعنيهم الا أنفسهم لأنه لم تكن تربطهم بمصر رابطة من نسب أو وشيجة من قربى أو تعلق بوطن .

أدرك الجبرتى بقايا تلك الأيام حيث ان مولده كان فى (١٧٥٣ ــ ١٧٥٤م) على نحو ما ذكرنا . ولما صار فى سن التمييز على حد قوله ورأى الأشياء على ما ذكر الا قليلا حيث يقول « كنت أسمع الناس يقولون الشىء الفلانى زاد سعره عما كان فى سنة كذا وذلك فى مبادىء دولة ابراهيم كتخدا وحدوث الاختلال فى الأمور فكانت مصر اذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة يعيش رغدا بها الفقير وتتسع للجليل والحقير (١) ويشير الجبرتى عند تناوله تاريخ تلك الفترة الى أنباء النزاع والخصام الذى كان يثور بين الحين والحين بين الأمراء المماليك من أجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ وما يتبع ذلك من اعتداءات تزهق فيها أرواح الكثيرين من الاتباع فضلا عن تدبير المؤامرات والمكائد للتخلص من الخصوم سواء بالقتل فى أبشع صوره (٢) أو دس السم أو النفى والتشريد . كما يحدثنا عن أخبار الصلح والتحالف اللذين كانوا يعقدان بين الطرفين المتنازعين والقسم على المصحف والسيف بحفظ العهد وصيانته ونقض هؤلاء لهذا القسم والحنث باليمين عندما تحين الفرصة المناسبة وما يتبع ذلك من صنوف التنكيل الأمر الذى تضيق صفحات هذا البحث عن تناوله بالتفصيل . وكان الجبرتى يكن للعهد المملوكى مقتا شديدا مرده ألوان المظالم التى أنزلها الحكام بالمحكومين وفساد طوية الرعية وهو لهذا يعتبر الحملة الفرنسية عقابا لأهل مصر .

وكان الجبرتى يحتقر المماليك ويمقت تصرفاتهم فى الحكم والادارة وكثيرا ما كان يرثى لحال المصريين ويكشف لنا عن هذه الحقيقة تصويره للفترة التى دانت خلالها السلطة لابراهيم وقسيمه رضوان كتخدا عزبان الجلفى

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٢ ص ١١١ .
(٢) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٢ ــ ١٩٣ .

من حيث سيادة الأمن وهدوء الحال ، وذلك على الرغم من أن رضوان قد عكف على اشباع ملذاته وفسوقه وخلاعاته ونزواته ، ومن حيث أنه كان قد أنشأ عدة قصور وأماكن بالغ فى زخرفتها وتأنيقها فكان يتنقل بين هذه القصور خصوصا فى أيام النيل • وعلى حد قوله « يتجاهر بالمعاصى والراح والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد فخرجوا عن الجد فى تلك الأيام ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم فكانت مصر فى تلك الأيام من مراتع الغزلان ومواطن حور وولدان » وهنا تبرز نزعته الدينية حيث يتهكم قائلا « كأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب » (١) •

والى جانب حياة التبذل هذه والفجور والفسق التى كان يعيشها رضوان يذكر الجبرتى ما كان يتسم به هذا الأمير من خصال من حيث كرمه الذى فاق كرم حاتم الطائى وهبات الفضل وجعفر ، وقوة بأسه وشجاعته واقدامه التى بزت قوة عنترة والأسد العصور • ودبجت فى مدحه القصائد الطوال المشهورة باسم القصائد الرضوانية •

واذا كان الجبرتى قد اطنب كثيراً فى ذكر مناقب بعض هؤلاء الأمراء فان هذا لا ينفى حقيقة أن الجبرتى كان يدرك ان هؤلاء الأمراء المماليك أرقاء ودخلاء استجلبوا الى مصر من القوقاز ، أن العثمانيين دخلاء ولا يستثنى منهم الانكشارية الذين استوطنوا مصر دواما • ولقد أطنب الجبرتى كثيرا فى مديح هؤلاء الأمراء المماليك حيث أشاد بفضائلهم حيث يذكر « لقد كان لهم سنن وطرائق فى مكارم الأخلاق والاحسان للخاص والعام ويتردد على منازلهم العلماء والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب أهل العلم النفيسة للاعارة والتفيير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها فى مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخوزنقات وفى مجالسهم جميعا ، فكل من دخل بيتهم من أهل العلم الى أى مكان بقصد الاعارة والمراجعة وجد بغيته ومطلوبه فى أى علم من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمنعون من يأخذالكتاب بتمامه فان رده الى مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مرارا ويعتذرون عن الجانى بضرورة الاحتياج (٢) •

ويدلل على ذلك بذكر مناقب الأمير على بن عبد الله مولى بشير أغا : كان منزله مورد الوافدين من الآفاق ومظهر التجليات والاشراق مع ميله الى الفنون الغريبة وكماله فى البدائع العجيبة ومن حسن الخط وجودة الرمى واتقان

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق : ج ٢ ص ٩٣ •

(٢) الجبرتى : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٦ •

الفروسية ومدحته الشعراء واحبته العلماء والقت اليه الرياسة قيادها وأصلح ما وهن من أركانها وأزال فسادها ولقد عزل عن منصبه ولم يأفل بدر كماله واستمر ناموس حشمته باقيا على حاله واقتنى كتبا نفيسة وكان مسموحا باعارتها (١) والى جانب هذا يذكر الجبرتى مناقب الأمير ابراهيم كتخدا البركاوى بقوله « اقتنى المماليك ودربهم فى الآداب والقراءة وتجويد الخط وكان بيته مأوى الفضلاء وأهل المعارف » .

واقتنى كتبا كثيرة فى كل علم وفن حتى ان الكتاب المعدوم اذا احتيج اليه لا يوجد الا عنده ويعير الناس ما يرومونه من الكتب للانتفاع فى المطالعة والنقل (٢) .

لا جدال فى أن الجبرتى كانت تربطه بهؤلاء الأمراء من المماليك صلات وطيدة نظرا لأن الجبرتى كان قد نشأ فى وسط علمى بين الدروس والكتب .

ويصور لنا الجبرتى ما اتسم به بعض هؤلاء الأمراء المماليك من جود وكرم وما كانوا يقيمون فيه من نعيم وثراء فيرسم لنا صورة حية نابضة عن بيوت الأثرياء والاعيان حيث يقول « خبزهم وطعامهم مشهور بغاية الجوده والاتقان والكثرة وهو مبذول للقاصى والدانى مع السعة والاستعداد حيث كان فى كل بيت من بيوت الأعيان منهم مطبخين أحدهما أسفل رجالى والثانى فى الحريم فيوضع فى بيت الاعيان السماط فى وقتى الغداء والعشاء مستطيلا فى المكان الخارجى مبذولا للناس ويجلس بصدره أمير المجلس وحوله الضيفان ومن دونهم من مماليكه وأتباعه ويقف الفراشون فى وسطه يفرقون على الجالسين ويقربون اليهم ما بعد عنهم من الغلايا والمحمرات ولا يمنعون فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلا ويرون ان ذلك من المعايب حتى ان بعض ذى الحاجات عند الأمراء اذا حجبهم الخدام انتظروا وقت الطعام فلا يمنعهم الخدم فى ذلك الوقت فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير (٣) .

على ان اعجاب الجبرتى بعبد الرحمن كتخدا من حيث الاشادة بفضله فى تشييد القصور واقامة العمائر وتعمير مساجد السيدة نفيسة وعائشة وسكينة ورقية وفاطمة وبناء المشهد الحسينى وما انشأه بالجامع الأزهر — على حد قوله — تقصر عنها همم الملوك فضلا عن بنائه مدرسة الأقبغاوية وتجديده المارستان المنصورى والقيام بأعمال البر والخير والاحسان من حيث منح الاكسية والصوف وتوزيع اللحوم والأرز على الفقراء خلال شهر رمضان . لم يمنع اعجاب الجبرتى بهذا الأمير من ذكر مساوئه « ان أبرز مساوىء

(١) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٦ .
(٢) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٩٤
(٣) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٢ ص ١١١

هـذا الأمير معاضدته لعلى بك الكبير ليقوى على أرباب الرياسة وعدم تراخيه فى اثارة الفتنة وبذر بذور الشقاق بينهم حتى أضعف شوكتهم. وأكد العداوة بين الأصفياء ولما اشتد ساعد على بك عندئذ التفت « على بك » الى عبد الرحمن كتخدا فأخرجه منفيا ، وعندئذ خلا الجو لعلى بك وخشداشينه (١) فباضوا وأفرخوا وامتد شرهم فهو الذى كان السبب بتقدير العلى القدير فى ظهور أمرهم فلو لم يكن له من المساوىء الا هذا لكفاه (٢) ٠

ومهما يكن من أمر ــ سواء كان الدعاء باسمه فى خطبة الجمعة قد صادف هوى فى نفسه أم لم يصادف ــ فلا جدال فى أن شخصية على الكبير هذه كانت ذات اثر كبير فى تشكيل الحوادث التى تلت ذلك واستطاع بفضل الحكومة القوية التى أقامها فى السنوات التى خلصت له فيها السلطة فضلا عن الشهرة التى تمتع بها بين معاصريه أن يستأثر بانتباه كثير من الكتاب والمؤرخين وانقسم الرأى وتباين فى تقدير آثار حكومة على بك الكبير على البلاد وعلى أهلها بصفة عامة ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن مصر خرجت فى عهده لفترة قصيرة من الدائرة الضيقة التى فرضتها المنازعات والفوضى الداخلية فاشرأبت بعنقها الى ما وراء حدودها وبسطت سلطانها على البلاد المجاورة ٠

عكف على بك بعد أن استقرت له الأمور وامتلاك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية على قول الجبرتى « فى قتل المتمردين وقطع المعاندين وشتت شمل المنافقين وفرق القواعد وحرم العوائد وأخرب البيوت القديمة وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة » (٣) ٠

كما تتبع المفسدين والذين يتداخلون فى القضايا والدعاوى ويتحيلون على ابطال الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد والاهانة والقتل والنفى الى البلاد البعيدة. ولم يراع فى ذلك أحدا سواء كان متعمما أو فقيها أو قاضيا أو غير ذلك بمصر أو غيرها من البنادر والقرى وكذلك المفسدين وقطاع الطرق من العرب وأهل الحرف ، وألزم أرباب الادراك والمكارم بحفظ نواحيهم وما فى جوزتهم وحدودهم وعاقب الكبار بجناية الصغار فأمنت السبل وانكفت أولاد الحرام وانكمشوا عن قبائحهم وايذائهم بحيث ان الشخص كان يسافر بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ومعه

---

(١) خشداشينه : رفقائه المخلصون ٠

(٢) الجبرتى المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٦ ٠

(٣) الجبرتى : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٧ ٠

جملة الدراهم والدنانير الى اى جهة ويبيت فى الغيط أو البرية آمنا مطمئنـا لا يرى مكروها أبدا (١) .

وكتابة الجبرتى بهذا الأسلوب تكشف لنا عن مدى نقده لتصرفاتهم فى الحكم والادارة من حيث الغدر ببعضهم البعض وتنازعهم من أجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ جريا وراء اشباع نزواتهم الخاصة بصرف النظر عن مصلحة الشعب ، ولا غرابة فى ذلك فهم دخلاء على البلاد .

وهكذا كانت وفاة على بك ١٧٧٣ ثم وفاة محمد أبى الدهب ١٧٧٥ مؤذنة ببدء عهد الاضطراب والفوضى فى البلاد عندما تتنازع السلطة كبار المماليك من جماعة على بك ومحمد أبى الدهب (٢) وكان أظهر هؤلاء البكوات اسماعيل ومراد وابراهيم ، وقد استطاع الأخيران الاستئثار بالنفوذ كلية ١٧٧٧ فاقتسما بينهم مشيخة البلد وامارة الحج واستوليا على موارد البلاد وايراداتها . ومنذ عام ١٧٨٣ تقريبا امتنع البكوات عن ارسال الجزية الى الدولة بدعوى أن الايرادات المتحصلة من الضرائب لا تكاد تكفى لنفقات الادارة ، ثم كان من أسباب الفوضى وقوع الخصام من وقت لآخر بين ابراهيم ومراد .

وتبدو نقمة الشيخ الجبرتى على أواخر العهد المملوكى بصـفة خاصة ومقته الشديد لابراهيم ومراد بسبب الوان المظالم التى أنزلاها بالمحكومين والفوضى التى ضربت أطنابها فى طول البلاد وعرضها فى عهدهما ، فيصور لنا هذه الفوضى عندما يتناول حوادث ١١٩٨ هـ بقوله « خرج الأمراء الى ناحية معـادى الخبيرى وحضر مراد الى بر الجيزة وصحبته جمـع كبير من الغز والاجناد والعربان والغوغاء من أهـل الصعيد والهـوارة ونصبوا خيـامهم ووطاقتهم قبالتهم فى البر الآخر فأرسل اليـه ابراهيم بك عبـد الرحمن بك عثمان وسليمان بك الشابورى وآخرين فى مركب لعرض الصلح عليه فلم يقبل مراد وقامت معركة بين الطرفين واستمر الحال بينهم على ذلك من أول الشهر الى عشرين منه واشتد الكرب والضنك على الناس وأهل البـلاد وانقطعت الطرق القبلية والبحرية برا وبحرا وكثر تعدى المفسدين وغلت الأسعار وشح وجود الغلال وزادت أسعارها ولم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر ، وعين لقبض الأموال من الجهات وغرامات الفـلاحين وظن النـاس حصـول الظفر لمراد بك واشتد خوف الأمراء بمصر منه وتحدث الناس بعزم ابراهيم بك على الهرب الا أن مراد ارتحل ليلا وترك بعض أثقاله ومدافعه ورجع ابراهيم بك

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٨ — ٥٩ .
(٢) الجبرتى المرجع السابق جـ ٣ : ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

وبقية الأمراء الى مصر بعد أن نهبوا المراكب التى كانت محجوزة وانقضت هذه الفتنة الكذابة على غير طائل – على حد قول الجبرتى – ولم يقع بينهم مصاف ولا مقاتلة وهرب مراد بك وذهب بمن معه يهلكون الزرع حصادا ويسعون فى الأرض فسادا (١) بمثل هذه السخرية يختتم الجبرتى حديثه عن تلك الفتنة الكذابة بين ابراهيم ومراد .

ويسترسل الجبرتى فى تصوير مساوىء ومفاسد عهد ابراهيم ومراد بعبارات تنم عن الألم الذى كان يعتصر القلوب والمحنة التى تجتازها البلاد على يد هؤلاء الأمراء والهاوية التى تردت فيها عند تناوله حوادث ١١٩٨ اذ يقول « شرع مراد فى اجراء صلح بينه وبين ابراهيم وانقضت هذه السنة كالتى قبلها فى الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن مستمرة وتواترت المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار اتباعهم فى النواحى لجباية الأموال من القرى والبلدان واحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ودفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم فحولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا المعينين فى بيوتهم فاحتاج مشاهير الناس لبيع امتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ما هم فيهم من المصادرات الخارجة عن ذلك وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب اضعاف ما يقدر عليه وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة ولما تحقق التجار عدم الرد استعرضوا خسارتهم عن زيادة الأسعار ثم مدوا أيديهم الى المواريث فاذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لا وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس بجعل من المال يقوم بدفعه فى كل شهر ولا يعارض فيما يفعل من الجزئيات واما الكليات فيختص بها الأمير فحل بالناس مالا يوصف من أنواع البلاء الا من تداركه الله برحمته أو اختلس شيئا من حقه فان اشتهروا عليه عوقب على استخراجه وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى به الى الظالم حتى خرب الاقليم وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام وفقد الأمن ومنعت السبل الا بالخفارة وركوب الغرر وجلت الفلاحون من بلادهم الى الشراقى والظلم وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الزبال شيئا يكنسه من ذلك واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال فاذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيا من شدة الجوع ومات الكثير من الفقراء جوعا هذا والغلاء مستمر والأسعار فى الشدة وعز الدرهم والدينار من أيدى الناس وقل التعامل الا فيما يؤكل وصار سمر الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٧٣ .

ولولا لطف الله تعالى ومجيء الغلال من نواحى الشام والروم لهلك أهل مصر من الجوع واستمر ساحل الغلة خاليا من الغلال طوال السنة والشون مقفولة وارزاق الناس وعلائفهم مقطوعة وضاع الناس بين صلحهم وعبثهم وخروج طائفة ورجوع الأخرى » (١) ٠

بمثل هذا الأسلوب التهكمى اللاذع يصور لنا مفاسد وشرور ومظالم عهد ابراهيم ومراد ، فالجبرتى من مساتير القوم لابد من أنه أضير من قريب أو بعيد من جراء جرائر وفساد هذا العهد ٠

ومهما يكن من أمر فقد ضج الأهالى من كثرة نهب القرى وسبى نسائها وأولادهم وهدمها وحرقها لا سيما فى أيام مراد (٢) ويؤكد هذه الحقيقة ما جاء على لسان حسين بك المشهور « بشفت » عندما أحضره ابراهيم بك لاعادة الأشياء التى نهبها من أهالى الحسينية بقوله « كلنا نهابون أنت تنهب ومراد ينهب وأنا أنهب كذلك » (٣) ٠

كان الجبرتى يتعاطف مع الشعب ويحس بآلامه ويمقت الظلم وفساد الضمائر والتعدى على الرعية والبعد عن روح الشريعة الاسلامية وذلك بحكم نشأته الدينية ، وعلى هذا نجده ، يعبر عن عدم ارتياحه لاخفاق الشيخ الدردير فى رد الظلم عن أهالى الحسينية ورد المنهوبات اليهم وذلك فى عبارة سخرية لاذعة (وانفض المجلس وبردت القضية) (٤) ٠

لقد ساءت حالة البلاد فى عهد ابراهيم ومراد وأعوانهما حتى أصبحت فى حالة يرثى لها حيث يذكر فى عصرية الخميس ٦ من المحرم سنة ١٢٠٠ هـ ركب حسين بك المشهور بشفت بجنوده وذهب الى الحسينية وهجم على دار شخص يسمى أحمد سالم الجزار متولى رياسة دراويش الشيخ بيومى ونهبه حتى مصايغ النساء والفراش ورجع والناس تنظر اليه ٠ بمثل هذا الأسلوب التهكمى اللاذع يعبر الجبرتى عن مدى اسراف هؤلاء فى اشاعة الظلم والجبروت واضطهاد الشعب والاسراف فى أعمال النهب والسلب (٥) ٠

ومهما يكن من أمر فان المظالم التى ارتكبها كل من ابراهيم ومراد تفوق الوصف وتضيق صفحات هذا البحث عن حصرها من حيث انهم استنزفوا ثرواتها واشتطوا فى فرض الضرائب المرهقة على التجارة والأراضى واستعملوا كل وسائل القسوة والتعذيب فى جبايتها وسخروا الفلاحين فى زراعة أراضيهم ٠

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٨٠ ٠
(٢) الجبرتى المرجع السابق جـ ٣ ص ٣١٧ ٠
(٣) الجبرتى المرجع السابق جـ ٣ ص ٣١٧ ٠
(٤) الجبرتى المرجع السابق جـ ٣ ص ٣١٧ ٠
(٥) الجبرتى المرجع السابق جـ ٣ ص ٣١٦ ٠

ولم يكن الجبرتى بمنأى عن كل هـذه الاثام والشرور بل صـورها أبلغ تصوير فيذكر على سبيل المثال لا الحصر : قدم مراد من ناحية الشرق ليلة ١٠ من جمادى الاولى سنة ١٢٠٠ هـ ومعه من المنهوبات من الجمـال والأغنـام والأبقار والجواميس شيء كبير يجل عن الحصر (١) ٠

وعلاوة على هذا كله فقد اشتط مراد فى جمع الأموال من الأهالى وفرض مقادير كبيرة من المال عليهم وحبس كثير من مساتير القوم من التجار والمتسببين ومصادرة أموالهم وعلى حد قول الجبرتى « جمع من المال ما جاوز الحـدود ولا يدخـل تحت العـد وقطع الطرق على المسـافرين عنـدما أقام مراد بك ببنى سويف ونهب كل ما مر به من المراكب الصاعدة والهابطة » (٢) ٠

وازاء استفحال هذه المساوىء قرر الباب العالى ارسال حملة لاخضاع ابراهيم ومراد وخاصة عندما ساد الاعتقاد بأنهما كانا يمعنان فى الخروج على سيادة السلطان العثمانى وفعلا وصلت قوة عثمانية بقيادة حسن باشا لردع البكوات واخضاع البلاد للسيطرة العثمانية وأخفقت هذه فى وقف مظالم مراد وابراهيم وخابت آمال المصريين والعلماء الذين رأوا فى قائدها مخلصا لهم من مظالمهم ٠ غير أن رحيل حسن باشا بعد اقامته فى مصر فترة من الزمن دون احراز أى نجاح حدا بالجبرتى الى أن يعلق على ذلك بقوله فى عبارة ملؤها السخرية والتهكم : لم يحصل من مجيئه وذهابه الا الضرر ولم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقررت به المظالم والحوادث وخابت فيه الآمال والظنون وزاد فى المظالم والتحرير (٣) ٠

ورغم تلك المسـاوىء والمظالم التى يرتكبها مراد من حيث التنطيط فى البلاد وسلبها ونهبها والتى يصورها لنا الجبرتى فى عبـارات تنم عن الأسى والحـزن العميق ليبرز لنـا مدى ما وصلت اليه حالة البـلاد من تدهور وانحلال (٤) فان روح السخرية المريرة تمتلك الجبرتى عندما يكتب عن مراد فى عام وفاته (١٢١٥ هـ) حيث يقول عنه : اذا بلغه « أى مراد » قدوم من يختشيه أو وصول من يرتجيه وكان يستحى من رده أو يخشى عاقبة صـده ركب فى الحال وصعد الى الجبال وربما وصله الغـريم على غفلة فيجده قد شمع الفتلة فان صادفه واجتمع عليه أعطاه ما فى يده أو وعده بالخير أو وهبه ملك الغير (٥) ٠

وعلى هذا فليس بمستغرب أن يرى الجبرتى فى الحملة الفرنسية على

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٣١٧ ٠
(٢) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٨٠ ٠
(٣) الجبرتى : المرجع السـابق جـ ٤ ص ٤٦ ٠
(٤) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٧٥ - ٢٩٨ - ٣١٥ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ ٠
(٥) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٥ ص ١١٢ ٠

مصر قصاصا من ظلم واضطهاد حكم البكوات المماليك ، وان كان قد وقف موقف الناقد لمستحدثات الحملة الفرنسية على مصر لخروجها عن العادات والتقاليد فضلا عن أن ارتكاب الموبقات لا يتمشى مع أحكام الشريعة . ومن المعروف ان الجبرتى نشأ فى وسط علمى وكان هو نفسه عالما متصوفا ولذلك لم ترق فى نظره هذه الأفاعيل والرذائل التى ترتكبها الحملة الفرنسية ورأى فى حكم محمد على فى بادىء الأمر اقتصاصا لمصر من حكم الحملة الفرنسية وذلك بالرغم من أنه لم يكن للوالى الجديد « محمد على » أى ود أو صداقة بل بلغ عدائه لمحمد على الى حد أن انتقد الانجليز لاخفاقهم فى حملتهم سنة ١٨٠٧ أمام المصريين والأمراء المماليك (١) .

وكأنما كان يريد نجاح هذه الحملة فيصف هذا الفشل بقوله « تعسة الانجليز وأهله » ويعلق على هذا ساخطا بقوله « هذه الواقعة حصلت على غير قياس وصادف بناؤها على غير أساس وقد أفسد الله رأى كل من طائفه الانجليز والأمراء المصرية وأهل الاقليم المصرى لبروز ما كتبه وقدره فى مكنون غيبه على أهل الاقليم من الدمار الحاصل وما سيكون بعده » ، وبلغ عداؤه لمحمد على أنه أخذ على المصريين انتصارهم لمن يضرهم ويسلب نعمهم ويختتم تعليقه بعبارة ملؤها السخرية « وما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيدى الناس وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (٢) .

لم يكن نقد الجبرتى لاخفاق الانجليز فى حملتهم أمام المصريين والأمراء المماليك فى سنة ١٨٠٧ حبا فى الانجليز وانما كراهة فى محمد على الذى كان يكن له العداء .

حيث يصور لنا الجبرتى تصويرا بارعا مقاومة المصريين لحملة رشيد على عكس ما أظهره محمد على من تخاذل فى حين انه هو الذى جنى وحده ثمرة هذه المقاومة ، حيث يقول « وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب اليهم فعل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك » (٣) .

ولعل سر نقمة الجبرتى على محمد على يرجع الى ان الجبرتى كان قد اضير شخصيا من القيود التى فرضها محمد على على أملاكه وأوقافه خاصة وانه كان كغيره من الشيوخ يتمتع بامتيازات كثيرة بحكم وضعه الدينى فجاء محمد على ليبطل هذه الامتيازات ويرغم الشيوخ على دفع الضرائب وتأدية الأموال على الأرض المخصصة لجهات البر ، هذا فضلا عن ابطاله مسموح المشايخ ومشاركته للملتزمين فى فائض التزامهم (٤) .

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٥٧ .
(٢) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٧١ .
(٣) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٥٨ .
(٤) الجبرتى : المرجع السابق .

وفى الوقت الذى يحمل فيه على محمد على حملة شعواء ويبدى أسفه على اخفاق حملة رشيد سنة ١٨٠٧ نجده يختص محمد الألفى بنصيب وافر فى ترجمته له ولا ينتقد اتصاله بالانجليز عندما حاول الألفى الالتجاء الى الانجليز للاعتماد عليهم فى حكم البلاد ابان سفره الى انجلترا لهذا الغرض . لم يستهجن الجبرتى هذا الموقف من جانب الألفى (١) بل انه على حد قول الجبرتى نفسه « عندما سافر ـ أى الألفى ـ الى بلادهم تهذبت أخلاقه بما أطلع عليه من عمارة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وعدلهم فى رعايتهم مع كفرهم » (٢) ولعل هذا الموقف من جانب الجبرتى حدا ببعض الكتاب أن يذهب الى حد الاعتقاد لوجود صلات أو منفعة خاصة بينه وبين الألفى ، ولعل ما يؤيد هذا حملة الجبرتى الشديدة على البرديسى أقوى خصوم الالفى وتلقيبه المماليك بالأمراء المصرية وبالتالى أحقيتهم فى الحكم واعتبار محمد على ورجاله دخلاء على البلاد (٣) .

ولعل مما يؤكد هذه الصداقة الوطيدة بين الجبرتى ومحمد الألفى تلك المرثية التى سجلها الجبرتى على لسان الألفى نفسه لدى وفاته حيث يقول « يا مصر أنظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الاتراك واليهود وأراذل الارناؤود وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك » (٤) .

وصفوة القول أن الجبرتى لم يكن بالشخص العادى وانما كان من الطبقة المستنيرة بحكم ثقافته التى جعلته أكثر فهما وادراكا لما يدور حوله ، هذا الى جانب تأثره بثقافة غيره من المؤرخين أمثال ابن خلدون ، من حيث أنه كان يعتقد أن العلم والعدل ـ بالمعنى المتفق عليه عند علماء التفسير ـ قوام المجتمع البشرى وأساس الحكم الصالح والسياسة الرشيدة (٥) ولعل هذا يفسر لنا الى حد بعيد حملته الشديدة ونقده اللاذع لظلم أمراء المماليك والسادة الاقطاعيين فى هذا العهد المملوكى الذى كان حافلا بالظلم وفساد الضمائر والتعدى على الرعية والابتعاد عن روح الشريعة الاسلامية . وبحكم صلته بالدوائر المملوكية الحاكمة والدوائر العثمانية أثناء تولية حكم « قلعة الطور » فى وقت من الأوقات تمكن من أن ينظر الى الأحداث عن قرب فلا يترك شيئا نما الى علمه الا ودونه فى دقة فهو محب للاتقان حينا عجولا ربما أحيانا أخرى ، لذلك نراه يكشف عن آرائه فيما يعرض له فينبسط وينقبض ويسخر ويتهكم ويشتط ويغضب ، وعلى

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٢٦ ـ ٤٦ .

(٢) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٤٢ .

(٤) محمد فؤاد شكرى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ج ٣ ص ١١٧٠ ـ ١١٧٣ .

(٥) المرجع السابق .

هذا فليس بمستغرب أن تجيء كتابات الجبرتى عن تلك الحقبة غنية جدا فى تصويرها للأمراء المماليك المعاصرين ، وعلى حد قوله « لم أخترع شيئا من تلقاء نفسى والله مطلع على أمرى وحدسى » (١) فهو ينعى على أمراء المماليك قصر نظرهم من حيث تقاعسهم عن الاستعداد لملاقاة الحملة الفرنسية واستخفافهم بالأمر واعتمادهم على قوتهم وزعمهم أنه اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم ، وانتهى الأمر بنزول الغزاة الفرنسيين الى الثغر (٢) .

وان كان قد أعجب بالبعض منهم نظرا لما تربطه بهم صلات الصداقة فان اعجاب الجبرتى ببعض أمراء المماليك لم يكن اعجابا مطلقا بغير حدود بل أنه أبدى تحفظا عنيفا تجاه بعض القيم الأخلاقية والروحية والاجتماعية وان كان قد امتدح الكثيرين منهم ممن اتسموا بحب العلم أو الكرم حيث يقول بصدد كتابته عن الأمير رضوان خليل ابراهيم بلفيا « ولم يكن بمصر بيت عريق فى الامارة والسيادة الا بيتهم وبيت قصبة رضوان ولقد سار سيرا حسنا بعقل ورياسة كما كان كفؤا ولم يزل فى سيادته حتى توفى فاضمحل بيتهم بموته وماتت أعيانهم وعظمائهم وخرب البيت بالكلية وانمحت آثارهم وبطلت خيراتهم وانطفأت أنوارهم ومن جملة ما رأيته من خيراتهم هذا مائة قارىء من الحفظة يقرءون القرآن كل يوم فى الأوقات الخمسة » (٣) .

ومهما يكن من أمر فان كتابات الجبرتى عن أمراء المماليك تنبض بالحياة الجياشة التى يصورها وتنم عن أنه كان يعيش فى الجو الحقيقى لمصر فى ذلك العصر . وهو وان كان من رجال الدين المعدودين فى عصره وعلى الرغم من بروز دور العلماء المصريين ورجال الدين أثر خروج الفرنسيين من مصر وموقفهم من خلع الوالى الشرعى وتعيين وال جديد من قبلهم ـ محمد على ـ على الرغم من معارضة السلطان العثمانى ، فليس فى كتابات الجبرتى ما يكشف لنا عن حقيقة أنه شارك فى هذه الأحداث اذ لم يكن من المتصدرين لقيادة الشعب وان ظل دائم الصلة بالمشايخ معنى بتتبع نشاطهم ونشاط الحكام الباشوات العثمانيين ونشاط البكوات المماليك منازعى الدولة فى السلطة والنفوذ .

ولعل خير ما نختتم به الحديث أن كتابات الجبرتى عن أمراء المماليك وانتقاده لتصرفاتهم وسلوكهم فى الحكم كانت سببا فى عداء الكثيرين للجبرتى وهذا أدى الى أن يعمد محمد بك الدفتردار « صهر محمد على » الى الانتقام من الجبرتى بقتل ابنه « خليلا » الذى كان يعمل مؤذنا للصلاة فى قصر محمد على وترجح الأقوال أنه فعل ذلك بعد أن استأذن محمد على (٤) .

ولم يكد يأتيه خبر وفاة ولده حتى كف عن الكتابة ولم يلبث أن كف بصره ولقى ربه سنة ١٨٢٥

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٠ .

(٢) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ٢٥ .

(٣) الجبرتى : المرجع السابق ج ٤ ص ١٨٨ .

الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ١٦ .

(٤) الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ١٦ .

المراجع

المصادر العربية

١ ـ خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى

٢ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٣ أجزاء

٣ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
تحقيق حسن جوهر ٧ أجزاء

٤ ـ محمد شفيق غربال : مصر عند مفرق الطرق

٥ ـ د. محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ٣ أجزاء

٦ ـ محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى (مصر فى القرن التاسع عشر) ثلاثة أجزاء .

المصادر الافرنجية

1. Bruce James : Travels to discover the Source of the Nile in the years 1768-1769, 1770-1771.

2. Deloporte : Abrégé chronologique de l'Histoire des Mamelouks d'Egypte.

3. Lusignan Sauveur : A History of the Revolt of Ali Bey against the Ottoman Porte.

4. Savary C.E. : Lettres sur l'Egypte.

5. Volney C.E. : Voyages en Syrie et en Egypte pendant les années 1783-1784-1785.

الجبرتي والفرنسيس

للدكتور صلاح العقاد
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية البنات - جامعة عين شمس

فوجىء الجبرتى ، مثل سكان مصر على اختلاف طوائفهم ، بقدوم الحملة الفرنسية . فلم يكن لدى أحد منهم صورة واضحة عن الأحوال السياسية والحضارية السائدة فى أوربا فى ذلك الوقت ، ولم يختلف أمراء المماليك فى ذلك عن عامة الناس ، برغم أن شئون الحكم كانت تقتضى منهم التعرف على أحوال العالم الخارجى . ولا أدل على ذلك من التعليق الذى صرح به مراد بك عند سماعه بنزول الفرنسيين الى الاسكندرية ، فقال ما معناه : « لا ينبغى أن نخاف شيئا وسنطأ الفرنسيين بسنابك الخيل » . كذلك يمكن استنتاج تلك الصورة المشوشة عن الفرنسيين من طريقة تعريف الشيخ عبد الله الشرقاوى بهم ، حيث يقول : « وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا الى مصر أنهم من الفلاسفة الاباحية الطبائعية ، يقال لهم نصارى قاثولقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا وينكرون البعث والدار الآخرة » (١) .

وقد يتساءل المرء كيف انعدمت معرفة المصريين بالأوربيين ، فى حين أن التجار الأجانب كانوا نشطين فى القاهرة ، لدرجة أن الحجة التى كان يرددها بونابرت فى منشوراته لتبرير الحملة ، استندت الى أنها جاءت لانقاذ التجار الفرنسيين من ظلم المماليك لهم . والواقع أن التجار الأوربيين فضلا عن قلة عددهم ــ عاشوا بمعزل عن المجتمع الاسلامى ، بل كانوا يتزيون بزى الأتراك . كما أن اختلاف الدين كان يقف حينئذ حاجزا فى سبيل الاختلاط الاجتماعى أو الثقافى .

ولا شك أن المجهول يثير دائما الشعور بالخوف ، ولهذا فقد ذعر أهل القاهرة ذعرا شديدا حينما علموا بأن الجيش الفرنسى يوشك على دخول المدينة ، فاعتقدوا بأن القاهرة ستستباح ، كما كانت تستباح المدن فى الماضى ، وأن

---

(١) تحفة الناظرين للشيخ عبد الله الشرقاوى ص ٢٤٥ .

الناس سوف يؤخذون أسرى أو أرقاء • ويبدو أن المنشور الذى وزعه بونابرت لم يحدث الأثر المرجو منه • وهو طمأنينة الناس ، اما بسبب انتشار الأمية ، أو لأن أسلوبه كان غامضا لاختلاف المفاهيم المتداولة ، أو لأن الناس لم يقتنعوا بأن الفرنسيين (يحبون المسلمين) • وسيعبر الجبرتى أصدق تعبير عن هذا التشكك فى الوعود والأفكار التى تضمنها المنشور • ولم يختلف مؤرخنا عن عامة الناس فى الشعور بهذا الذعر ، فغادر مع الذين غادروا القاهرة ، وذهب هو الى مزرعته فى ابيار قرب كفر الشيخ ، ولم يلبث أن عاد مع معظم السكان ، عندما تبينوا أن الفرنسيين لم يصيبوا الناس فى أرواحهم أو أموالهم • وعلى العكس ، يسجل الجبرتى أعمال السلب والنهب التى تعرض لها النازحون من القاهرة ، ويصف كيف استغل العربان هذه الفرصة ليسطوا على كل ما وقع فى أيديهم ، حتى فى مواقع قريبة من المدينة • وقد كان الأمن الذى أحس به المصريون فرصة للانفتاح على الوافدين الجدد ، والاحتكاك بهم ، لولا أن ثورة القاهرة التى هبت بعد أقل من ثلاثة أشهر جعلت كل فريق يتحفظ من الآخر ويتشكك فى نواياه •

ورغم ذلك ، فان الجبرتى لم ينقطع طوال مكوث الفرنسيين فى مصر عن تسجيل أعمالهم ، بل لعله كان من أكثر علماء الأزهر دقة فى ملاحظاته لعادات الفرنسيين وطرائقهم فى الحياة اليومية •

وفى رأينا أن تصويره للجانب الاجتماعى من الحملة الفرنسية يفضل كثيرا فهمه للجوانب السياسية ، وخاصة اذا كانت تتعلق بالعالم الخارجى ، كما أن الملاحظات الاجتماعية تشكل أكثر الموضوعات طرافة فى كتابى « عجائب الآثار » و « مظهر التقديس » ، نظرا الى أن مؤرخى العصر لم يهتموا بتسجيل هذه النواحى ، لذا رأينا أن نقسم بحثنا الى قسمين : الأول : يدور حول مواقف الجبرتى من الأحداث السياسية التى اقترنت بالحملة الفرنسية • ويختص القسم الثانى : بملاحظاته عن الحياة الاجتماعية ومدى فهمه لها ، والأسباب التى حالت دون احتكاك ثقافى أكثر عمقا بين الفرنسيين وسكان مصر •

ان أول موقف يمكن تسجيله للجبرتى من الحملة ، يتضح من تعليقاته على المنشور الذى وزعه بونابرت على نطاق واسع محاولا أن يقنع بواسطته المصريين أن الفرنسيين أتوا لتخليص البلاد من حكم المماليك الجائر ، وفى الوقت نفسه تظاهر المنشور بصداقة الفرنسيين للسلطان العثمانى ، وأنهم يعملون على تحقيق العدل والمساواة بين السكان • ولعل أكثر الموضوعات التى أثارت تشكك الجبرتى فى صدق الفرنسيين ، هى ادعاؤهم بأنهم مسلمون أو محبون للاسلام ، وقد كانت حجة المنشور فى ذلك ، هى أن الفرنسيين قبل مجيئهم الى مصر شنوا حملة على مملكة البابا فى روما ، تلك المملكة التى كثيرا ما حثت الدول الأوربية ــ وفرسان مالطة على وجه الخصوص ــ لشن الحرب على المسلمين وحملهم

أسرى الى الجزيرة • وقد أطلق الفرنسيون هؤلاء الأسرى عند نزولهم فى مالطة فى الطريق الى مصر •

وهذه الوقائع صحيحة كما هو معروف ، وهى ترجع الى أن أثر الفكر العلمانى الذى خلقته الثورة الفرنسية كان لا يزال قويا ، ولذلك لم تصطبغ الحملة الفرنسية بصبغة دينية ، بخلاف ما سيحدث عند غزو الجزائر فى ١٨٣٠ ، حينما يعتبر نجاح الحملة فى ذلك الوقت انتصارا للمسيحية على الاسلام ، نظرا للطابع الكاثوليكى الذى ساد حكومة شارل العاشر • وتمشيا مع هذه الروح العلمانية ، لم تصطحب حملة بونابرت معها رجال دين •

ولكن ذلك كله لم يكن ليؤثر فى المصريين ، لأن القضية ليست مجرد موقف دينى ، بل ان الاختلاف التام فى التراث الحضارى والعادات والتقاليد ، جعل من المستحيل على المصريين أن يصدقوا أن الفرنسيين مسلمون •

وعلى افتراض أن بعض العلماء كان بوسعه أن يفهم موقف فرنسا من البابوية ، فلا نعتقد أن ذلك فى حد ذاته كفيل بجلب احترام مجتمع لا دينى ، بل ربما فضل هؤلاء العلماء مجتمعا يدين بدين سماوى معروف •

وقد تعجب الجبرتى من تضمن المنشور لعبارة « لا اله الا الله لا ولد له » لأنه يعلم أن الفرنسيين يدينون بالمسيحية ، وان المسيحيين يقولون ببنوة المسيح • ولم ينخدع صاحبنا بادعاء التحالف مع الدولة العثمانية أيضا • فانتهز أول فرصة ــ وذلك عند خلع الفرنسيين لقاضى القضاة التركى ــ ليثبت كيف أن هؤلاء هم خصوم الدولة العثمانية • وأكثر من ذلك فانه لا يتقبل فكرة التسوية التى تحدث عنها المنشور ، ويقول : كيف وان الله قد خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات ، ويمضى فى التعليق على المنشور بقوله : باسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه » • فى ذكر هذه الجمل الثلاث اشارة الى أنهم موافقون الى الملل الثلاث ، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل ، موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ، ونفى الولد والشريك ، ومخالفون لهم فى عدم الاتيان بالشهادتين وصحة الرسالة ، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة • وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم ، ومخالفون لهم فى القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضا ورفض ديانتهم وقتل القسوس ، وهدم الكنائس ، وموافقون لليهود فى التوحيد ، فان التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث ، وانما هم مجسمة مخالفون لهم فى ديانتهم ، والذى تحرر من عقايدهم انهم لا يتفقون على دين ، ولا يتفقون على ملة ، فكل واحد منهم ينحو دينا ، يخترعه بتحسين عقله ومنهم الباقى على نصرايته المتكتم لها ، وفيهم فرق من الميهود الحقيقيين ، ولكن كل ذى دين فهو سائر مصر عليه ، موافق للجمهور فى ضلالهم المصريين عليه (١) •

(١) مظهر التقديس ص ٣١ ــ ٣٢ •

يلاحظ اذن أن الحوار في الشئون الدينية يشغل اهتمام صاحبنا أكثر من أى شيء آخر ، علما بأن المنشور تضمن كثيرا من الأفكار التي كانت تستحق المناقشة ، فالمؤلف لا يدافع مثلا عن المماليك ــ كما سيفعل عندما يتناول عصر محمد علي ــ والأرجح أن معلومات الجبرتي عن بابوية روما وفرسان مالطة ، تكاد تكون منعدمة ، ولهذا السبب نفسه لم يقدم للحملة الفرنسية بذكر شيء عن خط سيرها ، أو معلومات عن البلاد التي خرجت منها ، وهو يختلف في ذلك عن كاتب آخر معاصر هو نقولا الترك ، اذ قدم مذكراته عن الحملة الفرنساوية بلمحة سريعة عن التطورات التي حدثت في فرنسا من الثورة الى قيام الحملة • وغلبة الفكر الديني ظاهرة عامة لا ينفرد بها الجبرتي ، وهي تبرز مرة أخرى عندما يعلق مؤرخنا على نهاية حوادث سنة ١٢١٣ ، فيذكر أن من أشنع ما حدث في ذلك العام هو انقطاع الحج ، فهو أخطر في نظره من احتلال مصر • وقد عرف الفرنسيون سيطرة الفكر الديني على الناس ، ولذلك حرصوا على أن يضمنوا المناشير ــ التي كانوا يوزعونها في كل مناسبة بقصد اقرار الأمن ــ آيات قرآنية وعبارات دينية أخرى تحض على الاستسلام للقضاء والقدر •

ولا يقتصر هذا الأسلوب المحافظ في معالجة القضايا المحلية ، بل نرى صاحبنا حين يتحدث عن احتفال الفرنسيس بذكرى قيام الجمهورية ــ يستنكر عليهم قتل سلطانهم ، فيقول : « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا ســــلطانهم وظهرت بدعتهم التي ابتكروها وخرجوا بها عن الطرايق والملل جعلوا ذلك اليوم عيدا وتاريخا » (١) •

كيف واجه الجبرتي مشروع اقامة ديوان في مصر ؟ من المعروف أن الديوان كان ينقسم الى قسمين : الديوان الخصوصي ويتألف من بعض كبار المشايخ ، والديوان العمومي ويتألف من أصحاب الحرف والتجار ، وتمثل فيه الطوائف الدينيةغير الاسلامية • وكان من المفترض أن يرحب الجبرتي باشراك العلماء في السلطة ، غير أنه توجس خيفة من أن يكون الهدف هو اصدار التشريع حسب العقل البشري ، ولكنه يضيف ان استشارة العلماء كانت بها رحمة بالمصريين • أما وجه الاعتراض الثاني على الديوان ، فهو أن السوقة لا تهاب هذه الطبقة • فبعد أن تحدث عن دعوة الفرنسيين للمشايخ لتكوين الديوان ، روى كيف أن هؤلاء عرفوا الفرنسيين « ان سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة » (٢) •

ولا نكاد نلمس في كتابات الجبرتي صورة لنشاط ديوان المشايخ ، وربما يرجع ذلك الى انه كان مجرد ديوان استشاري ، وليس هيئة نيابية أو حتى نواة لهذه الهيئة ، كما صور ذلك بعض الكتاب المحدثين • وربما يرجع السبب

---

(١) مظهر التقديس ص ٦٠ •

(٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١١ •

أيضا الى أن هذا الديوان قد توقف بعد ثورة القاهرة الأولى · وعلى العكس نجد صاحبنا يســـجل الاجراءات الادارية والقضائية والقضايا التجارية ومسألة الضرائب ، وهى أمور كان يختص بها الديوان الثانى ، وفى اعتقادنا أن الجبرتى وقف موقفا عدائيا من كل هذه الاجراءات ، لأنه بحكم تكوينه الثقافى وانتمائه الاجتماعى الى طبقة الملتزمين ، كان يبغض تدخل الادارة فى حياة الناس اليومية عامة والاقتصادية بصفة خاصة ، وهذا ما يجعله معاديا لأية ادارة عصرية ، كما سيتضح ذلك من موقفه ازاء اجراءات محمد على ·

على أنه يجب الاعتراف من جهة أخرى ، بأن قيادة الحملة أخذت ترهق الأهالى بالضرائب والغرامات ، منذ أن تحطم الأسطول الفرنسى فى أبو قير وانقطعت الصلة بفرنسا ، فاعتمدت الحملة على موارد محلية ، ومن ثم فقد نشأت أسباب فعلية للسخط ·

ومهما قيل عن اعجاب الجبرتى بالفرنسيين فى بعض المجالات ، فانه ظل من الناحية السياسية يسلم بشرعية الحكم العثمانى ، فهو يستخدم أحيـانا وصف المسلمين للدلالة على الجيوش العثمانية التى قدمت من الشام ، أو التى نزلت فى أبو قير · كما يعبر عما أصاب المصريين من حزن كلما سمعوا عن انتصارات الفرنسيس ابان مسيرة بونابرت نحو الشام · ثم اشتد حزنهم حينما رأوا الأسرى العثمانيين الذين أخذوا فى موقعة أبى قير البرية وطوف بهم فى شوارع القاهرة · ولعل هذا من بين الأسباب التى جعلت صاحبنا يغفل دور الانجليز فى فك حصار عكا · وان كنا لا نستطيع الجزم بهذا الرأى ، فمن المحتمل جدا أن تكون قلة الدراية بالشئون الخارجية هى سبب هذا الاغفال ·

ومما ساعد على ضعف هذه الدراية ، ان الفرنسيين أنفسهم حرصوا على تكتم جميع الأخبار التى تشير الى هزائمهم فى الخارج ، الا أنه كان من الصعب اخفاء هزيمة بونابرت أمام عكا ، لذلك لم يكن بوسع المصريين سوى اظهـــار السرور عند رؤية الجيش الفرنسى يرتد الى مصر مدحورا ، وكثر الحديث فى هذا الشأن بين العامة ، فوزع الفرنسيون منشورات تحذر المصريين من الخوض فى هذا الموضوع والا تعرضوا لأشد العقوبات ·

وممـــا يؤكد تسليم الجبرتى بشرعية الحكم العثمـانى ، أنه شارك فى استنكار تولية بونابرته للشيخ أحمد العريشى فى منصب قاضى قضاة مصر · ولم يقتنع بحجة بونابرت بأنه من الأفضل اختيار أحد الوطنيين العارفين باللغة العربية ، وأدرك بحصافته كيف أن القضية لا تعنى تمصير الوظائف بقدر ما ترمز الى تأكيد السيادة الفرنسية ، اذ تمسك بونابرت بأن يصدر بنفسه قرار تعيين العريشى فى المنصب الجديد · وفى ذلك يقول « فلما انفسحت له — يعنى بونابرت — المدة وخفت عنه الشدة وعدم المعارضة وصار جواد فساده بأرض مصر راكضا أظهر العداوة للدولة العلية أبقاها الله بعد كتمانها » وكان

ذلك تعليقا على قول بونابرت « وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتوه جميعا أن يكون لابسا من عندى وجالسا من عندي » (١) ٠

ولا يتناقض هذا الموقف في رأينا مع الحكم السيء الذى اشتهر به الجبرتى ازاء الذين قاموا بثورتى القاهرة ضد الفرنسيين ، فالذى يأخذه عليهم هو عدم الاستعداد وافتقاد القيادة واندساس جماعات السلب والنهب بينهم ، وهو يرى أن من يريد أن يتصدى بالثورة ، فعليه أن يكون مثل التاجر الذى لا يخاطر بالمعركة الا اذا تأكد من الكسب ٠

لم يقتنع الشيخ عبد الرحمن بتظاهر بونابرت بالاسلام ، ولكن يبدو أنه كان أقل بغضا له منه لخلفه كليبر ، فقد ذكر عن هذا الأخير أنه أقل بشاشة فى وجوه المصريين ٠ ولما حل مينو فى قيادة الحملة وفتح الباب على مصراعيه لاحتكاك أقوى بين المصريين والفرنسيين ، وأمام أجهزة الحكم الوطنى ، سار الجبرتى فى هذا التيار ، واختير عضوا فى الديوان الجديد ، مع صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى عين كاتبا أو سكرتيرا للديوان ٠ ولا شك أن بروز مؤرخنا الى مسرح القيادة العليا قد أتاح له فرصة للتعرف على أحوال الفرنسيين بصورة أدق ، ولذا سنجده يتطرق الى بعض الأحداث الدولية التى وقعت أثناء عضويته فى الديوان ، بخلاف الفترة السابقة ٠ الا أنه قبل أن نصل الى هذه النقطة ، ينبغى أن نتساءل : لماذا اختار الفرنسيون الجبرتى كأحد الأعضاء التسعة الذين كونوا الديوان ، هل كان ذلك لما عرفوه عنه من انتقاد للقائمين بالفتنة فى القاهرة ؟ أم لأنه كان على صلات شخصية ببعض قادة الفرنسيين ؟ ٠

يلاحظ أن الجبرتى لم يسجل فى أى من كتابيه وقائع تدل على أنه اتصل بشخصيات فرنسية ، وهو يختلف فى ذلك مثلا عن الشيخ حسن العطار ، الذى تغزل فى بعض أشعاره بأصدقاء من الفرنسيين ، ويسجل الجبرتى على العكس من ذلك أن بونابرت وكليبر كانا يترددان على بيوت الشرقاوى والسادات « والتعشى عندهم » ، ونجده على العكس يتحاشى أى ذكر لصلات نشأت بينه وبين الفرنسيس ، حتى انه حين يعدد أسماء أعضاء الديوان لم يذكر اسمه نصا ، بل قال : « وكاتبه » ، مما يوحى بنوع من الاحساس بالحرج ، كما أنه تجنب الاشارة الى أى موقف اتخذه فى المناقشات التى دارت فى الديوان والتى روى طرفا منها ٠

ولذا فنحن نرجح أن يكون الفرنسيون قد اختاروه بعد أن عرفوا رأيه فى استنكار الفتن ٠ والواقع أن الجبرتى لم يكن منفردا بين شيوخ الأزهر بهذا الموقف ، فالكثيرون كانوا مقتنعين بأن المداراة هى خير أسلوب يتبع مع الغزاة الذين لا قبل للمسلمين بمحاربتهم ٠ وكان بونابرت يعرف عن معظمهم هذه الحقيقة ،ولذلك فانه عند مغادرته مصر قال فى تعليماته : « واستوصوا بالمشايخ خيرا فانهم أناس متعصبون لكنهم هيابون » ٠

(١) مظهر التقديس ١٦٣ ، ١٦٤ ٠

ومن هذا المنطلق أيضا ، يمكن معرفة السبب الذى وجهت من أجله رسالة هامة الى بونابرت ، بمناسبة توليه القنصلية ، وقد بعث بها أعضاء الديوان — وكان الجبرتى أحد الموقعين عليها — فيغتنم الأعضاء هذه الفرصة ليؤكدوا ولاءهم ، واستعدادهم لربط مصر مع فرنسا بشكل ما من أنواع الارتباط ، دون أن يدركوا بطبيعة الحال المفاهيم التى نعرفها الآن عن النظم الاتحادية . لذا قد يكون من المفيد نقل بعض فقرات هذه الرسالة على علاتها :

« ونحن اذا قلنا ان المصريين يؤلفون مع الفرنسيين أمة واحدة لأصبنا فى هذا القول كبد الحقيقة ويرجع الفضل فى توثيق عرى هذا الاتحاد يوما بعد يوم الى ما أبداه من عناية فائقة بأمر هذا التآلف صديقنا عبد الله منو صاحب الصيت الذائع والمقام الرفيع الذى حباه المولى بالحكم وسداد الرأى . رعاه الله بعين عنايته وأثابه خيرا على ما يفيض به من رأفة وحنان » . وشكر العلماء المولى سبحانه وتعالى الذى ألهم بونابرت اختيار عبد الله منو حاكما على مصر ، ثم قالوا فى ختام رسالتهم : « ونحن انما نطلب اليكم ألا تغفلوا أمر مصر فيسدل النسيان عليها حجابا ذلك أن مصر هى بلادكم ولا شك فى أن شرف عاصمتها هو شرفكم وأما أهلها فهم يكنون لكم كل محبة وتقـديـر ويترقبون عودتكم اليهم بفارغ الصبر ، ان الدين الاسلامى الذى ظفر بتقديركم ليدعوكم الى المجىء الى هذه البلاد مرة أخرى ولقد وعدتم أنتم بذلك فلا تخلفوا وعدكم ولن يطول الأمر على تمام الاتحاد بين الأمتين فلا مناص عن حدوث ذلك فى يوم قريب وان هـذا اليوم آت لا ريب فيه لأن المولى عز وجل قد أراد ذلك ولا منـاص من تنفيذ ارادته » (١) .

ورد نص هذه الرسالة فى الصحيفة التى كانت تصدرها قيادة الحملة باسم بريد مصر . ورغم أن الجبرتى اشترك فى توقيعها كما ذكرنا فاننا لا نجد للرسالة أثرا فى حولياته . وعلى العكس ، يسجل بعض المناقشات التى دارت فى الديوان بعد ذلك ، ويتضح منها كيف أن مشايخ الأزهر صاروا أكثر تقبلا للاجراءات الفرنسية عن ذى قبل ، ولعل ذلك من أثر طول المعايشة . فمثلا ، حينما طلب الى أعضاء الديوان تخصيص سجل للوفيات ، اقترحوا اضافة سجل للمواليد والزيجات أيضـا ، لأن ذلك يساعد على ضبط المواريث والعـدة للمطلقات ، مما يتمشى مع عادات البلاد وتقاليدها التى تأبى ترك النساء الأرامل بدون زواج جديد .

وفى الحقبة الأخيرة من وجود الفرنسيين بمصر ، ونتيجة لتحرج مركزهم ، صاروا يعرضون على الديوان تطور الأحداث فى أوربا ، فبمناسبة اطلاق بعض المدافع فى القاهرة سأل الأعضاء عن السبب ، فقيل لهم : ان ذلك احتفـال بمناسبة انتصار فرنسا على النمسا ، وعقد الصلح مع الملوك باستثناء الانجليز .

---

(١) Courrier de l'Egypte, No. 81.

ويبدو أن فورييه وكيل الديوان الذى أبلغ الأعضاء بذلك ـ انما كان يشير الى صلح لونوفيل مع النمسا ، والذى أعقب معركة مارنجو . ولكن الى أى مدى كانت لدى المشايخ تصورات واضحة عن هذه الأمور ؟ ان الجبرتى فى رواية هذه الحادثة ، يعترف بأنه قد استغلق عليه فهمها ، ويعزو ذلك الى ضعف المترجم ، فهو يقول : « لكن يسركم أن جمهور المنصور غلب فى أقاليم الروم جميع أعداه وبعون الله تعالى هادى كل شىء سيغلب كذلك العدا فى مصر واعتمدوا بأكثر الاعتماد على الستويان جيرار هذا الذى وضعناه قربكم » (١) .

ولا شك أن صاحبنا قد وجد صعوبة ـ مثلا ـ فى فهم كلمة الستويان ، كما تعذر على المترجم ايجاد مرادف لها بالعربية .

ولما ازداد موقف الفرنسيين حرجا ، أخذوا يوضحون أمام أعضاء الديوان لماذا تصر دول أوربا على محاربة فرنسا ، فقالوا : ان السبب هو أن تلك الدول ترفض مبادىء الحرية والمساواة ، وذكروا كيف أن فرنسا تقيم موازين العدل فى مصر ، وذلك بجعل المشايخ « وسائط » أو ممثلين عن الشعب ، فاذا زال الحكم الفرنسى فعلى المشايخ أن يواصلوا مهمتهم « من اللازم أنكم تعرفوا جميع ما صدر لكم من الخيرات بواسطة حكم الفرنساوية وفى عشمى أنهم لم ينسوه أبدا .. والقرانات فى بلاد الغرب خافوا أن رعيتهم يقبلوا حكم التسوية والحرية » .

وكنوع من الدفاع عن النفس أخذ الفرنسيون يوعزون الى المصريين بأن وقف الأحوال راجع الى حصار الانجليز للطرق البحرية ، لأنهم يريدون أن يستأثروا بالتجارة ، فى حين أن الفرنساوية تعمل على « تسليك البحر » . ولكن الأوان قد فات ، فقد جاءت أخبار نزول الانجليز بالاسكندرية وحصارهم لها ، وترتب على ذلك أن قرر بليار حاكم القاهرة اعتقال أربعة من أبرز أعضاء الديوان فى القلعة على سبيل التحفظ . ومما هو جدير بالملاحظة ، أن الجبرتى لم يكن من بين الأربعة المعتقلين ، مما يجعلنا نتساءل : هل كان ولاؤه للفرنسيين موثوقا به أكثر من غيره ؟ .

واذا كان لنا أن نقيم مواقف الشيخ عبد الرحمن السياسية ، فلابد وأن نأخذ فى الاعتبار أنه كاتب حوليات . وفى مثل هذه الظروف لابد وأن تتبدل مواقف الكاتب من سنة الى أخرى ، بخلاف من يضع كتابا متكاملا دفعة واحدة ، فيكون أكثر التزاما بموقف محدد . ومن هنا تأرجحت مواقف مؤرخنا بين المداراة والاعجاب ببعض النظم . ولكن مما لا شك فيه أن العاطفة الدينية تغلب عليه فى معظم الأحيان ، ولذلك فهو يرحب بمقدم العثمانيين وخروج الفرنسيس ، حتى اذا أخذ العهد يتباعد بهؤلاء ، يعود الجبرتى فيتذكرهم

---

(١) مظهر التقديس ٣٤٩ .

بالخير ، لأن أسباب الجفوة لازالت . وهو ينقل على لسان الفلاحين تذكرهم بالأسف أيام الفرنسيين ، خاصة اذا قارنوها بكثرة المظالم العثمانية (١) .

وفي حين نجد الجبرتي يعبر عن أسفه حين يذكر مغادرة الأسطول الانجليزي للاسكندرية قبيل وصول الحملة ، اذا به يقلب الآية عند رواية الأحداث المتعلقة بحملة فريزر سنة ١٨٠٧ ، فبهذه المناسبة ينقل حوارا عن المشايخ يتضمن مفاضلة بين الفرنسيين والانجليز ، ويخلص الى تفضيل الفريق الأول ، ولا غرو فقد صار الفرنسيون في هذه الحقبة حلفاء للعثمانيين . ويبدو أن الانجليز كانوا قد تظاهروا هم أيضا بالدفاع عن المصريين بالاتفاق مع بعض المماليك ، فرد الجبرتي بقوله : « لا تصدقوا أقوالهم في ذلك واذا تملكوا البلاد لا يبقون على أحد من المسلمين وحالهم ليس كحال الفرنساوية فان الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية أما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ولا تخفى عداوة الأديان ولا يصح الالتجاء اليهم » (٢) .

هكذا لم تنقطع اهتمامات الجبرتي بالفرنسيين بعد خروجهم من مصر . وكانت تصله أخبار متقطعة عن حروب نابليون ، فيسجلها أحيانا كما وصلت اليه ، حتى انه أشار الى اعتقاله في جزيرة البا . الا أن هذه الأخبار المتقطعة لا تنطوي على أية دلالة بخلاف فترة الحملة .

المواقف الاجتماعية والاحتكاك الثقافي :

تتفاوت مواقف الجبرتي في المجالات الاجتماعية والثقافية ، بحيث تتراوح بين الاعجاب ببعض مظاهر السلوك ، ولا سيما حب المعرفة ، الى مواقف الانبهار بأشياء مجهولة كنظام المطاعم والمسارح ، الى موقف الاستنكار ، وهو ينصب غالبا على ما لاحظه من تحرر في العلاقات النسائية .

كذلك فان الصلات التي نشأت بين الفرنسيين وبين السكان تفاوتت حسب الانتماءات الدينية والطبقات الاجتماعية ، وكانت أوثق هذه الصلات هي التي ربطت ما بين الفرنسيين من جهة ، والمسيحيين الوافدين من الشام والجالية اليونانية من جهة أخرى ، وهي الجالية التي يسميها الشيخ عبد الرحمن بالافرنج البلديين . ولا شك أن معرفة الكثيرين من هؤلاء باللغة الفرنسية قد سهل عملية الاتصال . واستخدمت الحملة أبناء هذه الطوائف للأعمال الادارية وأعمال الشرطة ، بحيث صاروا حلقة اتصال بين الحملة وبين سكان مصر الأصليين . ومع أن الأقباط تعاونوا أيضا مع الفرنسيين ، الا أن صلاتهم الاجتماعية واحتكاكهم الثقافي كان أقل درجة من الطائفتين الأوليين ...

ويستنتج من حديث الجبرتي عن الفرنسيس ، أنهم كانوا غير راضين عن

---

(١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦٦ .

(٢) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٤٩ .

الاعتماد على الأقليات الدينية ، ويستطلعون الى اجتذاب جماهير الشعب المصرى من المسلمين ، حتى أنهم بعد أن رفعوا القيود الاجتماعية المضروبة على المسيحيين ، عادوا وألزموهم بها ، ومنعوهم من الأكل جهارا فى رمضان لكى لا يتحدوا الشعور العام « ثم ان النصارى الشوام رجعوا الى عاداتهم فى لبس العمايم السود والزرق وتركوا لبس العمايم البيض والشالات الكشمير الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك ونبهوا أيضا بالمناداة فى أوائل رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان فى الأسواق ولا شيئا من ذلك بالمرة كل ذلك استجلابا لخواطر الرعية » (١) •

ومن المعروف أن الفرنسيين بذلوا كل ما فى وسعهم لاجتذاب علماء الأزهر ، وامتصاصهم فى أجهزة الادارة الجديدة ، وكأنهم بعد أن أزالوا (النبالة التركية) لم يجدوا من يحل محلها من بين السكان الأصليين سوى فئة علماء الأزهر ، فهم يشكلون حينذاك الفئة المثقفة الوحيدة فى البلاد ، والسؤال الهام الذى ينبغى طرحه بهذه المناسبة ، هو الى أى مدى استجاب العلماء من جانبهم لاغراءات الفرنسيين ؟ والظاهر أنهم تحفظوا كثيرا فى الاستجابة لتقارب الفرنسيين ، وذلك لما يتسم به التفكير الدينى من التحرز والتشكك فى كل جديد •

فحينما قدم نابليون لهم طيلسانات موشاة بعلم الثورة المثلث لكى يرتدوها ، استنكروا ذلك وألقوا بها على الأرض • كذلك يمكن اختبار مدى استجابتهم من ترددهم على المكتبة وسائر فروع المجمع العلمى الذى أقيم فى القاهرة ، فيذكر الجبرتى كيف أن الفرنسيين كانوا يرحبون بكل من يتردد عليه • ولكن يستشف من كلامه فى هذا الموضوع كيف أن علماء الأزهر لم يأبهوا كثيرا بالتردد على المكتبة ، وفى ظننا أنهم تخوفوا من الاطلاع على كتب غير معروفة لديهم ، وفى هذا الصدد يمكن القول بأن صاحبنا كان أكثر تقديرا من بعض زملائه علماء الأزهر لهذه المكتبة • فهو قد سجل اعجابه بنظام الاطلاع ، وبالتجارب العلمية التى أجريت أمامه ، ولعل آلات الرصد الفلكى كانت من أكثر الأقسام التى توقف أمامها طويلا ، وربما يرجع ذلك الى أن أباه الشيخ حسن الجبرتى كان يشتغل بعلم الفلك • وهاك وصفه لنظام المكتبة : « فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجع ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى

---

(١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٤٥ •

المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم » (١) •

وقد رأى هو بنفسه أحد كتب السيرة ، وبها صورة للنبى وهو يمسك القرآن بيد والسيف بيد أخرى ، ويبدو أنه لم يفهم مغزى تلك الصورة التى تشير الى أن النبى عليه السلام استخدم السيف فى نشر الدين ، ولذلك فهو لم يستهجن شيئا من هذا الكتاب • كما يستنتج من الوصف السابق كيف أن الفرنسيين بما فى ذلك الجند كانوا يشغلون وقت فراغهم فى القراءة ، فى حين قل تردد المسلمين رغم التسهيلات التى تقدم لهم للاطلاع •

وفى رأينا أن رجال الأدب كانوا أقل تزمتا من علماء الأزهر ، ولذلك خالطوا الفرنسيين دون تحفظ ، كما يستنتج من حديث حسن العطار عن التقائه هو وصديقه اسماعيل الخشاب مع أصدقاء لهم من الفرنسيين ، وخاصة المستعربين • وقد اعتادوا أن يعقدوا جلسات معا فى حى وجه البركة ، ويبدو أن من الوسائل التى اتبعها الفرنسيون لاسترضاء المشايخ ، تشجيع الموالد بل والتبرع لها ، ولكن ذلك لايثير أى رد فعل حسن فى نفس صاحبنا لأنه سلفى النزعة ، وسيبدى اعجابه فيما بعد بالحركة الوهابية ، فى حين يستنكر الموالد وما يصحبها من بدع وأعمال المجون •

ويبدو أن الفرنسيين لم يتنبهوا الى أن علماء الأزهر ليسوا وحدهم أصحاب الزعامة الدينية ، بل كان هناك رجال الطرق الصوفية أصحاب النفوذ الأقوى لدى جماهير الشعب ، ولذلك لم يبذلوا أى مسعى للاقتراب من هذه الفئة • وعندما يتاح لهم وقت أطول فى احتلال شمال افريقيا سيتجهون الى اجتذاب ود هذا الفريق من رجال الدين الاسلامى •

وعلى عكس تحفظ علماء الأزهر ، أقبل أصحاب الحرف البسيطة يقدمون خدماتهم لجيش الاحتلال الذى كان يدفع نقدا ثمن ما يقـــدم له من خدمات أو بضائع ، ويندهش صاحبنا لنزاهة الفرنسيين فى المعاملات ، كما يتعجب لانفاقهم بسخاء على وسائل التسلية ، فيعطون الحمارين أجورا مجزية مقابل الطواف بهم بمدينة القاهرة لمشاهدة معالمها ، ويعتبر الاقبال على أكل الفاكهة نوعا من الكماليات المترفة ، مما يشير الى ما كان يعانيه الشعب من الحرمان •

ويدل وصفه للمطاعم التى أقيمت فى أثر مجيىء الحملة الفرنسية على أن مجتمع القاهرة لم يكن يعرف شيئا عن نظام المطاعم الحديثة « فاذا مرت طائفة بذلك المكان تريد الأكل دخلوا الى ذلك المكان وهو يشتمل على عدة مجالس دون وأعلى وعلى كل مجلس علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخل فيه فيدخلون الى ما يريدون من المجالس وفى وسطه دكة من الخشب وهى الخوان

---

(١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٤ •

التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم » (١) .

وفى أكثر من مناسبة يقارن مؤرخنا بين دقه الفرنسيين ونزاهتهم فى مجال المعاملات اليومية وبين سلوك أصحاب الحرف والتجار من المصريين الذين انتهزوا فرصة وجود جيش احتلال أجنبي وحاولوا أن يحققوا من وراء ذلك أكبر كسب ممكن ، وهذا سلوك شائع فى كل المجتمعات ، غير أن الجبرتى نظر الى هذه القضية بموضوعية تامة ، ولم يسقط ملاحظاته حتى فى كتاب مظهر التقديس المعادى للفرنسيس . « وطلب باعة القمح الزيادة فى السعر فجمع الفرنسيس كل من له مداخلة فى تجارة الغلال وزجروهم وخوفوهم وقالوا لهم : هذه الغلة الموجودة الآن انما هى زراعة العام الماضى وأما هذا النيل فلا تخرج زراعته الا فى العام المقبل فانزجروا وباعوا بالسعر الحاضر وقد كاد يقع البلاء العظيم لولا ألطاف الله حفت ونعمه العميم الشاملة حصلت » (٢) .

لقد كان تصادم العادات والتقاليد من أعمق الأسباب التى أوجدت هوة بين الوافدين والمصريين ، فلم تفهم عامة الشعب مغزى كثير من الاجراءات التى اتخذت من أجل الوقاية الصحية ، ويسجل الجبرتى هذه الاجراءات فى مناسبات عدة دون أن يعلق عليها بالانتقاد أو بالتقدير لها . وان كان من المعروف أن التطعيم أثار سخط علماء الأزهر . وللمرة الأولى أقيم حجر صحى فى جزيرة بولاق « حى الزمالك حاليا » وطلب الى الناس عدم دفن الموتى قريبا من المنازل ، كما دقق الفرنسيون فى تطبيق الاجراءات الخاصة بتبخير المنازل ونشر الثياب ، ولا شك أن الأهالى اعتبروا هذه الاجراءات تدخلا فى خصوص حياتهم اليومية . ولكن الفرنسيين كانوا مضطرين اليها لكثرة ما أهلكت الأمراض من الجند . ويصف الجبرتى كيف كان الفرنسيون يصابون بالذعر كلما سمعوا عن ظهور الطاعون فى مكان ما ، فيسارعون بارسال الأطباء لعيادة المرضى . على أن أشد ما يثير استنكار الجبرتى هو ما شاهده من تحرر فى الاختلاط بين الرجال والنساء ، وهو يعلق على هذا الموضوع فى أكثر من مناسبة ، ولذا نجد من الضروزى أن نتساءل عن نوعيات هؤلاء النساء اللائى يتحدث عنهن الشيخ عبد الرحمن .

فقد كان من بينهن زوجات الضباط الفرنسيين ، اذ كان من المألوف اصطحاب الضباط بصفة خاصة لأسرهم حينما يخرجون فى حملات بعيدة يدل على ذلك افتتاح مدرسة لتعليم أطفال الفرنسيين فى حى الأزبكية . ولكن

---

(١) مظهر التقديس ص ١٨٦ .

(٢) عجائب الآثار ج ٣ ص ١٢ .

وجد بجانب هاتيك الزوجات عدد كبير أيضا من بائعات الهوى من الفرنسيات سمح لهن بالنزول في المراكب لمصاحبة الحملة على شكل كتائب للترفيه .

ويبدو أن ذلك كله لم يكف جنود الحملة ، ولذلك عمد الكثيرون منهم الى اعتناق الاسلام ليتيسر لهم الزواج من نساء مصريات (١) .

ويعترف الجبرتى بحسن معاملة الفرنسيين للمرأة ، مما جعل كثيرا من الآباء يقبلون تزويج بناتهم من الوافدين ، وهذا لا يثير سخط صاحبنا ، وانما الذى يستنكره بشدة ، هو الظهور برفقة النساء فى الأماكن العامة ، وفى الأعياد والحفلات ، والتنزه فى مراكب مختلطة بالنيل .

وفى بعض الأحيان كان الفرنسيون يلجأون الى اغراء الجوارى لمصاحبة الجند ، أو استخدام بعض وسائل الضغط ، كما حدث عند الاستعداد لحملة الشام ، فقد جهزت الحملة بكل ما يحتاج اليه الجندى بما فى ذلك « محفات النساء والجوارى البيض والسود والحبوش الذين أخذوهن من بيوت الأمراء الذين قتلوا أو هربوا وتزيا أكثرهن بزى النساء الافرنجيات وغير ذلك » (٢) .

واقبال الفرنسيين على اصطحاب النساء دون التمييز بين ألوانهن ، هو الذى جعل صاحبنا يصف هؤلاء بأنهم يرغبون فى مطلق الأنثى وهو لا يخفى أن بعض الرقيق الأسود من النساء كان يسعى بنفسه للحاق بالجنود الفرنسيين ، حتى ولو أدى ذلك الى قفز الجدران للوصول اليهم . وفى مجتمع يأخذ بنظام الرق لابد أن يكون ادراك المرأة المسترقة لقيمة العفة ضعيفا .

اذا كان التلاقى بين المصريين والفرنسيين صعبا فى العادات والتقاليد ، فقد كان الاحتكاك الثقافى أشد صعوبة ، نعم أقبل بعض الفرنسيين على تعلم العربية ، وشجعت قيادة الحملة الدارسين للنفاذ الى صميم المجتمع المصرى ، لكن الحملة استعانت فى معظم الأحيان بأسرى مغاربة أخذوا من جزيرة مالطة ، أو بسكان مالطة نفسها ، للقيام بأعمال الترجمة من الفرنسية واليها .

ومن الواضح أن هؤلاء المترجمين الذين استخدموا على سبيل الصدفة لم يكونوا على درجة من الكفاءة تساعد على سهولة نقل الأفكار ، أضف الى ذلك أن اللغة العربية لم تكن قد طوعت فى ذلك الوقت للأفكار الحديثة ، ولا شك أن كثيرا من الكلمات التى كانت متداولة بين الفرنسيين لم تدخل الى قاموس الجبرتى ، مثل كلمة : وطنية أو استقلال ، هذا فضلا عن التعبيرات الخاصة بالفنون والآداب . ولا أدل على أهمية هذه المشكلة من شكوى صاحبنا مرارا من أنه أثناء عضويته للديوان لم يستطع أن يفهم « سقيم كلام المترجم » . وعلى سبيل المثال فقد أراد فورييه وكيل الديوان أن يشرح للأعضاء كيف أنه يمثل

---

(١) مذكرات نقولا الترك ص ٦٠ .

(٢) مظهر التقديس ص ١١٤ .

السلطة التنفيذية ، وأنه لا يمتلك اختصاص التشريع ، الا أن العبارات التى استخدامها لا يمكن أن تدل على هذا المعنى ، أو أن توضحه لأعضاء الديوان الذين كانوا يجهلون مثل هذه المصطلحات القانونية .

ولم يبذل علماء الأزهر من جانبهم أى جهد للالتقاء — ولو فى منتصف الطريق — مع الحضارة الوافدة ، وذلك بتعلم اللغة الفرنسية . ولم يكلف الجبرتى نفسه عناء ضبط الكلمات الفرنسية ، فالكرنتينة أو الحجر الصحى هى الكورنتيلا ، «Chevaliers de Malte» « فرسان مالطة » هم القارولية ، وهكذا .

كذلك لم يدفع حب الفضول صاحبنا الى أن يشاهد الكوميديا بعد اقامة المسرح على عهد مينو ، واكتفى بالوصـــــف الخارجى للمسرح وكيفية حجز التذاكر ، الى آخره .

وخلاصة القول أن الجبرتى — كمعظم الرجال الذين يقفون موقفا وسطا من التقاء حضارتين ، يتعرض لنقد الفريقين ، فقد انتقده الفرنسيون ووصفوه بالتعصب ، فى حين عاب عليه المصريون اتصاله بالفرنسيس واتهموه بالتعاون والولاء لهم . والحق ان الجبرتى كان فى مجال السياسة أميل الى مداراة الغزاة ، لأنهم أشد قوة ، فى حين رفض الاستفادة من حضارتهم فى المجالين الثقافى والحضارى . وربما كان الموقف الأمثل فى نظر المواطن المعاصر هو اتباع مواقف معاكسة ، أى الاستفادة من الحضارة والثقافة الفرنسية ، ورفض التعاون فى المجال السياسى .

موقف الجبرتي من ثورات القاهرة

للدكتور جاد طه

كلية الآداب - جامعة أسيوط

كانت الفترة التى عاشها الجبرتى غنية بأحداثها ، فقد حدثت فى هذه الفترة تطورات عنيفة فى حياة الشعب المصرى ٠٠ بل يمكن القول بصفة عامة أن هذه الفترة تشكل بداية انتقال مصر من عصر الى عصر ، فالحملة الفرنسية على مصر تمثل احتكاكا حضاريا هائلا اذا ما تذكرنا أن هذه الحملة كانت تمثل النقاء تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوربا بتخلف ثلاثة قرون عاشتها مصر تحت الحكم العثمانى ، وكان اللقاء بالفعل حافلا ٠ كما عاصر الجبرتى فترة التحول الحضارى العظيم فى أوائل عهد الوالى الطموح محمد على ٠٠ وقد عاش الجبرتى هذه الفترة الغنية بأحداثها كما ذكرنا ، وتأثر بها وانفعل ، وأصبحت كتاباته عن هذه المرحلة من تاريخ مصر ثروة تاريخية حقيقية ٠

والواقع أن الكثير من المؤرخين قد تناول بالدراسة والبحث موضوع ثورات القاهرة فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ٠ وسوف نحاول فى هذا المقال اماطة اللثام عن موقف الجبرتى ورأيه الخاص بالنسبة للثورات التى عاصرها مع التعرض لبعض الأحداث التى توضح ذلك الموقف ٠

ولأول وهلة تبدو ثورتا القاهرة ضد الفرنسيين كنقطة رئيسية فى هذا الموضوع ٠٠ حقيقة أن المصريين كانوا قد اعتادوا حدوث هذه الانقلابات السياسية وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، الا أن هذه الانقلابات لم تحدث تغييرات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية فى مصر ، بل اقتصر الأمر على قيام الأمراء المماليك بعزل الوالى العثمانى الذى يحل محله وال آخر ٠

وكانت الحملة الفرنسية على مصر دورا من أدوار التنازع الاستعمارى الذى قام بين انجلترا وفرنسا ، ذلك التنازع الذى يرجع عهده الى القرن السابع

عشر ، واستمر أثناء القرن الثامن عشر ، ثم اتخذ شكلا جديدا بعد قيام الثورة الفرنسية وحاول الانجليز أن ينبهـــوا المصريين الى احتمال غزو فرنسى لبلادهم ، الا أن السيد محمد كريم « رد عليهم بكلام خشن » (١) ٠

وهنا يوضـــح الجبرتى قصر نظر أمراء المماليك ، وكيف أنهم استخفوا بالأمر « اعتمادا على قوتهم ، وزعمهم أنه اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوســـونهم بخيولهم » (٢) ٠ وانتهى الأمر بنزول الغزاة الفرنسيين الى الثغر ٠

ويصور الجبرتى مدى الفوضى الحادثة فى القاهرة كنتيجة لســـــقوط الاسكندرية ، وأن الناس عولوا على الفرار منها ، وأن المدينة أصبحت مظلمة موحشة ، حتى أن الوالى أمر بفتح « الأسواق والقهاوى ليلا ، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين » كى تذهب الوحشة من القلوب والخوف من الغزاة (٣) ٠

وكعادة كل الشعوب ، فان بعض المنحرفين ينتهزون فرصة الاضطرابات والحرب كى يحصلوا على بعض المغانم غير المشروعة لأنه فى حالات الحروب تقل الضروريات ، وتؤدى هذه الاختناقات فى الأقوات الى أن يقوم هؤلاء المنحرفون ببعض الأمور غير المستحبة ٠ على أية حال يوضح مؤرخنا الموقف حين حضر الفرنسيون الى القاهرة « ٠٠ وانقطعت الطرق ، وتعدى الناس على بعضـــهم بعضا ، ولكن الناس متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم مغترون بشأن عدوهم وهذا كله من أسباب هزائمهم » (٤) ٠

وهكذا احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ، وأصدر بونابرت قرارا بانشاء الديوان الذى تألف من عشرة من المشـــايخ لمعـاونته فى حكم البلاد (٥) ٠ الا أن شعور أعضاء الديوان بأن سلطتهم استشارية وبأن القرارات الهامة تتخذ دون الرجوع اليهم ، أو تنفذ بطريقة مخالفة لما أبدوه من مشورة ، كان يدفعهم الى النظر الى السلطات الفرنسية على أنها كانت تحتفظ لنفسها بالسلطة الفعلية (٦) ٠

ولقد تكاتفت عوامل كثيرة من أجل زيادة شعور المصريين بالانفصال عن الفرنسيين ، ولا شك أن قيام الثورة أكد استحالة ايجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الاسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين ٠ لقد كان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعا

(١) عبد الرحمن الجبرتى ــ ج ٣ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ص ٢ ٠

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٣ ٠

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٤ ٠

(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٧ ــ ٨ ٠

(٥) الجبرتى ج ٣ ــ ص ١٨ ٠

(٦) د٠ جلال يحيى ــ مصر الحديثة ــ ص ٢٨٤ ٠

دينيا اسلاميا ، ينظر الى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى وأن سلطانها هو سلطان المسلمين (١) .

ولا شك أن سلوك بونابرت مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم وقسوتهم ، فاذا به أشد منهم قسوة وظلما . فقد روى الجبرتى أنه فى يوم السبت ١٤ صفر ١٢١٣ (٢٨ يوليو ١٧٩٨) أى عقب أن استقر بونابرت فى العاصمة ببضعة أيام ، وعقب تأسيس الديوان بثلاثة أيام « .. اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهى خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضا ، فسألوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها » (٢) .

ويجب أن لا ننسى هنا أن الفرنسيين كانوا يمنون أنفسهم قبل دخول القاهرة بالحصول على ثروات طائلة من أموال وأملاك المماليك ولكنهم لم يجدوا الشيء الكثير بعد دخولهم القاهرة ، خاصة وأن المماليك هربوا كل ما يمكنهم تهريبه معهم فى عملية خروجهم الى سوريا . كما أن تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبو قير ومحاصرة الأسطول البريطانى للسواحل المصرية أدى الى توقف التجارة ، وسوء الأوضاع الاقتصادية ، وقطع اتصالات الحملة بفرنسا . وقد أدى ذلك كله بالفرنسيين الى ضرورة الحصول على موارد بطرق أخرى .

وقد ذكر مؤرخنا الجبرتى أن تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون هو الذى أدى الى نشوب الثورة ، ففى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ « عملوا الديوان وأحضروا قائمة مفردات الأملاك والعقار ، فجعلوا على الأعلى ثمانية خرانسة والأوسط ستة والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ، وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص ليتميز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها ، ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك » (٣) .

ونتوقف قليلا عند هذا النص ، ونتمعن فى كلمات مؤرخنا .. لقد

---

(١) د . عبد العزيز الشناوى ــ صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ــ من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس ــ ابريل ١٩٦٩) مطبعة دار الكتب ١٩٧١ .

(٢) الجبرتى ــ جـ ٣ ص ١٢ .

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٥ .

تمادى الفرنسيون فى فرض القروض الاجبارية على جميع أنحاء البلاد ، ففرضوا على تجار الاسكندرية ٣٠٠ر٠٠٠ فرنك ، وعلى تجار رشيد ١٠٠ر٠٠٠ فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ر٠٠٠ فرنك وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ر٠٠٠ ريال نقدا و ٤٠ر٠٠٠ نوعا ، وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ر٠٠٠ ريال ، وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الأقاليم ١٠٠ر٠٠٠ ريال ٠ ثم فرضوا على تجار خان الخليلى ١٠ر٠٠٠ ريال ووكائل الصابون ١٠ر٠٠٠ ريال ووكائل الفاكهة ٦ر٠٠٠ ريال والسقائين ١٥ر٠٠٠ ريال وتجار السكر ١٠ر٠٠٠ ريال وتجار الأقمشة الهندية بالغورية ١٥ر٠٠٠ ريال (١) ٠

ومما زاد الأمر سوءا أن الفرنسيين أخذوا يخرجون كثيرا من أصحاب البيوت ويحتلونها أو يهدمونها بحجة تحصين القاهرة ٠ كما قاموا بهدم أبواب الحارات والدروب ، فاشتد قلق الناس من هدمها ، وظنوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، وان كان الجبرتى لا يوافق على هذا الرأى فهو يشير الى ذلك بقوله « ٠٠ فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانيا وارتجفت قلوبهم » (٢) أى أن القول بأن الفرنسيين عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة هو مجرد مبالغة كبيرة جدا لا يمكن الموافقة عليها أو نكتة على حد قول مؤرخنا ٠٠ الا أن انتشار الاشاعة على أية حال أدى الى انكماش الناس وخوفهم ثم الى ثورتهم فى النهاية ٠

وزاد ظهور تشدد الفرنسيين وضوحا فى موقفهم من السيد محمد كريم الحاكم الوطنى لمدينة الاسكندرية ، الذى ثبتوه فى سلطته ، ثم حكموا عليه بالاعدام ٠ وكان هذا العمل كفيلا باثارة نفوس المصريين ، وبتقليل همة من يتعاون معهم من المصريين ٠

وكانت هناك أسباب أخرى اجتماعية تدفع المصريين الى عدم التجاوب مع الفرنسيين ، فرغم تظاهر الفرنسيين باحترام الدين الاسلامى وعادات الأهالى وتقاليدهم ، كانوا فى الواقع لا يأبهون بها كثيرا ، فظهرت دور الشراب ، والتفت النسوة الساقطات حول الجنود بشكل يخدش كرامة المجتمع الاسلامى الذى كانت تعيشه مصر آنذاك ، ويكفى أن نورد موقف الجبرتى من هذه النقطة « ٠٠ لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم ، وكانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش » (٣) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٦٧ ٠

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ١٣ ٠

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ١٦١ ٠

كان الرأى العام – اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير – مهيئا للثورة ، وجاءت مسألة الضرائب لتكون سببا مباشرا لاندلاعها ، وعلى أية حال فقد استسلم بعض الناس للأمر الواقع ، ورأى البعض ضرورة المقاومة « .. ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور ، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم ، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام نصر الله دين الاسلام » (١) .

ونتوقف هنا لحظات كى نتناول كلمات مؤرخنا بالتحليل فهو هنا يأخذ على بعض المتعممين أنهم لم ينظروا فى عواقب الأمور ، وأنهم لم يفطنوا الى قوة عدوهم ، ونستطيع بصفة عامة أن نتلمس أنه لم يكن موافقا على قيام ثورة القاهرة الأولى بالطريقة التى قامت بها . كما يتضح من كلمات الجبرتى أن الحركة بدأت تلقائية بدون رياسة أو تنظيم ، وان كان بعض المؤرخين يؤكد أن لجنة الثورة أعدت لقيامها قبل بدئها . كذلك نتوقف عند كلمات الجبرتى الخاصة بتوصيف الثوار وبأنهم من الغوغاء أو الحشرات والزعر والواقع أن الجبرتى كان قاسيا فى وصفه هذا على الثائرين الذين كان منهم المحاربون والشهداء فى هذه الثورة الأولى ، الا أنه يبدو أن الذى جعله يطلق عليهم هذه الألقاب المنفرة هو تأكده من عدم جدوى الثورة ضد القوات الفرنسية المنظمة والمسلحة بأعتى الأسلحة آنذاك ، وكذلك لأن الفوضى والسلب والنهب اللذين صاحبا بدء قيام الثورة جعلته ينفر من بعض القائمين بها ويلقبهم بهذه الألقاب المهينة .

وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ تكونت للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها ومقرها الأزهر ، وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين الى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها .

ويبدو أن السلطات الفرنسية لم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم الى مركز المخافر الفرنسية فقتلوا الجنود والحراس . ولم يقدر الجنرال ديبوى – حاكم القاهرة العسكرى – خطورة الموقف ، واكتفى بارسال بعض دوريات من الجند ، الا أنه لم يلبث – عندما تبين خطورة الموقف – أن مضى فى كتيبة من الفرسان قاصدا مركز الثورة ، الا أن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، وأخذ الجنرال ديبوى يشق لنفسه طريقا بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الأحجار على الكتيبة من جموع الثوار . ولم يحسب ديبوى حسابا لعواقب مهاجمته هذه الجموع

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٥ .

الثائرة ،فهجم عليها على رأس فرسانه ، الا أن الثائرين أطبقوا عليه من كل جانب (١) ، وهنا انزعج ديبوى ، « وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا اليه وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه » • والواقع أن مقتل الجنرال ديبوى زاد من حماسة الثوار ، وانحازت الجموع الهادئة الى صفوف الثورة متشجعين بهذا النصر الأول ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتـــال فى نفوسهم واستولوا على معظم المواقع المحيطة بالقاهرة كباب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية ، « وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس » أما منطقة مصر القديمة ومنطقة بولاق فلم تشتركا مع الثوار ، ويبرر الجبرتى ذلك بقربهما من ثكنات القوات الفرنسية •

وظل الثوار متحصنين وراء المتاريس ، الى أن هاجمت قوة فرنســـية بعض المتاريس التى كانت موجودة فى ناحية المناخلية ، وأمكن للقوة الفرنسية أن تبعد الثوار عن هذه المنطقة ، الا أن الموقف تطور تطورا خطيرا ، اذ « زاد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبـــوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات ، وأكثروا من المعـــايب ولم يفكروا فى العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين » •

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ ، أخذت القوات الفرنسية فى التجمع ، ثم بدأ هجومها على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جموع الثوار تحتشد فى حى الأزهر ، وامتنع بالجامع الأكبر خمسة عشر ألفا من أشد الثوار حماسة ، ودعموا المتاريس فى الطرق والأزقة الموصلة اليه « وأما الافرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات ووقفوا مستعدين ، وكان كبير الفرنســـيس قد أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة • هذا والرمى متتابع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين حتى حضر وقت العصر وزاد القهر والحصر • فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين » •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٢٧٧ — ٢٧٩ •

ويصور الجبرتى مدى تأثير ضرب المدفعية الثقيلة على الأحياء الوطنية سواء من الناحية المادية أو المعنوية ، فقد زاد الخطب وعظم الكرب ، فركب المشايخ يقصدون الجنرال بونابرت « ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره عن الرمى المتراسل ، ويكفهم كما نكف المسلمين عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عاتبهم فى التأخير واتهمهم فى التقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم » وعاد العلماء يبشرون الأهالى ويطمئنونهم ، وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع والقنابر والمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الأدوات • وعندئذ انتهت المقاومة ، وبدأ الفرنسيون فى الدخول فى شوارع القاهرة وأخذوا فى هدم المتاريس ، وسيطروا على الموقف •

ونجد الجبرتى ـ وقد اعتراه غضب شديد مما قام به الفرنسيون فى هذه المرحلة ، وتشتد كلماته ، ثم يبدو وكأنه كان يتلوى ألما وحزنا لما قام به هؤلاء فى الجامع الأزهر فيقول أن الافرنج دخلوا المدينة كالسيل « أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجموا وعلموا باليقين ان لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفوقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والمكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها •• وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه » (١) •

وأحاطت القوات الفرنسية بهذه المنطقة احاطة تامة ونهبت بعض المنازل بحجة التفتيش على الأسلحة •

ويؤكد الجبرتى أن النصارى والشوام وجماعة الأروام اتخذوا موقفا انفصاليا عن اخوانهم المصريين المسلمين وأنهم « اغتنموا الفرصة فى المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين » فشكوا الى بونابرت أمر نهب ممتلكاتهم رغم أن عمليات النهب السلب امتدت أيضا الى الكثير من ممتلكات المسلمين المجاورين كذلك •

ويبدو أن البحث عن حملة الأسلحة كان يتم بطريقة عنيفة جدا أغضبت الشيخ حتى أطلق على الفرنسيين اسم الكفرة « •• ويسألونهم عن السلاح

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٦ •

وآلات الحرب ويدل بعضهم على بعض فيضعون على المدلول عليهم أيضا القبض ٠٠ وكثير من الناس ذبحوهم وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم » ٠ وواضح هنا الاتجاه الاسلامى سواء لدى الثوار أم لدى الشيخ الجبرتى نفسه ٠

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فان الفرنسيين بدأوا فى البحث عن المسئولين عن تدبير الثورة فطلبوا « الشيخ الجوسقى » (١) شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى وحبسوهم ببيت البكرى » ٠ كما أنهم اتهموا غيرهم بتوزيع الأسلحة على الأهالى وألقوا القبض عليهم ، ولم يستجيبوا لطلب المشايخ وتشفعهم وعلى رأسهم الشيخ السادات فى أمر اطلاق سراحهم (٢) ، الا أن الأمر انتهى حسب رواية الجبرتى الى قتلهم بالبنادق والقائهم من السور خلف القلعة ٠ ويبدو أن الفرنسيين خافوا من ثورة النفوس عند اذاعة أنباء قتل الشيوخ المذكورين فكتبوا « أوراقا وألصقوها بالأسواق تتضمن العفو والتحذير من اثارة الفتنة وأن من قتل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيس ٠

ويبدو أن الناس كانوا قد استكانوا ـ ولو مؤقتا أمام قوة الحديد والنار ، لأن الفرنسيين أخذوا من جديد فى احصاء الأملاك تمهيدا لفرض الضرائب عليها فلم يعارض فى ذلك معارض ولم يتفوه بكلمة » (٣) كما أنهم استمروا فى نزع أبواب الدروب والحارات الصغيرة ٠

كما يوضح الجبرتى كيف أن الفرنسيين استغلوا المكانة التى كان يتمتع بها المشايخ فى مصر فى ذلك الوقت من أجل تحقيق مصالحهم وضمان هدوء الأحوال فى مصر ، فكتب الفرنسيون « عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها الى البلاد وألصقوا منها نسخا بالأسواق والشوارع » واتخذت هذه الأوراق شكل نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر الى المواطنين بعدم سماع الاشاعات والاتصال بالمخربين واثارة الفتنة (٤) ٠

الا أن القاهرة لم تظل صامتة وهادئة فترة طويلة اذ أنها لم تلبث أن ثارت ضد الفرنسيين مرة أخرى فى ٢ مارس سنة ١٨٠٠ ، وتفصيل الأمر أنه وقعت اتفاقية العريش بين العثمانيين والفرنسيين فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٧ ٠

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٨ ٠

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٩ ٠

(٤) الجبرتى جـ ٣ ص ٣٠ ٠

التى كانت تقضى بجلاء الفرنسيين من مصر ، « وورد الخبر بذلك الى مصر ، وفرح الناس بذلك فرحا شديدا » (١) .

وهناك مسألة محيرة ، هل كان الجبرتى يكتب يومياته يوما بيوم فعلا ، أم أنه كان يكتب هذه اليوميات بعد وقوع الأحداث بفترة ، أم أنه كان ينقح ما كتب بعد ظهور النتائج ، بحيث جاءت كتاباته وكأنه كان عالما بما سوف يحدث فى الأيام التالية ، أو أنه كان محللا سياسيا يتوقع بصفة عامة بعض الأحداث التالية ، لأنه نتيجة للاتفاق السابق بين العثمانيين والفرنسيين نظر المصريون الى الفرنسيين على أن خروجهم من البلاد أصبح وشيكا وأظهروا شماتتهم فيهم ، دون تمعن فى العواقب ، ويقول الجبرتى « أما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار ، وأنزلوهم عن درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا فى عواقب الأمور ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف .. « وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان ونحو ذلك وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لأنفسهم صبرا حتى تنقضى الأيام المشروطة على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التى تأسست فى قلوب الفرنسيس وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس » .

وفى هذه النقطة ، يبدو أن الجبرتى كتب ناقدا عدم تبصر العامة بالأمور وتسرعهم فى ابراز عواطفهم ، الا أنه فى ذلك حكم عليهم بما حدث بعد ذلك من أحداث ، فالعامة عبروا فى ذلك الوقت عن سعادتهم — بطريقتهم الخاصة فى التعبير — بقرب جلاء قوات الاحتلال الفرنسى ، وليس هذا عيبا فيهم ، بل هى الظروف الدولية التى جعلت الفرنسيين يتراجعون عن تنفيذ بنود اتفاقهم ، فقد كان السير سيدنى سميث هو الذى توسط فى الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين ، وكان أخوه سبنسر سميث هو الوزير المفوض البريطانى فى استانبول ، ووافق على عقد الاتفاق بين الانجليز والعثمانيين ، وعلى أساس اعطاء جوازات مرور للقوات الفرنسية للعودة الى بلادها دون التعرض لها ، ولكن سرعان ما وصل اللورد ايلجن الى استانبول سفيرا لبلاده (٢) . وأقنع الوزارة البريطانية بخطأ هذه السياسة مادام فى وسع الانجليز أن يأسروا القوات الفرنسية بدلا من أن تستخدمهم فرنسا من جديد فى معاركها فى القارة الأوربية ضد بريطانيا وحلفائها .

وكان الموقف خطيرا ، ففى الوقت الذى وصلت فيه طلائع الجيش العثمانى الى المطرية ، واستمر الفرنسيون فى بيع أمتعتهم والانسحاب الى الاسكندرية ،

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٨٣ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ١٨٨ .

بدا أن السلطات البريطانية لا توافق على اتفاقية ـ العريش ، الأمر الذى أثر على تسلسل الحوادث ، فقد اضطر الجنرال كليبر الى اصدار الأمر من جديد باعادة تحصين القلاع المحيطة بالقاهرة ، واستعد لملاقاة الجيش العثمـــانى الزاحف (١) ، والعثمانيون لا يدرون عن هذه الاستعدادات شيئا ، وهكذا فوجىء العثمانيون بالهجوم الفرنسى ، وتمكن الفرنسيون من تحقيق بعض الانتصارات ، الا أن انتصاراتهم لم تكن كاملة ، اذ ستقوم القاهرة بثورتهـا الثانية ضدهم ، لأن « أهل مصر لما سمعوا صــــوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ، ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا الى أطراف البلد ، وقتلوا أشـــخاصا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبـوا الى أصحابهم ، وذهبت شرذمة من عامة مصر ، فنهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرض الفرنساوية وخرج الســـيد عمر أفندى نقيب الأشراف والسيد أحمـــد المحروقى وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر ، وكثير من العامة وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم » .

وكانت فرقة من الفرسان الأتراك قد انفصلت عن الجيش ، واتجهت صوب القاهرة بقيادة نصوح باشا ، وعجز الفرنسيون عن تعقبها ، كمـــا عجزوا عن منعها من دخول القاهرة ، وكان لوصول هذه الفرقة أثر كبير فى تغيير الموقف ، اذ أنها ستزيد من حماس الجماهير ، وتشجع روح الثورة فى نفوس الشعب ، وخاصة عندما قال « نصوح باشا عند ذلك للعامة ، اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم (٢) ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم ، فذهبت طائفة الى حارات النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى ، فصاروا يقتلون من يصادفونه حتى اتصـل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنساوى والأروام وقد كانوا قبل ذلك مختترسين وعندهم الأسلحة والبارود » (٣) .

ولعل الجبرتى فى وصـفه للعامة بالأوباش والحشرات انما كان يشير الى تلك الفتنـة الطائفية التى أقحموا أنفسهم فيها ولكن ما الذى كنا ننتظره من العامة الذين كانوا حينئذ يعيشون عصرا اسلاميا يسوده التزمت ، وما الذى

(١) د. جلال يحيى ـ مصر الحديثة ص ٤٦٠ ص ٤٦١

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٩١ .

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٢ .

يفعله هؤلاء المساكين أمام صيحة قائد يمثل دولة الخلافة الاسلامية — ونعنى هنا نصوح باشا — للمسلمين بقتل النصارى وجهادهم . ولم يحدد نصوح باشا ما المقصود بالنصارى ، هل هم النصارى الفرنسيون ، أم النصارى ككل ، ولكن الأحداث التالية توضح أنه كان يعنى النصارى ككل ، والجبرتى يؤيد هذا الاتجاه لأنه فى هذه المرحلة ، كان كل من يقبض « على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى أخذه وذهب به الى الجمالية حيث عثمان كتخدا ويأخذ عليه البقشيش فيحبس البعض حتى يظهر أمره ويقتل البعض ظلما وربما قتل العامة من قتلوه وأتوا برأسه لأجل البقشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رؤوس الفرنساوية ويذهب بهم اما لنصوح باشا بالأزبكية واما لعثمان كتخدا بالجمالية ويأخذ فى مقابل ذلك الدراهم » ٠

وشرع أهل مصر مع العسكر فى اقامة المتاريس حول المدينة وبأطرافها وكذلك تحصين البلد على قدر طاقتهم ، « وبالجملة كل من كان فى حارة من أطراف البلد انضم الى العسكر الذى بجهته بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وبعض عساكر من العثمانية وما انضم اليهم من أهل مصر المتسلحين مكثت بالجمالية » ٠ وكأن هذه القوة التى مكثت بالجمالية كانت كفرقة للامداد أو كقوة احتياطية ، والجبرتى يرى هذا الرأى ، ويوضح أنه « اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء » ٠

كما أن الجبرتى يحدد موقفه من هذه الثورة بوضوح « ٠٠ وصار جميع أهل مصر اما بالأزقة ليلا ونهارا وهو من لا يمكنه القتال واما بالأطراف وراء المتاريس وهو من عنده اقدام وتمكن من الحرب » ٠ ثم يصدر الجبرتى قراره ويصبح موقفه أكثر تحديدا « ولم ينم ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف » (١) ٠ والواقع أن العالم المتحفظ وقد تأثرت مشاعره بهذا التجمع الوطنى ، لم يستطع سوى أن يتخذ موقفا واضحا ومحددا ، فكل من تقاعس عن المشاركة فى هذه الأعمال الثورية والدفاعية فهو اما جبان أو ضعيف لا يستطيع المعاونة ٠

ولم يتوقف هذا التجمع الوطنى الاسلامى عند حد الاستعداد الحربى ، بل « باشر السيد أحمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه وأعانه بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة » (٢) ٠

ان الجبرتى يبرز فى النص السابق تلك الروح المصرية الأصيلة ، روح

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٣ ٠

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٤ ٠

التعاون أمام الأخطار والأزمات ، فالناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية يجودون بأرواحهم وممتلكاتهم من أجل نصرة الوطن والدين .

أما في بولاق ، فقد هاجم الثوار المعسكرات الفرنسية واستخدموا بعض مدافع العثمانيين التي كانت لهم في المطرية ، ولم تكن بهذه المدافع قنابل فاستخدموا كرات الموازين الحديدية التي جلبوها من الوكالات والمحلات ، ثم أنشأ الثوار معملا للقنابل ومصنعا لصب الأسلحة ، وانتزعوا من المساجد الحديد والخشب ، وتطوع الحدادون والسباكون والنجارون وغيرهم للعمل في هذه المصانع « وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيس الذي تركوه بساحل البحر وعنده حرسية منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى في رأسهم العناد » (١) .

الا أن الجنرال كليبر يبدأ في معالجة الثورة ــ من وجهة نظره ــ باحكام الحصار حول المدينة الثائرة « ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج .. واشتدت الحرب وعظم الكرب وأكثروا من الرمي المتتابع بالمكاحل والمدافع وأكثروا وأوصلوا وقع القنابر والبنبات » لا شك أن هذا الحصار أثر على الحالة المعنوية للمصريين ، كما أثر كذلك على وجود المواد التموينية الضرورية « وعدمت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولاف وفقدت الحبوب والغلات وارتفع وجود الخبز من الأسواق » (٢) .

وقد عمد الجنرال كليبر الى تنفيذ مخططه للقضاء على الثورة ، فمع الحصار سعى الى تفتيت عناصر الثورة وهي العثمانيون والمصريون وأمراء المماليك ، وبدأ بالعثمانيين ، فتفاوض مع زعمائهم على وقف القتال ، ثم عمد كليبر في نفس الوقت الى محاولة الاتفاق مع مراد بك الذي كان قد انسحب بقواته الى الصعيد ، وبعد ذلك أصبح في وسع الجنرال أن يضيق الخناق على ثورة القاهرة ويقوم باقتحام المدينة بالقوة المسلحة . وكانت أحوال القاهرة قد ازدادت صعوبة مع استمرار الحصار وقسوة ضرب المدفعية ، ويوضح الجبرتي مدى ما لاقاه المصريون من عناء في هذه الفترة ، فقد « استمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع من القحط وفقد المآكل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ووقوف حال الناس من البيع والشراء » (٣) .

---

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٩٥ .
(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٩٦ .
(٣) الجبرتي ج ٣ ص ٩٨ .

وطلب كليبر المشايخ للتحدث معهم فى الامر ، وذكر لهم انه يعطى الأمان الكامل لأهل القاهرة على أساس خروج القوات العثمانية الموجودة فى المدينة ، وتوسط العلماء بين الفرنسيين والعثمانيين فى عقد الصلح • الا أن جماهير القاهرة انقلبت على العلماء « وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دارهم من الفرنسيس ، وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول » •

ومرة أخرى يحتد الجبرتى وتشتد كلماته على العامة وتعنف ، والعـامة هم وقود الثورة ودعائمها ، وهم قد تم شحنهم ضد الفرنسيين ورفعت روحهم المعنوية ، وبذلوا النفس والنفيس من أجل انجاح ثورتهم ، وهم قد فسروا طلب الفرنسيين للمصالحة على أنه ضعف منهم ، كما كان الجميع يعتقدون بأن هناك قوات نجدة ستأتى للقاهرة ، كل هذا ويقوم العلماء بالتوسط فى الصلح ، لا شك أن ذلك العمل قد أثار العامة جدا وجعلهم يوجهون للعلماء أقذع الكلام • أما العلماء فهم أيضا قد تبين لهم الفارق الهائل فى التسليح بين الفرنسيين وبين قوات الثورة ، وأن الدائرة سوف تدور على الثائرين ، وأن المسألة مسألة وقت ليس الا ومن ثم ـ وحقنا لدماء المسلمين ـ توسطوا فى الصلح بين العثمانيين والفرنسيين كمقدمة لحل المسألة كلها •

على أية حال استمات أهل بولاق فى الدفاع عنها ، ويقدم الجبرتى تلك النهاية الدرامية للثورة « •• غيمت السماء غيما كثيفا وأرعدت رعدا مزعجا عنيفا وأمطرت مطرا غزيرا وسيلت سيلا كثيرا • فسالت المياه فى الجهات وتوصلت جميع السكك والطرقات •• والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ولم يبالوا بالأمطار لأنهم فى خارج الأقبية وهى لا تتأثر بالمياه كداخل الأبنية •• ثم هجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة أبى العـلا بالطريقة المذكور بعضها وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصى وصـارت القتـل مطروحـة بالطرقات والأزقة واحترقت الأبنيـة والدور والأزقة » (١) •

وهكذا سيطر الفرنسيون على بولاق ، واستمرت هذه المأساة من يوم ١٤ أبريل حتى يوم ١٧ ، ان منطقة بولاق لم تسلم ولم تنهزم ، ولكنها أحرقت وتم تدميرها ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل فرض الفرنسيون على أهل بولاق غرامة جسيمة بلغت قيمتها مائتى ألف ريال علاوة على ثلثمائة الف على

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٠٢ •

المتاجر ، وفرضوا على الأهالى أن يسلموا ما لديهم من مدافع وذخائر وغـــلال وحبـــوب .

واستولى الفزع على سكان القاهرة ، وانتهز كليبر هذه الفرصـــة وأمر بالهجوم العام على القاهرة فى ١٨ أبريل ، وبدأ الهجوم بتحضيرات من المدفعية على المدينة من كل جانب ، ومال العلماء مرة ثانية الى ضرورة السعى للوصول الى الصلح ، واستمرت المفاوضات فى شروط التسليم حتى يوم ٢١ أبريل ، وانتهى الأمر بدخول كليبر بعد انكسار الثوار والاتفاق على شروط التسليم . الا أن هذا التمادى فى سياسة القوة وفرض الغرامات سيكون عاملا فعالا فى اغتيال الجنرال فى النهاية .

المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتي

للدكتورة حكمت أبو زيد
جامعة القاهرة

رأيت أن أقصر هذه الدراسة للمجتمع القاهرى على السنوات الثلاث التى قضتها الحملة الفرنسية فى مصر ، فلقد كانت سنوات حافلة حملت معها بذور التغيير ، كما تركت وراءها بصمات على حيـــاة المجتمع القاهرى الاجتماعية والثقافية ٠

لقد تعرض الجبرتى لسسيولوجية لحركات الاجتماعية للمجتمع القاهرى ، كما تعرض لسيكولوجية أفراده ، فتناول بناءه الاجتماعى في أثناء سنوات التلاحم الثلاث ، وكانت مليئة بالتجارب الاجتماعية الجديدة ، كما كانت مليئة بالأزمات والثورات ، كما يبدو ظهور الرأى العام ودوره فى إثارة الفتنة والقلاقل ضد الفرنسيين ٠ واذا كان المجتمع القاهرى قد نظر للحملة الفرنسية نظرة عداوة ، ووقف منها موقف المتربص ، وقام ضدها بثورتين كبيرتين احتجاجا منه على اقتحامها لحياته ، فلقد تفاعل معها أحيانا فى أوقات السلم ، وأخذ منها بقدر ما أخذت منه ٠

واذا كان الاتجاه الحديث المتصل بالدراسة السسيولوجية والسيكلوجية للمجتمعات والشعوب ، يعتمد أساسا على المنهج الوصفى (أو المونوجرافى) ، وعلى استقصاء الحقائق موضوعيا ، فلقد كان الجبرتى من الرواد القلائل فى هذه الدراسات المونوجرافية لمجتمع القاهرة ــ لقد تعرض لسلوك السكان بالوصف والدراسة والتحليل ، ومنهجه الوصفى تفصيلى ، مبنى على الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة ، كذلك فقد اعتمد على استخدام الوثائق التى تشـــمل البيانات الاجمالية عن حياة المدينة ، بالاضافة الى الدراسات الاستقصائية التى اعتمد فيها على الاخباريين الموثوق بكلامهم ، كما كان معنيا بتسجيل ما رآه وما سمعه ، حريصا على تمحيص الخبر والتدقيق فى مصدره وصحته ، كما حرص على أن يفرق بين ما يعتقد أنه حقيقة وما يشك فيه ، وحين يصدر أحكامه على ظواهر سلوكية معينة ، ســـواء بالادانة أو الاستحسان ، يســـتخدم عبارات يستدل منها على أنها أحكام قيمية استندت الى معايير ذاتية أو جمعية ٠

ولقد كان الجبرتي ينتمي لفئة المثقفين ، ممن أصيبوا أكثر من غيرهم بالصدمة الثقافية حين التحمت الثقافة المصرية بالثقافة الفرنسية ، البعض من هؤلاء وقف موقف المقاومة السلبية ، واتسم سلوكه باللامبالاة وعدم التجاوب ، وبعضهم أسفر عن احتجاجه فانضم لطابور الثوار ، والبعض الآخر كان متأملا مستوعبا يقظا ، وكان الجبرتي بين هؤلاء الأخيرين ·

لقد تناول الجبرتي الظواهر الاجتماعية والثقافية المختلفة ، بعضها يعتبر عاما في خصائصه ، فلم يخل منها مجتمع من المجتمعات في فترات الانتقال وأثناء فترات الحروب والثورات ، مثل : ضعف وسائل الضبط الاجتماعي ، وزيادة حجم المشكلات الاقتصادية والتموينية ، وتدهور الشئون الصحية ، وزيادة حجم الأمراض الاجتماعية · وبعضها خاص بمجتمع القاهرة ، اذ كان يتناول بناءه الاجتماعي واتساق العلاقات بين طبقاته وفئاته ، والعلاقات بين الرجل والمرأة ، وظاهرة تحرر المرأة القاهرية التي حاول الجبرتي أن يدمغها بالفجور والانحلال ·

وسوف نتناول هذه الظواهر والأنساق المختلفة ، مبتدئين ببناء المجتمع القاهري الطبقي :

البناء الطبقي للمجتمع القاهري :

ولعل ما يحدد درجة كفاية المجتمع هو تنظيم جماعاته في فئات وطوائف لها أطرها المرجعية ، ولها أيديولوجيتها المستمدة من أيديولوجية المجتمع ، ولها أهدافها المستمدة من حاجات الفئة أو الطائفة ، هذا التنظيم الذي تصنعه كل جماعة بنفسها أو قد يفرض عليها من سلطة خارجية ، تتساند أنساقه تساندا وظيفيا ، الأمر الذي يبين مدى الترابط والتماسك لبناء كل فئة أو طبقة ، كما يبين أيضا مدى التصارع بين أفراد هذه الطبقة أو الفئة ·· هذا التنظيم يشمل فيما يشمل من عناصر وأسس ، التمييز بين أفراد الجماعة على أساس من : المكانة الاجتماعية والمركز الذي يشغله كل فرد منهم ، كذلك يشمل وسائل الاتصال بين أفراد الجماعة المباشرة وغير المباشرة ، كما يتضمن ظاهرة تقسيم العمل فيما بينهم ، لأنها تعني استمرار بقاء الجماعة ، وتوزيع المسئوليات بين الأفراد طبقا لنشاطها الجمعي ·

ولقد عاش المماليك حتى هزيمتهم من الفرنسيين على يد بونابرت – كما عاش العثمانيون – طبقة متميزة منفصلة عن سائر طبقات المجتمع القاهري ، سواء في الظواهر السلوكية أو في احتلالها مراكز القيادة في الادارة والجيش ، أو في مكانة أفرادها أو في لغة التعبير وأسلوب التفكير ، كما تميزت بمستوى اقتصادي مرتفع ، الأمر الذي ينعكس على جوانب حياتهم ، وتفصح عنه أزياؤهم ، وتدل عليه قصورهم وحاشيتهم ·

وفي ضوء تقسيم المقريزى (١) لأهل مصر في عصره ـ والذى يتضمن تسع طوائف وهم : « أهل الدولة من المماليك ، وأهل اليسار من التجار ، ومتوسطو الحال من الباعة ، والسوقة وأهل الفلح ، والفقهاء ويشملون طلاب العلم ، وأرباب الصنائع والمهن ، وذوو الحاجة المسكنة ، كما يشمل الأعراب وأهل الذمة ، والأقليات الأجنبية ـ يمكن أن نتبين مدى تطابق هذا التقسيم الطبقي على المجتمع القاهرى ، من خلال عرض الجبرتي لمواقف الطبقات والطوائف المختلفة • وفي هذا المعنى لابد من اخراج طائفة الأعراب والفلاحين ، وطبقة الحكام من المماليك والعثمانيين • أما طائفة الأعراب ، فيعود اخراجها الى أن مجالها المكانى خارج اطار القاهرة الجغرافى ، على الرغم من أن القاهرة لم تخل على عهد الجبرتى من فئة منهم يهددون سكانها وينهبون ويسلبون •• مثل عرب الجعيدية الذين أذلوا القاهريين فضجوا منهم بالشكوى ، واضطر الفرنسيون لقتل زعيمهم غداة استقرارهم بالعاصمة (٢) • وأما أهل الفلح أو الفلاحون فهم أيضا خارج اطار المدينة الاجتماعي والجغرافى ، حتى أولئك الذين يتعاملون مع أهل العاصمة بصفة دائمة • وأما الطائفة الثالثة وهي طبقة الحكام من المماليك والعثمانيين ، فلم يعد لهم وجود مادى أيام الحملة الفرنسية وان لم ينته وجودهم المعنوى ، فلقد آثر بعضهم البقاء فى القاهرة بعد أن صالح الفرنسيين على بعض المال ، وان أقصاهم الفرنسيون تدريجيا عن مراكز الحكم الهامة ، واستعانوا بالمصريين فى كل مكان خلا منهم •

هذا ولم يغفل الجبرتى التعرض للسمات الشخصية لكل فئة من هذه الفئات ، كذلك نجده حريصا على توزيع السكان اجتماعيا طبقا لمسئوليات ولمكانة كل طبقة اجتماعيا ، وطبقا للثروة التى يمتلكها أفرادها والمراكز الاجتماعية التى يحتلها قادتهم ، كذلك تعرض للعلاقات بين الطبقات ، وللشعور الطبقى والطائفى لكل ازاء الأخرى •

ويمكن أن نلخص البناء الهرمي للسكان فيما يلي :

١ ـ فئة المثقفين ، العلماء منهم والفقهاء من مشايخ الأزهر ، ومن طلاب العلم ، ومن أرباب الوظائف ، وينتمي لهذه الطبقة ـ سواء من قريب أو بعيد ـ مشايخ الطرق الصوفية : كالأحمدية والرفاعية ، وذلك لأهمية النسق الدينى فى حياتهم •

٢ ـ طائفة التجار ، الموسرون منهم ومتوسطو الحال •

٣ ـ طائفة الحرفيين والصناع المنظمون فى شكل نقابات •

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٨٢ •

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٣ : ١٦ صفر سنة ١٢١٣ •

٤ ــ العوام ، ومنهم الحرافيش والفقراء والمساكين ٠

٥ ــ ثم أهل الذمة من أقباط ويهود ٠

طائفة الأجانب البلديين (كما أسماهم الجبرتى) أو المتمصرين من أروام وشوام ٠٠

يلاحظ التداخل بين هذه الفئات الأربع الأولى بحيث لا يبدو الانفصال التام بينها ، كما أن التفاعل بين جميع الفئات كان أمرا ضمنيا فى اطار المجتمع القاهرى ٠

كذلك فان التغيير الذى طرأ على بناء هــذه الفئـــات ، من حيث الحراك الاجتماعى الصاعد والهابط ، هو أمر متوقع ، لا ســـيما وأن العوامل المعجلة بالتغيير جاءت فجأة ، وتحول الكثيرون من الأثرياء ومساتير الناس الى فقراء ، سواء من الفئة الأولى أو الثانية أو الثالثة ، بسبب تعرضهم للغرامات ومصادرة الأموال ، وبسبب حاجات جيش الاحتلال المتزايدة ، وانقطاع الطريق بينه وبين فرنسا وبسبب الضغوط النفسية والاجتماعية لاتى ظلت متعرضة لها فى أثناء فترة الاحتلال ٠

كذلك فان العلاقات بين الفئات الأربع الأولى ، وبين أهل الذمة من أقباط ويهود ، قد اتســـمت بالتوتر والقلق اللذين ساعدت على وجودهمـــا سياسة الفرنسيين التى أخــذت فى تقريب البعض واقصاء الآخرين طبقـــا للظروف والملابسات ، كما ساعدت على تنمية خروج الكثيرين من أهل الذمة عما تواضع عليه العرف والتقاليد ٠

وسوف نتعرض فيما يلى لبعض ملامح كل فئة مستقاة من تصور الجبرتى ، كما سوف نتعرض لبعض المواقف التى تلقى ضوءا على دور كل منها فى المجتمع القاهرى ٠

الفئة الأولى : هى فئة المعممين من المشـــايخ والفقهاء والعلماء ، والأدباء والكتاب ، وأرباب الوظائف ، ولقد امتازت هذه الفئة لا سيما جمـاعة العلماء بسمات رفعهم بسببها الفرنسيون لمكانة الصدارة كما قبلت وساطتهم حين التجأ اليهم المحتاجون والمأزومون ليتوسطوا بينهم وبين ســلطات الاحتلال ؛ ولقد كان منهم أعضاء الدواوين المختلفة ؛ كما منح البعض منهم الرواتب نظير القيام بأدوار محددة فى السلك التنفيذى والادارى ؛ كما استأثروا بالوظائف الدينية كمنصب قاضى القضاة ٠

لقد أدرك بونابرت منذ البداية أهمية هذه الطبقة فى قيادة الرأى العام ، فراح يستميلهم آنا بمدحهم مرة ، وبتذكيرهم بالمسافة الاجتماعية والثقافية التى

تفصل بينهم وبين المماليك مرة أخرى ، وبتقريب بعضهم واقصاء البعض آنا ، وبرفع منزلة البعض وخفض البعض آنا آخر •

لقد تولت هذه الطبقة قيادة الرأى العام ، منذ اللحظة الأولى التى ركب فيها الشيخ مصطفى الصاوى ومعه الشيخ سليمان الفيومى مع غيره من الزعماء فى ٩ صفر سنة ١٢١٣ الى معسكر الفرنسيين فى الجيزة لمفاوضتهم فى أمر السلام ، بعد أن تخلى المماليك عن مواقعهم •

كما تجلت في موقف السيد عمر أفندى نقيب الأشراف حين ذهب الى القلعة (٣ صفر ١٢١٣) ، فأنزل منها بيرقا كبيرا أسمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق ، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ، ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور (١) •

ولابد لنا فى هذه المرحلة ، من التحليل والدراسة ــ من أن نميز بين القيادة كأعلى تنظيم فى الهرم الطبقى ضمن جهاز اجتماعى له صفة الاستمرار والاستقرار ، وبين القيادة المتغيرة كظاهرة دينامية لها أبعادها السيكلوجية والاجتماعية ، فهى دائبة التغير من حيث كونها تعكس وتحكم الأفعال البيئية داخل المجتمع فى المواقف المختلفة التى تواجهها :

نحن هنا نرى أنواعا للقيادة المستقرة :

القيادة الواقعية أو المستسلمة ، متمثلة فى الشيخين الصاوى والفيومى •

والقيادة الثائرة أو الرافضة ، متمثلة فى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف •

والقيادة الحكيمة المتأملة ، متمثلة فى عبد الرحمن الجبرتى •

وسوف نرى قيادات أخرى من النوع المتغير برزت من صفوف الفئات الأخرى ، كأهل الذمة (*) • أو من صفوف العامة كما هو الحال فى المدعو عبد العال ، الذى يصفه الجبرتى بأنه كان من أسافل العامة ، وكان أجيرا لبعض نصارى الشوام بخان الحزاوى (٢) ، فحين توفى محمد أغا مصابا بالطاعون عين بدلا منه مستحفظان ، وتولى أيضا منصب المحتسب • (حوادث ذى القعدة سنة ١٢١٥) •

---

(١) الجبرتى : ج ٣ ص ٧ •

(٢) الجبرتى : ج ٣ ص ١٥١ •

(*) كما قلدوا برطلمين النصرانى الرومى ، وهو الذى تسميه العامة فرط الرمان ــ كتخدا مستحفظان •

ان القـــائد فى الحالات الأولى يمثـــل الزعيم ، وله دوره فى التنظيم الاجتماعى ، وينبثق من صميم المجتمع ، فى حين أن القائد فى الحالة الثانية هو قائد يفرض على الجماعة فرضـــا • ولقد تمكن الجبرتى أن يفرق بين نوعى القيادة : الطبيعية التى نمت فى المجتمع وتطورت واحتلت مكانتها ، والقيادة التى فرضت من سلطة خارجية تحقيقا لأهدافها ، ولا سيما حين تزعزعت الثقة بينها وبين القادة الطبيعيين بعد أحداث ثورة القاهرة الثانية •

اذن لقد استجابت طائفة العلماء والمشايخ للأحداث التى اجتاحت المجتمع القاهرى ، منهم من اكتفى بالدعوات وقراءة الأفكار ، يقول الجبرتى :

منذ خروج مراد بيك وابراهيم بيك لمقابلة الفرنسيس كانوا يجتمعون منذ غرة صفر سنة ١٢١٣ كل يوم بالأزهر ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات وكذا حـذا حذوهم مشـــايخ فقراء الطرق الصـــوفية كالأحمدية والرفاعية البرهامية والقادرية والســـعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير كما انضم اليهم أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء (١) •

ولقد بات الناس ينتظرون عودة الوسطاء (٢) بفارغ الصبر ، اذ كانوا يخشون « عدم رجوعهم » طبقا للشائعات ، فلما عادوا بعد العشاء زال الخوف عن الناس ، كما أرسل الفرنسيون عن طريقهم الأمان للكثيرين من الزعمـــاء الفارين من أمثـــال : السيد عمر نقيب الأشراف والشيخ الســـادات والشيخ الشرقاوى ، وكان الأخيران قد انضما للناس الذين فروا ناحية المطرية • على أن هناك من القيادات التى ظلت رافضة للفرنسيين وممن لم تطمئن لهذه الوعود أمثال : عمر أفندى نقيب الأشراف ، وكذلك الروزنامجى ، وكبير التجـــار السيد المحروقى •

كذلك شرع بونابرت فى تكوين أول ديوان من هؤلاء العلماء فى ١٣ صفر سنة ١٢١٣ •

والســـؤال الذى يمـــكن أن يطرح هنا ، هل يمـــكن للزعيم الطبيعى أن يستسلم استسلاما كاملا للضغوط الخارجية ، فيتخلى طواعية عن ظواهر زعامته الشعبية ؟

لعل المواقف التى وقفتها هذه الفئة من الزعماء ، توضـــح مدى حرص الكثيرين من الزعماء على مكانتهم فى نفوس العامة • ويمكن أن نسجل على سبيل المثال : موقف الشـــيخ الشرقاوى الذى انتخب رئيسا لأول ديوان شـــكله

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ص ٦ •

(٢) الشيخان مصطفى الصاوى وسليمان الفيومى •

نابليون ، حين رفض أن يتقبل الطيلسان الملون بألوان الثورة الفرنسية الثلاثة ، والذى حاول أن يخلعه بونابرت عليه ، وقام بنفسه يضعه على كتفيه • ويقول الجبرتى واصفا رد الفعل عند الشيخ الشرقاوى :

« واذا بالشيخ الشرقاوى يرمى به أرضا فيتغير لذلك مزاج بونابرته ويمتقع لونه ويحتد طبعه ويحاول الترجمان تهدئة الموقف فيخاطب المشايخ قائلا : انكم صرتم أحباب السارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فمثل هذا الذى سوف يميزكم بين الناس وبين العساكر ويصبح لكم منزلة فى قلوبهم » •

ويرد الشيخ الشرقاوى قائلا : « لكن قدرنا يضيع عند الله » •

ولا يملك بونابرت أمام هذا الاصرار والاهانة الا أن يقول : « ان الشيخ الشرقاوى لا يصلح للزعامة أو الرياسة » ، ويتدخل المشايخ ويضطر بونابرت للتراجع فيطلب منهم أن يحملوا « الوردة » رمز الثورة الفرنسية ، ويظل هؤلاء مترددين فى قبول العرض الى أن يطلبوا مهلة مدتها اثنا عشر يوما حتى يتخذوا قرارا (١) •

على أن هناك من المشايخ من يستطيع أن يمالىء لا سيما وبونابرت لايكف عن المحاولة • ولقد وجد فى الشيخ السادات مطلبه ، فمنحه خاتما من الماس فى بادىء الأمر ، ثم طلب منه الحضور فى الغد لملاقاته (٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣) ، ثم يبادر بوضع جوكار على كتفيه ، ويضطر السادات الى الصمت والمسايرة ، حتى اذا ما خرج من عنده رفعه عن أكتافه — « على أن ذلك لايخل بالدين (٢) ••• » •

ولم تسلم هذه الطائفة من انتقام الفرنسيين ، ولا سيما بعد انحيازهم للمقاومة الشعبية فى ثورة القاهرة الثانية ، ولعل فترة حكم كليبر تبين مدى التغير فى موقف السلطات الحاكمة من العلماء •

« حين بكر الأعيان بالذهاب الى بيت سارى عسكر (كليبر) فى ٨ ذى الحجة سنة ١٢١٤ ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيئاتهم وطمع كل واحد منهم وظن كل منهم أن سارى عسكر يقلده فى هذا اليوم أجل المناصب أو ربما حصل التغيير والتبديل فى أهل الديوان فيكون فى الديوان الخصوصى ، فلما استقر بهم الجلوس فى الديوان الخارجى أهملوا حصة طويلة ولم يؤذن لهم أو يخاطبهم أحد ثم تم فتح باب المجلس الداخلى وجلسوا حصة كالأولى ثم خرج اليهم سارى عسكر ومعه الترجمان وجماعة من أعيانهم ثم خاطبهم بقوله :

---

(١) الجبرتى : ج ٣ ص ١٦ — ١٧ •

(٢) الجبرتى : ج ٣ ص ١٦ — ١٧ •

« كنا نظن أن أهل العلم هم أعقل الناس حين قدمنا الى هذه البلاد والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ، ثم أظهرتم لنا المحبة والمـــودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالاحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعى القول ، مقبولى الشفاعة ، وأوهمتمونا أن الرعية ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون ... فلما حضر العثملى فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم » .

ولقـــد فرضت عليهم غرمات كان مجموعهما عشرة آلاف ألف فرنك ، وزعت على المشايخ كالتالى :

٥٠٠ ألف على الشيخ السادات .

٥٠ ألف على الشيخ الجوهرى .

٥٠ ألف على الشيخ الصاوى .

٥٠ ألف على الشيخ فرج .

٢٥٠ ألف على الشيخ العنانى .

١٠ آلاف تجمع كيفما أراد أعضاء الديوان .

كما كان فيهم المنافق والمداهن أمثال : الشــــيخ خليل بكرى الذى قلده بونابرت نقـــابة الأشراف ، وخلع عليه فروة ، فلقد كان ينافق الفرنسيين والعثمانيين بصناعته (٨ ذى الحجة سنة ١٢١٤ (١)) .

ويمكن القول ان عهد بونابرت كان العهد الذهبى بالنسبة لمكانة العلماء والمشايخ ، فلقد كانوا مقربين اليه يلبى دعواتهم ، كما كانوا يصحبونه فى الأماكن العامة وفى الاحتفالات ويتقبل وساطتهم .

كذلك حرص بونابرت على أن يصحب معه فى حملته على الشام أربعة من (المتعممين) وهم : الفيومى ، والصاوى ، والعريشى ، والدواخلى ، وجماعة من التجار والوجاقلية .

الفئة الثانية طائفة كبار التجار :

لقد احتلت طائفـــة التجـــار مكانا بارزا فى المجتمع القاهرى على عهد الفرنسيين ، شـــأنها فى ذلك كما كانت فى جميـــع العهود ، ولقد أدرك الفرنسيون أن طبقة التجار هى مصـــدر أساسى من مصادر التمويل ولذلك حرصوا على تعيين بعضهم أعضاء فى الديوان ... بيد أن انقطاع طريق البحر

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

بسبب حصار الانجليز ، وتهديد العربان للطرق الداخلية ، واستمرار حالة الحرب بين المماليك والفرنسيين ، فضلا عن الثورات الداخلية ، كل هذا كان عاملا على شل حركة التجار الاقتصادية ٠٠ كذلك زيد من أعباء التجار بسبب استمرار فرض الغرامات عليهم ، كما تعرض الكثيرون لمصادرة أموالهم ٠٠ وسوف نكتفي باقتباس الحادثة التالية للتدليل على ما وقع بهذه الفئة من غرم :

وقعة كائنة الحاج محمد بن قيمو المغربى التاجر الطرابلسي وهو أنه كان بينه وبين بعض نصارى الشوام المترجمين منافسة فأنهى الى عظماء الفرنسيس أنه ذو مال وأنه شريك عبد الله المغربى تابع مراد بيك ، فأرسلوا بطلبه فالتجأ الى الشيخ الشرقاوى لصلة النسب بينهما ٠٠ وتوسط الشيخ الشرقاوى ليتركوه ولكن هروب التاجر أحرج الوسيط فهددوه ببنادقهم لولا أن توسط له المهدى والدواخلى لدى بونابرت حتى اذا أصبح الصباح ولم يعد الرجل استولوا على ما وجدوه فى مخازنه ومنزله من بضائع وأمانات (١) ٠

على أنه يلاحظ أن بعض التجار لم ينعزلوا عن الثوار ، فلقد باشر السيد أحمد المحروقى نقيب التجار ومعه كثيرون نفقات الثوار والعساكر المقيمين خلف المتاريس وتولوا تقديم الطعام والشراب أثناء الثورة الثانية (٢) ، كما ظل المحروقى يمر بالناس وبصحبته السيد عمر نقيب الأشراف يأمرونهم بالقتال ويحرضونهم على الجهاد ٠

وعلى أثر ذلك حل بطائفة التجار العقاب ، فنهبت حوانيتهم ومخازنهم الكائنة بأحياء الثورة ، كما حدث فى بولاق مثلا ، يقول الجبرتى فى أحداث شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٥ :

« أغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة فى يوم واحد وختموا على جميعها ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة والعطر والدخان خانا بعد خان ــ فاذا ما فتحوا حاصلا من الحواصل قوموا ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان وحسبوا غرامته فان بقى لهم شىء أخذوه من حاصل جاره وان زاد له شىء أحالوه على جاره الآخر كذلك ٠٠٠ ثم نقلوا البضائع على الجمال والحمير والبغال وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حسرة على مالهم واذا فتحوا مخزنا أخذ أمناؤهم ووكلاؤهم الودائع الخفيفة والدراهم (٣) ٠

هذا عن فئة التجار ذوى الميسرة ٠٠ وهناك فئة أخرى من السوقة والباعة ومن صغار التجار ، رأيت أن أربطها بمشكلات التموين ، حتى يتبين دور هذه

(١) الجبرتى : جـ ٣ ــ ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢١٣ ، ص ٢٣ ٠
(٢) الجبرتى : جـ ٣ حوادث ٢٢ شوال سنة ١٢١٤ ، ص ٩٤ ــ ص ٩٦ ٠
(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ١٣٦ ٠

الفئة فى افتعال أزمات التموين آنا وفى استغلال فرص شح المواد التموينية فى رفع الأسعار آنا آخر ، فلقد خلقوا ظواهر تموينية تشبه تلك التى نحياها اليوم ، والتى سوف نأتى على ذكرها ببعض التفصيل حين نعرض لبعض مشكلات المجتمع القاهرى •

بيد أنه لابد من الاشارة الى تعرض هذه الفئة ـ التى يسميها الجبرتى « بأهل الحرف من التجار بالأسواق » ـ لأنواع مختلفة من الضغوط المادية والمعنوية ، بدأت على شكل سلف وقروض ابان الفترة الأولى من الاحتلال الفرنسى ، وانتهت بالغرامة الثقيلة بعد قيام ثورتى القاهرة •• واذا كانت هذه الفئة قد ضجت من القرض أو السلفة ، فكيف يكون حالها من الغرامة •

يذكر الجبرتى أن ما قرروه على هذه الفئة من القروض يبلغ مبلغا يعجزون عن تقديمه ، كما أن المهلة التى أعطيت لهم وهى ستون يوما لم تكن بكافية لكى يقدموا المبلغ المقرر •• ولم يجدوا بدا من أن يستغيثوا بمشايخ الأزهر فتوسط هؤلاء لدى السلطات الفرنسية حتى نزلوا بالغرامة وأوسعوا الى النصف فى المهلة المقررة (١) •

أما بالنسبة لنصيبهم من الفردة العامة ـ والتى بلغت نحوا من أربعة ملايين وقدر المليون ١٨٦ ألف فرانسه ـ فلقد بلغ المليون بالنسبة لفئة التجار واصحاب الحرف الأخرى ، ويصف الجبرتى هذا التوتر النفسى فيقول :

« ولم يكن الناس قد صدقوا باتمام الفردة الأولى ـ أى تلك التى قررت بعد الثورة الأولى ـ بعد أن قاسوا من الشدائد ما لا يوصف ومات أكثرهم فى الحبس وتحت العقوبة وهرب الكثيرون وخرجوا يهيمون على وجوههم (٢) » •

ولقد تعاونت فئة التجار كبارها وصغارها ، مع أصحاب الحرف الأخرى فى توزيع ما خصها من الفردة العامة الأخيرة ومبلغها مليون •• وعملوا على تنظيمها ، فلقد طلبوا من الديوان أن يتركوهم لكى يجمعوها بأنفسهم ولا يتدخل بينهم أحد ، كما طلبوا أن يوزع مبلغ المليون على الرءوس بشرط اعفاء النساء والصبية والفقهاء والخدامين والفقراء (٣) •

الفئة الثالثة : الصناع وأرباب الحرف :

ظلت هذه الفئة كطائفة كبيرة من الصناع وأصحاب الحرف تحتل مكانها الاجتماعى والاقتصادى فى القاهرة ، كما ظلت تخضع لنظام النقابات الذى

---

(١) الجبرتى : ج ٣ ـ ١٩ صفر سنة ١٢١٣ ، ص ١٣ •
(٢) الجبرتى : ج ٣ ـ صفر سنة ١٢١٥ ، ص ١٣٥ •
(٣) المرجع السابق ، حوادث شعبان سنة ١٢١٥ ، ص ١٤١ •

يضم أفراد كل حرفة ، وظل زعماء هذه الطوائف يحتلون مكانتهم فى المجتمع القاهرى • بيد أن بونابرت لم يستعن بهم فى أعمال التشييد والبناء •• فلقد جاء معه بأرباب الصنائع ممن يستخدمون الآلات ، كما اصطحبهم معه فى حملته على الشـــام ، يقول الجبرتى : وأخـذ معه المديرين وأصحاب المشورة والمترجمين وأرباب الصنائع منهم كالحدادين والنجارين (١) •

وليس من شك أن هذه الفئة قد استعان بها الثوار فى اقامة المتاريس ، سواء فى الثورة الأولى أو الثانية ، وكذلك اســـتعانوا بالحدادين فى صـــنع القنابل وتشغيل المدافع •

كما ظلوا يقومون بأدوارهم الاجتمـــاعية التى عهدناها ، فيخرجون مع موكب المحتسب احتفالا برؤية شهر رمضان « وأمامهم مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم (٢) » •

كما امتازت هذه الطائفة بالالتحام بالأحداث السياسية والاجتماعية ، من ذلك مثلا : حين خرج الناس الى بولاق ليلحقوا بجيش المماليك فى الثالث من شهر صفر سنة ١٢١٣ ، أخذت كل طائفة من الطوائف الحرفية وأصـــحاب الصناعات تجمع الدراهم من بعضهم ، ويقومون بنصب خيام يقيمون فيها ، أو يجلسون فى مكان خرب أو فى مسجد ، وقد رتبوا من يصرف عليهم من دراهمهم •

كما قام بعضهم بتجهيز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والمؤن ، ولم يبخل أحد منهم بمال ، وبذل ما فى وسعه وطاقته فى سبيل أهدافه الوطنية •

على أنه سرعان ما تدهورت فنون أصحاب هذه الصـــنائع ، وأصـــيب انتاجهم بالكساد ، وذلك لعدم وجود عملاء يطلبونها ، وانقطـــاع الأصـــناف المجلوبة التى يعتمدون عليها فى صناعاتهم •• ولقد اضطر أرباب هذه الصنائع أن ينحدروا الى التكسب بالحرف الدنيئة ــ كوصف الجبرتى لها ــ كبيع الفطير وقلى السمك وطبخ الأطعمة والمأكولات ، والأكل فى الدكاكين واســـتخدمت عدة قهاوى •

وأما أرباب الحرف الدنيئة الكاسدة فأكثرهم عمل مكاريا (حمارا) ، حتى صارت الأزقة خصوصا المطلة على جهات مساكن الجنود مزدحمة بالحمير التى تؤجر للتردد فى شوارع القاهرة (٣) •

---

(١) الجبرتى : ج ٣ ــ ١٩ صفر سنة ١٢١٣ ص ١٣ •
(٢) الجبرتى : ج ٣ ــ أحداث ٥ رمضان سنة ١٢١٣ ، ص ٤٥ •
(٣) الجبرتى : ج ٣ ــ حوادث شعبان سنة ١٢١٣ ــ ٤٣ •

الفئة الرابعة : العوام أو العامة :

اكتظت القاهرة على عهد الفرنسيين بجمهرة كبيرة من الباعة والسوقة والسائقين والمكارين والمعدمين وأشباه المعدمين ، والاصطلاح الذى يستخدمه الجبرتى للاشارة الى هذه الفئات مجتمعة هو : « الحرافيش » ، و « الحشرات » و « الزعر (١) » وهو يعنى بهم أهل الفساد من الدهماء ، ولا يشير بهذا اللفظ الى الفقراء والمعدمين وجماعات المتسولين والعميان • وسوف نتعرض لهؤلاء بتفصيل حين نعرض لسيكلوجية الرأى العام •

الفئة الخامسة : أهل الذمة من النصارى :

لقد شكل أهل الذمة من نصارى القبط والشوام والأروام ، أقلية ذات نفوذ كبير ، اذ استعان بهم الفرنسيون فى جمع الضرائب ، كما أدخلوها أعضاء فى تشكيل الدواوين ، كما قربوهم اليهم ولا سيما بعد اندلاع الثورة الأولى ، كما اشتد دعمهم بعد الثورة الثانية ، ولا سيما بعد أن فقد الفرنسيون الثقة فى العلماء والمشايخ • بل لقد شكل الفرنسيون فرقة عسكرية من شباب الأقباط تحت قيادة المعلم ــ أو الجنرال ــ يعقوب لمؤازرة الفرنسيين وزيوهم بزيهم ودربوهم على اساليبهم •

ولقد اشتط هؤلاء النصارى من مصريين وشرقيين فى البطش بالمسلمين ، كما سعوا بالتجسس للفرنسيين (٢) •

ولقد تناول الجبرتى ظواهر الصراع الطائفى بين المسلمين ونصارى الشوام والأروام فى مواقع كثيرة •• وكما عودنا الجبرتى أن يكون منصفا فى حكمه على الفئات الظالمة والمظلومة • وأن يكون موضوعيا فى وصف الأحداث الطائفية ، يقول على سبيل المثال ــ فى وصفه لما وقع من العامة على النصارى فى ثورة القاهرة الأولى :

« وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام » •

ولكنه لا ينسى أن يؤكد للقارىء أن ظاهرة النهب والسلب قد « شملت أيضا بيوت المسلمين على التمام فأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » ــ ثم يعرج على وصف رد الفعل الانتقامى من نصارى الشوام وجماعة أيضا من الأروام ممن انتهبت دورهم بالحارة الجوانية « ليشكوا لكبير الفرنسيس

(١) المرجع السابق ــ حوادث شهر جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ، ص ٢٥ •
(٢) المرجع السابق ــ حوادث شهر جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ص ٢٧ •

ما لحقهم من الرزية » ثم يحاول الحكم على هذه الظاهرة السلوكية الانتقامية فيقول :

« واغتنموا الفرصة فى المسلمين وأظهروا ما بقلوبهم كمين وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الافرنج فى النوائب .. » ويفسر مسلك العامة فيقول : « وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم الا لكونهم منسوبين اليهم ، وهنا يشير الجبرتى الى هذه العلاقة الطيبة التى ربطت المسلمين بأهل الذمة منذ فتح العرب لمصر ، وانه شيء متوقع ألا يميز العامة وقت الثورة بين الفرنسيين وهؤلاء النصارى .. أليسوا هم منسوبون اليهم .. ويؤكد ما أصاب المسلمين من نوائب على يد هؤلاء الزعر وما سلبوه من أموالهم « وكذلك خان الملايات المعلوم الذى عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين (١) » .

ومن الواضح أن هذه الحوادث الفردية قد انتشرت فى اعقاب الفتن ، كما أن انتداب برطلمين ليقوم بمهمة التجسس على من حمل السلاح أو اختلس شيئا ، وبث أعوانه فى كل ناحية ، « فيقبضون على الناس حسب أغراضهم وما ينهيه النصارى من أبغاضهم (٢) » كما كثرت الوشاية من ذلك مثلا : ما حدث فى السابع من رمضان سنة ١٢١٣ ، حين قيل ان قصد المسلمين هو الوثوب على الفرنسيس بعد يومين .. وذلك لاتجاه نابليون نحو العادلية فى طريقه الى الشام .

وزدات الهوة بين المواطنين حين تبين تعمد بعض النصارى « شرب الدخان » فى رمضان سنة ١٢١٣ ، فضرب أحد المتعممين النصرانى ، وحمل الأخير شكواه الى حاكم الخطة الفرنسى ، فلما تأكد ذلك من ابناء طائفته اذ جرت العادة « ألا يأكلوا ولا يشربوا فى الأسواق العامة أمام المسلمين » فضرب النصرانى وأخلى سبيل الفقيه ..

وليس من شك أيضا أن هذه الظواهر السلوكية ـ والتى نمت عن الاستهتار بالتقاليد والعادات ـ ولم تصدر الا من أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود ، كما يصفهم الجبرتى فى أحداث شعبان سنة ١٢١٣ .. فركوبهم الخيل ، وتقليدهم بالسيوف ، ومسيرهم فى خيلاء ، وتجاهرهم بفاحش القول ، والامعان فى اذلال المسلمين ، وتفاخرهم بخدمة الفرنسيين ، وتغيير الأزياء التى تعودوا على ارتدائها ، حين استبدل نصارى الشوام العمائم الزرقاء والسوداء بالعمائم البيض وتزينوا بالشيلان الكاشميرى الملونة والمشجرات ..

---

(١) المرجع السابق والصفحة السابقة .

(٢) المرجع السابق والصفحة السابقة .

ومن هذا أيضا ما صدر من بعض المسلمين حين اشيع امتلاك مصطفى باشا لقلعة أبي قير فكثر اللغط بين الناس وأظهروا البشروتجاهرهم بلعن النصارى ، ويقول أحدهم لنصرانى : « سوف نتشفى فيكم » بعد أربعة أيام ، ويذهب النصرانى شاكيا مبالغا محرفا للقضية ، ويقوم المهدى خاطبا فى الديوان - فى ١٧ صفر سنة ١٢١٤ ، « وينفى الريبة عن المسلمين » ويشهد الجبرتى للمهدى بأن هذا الموقف كان من المواقف المحمودة ٠٠ على أن الفرنسيين لا يتركون الامر يمر دون المبادرة بحبس مشايخ الأخطاط والحارات ٠

هذا ولم يظهر لليهود دور بارز ، بل لعل الفرنسيين تعمدوا اقصاءهم ، وذلك لعدم ثقتهم بهم ، بل لقد أعدموا بعضهم حين ثبت عليهم القيام بعمليات استغلالية ٠

وسوف نتعرض لبعض الظواهر الاجتماعية والثقافية التى تتناول العلاقات بين هذه الطوائف ، كما تمس جوانب المجتمع القاهرى على عهد الفرنسيين من تصور الجبرتى :

أولا : الفجوة الثقافية :

لقد التقت حضارتان ، احداهما تملك وسائل العلم والتكنولوجيا الحديثة ، كما تملك المنهج العلمى فى البحث والتجريب ، والأخرى تملك ثقافة تقليدية تعتز بها ولها جذور ضاربة فى التاريخ ، وتبدو أصالتها فى العادات والتقاليد وفى أنساق التفكير ٠

ان صور الانبهار بالثقافة الجديدة تبدو فى سلوك العلماء المصريين والعوام على السواء ، ولا سيما ممن أتيحت لهم فرصة الالتحام بعلماء الفرنسيين الذين صحبوا الحملة الفرنسية ، ويتناول الجبرتى بداية نشاط المجمع العلمى بالوصف والتحليل ، فيتحدث عن المجال المكانى لهذا النشاط ، حيث خصص له حارة الناصرية وبيوت المماليك ، أمثال : بيت قاسم بيك ، وبيت حسن كاشف جركس ، وبيت أمير الحاج المعروف بأبى يوسف ، ثم يصف المكتبة الحافلة بالمراجع العلمية وكيفية الاستعارة الداخلية لمن يرغب من الطلاب ٠ ثم يصف طاقة العلماء البشرية من لغويين ومهندسين وفلكيين وعلماء رياضة ومصورين وجغرافيين ورسامين ، ثم يتناول الآلات المستخدمة ، والتجارب المعملية التى تمت تحت سمع الجبرتى وبصره ٠

تلك نافذة جديدة وتيار ثقافى وافد ، فما هو رد الفعل المنتظر من علماء غرقوا فى دراسة التراث الاسلامى ؟

لقد تعود الجبرتى أن يتردد على هذا المكان لاحتوائه على كل جديد مفيد طريف ، واذ يقابل ببشاشة وتواضع العلماء ، يصف ما يراه وصفا دقيقا ،

ويتناول أنواع الكتب حتى تلك التى تتناول سيرة النبى (صلعم) وصحابته . ولقد زود بصورة شريفة له على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم .. وهو واقف على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليفة وبيده اليمنى سيفه وباليسرى الكتاب (القرآن) وحوله الصحابة يحملون سيوفهم فى أيديهم ...

ولقد أدهشه عمق ثقافة الفرنسيين ودقة معارفهم وسعة اطلاعهم ، فمنهم من يتكلم جميع اللغات ، ومنهم من يحفظ سورا قرآنية ...

لقد بهرته الآلات المستخدمة فى الأرصاد الفلكية والغريبة الصنع ، وآلات الارتفاعات البديعة ، وآلات التصوير التى سجلوا بها حوادث الحملة الفرنسية ، وتمكنوا من تصوير الآدميين بحيث تبدو بارزة فى فراغ ، لدرجة أنهم صوروا أعضاء الديوان من مشايخ وأعيان كل واحد على حدة فى دائرة ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر .

كذلك زار دار حسن كاشف جركس حيث صناعة الحكمة والطب الكيماوى . وأقاموا فيه « تنانير مهندمة وآلات تقطير عجيبة الوضع (١) » .

ليس من شك أن هذا الالتقاء بين ثقافتين ، احداهما تملك الماضى العربى والتراث الاسلامى والأخرى تتطلع الى المستقبل محتضنة الحاضر والماضى ، لم يقدر له الالتحام الطويل ، كما لم يستفد منه العلماء المصريون ، وان ترك بذوره تنمو وتترعرع بعد مضى سنوات عديدة .

ثانيا : ظاهرة الحراك الجغرافى :

ولعلى أصفها بظاهرة الحراك الفزعى .. ظلت هذه الظاهرة شبه دائمة فى المجتمع القاهرى ، وظل السكان فى حركة جغرافية شبه دائمة ، محاولين التكيف بالأوضاع الجديدة .

لقد إتجه علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فى دراستهم للايكولوجيا اتجاهين رئيسيين ، يمكن تسمية أولهما بالاتجاه التاريخى ، وهو الذى ينهج نهجا اثنولوجيا أو تطوريا ، أما الاتجاه الثانى ، وهو الشائع فى كتابات علم الاجتماع ، فيهتم بدراسة التنظيمات التى تقوم بين الوحدات الاقليمية التى ينقسم اليها المجتمع .

وتبدو اتجاهات الهجرة من القرى للمدن مستمرة ، وتزداد وقت المجاعات وضيق الأرض الزراعية . ولقد تناول الجبرتى هذه الظاهرة ولا سيما حين يغير البدو وأهل القرى المجاورة على القاهرة ، منتهزين فرصة الفوضى التى تعرضت لها العاصمة نتيجة الحروب المتكررة ، وانعدام أدوات الضبط الاجتماعى ، وشيوع

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ، حوادث جمادى الثانى سنة ١٢١٣ صفحات ٣٤ — ٣٥ .

ظاهرة النهب والسلب ـ أما اتجاهات الهجرة من العاصمة للقرى فهى تحدث أثناء الحروب والأزمات وانتشار الفتن والثورات ٠

لقد خبر مجتمع القاهرة على عهد الفرنسيين هذا النوع من الحراك منذ علم القاهريون بقرب وصول الفرنسيين ، وحين تقرر الضرائب الفادحة ، وحين تهدم المنازل بشكل جمعى ٠

ويصف الجبرتى ظاهرة الحراك الفزعى (٨ من صفر ١٢١٣) حين علم الناس بهزيمة ابراهيم بيك واتجاهه نحو العادلية ، واستدعائه لحريمه ولنساء من معه من أمراء المماليك ٠ وبدأ طابور الهجرة بموكب نساء المماليك وهن راكبات الخيول والبغال والحمير والجمال ، وصحبتهن الجوارى والخدم سائرات على الأقدام ٠

وتستمر ظاهرة الزحف السكانى طوال الليل ، اذ يحذو معظم سكان القاهرة حذو المماليك ، البعض منهم بصحبة حريمه ، والبعض الآخر آثر النجاة بنفسه ، ويصفه الجبرتى قائلا :

« ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كان كل واحد منهم مشغولا بنفسه عن أبيه وابنه » ٠

أما اتجاهات المهاجرين فكانت نحو الشرقية ، والقليل منهم نحو الصعيد ، ولم يبق من مساتير الناس سوى من وصفهم الجبرتى « بالمغامرين أو القدريين » وذلك بحكم تكوينهم النفسانى ، أولئك الممتثلون لقضاء الله وقدره وكان شعارهم « ولله الأمور » ، كما أنهم لم يستطيعوا الهجرة لضيق ذات اليد ، فلم يكن لديهم ما يكفيهم أثناء الرحلة وأثناء الاقامة (١) ٠

ويتمثل سلوك الجمهرة فى هذه الظاهرة ، فالفرد يعتمد اعتمادا مطلقا على القائد وقت الشدة والأزمة ، كما يخضع له خضوعا تاما ، ومهما كان عمر هذا القائد ومهما بلغت أعمار الأفراد الخاضعين له ، فان أكثر الناس وعيا ينسبون اليه من الصفات ما ليس فيه ، كما ينتظرون منه أن يحقق أهدافهم ، وهى مهمة صعبة يتعذر انجازها فى أوقات الذعر والهلع ٠

وليس من شك فى أن خروج أعيان الناس وأفندية الأوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف ، كان من شأنه أن يزيد من حالة الذعر والتوتر النفسى ، فتشتد عزائمهم نحو الهروب واللحاق بهم ٠ ولما لم تكن هناك خطة أو تخطيط للهروب ، فلم يدر الجميع أية جهة يسلكون والى أى طريق يذهبون ، وأى مكان يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وكان أغلبهم

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ـ حوادث الجمعة ٦ من صفر سنة ١٢١٣ ، ص ٩ ٠

من الفقـــراء الذين حملوا أمتعتهم على أكتافهم ، وتبعتهم الزوجـــة تحمـــل الأطفال ٠

ولقد عزت الدواب حينئذ ، فأصبح للحمير والبغال سوق سوداء ، فبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، ومن اســـتطاع أن يقتنى ما يركبه من دواب ، أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ٠

ثم يصف النســاء وهن حاسرات الرأس ، يحملن أطفالهن على أكتافهن ، ويسرن مولولات منتحبات فى ظلمة الليل ٠٠ هكذا يتناول الجبرتى ليلة الهروب تناول المصور المنفعل مع آلام الناس ومتاعبهم ٠

ويتناول مصـــير هذا الحشد من الفارين ٠٠ اذ بمجرد خروجهم من أبواب المدينة وتوسطهم الصحراء يتقفلهم العربان والفلاحون فينهبون متاعهم ويجردونهم من لباسهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته ، أو يسد به رمقه ٠٠ ولكى يعمق الجبرتى وصفه يقول : « ان ما نهبه الأعراب كان شيئا يفوق الوصف وان مجموع ما خرج من القاهرة من أموال وذخائر تلك الليلة كان أضعاف ما بقى فيها » ٠

كذلك تعرض الهاربون للقتل حين أبدوا مقاومة للعربان ، فحاولوا الدفاع عن أنفسهم ، وتعرض النساء لهتك أعراضهن وسلبهن ثيابهن ، وفيهن كرائم العائلات ، أو كما وصفهن « الخوندات والأعيان (١) » ٠

ولقد تعرض سكان القلعة والمناطق المرتفعة من سفوح القاهرة الى الطرد بهدف تحصين هذه المناطق ، وهكذا أخرجوا من منازلهم ونزلوا للمدينة يبحثون عن مسكن ، كما هدم الفرنسيون فى سبيل ذلك الأبنية الكثيرة العالية ، كما هدمت المساجد ٠

ويمكن القول : ان روح الجماعة المعنوية فى هـــذه الأزمات الحراكية قد تعرضت لهزات عنيفة ، اذ ليس من شك ان ما يقوى هذه الروح المعنوية هو غلبة المشاعر الايجابية وتعطل السلبية منها ٠ ولعلماء النفس تفسيرات عديدة تتضمن ظاهرة انحلال الجماعات بتأثير الذعر الذى يتملكها ٠ والفرد المذعور لايأبه سوى بمصيره ، كذلك تتعرض العلاقات البنائية فى الجماعة للانفصام ، كما ينتشر الذعر بسرعة عن طريق العدوى الانفعالية ٠

ثالثا : الرأى العام :

قدم الجبرتى صـــورة حية لسيكلوجية الرأى العــام ، وتناول أبعاده المختلفة ، وظواهر الصراع والتفاعل الطبقى ، كما تناول دور القادة والزعماء

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ــ ليلة الاحد ٨ من صفر سنة ١٢١٣ ، ص ٦ ٠

في تكوين هذا الرأى العام وتوجيهه توجيها يحقق أهداف هؤلاء الزعماء، كذلك تعرض للاتجاهات المختلفة التى يعتنقها الأفراد والجماعات، وللحلول التى تلجأ اليها جمهرة الناس فى أثناء المواقف الشديدة التى يعرضون لها، منهـــا: الحلول الايجابية، ومنها: السلبية. كذلك تناول الدور الذى تلعبه الاشاعة فى توجيه هذا الرأى العام.

ويقسم علماء النفس الاشاعة الى نوعين: احداهما حالمة بالأمانى وبالآماغ، والأخرى سوداء، وهى أكثر النوعين انتشارا، فدوافعها أكثر تعقيدا، وغالبا ما تصحبها اتهامات موجهة الى كبش فداء.. فهذه الاتهامات تلعب دورا مزدوجا، فهى من ناحية تساعد على تحديد موضع الداء، وأحيانا تنفس عن المكبوت من الانفعالات المخزونة...

ولنأت على بعض الأمثلة لنوضح كيف تعرض الجبرتى لهذين النوعين من الشائعات: النوع الأول يبدو حين تدور الاشاعة بوصـــول رســـول من لدن الخليفة العثمانى يطلب للفرنســـيين الخروج من مصر، ويتجه لضريح الحسين ويتبعه الناس فرحين مستبشرين، ويحـــاول الجبرتى كعادته أن يتتبع الخبر ليعرف مدى صـــحته، فاذا بهـــذا القادم هو أغا رومى (عثمانى) وكان معوقا بالاسكندرية، فمر بالشارع وذهب لزيارة المشهد الحسينى فشـــاهده الناس فاستغربوا هيئته وفرحوا برؤيته، وقالوا: هذا رســـول الحى حضر من عند الســـلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر، واختلفت رواياتهم واخبارهم وآراؤهم، وتجمعوا بالمشهد الحسينى وتبع بعضهم بعضا.. « كذلك تناقل الناس أنه حمل مكتوبا للمشايخ أيضا وأخفوه (١) »..

هذا نوع من الأحلام الوردية ولكن هذا الجمع الغفير آثار خوف بونابرت كما أثار حذره، فزار السادات فجأة ليسأله عن الرسالة.

النوع الآخر من الاشاعات: كان ظاهرة سائدة، مثلا حين وجد المجتمع القاهرى نفسه فى موقف حرج، وهو فرض ضرائب على الأملاك والعقارات، وحين لايدرك الناس كيف يتخلصون من هذه المشكلة ويحسون بضغط نفسى وبحالة من التوتر والضياع، يسعون الى تحقيقها بأن يلقوا تبعة الشرور التى يعانون منها على المحتلين، ويتجهون الى قيادة توسموا فيها القدرة على انقاذهم من هذا المأزق.. هـــذه القيادة أصبحت كبش فداء أصبحت هدفا يصوبون نحوها سهامهم، ويطلقون ضدها طاقاتهم العدوانية ومشاعر الكره المزمنة التى ظلت حبيسة وقت السلم.. ولقد تعددت كباش الفداء فى هذا الموقف بالذات، أولها: قاضى قضاة العسكر، وحول زعيمهم الذى انتخبوه لهذا الموقف بالذات وهو: السيد بدر المقدس النف « حشرات الحسينية وذعر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم وهول جسيم، رافعين شعار « نصر الله دين الاسلام..

---

(١) الجبرتى: جـ ٢، ٣ ربيع الثانى سنة ١٢١٣ ص ١٧ – ص ١٨.

متجهين نحو بيت قاضى العسكر فى جماعة تزيد على الألف » . ويخشى القاضى مواجهة الجمهرة الغاضـــبة فيأمر بغلق الأبواب ويقف حجابه حراســا فيرجم المتظاهرون بيته بالحجارة والطوب ، كما يحاول القاضى الهروب فلا يتمكن من ذلك .. كبش فداء آخر ، وجدوه فى القائمقام « ديوى » الحاكم العســكرى الفرنسى للقاهرة .. حين سمع الهجوم على بيت القاضى توجه الى هناك وخشى العاقبة ، ولكنه التقى بجمع آخر أكبر من الجمع الأول اجتمع بالأزهر « وحين وصل ومعه طائفة من فرسانه الشجعان بعد أن مر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب الى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخلاط بالخلائق مزحومة فبادروا اليه وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه (١) » .

نلاحظ انتشار الاشاعة بسرعة من جماعة الى أخرى ، وكان عميل النقل رجــلا هامشيا .. كذلك الرجل المغربى الذى قاد الجمهرة ابان ثورة القــاهرة الثانية . ففى ٢٢ شوال سنة ١٢١٤ (٢) يلتف حوله طائفة من المغاربة البلدية ــ أى المقيمين بالبلد ــ وجماعة من الحجازية ممن كانوا قد صحبوا الجيلانى ، وكان له دوره الخطير فى عمليات النهب والسلب والتجسس على البيوت التى بها الفرنسيون والنصارى ، فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر ، فينهبون الدار ويسجنون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب .

كما أقيم الديوان بهدف تنظيم اتجاهات الرأى العام واستخدامه كدعامة فى اقامة سلطة الدولة ، كما أريد منه حل مشكلات جماهير العاصمة ، ويربط بين الحاكم والمحكوم ، فان تمثيل جميع الطوائف والفئات ــ فضــلا عن العلماء والمشايخ والأعيان ــ يعنى أن يصبح جسرا ومعبرا يتمكن الفرنسيون من عبوره أملا فى توثيق الصلات بينهم وبين الشعب ، ولكى يصبح برلمانا شعبيا يعبر عن رأى الجماهير .

كما نلاحظ أيضا انقسام الرأى العام حول خروج الفرنسيس من مصر أو بقائهم ، فالأروام والأقباط والنصارى الشـــوام وغيرهم ، يأخذون جانب الفرنسيين ابان ثورتى القاهرة ، وتتأرجح كفة العلماء والمشايخ ، فبعضـــهم ينصح بالتروى كالشيخ السادات ، وبعضـــهم يرفع شارة العصيان كالشيخ المحروقى ، وبعضهم يظهر البطولة الشعبية الفذة مثل حسن بيك الجداوى .

ولقد وضـــحت العوامل السيكلوجية والســـمات الجمعية فى المواقف والتصرفات الجمعية ، مما يوضح أنه تكون رأى عام قوى ابان الاحتلال الفرنسى .. مثال ذلك ، حين « نادى جماعة القلقــات (مشايخ الحارات) على الناس

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ، ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ، ص٢٤٠ ــ ص ٢٦ .
(٢) المرجع السابق ؛ ص ٩٤ .

بوضع العلامة المعروفة بالوردة وهى اشارة الطاعة والمحبة فيأنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين اذ هو مكره وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر فوضعها » ٠

واضطر الفرنسيون أن ينادوا بابطال الحرب فى عصر هذا اليوم نفســه (٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (١)) ٠

ومن الوسائل التى لجأ اليها الفرنسيون الظهور بمظهر احترام التقاليد والعادات كسبا للرأى العام ٠ لقد حرصــوا على الاحتفال بالأعيــاد الدينية والقومية ، أملا فى تأكيد هذا الاحترام ، كما أن فى « اباحة اقامة الموالد وحفلات رمضان دون عائق فى مجتمع القاهرة الاسلامى كسب لود الغالبية العظمى من هذا المجتمع » ٠

ويقف الجمهور سلبيا من هذه المحاولات ، وكأنه يعلن احتجاجه الصامت على من يتشدق باحترامه للعادات والتقاليد الاسلامية ، ولا يعتنق الاسلام ٠

ولم يكن الرأى العام رجلا واحدا ، بل انقسم الناس فيما بينهم ، فمنهم المحافظ المتردد ، ومنهم المطيع المستسلم ، ومنهم الثورى ، ومنهم النفعى ، ومنهم المنطقى ، ومنهم الممالىء الذى وصل الى حد الارتداد عن الدين الاسلامى ٠٠

كذلك شاهدنا من وصف الجبرتى لمواقف الرأى العام ، أن هناك الكثير من العوامل المؤثرة فى معنويات الرأى العام ، وفى تغير هذا الرأى ، منها : المادية والمعنوية والسلوكية والدستورية والمذهبية أو الطائفية ، وبعضهـــا مؤثرات غير ملموسة ومصدرها حياة الجماعة ومشاعرها وأحاسيسها ، وبعضها عقائدى ، فلقد كانت العقيدة الدينية هى مصدر الايديولوجيات والمبادىء التى اعتنقها الرأى العام وجعلته ينحو نحوا معينا ويسلك مسلكا محددا ٠ ومن هنا ، فلقد رأى بونابرت بعـــد عودته من الشام وقد انهزم أمام عكا ، أن يدعى اعتناق الاسلام ويستشهد فى منشوراته بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ٠٠ وحدثت أزمة ثقة بين مجتمع القاهرة وبين بونابرت ، اذ كيف يدعى هذا ويبيح شرب الخمر ، وتفتح البارات وتخرج النساء سافرات فى الأسواق ، وتسبى البنات والنساء بعد ثورة بولاق ٠

واذا كان الرأى العام هو تعبير ارادى منبعث من فكر وشعور الجماعة ، فهو يعبر تعبيرا جمعيا عن نشاط الجماعة الثقافى والاجتماعى والسياسى ، ومن هنا بدا للفرنسيين أن يستخدموا وسائل الدعاية المكثفة ٠

منها ، المنشورات ودورها مقصور على محاولة التأثير في اتجاهات الجماهير ، وكانت تعلق بالأسواق وفى مقاطع الطرق ورءوس العطف وأبواب المســاجد

(١) المرجع السابق ، ص ١٧ ٠

وغيرها .. فمنذ ربيع الثانى سنة ١٢١٣ (١) أخذ الفرنسيون فى لصق « الطومارات » وركزت المنشورات على بعض فئات المجتمع التى تكون البناء الاجتماعى . وذلك بقصد الدعوة والترويج للسياسة (الاسلامية) التى اصطنعوها . ولقد حرص الجبرتى على الاستعانة بالمنشورات فى وصفه ، بل حرص على ايرادها تفصيليا سواء أكانت ركيكة اللغة أم صحيحتها .

مثال ذلك : المنشور الذى يتناول ترتيب ديوان من نوع آخر ، وأطلقوا عليه اسم « محكمة القضايا » وفوضوا اليه أمر الفصل فى كافة الدعاوى التى تتصل بالنشاط التجارى والمسائل المادية : كالملكية العقارية . ويعلق الجبرتى على تشكيل الديوان وعلى المنشور الذى تناول أهداف الديوان بأنه يمثل مدى التحايل على الاستيلاء على أموال الناس (٢) ، كما يدل على جهلهم بالتراكيب العربية .

كذلك يتبين لنا مدى حرص بونابرت على النظام الطبقى فى تشكيل الديوان ، فلقد كونه من ستة أنفار من النصارى القبط ، وستة أنفار من تجار المسلمين ، كما نصبوا قاضيه الكبير « ملطى القبطى » الذى لم يكن سوى كاتب عند أيوب الدفتردار .

وليس من شك فى أن هذا البناء لم يكن متناسبا مع حجم المسلمين وحجم الأقباط ، كما لم يكن ممثلا لمصالح الأغلبية ، كذلك فان المطالب التى وردت فى المنشور والتى تقضى باحضار الحجج التى تثبت مدى شرعية الأملاك الموروثة أو المباعة أثارت الرأى العام .

وسيلة أخرى خاطب بها الفرنسيون الرأى العام تلك هى : « النداء فى الأسواق » مثلا : حين نادى المنادى يوم ٢٧ من ربيع الثانى سنة ١٢١٣ بضرورة احضار حجج الأملاك لديوان القضايا وأمهلوهم ثلاثين يوما (٣) .. وما لبث الناس أن خضعوا لهذه الأوامر ، لا سيما بعد فترة تعطيل الديوان لمدة شهرين بسبب قيام الثورة الأولى ، ثم شروعهم منذ ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ فى احصاء الأملاك والمطالبة بالمقررات المالية ، فلم يحتج أحدهم ويعلق الجبرتى على هذا بقوله :

« من لم يرض بالتوت يرضى بحطبه » (٤) .

ان من يدرس هذه المنشورات يتبين انها كانت تخاطب التنظيم الطبقى ، فهى موجهة الى العلماء والأعيان والتجار والفقراء والمساكين ، كما كانت تعرض بالمماليك وبسياستهم الظالمة .

(١،٢) المرجع السابق ، ص ١٩ .
(٣) المرجع السابق ؛ ص ٢٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

ان هذه الطبقات والفئات لم تتـــكون ما بين عشية أو ضحاها ، وانما تكونت بحكم ماضيها وحاضرها ، وظروف معينة أدت الى تماسكها ، وحاجات معينة أدت الى تكاتفها ، وهكذا تحرك الرأى العام داخل التنظيم الطبقى فكونوا المجتمع القاهرى ، كما اتسم سلوك كل طبقة باتساق أنساقها الفكرية ، والتفاهم الضمنى ، ولا سيما فيما يتصل بالأمور التى تمس كيانهم وحياتهم ٠

وأصبحت المنشورات لا توجه من الحاكم أو الســـلطة المحتلة ، ولكن من المشايخ والزعماء المحليين ٠ معنى هذا ان الفرنسيين بعد انتهاء الثورة الأولى أرادوا أن تكون وسائل الاتصال بين الزعماء والرأى العام اتصالا مباشرا ففى أول جمادى الثانى سنة ١٢١٣ ينصح المشايخ أهالى القاهرة بالابتعاد عن الساعين بالفساد ولا سيما من الجعيدية وأشرار الناس ٠٠ ٠٠ وهنا يكثر المشـــايخ من استخدام الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والأمثلة الشعبية (١) ٠

ولقد تفنن الفرنسيون فى استخدام وسائل الدعاية ، منها : الرســـوم والمناظر والرموز ، من ذلك استخدام علم الثورة الفرنسية ، واستخدام البالونات الهوائية فى محاولة جذب الناس والتأثير عليهم ٠٠ ولقد حاول الفرنسيون مرتين أن يطيروا البالون فى سماء القاهرة ويقدم لنا الجبرتى وصفا دقيقا لهذه المحاولة وكيف خجل الفرنسيون من سقوط الكرة وفشل التجربة ، وعدم صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء ويجلس فيها نفر من الناس ويسافرون فيها للبلاد لكشف الأخبار وارسال المراسلات ٠٠ ثم يقول « لو ساعدها الريح لتمت الحيلة وادعوا أنها سافرت للبلاد البعيدة ٠ »

الخلاصة ان الجبرتى أدرك تأثير الدعاية عن طريق استخدام (التكنولوجيا) فى الحرب الدعائية (٢) ٠

رابعا ـ ظاهرة تحرر المرأة :

لقد شملت عملية التغيير سلوك المرأة القاهرية ، بدأت بالطبقة الدنيا من النساء ثم بالطبقة العليا ٠ ويعلل الجبرتى هذه الظاهرة التى تتسم بالخروج على معايير الحشمة والوقار ، بالعوامل التالية :

١ ـ حين جاء الفرنسيون الى مصر صحبوا معهم البعض من النسوة ، أصبحن يسرن فى الشوارع مع أزواجهن وهن حاسرات الوجوه لابسات الفســـتانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشـــات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسقنها سوقا عنيفا مع مزيد من الضـــحك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ ـ ٤١ ٠

والتهقهة ومداعبة المكارية وحرافيش العامة ٠٠ ومن ثم مالت اليهن نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ٠

« كما كن يرتدن المقاهي في حي الحسين كما حدث لزوجة حاكم الحي وكانت من أولاد البلد المخلوعين ٠ (أي أهل الخلاعة) :

٢ ـ تطور هذا الى محاولة تصنع الاحتشام ومحاولة التخفي خشية المسبة والعار ، ثم الى طور خروج النساء عن أصول الحشمة ، كما خلع أكثرهن برقع الحياء ٠٠ ولعل انتهاء الثورة الثانية بعد استمرارها ٣٧ يوما قد أدى الى انتقام الفرنسيين من أهل بولاق بسبي النساء والبنات ، ومن غمر النســاء ســـواء المأسورات منهن أو البغايا بالملابس والحلي وكافة المنهوبات والأسلاب ٠

٣ ـ لقد نقل الفرنسيون أنماط سلوكهم مع النساء الفرنسيات الى المجتمع القاهري فكانوا يظهرون لزوجاتهن أنهم يوافقهن على رغباتهن ولا يخالفن هواهن حتى لو لجأت بعض السيدات الى ضرب أزواجهن ٠

٤ ـ تقدم كثير من ضباط جيش الاحتلال لخطبة بنات الأعيان والزواج منهن بعد النطق بالشهادتين ، ولقد رحبت بعض العائلات بهـذه الزيجات « طمعا في السلطان أو نيل رضا الحاكمين » ولم يكن يطلب من الفرنسيين ســوى النطق بالشهادتين اذ ليست لديهم ـ في رأي الجبرتي ـ عقيدة يخشون فسادها فكانت هذه الظاهرة سببا في انتشار الخلاعة ٠

ولقد كانت فاطمة الرشيدية التي تزوجت من جاك مينو نموذجا واحدا من نماذج عديدة ، كما كانت زينب البكري نموذجا آخر في علاقتها ببعض الضباط الفرنسيين ٠

٥ ـ كما اشتركت المرأة في الحياة العامة سافرة ، وتزيت بعض النســاء المسلمات بزي أحكام الاخطاط ، كما كن يسرن معهم في الأخطاط للاشتراك في النظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي ٠

كذلك تعودت المرأة أن تسير وحدها ، أو تصحبها بعض صديقاتها وأترابها المرتديات بمثل ردائها ، وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يبعدون الناس عن طريقهن مثلهن مثل الحاكم (١) ٠

٦ ـ كما احتلت المرأة دور القيادة في المجتمع القاهري ، من ذلك مثلا : الدور الذي قامت به السيدة نفيسة زوجة مراد بك حين أبت أن تترك القاهرة وتلحق بزوجها ، كما آثرت أن تدفع الفدية المقررة عليها وعلى أتباعها من نساء الأمراء والكشاف مبلغا وقدره ١٢٠٫٠٠٠ ريال فرنسي ٠

---

(١) انظر الصفحات ١٦١ ـ ١٦٢ ، ص ٤١ من المرجع السابق ٠

كما استعانت السيدة نفيسة بالمشايخ لكى يحموا زوجة عثمان بيك الطنبرجى حين وشى بها خادمها لدى الفرنسيين ، وادعى عليها أنها تخفى ثروة طائلة فى بيتها · ولقد قبل الفرنسيون شفاعة المشايخ بعد أن افتدت المرأة نفسها بمبلغ وقدره ٣٠٠٠ ريال ·

ولقد قدر الفرنسيون مواقف السيدة نفيسة ، ولا سيما بعد أن تصالح زوجها مراد معهم وولى امارة الصعيد · وحين توفى مراد فى ١٢ ذى الحجة سنة ١٢١٥ أرسل اليها سارى عسكر مينو يعزيها فى زوجها ، ويرتب لها معاشا ظلت تقبضه شهريا حتى خرج الفرنسيون ·

٧ ـ كما خرجت المرأة فى شكل مظاهرة تحتج فيها على هدم قبور الموتى ، حين شرع بعض القواسة يوم السبت ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢١٣ فى هدم التراكيب المبنية على المقابر بترب الأزبكية · ويقول الجبرتى : ان النساء القاطنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسن وقلعة الكلاب ، خرجن فى جمع غفير حتى صاروا كالجراد المنتشر ولهم صياح وضجيج واجتمعوا بالأزبكية تحت بيت سارى عسكر ، فأبطل عملية الهدم ·

الخلاصة : ان ظاهرة تحرر المرأة قد نعتها الجبرتى بالتبرج والخروج على أصول الحشمة والحياء · وليس من شك ان هذا الحكم كان يتفق مع الأنماط الخلقية والأنساق القيمية التى كانت تسود عصره ·

كما أنه أدان ظاهرة تنظيم دور للدعارة ، على الرغم من أن المماليك قد اجازت هذه المهنة وفرضت عليها ضرائب مقررة ـ ولقد بنى الفرنسيون دورا للهو والخلاعة ـ كما يقول الجبرتى ـ يرتادها من يدفع رسما أو يحمل ترخيصا وفى أوقات محدودة ·

خامسا : المعتقدات والتقاليد والعادات :

يميل علماء الأنثروبولوجيا الى اعتبار الدين جزءا مما يسمونه بالنسق الايديولوجى ، والمقصود هنا نسق المعتقدات التى تفسر طبيعة علاقة الانسان بالكون ، وبالله ، وبالممارسات والشعائر المتصلة بهذه المعتقدات ·

ولقد أدرك الفرنسيون ما للعقيدة من أثر فى التنظيم الاجتماعى فى المجتمع القاهرى ، فاذا بهم يكثرون من استخدام الآيات القرآنية ، كما يشتركون فى الحفلات الدينية ويحرصون على احيائها ·

والواقع ان الفرنسيين لم يبطلوا عيدا من الأعياد أو موسما من المواسم ، بل لقد استحدثوا الكثير منها : كعيد الثورة الفرنسية وعيد رأس السنة ·

كذلك حرص الفرنسيون على اقامة الأعياد القومية : كالاحتفال بعيد وفاء النيل ، وكسر الخليج ٠

على أنه يلاحظ ان الناس فى القاهرة لم يشساركوا بقلوبهم فى هذه الأعياد ، لشعورهم بالحزن والمرارة نظرا لاحتلال بلادهم ، وان شاركت الطوائف الأخرى فيها ٠

كذلك حرصوا على احترام مشاعر المسلمين أثناء رمضان ، فأمروا بمن ينادى فى أول رمضان بضرورة احترام نصارى البلد عادات المسلمين ، والتحذير من المجاهرة بالأكل والشرب فى الأسواق ٠٠ وقد كان هذا بهدف « استجلاب خواطر الرعية » ٠

كذلك لم يهمل الفرنسيون الاحتفال بالموالد ٠ كمولد النبى (صلعم) ومولد الحسين (رضى الله عنه) بل لقد شاركوا فيها بتقديم ألعاب ميادينهم وضربوا طبولهم ، واستمرت « الطبلخانة الكبرى » تدق طول الليل تحت بيت الشيخ البكرى بالبركة ٠

لقد ضربت المدافع من القلعة ليلة عيد الأضحى ٩ ذى الحجة سنة ١٢١٣ ، كما ضربت عند الشروق ، على أن الناس لم تذبح الضحايا كما كانت عاداتها أولا ، لعدم وجود مواش بسبب استهلاك الفرنسيين لها ولا سيما حين زحفوا على الشام ، ولحجز بعضها فى (الكرنتيلة) بسبب انتشار مرض الطاعون ، ثم بسبب ما أصاب الناس من كوارث ونكبات شغلتهم عن ذلك الأمر ٠

ولم يحارب الفرنسيون عقيدة الناس فى الكرامات ، بل على العكس شجعوا على التمادى فيها ، من ذلك مثلا : اعادتهم الاحتفال بمولد السيد على البكرى المدفون بجامع الشرايبى بالأزبكية بالقرب من الرويعى ، فى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ١٢١٤ ٠

ولقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٠٧ أن هذا السيد على كان من البلهاء ، وكان يسير فى الأسواق عاريا مكشوف الرأس والسوأتين ، وكيف بدا لأخيه ــ حين رأى ميل الناس له ، اعتقادا منهم فى كرامته كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله ــ أن يستغل هذا الميل ، فيحجر على أخيه ويلبسه ثيابا ، ويشيع فى الناس بأنه قد أذن له بذلك وأنه تولى القطبانية ، وكيف أقبلت النساء والرجال على زيارته ، وكيف أنصتوا الى تخليطاته ، ثم تأويلها بما فى نفوسهم ، كما بالغ أخوه فى التحدث عن كراماته ، وادعى أن فى وسعه الاطلاع على خطرات القلوب ٠٠٠ ثم كيف غمر بالهدايا والنذور ، وكيف تنافست نساء الأمراء والأكابر فى التقرب اليه بكل الوسائل ٠

ويستمر الجبرتى فى وصفه قائلا : « بهذا راج حال أخيه واتسعت أمواله

ونفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ المذكور من كثرة الاكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار كالبو العظيم » .

وحين مات أقام له أخوه مقاما ومقصـــورة ، وواظب على احاطة الضريح بالمداحين الذين يتصايحون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على نافذته وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى أعبابهم وجيوبهم .

ثم أهمل شـــأنه فى جملة المهملات وترك مع المتروكات ... ثم يفسر الجبرتى أهداف الفرنسيين فى الترخيص باعادة هذه الظاهرة فيقول : « فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخصوا بذلك لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات أعيد هذا المولد من جملة ما أعيد » .

على أنه يلاحظ أنه فى عهد مينوبدىء فى محاربة أدعياء الكرامات والولاية أو طائفة المجاذيب ، فلقد أرسل مينو فى شعبان سنة ١٢١٥ يسأل المشايخ عن هؤلاء الذين يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقد العامة فى كراماتهم — وهم فى نفس الوقت لايصلون صلاة المسلمين ولا يؤدون فريضة الصوم .. هل هذا جائز عندكم فى دينكم أو هـــو محرم ؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف للدين والشريعة والسنة فشكرهم على هذه الفتوى ونبه على حكام الأخطاط بضرورة القبض على هؤلاء ، فاذا كان مجنونا ربط بالمارستان ، واذا كان مدعيا فاما أن يعود لحالته الطبيعية ، أو يطرد من القاهرة .

ولقد اتسمت هذه الاحتفالات بظواهر الانحلال ولا سيما أثناء الاحتفالات (القومية) . من هذا مثلا : ما حدث فى ٢٤ من ربيع الأول سنة ١٢١٤ أثناء الاحتفال بوفاء النيل ، وحين أجرى الفرنسيون المراكب فى النيل وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير .

ويذكر الجبرتى كيف أن غوغاء العامة قد أظهروا فحشا وفجورا ، والتجاهر بالمعاصى والفسق بما يجل عنه الوصف ، « كما سلك أسافل الناس ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة » . ولقد ساء الجبرتى اشـــتراك الحاكم والمحكوم فى هذه المظاهر ، فلم يفكر أحد من الحكام أو من غيرهم أن يزجر أحدا على مسلكه — هكذا أصبح كل فرد « يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله » .

وكثيرا ما اســتخدم الجبرتى — المؤرخ الأديب — الشـــعر فى المناســبات والمواقف المختلفة ، من هذا مثلا : حين وصف تلك الليلة الخليعة التى كثرت فيها ظواهر الفسق والفجور :

اذا كان رب الدار بالدف ضـــاربا
فشيمة أهل الدار كلهم الرقص (١)

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ، ص ٧٨ .

وبدا لعبد الله مينو أن يقف معارضا هذه المظاهر ، ومن هنا فلقد حدث في عهده أن اتفق جماعة من أولاد البلد (فى ٢٥ رجب سنة ١٢١٥) على الخروج للنزهة ومعهم جماعة آلاتية يغنون ويضحكون ، فنزل اليهم جماعة من الفرنساوية المقيمين بالقلعة الظاهرية خارج الحسينية وقبضوا عليهم وحبسوهم بالقلعة ، فلما تشفع لهم شخص لدى شيخ البلد « بليار » أفرج عنهم بعد يومين (١) •

كذلك فلقد حرص على التشهير ببنات الهوى فلقد حدث مثلا : فى ٢٢ رجب سنة ١٢١٥ أن طاف الحاكم فى شوارع القاهرة وبصحبته امرأتان ونودى عليهما بأن هذا جزاء من يبيع الأحرار ، وذلك لأنهما باعتا امرأة لبعض نصارى الأروام بتسعة ريالات (٢) •

نخلص الى أن الجبرتى حين عرج على ذكر بعض الأمراض الاجتماعية ، تناول شخصية المجتمع القاهرى باللوم والتقريع • لأنهم جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكمشوا عن بعضهما واحتشموها خوفا من الفرنسيس ، تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد . ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا اليها ، وانهمكوا فى عمل موالد الأضرحة التى يرون فرضها ، وهم يعتقدون أن فى اقامة هذه الشعائر ما ينجيهم من المهالك ويقربهم الى الله زلفى فى المسالك (٣) •

كذلك عاب على العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس ـ الصياح ورفع الأصوات ، وقولهم : « يارب ، يالطيف ، يارجال الله •• » ولقد ذهب صراخ العقلاء فيهم سدى ، فلم يستمعوا لقولهم •

ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب ، وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح •

الخلاصة :

ان عبد الرحمن الجبرتى قد عرض ـ بمنهج مونوجرافى يتفق فى أسسه مع المناهج الانثروبولوجية والسسيولوجية والسيكلوجية فضلا عن التاريخية ـ لكثير من الأنساق والظواهر والمشكلات الاجتماعية ، تعرضت لبعضها ولم أستطع التعرض للبعض الآخر ، كالمشكلات الاجتماعية المتصلة بحياة المجتمع القاهرى مثل المشكلة التموينية والصحية وغيرها ، وذلك لضيق الوقت والمجال •

وترجو الباحثة أن تعود لبحث هذه الموضوعات فى القريب العاجل ان شاء الله •

---

(١) الجبرتى : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ •

(٢) المرجع السابق ص ١٤٠ •

(٣) حوادث رمضان سنة ١٢١٣ •

القسم الرابع

دراسات فى عصر الجبرتى

الجبرتي ومحمد علي

للأستاذ أحمد خاكي

كان الرجل شيخا من شيوخ الأزهر ، فنشأ نشأة دينية ، لكن أباه كان شيخا من نوع خاص لم يعرفه الأزهر الا نادرا ، ذلك أن الأب كان ميقاتيا ، يهتم بعلوم أخرى غير الشروح الدينية والفقهية التي تتصف بها كتب الشريعة ٠ ولأن حسن الجبرتي كان ميقاتيا ، فقد الم بالرياضيات وعلم الفلك ، واعتـاد البحث في كل مناسبة تأتي بها الشهور القمرية ، وهي التي يعتمد عليها تحديد اليوم الأول من رمضان وبدء شهر الصيام ، وأول شوال ، وغير هذا وذاك من المواعيد ٠ نشأ الفتى وهو يرى في دار أبيه آلات ظن أنها مستحدثة ، فآمن أن كل قرار يتخذه يجب أن يكون قائما على البحث والاستقصاء ٠٠

وجاء في بعض ما كتبه فيما بعد ، ذكر لما كان يقوم به أبوه في سبيل ذلك ، فقد وفد الى مصر في أيام أبيه وال عثماني له اهتمامات علمية خاصة ، فسأل عن علماء الأزهر المهتمين بالرياضيات ، فاعتذر العلماء بأن هذه العلوم بطل تدريسها منذ زمن ، ودلوه على الشيخ حسن الجبرتي باعتباره أشهر علماء عصره المنكبين على هذه العلوم ٠ وتناقش الاثنان في بعض ما كانا يعرفان ٠ وأصبح الوالي والشيخ صديقين يلتقيان مرتين كل أسبوع ، ويتبادلان الرأي في مسائل الرياضة ٠ وارتاح المشايخ الى ذلك ، وقالوا : ان الشيخ حسن قد أنقذ سمعة الأزهريين بلقاءاته هذه مع الوالي ٠ (ص ٦٧) ❊ ٠

ويدل تاريخ عبد الرحمن الجبرتي على أن الناحية التجريبية كانت تغلب على كل ما كتب ٠٠ انه مؤرخ من نوع خاص ، لأن « عجائب الآثار » ليست الا يوميات أو شهريات أو حوليات ، يذكر فيها عبد الرحمن الجبرتي ما يقع تحت

(❊) رجعنا الى عديد من طبعات « عجائب الآثار » لكن اقتباسنا كان أغلبه من « تاريخ الجبرتي » الذي اخرجته مطابع الشعب في سنة ١٩٥٨ ٠

بصره وسمعه من الأحداث ٠٠ انه أقرب الى الرواة منه الى المؤرخين ٠ وترى في صفحاته كثيرا من التضارب في الرأى عندما يروي هذه الأحداث الصغيرة التى نقع كل يوم ، لكنه من ناحية أخرى كان يتحرى الدقة بقدر ما يستطيع ، فهو في أول عهده بكتابة « عجائب الآثار » يستوفى الانباء ممن عاصروا الأحداث القديمة ، وهو يزور المقابر ليستفيد من التواريخ التى نقشت على الشواهد ، وهو يكتب مذكرات يســـميها « طيارات » ، وهو يبدي تشككه في كثير من الاشاعات ، وهو يجمع كل ذلك في النهاية ليحرر « عجائب الآثار » ، وينتهى به تحريرها الى سنة ١٨٢١ م (١٢٣٦ هجرية) حين كان قد أشتد به المرض وفقد بصره ، ولم يستطع الاســـتمرار في تحرير روايته قبل أن يتوفى فى سنة ١٨٢٥ ٠

وعلى الرغـــم من ذلك فانك لو أردت أن تبحث عن تحليل تاريخى ، أو دراسة للأسباب والنتائج ، أو وحدة منهجية خاصة ، لما وجدت شيئا من ذلك في « عجائب الآثار » والذى يجعل من أجزائه الأربعة وحدة خاصـــة انما هو شخصية الجبرتي نفسه ، وفى رأي شفيق غربال أن الجبرتى « الفنان » يؤلف الصورة الشـــاملة التى تبدو لنا من كتابه القيم ٠ وعلى الباحث في الكتاب أن يتوقع كثيرا من المتناقضات ، ولكن عليه أن يرى وراء صحائفه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بعواطفه وهواجسه ، وما يعن له بعض أحيان من شـــطحات الخيال ، وما يستثير موجدته في أحيان أخرى فيلجأ الى السخرية والاستهزاء ٠

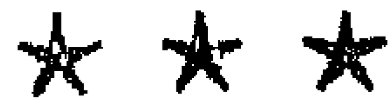
لقد كان هذا المؤرخ التجريبى شاعرا بتقصيره عن ايراد الحقائق ، وكان يحمل فوق كتفيه عبئا معنويا ليكمل الحديث عن تجربته ــ وفى فترة من الفترات فى مجال حديثه عن شهر ذى الحجة ١٢٢٥ (يناير ١٨١١) يدفعه الشك الى أن يثبت أنه أصبح ضعيفا لايقوى على البحث والاستقصاء ، وأنه أصبح يعتمد على ما يصل الى سمعه (ص ٨٠٥) ، وأنه أصبح متباعدا عن مباشرة الأمور ٠ وقبل أن نخوض فى الكلام عن موقفه من محمد على ينبغى أن نذكر نقطا ثلاثا نستنتجها مما سبق : فنحن نرى أن هذه النقط تلقى ضوءا على كل حديثه عن محمد على :

١ ــ كان عبد الرحمن الجبرتى يحكم على (محمــــد على) بما يراه فى القاهرة ، وما يشهده يوما بعد يوم من ضروب العسف والقسوة التى تقع على « الرعية » ، ولم يكن فى مقدروه أن يفكر فى بناء دولة ولا تنظيم مملكة كما يريد بعض المعتذرين عن محمد على أن يثبتوه فى مؤلفاتهم ٠

٢ ــ أنه قد أدركه الوهن بعد أن أرخ لقدوم الفرنسيين وجلائهم ، وبعد ان كتب « مظهر التقديس » ، وبعد أن أرخ للسنوات المضطربة التى تلت خروج الفرنسيين من مصر واستيلاء محمد على على السلـــطة ، والطرق الخبيثة التى

استخدمها فى سبيل ذلك . فهو يذكر فيما أشرنا اليه سابقا : انه كان يعوقه عن عمله الجدى « تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن » ٠

٣ ـ أنه وقف بتاريخه المدون : عجائب الآثار عند سنة ١٨٢١ ، وكان محمد على لم يتضح آثار سياسية ومشروعاته بعد ٠ رغم قيامه ببعض المشروعات العامة ، مثل : مشروع رأس الوادى ، وبناء سد رشيد ، وحفر ترعة المحمودية ٠ ولكن لم يكن قد أرسل الا بعوثا قليلة الى أوربا ، ولم يكن قد جنى أية ثمار لسياسته الزراعية والاقتصادية ، فحديث الجبرتى اذن يتناول محمد على فى أيام المحن الأولى ، أيام تثبيت حكمه ، وفى بدء نظام الاحتكار الذى ظهر فيه كل أنواع الدهاء ، بما كان يتنافى مع الأخلاقيات التى نشأ عليها الجبرتى ٠



تلك هى ناحية البحث العلمى التى نستطيع أن نخرج بها حين نتبصر قليلا فى « عجائب الآثار » ، لكن هناك ناحية دينية عند الجبرتى ، قد تكون أقوى من هذه الناحية العلمية : فلا بد أن نذكر دائما أنه كان ذا طابع دينى خاص بين شيوخ الأزهر ٠ لم يكن الجبرتى محررا للمرأة ، ولم يكن مستحدثا فى طرائق العيش ، ولكنه من الناحية الأخرى لم يكن يؤمن بالبدع والخرافات ٠٠ كان الدين فى تلك الحقبة من تاريخ مصر تشوبه بعض الشوائب التى علقت به فى أيام الركود ٠ وقد قامت سلسلة كريمة من المصلحين المسلمين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يحاولون أن يخلصوا الدين من تلك الشوائب ٠٠ ظهر محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، وظهر جمال الدين الافغانى ومحمد عبده فى مصر ، وسنيد أحمد خان وسيد أمير على فى الهند ٠ وكان كل أولئك وعشرات غيرهم يتجهون الى ناحية الاصلاح الدينى ، وكان الجبرتى من أوائل المصريين الذين قدروا المبادىء الوهابية تقديرا خاصا ٠ وقد جره ذلك الى السخط على الجيوش التى حاربت الوهابيين تحت قيادة محمد على وابراهيم ٠٠ كان الجبرتى يؤمن فى قرارة نفسه ان الدعوة الوهابية دعوة اصلاحية (ص ٦٦٧) ، ولم يكن يخفى سخطه بل استهزاءه بالجيوش التركية التى قادها ابراهيم ليدك الدرعية ، مزودا بعتاد حربى أنفق عليه الفلاح المصرى فى أشد حالات الضنك (ص ٨٢٣) ٠

كان الجبرتى ـ من الناحية الاجتماعية ـ يتمسك بالتقاليد ، لكنه لم يكن يأخذ بالخرافات والبدع ، فكان كالوهابيين لا يؤمن بزيارة الأضرحة ، ولا التشفع بالأولياء ٠ وكان يرى أن الوقف والنذر على القبور والأضرحة باطل ، ويذكر فى مرارة أن النذور تحبس على الاغنياء من سدنة هذه الأضرحة دون الفقير والمسكين وابن السبيل (ص ٨٨٠) ٠ ويسخر حين يذكر أن خادم مقام السيد البدوى توفى فى أكتوبر سنة ١٨٠٢ فوجد عنده من الثروة مايربو على ٢٠٠٠٠٠

ريال فرانسه ، منها ما كان في صندوق ، ومنها ما كان مرد وما في بئر.. ومنها ما كان مخبأ في بعض نواحي منزله (ص ٤٩٨) • وفي نفس الوقت كان الجبرتي سابقا لعهده حين ذكر أن النيل لم يفض بالزيادة في سنة من السنوات ، فاجتمع المسلمون وصلوا صلاة الاستسقاء ، واجتمع الأقباط في الكنائس لنفس الغرض ، وفاض النيل تلك الليلة ولكن الجبرتي يقول « وذلك لا أصل له • » (ص ٨٠٢) •

هذا الى ما أصاب حياة التصوف والمتصوفة من انحرافات فكثر ادعاء الغيبيات والكرامات • وفي هذا الجو كان من العسير أن يقوم عبد الرحمن الجبرتي بثورة اصلاحية • فأنكر من كل ذلك ما لم يدخل له في عقل ، واحتفظ بما يمسك عليه ايمانه • أنكر على بعض الشيوخ أن يكون لهم طمع في الدنيا ، وأن يستغلوا أحلام العامة في استنزاف أموالهم باسم الدين ، وأنكر أن يبدو هؤلاء في زى أمراء المماليك ، وأن يكوروا عمائمهم الخضر فوق رءوسهم ، وأن يخر لهم أتباعهم ركعا سجدا عند لقائهم • وفي نفس الوقت كان يعتقد أن الولاية في نفس كل من اتقى ربه ، فليست من صنع العبد ، ولاهى بالسعي والقصد ، ولا باتخاذ الأبهة •

كان الجبرتي يتمتع بصفاء النفس ، فيرقب الأحداث التي تضطرب بها القاهرة في اليوم بعد اليوم ، بل في الساعة بعد الساعة ، ولكنه يظل مؤمنا بقضاء الله ، ويفسر ذلك ما ينتهي به دائما حديثه عن أعمال النهب والسلب ، والقتل والحرب ، التي تعرضت لها البلاد ، من الاستغاثة بالله وتفويض الأمر اليه سبحانه ، فهل كان هذا اتجاها محتوما في كتابة التاريخ ؟ هل كان الجبرتي في دخيلة نفسه يعتقد أن عالم القاهرة هو مركز هذا العالم الدنيوي الذي يعيش فيه ؟ ، ثم هل كان يذهب الى ما ذهب اليه كثير من المؤرخين من أن اتجاه التاريخ حتمي ، وأن القدر وحده هو الذي يتحكم في مسيرة التاريخ ؟ ، قد كانت هذه فكرة مذهبية عليا اعتنقها مؤرخون لادين لهم ••• ولكن الجبرتي كان يعتقد ذلك في قرارة النفس • ويؤيدها بآيات من الذكر الحكيم •



على أننا لا يمكن أن نقف عند هذا في تقديرنا لوجهة نظر الجبرتي : لقد قلنا انه ارتفع عن مستوى البدع والخرافات التي علقت بالدين والدين منها براء • واذا نحن حاولنا أن نجد محورا واحدا تدور عليه أحكام الجبرتي ، وجدنا أنه متخذ من « فكرة العدل » في الاسلام ، وهي الفكرة التي أسهب في شرحها في مقدمة كتابه « عجائب الآثار » •

ان العدل بشكله الاسلامي هو الذي يبدو من وراء أفكار الجبرتي ومنطقه وأحكامه • وليست فكرة العدل عنده مقصورة على اعطاء كل ذي حق حقه ،

وليست هى مقصورة على ولاية الكبير على الصغير ، والقوى على الضعيف ، والعالم على الجاهل ، بل ليست مقصورة على المعاملات فيما يختص بالكيل والميزان . حيث قد يستوفى المطففون مالهم ويخسرون ماعليهم — بل ان فكرة العدل تشمل كل ذلك ، ثم تندرج هذه جميعا فيما نزلت فى جسم الشريعة الاسلامية مما نسميه « حدود الله » فهذه الحدود البينة الواضحة هى التى يستوحيها فى كل أحكامه ، وهى التى كان يصدر عنها حينما كان يشهد الظلم الذى يقع على الفرد وعلى الجماعة وعلى المجتمع بأسره .

ولعل الجبرتى كان يمثل أسمى ما وصلت اليه فكرة العدل فى الاسلام ، بل فى تاريخ الأمم . فهو يرى أن أولئك الذين تفسد حياتهم ، ويعتدى عليهم الطغاة والظالمون ، انما يلقون جزاء ما قدمت أيديهم ، وأن ربك ليس بظلام للعبيد . ويكاد يرى أن الذى نزل بأهله وعشيرته من بنى مصر ، انما نزل بهم لأنهم لم يرعوا حدود الله . وعلى هذا الأساس فهو يقف فى كل حادثة ليتخذ منها درسا يسوقه لما يجره الفساد من بلاء الظلم . وعلى هذا الأساس أيضا يحكم على أعمال « العثمانلى » ، والفرنسيين والمماليك والباشوات ومحمد على ، بل على أعمال المجتمع الذى يعيش فيه .

نقول : انه كان يمثل أسمى ما وصلت اليه فكرة العدل ، فيما قل أو جل من الأمور التى تحدث أمامه ، ولكنه يرتفع عن هذه الأمور الى النظام الآلهى الأعلى . وكان أشد حزنه حين يرى حكام « الأروام » — ويقصد بذلك الأتراك — يجورون على حق الرعية باسم الدين . بل هو يرى « ان فى انتقاص الأرزاق فى معظم ادارات النواحى ما هو الا جزاء على ما استحوذوا عليه من غير حق « وكم اهلكنا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » . فاذا هو وازن بين ما يفكر فيه من العدل الآلهى ، وبين ما يشهده من مظاهر الظلم والجور ، وما يحدث تحت ناظريه من التخريب والتدمير ، مرت به فترات خال فيها أن العاقل من لا يصلح الخراب . فاذا هو رجع الى نفسه أقبل على الاصلاح والتعمير ، وآية ذلك أنه أخذ فى اصلاح بيته فى الصنادقية فى أخريات أيامه .

ثم هو يؤمن — مع السيد عمر مكرم — أن أولى الأمر الذين نزل القرآن بطاعتهم هم حملة الشريعة والحاكم العادل ، وأنه اذا حاد الحاكم عن العدل فلا طاعة له عند الرعية ، حتى ولو كان السلطان نفسه . فاذا نحن حاولنا أن نقدر روح مصر السياسية والمبادىء القومية التى بدأت أصولها فى مبدأ القرن التاسع عشر ، فينبغى ألا نلجأ الى الفلاسفة السياسيين من أهل الغرب لنتعرف على هذه المبادىء وتطورها ، فقد يكفينا أن ندرس السياسة العامة فى مصر على أساس اسلامى صحيح ، هو أساس العدل ، وقد كان العدل هو المعيار الذى اتخذه الجبرتى فى الحكم على الحكام فى عهده ، وكان من أهم هؤلاء الحاكم العثمانى « محمد على » .

يذكر الجبرتي كثيرا من الأعمال التى قام بها محمد على ، ويصفه بالنشاط والحركة بحيث لا يقر له قرار « فقد كان فى أيامه الأولى دائم الخروج الى نواحى القاهرة ، وزيارة شيوخ الأزهر ، وكان كثير الاختلاط بالسيد عمر مكرم « يتملقه ويراسله ويأتى اليه فى أواخر الليل . وفى أوساطه ٠٠ مترددا عليه فى غالب أوقاته (ص ٦٩٨) ٠

ثم يذكر الجبرتى الحيل التى قام بها محمد على فى هذا المعترك المضطرب ، ولكن فى نظرنا أن خير ما يلخص حكمه على محمد على فقرتان : أولاهما ، جاءت تعقيبا على حوادث رمضان سنة ١٢٢٨ (أغسطس ١٨١٥) ، حيث يقول : « انقضى شهر رمضان والناس فى أمر مريج ، وخوف وانزعاج ، وتوقع المكروه. ولم ينزل الباشا من القلعة بطول الشهر ، وذلك على خلاف عادته فانه لا يقدر على الاستقرار بمكان أياما وطبيعته الحركة ، حتى فى الكلام » (ص ٩٢٣) ٠ أما الفقرة الأخرى فقد جاءت فيما كتبه الجبرتى بعد ذلك بسنة ، حين ذكر جهود محمد على فى تعمير الاسكندرية : « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، فلو وفقه الله بشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة ــ لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه » (ص ٩٥٥) ٠

اذن فنحن أمام رجل يعجب بحركة التعمير ، ويشيد بفضل محمد على فيما صمم على عمله من حيث حفر الترع ، واستصلاح الأرض وتعمير الاسكندرية ٠ وتشييد أركانها وابراجها وتحصينها : هذا من ناحية ، لكنه ينعى على « محمد على » أنه لم يكن عادلا ٠ ولنذكر أن هذا الرأى بجناحيه كان قد انتهى اليه الجبرتى ٠ فى سنتى ١٨١٥ ، ١٨١٦ ، بعد أن كان محمد على قد اجتاز كثيرا من المحن ، وتغلب على كثير من الخصوم والأعداء ٠ ولنذكر أن الجبرتى انقطع عن كتابة عجائب الآثار فى سنة ١٢٣٦ (١٨٢٠ ــ ١٨٢١) ولعله كان يغير رأيه فى بعض الأمور اذا هو شهد ثمار العمل الذى قام به محمد على ٠



نعود ثانية فنكرر ما قلناه ، من أنه : لا ينبغى أن نطبق حرفيا المذاهب السياسية التى خلصت لنا من دراساتنا فى تاريخ الحضارة الغربية ٠٠٠ نحن لا نستطيع أن نطبقها الا اذا كان فيها دلالة على تطور سياسى تقضى به طبيعة الأشياء والحوادث فى البلاد التى أظلها الاسلام ، ولا بأس من أن نهتدى بما ذهب اليه « ميكافللى » و « هوبز » و « لوك » و « روسو » ، وغيرهم ممن دونوا الفلسفة السياسية ، ولكن فى حديثنا عن الجبرتى ومحمد على ، نرجو ألا نقرب كل هذه المذاهب الا على وجل ، لأن الجبرتى لم يكن يحلم بأن هناك فلاسفة هذه مذاهبهم ، فهو قد كان يتحدث ويكتب ويؤلف مؤمنا بمذهب العدل الذى جاءت به الشريعة ، وسرى فى آيات القرآن الكريم ، وتمسكت به طوائف سامية من المسلمين ، هم أهل العدل والاجتهاد ٠

أما محمد على فهو يمثل عندنا « القوة » بمعناها الغشوم . ولم تكن تلك القوة هي الاخرى مستمدة من مذهب من المذاهب ، ولا كانت حديثا من أحاديث الكتب التي قرئت عليه ، بل لقد كانت قوة السلاح والدهاء والمكر والخداع ، انها هي القوة التي آلت الى العناصر التركية التي سيطرت على دار الاسلام منذ عصر الخلافة العباسية . ولم تكن تقوم الدويلات الاسلامية بعد ذلك الا على أساس من القوة ، ولم يحكم المماليك مصر والشام الا على أساس من القوة التي استخدموها أمام بعضهم البعض حينا ، وأمام الصليبيين أحيانا . وكان يبرر هذه القوة في كل هذه العصور ، ان أصحابها يدافعون عن الاسلام ، على الرغم من أن أغلبهم ولدوا نصارى . وقد آلت هذه القوة في القرن السادس عشر الى السلطان العثمانى ، فجمع السيطرة بين يديه ، ولم يكن يبرر وجود الامبراطورية العثمانية أيضا — الا أنها كانت تتكلف الدفاع عن دار الاسلام .

وتراوحت هذه القوة في مصر — منذ أن غزاها سليم الأول فى سنة ١٥١٧ الى سنة ١٩١٤ ، أى لمدة أربعة قرون — بين العثمانيين والمماليك وانضم اليهم منذ نهاية القرن الثامن عشر الفرنسيون والانجليز . وكان كل فريق من المكافحين يحاول ان يسيطر على هذه البلاد بفعل قوة لاتعرف الرحمة ولا تشفق على العامة ، ولا ترعى فيهم الا ولا ذمة . فلم يكن لها صالح الا استنزاف موارد البلاد بأية سبيل ، والا السيطرة الخالصة على كل نشاط فيها . وقد ورث محمد على كل ذلك عند نشأته لأنه تركي ، وحفظها فى تجاربه لأنه كان جنديا تركيا ، واستخدم فى كل تصرفاته اشنع ما وصل اليه الذكاء السياسى . فاذا كان الجبرتى يمثل فكرة العدل فى الاسلام ، فقد كان محمد على يمثل القوة الغشوم فى تاريخ البلاد المسلمة .

نحن اذن أمام قطبين متنافرين : أحدهما هو العدل ، الذى آمن به ومثله الجبرتى ، وثانيهما هو القوة ، التى آمن بها ومثلها محمد على . فاذا قدرنا هذين القطبين استطعنا أن ندرك الهوة السحيقة التى كانت بين الرجلين .. كان محمد على يعلم ان عمر مكرم والصفوة من شيوخ الأزهر ومنهم الجبرتى ، يتوقون الى عصر ترفرف فيه العدالة ، وكان يعنى أيام عزل خورشيد باشا ان يظهر فى مسوح الحاكم العادل . وكان يعلم أية قوة معنوية كانت للسيد عمر مكرم . ويقول الجبرتى : انه فى تردد محمد على على عمر مكرم نهارا وليلا ، كان يعاهده ويتعاقد معه سرا ، بل ويحلف « الايمان الكاذبة » على سيره بالعدل ، واقامة الأحكام والشرائع ، والاقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه.وأخرجوه — وهم قادرون على ذلك — فيتورط المخاطب (أى عمر مكرم) بذلك القول ويظن صحته ، وأن كل الوقائع « زلابية » (ص ٦٩٨) .

والواقع أن كل ذلك الكلام ، هو الذى رشح محمد على ليكون واليا على مصر . وتكلف عمر مكرم أن يزكيه عند سائر المشايخ فكانت ولايته .

في نفس الوقت الذى كان يعد فيه محمد على باقامة العدل ، كان يضمر استخدام العسف والظلم والجور ، حسب الظروف التى يقع فيها · فلا معنويات المشايخ كانت تخفف من عسفه ، ولا مشورة الخاصة كانت تطامن من استبداده ، ولا عنايته بالفرد المصرى كانت تحول دون ظلمه · وهنا يبدو سؤال عالجه بعض المؤرخين : هل كان محمد على يعلم شيئا عن مكيافللى ، وهل سار فى خطته حسب ما جاء فى كتاب : « الأمير » ؟

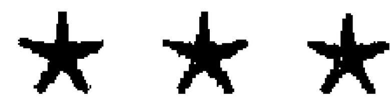
ان الذى يغرى هؤلاء المؤرخين بالبحث فى هذه الناحية ، هو أن هناك تشابها بين الظروف التى قام فيها محمد على ، وقضى فيها على المماليك ، وحاول ان يقيم جيشا وطنيا ، ودولة مركزية : هناك تشابه بين هذه الظروف جميعا وما قدمه مكيافللى فى كتابه عن واجبات الأمير ، ثم ان استعمال الخبث والدهاء والمكر وبذل الوعود التى يعلم أنه لن يفى بها ، واستخدام القتل والتعذيب : كل أولئك نصح به أيضا مكيافللى فيما أورده من نصائح « للأمير » · فهل كان محمد على أميرا من هؤلاء الأمراء الذين توقع ظهورهم مكيافللى ؟ هل هو الذى تركزت حوله القومية المصرية ابان نشأتها ؟ وهل هو الذى خلق فى مصر سلطة مركزية عليا قضت على السلطات المحلية المتشاحنة ؟ ثم هل كان يجمع بين قوة الأسد ودهاء الثعلب ، كما صور أميره مكيافللى ؟ ·· تلك أسئلة تدور بخلد الكاتب المصرى اذ يطرق هذه الموازنة ، ولكنا نرى فى بعض ما ورد لنا من أخبار أن هذا التشابه لم يكن الا تشابها فى بعض الظروف ، ومرة أخرى نكرر أن محمد على كان نتاجا للتاريخ العثمانى ، وثمرة للتقاليد العسكرية التركية ، وجنديا من المؤمنين بالقوة والبطش ، حسب التقاليد العسكرية التى نشأت عليها الامبراطورية العثمانية ·

لم يكن محمد على يعنى بعلم السياسة ، ولا كان يحترم فلاسفته · وقد جاء فيما كتبه هيورث دن : أن مبعوثا مصريا قابل فى الاسكندرية محمد على عند عودة المبعوث من فرنسا ، فسأله محمد على ماذا كان يفعل ؟ فأجاب المبعوث أنه كان يدرس « سياسة الحكم » فأجاب محمد على : وهل هناك سياسة للحكم غير التى أمارسها أنا نفسى ـ أذهب الى القاهرة وأجتهد أن تترجم كتبا فى غير هذا العلم · ولتكن كتبا فى العلوم العسكرية ·

لكن هناك قصة عن علاقته بكتاب مكيافللى بالذات ، فقد علم محمد على ان هذا الفيلسوف الايطالى كتب كتابه « الأمير » ، فكلف يعقوب أرتين أن يترجم هذا الكتاب ، وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة تقرأ عليه · فلما وصل يعقوب أرتين الى الصفحة العاشرة ، أبدى الباشا للمترجم أنه ليس فى حاجة الى هذا الكتاب ، فقد كان يظن ان الكتاب سيتحسن بعد صفحاته الأولى ، لكنه وجد ان ما فى الكتاب لا يعدو ان يكون شيئا عاديا ، وانه بعد قراءة الصفحات العشر الأولى ، رأى انه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لمكيافللى على بال (*) ·

(*) Cnversations and journals in Egypt and Malta, by Senior, Vol. II, p. 176, London, 1882.

ونخلص من كل ذلك ان التضاد أو التنافر بين الجبرتي ومحمد علي ، كان خلافا بين العدل وما يتعلق به من « حدود الله » ومن الرعاية والعناية بالفرد ، وايتاء كل ذي حق حقه ، وبين القوة الغشـــوم التي ترى أن تتخذ من الناس أدوات تسخر لأغراض القوة ، وفي ضوء هذا التضـــاد ، ينبغي علينا ان نفهم كلمات الجبرتي وانفعالاته ونقده المر لمحمد علي وأعماله ، ولكن علينا قبل كل شيء ان ننظر الى الرجلين كممثلين للحضـــارة الاســـلامية ، الأول ، يمثل خـير ما خلص له من الشريعة في سياســـة الناس ، والثاني ، يمثل ما يعتبره أفعل الوسائل لحكم هؤلاء الناس ٠



في « عجائب الآثار » لايكاد يرضى عبد الرحمن الجبرتي أو ترتاح نفسه ، الا حين يذكر مجالي الأنس أو احتفالات القاهرة التي مر بها في الزمن الخالي ٠ كان نفاذا ، والصورة الكلية التي صورها لنفسه للمجتمع المصري كانت صورة مثالية لقوم يسودهم الاتزان ، ويتعاطف بعضهم وبعض ، ويحنو كبيرهم على صغيرهم ، وغنيهم على فقيرهم ٠ ولكن جبهته أحداث جعلته أقل تفاؤلا وأشـــد تشاؤما ، مما دفعه اليأس ٠ ولندع الآن ما مر به أيام اقامة الفرنسيين بمصر ، ولنأخذ فيما مارسه في أيام محمد علي ، حتى نرى الى أي حد كان ينكر الأحداث التي جرت في ذلك العهد ، والى أي حد كانت منسوبة الى محمد علي نفسه ٠

في يولية سنة ١٨٠١ قدم الوزير يوسف باشـــا الى مصر بعد اتفاق بين فرنسا وتركيا لم يكتب له الدوام ٠ وفي السادس عشر من نفس الشهر تنفس الجبرتي وأهل القاهرة الصعداء ، اذ ظنوا ان قدوم الوزير العثماني كان مقدمة خير وسعادة لأهل مصر جميعا ٠ « ودخل ـ أي الوزير ـ من باب النصر ـ وشق من وسط المدينة ، وأمامه العســـاكر المختلفة من الأرنؤود وأرط الينكجرية ، والعساكر الشامية والأمراء المصرلية ، والمغاربة والقليونجية ، وطاهر باشـــا ـ باشة الأرنؤود ـ وابراهيم باشا والي حلب ، ومحمد باشا والي مصر ، والكتبة ورئيس الكتاب ، وكتخدا الدولة والأغوات الكبـــار ، بالطبول والنقرزانات ، وقاضي العسكر ونواب القضاء ، والعلماء المصرية ومشايخ التكايا والدراويش » ٠٠٠ ويمضي الجبرتي فيقول : « فكان هذا اليوم مشهودا ، وموسـما وبهجـة وعيدا ٠ عمت المســـلمين فيه المسرات ، ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات ، ودقت البشائر ، وقرت النواظر ٠٠ فلله الحمد والمنة ، على هـــذه النعمة ، ونرجو من فضله ان يصلح فساد القلوب ، ويوفق أولي الأمر للخير والعـــدل المطلوب ، ويلهمهم سلوك سواء السبيل القويم ، ويهديهم الى الصراط المستقيم : صراط الذين انعمت عليهم ، غـير المغضـوب عليهم ، ولا الضـــالين ٠٠ آمين » (ص ٤٥٠) ٠

ما كان لنا أن نذكر هؤلاء الذين اشتركوا في موكب الوزير يوسف باشا حينما لاحت بادرة الســـلام ، الا لأنها تمثل الجبرتي في حالة نادرة من حالات

الرضا النفسي ، حين كان يتفاءل بعودة الأتراك الى مصر ، والا لنذكر الطوائف التى مثلت المأساة على المسرح المصرى لقرابة ربع قرن بعد هذا التاريخ • ولو أن الجبرتى ذكر هذه المرة أيضا شيئا عن النظارة لتمت الصورة بأكملها ، فقد كان النظارة هم : المتفرجين من أبناء القاهرة ، ونسائها الذين كانوا يلهون بالتفرج على المواكب ، ولا نحسب أن كان يهمهم ما كانت تدل عليه هـــذه المواكب من اسراف فى الزينة ، وابتذال فى الزخرف •

ولكن تهاليل الجبرتى ودعواته فى هـــذه الفقرة ، تدل على مبلغ ما كان يعقده من الآمال على حكم الأتراك ، حين يئول أمر مصر اليهم بعد أن ينجاب عنها الحكم الفرنسى • وبقدر هذه الآمال ، كانت خيبة الجبرتى فى حسن ظنه ، فقد فشل يوسف باشـــا وفشـــل الأتراك فى حكم مصر حكما عادلا ، ولم يكن حكم محمد على نفسه الا استمرارا لهذا الفشل فى نظر الجبرتى • وعندنا أن الطوائف التى سارت فى ركاب الوزير التركى فى اليوم السادس عشر من يولية ســـنة ١٨٠١ ، هى التى كانت سوط عذاب على « الرعية » من ناحية ، وكانت بالمرصاد لكل حاكم تركى من الناحية الأخرى • يدسون له ويعوقون أعماله ويقتحمون عليه السلطة ، ولا نستثنى من هؤلاء شـــيوخ الأزهر ، فقد انحرفوا ــ فى رأى الجبرتى ــ عن الجادة وطمعوا فى الدنيا مع الطامعين ، وكان الحاكم التركى الذى آل اليه الأمر أخيرا ، هو « محمد على » •

نعود الى حالة الرضا النفسى عند الجبرتى ، فقد كان ــ كما قلنا فى صدر هذا المقال ــ يتمسك بالتقاليد ، وينعم بذكريات الظروف التى نشـــأ فيها ، ويكاد يرجو أن تعود الأيام الى سالف عهدها أيام حكم المماليك فى منتصف القرن الثامن عشر • انه ينظر الى هذه الفترة نظرة خيالية ، لا يؤيدها ما جاء فى تاريخه هو نفسه من الوقائع ، فهو قد ولد سنة ١٧٥٤ على حد قوله ــ وســـمع وهو ناشىء عن قصص تحكى عن المماليك ، وعن أســـــاطير تروى عما كان لهم من وشـــائج مع ابناء مصر ، كان لكل مملوك ــ على ما روى الجبرتى ــ مطبخان : أحدهما للحريم والآخر للرجال ، وكان يسمح لكل من له رغبة أن يتردد على مطبخ الرجال ، ينعم فيه بما يشتهى من طعام وحلوى وشراب • وكان أصحاب الحاجات يفضـــلون دائما أن يلتقوا بالأمير على هـــذه الموائد ، حتى يقدموا له شكاياتهم ، وكانوا فى الغـــالب يغادرون المـكان وهم مجبورو الخاطر : قضيت حوائجهم ، أو نالهم مايعوضهم عنها من حسن الاستقبال •

فى مثل هذه الأخيلة البعيدة ، يبدو لنا الجبرتى الفنان ، كما يســـميه شفيق غربال •• وهذه النظرة الرومانتيكية هى التى تأخذ عليه سبل التفكير فى أحيان ، حتى لتظن انه يميل الى المماليك كل الميل • وانظر الى وصفه حين أقام على بك الكبير عرسا فى أغسطس ١٧٦١ ، فسترى فيه ان الجبرتى يذكر بالخير كل من اشـــترك فيه • وكانت العروس هانم بنت ابراهيم بك الكبير ،

وكان العريس صنجقا من أتباع على بك • وكان الاحتفال عند بركة « الفيل » « فعملوا على معظم البركة اخشابا مركبة على وجه الماء يمشى عليها الناس للفرجة ، واجتمع بها أرباب الملاهى والملاعب وبهلوان الخيل وغيره من سائر الأصناف والفرج ، والمتفرجون والبياعون من سائر الأصناف والأنواع • وعلقوا القناديل والوقدات على جميع البيوت المحيطة بالبركة ـ وغالبها سكن الأمراء والأعيان ، أكثرهم خشداشين بعضهم البعض ، ومماليك ابراهيم كتخدا أبى العروس ـ وفى كل بيت منهم ولائم وعزائم وضيافات وسماعات وآلات وحجعيات • واستمر هذا الفرح والهم مدة شهر كامل ، والبلد مفتوحة ، والناس تفد ليلا ونهارا للحظ والفرجة من جميع النواحى » •

« ووردت على « على بك » الهدايا والصلات من اخوانه الأمراء والأعيان والاختيارية والوجاقلية والتجار والمباشرين والأقباط والأفرنج والأروام واليهود • والمدينة عامرة بالخير ، والناس مطمئنة ، والمكاسب كثيرة والأسعار مرضية ، والقرى عامرة • وحضرت مشايخ البلدان ، وأكابر العربان ومقادم الأقاليم والبنادر بالهدايا والأغنام والجواميس والسمن والعسل ، وكل من الأمراء الابراهيمية كأنه صاحب الفرح •• » (ص ٧١) •

تلك هى الروح الفنية التى أملت هذا الوصف لعرس من أعراس المماليك • ان أهل القاهرة يحبون الزينة ويشغفون بالمواكب ، وكان الجبرتى من أشد الناس شغفا بكل ما هو جميل ولطيف • ولكن مثل هذا الوصف ينم على روح من الرضا النفسى ، وبخاصة حين ينتقل من وصف مناظر العرس الى ذكر « المدن العامرة بالخير » « والناس المطمئنة » « والمكاسب الكثيرة » « والأسعار المرضية » و « القرى العامرة » • ليت شعرى هل كان كل ذلك حقيقة أم سرابا ؟ •

ومهما يكن من أمر ، فاننا نريد أن نوازن بين هذه النفحة من نفحات الرضا النفسى ، وبين لمحة أخرى نقع عليها في وصف عرس أقيم لابنة « محمد على » عندما زفت الى محمد الدفتردار فى يناير سنة ١٨١٤ • ويقول الجبرتى تمهيدا لوصف « الزفة » أن محمد على أمر شخصا اسمه محمد أغا أن يخلى داره حتى تسكن فيها ابنته : « وعند ذلك بيضوها ، وزادوا فى زخرفتها ، وفرشوها بأنواع الفرش الفاخرة ، ونقلوا اليها جهاز العروس والصناديق ، وما قدم لها من الهدايا والأمتعة والجواهر والتحف من الأعيان وحريماتهن ••• حتى من نساء الأمراء المصريين المنكوبين ، وقد تكلفوا فوق طاقتهم ، وباعوا واستدانوا وغرموا فى النقوط والتقادم والهدايا فى هذين المهمين ، ما أصبحوا به مجردين ومديونين » •

« وكان اذا قدمت احدى المشهورات منهم هديتها ، عرضوها على أم العروس التى هى زوجة الباشا ، فقلبت ما فيها من المصاغ المجوهر والمقصبات

وغيرها ··· فان أعجبتها تركتها ، والا أمرت بردها ، قائلة : « هذا مقام فلانة التى كانت بنت أمير مصر ، أو زوجته !؟ · فتتكلف المسكينة للزيادة ونحو ذلك ، مع ما يلحقها من كسر الخاطر ، وانكساف البال ··· » ·

ويمضى الجبرتى فى هذه السخرية القاهرية اللاذعة ، فيذكر أن اصحاب الشرطة هدموا مساطب الدكاكين ليوسعوا الطريق لمرور الزفة المنتظرة ، وأتلفوا كثيرا من الأبنية · ولكن يبدو أن العدل الآلهى تدخل هذه المرة أيضا ، فيقول الجبرتى : « عندما توسطت الزفة فى مرورها بوسط المدينة ، اطبق الجو بالغيام وامطرت السماء مطرا غزيرا ، حتى تبحرت الطرق ، وتوحلت الأرض ، وابتلت الخلائق من النساء والرجال المتجمعين للفرجة ··· وخصوصا الكائنين بالسقائف وفوق الحوانيت والمساطب ، وأما المتعينون بالمشى فى الموكب ولا بد ، الذين لا مفر لهم من ذلك ولا مهرب ، فاختل نظامهم ، وابتلت ثيابهم ، وتكدرت طباعهم ، وانتفضت أوضاعهم ، وزادت وساوسهم ، وتلفت ملابسهم ، وهطل الغيث على الابريسم والحرير ، والشالات الكرخانة والسلمى والكشمير ، وما زينت به العربات ، من أنواع المزركش والمقصبات ، ونفذت على من بداخلها من القيان ، والأغانى الحسان · وكثير من الناس وقع وتزحلق ، وسار ثوبه بالوحل أبلق ، ومنهم من ترك الزفة ، وونى هاربا فى عطفة ، يمسح يديه فى الحيط ، بما تلطخ بها من الرطريط · وتعارجت الحمير ، وتعثرت البياجير ، وانهدم تنور الزجاج ، ولم ينفع به العلاج ، وتلف للناس شىء كثير ، ولا يدفع قضاء الله حيلة ولا تدبير (ص ٨٩٣ و ٨٩٤) ·

نحن نخرج من هذه الموازنة بين وصف الزفة الأولى ـ زفة على بك الكبير ، والزفة الثانية ـ زفة محمد على ، بأن الجبرتى كان يحمل فى أطواء نفسه ضغينة على محمد على · وفى هذه الأحوال التى يكتب فيها الجبرتى بمثل هذا الأسلوب ، ترى أنه يكن موجدة تريد أن تنفجر ، أو عاطفة تريد أن تشتعل · وليست الموجدة هنا الا تحاملا على محمد على ، يزيد سيئاته سيئات أخرى تختص بزوجه وحياة أسرته ، وجشعه وحبه للمال ، واذعانه لقوى الطمع التى تندفع بين جنبيه · وقد زاد الطين بلة ، تلك الخوارق السماوية التى اتاحت له أن يسخر وأن يهزأ وان يضحك ملء شدقيه · ألم أقل لك انه كان يميل الى الخيال ؟ ثم لقد كان قاهريا يحب النكتة ·

لا شك أن الجبرتى كان ميالا للمماليك ، وأنه كان يحترم الكثير منهم ، وبخاصة ابراهيم بك ومحمد بك الألفى · وفى ايراده لترجمة الألفى عند وفاته يتحدث بلسان الألفى ، فيجرى على لسانه هذه الكلمات التى كانت حقيقة بأن تكون قطعة مسرحية · يقول الجبرتى : « أنه لم يزل الألفى سائرا حتى وصل الى قرب قناطر شبراخيت ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها · وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر الى جهة مصر وقال : « يا مصر ! انظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين ، متباعدين ، مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل

الأرنؤود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، يسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك ؟! » ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى ، وفي الحال تقايأ دما وقال : « قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثم من ينازعه ويغلبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، وما أظن أن تقوم له راية بعد اليوم » .

★ ★ ★

هل كان الجبرتى يخدع نفسه حين نقل هذا الحديث ، وحين مال كل الميل الى المماليك دون محمد على ؟ .. ان الذين زاروا مصر من الأجانب فى حكم المماليك ، أى فى أخريات القرن الثامن عشر لم يحسنوا الرأى عن ذلك العصر ، وفى كتاب لفولنى عن رحلته التى قام بها فى سوريا فيما بين ١٧٨٣ و ١٧٨٥ يقول « فولنى » : « ان القادم الى القاهرة نفسها لتأخذه عند وصوله الدهشة اذ يرى مظهرا عاما للشقاء والبؤس ، فالجماهير التى تحتشد فى الشوارع لاتبدو له الا فى أسمال قذرة أو عرايا تشمئز من منظرهم النفس . وكل ما يقع تحت بصره وسمعه يذكره بأنه فى بلد تغشاها العبودية والظلم ، ولا حديث للناس الا عن المعارك التى يتفانى فيها الجانبان ، والا عن البؤس العام ، وابتزاز الأموال وأنواع التعذيب والتقتيل . فلا أمان للانسان على حياته ولا على ما يملك ، والقضاء يقضى على الانسان بالأعدام من غير أى اجراء . والشرطى فى تجواله بالليل أو فى دركه بالنهار يحكم وينفذ فى لمح البصر من غير أن يكون لحكمه أى استئناف ... وما تلبث رأس الضحية البائسة أن تسقط فى جعبته من الجلد خشية أن ينشر دماؤها فتلطخ المكان (١) » .

كان المماليك يمثلون القوة ، وقد آلت اليهم هذه القوة اغتصابا ، فسيطروا على البلاد ونعموا بنعمها . وكانت حالة العبودية هى أساس المجتمع المصرى كما ذهب الى ذلك « فولنى » . والواقع أن فى « عجائب الآثار » ما يثبت هذه الشرور التى اجترحها المماليك فأصبحت الحال على ما رآها فولنى فى الشطر الأخير من القرن الثامن عشر . ويكفى أن نسترجع ما اقترفه مراد بك فى سنة ١٧٨٦ من السلب والنهب لندرك ذلك ، فقد سار — على ما ذكره الجبرتى فى أخبار يناير من تلك السنة — الى بلدة أسمها « رسلان » ثم نهب القرية وسلب أموال أهلها وسبى نساءهم وأولادهم ثم أمر بهدمها وحرقها عن آخرها ، وبعد أن تم له ذلك سار الى رشيد ثم الى الاسكندرية ، وكان يسير الفناء والموت والنهب فى ركابه (ص ١٣٥) ، ومصروفاته النثرية كان يتقاضاها يوميا من دار سك العملة . وكان من حق المماليك فى القاهرة نفسها أن يركبوا الخيل المطهمة ، وأن يفرضوا

---

(١) Quoted in Cairo, James Aldridge, p. 149.

الضرائب على التجار والفلاحين ، وكان منهم من يتزوج النساء كرها حين يموت أزواجهن ، فيرثون البيت ومن فيه من نساء وخدم ومال وجوار وعبيد • وقد حاول حسن باشا قبودان أن يسحق هذه القوة حين وجهته الدولة الى مصر لسحق المماليك فى سنة ١٧٨٧ ، فهربوا من القاهرة وحل للناس أن يشتروا نساءهم وجواريهم فى السوق العامة • ولكن حسن باشا لم يستطع الا أن يغلب فريقا من المماليك على الفريق الآخر وعادت الأمور سيرتها الأولى •

ولم يكن المماليك هم الفئة الوحيدة التى جابهت محمد على ، بل كان هناك أنواع أخرى من العساكر ـ أو ما يسميه الجبرتى الوجاقلية ـ وكان من هـــذه الفئات الانكشارية والدالاتية ، والأرنؤود • وكل واحد من هـــذه الأنواع كان يتفرع الى مجموعات صغيرة ، ولا يشتركون جميعا الا فى المطالبة بالمال • وفى سبيل المال كانوا يقترفون الآثام • ولم يكن الوزير يوسف باشا ، ولا محمد خسرو ، ولا خورشيد ، ولا طاهر باشا ، ولا حتى محمد على نفسه ، يستطيعون ان يضعوا حدودا لفوضى هؤلاء العساكر » ، وقد حشـــدت أخبار فظائعهم فى « عجائب الآثار » •

وحينما وفد أولئك وهؤلاء الى مصر ليتسلموها من الفرنسيين ، اعتبروا أن لهم حق الفتح ، وان مصر جميعها أصــبحت « دار حرب » • وقد وفد الى مصر قاض تركى ، فكانت أولى فتاواه أن أرض مصر جميعا ملك للسلطان ، آلت اليه بعد أن طرد الفرنسيين منها ، وكان ذلك بحق الفتح • ولولا أن ثار المشايخ على ذلك لتملك السلطان أرض مصر قبل أن يمتلكها محمد على بخمسة عشر عاما • وكان العساكر التى تدعى أنها طردت الفرنسيين شيعا منحطة ، يتحدث الجبرتى عن بعضهم فيقول : انهم شر من مشى على الأرض ، ويتحدث عن بعضهم الآخرين وهم الأرنؤود ، فيقول : « ان الواحد منهم لو رجع الى بلاده لرجع الى حالته التى كان عليها فى السابق من الخدم المتهنة ، والاحتطاب فى الجبل ، والتكسب بالصنائع الدنيئة ببيع الأسقاط والكروش والمؤاجرة فى حمل الأمتعة ونحو ذلك » • (ص ٨٢١ ، ٨٢٢) •

كان هؤلاء العساكر فى حاجة الى الرواتب وكان محمد على يتخذ من ذلك ذريعة فيفرض المكوس والضرائب والفرد • لكن العساكر لم تكن ترضى بما يوزع عليها ، ولذلك فقد كانوا يستخدمون القوة الغشوم فى فرض أنفسهم على العامة ، فمنهم من كان يهاجم السيدات أثناء مواكب العروس فيخطف ما فى أيديهن من زينة ، ومنهم من كان يسكن البيوت كرها ، فاذا أبى صاحب الدار فرضوا عليه أجرا مكررا ، ومنهم من كان يستبيح لنفسه النساء والولدان ، ومنهم من كان ينافس العامة فى معايشهم ، فيشترى السلع بالسعر الرسمى ويبيعها فى السوق السوداء بسعر مضاعف • فاذا اشتكى القوم الى الباشا أو وكيله قيل لهم : « اناس قاتلوا وجاهدوا أشهرا وأياما ، وقاسوا ما قاسوه فى الحر والبرد والطل حتى طردوا عنكم الكفار ، وأجلوهم عن بلادكم ، أفلا تسعونهم

فى السكنى ؟ » أنه هو أيضا حق الفتح الذى أشرنا اليه ، يزيده نغمة أخرى فحواها أنهم يدافعون عن « دار الاسلام » ٠

لكن حق الفتح هذا يظهر بصورة جلية بعد موقعة رشيد سنة ١٨٠٧ . فأنت تعلم أن هزيمة الانجليز فى تلك السنة كانت منسوبة الى أهل رشيد أنفسهم ٠ وبعد الموقعة الرئيسية الأولى وصل جيش تركى الى الحماد وما جاورها « استباحوا أهلها ونساءها وأموالها ومواشيها زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الانكليز عليها وتملكها » ٠ وأرسلوا بذلك فتوى للقاهرة ولم نعلم ماذا كان جواب صاحب الافتاء عن ذلك !

ويمضى الجبرتى فى هذا الحديث المؤسف فيحكى عما حدث لرشيد ويقول : « ثم أحاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد ، وضربوا على أهلها الضرائب ، وطلبوا منها الأموال والكلف الشاقة ، وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز والعليق ، فخرج كبيرها السيد حسن كريت الى حسن باشا وكتخدا بك ، وتكلم معهما وشنع عليهما ، وقال : « أما كفانا ما وقع لنا من الحروب ، وهدم الدور ، وكيف العساكر ، ومساعدتهم ، ومحاربتنا معهم ومعكم ، وما قاسيناه من التعب والسهر وانفاق المال ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل ! فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ، ولا نأخذ معنا شيئا ، ونترك لكم البلدة افعلوا بها ! » ٠ ويقول الجبرتى « انهم أمروهم بالكف والمنع ولكن هيهات » ! (ص ٧٢٧) ٠

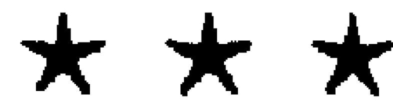
ولم يكن يستطيع رجل متدين مثل الجبرتى أن يتحمل هؤلاء الجند ٠ فقد كان أغلبهم لا يؤمنون بالاسلام الا وهما « وظهرت صورتهم الحقيقية حينما وقفوا أمام الوهابيين وكان هؤلاء يتمسكون بآيات الذكر الحكيم ، وكانوا فى قتالهم يصلون صلاة الخوف ٠ أما الأرنؤود فقد كانوا لا يتدينون بدين ولا ينتحلون مذهبا ، وكانت تصحبهم صناديق المسكرات ، ولا يسمع فى معسكرهم أذان ولا تقام فيه فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين » ٠ ويصف الجبرتى المعسكر الذى اجتمعوا فيه قبل رحيلهم للقتال فيحكى عن أنواع المنكرات التى كانوا يجترمونها ٠

اذا نحن جمعنا كل ما قام به هؤلاء الجنود ، وجدنا أن السنوات العشر الأولى من حكم محمد على كانت سنوات من الضيق والمحن واشتداد الكرب ٠ ولكن هل كانت هذه جميعا بفعل محمد على نفسه ، أم كانت لظروف الدولة العثمانية التى أدت سياستها لهذه الشرور التى ذكرنا طرفا ضئيلا منها ؟ ٠ لقد جابه مثل هذه الظروف حكام أتراك آخرون قبل محمد على ، وقام هؤلاء الحكام بشىء يشبه ما قام به محمد على نفسه ٠ كان نوع التصرف واحدا ، لأنهم جميعا استخدموا القمع وتوقيع الجزاء ، وكان الجزاء دائما هو القتل الناجز السريع ٠

لم يكن يستطيع محمد على أن يستكمل أسباب القوة الا باستئصال هذه الفئات جميعا ٠ وكان القتل هو السلاح الأمضى الذى استخدمه ، فاذا هو

أبدى شيئا من الرحمة كان الجزاء هو النفى أو الطرد · وقد استطاع أن يقضى على نفوذ الانكشارية ، وأن يقضى على المماليك ، وأن يرجع الأرنؤود الى بلادهم · وكانت مذبحة المماليك هى الذروة التى بلغها بطش محمد على ·

وبعد هذا أقبل محمد على على بناء « النظام الجديد » ، وكان معناه جيشا جديدا على النظام الفرنسى ، يعاونه فى تكوينه بعض الفرنسيين · ولا شك أن تكوين هذا الجيش كان خاتمة لهذه الجماعات المتطاحنة من عساكر الأروام — أى الأتراك — الذين كانت قد ابتليت بهم البلاد ، كما أنه لا شك فى أن مذبحة المماليك كانت قاضية على أية مقاومة شعبية يهجس بها زعماء الشعب ·



واذا كان قد ظهر فى صورة الأسد فى كل تلك التصرفات ، فانه كان يستخدم لبلوغ هذه القوة مكر الثعلب · ولا حاجة بنا الى أن نعدد الحيل التى اصطنعها حتى أصبح حاكما على مصر · فالكل يعلم كيف استطاع أن يضرب كل قوة بالأخرى حتى خلص له هذا الملك · وكان تحصيل المال هو الغاية القصوى لحكمه ، وكان فى ذلك مستبدا لا يطيق أن يعارضه أحد ، وكان من المكر والدهاء بحيث تغلب على شيوخ الأزهر الذين كانت قد انعقدت عليهم آمال المصريين · كان من المأمول أن تكون هناك زعامة شعبية تدافع عن حق الفلاح والعامل ، وتتمثل فى علماء الأزهر ، وكان من المأمول أن يكون نواب هذه الرعية هم مشايخ الأزهر الذين كان لهم من المكانة عند الناس ما أتاح لهم أن ينتخبوا محمد على واليا ، وأن يدافعوا عنه بعد ذلك حينما أراد السلطان أن يعين موسى باشا بدلا عنه · ولكن كل هذه الآمال ذهبت أدراج الرياح ، لمكر محمد على ودهائه وقوته من ناحية ، ولتخاذل المشايخ واختلافهم مع بعضهم وتكالبهم على الدنيا من ناحية أخرى ·

يقول الجبرتى فى نوفمبر سنة ١٨١٦ : أن ولى الأمر لم يكن له من الشغل الا صرف همته وعقله وفكرته فى تحصيل المال والمكاسب ، وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب · ولا يتقرب اليه من يريد قربه الا بمساعدته على مراداته ومقاصده · ومن كان خلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب — ولو على سبيل التشفع — حقد عليه ، وربما أقصاه وأبعده وعاداه ومعاداة من لا يصفو أبدا » ·

« وعرفت طباعه وأخلاقه فى دائرته وبطانته فلم يمكنهم الا الموافقة فى المساعدة فى مشروعاته : اما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، واما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة — وهو الأكثر — وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسه ، وهم شركاؤه فى أنواع المتاجرة ، وهم أصحاب الرأى والمشورة ، وليس لهم شغل ودرس الا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم » (ص ٩٧١) ·

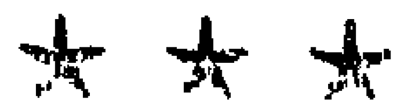
ويتساءل قارىء الكتاب أين كانت الزعامة الشـــعبية ، وأين كان علماء الأزهر من كل ذلك ، بل أين كان أثر السيد عمر مكرم فى قيادته لجماهير القاهرة الذين كان لهم الفضل الأول فى تولية محمد على ؟ ، لقد استخدم محمد على هذه القوة الجماهيرية ، وسخر الزعامة الشعبية التى كانت لعمر مكرم ، ثم نفى عمر مكرم نفسه حين رأى أنه صاحب نفوذ على الجماهير ، وقد أشرنا فيمـا سلف الى أن محمد على تعاهد مع عمر مكرم بأن يسير بالعـــدل مع الرعية ، ولكنه لم ينجز وعده ، وكانت للعلماء قوة معنوية أهملوا فى الحفاظ عليها · ففى يولية سنة ١٨٠٦ ـ وكانت قد مضت سنة على ولاية محمد على ـ جاء فرمان من السلطان بنقل محمد على الى ولاية سالونيك وبتعيين موسى باشا بدلا منه فلجأ محمد على هذه المرة أيضا الى العلماء ، واجتمعوا فى بيت عمر مكرم ، وأرسل اليهم مسودة عرضحال ، طلب اليهم أن يسطروه ويصوغوه فى لسان عربى ، وأن يرفعوه بأسمائهم الى السلطان · (ص ٦٧٢) · متمسكين بولاية محمـــد على : فقد ذكروا أنهم ممتثلون لولاة الأمر ، ويطيعون الله ويطيعون الرسول وأولى الأمر ، حسب ما جاء فى الشريعة المحمدية · ولا يسع أهل مصر مخالفتهم « لأن أهل مصر قوم ضعاف » · وذكروا أن محمد على اضطر الى القروض والسلف لأجل اغواء العساكر وتقويتهم على دفع الأشقياء والمفسدين ، والطغاة المتمردين ·· وأنه اجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد ، رغبة فى حلول أنظار الدولة العلية ·

وعلى الرغم من ذلك قطعت العلاقة ما بين محمد على والزعامة الشعبية ، وما لبثت أن فسدت وحل محلها القطيعة بين محمد على وحكومته من ناحية ، وبين مشايخ الأزهر وجماهير القاهرة وفلاحى القرى من الناحيـــــة الأخرى فقد نقم مشايخ الأزهر من « محمد على » افتئاته على حقوقهم المكتسبة من حيث الأوقاف التى يتنظرون عليهـــا ، والرزق والأحبـاس التى رأى أن يردها الى « بيت المال » ! ونقم الفلاحون وأهل المدن من « محمد على » أنه سخرهم للعمل ، ومن لم يعمل ألزمه بدفع ضريبة بديلة ، وأرسل من يطالبونهم بالحجج والوثائق التى تثبت ملكيتهم للأرض التى يزرعونها ، كما نقموا منه أنه احتكر انتاجهم وأبطل تجارتهم ، وزاد أسعار المعايش أضعافا مضاعفة ، وفرض عليهم من أصـــناف الضرائب مالا يطيقون ، وجعل كل نشاط اقتصادى يؤول اليه · ونقم محمد على من هؤلاء أنهم كسالى لا أمانة عندهم ، وأنهم يفرطون فى أمر أموالهم حين يختزنونها فى صناديق تحت الأرض أو فى آبار تحفر ·· انها اذن قطيعة بين حاكم مستبد ومحكومين ضعاف جهلة ، لا حول لهم ولا قوة · وأخشى أن أقول ان هذه القطيعة قد سارت فى تاريخ مصر خلال القرن التاسع عشر وما بعده · فقد كان المصريون على حد ما قاله سعد زغلول : « ينظرون الى الحكومة نظرة الطائر الى صائده ، لا نظرة الجندى الى قائده ! » ·

يتأمل الجبرتى هذه الصورة المضطربة ويحاول أن ينقل عنها التفاصيل ،

ويكاد فى نظره للتفاصيل لا يدرك الصورة الكلية لهذا المجتمع المختلط العجيب • وعلى الرغم من ذلك ، فانه يرينا صورة مجملة لهذا الأذى الذى لحق بالناس ، فهو يقول : « حين كلفت طوائف الناس بتعمير القاهرة اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل ، وهى : السخرة ، والعونة ، وأجرة الفعلة ، والذل ، ومهنة العمل ، وتقطيع الثياب ، ودفع الدراهم ، وشماتة الأعداء ، وتعطيل معاشهم ، وعاشرها أجرة الحمام ! » (ص ٤٩٤) •

على أن أقسى ما كان يكرب العامة هو التضخم النقدى الذى أحدثته حكومة محمد على ، بسبب تدخله فى ضرب العملة وتزييفها عمدا • ولم يزل الجبرتى يذكر فى « عجائب الآثار » كيف استطاع محمد على أن يزغل العملة حتى أصبحت الفضية منها لا تكاد تحوى الا كسرا ضئيلا من الفضة • وكان الاحتكار ضغثا على ابالة ، فتنكرت للناس المعايش الأساسية ، وغلا الأرز والقمح والسيرج واللحم والخبز ، وغيرها من المأكولات • وكان الجبرتى من قبل يرقب النيل وزياداته ، فاذا هو زاد تفاءل وبشر بالخير — لكنه فى أيام محمد على الأولى لم يكن لزيادة النيل عنده وزن ، فقد كان كل ما ينتج من زراعة ، وكل ما يباع أو يشترى من تجارة ، يذهب الى الوالى • وكذلك كان هؤلاء « الحرافيش » أو « الأذاعر » هم وقود هذه الحكومة التى أراد تأسيسها محمد على • ولم يستفد من كل ذلك الا بعض أثرياء التجار ، كالسيد المحروقى ، أو المباشرين الأقباط ، كالمعلم جرجس الجوهرى ، والمعلم غالى • ومع ذلك فقد مس أولئك وهؤلاء شىء كثير من الحيف •



تلك فئات المجتمع التى تعامل معها محمد على ، فلننظر الى الأساليب التى اتبعها فى معاملته اياها •• لقد تملكت محمد على فكرة « العمران » أو ما كان يسميها هو « العمارية » وكان ملما بامكانات مصر وقدرتها على تقبل الحضارة ، ونظر فيها فوجد أن كل سياسة يختطها يجب أن تتناول الزراعة ، وأنه لابد للمزروعات أن تجد لها سوقا تجارية ، وأنه لابد من التصنيع من ناحية أخرى • وفكرة العمران هذه هى التى أغرت كثيرا من المؤرخين — ومنهم « شفيق غربال » بتمجيد محمد على • ويبدو أن محمد على كان قد اختط صورة كلية للعمران الذى وقع عنده موقع الرؤيا • ويقول عبد الرحمن الرافعى فى « عصر محمد على » تحت عنوان « أعمال العمران » : « من القواعد الأساسية فى نهضة الأمم أن انماء ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالى ، من أكبر دعائم الاستقلال ، لأن العمران مادة التقدم ، والثروة الأهلية هى قوام الاستقلال المالى ، ولا يتحقق الاستقلال السياسى مالم يدعمه الاستقلال المالى والاقتصادى • وتلك الحقائق التى أجمعت الآراء على صحتها ووجوب العمل بها •• كان محمد على أول من قدرها ، فلقد اتجهت أنظاره — منذ أول حكمه — الى اصلاح حالة البلاد الاقتصادية ، وانشاء أعمال العمران فيها لتنمو ثروتها القومية ، ولم تفتر

عزيمته عن متابعة جهوده من هذه الناحية ، حتى خلف أعمالا ومنشآت يزدان بها تاريخه » (ص ٥٢٦) ٠

تلك هى الصورة التى تطالع مؤرخا قوميا مثل عبد الرحمن الرافعى يؤرخ للحركة القومية لكن مثل هذه الصورة لم تكن لتتراءى لمؤرخ يتحدث عن تجاربه – مثل عبد الرحمن الجبرتى – ويتكلم عما يقع تحت سمعه وبصره كل يوم ٠ وأعمال العمران هذه التى يزدان بها تاريخ محمد على – فى نظر عبد الرحمن الرافعى – لم يتم أكثرها أو تظهر آثارها الا بعد سنة ١٨٢١ أى السنة التى انتهى فيها الجبرتى من صياغة كتابه « عجائب الآثار » ٠ فالذى يهمنا فى هذا المقام أن نتابع مع الجبرتى الصورة التفصيلية التى بدت له فى الخمسة عشر عاما بعد ولاية محمد على ، وسنرى أن هذه التفصيلات توحى بأن محمد على لم يكن الا حاكما عثمانيا ، استخدم أساليب من سبقه من الحكام العثمانيين ، واستغل وجود بقايا المماليك فجعل منهم كشافا وسناجق ، وكان يمثل فى تصرفاته الاستبداد فى أشنع معانيه ، ولم يفعل شيئا لوصل الفجوة بين الحكام والمحكومين ، وسخر المجتمع المصرى ، واستعان عليه بشراذم من الأغراب والافرنج – فاذا كان قد عدل عن كل ذلك ، أو عن بعض ذلك ، طواعية أو كرها بعد سنة ١٨٢١ ، فهذا موضوع آخر للبحث ٠

وفى الادارة الجديدة التى بسطها « محمد على » على مصر ، كان يستعين فى أول الأمر بالأتراك ، وبغيرهم من نصارى الأروام والأرمن ، وبعض التجار المسلمين ، وبالكتبة الأقباط ٠ فالجنس التركى كان هو الحاكم ، أما الباقون فلم يكونوا الا أتباعا طائعين للأتراك ٠ بل لقد استخدم كثيرا من أبناء المماليك الذين ذبحهم ، وجلب لنفسه مماليك وجعلهم حكاما للأقاليم ، فكان هو أشد ظلما من سادتهم ٠ وتسلط طوائف الكشوفية التابعين للأتراك « فكانوا أقبح فى الظلم من الفرنسيس ، بل ومن العدو ، فانهم معظم البلاد أيضا ٠ فانهم هم الذين يعرفون دسائس أهل البلاد ويشيعون أحوالهم ، ويتجسسون على عوراتهم ويغرون بهم » ٠ لكن الموظفين الذين جلبهم محمد على من تركيا فى سنوات حكمه الأولى كانوا متهمين فى ذممهم ، يفرضون الرشى ، ويتقبلون الهدايا ، ولم يكن لهم هم الا فى التكثر من الثروة ، فكان ذلك على حساب المصريين ٠ ويبلغ الجبرتى الى سنة ١٨١٦ فيكتب عن أنواع المظالم التى كان يعانيها العامة فى مجال القضاء ٠ فالقاضى التركى يطمع فى أنواع من المصاريف ، كان ينبغى أن يدفعها المتقاضيان وهما صاغران ٠ فهناك رسوم على الدعاوى التى بين يديه ، وهناك الرشاوى الخفية ، وهناك المصالحات السرية ٠ وكان اذا توفى رجل استدان وارثوه ليقوموا بدفع المصروفات التى يطالبون بها ٠ ويوازن الجبرتى بين ذلك وبين القضاء فى عهد الفرنسيين ، فيقول : « مع أن الفرنساوية الذين كانوا لا يتدينون بدين ، لما قلدوا الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين بالمحكمة ، حددوا له حدا فى أخذ المحاصيل لا يتعداه ، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط ، له منها جزء ، والكتاب جزء » (ص ٩٤٦) ٠

ويمكن للباحث أن يقيس على هذا المنوال النواحي الأخرى غير القضاء ، وقد ألغي الالتزام ، وآلت الرزق والأحباس الى محمد على نفسه وأصبح هو المالك الوحيد لأرض مصر ، واستخدم في سبيل ذلك كل أنواع الأساليب ، وتصدى له عمر مكرم وبعض المشايخ لحماية أرباب الرزق ، لكنه نفى عمر مكرم ، وقابل احتجاجات المشايخ بالازدراء الصامت • وتدخل في شئون الحرفيين الذين كانوا يلتمسون كفافا من المال في بعض الحرف الدنيئة ، فشارك القبانية ، وتدخل في أعمال السلخانات والمخابز ، واستولى على سك العملة ، وأغراه بعض الشرقيين والافرنج بأن يزيف البارات الصغيرة ، والأنصاف ، والنقود الفضية وزاد الضرائب ، واستخدم كل أنواع العسف لتحصيلها ، وفي كل هذه المشاق كان ينحدر الفرد المصرى الى هوة سحيقة من التأخر ، واتخذ محمد على سياسة اقتصادية قائمة على الاحتكار ، ولم تكن هذه السياسة الا استكمالا لأسباب القوة التي بدأنا بها هذا الحديث •

وقد يكون لكل سياسة احتكارية بعض المزايا ، وقد ينظر اليها البعض كأنما كانت ضرورة في فترة التحول التي كانت تمر بها في أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن كان لها من الأضرار ما شهده الجبرتي كل يوم وتحدث عنه • وهذه الادارة الفاسدة هي التي قامت على تطبيق سياسة الاحتكار • ومن هذه الأضرار ، أن مثل هذه السياسة لم تتح لأفراد الشعب أن ينموا أنفسهم بأنفسهم ، ولم يستطيعوا أن يتحرروا من نطاق العبودية التي ضرب نطاقها عليهم ، ولا أن ينظروا نظرة موضوعية الى ولى النعم ــ أى محمد على باشا ــ وانقسم سكان مصر الى طبقات اجتماعية بعضها فوق بعض • ومن هذه الأضرار أن كثيرا من المصريين ضاقوا ذرعا بهذه الحال ، فهاجروا الى بلاد أخرى مثل بلاد الشام ، أما الفلاحون فقد كان بعضهم يهرب من قريته ، وكانت أوامر الباشا تتعقبهم في كل مكان • ومن هذه الأضرار أيضا ، أن الاحتكار زاد من كسل الفلاحين وتواكلهم ، فلم يهتموا بعمل لا يعود عليهم بثمرة •

ويبلغ الجبرتي سنة ١٨١٨ فينظر الى وراء ، أيام أن كان الفلاح ينعم ببعض الحرية في عهد المماليك ، وتتملكه النزعة الرومانتيكية الخيالية مرة أخرى ، فيقول : « ان من عادة الفلاحين وأهل القرى اذا انقضت أيام الحصاد والدرارى ، وشطبوا ما عليهم من مال الخراج لملتزميهم ــ ويكون ذلك في مبادىء زيادة النيل ــ وارتفع عنهم الطلب ، وانحلت كشاف النواحي وقائمقام الملتزمين والصيارف والمعينون ، وقلت النواحي منهم •• فعند ذلك ترتاح نفوسهم ، وتجتمع حواسهم ، ويعملون أعراسهم ، ويجددون ملبوساتهم ويزوجون بناتهم ، ويختنون صبيانهم ، ويشيدون بنيانهم ، ويصلحون جسورهم وحبوسهم •• » (ص ٨٩٨) • وهذه الصورة المشرقة كانت تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي صورها الجبرتي في سنة ١٨١٨ ، حين كان يهرب الفلاحون من قراهم ، ويحرم عليهم أن يأكلوا شيئا مما تعمل أيديهم • ونظن أن سياسة الاحتكار

كانت أفتك سلاح أضعف الفردية المصرية والشخصية الوطنية • وقد كانت مصر فى عصر التحول هذا فى أشد الحاجة لانماء الناحيتين • ولا يمكن لقومية أن تقوم على أجساد عجاف ، ولا أرواح يستبد بها حاكم ، فيتكر عليها حق الوجود •

وهكذا نعود فنؤكد أن الجبرتى كان يمثل فكرة العدل بمعناها الاسلامى الشرعى ، وأن محمد على كان يمثل القوة بمعناها التركى فى التاريخ • ومرة أخرى نقول : ان الباحث يجد نفسه معلقا بين هذين القطبين • انهما وجهتا نظر متباينتان ـ وقد مضى تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين والمصريون يتراوحون بين هاتين الصورتين ـ لكن للعدل أساليب من الحكم النيابى والقضاء وحق الفرد أكثر مما كان يفكر فيه الجبرتى وللقوة أيضا أساليب تمتد بها ، لم يكن يحلم بها محمد على ولا حتى فى هواجسه • فليس منها انكار حق الضعيف ، ولا تسخير الفرد ، ولا ضربه وقتله بيد ملك مستبد • والطريق الوسط بين الناحيتين هو الحكمة السياسية بعينها ، كما تعلمناها من فلاسفة الشرق والغرب •

عبد الرحمن الجبرتي وعلماء زمانه

للدكتور عبد العزيز سليمان نوار

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

من الأزهر الشريف ، ومن المدارس الاسلامية العديدة ، ومن حلقات الدرس فى مختلف الجوامع الكبرى ، كان يتخرج علماء مصر وشيوخها ، حملة القرآن الكريم والشريعة الاسلامية • كانوا من قلب الشعب المصرى نفسه على مختلف مستوياته الريفية والحضرية • كانوا يعيشون الحيـــاة المصرية بكافة جوانبها ، وأبواب الحـــكام مفتوحة لهم ، منهم المديرون للأوقاف والمدارس وشيوخ الأروقة ، ومنهم التجار والملتزمون وأصحاب العقارات •

واذا كانت هناك فترات عصيبة مرت برجال الدين والمشايخ خلال التاريخ الحديث ، فقد كانت أكثرها دقة تلك التى تعتبر فترة انتقال من عصر المماليك الى محنة الحملة الفرنسية الى عهد محمد على ، فخلالها وقعت متغيرات محلية ودولية سريعة كانت عبئا أعظم من قدراتهم •

ومع ما أصيبت به مكانة العلماء والمشايخ من هزات عنيفة خلال تلك الفترة العصيبة ، ظلت للعلماء والمشايخ مكانتهم بين الشعب ، ولدى مختلف الشعوب العربية والاسلامية ، محتفظين بتقاليدهم وفكرهم ، وبمدرستهم التى كان لها فى التاريخ نفس وباع طويلان •

كان العلماء والمشايخ ومن أطلق عليهم عبد الرحمن الجبرتى صـــفة المتعممين يكونون طائفة من طوائف المجتمع المصرى ، على رأسها شيخ الأزهر ، انتظموا فى مراتب تعارفوا عليها ، فكان هناك مشايخ من الطبقة الأولى ، وآخرون من الطبقة الثانية والثالثة • يتطلع كل واحد منهم الى الارتقاء من طبقته الى الأخرى • فاذا ما وصلوا الى الطبقة الأولى أصبحوا أكثر تواضعا ، ويتجنبون القول بأنهم فعلا من هذه الطبقة الرفيعة ، شعورا بقصور العـــالم عن بلوغ كمال المعرفة •

وليس معنى هذا أنه كانت هناك فوارق حاسمة بين هذه الطبقات ،

وانما أبواب كل طبقة كانت مفتوحة لكل مجتهد من العلماء ، بدرسه وعلمه وايمانه ، وببذله الوقت والجهد ، باحثا مدققا من أجل تكوين مدرسة له من تلاميذه الذين يأخذون عنه ويتعلقون به .

ولعبد الرحمن الجبرتى الفضل الأكبر لما كتبه فى « عجائب الآثار » من كشف للتطورات والاتجاهات التى كانت تموج في أوساط رجال الدين وعلماء الأزهر ، خلال الفترة التي يغطيها كتابه من القرن الثامن عشر الى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

فالجبرتى كان واحدا من هؤلاء الشيوخ ، وهو نفسه من بيت علم ، فكان أعرف ببواطن الأمور التى كانت تحدث في دوائر العلماء وجلساتهم الخاصة ، وفى أروقة الأزهر ومجالسهم . فقد كانت أمورهم مكشوفة أمامه . وكان هو يريد الكمال منهم .

حقيقة ، لم يرسم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورة عن العالم أو الشيخ المثالى الذى كان يتصوره هو ، والذى كان يتمنى وجوده وشيوعه بين العلماء . ولكن محصلة كتاباته وتراجمه عن العلماء والشيوخ من مختلف المستويات فى زمانه ، تعطينا صورة لهذا العالم على النحو التالى :

« انسانا حسن الأخلاق مقبلا على الافادة والاستفادة » (١) ، معتمدا على الأصول « يغوص بذهنه وقياسه فيها ويطالع كتبها القديمة التى أهملها المتأخرون » (٢) .

كان يرى كذلك أن العلماء يجب أن لا يقتصروا على عدد معين من علوم الدين والشريعة ، وانما عليهم أن يعنوا بعلوم أخرى أهملوها مثل (الفلك) الذى أهمله علماء زمانه . ولولا عناية والده الشيخ حسن الجبرتى بهذا العلم ، لبدا علماء عصره فى مستوى ضعيف ، لا يتناسب مع مكانتهم الرفيعة فى داخل البلاد وخارجها (٣) .

ومن وجهة نظر الجبرتى أن العالم الحق لم يخلق فقط لحمل القرآن الكريم والشريعة الاسلامية وتدريسها والدعوة اليها ، وانما هو مسئول عن ترجمة هذه النظريات والدراسات الى عمل ميدانى يفيد الناس ويرفع من شأنهم ويدفع

(١) كان الجبرتى يطرب لسماعه أن أحد العلماء أوصى بكتبه لأحد تلاميذه ؛ وكان يرى أن من مسئوليات العالم أن يفتح مكتبته لطلاب العلم .

(٢) المرجع السابق حوادث ١٢١٥/هـ ١٨٠٠ م .

(٣) يروى لنا الجبرتى قصة طريفة وقعت فى هذا الخصوص بمجىء باشا كان يميل للعلوم الرياضية والفلك واستاء لما علم أن علماء الأزهر لم يعودوا يدرسون هذه العلوم بالأزهر ثم دلوه على الشيخ حسن الجبرتى الذى يدرس هذه العلوم لبعض الطلاب فى بيته فاتصل به الباشا وأفادته كثيرا ، فان للشيخ حسن بذلك فضل انقاذ سمعة علماء مصر فى هذه الناحية . انظر حوادث ١١٦٢ هـ ١٧٨٨ م .

عنهم شرور الحياة وعذاب الآخرة ، ولا يخاف فى ذلك لومة لائم ، وانما يخاف ربه فقط ، واضعا نصب عينيه احقاق الحق وازهاق الباطل .

« فان العلم اذا لم يقرن بالعمل ، ويصاحبه الخوف والوجل ويجمل بالتقوى ويزين بالعفاف ويحل باتباع الحق والانصاف .. أوقع صاحبه فى الخذلان وصيره مثلة بين الأقران » (١) .

ولهذا كان الجبرتى معجبا بالشيخ الذى يعمل ويتكسب بنفسه ، خاصة اذا كان تكسبه عن طريق حرفة ذات صلة بالعلم والدرس ، كأن يكون متقنا صناعة الجلود أو مشتغلا بتجارة خلال قيامه بواجباته أو بزراعة دون أن يرهق الفلاح .

وكان للعالم الذى لا يقع فريسة لاغراء المال والهدايا مكانة كبيرة لدى عبد الرحمن الجبرتى . ومع أن مبدأ الاهداء كان مقبولا فى ذلك العصر ، ولكن الجبرتى كان يرى – وهو محق – قبول مثل هذه الهدايا فى حدود « الحشمة والعفة » (٢) .

لقد ردد أكثر من مرة تقديره للعالم الذى يتجنب موائد الحكام وأموالهم ، ولا يدق أبوابهم ، حيث قال فى الشيخ الخالدى الشافعى أنه « لم يعهد عليه أنه دخل بيتا لأمير قط أو أكل من طعام أحد قط الا بعض أشياخه المتقدمين » (٣) .

لقد كانت كرامة العلماء والمشايخ عند عبد الرحمن الجبرتي ، مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وكان يسجل مواقف العلماء فى الدفاع عن كرامتهم مبينا كيف أنه بلغ بالعلماء فى بعض المواقف أنهم هددوا بالرحيل « الهجرة » عن البلاد اذا لم يستمع الحكام الى نصائحهم ، بل ذهب أحد المشايخ وهو الشيخ الصعيدى الى حد أن صرخ في وجه أحد المماليك الذى عارضه فى مسألة دينية قائلا :

« لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » (٤) .

ومن حيث الشهامة ، كان يكبر فى العلماء الدفاع عن أصحاب الحاجات والمستضعفين والنساء « مكسورات الجناح » خاصة عندما يتعرضن لحكام غلاظ القلوب لا يقيمون لضعفهن وزنا . ولقد كانت للعلماء فعلا مواقف مشرفة فى الدفاع

---

(١) انظر عجائب الآثار حوادث ١٢٠٢ هـ/ ١٧٨٨ م .
(٢) عجائب الآثار ، حوادث سنة ١٢١٥هـ /١٨٠٠ م .
(٣) انظر حوادث ١٢٢٤هـ/١٨٠٩ م .
(٤) انظر حوادث ١١٩١هـ/١٧٧٧ م .

عنهن فى مختلف العصور والعهود · وخص بالذكر الشيخ سليمان الفيومى ، اذ كان صاحب شخصية اجتماعية فذة ، عرف كيف يصادق الأمراء وكبار المسئولين فى الحكم حتى وثقوا فيه وثوقهم فى آل بيوتهم ، فاتصل بحريمهم فكن يغتبطن بدخوله عليهن ويقلن « زارنا الشيخ ·· وشاورنا أبانا الشيخ ·· فأشار علينا بكذا ··· » فلما نزلت الحملة الفرنسية مصر « وخرج النساء من بيوتهن وذهبن اليه أفواجا حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنساء فتصدى لهن ·· وتداخل فى الفرنساوية ودافع عنهن وأقمن بداره شهورا » فلما مات خرجوا بجنازته فى مشهد عظيم جدا مثل مشاهد العلماء الكبار وربما كان جمع النساء خلفه كجمع النساء فى الكثرة » (١) ·

وكشف لنا الجبرتى عن مبدأ هام ، كان لدى طائفة العلماء والمشايخ حينذاك ، هو مبدأ وراثة الأب أو الأخ لمكانة العالم ومناصبه ، فاذا حدث ولم يكن من آل بيت العالم المتوفى من درس فى الأزهر أو المدارس الاسلامية ، دفع العلماء بواحد من آل بيته الى التعلم والارتفاع الى مستوى العلماء · ومن ذلك أنه لما توفى الشيخ أحمد الجوهرى فرضوا على أخيه عبد الفتاح أن يخلفه ، مع أنه « لم يكن معتنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء ويشارك ويضارب ويحاسب ويكاتب » ولكن كان لابد له من أن يتصدى للتدريس فى الأزهر « حفظا للناموس وبقاء لصورة العلم الموروث · فعند ذلك تزيا بزى الفقهاء ولبس التاج والفراجة الواسعة وأقبل على مطالعة العلم وخالط أهله وصار يطالع ويذاكر وأقرأ دروس الحديث بالمشهد الحسينى فى رمضان ·· مع قلة بضاعته وذلك بمعونة الشيخ مصطفى الفرماوى فكان يطالع الدرس الذى كان يميله فى الغد ويتلقى عنه مناقشات الطلبة وثبت على ذلك حتى ثبتت المشيخة وتقررت العالمية » (٢) ·

وكان يسوء الجبرتى أن يرى عددا من علماء زمانه قد انحرف عن جادة الوقار ، وكان العصر حينذاك مليئا بالتقاليد الاسلامية التى كان بعضها أقرب الى الخرافات والخزعبلات والبلاهات ، وخاصة تلك البدع التى استشرت بين بعض رجال الطرق الصوفية ، والذين كانوا يدعون أنهم من أولياء الله الصالحين أو الدراويش · فقد رفض انحرافات بعض المتصوفة من حيث اجتماع « المردان » (٣) عليه ، وغالبهم من أبناء مشايخ البلاد ، منتقدا فى نفس الوقت استهواء أفراد المجتمع التقليد المشين ·

ومع اقتناعه هو بجدوى (الذكر) ، وأنه من الحفلات الدينية التى تفيد الناس ، على اعتبار أنه ذكر لله ولجميع صفاته وصفات رسوله ، كان شديد الوطأة على الانحرافات التى دخلت حفلات الذكر والموالد . كتلك التى كان

---

(١) انظر ترجمة الجبرتى للشيخ سليمان الفيومى ·

(٢) انظر عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٥هـ/١٨٠٠م ·

(٣) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ·

يعقدها أتباع الطريقة العيسوية الصوفية المغربية الأصل ، بسبب « تحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك .. ورمي قشور اللب والمكسرات والمأكولات في المسجد وطواف الباعة بالمأكولات على الناس وسقاة الماء فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقا بالأسواق المتهنة » (١) .

وكان لومه أشد لكبار العلماء والمشايخ بسبب ذهابهم الى الموالد . ولعله كان يرى أن عالما مثل « الشيخ عبد الله الشرقاوى » اذا ما ذهب الى المولد فانه سيفتح باب التطرف والبدع بين العامة ، حيث أنهم سرعان ما يقلدون العلماء الكبار ، ولكن دون تعقل ، ويندس بينهم « سخاف العقول » (٢) .

ولقد أدرك عبد الرحمن الجبرتي كم كانت هذه الموالد وسيلة خبيثة فى يد الفرنسيين لالهاء أهل البلاد . وكان يرى أن الفرنسيين لم يرحبوا بفض أحد الموالد ــ المشهورة بالعبث والمجون ــ الا « لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات » (٣) .

تلك كانت بعض الصور العديدة التى رسمها الجبرتى للعلماء والمشايخ ، وما يحيط بهم فى مجالات العلم والمجتمع . ومهما ظهر فى هذه الصور من شوائب ، كانوا عنده أكرم الناس ، ولهذا كان يبدأ بهم عندما يشرح فى الترجمة لمن توفى فى كل عام ، وبعد أن يترجم للعلماء يترجم للأمراء ، وكبار التجار وغيرهم من علية القوم .

فمن كان فى نظره العالم الذى يستحق أن يكون من الطبقة الأولى فى زمانه ؟ .

لقد قدم لنا العديد من تراجم طائفة المشايخ والعلماء . ولكن عرضه لتاريخ الشيخ مرتضى الزبيدى ، يشير الى أنه كان فى نظره العالم المثالى فى زمانه . ولقد كان الرجل فعلا من أفذاذ العلماء ، وصاحب موسوعة خالدة لا تزال مرجعا ، وهى « تاج العروس » . ولم يكن الزبيدى من مصر ، وانما من اليمن ، جاب البلاد العربية وكتب عن رحلاته وجولاته ، وعلم وأفاد فى أكثر من مكان ، وربط العديد من علماء البلاد الاسلامية .

حقيقة كان مرتضى الزبيدى على صلات قوية ببيت الجبرتى ، ولكن مكانة الرجل واشتهاره ، لا تجعل من هذه الصلات سببا فى أن يرفع عبد الرحمن الجبرتى من شأنه على ذلك النحو الذى كان يفعله بالنسبة لأبيه الشيخ حسن الجبرتى .

---

(١) عجائب الآثار ؛ حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٩م .

(٢) انظر ترجمة حياة الشيخ الشرقاوى فى تراجم عام ١٢٢٧ هـ .

(٣) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٩م .

ولما كان عبد الرحمن الجبرتى حريصا على أن يكون الأزهر وعلماؤه فى أعلى المستويات ، ومسموعى الكلمة ، فقد قدم تاريخا عن الأدوار العديدة التى لعبها العلماء والمشايخ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومن خلال ما كتبه يمكن أن نحدد تطور زعامة المشايخ على النحو التالى :

١ ـ خلال القرن الثامن عشر كانوا يكتفون بالدفاع عن حقوق الرعية أمام المماليك ، وبالوساطة بين الزعامات المتقاتلة منهم •

٢ ـ فى نهاية القرن الثامن عشر وقبيل مجىء الحملة الفرنسية ، بلغ ظلم المماليك حدا لا يطاق ، فتزعم العلماء والمشايخ « الجمهور » ، وفرضوا شروطهم سنة ١٧٩٥ •

٣ ـ بمجىء الحملة الفرنسية واجهوا مسئولية الجهاد فى سبيل الله ، وتحرير البلاد ، ومسئولية تمثيل الشعب أمام سلطات الاستعمار •

٤ ـ وبعد خروج الحملة الفرنسية ، وجد العلماء والمشايخ أنهم هم أصحاب الحق فيمن يتولى حكم البلاد ، فاختاروا « محمد على » واليا • وكان ذلك ذروة ما بلغه العلماء من زعامة ، ولم يلبث محمد على أن وجه ضربته القاصمة لها •

١ ـ العلماء وسطاء بين الحكام والرعية

فى بلد لم يكن فيه بين الحاكم والمحكوم من يناقش ويحاسب السلطات العليا ويدافع عن وجهات نظر الشعب ، كان العلماء يقومون بدور الوساطة الهادئة ، وكان هذا الدور ملائما كل الملاءمة للعلماء فى عصر المماليك حتى أواخر القرن الثامن عشر • وكانت أساليب الحكم الاستبدادية المملوكية ، وصراعات المماليك فيما بينهم تنعكس على الشعب على هيئة مطالبات مالية جائرة ، تتعدى ما كان متعارفا من واجبات ضرائبية معقولة على الرعية • وكان الشعب يتحمل الى حد كبير هذه المظالم ، حتى يجد أصحاب الحرف أن أمورهم سائرة الى التوقف ، وأعمالهم الى البطالة • وكانت القروض الاجبارية التى كان يفرضها المماليك ـ ولا يردونها ـ تنزل أبلغ الأضرار بالتجار ، فكانوا يضطرون الى اعلان الاضراب • الا أن تحركهم هذا ما كان ليرغم المماليك عن الرجوع عن غيهم ، الا اذا تزعم العلماء والمشايخ والمجاورون ومدرسو الأزهر الاضراب ، والا اذا أوقف هؤلاء دروسهم وأغلقوا أبواب الجامع الأزهر ، حيث ان ذلك يعنى أن الأمور وصلت الى ذروة من التعقيد ترغم الحكام على أن يعيدوا النظر فيما أثار مشاعر الزعماء والجمهور •

وكانت الصورة التى عرضها الجبرتى عن معارضة القرض الاجبارى الذى فرضه اسماعيل بك ، من أدق الصور التى تصور استجابة الزعامة الأزهرية لغضبة الجمهور على تلك المظالم •

فيقول الجبرتى ، ان التجار « أغلقوا وكائل البن بالغـورية ودكاكين الميدان » ولكن لما أرادوا «قفل أبواب الجامع» الأزهر ، اعترضهم الشيخ العروسى ــ شيخ الجامع الأزهر ــ مفضلا الوساطة الهادئة واصطناع الملاينة ، ولكن كان التجار والعامة على غير هذا الرأى ، ولهذا « قاموا فى وجهه » ٠٠ و « صاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم الى رواق الشام » حتى أنقذه «المجاورون» من بين أيديهم ، ليقوم هو من بعد ، بالتفاوض مع اسماعيل بك الذى حاول أن يقنع الشيخ العروسى بأن القرض سيرد لمن يسهم فيه ، منمقا الكلام له ٠ الا أن التجار كانوا قد سئموا هذه الألاعيب ، اذ أقنعتهم السوابق أن المماليك لا يسعون فى مثل هذه الأحوال الا الى « فض الجمع » واعادة فتح المحلات ، ثم يعمدون الى أن يأخذوا التجار « واحدا بعد واحد » (١) ٠ وفعلا كان دور العلماء والمشايخ فى هذه المرحلة على هذا النحو من الملاينة والوساطة ٠

٢ ــ العلماء يفرضون شروطهم على الحكام

واذا كانت جهود العلماء قد توقفت ــ لحين ــ الى هذا الحد ، الا أن استمرار ظلم المماليك والتلاعب بالقول ونكث العهود ، جعل المشايخ والعلماء والشعب يصعدون من مقاومتهم للظلم ، وجعلهم يتحولون من الوساطة الهادئة الى التحرك الجماهيرى المحدد الأهداف حسب مستوى ذلك العصر ٠ وتجلى ذلك عندما تزعم الشيخ الشرقاوى « الجمهور » ضد الضرائب « المستحدثة » ، وشعر المماليك أن هذا الموقف الصلب الذى اتخذه العلماء ، قد يؤدى الى زيادة اهتزاز حكم المماليك الذى كان يعانى من استشراء الفتن بين جماعاتهم ٠ فبدا المماليك وكأنهم يستجدون التفاهم مع العلماء ٠ فقد وقف « بين أيديهم » مبعوث الأمير الحاكم ، محاولا اقناع العلماء بالعدول عن الاضراب الشامل الذى دعوا اليه ٠ ولكن تشبث هؤلاء بموقفهم ، مما اضطر المماليك الى قبول « الحجة » (٢) التى قدمها المشايخ متضمنة الشروط التى يجب أن يحكم المماليك بمقتضاها ٠

حقيقة كان هذا نصرا كبيرا أحرزه المشايخ لصالح « الجمهور » ولكن الجبرتى ــ الشيخ المؤرخ ــ لم يترك هذه الحادثة تمر دون متابعـة نتائجها وما أدت اليه ، فوجد أن المماليك لم يلبثوا أن نكثوا العهد وتجاهلوا « الحجة » وعاد كل شىء الى ما كان عليه من قبل « وزيادة » (٣) ١٧٩٥م/١٢٠٩ هـ ٠

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٠٣هـ/١٧٨٧م ٠

(٢) عجائب الآثار ؛ حوادث ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م ٠

(٣) المصدر نفسه ٠

٣ ـ دور الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي

وبمجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، وتغلبهم السريع على المماليك ــ الذين كانوا يمثلون قوة الدفاع عن البلاد ــ وجد المشايخ والعلماء أنفســـهم فجأة مسئولين عن قيادة الشعب فى كفاحه • وهم الذين لم يسبق لهم قط أن حملوا السلاح ، ووجدوا كذلك أنهم مضطرون الى مداراة السلطة الاستعمارية ، وسبر غورها حتى تنقشع الغمة •

ففى حديثه عن مواقف الشيخ السادات من الفرنسيين ، قال :

« وبالجملة كان بوجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام ، سد بعقله ثقوبا واسعة وفتوقا ، لا سيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع ، ما يكدر طباع الفرنساوية من مخاوف الرعيـــــة تلافاه بمراهم كلماته ويســـكن حـدتهم بملاطفاته » (١) •

ومن ثم كان قبول العلماء والمشايخ رئاسة وعضوية (الديوان) الذى أنشأه نابليون بونابرت ، محاولة لعدم ترك الأمور كاملة فى يد الفرنسيين ، بحيث يكون هناك من يدافع عن حقوق الشعب ، والحفاظ على شعائر الدين الاسلامى ، وتطبيق الشرع الشريف الذى هم مسئولون عنه وعن بقائه •

والجبرتى حين يتحدث عن تشكيل هذا الديوان ، وقبول المشايخ الالتحاق به ، كان يعرض الأمور دون أى انفعال ، ودون اتهام لهم بأنهم انهزاميون ، حيث أنه هو نفسه التحق بديوان (منو) فى وقت متأخر • ولكنه فى نفس الوقت كان حريصا على أن يبرىء ساحة المشايخ فى الديوان من اصدار مراسيم تخدم الفرنسيين ، فعندما صدر منشور من الديوان قال انهم ــ أى الفرنسيين ــ كتبوا عدة أوراق « على لسان المشايخ » (٢) •

ونظرا لقيمة ومكانة الجامع الأزهر ، عرض الجبرتى باسهاب ما فعله به الفرنسيون فى أعقاب ثورة القاهرة الأولى ، وبشكل يثير العاطفـــة والمشاعر الدينية ، دون أن يستخدم عبارات الســب التى كانت شائعة على لسان العلماء والعامة عند وصف الفرنجة • فيقول :

« وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والقنبر •• ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشـــاة كالوعول وتفوقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه

(١) انظر ترجمة حياته فى وفيات عام ١٢٢٩هـ/١٨١٢ ــ ١٨١٣م •
(٢) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٨م •

من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيهـــا وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيـــه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه » (١) ٠

كما سجل الجبرتى غضبة الشيخ عبد الله الشرقاوى على (الطيلسان) الذى حاول نابليون بونابرت تقليده اياه ، ووضعه على كتفه تكريما له ، على ذلك النمط المعتاد فى فرنسا ٠ ولكن الشـــيخ الشرقاوى الذى كان رئيس الديوان « رمى به الى الأرض واستعفى ، وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه » فان الشرقاوى ، وقد أرغمته الظروف على أن يترأس ديوانا فى مصر الواقعة تحت الاحتلال الفرنسى لا يقبل أن يضع على كتفه شارة تضيع قدره عند الله والرعية (٢) ٠

ويلاحظ أن الجبرتى حين سجل أحداث ثورة القـــاهرة الأولى ومشاركة وزعامة المشايخ والعلماء لها ، كان يوجه كلماته اللاذعة الى بعضهم ٠ فهل كان ذلك من قبيل تثبيط الهمم ؟ وفى اعتقادنا أن عبد الرحمن الجبرتى كان أكثر ادراكا من غيره للقوة الضاربة الفرنســـية ، لا من حيث امكانياتها العسكرية فقط ، بل كذلك من حيث قدراتها الحضارية ٠ وكان الاتجاه العام لدى العديد من المسئولين عن أمور مصر ، هو انتظار جيش السلطان خليفة المسلمين لانقاذ مصر من أعداء الدين والملة ٠ وكان الجبرتى على عكس ذلك ٠ اذ كان يرى أنهم لو انتظروا مجيء القوات العثمانية ، فانها لن تصل الا بعد فوات الأوان ، وبعد أن يستتب الأمر للفرنســـيين فى مصر ٠ وكان كذلك يدرك أن التفوق على الفرنسيين ذوى السلاح والاستراتيجية الحديثة لا يمكن أن يتحقق « بالنبابيت » والدعاء وبالحملات الارتجالية ٠ وكان يدرك كذلك أن قطاعات مهمة من القاهرة ، مثل مصر العتيقة لم تشترك فى ثورة القاهرة الأولى ، كل هذا جعله يلوم المشايخ والعلماء على تزعمهم هذه الثورة التى كانت نتيجتها متوقعة لدى الجبرتى ، من حيث قدرة الشعب على الاستمرار فيها لمدة طويلة ٠ ومن هذا قول الجبرتى واصفا واحدا من المشايخ الذين قادوا الثورة :

« ولم يزل حتى حمله التفاخر فى زمن الفرنسيين على اثارة الفتنة التى اصابته وغيره ، وقتل فيمن قتل بالقلعة » (٣) ٠٠ « ولم ينظروا فى عواقب الأمور وأنهم فى « القبضة » مأسورون » ٠

فبعد العمليات الأولى الناجحة من الثـــورة ، أعاد الفرنسيون تنظيم أنفسهم ، وأخذوا يضربون بانتظام أحياء القاهرة ومعاقل الثوار ، فى مواجهة

---

(١) المصدر نفسه ، حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ٠

(٢) عجائب الآثار ؛ حوادث ١٢١٣هـ ٠

(٣) حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ٠

مقاومة غير منظمة · حتى انكسرت حدتها واضطر المشايخ الى أن يركبوا « الى كبير الفرنسيس » ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع من الرمى المتراسل ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال » (١) ·

ولا شك أن الجبرتى لم يضف الحكمة الأخيرة اعتباطا · فمن وجهة نظره أن التفوق العسكرى لا يحقق كل الأهداف ، ولا يخضع الناس والرقاب ، وانما يمكن أن ينحنى الشعب للعاصفة ، ويواجه بشجاعةهزيمته العسكرية ، ويحاول أن يصل الى اتفاق مع خصمه ، تمهيدا لاعادة رص الصفوف وسد الثغرات ومعرفة الأخطاء ، لمعاودة الكرة ضد أعداء الدين والملة ·

وفى نفس الوقت سجل الجبرتى كيف كان هؤلاء العلماء والمشايخ مشلولى الحركة ازاء المأساة الكبرى التى دبرها الفرنسيون للمجاهد الكبير (محمد كريم) ــ بطل الدفاع عن الاسكندرية ، حين قرروا عليه من الأموال ما يعجزه ، حتى يبرر ذلك لهم اعدامه · فأخذ المجاهد يستغيث بالعلماء والمشايخ أن « اشترونى يا مسلمين » · ولكن هؤلاء وقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه المحنة حيث :

« ليس بيدهم ما يفدونه به ، وكل انسان مشغول بنفسه ، ومتوقع لشىء يصيبه » (٢) ·

فكان ذلك من الأمور التى هبطت بمكانة العلماء · ففى اعتقادنا أن تردد المشايخ والعلماء بين التيار السلمى والتيار الثورى ضد الفرنسيين ، وعملهم فى الديوان وحصولهم على الرواتب ، وتبادلهم الولائم مع قادة جيش الاحتلال ، وفساد أخلاق بعض النساء ــ وخاصة بنت الشيخ البكرى ــ لا شك أن كل هذا أساء الى جهود العلماء والمشايخ ، وفرقهم بين معتدل وثورى وانتهازى · فكان أن اهتزت صورتهم ، وأنحى عليهم الجبرتى باللائمة ، بسبب أطماع بعضهم فى زاد الدنيا من يد الفرنسيين بالذات (٣) ·

حقيقة كانت هذه هى صورتهم حتى قبيل خروج الفرنسيين · أما خلال عمليات اخراجهم منها ابتداء من حملة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، الى الحملات النهائية التى أجبرتهم على مغادرة البلاد ، فقد تعدلت الصورة قليلا · فقد شارك العلماء والمشايخ مشاركة كبرى فى الثورة ، وحتى أولئك الذين كانوا فى الديوان نزلوا الى الميدان · فكان ذلك مثار غضبة شديدة أنزلها كليبر بالعلماء

---

(١) عجائب الآثار ؛ حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ·

(٢) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣هـ/١٧٩٩م ·

(٣) ومن ذلك أن كليبر بعد أن أخمد ثورة القاهرة الثانية ، دعا اليه العلماء والمشايخ فبكروا بالذهاب « ولبسوا أفخر الثياب » ··· وطمع كل واحد منهم فى « المناصب » ــ المصدر نفسه ، حوادث ١٢١٤ هـ/١٨٠٠ م ·

والمشايخ ، وكان أشدها ما وقع للشيخ السادات • فكان ذلك ابقاء لهم على زعامتهم ومكانتهم ، لتلعب من بعد واحـــدا من أكبر أدوارها فى مطلع القرن التاسع عشر •

٤ ــ العلماء أصحاب الحق فى عزل وتولية الوالى

وكشف لنا الجبرتى عن هذه الذروة التى وصلتها قوة العلماء فى مجال الزعامة الشعبية •

فعندما استشرت الفوضى بسبب تصارع العثمانيين والمماليك على الانفراد بالحكم ، متجاهلين وجهة نظر الشعب فيهم ، ومتغاضين عن ضياع أرزاق الناس بين عسكر نهابين وحكام غدارين • فالشعب كان فى نظر الوالى العثمانى مجرد فلاحين يجب عليهم أن يمتثلوا لأوامر الســـلطان ونائبه فى مصر ، حتى رغم ما كان ينزله بالشعب من ضروب العسف والارهاق الزائد عن الحد ، وحتى اذا طرد العسكر الأهالى من بيوتهم واستولوا عليها عنوة وعدوانا ، فقرر علماء ومشايخ مصر ــ بعد تردد ــ أن يقوموا بالدور القيادى المســـئولين عنه • وأعلنوا أن :

« شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم •• وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له انا لا نريد هذا الباشا حاكما علينـــا ولابد من عزله من الولاية وقالوا أنه لا نرضى الا بك وتكون والينا علينا لما نتوســـمه فيك من العدالة والخير » (١) •

وقاموا قومة رجل واحد ، وتسلحوا وأرغموا هذا الوالى العثمانى على الرضوخ لهم وفرضوا رأيهم معلنين على لسان السيد عمر مكرم من قديم الزمان حقهم فى عزل الوالى الظالم ، بل السلطان نفسه اذا خرج عن حكم الشرع (٢) •

هذا العمل الكبير الذى قام به العلماء والمشايخ فى عزل والى مصر العثمانى سنة ١٨٠٥ ، وتولية محمد على ، كان فى نظر عبد الرحمن الجبرتى عملا يتسم بقصر النظر وعدم التبصر • وكان هذا يرجع الى ما كانت عليه نظرة الجبرتى الى شخصية (محمد على) على اعتبار أنه لا يختلف عن غيره من الطامعين فى حكم مصر • ولا شك أن محمد على كان ذكيا عندما تولى الحكم من يد زعماء الشعب الحقيقيين حينذاك ، واستطاع هؤلاء أن يقدموا له خدمات كبيرة كان أروعها ذلك الموقف الكبير الذى وقفوه عندما جاءت الحمـــلة الانجليزية على مصر بقيـــادة الجنرال فريزر ١٨٠٧ •

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م •

(٢) المصدر نفسه •

ولكن ، هل كان هذا يقنع محمد على بأنه من الأجدى أن يكون الحكم شركة بينه وبين العلماء ، ويرتفع مستوى الحكم والادارة بشكل طبيعي يشارك فيه الشعب برجاله ·

لقد كان محمد على باشا حاكما من الطراز التركى الذى يركز السلطات فى يده ويرفض أن يشاركه أحد السلطان ، مما جعل عبد الرحمن الجبرتى يحمل عليهم بشدة مبينـــا مثالبهم وتخليهم من وقت لآخر عن وقار العالم وما ينبغى له من مكانة وتقدير ·

وكانت مكانة العلماء والمشايخ ــ رغم تلك الذروة التى بلغوها بعزل الوالى التركى وتولية محمد على ــ قد أصابها الكثير من التفكك والتباغض ، والتكالب على المناصب والأرزاق · وعرف محمد على ذلك فيهم فوضع خطته للانفراد بالسلطة وصف الجبرتى كيف تحقق لمحمد على هذا حين فرض الأموال على الأرض التى كانت بأيديهم أسوة بسائر الأراضى المصرية ، كما قام بتفريق كلمتهم والايقاع بينهم · ثم وجه ضربة شديدة الى أقوى الزعامات المعارضة له بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط والتلويح بمناصبه وأوقافه الى بعض العلماء المتهالكين على السلطان ·

ووصفهم الجبرتى أبلغ وصف حين قال عنهم :

« وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العـــلم ··· الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية · وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعزيز والضرب بالفلقة والكرابيج ·· واستخدموا كتبـــة الأقباط وقطاع الجرائم ·· وصارت لهم ·· تحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب ·· مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ، ومخاصماتهم القديمة مع بعضهم ·· وانقلب الوضع فيهم بضده ·· مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء والتطلع فى الأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء ·· والتعريض بالطلب واظهار الاحتياج لكثرة العيال ·· وارتكابهم الأمور المخـــلة بالمروءة ·· كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطربة ، واعطاء الجوائز والنقـــوط بمناداة الخلبوص ·· فى السامر وهو يقول ··· بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى وهـــو يخاطب رئيسة المغانى يا ستى حضرة شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان منه كذا وكذا من النصفيات الذهب ··· نتيجته التفاخر الكذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم فى فعل المحرمات الواجب عليهم النهى عنها كل ذلك من غير احتشام ولا مبـــالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البصر فى كل مجمع ·· الى غير ذلك » (١) ·

(١) عجائب الآثار ؛ حوادث ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ·

تلك كانت حالة بعض العلماء والمشايخ كما صورها الجبرتى عندما « أخذ الباشا يدبر فى تفريق شملهم » حيث أنهم كانوا قد « تعاهدوا ‥ وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » لمنع الباشا من متابعة ضرباته الاقتصادية لمداخيل العلماء . وعقدوا الاجتماعات والجلسات لتحديد خطوات العمل ، ولكن « انفتح بينهم باب النفاق ، واستمر القال والقيل ، وكل حريص على حظ نفسه وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره » ‥ وكانت فرصة كبيرة أمام « محمد على » كى يقرب اليه عددا من كبار العلماء من أمثال (الشيخ المهدى) الذى كان يخشى أن يتفوق عليه السيد عمر مكرم الذى كان يخوف محمد على « بقيام الجمهور ضده » ، وانتهز هذه الفرصة ليؤكد لمحمد على « بأن عمر مكرم – الذى كان شديد المعارضة لمحمد على لاستبداده – ليس الا بنا واذا خلا عنا فلا يسوى شىء » . بينما اتهم عمر مكرم العلماء قائلا لهم « أنتم توافقونه وتسايرونه ، ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة وأنا الذى صرت وحدى مخالفا وشاذا ووجه عليهم اللوم فى نقضهم العهد والأيمان » . وهكذا عرف محمد على كيف يعزل عمر مكرم – أقوى شخصية فى ذلك الوقت وأصر على نفيه ونفاه ، ليذهب من بعد ذلك الشيخ المهدى عند الباشا طالبا « وظائف السيد عمر ‥ فى نظير اجتهاده فى خيانته » .

ولكى يلصق ما حدث للسيد عمر مكرم بالمشايخ والعلماء ، حثهم « محمد على » على تنميق عرضحال فى حق السيد عمر » ومن وقع العرضحال تقرب من الوالى ومن أصحاب المناصب من رجال الدين ، أما الشيخ أحمد الطحطاوى فقد تشبث بأن ما ورد فى ذلك العرضحال ليس الا « كلام لا أصل له » . فما كان من المشايخ والمتصدرين الا أن عزلوه من « افتاء الحنفية » وأحضروا الشيخ حسين المنصورى وركبوا صحبته وطلعوا به القلعة – بعد أن مهدوا القضية ‥ وخلعوا ‥ عليه أيضا خلعهم » .

ويرى الجبرتى أن ما حاق بالسيد عمر مكرم انما هو نفسه مسئول عنه « فالذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالما (١) سلط عليه . ولا يظلم ربك أحدا » (٢) .

وبعد تلك الحادثة ، التى سحبت من المشايخ والعلماء قدرتهم على التحرك ضد الوالى القوى الشكيمة ، دبر لهم محمد على خطة تسحب ما كان بيدهم من حق اختيار شيخ الأزهر . فقد عرض عليهم الأمر للتداول فيه . وكان ‥ المنصب مغريا يتنازعه المشايخ منذ وقت طويل . « فاختلفت آراؤهم ، فالبعض اختار الشيخ المهدى والبعض ذكر الشيخ محمد الشنوانى » ولكن لم يكن « له درس بالأزهر » وكان شديد التواضع راغبا عن المناصب . فاختار المشايخ

(١) يقصد محمد على .

(٢) انظر عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م .

الشيخ المهدى ، ففرح الرجل « وركب ٠٠ الى بيته فى كوكبة ، وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين وشربوا الشربات وأقبلت عليه الناس للتهنئة » أما محمد على باشا فقد قرر استبعاد المهدى ، حتى يسحب منه هذه الخلفية الكبيرة المؤيدة له ، وحتى يثبت للجميع أن اليد العليا فى اسناد هذا المنصب الدينى الكبير للباشا وحده ٠ « فخلع على الشيخ محمد الشنوانى ٠٠ وجعله شيخا على الأزهر » ٠٠ وأرسلوا اليه الطباخين والفراشين والأغنام والأرز ٠٠ وازدحمت الناس عليه ، وأتوا أفواجا اليه ٠٠ للتفرج على الشيخ الجديد وكأنه لم يكن طول دهره بينهم » (١) ٠

على تلك الصورة أصبحت طائفة المشايخ والعلماء ، من حيث العجز عن القيام بدورها القيادى فى البلاد ، وأصبحوا أداة فى يد محمد على للتخلص من خصومه ٠

تلك صور شتى رسمها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى لعلماء زمانه ٠ ويجدر بنا أن نعدل شيئا من هذه الصورة بأن نضع فى اعتبارنا ما يلى :

١ ـ أن طائفة المشايخ والعلماء ما هى الا جزء من المجتمع بخيره وشره ، وأن المؤرخ حين يكتب عن طائفة أو تاريخ تستهويه الأحداث ، خاصة تلك التى لا تجرى مع القواعد المتعارف عليها ، أو الصورة المثالية التى كانت لدى المؤرخ نفسه ٠

٢ ـ أن عبد الرحمن الجبرتى كان يكتب تاريخه منفعلا باتجاهات معينة ، جعلته شديد الوطأة على أبناء طائفته ٠

٣ ـ أن الظروف والتطورات كانت أكثر تعقيدا وأسرع تغييرا من قدرات المشايخ أنفسهم ٠

وبصفة عامة ، يعتبر كتاب (عجائب الآثار) المرجع الرئيسى الذى يضع أمامنا هذه الصور المختلفة لعلماء زمانه ، سواء أكانت مشرقة فى جوانبهـا ، أم مظلمة فى بعض هذه الجوانب ٠

---

(١) انظر ترجمة حياة الشيخ عبد الله الشرقاوى ، حوادث ١٢٢٧هـ/١٨١٢م ٠

تصوير الجبرتي للمجتمع الريفي

للدكتور رءوف عباس حامد

كلية الآداب - جامعة القاهرة

كان المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قاهريا ، يسكن القاهرة ، ويعد من أبرز علمائها ووجهائها ، فعرف مجتمع القاهرة ــ أو بتعبير آخر مجتمع المدينة ــ معرفة معايشة ومشاركة • أما الريف فقد كان على هامش اهتمام ذلك المؤرخ الفذ ، لا يجذب انتباهه الا حينما تنزل به نازلة أو يصيبه خطب ، وتفرض الحوادث نفسها ، فيفسح المؤرخ سطورا قلائل للريف بين الحين والآخر ، حتى ينال الريف من اهتمامه فى الجزء الرابع من « عجـــائب الآثار » حين أدخلت التغييرات الكبرى على الحيازة الزراعية فى عهد محمد على ، فراح مؤرخنا يسجل ما طرأ من تعديل على مجتمع أهل الفلاحة ملمحا ما كانت عليه الأمور قبل ذلك التعديل فى ضوء ما تجمع لديه من معلومات • فهو وان كان قاهريا الا أنه ورث عن أبيه أرضا بقرية « ابيار » ، بالقرب من كفر الزيات • ورغم غيابه المستديم عن القرية حيث أرضه التى كانت تمثل جزءا من ثروته ولم يكن مصدر دخله الرئيسى : الا أنه عرف أحوال الريف معرفة من تربطه به مصلحة • ومن ثم جاءت اشاراته عن الريف ــ على قلتها ــ معبرة عن واقع الريف المصرى أصدق تعبير •

ونعرض فيما يلى لتصوير الجبرتى للمجتمع الريفى من حيث ، حيازة الأراضى الزراعية ، وأحوال الفلاحين ، فى ضوء الاشارات التى أوردها المؤرخ فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » •

حيازة الأراضى الزراعية :

لم تنل حيازة الأراضى الزراعية حظا وافرا من اهتمام الجبرتى ، فلم يعن برسم ملامح واضحة لها الا فى الجزء الرابع حين بدأ محمد على يلغى نظام الالتزام تدريجيا ، ويمد يده الى أطيان الرزق الاحباسية كجزء من عملية التجديد

التي أدخلها الباشا على الحياة الاقتصادية في مصر ، بما ترتب عليها من آثار اجتماعية كبيرة . لذلك لا نستطيع أن نقدم تصوير الجبرتي لأوضاع حيازة الأراضي الزراعية ، دون أن نتناول ابعاد تلك الأوضاع كما تشير اليها المراجع المختلفة ـ بما فيها الجبرتي ـ لنقف على التغييرات التي أثارت مؤرخنا ، وجعلته يحول اهتمامه الى ما يجرى في الريف من حوادث .

كانت حيازة الأطيان الزراعية فى مصر ذات وضع خاص يميزها عن غيرها من بلاد الدولة العثمانية ، نتيجة عوامل متعددة ، لعل من أهمها :

١ ـ أن السلطة فى مصر كانت مركزية الطابع ، تستمد أهميتها من الدور الذى تلعبه فى الحياة الاقتصادية ، من حيث قيامها بتنظيم الاستفادة من مياه النيل من خلال نظام للرى .

٢ وقد مكن النيل السلطة المركزية من الوصول بسهولة تامة الى أقصى أنحاء البلاد ، ومن ثم كانت يد الدولة تصل الى أعماق الريف ، تمسح الأراضى وتقدر الضرائب عليها وتنظم سبل تحصيلها .

٣ ـ لم تعرف مصر مشكلة انعدام التجانس بين السكان ، على النحو المعروف فى غيرها من أملاك الدولة العثمانية فجميع سكان مصر تربطهم ببعضهم البعض عادات وتقاليد موروثة ذات أصول حضارية واحدة ، ولذلك لم يكن ثمة تباين بين السكان ، فيما عدا البدو الذين كانوا عنصر اقلاق للسلطة ، واضطراب للأمن وازعاج لسكان الريف .

لذلك بقى نظام حيازة الأراضى الزراعيـــــة على ما كان عليه عند الفتح العثماني ، فأقر السلطان سليم الأول نظام الالتزام ، واشترط على الملتزمين أن يدفعوا المال (الميرى) المقرر على الأطيان التى فى حوزتهم ، وأذن لهم بالبيع والشراء فى حصص التزاماتهم (١) . مما يوحى بأن الالتزام الذى كان ـ من الناحية النظرية ـ نظاما لجمع الضرائب أصبح نوعا من الملكية التى يتمتع بها الملتزم مدى حياته مادام مؤديا « للحلوان » وهو المبلغ الذى يدفعه مقابل الحصول على « التمكين » أو حق الالتزام ، فاذا أدركت المنية الملتزم ، كان أولاده ومماليكه أحق من غيرهم بالحصول على الالتزام ، والا أصبح الالتزام ، « محلولا » تعطيه الدولة لمن يدفع أكبر قدر من الحلوان فى مزاد علنى (٢) .

وتشمل أطيان الالتزام (الأطيان الخراجية) : طين الفلاحة وهى الأرض الأثرية التى يكلف الفلاحون بزراعتها ، وطين الوسية وهى مزرعة خاصة بالملتزم

---

(١) محمد شفيق غربال ؛ مصر فى مفترق الطرق ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م ، المقـــالة الأولى ، ترتيب الديار المصرية فى عهـد الدولة العثمانية كما شرحه حسـين أفندى أحد أفندية الروزنامه فى عهد الحملة الفرنسية (حوليات كلية الآداب ، مجلد ٤ ، ج ١ ؛ مايو ١٩٣٦ ؛ ص٥٠ .

(٢) الجبرتى ؛ عجائب الآثار ؛ ج ١ ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

معفاة من الضرائب يتولى الاستفادة بريعها مقابل اضطلاعه بجباية الأموال من الفلاحين • وقسمت كل من أرض الفلاحة وأراضى الوســـية الى ٢٤ قيراطا يستحوز الملتزم على عدد من قراريط الوســـية مساو لما فى حوزته من أطيان الفلاحة ، فكان زمام القرية اما يتبع ملتزما واحدا أو يقسم على عدة ملتزمين • ولم يكن باستطاعة الملتزم أن يبيع شيئا من قراريط طين الفلاحة دون أن يبيع فى الوقت نفسه جزء مماثلا من قراريط طين الوسية •

وكانت أطيان الرسمية تبلغ نحو زمام القرية ، تزرع لحساب اما بطريق الايجار ، أو المشاركة على المحصول ، أو السخرة ، فيذكر الجبرتى : أنه « اذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الغفير أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير الى شغل الملتزم فمن تخلف لعذر أحضره الغفير أو المشد وسحبه من شنبه وأشبعه سبا وشتما وضربا » (١) •

أما طين الفلاحة فلم يكن للفلاح حق التصرف فى أثره (أى حقه فى زراعة الأرض الخراجية والانتفاع بجزء من محصولها) بالبيع أو الشراء فليس له الا حق الانتفاع بالأرض فهو يزرعها كيفما شاء وله محصولها وعليه أن يسدد المال المقرر عليها للملتزم الذى أنابه السلطان عنه فى ذلك ، فاذا لم يدفع الفلاح مال الأرض ، أو قصر فى واجبه فأصاب الأرض البوار ، رفعه الملتزم عن أثره وأعطاه لمن يشاء ، فاذا مات الفلاح انتقل أثره الى ذريته وأقاربه ، فان لم تكن له ذرية أو عقب ينتقل الأثر الى الملتزم يعطيه لمن يشاء مقـــابل حلوان • كذلك كان باستطاعة الفلاح أن يرهن جزءا من أطيانه الأثرية ، ليستعين بذلك على زراعة بقية أطيانه وعرفت هذه الأطيان المرهونة باسم « غاروقة » وكان له الحق فى استرجاعها عندما يتمكن من سداد قيمة الرهن • كذلك كان للفلاح الحق فمن تأجير أطيانه لمدة سنة فقط بالتراضى بينه وبين المستأجر ، كما كان له حق الاسقاط (أى التنازل عن الانتفاع بالأرض) لمن يشاء اذا حصل على موافقة الملتزم على ذلك (٢) •

وكان الفلاح المصرى — فى ظل نظام الالتزام ، مرتبطا بالأرض رغم أنه كان — من الناحية النظرية — باستطاعته أن يترك الأطيان وقتما شاء ، وأن ينقل حق الانتفاع الى غيره ، ورغم ما كان له من حرية اختيار المحاصيل التى يزرعها دون تدخل من جانب الملتزم الذى كان له (على حد تعبير حسين أفندى الروزمانجى) « أرض ولم يكن له عباد (٣) • كما كان ينص بالتمكين الذى

(١) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٠٧ •

(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع :

احمد أحمد الحته ؛ تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢٧ — ٣٠ •

جب وبون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، تعريب أحمد عبد الرحيم مصطفى ؛ دار المعارف ١٩٧١ • ص ٩٠ — ٩٣

Poliak, A.N. Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon 1250-1900, London, 1939, pp. 69-70.

(٣) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ؛ ص ٥٠ •

تعطيه الدولة للملتزم على ضرورة معاملة الأهالى « بالرحمة وعدم الظلم » (١) غير أن الملتزمين لم يراعوا ذلك ، فيذكر الجبرتى أن الفلاحين « كانوا مع الملتزمين أذل من العبد المشترى فربما أن العبد يهرب من سيده اذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب ، وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب واذا هرب الى بلدة أخرى واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهرا وازداد ذلا ومقتا واهانة » (٢) ٠

وبالاضافة الى الأطيان الخراجية أو الأثرية التى أخذ فيها بنظام الالتزام كان هناك شكل آخر من أشكال حيازة الأراضى الزراعية ، هو أطيان الرزق الاحباسية ، وهى أطيان أوقفها السلاطين على أعمال البر ودور العبادة ، أو أوقفها الملتزمون — بعد دفع مبلغ معين للدولة — لضمان بقاء ما فى حوزتهم من الأطيان لورثتهم (٣) ٠ ويشير الجبرتى الى أن هذا النوع من الأطيان يرجع الى أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى الذى « جعلها من مصاريف بيت المال ليصل الى المستحقين بعض استحقاقهم من بيت المال بسهولة ثم اقتدى به فى ذلك الملوك والسلاطين والأمراء ٠٠ فيبنون المساجد والتكايا والربط والخوانق والأسبلة ويرصدون عليها أطيانا يخرجونها من زمام أوسيتهم فيستغل خراجها أو غلالها لتلك الجهة وكذلك يربطون على بعض الأشخاص من طلبة العلم والفقراء على وجه البر والصدقة ليعيشوا بذلك ويستعينوا به على طلب العلم ٠٠ » ٠ وتظل الأطيان مرصدة على هذا النحو حتى فى حالة وفاة المنتفع ، اذ يقرر القاضى أو الناظر شخص المنتفع الجديد ، وكان ثمة ديوان خاص يتولى تسجيل هذا النوع من الأطيان عرف باسم « ديوان الاحباسية » حيث يوجد « ٠٠ لكل اقليم من الأقاليم القبلية والبحرية دفتر مخصوص عليه طرة من خارج مكتوب عليها اسم ذلك الاقليم ليسهل الكشف والتحرير والمراجعة عند الاشتباه وتحرير مقادير حصص أصحاب الاستحقاقات » ٠ وبقيت هذه الأطيان موقفة على الأغراض الخيرية التى خصصت لها طوال الحكم العثمانى وحتى عهد محمد على الذى أدخل تعديلا جذريا عليها ، وذلك فيما عدا بعض الحالات التى يتنازل فيها المستحقون لريع الرزقة عن بعض مالهم لصالح الملتزمين مقابل مبلغ من المال ، ويبدو أن الملتزم الذى يتم التنازل لصالحه ، كان يحل محل المستفيد الأصلى لحين سداده ما حصل عليه من مال ، والا أصبحت الرزقة « داخل الزمام » يدفع عنها الخراج (٤) ٠

وقد ظلت أوضاع حيازة الأراضى الزراعية على ما كانت عليه تحت حكم الفرنسيين ، ولا يقطع الجبرتى بأن النية كانت متجهة الى ادخال تعديل على نظام

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة

(٢) الجبرتى ، المصدر السابق ؛ جـ ٤ ، ص ٢٠٧ ٠

(٣) Poliak, A.N. : Op. cit., pp. 69-70.

(٤) الجبرتى ، المصدر السابق ؛ جمادي الأولى ١٢٢٤ ، جـ ٤ ؛ ص ٩٣ — ٩٤ ٠

الأراضي الزراعية ، ورغم أنه كان من أعضاء الديوان ، ويؤكد في معرض الحديث عن التغييرات التي أدخلها محمد علي فيما بعد أنه « .. وتملك الفرنساوية الديار المصرية فلم يتعرضوا لشيء من ذلك (١) .. » اشارة الى استمرار الأوضاع على ما كانت عليه . وان كان البعض يشيرون الى أن بونابرت كان يود اعادة النظر في قوانين الملكية والمواريث والضرائب (٢) .

وثمة بعض الشواهد التي توحي بذلك ، اذ يذكر الجبرتي أن الفرنسيين وضعوا نظاما لتسجيل الأملاك ، دون أن يحدد صراحة ما اذا كان المقصود بالتسجيل الأملاك العقارية (المباني) أم الأطيان الزراعية ، فيشير الى أن الفرنسيين « شرعوا في ترتيب ديوان .. وسموه محكمة القضايا .. ومحصله التحيل على أخذ الأموال كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك فاذا أحضروها وبينوا أوجه تملكهم لها اما بالبيع أو الانتقال لهم بالارث لا يكتفي بذلك بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه .. فان وجد تمسكه مقيدا بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ويدفع على ذلك الاشهاد بعد ثبوته وقبوله قدرا آخر ويأخذ بذلك تصحيحا ويكتب له بعد ذلك تمكين وينظر بعد ذلك في قيمته ويدفع عن كل مائة اثنين فان لم يكن له حجة أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فانها تضبط لديوان الجمهور وتصير من حقوقهم (٣) .. » وهو أمر لا يتعدى نطاق التسجيل والحصر دون ادخال تعديل على الأوضاع الراهنة .

وهناك أيضا ما يشير الى أن الفرنسيين فكروا في اصلاح نظام حيازة الأراضي الزراعية في عهد مينو الذي شكل لجنة لمساحة الأراضي الزراعية (مارس ١٨٠١) . وكان مشروعه يرمي الى الغاء نظام الالتزام ، وجعل أرض الوسية ملكا للملتزمين ، وأرض الفلاحة ملكا للفلاحين ، وتوحيد الضريبة على الأطيان واعطاء ملاك الأراضي مطلق الحرية في زراعة أطيانهم كما يشاءون (٤) . ونجد صدى ذلك في « عجائب الآثار » حيث يذكر الجبرتي في حوادث رجب ١٢١٥ ، أن بعض الملتزمين حضروا « يستغيثون بأهل الديوان ويقولون انه بلغنا أن جمهور الفرنساوية يريدون وضع أيديهم على جميع الالتزام .. وأنهم يستشفعون بأهل الديوان عند سارى عسكر أن يبقي عليهم التزاماتهم » ، وقد دارت بين الملتزمين وبين أحد الضباط الفرنسيين مساجلة ، ذكر فيها الملتزمون أن لديهم « الفرمانات والتمسكات من سلفكم بونابرته ومن السلاطين

(١) المصدر السابق ؛ ج ٤ ؛ ص ٩٤ .

(٢) هارلد ج. كرستوف ، بونابرت في مصر ؛ تعريف فؤاد الدراوس ، الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٤٦ .

(٣) الجبرتي ، المصدر السابق ؛ ربيع ثاني ، ١٢١٣ ؛ ج ٣ ؛ ص٣٠ .

(٤) أحمد أحمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ؛ ص ٤٤ .

السابقين ‥ وأنهم ورثوا ذلك عن آبائهم وأسلافهم وأسيادهم واذا أخذ منهم الالتزام اضطروا الى الخروج من البلد والهجاج وخراب دورهم ويصبحون صعاليك ولا يأتمنهم الناس » ٠

ويبدو أن الظروف التى كانت تواجهها الحملة الفرنسية فى مصر فى ذلك الحين ، كانت من الدوافع التى أدت الى العدول عن الغاء نظام الالتزام ، فنفى المسئولون ما تردد من اعتزامهم احداث التغيير ، فيشير الجبرتى فى حوادث شعبان ١٢١٥ انه قد « أجيب الملتزمون بابقاء التزامهم عليهم وأنكروا ما قيل من رفع أيديهم (عن التصرف فى التزاماتهم) وعوتب من صدق هذه الأكذوبة وان كانت قد صدرت عن الخازندار فانما كانت على سبيل الهـــذر أو يكون التحريف من الترجمان ‥ » ٠ وبذلك بقيت أوضاع حيازة الأراضى الزراعية على ما كانت عليه منذ الفتح العثمانى حتى تولى محمد على حكم فى مصر عام ١٨٠٥ ، فأحدث تغييرا جذريا فى نظام الأطيان الزراعية ٠

واذا كان الجبرتى قد أغفل تتبع تطور حيازة الأرض الزراعية قبل محمد على (ربما بسبب عدم حدوث تطور حقيقى فى تلك الحقبة) فلم يورد سوى شذرات متناثرة عنها ، لا تعطى تصورا للظروف السائدة حينذاك ، فانه يعد مرجعنا الأول عن التغييرات التى أدخلها محمد على على حيازة الأطيان الزراعية فى مطلع عهده ، فهو يتتبعها بدقة متناهية ، ويصف التعديل الذى طرأ ، ويشير الى ما كان سائدا من قبل باهتمام أكبر ٠

وكانت رغبة محمد على فى زيادة موارده المالية ، وفى بسط نفوذ الحكومة وسلطتها ، من أهم أسباب ذلك التغيير ، فقد كان الباشا فى حاجة ماسة الى الأموال لتثبيت مركزه فى مصر ، وتقوية نفوذه ، ومحاربة أعدائه ، ولكنه وجد أن أطيان الرزق معفاة من الضرائب ، وان الملتزمين يأخـــذون لأنفسهم جانبا كبيرا ، حتى أنهم حلوا محل سلطة الحكومة فى الريف ، لذلك ألغى محمد على نظام الالتزام ، كما وضع يده على أطيان الرزق ٠

ويتضح من الأخبار التى أوردها الجبرتى أن « محمد على » بدأ يدخل هذا التغيير فى رجب ١٢٢٣ (أغسطس ١٨٠٨) حين فرض على بلاد الوجه البحرى ضريبة سماها « كلفة الذخيرة » ، فكتب اليه الروزنامجى مبينا صعوبة تحصيل هذه الضريبة ، لأن الخراب أصاب الكثير من البلاد ، فأمره الباشا « بتحرير العمار بدفتر مستقل والخراب بدفتر آخر فلما فعل الروزنامجى ذلك أدخل فيها بلادا بها بعض الرمق لتخلص من الفرضة وفيهـــا ما هو لنفسه ، فلما وصلت اليه (الباشا) أمر بتوزيع ذلك الخراب على أولاده وأتباعه وأغراضـــه وعدتها مائة وستون بلدة وأمر الروزنامجى بكتابة تقاسيطها بالأســماء التى عينها له ‥ » فخرجت بذلك تلك البلاد من أيدى ملتزميها الأصليين ٠ وحدث فى نفس العام أن عجز ملتزمو اقليم البحيرة عن دفع الضرائب بسبب ســـوء

الأحوال المالية « .. فتظلموا واعتذروا بعموم الخراب فرفعوها عنهم وفرقها الباشا على أتباعه (١) .. » .

ثم أصدر الباشا أمرا فى جمادى الأولى ١٢٢٤ (يوليو ١٨٠٩) قضى بالغاء نصف فائض الالتزام الذى كان يأخذه الملتزم ، وربط المال الميرى على أطيان الوسية كغيرها من أطيان الناحية (٢) . وبذلك فقد الملتزمون نصف الفائض ، كما حرمت أطيان الوسية من امتيازها السابق حين كانت معفاة من الضرائب .

وفى صفر ١٢٢٥ (مارس ١٨١٠) فرض الباشا ضريبة استثنائية على القرى ، وتجاهل الملتزمين ، فلم يطلب منهم ـ كما جرت العادة ـ القيام بتحصيل هذه الضريبة من الفلاحين ، وفى ذلك يقول الجبرتى « .. ولم يعطوا بالمقادير لملتزمى الحصص كما كانوا يفعلون قبل ذلك فان الملتزم كان اذا بلغه تقرير فرضه تدارك أمره وذهب الى ديوان الكتبة وأخذ علم القدر المقرر على حصته وتكفل بها وأخذ منهم مهلة بأجل معلوم وكتب على نفسه وثيقة وأبقاها عندهم ثم يجتهد فى تحصيل المبلغ من فلاحيه .. » وواضح أن « محمد على » كان يمهد لاضطلاع الدولة بتحصيل الضرائب مباشرة من الفلاحين دون وساطة الملتزمين ، وخاصة أن الملتزمين كانوا عاجزين عن الوفاء بالفرض والمغارم التى كانت تترى فى عهد محمد على ، بسبب سوء أحوال البلاد وهرب الفلاحين من قراهم « .. حتى امتلأت البلاد الشامية والرومية من فلاحى مصر الذين جلوا عنها .. » وحين تظلم الملتزمون من الضريبة الجديدة ، طلب منهم تقاسيط التزاماتهم ، وبعد أن قام بفحصها حرم الكثير منهم من حصصهم ، وأعطى البعض تعويضا بقدر فائضها « على بعض الجهات الميرية من المكوس والجمارك التى أحدثوها » أى بعيدا عن مجال الزراعة والأرض ، ولم يعط البعض الآخر أى تعويض . كذلك اضطر بعض الملتزمين الى التنازل عن حصص التزامهم للحكومة نظير ما تراكم عليهم من الضرائب ، وكثيرا ما كانت حصص الالتزام لا تفى بالديون المتراكمة على الملتزم اذ « .. قد يبقى عليه الكسر ويصبح فارغ اليد من الالتزام ومديونا وقد وقع ذلك لكثير كانوا أغنياء ذوى ثروة فأصبحوا محتاجين من حيث لا يشعرون (٣) .. » .

وبعد مذبحة القلعة (١٨١١) التى قضى فيها على المماليك استولى محمد على على حصص التزامهم بالصعيد « فلم يبق لأربابها شيئا الا ما ندر وهو شىء قليل جدا ، واحتج فى ذلك باستيلاء الأمراء المصريين عليها عندما خرجوا من مصر (القاهرة) وأقاموا بالبلاد القبلية ، فوضعوا أيديهم على ذلك ، وأنه

---

(١) الجبرتى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٨١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٩٣ .
(٣) الجبرتى ، المصدر السابق : حوادث صفر ١٢٢٥ ؛ جـ ٤ ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

حاربهم وطردهم وورث ما كان بأيديهم بحق أو باطل وسموه الضبوط » • ولم يستثن من هذا الاجراء الملتزمين من غير المماليك ، فاذا طلب أحدهم « اذنا في التصرف وأخبر بأنه كان مفروجا عنه أيام استيلاء المصريين (بعض أمراء المماليك) وأثبت ذلك بالكشف من الروزنامة وغيرها فاما أن يؤذن له في التصرف أو يقال له نعوضك بدلها من البلاد البحرية ويسوف (محمد على) وتتمـــادى الأيام أو يحيل ذلك على ابنه ابراهيم باشا ويقول أنا (لا علاقة) لى في البلاد القبلية ، واذا ذهب لابراهيم باشا يقول له أنا أعطيك الفائظ فان رضى أعطاه شيئا نزرا ووعده بالاعطاء وان لم يرض قال له هات اذنا من أفندينا وكل منهما مرتحل أو مسافر (١) •• » •

وسرعان ما أسفر الباشا عن خطته الأساسية من حيث : الغاء نظام الالتزام الغاء تاما ، وقيام الدولة بتحصيل الأموال مباشرة من الفلاحين ، فأصدر في ربيع أول ١٢٢٩ (فبراير ١٨١٤) أمرا « يتضمن ضبط جميع الالتزام لطرف الباشا ورفع أيدى الملتزمين عن التصرف » في حصص التزامهم ، على أن يصرف ما تبقى من فائض الالتزام من الخزانة ، وتظل أطيان الوسية في أيديهم طوال حياتهم من اعفائها من الضرائب • ويعبر الجبرتي عن استيائه الشديد لهذا التطور الذى أدخل على نظام حيازة الأراضى الزراعية ، والذى ربما يكون قد أضير به بين من أضيروا ، حيث كانت له حصة التزام بابيار بالغربيـــة ، اذ يقول : « •• وما علموا أن البساط قد انطوى وكل قد ضل وأضل وغوى ومال عن الصراط واتبع الهوى وكلب الجور كشر أنيابه وعوى ولم يجـــد له طاردا ولا معارضا ولا معاندا (٢) •• » وذلك في معرض الحديث عن المعارضة المحدودة التى ثارت كرد فعل لذلك القرار •

فقد أثار ذلك الالغاء صغار الملتزمين الذين ظلوا بمنـــأى عن الاجراءات الســـابقة ، فاحتجوا لدى الكتخدا على هذا التصرف ، ولـــكن ذلك لم يجد نفعا (٣) ، وأصبحت الدولة على صلة مباشرة بالفلاحين ، فتدخلت في شئون الزراعة ، وحددت عدد الأفدنة التى يجب تخصيصها لهذا المحصول أو ذاك في كل قرية من القرى ، وأشرفت على صيانة الترع والجسور ، الى غير ذلك من مظاهر التدخل •

وكان لالغاء الالتزام أثر كبير على الفلاح المصرى ، فقد تخلص من مظالم الملتزمين ، حتى ان بعض الفلاحين كانوا يرفضون العمل لدى الملتزم بالأجر في أطيان الوسية التى بقيت بأيديهم بعد الغاء النظام « •• فيقول الحرفوش منهم اذا دعى للشغل بأجرته روح أنظر غيرى أنا مشغول في شغلى انتم ايش

(١) نفس المصدر ؛ حوادث ذى الحجة ١٢٢٧ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ •
(٢) نفس المصدر ؛ ص ٢٠٣ •
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٤ •

بقالكم فى البلاد احنا صرنا فلاحين الباشا (١) ٠٠ » ، وكان ذلك بمثابة رد الفعل لما كانوا يلاقونه من عنت الملتزمين وظلمهم ، ولكنهم بعدما أصبحوا « فلاحي الباشا » أصبحوا يواجهون ــ لأول مرة منذ قرون ــ سلطة الحكومة المركزية ويحسون بوجودها ، ولم يتبينوا بعد أن عمال الحكومة لن يكونوا أرفق بهم من عمال الملتزم ٠

وقد صحب هذا الالغاء التدريجى لنظام الالتزام تطورا تدريجيا أيضا لأطيان الرزق انتهى باستيلاء الدولة عليها ، وبدأت أولى الخطوات فى هذا الصدد ، فى جمادى الأولى ١٢٢٤ (يوليو ١٨٠٩) حين تقرر فرض المال على « الرزق الاحباسية المرصدة على المساجد والأسبلة والخيرات وجهات البر والصدقات » فطلب الباشا من كشاف الأقاليم حصر تلك الأراضى ، فكان على واضعى اليد على الرزق أن يتقدموا بسنداتهم الى الديوان لتجديدها ، فاذا لم يتقدموا فى ظروف أربعين يوما سقط حقهم فى الرزقة ٠ ويشير الجبرتى الى أنهم « ٠٠ ذكروا فى مرسوم الأمر علة وحجة لم يطرق الأسماع نظيرهما بأنه اذا مات السلطان أو عزل بطلت تواقيعه ومراسيمه وكذلك نوابه ويحتاج الى تجديد تواقيع من نواب المتولى الجديد (٢) ٠٠ » ٠ وبعد ذلك بنحو ثلاث سنوات (ذى الحجة ١٢٢٧/ديسمبر ١٨١٢) تقرر أن « يضبط جميع ٠٠ الرزق الاحباسية المرصدة على المساجد والخيرات الكائنة بمصر وغيرها من أوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم ومكاتبهم وصهاريجهم ووظائف المدرسين والمرتبين وغير ذلك ٠٠ (٣) » ومعنى ذلك أن الدولة حلت محل المنتفعين بتلك الأرزاق ، وهو ما يمكن استنتاجه من حوار ابراهيم باشا مع العلماء الذين احتجوا على هذه الخطوة ، اذ قال : « ٠٠ كشفت على المساجد فوجدتها خرابا والنظار عليها يأكلون الايراد والخزينة أولى منهم ويكفيهم أنى أسامحهم فيما أكلوه فى السنين الماضية والذى وجدته عامر أطلقت له ما يكفيه وزيادة وانى وجدت لبعض المساجد أطيانا واسعة وهى خروب ومعطلة والمسجد يكفيه مؤذن واحد وأجرته نصفان وامام مثل ذلك وأما فرشه وأسراجه فانى أرتب له راتبا من الديوان فى كل سنة ٠٠ » ٠ أما موقف الباشا من الرزق المرصدة على أعمال البر واطعام الفقراء والمحتاجين فكان مختلفا تماما ، اذ أصر على حصول الديوان على ريع تلك الأرزاق كاملا وحرمان أربابها منها ، ورفض ابراهيم باشا شفاعة العلماء فى ذلك ورأى أن « ٠٠ يشترون ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم أو يغلقون أبوابهم ويستقلون بأنفسهم وعيالهم ويقتصدون فى معايشهم فيعتادون وهذا الذى يفعلون تبذير واسراف ٠٠ والديوان أحق بهذا ٠٠ (٤) ٠

(١) المصدر السابق ؛ ص ٢٠٧ ٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٣ ــ ٩٤ ٠

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣ ٠

(٤) المصدر السابق ؛ ص ١٨٥ ٠

ولم يكد عام ١٨١٣ يبلغ غايته حتى كانت جميع أطيان الرزق تحت يد الحكومة ، وعند اجراء المساحة فى ١٨١٤ سجلت أطيان الرزق « باسم واضع اليد عليها واسم واقفها وزارعها » ، وفرضت عليها الضرائب كسائر الأطيان الخراجية ، وقامت الحكومة بمراجعة سندات تلك الأراضى ، فاذا استطاع واضع اليد على الرزقة اثبات أحقيته فيها سجلت باسمه ، واذا لم يستطع قيدت لديوان الروزنامجة كبقية الأراضى الخراجية . واستولت الحكومة على ما ظهر من الزيادة فى أطيان الرزق عند اجراء المساحة ، ووزعتها على الأهالى لزراعتها ، ولكن حق الوقف فيها بقى ثابتا (١) .

وارتبطت هذه التغييرات فى حيازة الأطيان الزراعية باجراء مسح شامل لكل الأراضى (المعمور) . ويؤكد الجبرتى أن عملية المساحة شملت « الأجران وما لا يصلح للزراعة وما يصلح من البور الصالح وغير الصالح » وهو أمر لا يقوم على صحته أو عدم صحته دليل ، فقد جرت العادة أن تمسح أراضى المعمور أى الأراضى الصالحة للزراعة فحسب ، على مستوى القطر كله ، وبالنسبة للقرى كل على حدة حيث كان المساح يتولى قياس الأراضى عقب الفيضان ليقدر مساحة زمام القرية ، وكان صراف القرية يحضر المسح ، ويسجل المقاييس ، ويقوم بتقدير الضريبة (المال الميرى) . وفى السنوات التى تضيق فيها مساحة المعمور لتعذر الرى (شراقى) بسبب انخفاض النيل أو زيادة فيضانه ، كان قائمقام الملتزم يشهد المسح ، فتقاس الأراضى غير المزروعة وتخفض نسبتها من المجموع الكلى للضرائب المقررة على القرية ، وان كان الميرى يظل كما هو دون تغيير (٢) ، اذ كان النقص يضاف فى الغالب الى المبلغ المطلوب فى السنة التالية حين تتحسن ظروف الزراعة (٣) .

وربما كان القياس الشامل للأراضى على عهد محمد على قد تضمن المعمور والبور حقا ، على نحو ما أشار اليه الجبرتى ، لأن طريقة تقدير الضرائب عدلت أيضا على عهد محمد على ، فأصبحت خمس فئات « بحسب جودة الاقليم والأرض » (على حد تعبير الجبرتى) قدر على الفئة الأولى ضريبة قدرها ١٥ ريالا ، والثانية ١٤ ريالا والثالثة ١٢ ريالا ، والرابعة ١١ ريالا ، والخامسة عشرة ريالات . ويرى الجبرتى أن هذا النظام الجديد للضريبة أدى الى مضاعفة ما كان على البلاد أن تدفعه من عشرة أضعاف الى نحو مائة ضعف ما كانت عليه قبل اجراء المساحة ، كما يفهم من قوله : « .. بحيث أن البلدة التى كان يفرض عليها فى مغارم الفرض التى كانوا فرضوها قبل ذلك فى سنيهم الماضية ويتشكى منها الفلاحون والملتزمون ويستغيثون ويبقى منها بواقى ويعجزون عنها ألف

---

(١) المصدر السابق ؛ ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) Lancret, M.A. : Mémoire sur le Système d'imposition territoriale, Description de l'Egypte, 1st ed, Tome II, p. 242.

ريال طلع عليهـــا في هذه اللفـــة عشرة آلاف ريـــال الى مائة ألف وأقل وأكثر .. (١) .

ولعل الزيادة التي ظهرت في زمام القرى عند اجراء المساحة كانت وراء هذا العبء الجديد الذى وقع على كاهل الفلاحين . فقد كانت مساحة الفدان ٤٠٠ قصبة قبل ذلك العهد ، وطول القصبة ٣٥٥ سنتيمترا ، أى أن مساحة الفدان كانت تبلغ ٥٩٢٩ مترا مربعا (٢) وفي مساحة سنة ١٨١٤ اعتبرت مساحة الفدان ٣٣٣⅓ قصبة أى ٤٢٠٠ مترا مربعا و ٨٣ سنتيمترا مربعا ، وبذلك تكون مساحة الفدان قد خفضت نحو ٢٣ر٦٪ عما كانت عليه من قبل ، وهو تقدير يقل قليلا عن تقدير الجبرتي لمقدار نقص مساحة الفدان حيث يذكر أن « الأراضى زادت في القياس بالقصبة التي قاسوا بها وحددوها مقدار الثلث أو الربع (٣) .. » وما زاد في مساحة زمام القرى استولت عليه الحكومة ، بما في ذلك الزيادة التي ظهرت في أطيان الرزق « فانهم مسحوها بقياسهم فما وجدوه زائدا عن الحد الأصلي جعلوه للديوان .. (٤) » ، وبذلك حول « محمد على » مصر الى مزرعة (حكومية) شاسعة ، تحت الادارة المباشرة للجهاز الحكومى ، واعتمد على العائد الذى أخذ يتدفق مباشرة على خزانة الدولة في الانفاق على مشروعاته الداخلية والخارجية .

أحـــوال الفلاحين :

كانت القرية المصرية ـ زمن الجبرتي ـ وحدة انتاجية مكتفية ذاتيا ، يحدد طبيعة الحياة اليومية فيها مجموعة من التقاليد المرعية ، فلم تكن تتأثر بالأحداث التي تقع خارج حدودها الا بالقدر الذى يمس سكان القرية بشكل مباشر . واقتصرت علاقة القرية بالسلطة على سداد الضرائب المقررة على الأرض وما ارتبط بها من ضرائب اضافية ، وفيما عدا ذلك كانت القرية تدار ذاتيا وفق تقاليد معينة ، اللهم الا اذا جد من الأمور ما يدعو عمال الملتزم أو رجال السلطة الى التدخل في شئونها (٥) .

وحينما يكون الالتزام واسعا ، يعين الملتزم عادة وكيلا قبطيا (مباشرا) يعاونه عدد من الكتبة الأقباط . وكان هذا المباشر يعين كل الصـــيارفة في الالتزام ويتبادل معهم المكاتبات ، ويخصص سجلات منفصلة لضرائب الأرض (الميرى) وللضرائب الاضافية الأخرى لكل قرية على حدة .

---

(١) الجبرتي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢) Girard, P.S. : Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte, Tome II, pp. 550-551.

(٣) الجبرتي ؛ المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٥) جب وبون ، المرجع السابق ؛ ص ٩٤ .

ودرج الملتزمون على تقسيم الالتزام الى حصص ، يعين على كل منها شيخ للبلد يتلقى أوامر الملتزم وينقلها الى الفلاحين الواقعين فى دائرة اختصاصه ، وكان على شيخ البلد أن يتولى الاشراف على زراعة حصته ، والحيلولة دون وقوع اهمال فى الزراعة قد يترتب عليه اضرار بمصالح الملتزم ، فاذا هجر الفلاحون أراضيهم ، كان على الشيخ أن يضمن الوفاء بما عليهم من ضرائب والاستمرار فى زراعة الأرض • فكان بكل قرية ـ سواء تولاها ملتزم واحد أو عدد من الملتزمين ـ مجموعة من شيوخ البلد على رأسهم « شيخ المشايخ » وهو يعد مسئولا عن ادارة القرية كلها لصالح الملتزم ، ويتولى الفصل فى المنازعات التى تنشب بين الفلاحين • واذا لم يكن بالقرية مباشر أو قائمقام ، كان شيخ المشايخ يمثل الملتزم أثناء غيابه ، وكانت مناصب الشيوخ فى الغالب وراثية (١) •

ولذلك كان شيوخ القرى بمثابة أدوات الملتزم بين الفلاحين ، يستخدمهم لضمان استمرار الزراعة وسداد الضرائب الأصلية والاضافية • واستغل الشيوخ هذا الوضع ، فتمادوا فى ظلم الفلاحين طالما كانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الملتزم ، فيسعدهم أن تتوالى مطالب الملتزم من المغارم والفرض لما يجنونه من فائدة شخصية ، حيث كانوا ينالون نصيبا من تلك المغارم والفرض • وكثيرا ما كانوا يوزعون نصيبهم فى الأعباء المالية والخراج على أطيان القرية ، فلا يتحملوا منها شيئا ، وسخر بعضهم الفلاحين فى زراعة أطيانهم (٢) •

وكانت أطيان الرزق مصدرا لاثراء بعض شيوخ القرى ، فكانوا يضعون أيديهم على الأرزاق التى مات أصحابها ، ويستأجرون أطيان الرزق بايجار زهيد ، ويستولون على الأرزاق الموقوفة على المساجد التى اندثرت • ويعطينا الجبرتى مثلا بارزا لذلك ، حين يذكر أن شمس الدين بن حمودة ـ أحد مشايخ برما بالمنوفية ـ كانت أسرته تضع يدها قبل التغيير الذى أدخله « محمد على » على « ألف فدان لا علم للملتزم ولا لغيره بها وذلك خلاف ما بأيديهم من الرزق التى يزرعونها بالمال اليسير وخلاف المرصد على مساجد بلادهم التى لم يبق لها أثر وكذلك الأسبلة وغيرها •• » هذا بالاضافة الى أطيانهم الأثرية (الخراجية) التى تدخل ضمن زمام القرية ويعلم بها الملتزم (٣) •

وكان بكل قرية صراف قبطى ، يعينه المباشر أو يعينه الملتزم فى حالة عدم وجود مباشر ، وكان يختص باستلام الدخل الذى يحصله مشايخ البلد من الفلاحين ، وكثيرا ما كان الصراف يغالط الفلاحين فى الحساب ، وكان باستطاعته أن يطلب من القائمقام حبس من يشاء من الفلاحين ، أو ضربه بحجة

---

(١) هيلين آن رفلن ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ؛ تعريب أحمد عبد الرحيم وآخر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ ؛ ص ٤٨ ـ ٤٩ •

(٢) الجبرتى ، المصدر السابق : ص ..

(٣) المصدر السابق : ص .. •

عدم قيامه بسداد ما بقى عليه من المال ، وحين يسدد الفلاح كافة ما عليه من ضرائب فانه يحصل على « الورد » وهو ايصال السداد ، فكان الصراف يماطل فى تسليم الورد حتى يراجع الحساب مرة أخرى « ٠٠ فلا يقدر الفلاح على مرادته تخوفا منه فاذا سأله بعد ذلك قال له بقى عليك حبتسان من فدان أو خروبتان أو نحو ذلك ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفى منه قدر المال أو يصانعه بالهدية والرشوة وغير ذلك ٠٠ (١) » ٠

وكان بالقرية أيضا بعض الأفراد الذين تولوا أعمـــالا تتصل بجباية الأموال ، مثل : « الشاهد » الذى كان فلاحو القرية يختارونه بموافقة الملتزم بشرط المامه بالقراءة والحساب ، ويعد ممثل الفلاحين الذى يرعى مصالحهم ، ويحتفظ بالسجل الذى يشتمل على معلومات تتعلق بطبيعـــة ومساحة زمام القرية ، وأسماء الفلاحين المكلفة عليهم الأطيان الأثرية ، وما يطرأ على ذلك من تغييرات (٢) ٠ غير أن الشاهد لم يكن يمثل مصالح الفلاحين الا اسما فقط ، اذ كان — على نحو ما يشير الجبرتى — شريكا للشـــيوخ والصراف فى ظلم الفلاح (٣) ٠ أما « المشد » و « الخفير » فيقومان بمهام تنفيذية ، أقرب ما تكون الى واجبات رجل الشرطة ٠

وارتبط نعيم الفلاح وشقاؤه بما تخرجه الأرض من مزروعات ، فاذا كان المحصول وفيرا تمكن الفلاح من سداد الضرائب والمغارم ، وبقى له فضل لقوته وتدبير عيشه ، أما اذا ضنت الأرض عليه بخيراتها ، فانه يعجز عن ســداد الضرائب والمغارم والفرض ، وتختل حياته ، وقد يهجر قريته هربا من المطالب التى تلاحقه ٠ ولعب النيل دورا كبيرا فى تحديد مجرى حياة الفلاح ، فهو حين يضن بفيضانه يكون الغلاء وتقع المجاعة ، ويترك الفــلاحون قراهم ، فيقصدون القاهرة طلبا للقوت ٠ ويصف الجبرتى مجاعة حدثت فى عام ١٦٩١ (١١٠٦ — ١١٠٧ هـ) فيقول : « واشتد الكرب حتى أكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع وخلت القرى من أهاليها وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ومن على رءوس الخبازين (٤) ٠٠ » ٠

وبرغم وقوع المجاعة نتيجة القحط ، وهجر الفلاحين للقرى ، الا أن الحكام كانوا يحتفظون بمخزون كبير ، جمعوه نتيجة نهب الريف فى سنوات الرخاء ، ففى ظروف هذه المجاعة ذاتها ، استطاع الوالى أن يجد مخرجا للأزمة عن طريق الزام المماليك وأعيان القاهرة باطعام الفقراء « ٠٠ فأمر بتوزيعهم على الأمراء والأعيان ، كل انسان على قدر حاله وقدرته ، وأخذ لنفسه جانبا ولأعيان

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ٠

(٢) هيلين آن رفلن ؛ المرجع السابق ، ص ٤٩ ٠

(٣) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ٠

(٤) المصدر السابق ؛ جـ ١ ؛ ص ٢٦ — ٢٧ ٠

دولته جانبا ، وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء الى أن انقضى الغلاء ٠٠ (١) » ٠

ويورد الجبرتى أيضا أخبار قحط شهدته البلاد فى عام ١٧٩١ (المحرم ١٢٠٦) فيشير الى ارتفاع الأسعار الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه « ٠٠ وذلك مع كثرة ورود الغلال ودخول المراكب وغالبها للأمراء وينقلونها الى المخازن والبيوت ٠٠ (٢) » ، ويقوم ذلك دليلا على أن الحكام لا يهتمون حينذاك بتحسين وسائل الرى تحسبا للسنوات العجاف ، قدر اهتمامهم بالاستيلاء على ثمرة كد الفلاح ، الى درجة أن الأخير يعجز عن أن يجد ما يقتات به وقت الشدة ٠

ويحفل « عجائب الآثار » بالكثير من الأخبار المتعلقة بالقحط ، وهجر الفلاحين للقرى ، وهبوط منسوب النيل ، حيث كان الناس مجتمعين على جبل الجيوشى للدعاء طلبا للاستسقاء ، وما يترتب على هبوط مستوى الفيضان من ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، التى يقدم لنا الجبرتى تسجيلا دقيقا لها ، يصلح مادة لمن يهتم بدراسة الحالة الاقتصادية للبلاد فى تلك الحقبة من الزمان ٠ وغالبا ما يكون القحط مصحوبا بانتشار الآفات الزراعية التى تفتك بما يتبقى من مزروعات ، ففى قحط عام ١٧٩١ « ٠٠ كثرت الفيران حتى أكلت الثمار من أعلى الأشجار والذى سلم من الدودة من الزرع أكله الفار ٠٠ (٣) » ٠

ولم يكن وقوع القحط والقصور فى تحسين وسائل الرى هو كل ما عاناه الفلاح المصرى من سوء الحكم فى تلك الحقبة من تاريخ مصر ، فقد عانى الريف المصرى الكثير من الضرائب الفادحة ، ومن هجمات البدو ٠ فبالاضافة الى الخراج أو المال الميرى ، كانت هناك ضرائب أخرى يقررها الحكام وفق هواهم ، عرفت بالبرانى ، وهى التى يطلق عليها الجبرتى اسم « المغارم والفرض » وهى كثيرة ومتنوعة ، تحمل أسماء متعددة وفقا لأهواء مقرريها ، ويذكر الجبرتى أن حسن باشا قبطان حين جاء الى أهل مصر أبطل هذه الضرائب الاضافية ، ولكن اسماعيل بك زين له اعادتها فأعادها تحت اسم « التحرير » وذلك فى وقت كان الفلاحون فيه يعانون من « ٠٠ موت البهائم وهياف الزرع وسلاطة الفيران الكثيرة على غيطان الغلة والمقاتى ٠ وغيرها (٤) » ٠

وقد انتظم أمر الضرائب فى عهد الحملة الفرنسية ، فأبطل الفرنسيون تحصيل الخراج لمدة عام مقدما ـ وكان ذلك شائعا من قبل ـ ولذلك لم يطالب الفلاحون ولا الملتزمون بالخراج عام ١٨٠٠ « فتنفست الفلاحون وراج حالهم

---

(١) المصدر السابق ؛ ج ١ ، ص ٢٧ ٠
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ؛ ص ٢٣٩ ٠
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ؛ ص ٢٤٠ ٠
(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٠ ٠

وتراجعت أرواحهم مع عـــدم تكليفهم كثرة المغـــــارم والكلف وحق طريق المعينين (١) » •

ولكن صلاح الأحوال لم يدم طويلا ، فبعد عودة العثمانيين الى مصر طالبوا الملتزمين والفلاحين بسداد الخراج عن سنوات الاحتــــلال الفرنسى ، وكلفوا الصيارفة الأقباط « بالنزول الى البلاد لقبض الأموال فى غير أوانهـا لطرف الدولة » (٢) ، وكثر اعتداء الجنود العثمانيين على الأهالى ، فكانوا يذهبون الى القرية ومعهم « ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهمونهم (الفلاحين) انهم حضروا اليهم بأوامر اما لرفع الظلم عنهم أو ما يبتدعونه من الكلام المزور ويطلبون حق طريقهم مبلغا عظيما ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الأغنام ويهجمون على النساء •• (٣) » ، ويقدر الجبرتى خراج الفدان الذى كان أصله ١٢٠ نصف فضة فى عام ١٨٠٢ (ذو القعدة ١٢١٦) بمبلغ ٤٠٠٠ نصف فضة ، وذلك بعد اضافة المغارم والفرض (٤) ، ومعنى ذلك أن الضرائب الاضافية كانت تزيد على مقدار الضريبة الأصلية (المـال الميرى) بنحو ٣٣ ضعفا ، وهو ما يفوق طاقة الفلاح : وفى مطلع عهد « محمد على » ازدادت حاجة الوالى الى الأموال ، ففرض الكثير من المغارم على الفلاحين « •• حتى خربت القرى وافتقر أهلها وجلوا عنها فكان يجتمع أهل عدة من القرى فى قرية واحدة بعيدة عنهم ثم يلحقها وبالهم فتخرب •• (٥) •• » • ويضيف الجبرتى (صفر ١٢٢٥) ان الكثير من الفـــلاحين لاذوا بالفرار الى الشـــام « •• حتى امتلأت البلاد الشامية والرومية من فلاحى مصر الذين جلوا عنها وخرجوا منها وتغربوا عن أوطانهم من عظيم هول الجور » (٦) •

ولذلك كان من الطبيعى أن يتمرد الفلاحون على هذا الوضع ، فيورد الجبرتى أخبار هبة بالقليوبية ، قام بها فلاح يدعى الشيخ سليمان فى عام ١٨٠٧ (جمادى الثانية ١٢٢٢) ، أخذ يدعو الفلاحين الى الامتناع عن دفع الضرائب ومقاومة الظلم ، فنجحت دعوته ، وانضم اليه الكثير من شباب القرى ، وأخذ أتباعه يحضون الفلاحين على عدم دفع الضرائب الاضافية قائلين لهم :
« •• لا ظلم اليوم ولا تعطوا الظلمة شيئا من المظالم التى يطلبونها منكم ومن أتاكم فاقتلوه •• » واستجاب لهم الفلاحون « فكان من ورد من العسكر المعينين الى تلك النواحى يطلب الكلف أو الفرض التى يفرضونها فزعوا عليه وطاردوه وان عاند قتلوه •• » ، واستفحل أمر هذه المعركة ، وبدأ اتباع الشيخ سليمان

---

(١) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١٩٤ •
(٢) نفس المصدر ، ص ١٩٥ •
(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٩ •
(٤) نفس المصدر : ص ٢١٠ •
(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٢
(٦) نفس المصدر : ص ٢١٠ •

يهجرون القرى ويقيمون الخيام ، وفشلت جهـــود الكشاف فى القضاء عليهم بالقوة ، فاتبعت الحيلة لتصفية تلك الحركة ، اذ استدرج زعيمها الى القاهرة وصحبه جمع من أعوانه بحجة الاستعانة بهم لاصلاح البلاد جميعا ، ثم قتل (١) وتفرق أعوانه أيدى سبأ •

وكانت هجمات البدو على الريف تشكل عنصر اضطراب فيه • ورغم أن بعضهم كان قد تحول الى الفلاحة ، غير أنهم لم يعدلوا عن عاداتهم القديمة ، فهم يستحوذون عنوة على أجود الأطيان ، ويحولون مياه الرى ، ويقطعون الجسور فى الوقت الملائم لهم ، غير عابئين بمصالح جيرانهم اذا آنسوا منهم العجز عن مقاومتهم ، ويدعون على الفلاحين نوعا من السيادة ، فيجبرونهم على أداء الخراج بدلا منهم ، كما يسلبون حاصلات القرى المجاورة لهم ، فكانت تلك القرى تشترى أمنها بمبلغ من المال تدفعه لهم على شكل اتاوة سنوية (٢) •

أما البدو الرحل فكان شرهم وبيلا ، اذ كانوا يهاجمون القرى وينهبون الحاصلات ، ويقتلون الفلاحين ويسرقون مواشيهم ، وكانوا ينشطون فى الفترات التى يضطرب فيها حبل الأمن فى البلاد • وقد رصد الجبرتى الكثير من تلك الحوادث فى عجائب الآثار •

ويكاد الجبرتى يغفل اغفالا تاما الاشارة الى أسلوب حيـــاة الناس فى الريف ، فليس لدينا سوى اشارة واحدة تعطينا صورة المجرى العام لحيـــاة أهل الفلاحة دون تفصيل ، اذ يذكر الجبرتى أن الفلاحين حين كانوا يفرغون من موسم الحصـــاد ويؤدون ما عليهم من الضرائب لملتزميهم ، ويرحل رجال السلطة كالكشاف وقائمقامى الملتزم والصيارف وغيرهم عن القرى « •• ترتاح نفوسهم (الفلاحين) وتجتمع حواسهم ويعملون أعراسهم ويجددون ملبوسهم ويزوجون بناتهم ويختنون صبيانهم ويشيدون بنيانهم ويصلحون جسورهم وحبوسهم •• » ، ويكون ذلك فى بداية موسم الفيضان ، حتى اذا فاض النيل أخذوا يزرعون المزروعات الشتوية كالبرسيم والقمح وغيرها (٣) •

واذا كان الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » قد عبر عن مجتمع المدينة بحكم نشأته بالقاهرة واقامته فيها ، الا أنه لم يغفل الريف اغفالا تاما ، وخاصة أنه كان من ذوى المصالح الزراعية ، لذلك نجده يركز بعض اهتمامه على الريف عندما بدأ « محمد على » يدخل تغييرا جذريا على أوضاع الحيازة الزراعية ، فراح الجبرتى يقارن بين ما حدث وما كان قائما من قبل ، فقدم لنا لمحات متناثرة للمجتمع الريفى من حيث حيازة الأراضى الزراعية ، وأحـــوال مجتمع أهل الفلاحة •

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦٣ ـ ٦٥ •

(٢) Girard : Op. cit., pp. 512-513.

(٣) الجبرتى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ •

مصر مركزاً للدراسات الإسلامية
فى عصر عبد الرحمن الجبرتى

للدكتور أحمد شلبى
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

المدرسة المصرية المبكرة للدراسات الاسلامية :

فى التقـــديم لدراستنا عن عصر الجبرتى ، وكيف كانت مصر مركزا للدراسات الاسلامية خلاله ، ينبغى أن نعود الى الوراء هنيهة لنرى المدرسة المصرية وهى تنشأ وتتطور فى خدمة العلوم بوجه عام ، والعلوم الاسلامية بوجه خاص .

لقد جذبت مصر الى رباها منذ مطلع الاسلام مجموعة من المحدثين والفقهاء الأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقل عن الوافدين اليها موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت مدرسة للدراسات الاسلامية ضارعت المدارس الأخرى فى مختلف العواصم الاسلامية ، وكان على رأس هذه المدرسة : عبد الله بن عمرو ابن العاص الذى يقال انه أسلم قبل أبيه ، وكان محدثا وفقيها ممتازا ، ويجىء بعده فقيه مصر وشيخها : يزيد بن أبى حبيب الذى وكل له عمر بن عبد العزيز أمور الفتيا ، وقد مات سنة (١٢٨ هـ ـ ٧٤٥ م) ، وعبد الله بن لهيعة الذى تولى القضاء بمصر حوالى عشر سنوات من سنة ١٥٥ هـ حتى وفاته ســنة (١٦٤ هـ (١) ـ ٧٨٠م) ، ثم الليث بن سعد الذى وصل القمة بين الفقهاء والمفكرين ، وكان سريا نبيلا فقيها ، يجيد الحديث والشعر ، وقد عرض عليه المنصور ولاية مصر فامتنع ، ولكنه كان أعلى مقاما من الوالى والقاضى ، وكان اذا رابه من أحد المسئولين شىء كاتب فيه الخليفة فيعزل ، وتوفى سنة ١٧٥ هـ .

ومن علماء مصر : سعيد بن عبد الله بن أسعد المعافرى (١٧٣ ـ ٧٨٩م) ، وعبد الرحمن بن القاسم بن جنادة (١٩١ هـ ـ ٨٠٦ م) وعبد الله بن وهب (١٩٧ هـ ـ ٨١٢ م) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٥ ـ ٨٣٠ م) وأبناؤه عبد الحكم

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .

(٢٣٧ هـ ـ ٨٥١ م) وعبد الرحمن (٢٦٨ هـ ـ ٨٨١ م) الذى خلف لنا كتابه القيم « فتوح مصر » .

وبرزت مصر بوجه خاص فى علم القراءات ، ومن علماء مصر المشهورين فى هذا المجال : عثمان بن سعيد (ورش) الذى ينحدر من أصل قبطى ، والذى انتهت اليه رياسة القراء بمصر ، وقد توفى سنة (١٩٧ هـ ـ ٨١٢ م) ومنهم كذلك : أبو يعقوب يوسف بن عمرو المصرى الذى خلف ورشا فى علم القراءات وقد توفى سنة (٢٤٠ هـ ـ ٨٥٤ م) .

ونهضت بمصر كذلك مدرسة اللغة والأدب والأخبار ، ومن زعماء هذه المدرسة ، حيى بن ناظر المعافرى المصرى (١٢٨ هـ) وأحمد بن يحيى التجيبى المصرى (٥٠٥ هـ) وعبد الملك بن هشام مؤلف سيرة ابن هشام الشهيرة (٢١٨ هـ ـ ٨٣٣ م) ، وسرج الغول الذى كان اماما فى العربية وعلوم الدين ، وكان معاصرا للشافعى ، وكان الشافعى يعجب به وبفصاحته (١) .

ويزدان العصر الاسلامى الأول ، بظهور ثوبان بن ابراهيم المصرى المشهور بذى النون المصرى وهو رائد المدرسة الصوفية ، وفى مطلع حياته تلقى العلم عن : مالك ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ، ثم صار وحيد زمانه فى العلم والورع والزهد ، واتجه ذو النون الى دراسة التصوف فجلى فيه ، ولكن أهل مصر أنكروا عليه اتجاهه وشكوه للخليفة المتوكل ، فطلب الخليفة أن يرسل له مقيدا ، ولكن ذا النون لم يأبه ولم يخف ، وراح وهو فى القيد يقول : هذا من هبات الله تعالى وعطاياه ، وكل فعاله عذب حسن طيب ، وأخذ ينشد :

لك من قلبى المكان المصون

كل لوم على فيك يهون

ولما أدخل على المتوكل وعظه حتى أبكاه . فأطلق الخليفة وثاقه وأعاده مكرما (٢) . ويعتبر ذو النون من مؤسسى مذهب البيض والعقيدة الصوفية .

وبجانب الدراسات الاسلامية والأدبية والتصوف ، كانت بمصر دراسة علمية شملت الطب والكيمياء ، وممن تذكر أسماؤهم فى هذا المجال : أبحر الطبيب ، الذى كان بارعا فى الطب ابان خلافة عمر بن عبد العزيز ، وذو النون المصرى الذى يروى أنه اشتغل بالفلسفة والكيمياء بجانب التصوف .

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ؛ ص ٢٥٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

المدرسة المصرية فى عهد الدولة المستقلة

ثم ألقت الظروف على مصر عبئا جديدا خلال العصور العباسية المتأخرة والعصور التى جاءت بعد العصر العباسى ، فان الحركات السياسية والمذهبية التى ألمت ببغداد بعد العصر العباسى الأول صبغت العاصمة العباسية بالدم والقلق ، فقد جاء عصر الأتراك المماليك ، فعصر بنى بويه ، واختفى خلال هذه العصور نفوذ الخلفاء وهان شأن الكثيرين منهم ، ولا تزدهر الثقافة فى هذا الجو الصاخب المضطرب ٠

وبينما كانت بغداد تنحنى أمام هذه العواصف ، كانت مصر تنال نوعا من الاستقلال وصل فى أكثر الأحيان الى اكتماله ونضـــجه ، فالطولونيون والأخشيديون استقلوا بمصر ، واهتم هؤلاء وأولئك بالعلوم والمعارف ، وجذبوا الفقهاء والباحثين ليعيشوا فى كنفهم ، وأســـبغوا عليهم ألوانا من الخيرات ومنحوهم أسمى مكانة ، ثم جاء من بعـــدهم الفاطميون ، ولم يكن هؤلاء تابعين لبغداد بطبيعة الحال ، بل كانوا منافسين لها ومحاولين أن يسيطروا عليها أحيانا ، ومن ثم « وجهوا عنايتهم الى ألوان من خدمة العلوم والمعارف ، فأنشأوا الأزهر ، وأنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة ينافس بها ، أو يرث بها بيت الحكمة الذى كان ببغداد ، حقيقة أن الأزهر كان يعلم التشيع فى وقت ما ، ولكن الذى لا شك فيه أن الأزهر سرعان ما خدم ألوان الثقافات المختلفة فى شتى الميادين ، وظل على مر القرون المنارة التى يشع ضوؤها على الاسلام والمسلمين فى كل الأنحاء ٠

مصر تفتح بابها لعلماء الشرق والغرب

ثم حلت مجموعة من الكوارث بأكثر أقطار العالم الاسلامى ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، فشملت قلبه وجناحه الأيمن وجناحه الأيسر ، فسوريا قلب لهم بها عدة امارات ، وبقيت المناطق التى لم يصبها الاحتـــلال مهددة تدافع عن نفسها ، وظلت الحروب حوالى القرنين من الزمان ، وضعف سير الحضارة وتوانى نشاطها ، وقد حاول الصليبيون أن يمدوا نفـــوذهم الى مصر ولكن محاولتهم كانت قليلة النجاح قصيرة العمر ، فبقيت مصر يتمثل بها جانب النشاط العلمى الذى كان يعم سوريا ومصر قبل هذه الحروب ٠

وحلت الكارثة الكبرى بالجناح الشرقى أيضا ، وهى كارثة زحف التتار على بغداد وسوريا ، وقد صحب التتار معهم الدمار أينما حلوا وكانوا أعداء للثقافة والحضارة ، فقضوا على كل شىء ، وأزالوا معالم المجد التى كانت بعاصمة الرشيد ، وكثيرا من معالم دمشق ٠ أما العلماء الذين فروا من هذا السيل الجارف ، ومعهم بعض الكتب فلم يجدوا لهم وجهة الا مصر ، ولم يستطع الا جيش مصر أن يوقف زحف التتار ويقلم أظفارهم فى « عين جالوت » ، وحرس جيش مصر بذلك حضارة الاسلام وثقافته وبقية رجاله الباحثين فيه ٠

وقريبا من الوقت الذى زحف فيه التتـــــار من الشرق كان الأسبان والبرتغاليون يرمون بحممهم على الادارات الاسلامية بالأندلس ثم على الشمال الافريقى ، وهو الجناح الغربى ، فيقضون على استقلاله ويحاربون الثقــــافة الاسلامية به ، ومرة أخرى فر أمامهم من استطاع النجاة من العلماء ، ومرة أخرى لم يجد هؤلاء الا مصر وطنا طيبا وملاذا كريما ٠

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكرى فى العالم الاسلامى كله ، وشاع ذلك المثل الذى يتردد فى كثير من الأقطار الاسلامية والذى يقول : من لم ير مصر لم ير عز الاسلام ٠

وحملت مصر مسئوليتها بكفاءة وجدارة ، على الرغم من أن المماليك آلت لهم السلطة بعد الدولة الأيوبية ، وكان أكثر هؤلاء لا يستمتعون بعقلية علمية ، أو عبقرية تشييد وتعمير ، ولكن العلماء أقاموا سلطانهم ٠

وجاءت الدولة العثمانية بعد سلاطين المماليك ، وكان عهدا حافلا بالصراع الداخلى والصراع الخارجى ، ولم تكن عقلية القادة العثمانيين بناءة أو خلاقة ، فمثلوا فى المجال الثقافى الدور الذى مثله المماليك قبلهم ، أو قل بتعبير أدق : ان المماليك والعثمانيين امتزجوا معا ، وكانوا فى مستوى متقارب من حيث الثقافة والفكر ، ولكن الشعب المصرى حمل مسئوليته الفكرية بنجاح ، وقد عاصر الجبرتى هذه الفترة التى سنحاول أن نعرض أشعة الفــــكر الاسلامى خلالها ، لنراها وهى تثبت جذورها وتنمو فروعها على الرغم من الاضطراب السياسى الذى كان سائدا آنذاك ٠

ملامح عصر الجبرتى

لقد عاصر الجبرتى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ مصر ، عاصر الصراع بين المماليك والعثمانيين على الحكم ، وعاصر الحملة الفرنسية وهى تقتحم البلاد ، وتتخذ صورا مختلفة لتخدع السكان ولتنسيهم دون جدوى مرارة الاستعمار ، وعاصر الفترة التى تلت خروج الحملة الفرنسية من مصر ، حيث بدأ صراع جديد ضد أرض الكنانة ، كان المماليك والعثمانيون والانجليز أبرز أطرافه ، ولكن الجبرتى عاصر شيئا أهم من ذلك كله ، ذلك هو بدء بروز الشخصية المصرية على عهد محمد على ، فان مصر ارتبطت بتركيا باسم الاسلام ، ولذلك لم تعمل مصر بحماسة للتخلص من العثمانيين على الرغم مما عانته منهم ٠

أما صلة مصر بالمماليك فكانت صلة تنبعث من الاعتقاد السائد بأن المماليك ليسوا أغرابا عن البلاد ، وهم فى مصر لا وطن لهم سواها ، ومن هنا يسميهم الجبرتى « الأمراء المصريين » ومن هنا كذلك كان لفيف من العلماء يعمل على تصفية الخلافات التى تنشأ بين بعضهم والبعض الآخر ٠

وجاء الفرنسيون وقد أساءوا فهم هذا التصرف المصرى الذى أشرنا اليه ، فاعتقدوا أن المصريين ميالون للسلم ، وأنهم سوف يرحبون بأية سلطة تحل محل العثمانيين والمماليك ، وبخاصة اذا كانت هذه السلطة أفضل من هؤلاء وأولئك ، وكانت هذه غلطة كبرى دفع الفرنسيون ثمنها غاليا ، لأنهم لم يدركوا الأسباب الحقيقية لمسالمة المصريين للعثمانيين والمماليك .

ولكن الاحتلال الفرنسى فتح عيون المصريين على شىء مهم فيما يتعلق بعلاقتهم بالعثمانيين والمماليك ، فان هؤلاء وأولئك هزموا أمام الفرنسيين وتركوا مصر وحدها فى الصراع ضد المستعمر الفرنسى ، وحمل المصريون العبء فى هذا الصراع ، ولم يكن معهم سلاح يؤبه به ، ، واشتركت مدن مصر وقراها فى الثورة على الفرنسيين ، واشتركت فيها كل طبقات الشعب ، وعندما حقق المصريون أملهم فى اجلاء الفرنسيين لهذا تهدأ ثوراتهم بعد ذلك ضد أولئك الذين خدعوهم حتى أعانوا محمد على تولى أمور البلاد من قبل وهم العثمانيون والمماليك ، وكان العلماء قادة هذا التحول الكبير ، وقد آن لنا أن نعيش مع هؤلاء العلماء ، لنرى كيف كانت مصر مركزا مهما للدراسات الاسلامية خلال هذا العصر الطويل عصر مؤرخ مصر الكبير عبد الرحمن الجبرتى ؟ .

المراكز الثقافية بمصر فى عصر الجبرتى

والمراجع التى بين أيدينا تصور لنا مدى النشاط الفكرى الذى كان موجودا بمصر فى تلك الفترة ، فتتحدث عن مراكز ثقافية تقف معالم شاهقة لخدمة الدراسات الاسلامية هنا وهناك ، كما تتحدث عن الباحثين والطلاب .

والمراكز الثقافية تنوعت فى هذا العصر ، فمنها المدارس ، ومنها المساجد والزوايا ، ومنها بيوت العلماء التى نافست هذه وتلك فى اشعاعاتها ، ويعد الأزهر قطب الرحى وقمة المراكز الثقافية بمصر ، فمن الواضح أن الأزهر واصل رسالته العظمى خلال هذا العصر كما واصلها خلال العصور المختلفة ، ووقف جامعة شاهقة ترعى كل العلوم الاسلامية ، وتحرس الاسلام والوطن الاسلامى ولن نطيل هنا حديثنا عن الأزهر ، فالأزهر جامعة الشرق الأوسط منذ أسس حتى اليوم ، ولنترك الأزهر لشهرته لنعايش بعض المراكز الثقافية الأخرى التى كانت تعد فى الواقع فروعا للأزهر .

المدارس :

فى مقدمتها مدرسة أبى الذهب ، تقف عملاقة بين مدارس هذا العصر ،

ويذكر الجبرتى (١) أن أبا الذهب (١١٨٩هـ ــ ١٧٧٥م) بناها تجاه الجامع الازهر ، وكان محلها خرائب اشتراها أبو الذهب من أربابها ، وأمر ببناء مدرسته فيها ، ورتب لنقل الأتربة وحمل الجير والرماد والطين عددا كبيرا من قطارات البغال والجمال ، واستعمل فى بنائها الأحجار العظيمة ، وتم بناؤها سنة تسع وثمانين ومائة وألف ، وقد نقشت هذه المدرسة بأجمل الألوان والأصباغ وأعدت لها نوافذ عظيمة كلها من النحاس الأصفر الجيد الصنع ، وكان للمدرسة فناء فسيح مفروش بالرخام والمرمر ، فى وسطه نافورة بديعة الصنع وحول الفناء مساكن للمتصوفة والطلاب ، وأعدت فيها أمكنة للمفتين الكبار ليجلسوا بها حصة من النهار لافادة الناس بعد املاء الدروس وخصص بهـا أماكن للدراسة كانت غـاية فى الروعة والابداع ، وقرر أبو الذهب فى مدرسته : الشيخ أحمد الدرديرى مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية ، والشيخ حسن الكفراوى مفتى الشافعية ، وكان هؤلاء يقومون بالتدريس الى جانب الافتاء ، وعين معهم مجموعة كبيرة من المدرسين من علماء الأزهر مثل الشيخ على الصعيدى، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ أحمد يونس، والشيخ أحمد السمنودى ، والشيخ على الشنويهى ، والشيخ محمد الحفناوى ، والشيخ محمد الطحلاوى ، والشيخ حسن الجداوى ، والشيخ أبو الحسن القلعى ، والشيخ البيلى ، والشيخ محمد الحريرى ، والشيخ منصور المنصورى ، والشيخ أحمد جاد الله ، والشيخ محمد المصيلحى . وعين فى وظيفة التوقيت الشيخ محمد الصبان ، وجعل بها خزانة كتب عظيمة ، ورتب للمدرسين الرواتب السخية التى تتفاوت بحسب أقدارهم ، كما رتب للطلبة رواتب طيبة ، وقد افتتحت المدرسة بصلاة الجمعة فى مسجدها ، وعقب انقضاء الصلاة ألقى الشيخ الصعيدى درسا ، ولما فرغ منه ، قدم الأمير لكبار الشيوخ الخلع الثمينة ، كما أنعم على الخدم والمؤذنين بقطع الذهب والمساعدات الكبيرة .

ومن المدارس الشهيرة بهذا العصر المدرسة الصالحية التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ونسبت له ، وكانت المدارس الصلاحية منتشرة فى أنحـاء شتى بالبـلاد ، ومنها المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الامام الشافعى ، وكان يتولى التدريس بها الشيخ الصاوى ، الذى رشـح لمشيخة الجامع الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى ، وكان ينافسه فى هذا الترشيح الشيخ عبد الله الشرقاوى ، واستقرت الوظيفة لهذا وبقى الصـاوى مدرسا بالمدرسة الصلاحية مما يدل على مكانة هذه المدرسة ، ويقول الجبرتى (٢) : ان شيخ الأزهر لا تتم له مكانته الا اذا كان مدرسا بالصلاحية ، وقد لعبت الصلاحية دورا كبيرا فى خدمة الفكر الاسلامى وتخرج منها كثير من الشيوخ والقادة والمفكرين .

---

(١) تاريخ الجبرتى : ج ٤ ؛ ص ٤١٨ وما بعدها .

(٢) الجبرتى : ج ٤ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

ومن مدارس ذلك العصر ، مدرسة الأشرفية التى كان يعلم بها الامام محمد بن أحمد الخالدى الشهير بابن الجوهرى (١١٨٢ هـ ـ ١٧٦٨م) ، ويذكر الجبرتى (١) أنه كان يميل الى التعفف والانجماع عن خلطة الناس والتزهد عما بأيديهم فأحبه الناس لذلك وصار له أتباع ومريدون كانت المدرسة تمتلىء بهم ، وكان منهم مجموعة كبيرة من علماء العصر الذين نهلوا من فيض علمه ، ثم راحوا يعلمون هنا وهناك ، خالقين امتدادا فكريا لشيخهم فى عدد من الأماكن والمعاهد •

وهناك مدارس كثيرة على هذا النمط تحدث الجبرتى عن نماذج كثيرة منها ، فلندعها الآن لنتحدث عن طائفة أخرى من المراكز الثقافية ، وهى : المساجد والزوايا •

المساجد :

وعن المساجد نذكر حقيقة كثيرة التردد ، هى : أن القاهرة كانت تعرف بأنها مدينة الألف مئذنة ، ومعنى ذلك أن المساجد كانت بمصر فى عصر الجبرتى كثيرة كثرة بالغة ، كما لا تزال حتى اليوم ، وكان أكثرها يتبع الفكر الاسلامى الأصيل عن المساجد ، وهى أنها ليست دور عبادة فقط ، وانما يمكن أن تسمى مجمعات فكرية ودينية فكان يتم فيها التقاضى والتعليم ، وفى بعض زوايا مكاتب لتعليم الأطفال ، كما كان يوجد بها منازل للطلاب الغرباء • والدارس لعصر الجبرتى يجد صعوبة كبيرة لاختيار نماذج لهذه المساجد ، فانها كانت كلها مصادر فكر واشعاع ، جلس بها العلماء ، وتحلق حولهم الطلاب ، وكان التعليم يدور بها من وقت مبكر يبدأ بعد صلاة الفجر وأحيانا قبل الصلاة ، ويستمر طيلة اليوم تقريبا ، وفى بعض المساجد كانت هناك حلقات متعددة مختلفة المناهج والعلوم ، ولذلك كان يطلق على كل شيخ من شـــيوخ هذه المساجد لقب : « شيخ عمود » فبجوار الأعمدة المتعددة كان يجلس عدد من العلماء •

على أن هناك مساجد كان لها صيت أوسع فى مجال التعليم ، وكانت تمثل جامعات علمية بجوار مكانتها كمساجد ، ومن هذه : جامع عمرو وجامع شيخون ، ومسجد الامام الشافعى ، وجامع المحمودية • ونعطى فيما يلى نموذجا لواحد من هذه المساجد هو : جامع المشهد الحسينى ، ففى هذا المسجد تصدى للاقراء والتدريس مجموعة عظيمة من شيوخ العصر وفطاحل المفكرين ومن هؤلاء : الشيخ سليمان بن عمر العجيلى المعروف بالجمل (٢) (١٢٠٤ ــ ١٧٨٩) وينسب العجيلى الى منية عجيل احدى قرى محافظة الغربية ، حيث تلقى مبادىء

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ، ص ١٦٤ •

(٢) الجبرتى : جـ ٢ ؛ ص ١٨٣ •

العلوم الاسلامية ، وقد جاء الى القاهرة لمزيد من التعمق فى الدراسات الاسلامية فلازم الشيخ الحفنى فشملته بركته ، وأخذ عنه فكره واتجاهاته الصوفية ، كما تفقه على غيره من فقهاء العصر ، حتى برع وعظم شأنه ، فنوه به الشيخ الحفنى وجعله اماما وخطيبا بالمسجد الملاصق لمنزله على الخليج ، ثم علت به همته فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى وكان يعلم الفقه والتفسير والحديث ، وكثرت عليه الطلبة يدونون من املائه وتقريراته ، وقرأ المواهب والشمائل ، وصـــحيح أن البخارى وتفسير الجلالين بهذا المشهد بين المغرب والعشاء ، وكان يحضر دروسه أكابر الطلبة وتوفى سنة (١٢٠٤ هـ ـ ١٧٨٩ م) وبعد الشيخ سليمان جلس أخوه الشيخ عبد الرحمن مجلسه يعلم أيضا على نمط ما كان أخوه يفعل ، وقد جذبت حلقته كثيرين من مجاورى الأزهر والعامة ، وكان خير خلف لخير سلف (١) ومن هؤلاء أيضا : الشيخ عبد الوهاب الشبراوى (١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م) الذى تفقه على علمـــاء العصر ، وحضر دروس الشيخ عبد الله الشبراوى ، والحفنى ، والبراوى ، والأجهورى ، وغيرهم ثم تصدر للاقراء والتدريس والافادة بالمشهد الحسينى ، وكان يحضر دروسه جمع غفير من الناس ، وكان شديد الميل لتدريس كتب الحديث : كالبخارى ومسلم ـ كما يقول الجبرتى (٢) ـ حسن الالقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلا على شأنه • ويذكر الجبرتى كذلك أن الرجل لم يعط جهده كله للعلم ، وانما اتجه كذلك لخدمة الوطن عن طريق السياسة فأقام المظاهرات ضد الفرنسيين ابان احتلالهم للبلاد حتى أصبحت مجالسه منابع للثورات ومصادر قلق للمستعمر ولم يجد الفرنسيون بدا من القبض عليه وقتله ، كما أخفوا قبره حتى لا يكون ذلك القبر مصدر ازعاج لهم كما كان صاحبه فى حياته ، ولكن روح الشيخ ظلت تدفع تلاميذه ومريديه ليقاوموا المستعمر الأثيم حتى كتب للمصريين النصر •

ومن المساجد الشهيرة كذلك : مسجد كتخدا بالأزبكية ، وقد جلس فيه مجموعة كبيرة من العلماء والمفكرين يعلمون العلم وينشرون المعرفة ، ولعل فى قمة هؤلاء : الشيخ محمد عبد المعطى الحريرى (١٢٢٠هـ ـ ١٨٠٥م) ، ويذكر الجبرتى (٣) : أنه اشتهر فى مطلع حياته بجودة الخط ، فكان ينسخ بعض الكتب لكبار الشخصيات ، ويأخذ على ذلك أجرا عاليا ، وكان شافعى المذهب ثم تحنف وحضر على أشياخ المذهب مثل : الدلجى والعدوى ولازم الشيخ حسن المقدسى ملازمة كلية ، وانتسب له وعرف به ، وتلقى عنه الكتب المشـــهورة فى المذهب ، كما تلقى باقى العلوم على : الملوى ، والحفنى ، والشيخ على العدوى ، وكان يكتب الأجوبة عن الفتاوى على لسانه ، ولما توفى الشـــيخ

(١) الجبرتى : ج ٤ ، ص ٢١٦ •
(٢) الجبرتى : ج ٣ ، ص ٦١ •
(٣) الجبرتى : ج ٣ ؛ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ •

العدوى أخذ مكانه بجامع كتخدا بالأزبكية ، وسكن بالدار المخصصة للمدرس ، وكانت فى رحاب الجامع المذكور • وكان شديد التأثير فى دروسه حتى كان وعظه شديد الوقع على الناس لخلوه من التصنع ، وقد قصده الناس طلبا للفتوى والافادة من كل مكان وأقبلت عليه الدنيا ، وكان مرتبه عاليا من وقف عثمان كتخدا ، وانحصرت فيه وظائف الحنفية : كالتدريس فى مدرسة المحمودية ، والمحمدية ، وغيرها • فكان يجلس فى بعضها بنفسه وينيب عنه من يعلم فى المدارس الأخرى ، وكان مسموع الكلمة لدى الأمراء عظيم الهيبة بينهم ، ولذلك ترى عتقاء أحمد أغا يتفقون على اختياره ليكون حكما بينهم عندما دبت المنازعات بينهم بعد موت سيدهم •

الزوايـــا :

ومن المراكز الثقافية فى هذا العصر ، الزوايا ، وهى مكان كان ينشـــأ بجوار المساجد غالبا ، وكانت الدراسة فى الزوايا تميل للاتجاهات الصوفية ، بالاضافة الى الدراسات الاسلامية العامة ، وقد حفلت مصر فى عصر الجبرتى بمجموعة كبيرة من الزوايا من أهمها : زاوية الخضرى التى جلس فيها الشيخ أحمد الحمامى الشافعى (١١٨٦هـ ــ ١٧٧٢م) الذى تتلمذ على الشيخ البراوى حتى مهر وتفقه ، ثم التحق بحلقة الشيخ الشمسى الحنفى ، والشيخ على الصعيدى وغيرهما ، ثم تصدى للتدريس والافتاء فى حياة شيوخه ، متخذا من زاوية الخضرى مركزا علميا توافد عليه فيه طلابه ومريدوه (١) ، ومنهـــا كذلك الزاوية التى كانت قريبة من المشهد الحسينى ، وكان يجلس فيها كثير من العلماء من أهمهم : الشيخ أحمد بن شاهين الراشدى (١١٨٨هـ ــ ١٧٧٤م) الذى ينسب الى بلدة راشدية بالغربية ، وكان بارعا فى الحساب والفرائض وهو من تلاميذ الشـــيخ حسن الجبرتى ، وكان حسن التلاوة للقرآن الكريم ، حلو الأداء ، مع معرفته بأصول الموسيقى لذلك اتصل به كثير من الأمراء ، ويقول عنه الجبرتى (٢) : ان قراءته كان مثل سلاسل الذهب فى حسن السبك ، وقد انتفع به كثير من الأعلام ، وكان يمتاز بكمال العفة والوقار ، وكان الناس يتمنون أن يسمعوا تلاوته ، وقل منهم من حصل على ذلك بسبب الزحام الذى كان يحيط به •

ومن الزوايا الشهيرة : الزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة ، وقد أنشأها الشيخ الوافى الشافعى السندوبى (١١٩٩ هـ ــ ١٧٨٤ م) وجلس بها حيث تجمع حوله عدد كبير من المريدين ، وعقب وفاته جلس ابن أخيه عبد الله ابن ابراهيم مكانه ، وقد تلقى هذا مختلف المعارف عن عمه ، وعن الشيخ أحمد الجالى ، وكان يميل للانجماع عن الناس ، فلا يقوم لأحد ولا يدخل دار

---

(١) تاريخ الجبرتى : جـ ١ ، ص ٣٧٥ •

(٢) تاريخ الجبرتى : جـ ١ ، ص ٤٠٩ •

أحد ، ويذكر الجبرتى (١) أنه نزل ضيفا على الشيخ وهو فى طريقه الى دمياط سنة (١١٨٩ هـ ـ ١٧٧٥ م) ، ويقول الجبرتى انه دخل على الشيخ فى حجرته فوجده نيرا بشوشا ، رحب بضيوفه من العلماء ، وقدم لهم ألوانا من الحلوى والشراب ، ويختتم الجبرتى كلامه عنه ، بأنه مات ولم يخلف بعده مثله •

ولعل من أبرز الزوايا بالقاهرة : زاوية الشيخ الدردير (١٢٠١ هـ ـ ١٧٨٦ م) الذى كان أوحد وقته فى الفنون العقلية والنقلية ، كما يقول (٢) ، وكان شيخ الاسلام وبركة الأنام ، وقد أسس زاوية بخط الكعكيين ، وسبب انشائه لهذه الزاوية أن مولاى محمد سلطان المغرب كانت له صلات وهبات يرسلها لعلماء الأزهر وأهل الحرمين من حين الى حين ، وفى سنة ١١٩٨ هـ ـ ١٧٨٣ م) أرسل هبة من هذه الهبات للشيخ الدردير ، وتصادف عندما تلقاها الشيخ الدردير أن كان بمصر ابن لمولاى محمد سلطان المغرب ، وكان هذا عائدا من الحج ونفد ما معه من النفقة والأموال ، ولما عرف الشيخ الدردير ذلك أسرع الى ابن السلطان وقدم له العطية التى أرسلها أبوه ، وقال : كيف لنا أن نتفكه فى مال الرجل وابنه يعانى من الحاجة ، ولما عرف السلطان ذلك أرسل للشيخ عشرة أمثال الهبة مجازاة للحسنة بعشرة أمثالها ، فبنى الشيخ الدردير هذه الزاوية •

بيوت الوجهاء والعلماء :

وهناك مراكز ثقافية واسعة الانتشار كبيرة الفائدة ، وهذه المراكز هى بيوت العلماء والأمراء ، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يعدوا البيوت مكانا صالحا للتعليم العام ، لأن السكان والطلاب جميعا لا يجدون الراحة واليسر فى التوفيق بين هدوء البيت وجلاله ، وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط (٣) ، على الرغم من ذلك اقتضت الضرورة أحيانا أن تقام الحلقات العلمية بالمنازل ، لأن ذلك كان مفخرة لأصحاب البيوت من الوجهاء الذين لم يستطيعوا أن يجمعوا المريدين حولهم ، لقلة بضاعتهم من العلم فجمعوهم فى بيوتهم وفتحوا لهم خزائن كتبهم ويسروا لهم أسباب اطلاع عليها • وهناك كذلك بعض العلماء منعتهم ظروف الصحة أو غيرها من الظروف من الانتقال الى المراكز الثقافية الأخرى بالمدارس والمساجد والزوايا ، فاندفع طلابهم نحوهم يأخذون عنهم فى بيوتهم ، وكانت متعة العلماء بالتعليم واسعة فرحبوا بمريديهم فى بيوتهم ، وبذلك لعبت المنازل دورا كبيرا فى خدمة الدراسات الاسلامية بمصر فى عصر الجبرتى ، كما لعبت هذا الدور فى مختلف

---

(١) تاريخ الجبرتى : ج ٢ ، ص ٩٩ •
(٢) تاريخ الجبرتى : ج ٢ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ •
(٣) تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ؛ ص ٦٧ •

العصور والبلدان • وسنعطى فيما يلي نموذجين ، أحدهما من بيوت الوجهاء ، والآخر من بيوت العلماء •

ويتحدث الجبرتي (١) عن منزل أحمد بن محمد الشرايبي (١١٧١هـ ـ ١٧٥٧م) وكان من أعيان التجار ومشاهيرهم ، وهو ينحدر من بيت مجد وعز ، وكانت أسرته في غاية من الغنى والرفاهية ومكارم الأخلاق ، وكان يتردد على منازلهم العلماء ، وكانت هذه المنازل مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة وانتفاع الطلبة ، وكان آل الشرايبي لا يكتبون على هذه الكتب ما يفيد أنهـا وقفية ، ولا يدخلونها في مواريثهم ، مع أنهم كانوا يشترونها بأغلى الأثمان ، وكان من عادتهم أن يضعوها على الرفوف المفتوحة ، ولكل من دخل الى بيتهم من أهل العلم أن يأخذ ما يشاء من الكتب بالاعارة ، ولو لم يكن معروفا لديهم ، وكان يترك للمستعير أمر رد الكتاب ، فان رده أعاده الى مكانه ، وان استبقاه أو باعه لا يسأل عنه ، وفي بعض الأحيان كان يباع الكتاب لهم مرة أخرى ، بل عدة مرات دون أي تأفف ، وكانوا يقدمون طعاما في غاية الجـودة لرواد مجالسهم العلمية • وكان الأمراء بمصر يترددون على منازلهم دون دعوة ، ودون تحديد وقت • وعلى هذا خدمت هذه البيوت الفكر ، وكانت منارات عالية الشأن كثيرة المآثر •

أما بيوت العلماء فكثيرة وشهيرة ، ولعل بيت الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ يمكن أن يعد نموذجا لهذه البيوت ، فقد كان بيته فسـيحا مفتوحا للشيوخ والعلماء ، وكانت دروس العلم فيه لا تكاد تتوقف وخاصة في علوم الرياضيات والفلك والهيئة التي برع فيها الشـيخ والتي كان قد انقطع تدريسها بالأزهر منذ سنوات طويلة • وهناك طائفـة من الشيوخ كانوا لا يكادون يبرحون منزل الشيخ ، منهم الشيخ الكردي ، والشيخ عبد الرحمن البشبيشي ، والشيخ محمد الفرماوي ، والشيخ العزيزي ، والهلباوي ، وهناك جماعات من غير الشيوخ كانوا كذلك يرتادون بيت الشيخ حسن بانتظام ، ومنهم : محمود النيشي والتونسي • وكان يأتي اليه الطلاب من جميع الأصقاع حتى من بلاد الافرنج وهناك عدد من الطلاب الوافدين كان يرى في بيت الشيخ حسن مثابة علمية يتحتم عليهم أن يرتادوها ، ومن هؤلاء : ابن السويدي البغدادي ، وابراهيم الصحاني ، كما كان هناك عدد وفير من المريدين تجذبهم خزانة الكتب التي يملكها الشيخ للاطلاع أو النسخ ، والى جانب هؤلاء جميعا كان يفد لزيارة الشيخ عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار ، ودار الشيخ مفتوحة رحابة للجميع ، مبذول خيرها لهم على السواء (٢) •

وهناك منزل آخر ينبغي أن نشير اليه بايجاز ، هو منزل الشيخ مصطفى الريس البولاقي (١١٩٤ هـ ـ ١٧٨٠ م) وهو مريد للشيخ حسن الجبرتي ، وكان

---

(١) جـ ١ ، ص ٢٠٤ •

(٢) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي ، ص ٢١ •

ملازما له ، وكان الشيخ حسن يحبه لنجابته ، وعينه مدرسا بجامع السنانية وجامع الواسطى • والمهم هنا أن بيته أصبح مثل بيت أستاذه ، ويصفه الجبرتى (١) بقوله : وصار بيته مثل المحكمة فى القضايا والدعاوى والخصومات ، وكان فيه شهامة وقوة جنان وصلابة •

بيوت العلم أو (المدارس العلمية)

وننتقل من بحثنا عن المراكز الثقافية الى موضوع آخر ، هو أن كثيرين من العلماء وجدوا فى العلم خير الدنيا والآخرة ، فنشأوا أولادهم فى نفس الطريق الذى سلكوه ، وتكونت بذلك بيوت علم بمصر كانت تتوارث الدراسات الاسلامية كابرا عن كابر ، ومن الأسر العلمية التى ازدهرت فى عصر الجبرتى نذكر بعض النماذج :

لعل فى مقدمة ما نذكرهم من بيوت العلماء ، بيت امام السنة : عبد الخالق ابن أبى بكر الأشعرى الزبيدى (١١٨١ هـ — ١٧٦٧ م) ويقول الجبرتى (٢) عنه انه من بيت علم وتصوف ، جده الأعلى : محمد بن محمد ابن أبى القاسم ، وحفيد عبد الرحمن بن محمد ، وكان الشيخ عبد الخالق تلميذا لشيوخ عصره بمصر وبالحرمين ، حيث وفد الى مكة حاجا وطالبا ، وزار المدينة كذلك حيث تلقى عن الشيخ محمد الكردى ، ولما عاد الى مصر التف حوله طلابه فأخذوا عنه كثيرا من العلوم الاسلامية •

ومن هؤلاء : الشيخ عيسى بن أحمد الزبيرى (١١٨٢ هـ — ١٧٦٨ م) وقد برع فى الدراسات الفقهية براعة فائقة حتى سمى بالشافعى الصغير ، وله مؤلفات كثيرة وشروح واسعة على كثير من متون العصر ، وكان يملى ويفيد ويدرس ويعيد حتى توفى ، فاستقر ابنه العلامة الشيخ أحمد مكانه فى التصدير والتدريس ، وتحلق حوله تلاميذ أبيه ، فواصل رسالته على أحسن وجه •

ومن هؤلاء : الشيخ مصطفى بن محمد الطائى (١١٩٢ هـ — ١٧٧٨ م) الذى تفقه على والده اماما وتخرج على يديه ، وبعد وفاة والده تصدر فى مجالسه ودرس وأفتى ، كان اماما متقنا مستحضرا مشاركا فى العلوم والرياضيات ، وله مؤلفات كثيرة فى فنون شتى (٣) •

ومن هؤلاء : عبد الرحمن الحسينى العيدروسى التريمى • نزيل مصر وهو من أسرة عريقة فى العلم والمعرفة ، يعد الجبرتى منها عددا وفيرا ،

(١) الجبرتى : ج ٢ ؛ ص ٦٠ •
(٢) الجبرتى : ج ١ ، ص ٢٨٧ •
(٣) الجبرتى : ج ٢ ، ص ٣٧ •

ويصفهم جميعا بعمق الفكر واتساع المعرفة ، ولا غرو فهذا الامام ينحدر من الامام جعفر الصادق ، فأسرته عريقة الجذور طيبة الفروع ، ويقول الجبرتي (١) عنه : انه طوف البلاد ثم جاء الى مصر بعياله ، فألقى بها عصاه واستقر به النوى وهرع اليه الفضلاء ، وخضعت له أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، وصار مقبول الشفاعة عندهم لا ترد رسائله ، ولا يحرم سائله ، وطار صيته فى المشرق والمغرب وتعددت رحلاته الى مختلف بلاد القطر ، ثم خرج من مصر حيث زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ، وأخيرا عاد الى مصر حيث توفى بها سنة (١١٩٢ هـ ـ ١٧٧٨ م) .

ومن هؤلاء : الامام العلامة الشيخ أحمد بن عيسى ، تلميذ والده عيسى ابن أحمد الزبيرى ، وتلميذ رفاق هذا الوالد ، ويقول الجبرتى عنه : انه لما توفى أبوه جلس مكانه فى الجامع الأزهر ، واجتمع عليه طلبة أبيه ، واستمرت حلقة دروس والده على ما كانت عليه من العظم والجلالة والرونق ، حتى توفى سنة (١١٩٢ هـ ـ ١٧٧٨ م) .

وهناك بيوت علم كثيرة تصادف الباحث فى هذا العصر ، كبيت الحريرى ، والحفناوى ، والطهطاوى ، والزبيرى ، والسجاعى ، والجناجي وغيرهم كثيرون .

العلماء الوافدون

فى مطلع هذه الدراسة ذكرنا أن مصر استقبلت الوافدين والمهاجرين من الشرق ومن الغرب ، فحطوا بها عصا التسيار ، واتخذوها وطنا لهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر وطنا للدراسات الاسلامية ، لا يستغنى ، باحث فى هذه الدراسات عن ارتياده والارتباط به ، والذى يدرس عصر الجبرتى ، يجد أن مصر استقبلت خلال هذا العصر كثيرا من الباحثين الذين جاءوا يستزيدون من الدراسات الاسلامية ، وكثيرا من العلماء الذين أرادوا أن ينشروا العلم ولم يجدوا كمصر مكانا يحقق لهم هذا الأمل ، ولا يكاد يوجد قطر من أقطار العالم الاسلامى لم يفد طلابه وعلماؤه الى مصر فى هذا العصر ، ومن مدارسة تاريخ الجبرتى ، يرى الباحث أن وفودا من العلماء جاءوا من : بغداد ومن دمشق والحجاز وبلاد الروم والحبشة وغزة وخان يونس والقدس واليمن ، كما جاءوا من فارس والمغرب والجزائر وتونس ، وأن كثيرين من هؤلاء ذاع صيتهم فى مصر واستوطنوها ، وعاملتهم مصر كما تعامل أبناءها ، ومنهم من أسندت لهم أرقى المناصب العلمية ، ومنهم من لقى الغنى والجاه فى مصر . وسنتحدث فيما يلى عن بعض نماذج من مشاهير العلماء الذين

(١) الجبرتى : ج ٢ : ص ٣٥ .

وفدوا الى مصر واستقروا بها وذاع منها صيتهم ، وتعمقت فيها جذورهم ، ولعل فى قمة هؤلاء أسرة الجبرتى ، التى يتحدث عنها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى (١) فيقرر أن جده السابع عبد الرحمن الذى اليه ينتهى علم الجبرتى بالأجداد ، وهو الذى ارتحل من اقليم جبرت من بلاد الحبشة ، فذهب الى جدة ثم الى مكة حيث جاور بها فترة من الزمن ، ثم انتقل الى المدينة المنورة فجاور بهـا سنين ، ولقى بالحرمين عددا من الأشياخ ، ثم عاد الى جدة ومنها جاء الى مصر عن طريق بحر القلزم ، فدخل الجامع الأزهر ولازم حضور الأشياخ ، واجتهد فى التحصيل ، وتولى شيخا على رواق الجبرتى ، ثم تزوج فى مصر واستوطنها ، ومضى الجبرتى يتحدث عن أجداده حتى ينتهى الى والده الشيخ حسن الجبرتى المتوفى سنة ١١٧٩ هـ ـ ١٧٦٥ م) فيطنب فى الحديث عنه ، وفى ذكر أوصافه ودراساته (٢) ، وقد اتسعت الحياة للشيخ حسن الجبرتى وأفسحت له الدنيا بمصر ، فعاش بها فى نعيم وغنى ، ويذكر المؤرخون (٣) انه كانت له ثلاثة منازل ، أحدها : على شاطىء النيل ، والثـانى : ببولاق تجاه جامع ميرزه جوربجى ، والثالث : فى خطة الصنادقية شمال الجامع الأزهر ، وله فى كل واحد من هذه المنازل زوجة وسرارى وخدم ومماليك وعبيد ، وكان يتنقل بين منازله يحف به أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، فيعقد لهم حلقات التدريس ويملى عليهم ما شاء من العلوم الدينية والوصفية والعقلية والنقلية ، حتى اذا فرغ من املائه انفض البعض عنه ، وانتشر البعض الآخر فى الحجرات حيث خزائن الكتب ، وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معه أو يبيت عنده •

ومن العلماء الوافدين على مصر : الشريف على بن موسى المتوفى سـنة (١١٨٦ هـ ـ ١٧٧٢ م) ويتصل نسبه بالامام زيد الشهيد ، بن الامام على زين العابدين ، بن الامام الحسين ، وقد ولد ببيت المقدس ونشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم على شيخ مصرى هو : الشيخ مصطفى الأعرج المصرى ، فغرس فى نفسه حب مصر ، ولذلك طاف الشريف بعدة بلاد ولكنه اتجه الى مصر فى النهاية ، فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى وعلا ذكره وانتشر صيته ، وكانت له فى النثر طريقة رائعة فكان لا يتكلف الأسجاع ، ويصف الجبرتى (٤) أسلوبه بأنه أحسن من الروض جاد به الغمام ، وأنه فى الترسل يسـير على سجية بادرة ، وفكرة قادرة ، كما يصفه بأنه كان ذا جود وسخاء ، وكرم ومروءة ووفاء ، لا يدخل فى يده شىء من متاع الدنيا الا بذله لسائليه ، وأغدق به على معتفيه ، وكان منزله بقرب المشهد الحسينى موردا للآملين ، ومحطا لرجال الوافدين ، وكان يحب الخيل المنسوبة ، وكان اصطبله دائما لا يخلو من اثنين أو ثلاثة ، كما كان يجيد الفروسية وركوب الخيل واللعب بالرماح •

---

(١) جـ ١ ؛ ص ٣٨٨ •
(٢) جـ ١ ، ص ٣٨٥ •
(٣) الأستاذ خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ، ص ٥ ومابعدها •
(٤) جـ ١ ؛ ص ٢٧٣ •

ومما ينسب لهذا الشريف أنه كان يعنى بابراز انحراف اليهود وتضليلهم ، وبعدهم عن شريعة موسى ، ولذلك يقال ان وفاته جاءت على يد رجل يهودى تقرب منه ، وأظهر الولاء له ، فلما مرض الشريف قصده اليهــودى بسلاح مسموم فمات فى اثر ذلك .

ومن العلماء الوافدين ذوى الشهرة الواسعة : محمد بن محمد السنباوى الأزهرى الشهير بالأمير (١) المتوفى سنة (١٢٣٢ هـ ـ ١٨١٦ م) وهو رجل مغربى الأصل ، نزلت أسرته بمصر ، وقد عنى الشيخ الأمير بتلقى الدراسات الاسلامية على شيوخ العصر ، فدرس عقائد النسفي والأربعين النووية وموطأ مالك ، كما درس الهيئة والهندسة والفلكيات والحكمة ، ولما علا شأنه تصدر لالقاء الدروس ، وشاع ذكره فى الآفاق وبخاصة ببــلاد المغرب التى كانت تفخر به ، وكان سلطان المغرب يواتيه بالصلات والهبات كل عام .

وقد وصل من علو ذكره أنه كان يلقى بعض محاضراته بدار السلطنة . وصنف الشيخ الأمير عدة مؤلفات اشتهرت بغاية الدقة ، منها كتابه فى الفقه المسمى « المجموع » وعدد كبير من الحواشى على « الشذور » و « الأزهرية » و « الرحبية » فى الفرائض ، وله مؤلف اسمه « مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين » .

ومن الشيوخ الوافدين على مصر ذوى الشهرة الواسعة : السيد محمد مرتضى الزبيدى (٢) وقد وفد من اليمن الى مصر سنة (١١٦٧ هـ ـ ١٧٥٣ م) وسكن بخان الصاغة ، ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته : كالشهابين الملوى والجوهرى ، والشمسى الحفنى ، وغيرهم كالبليدى ، والصعيدى ، والمدابغى ، وأخذ عنهم جميعا وأجازوه ، وسافر ثلاث مرات الى الصعيد ، ووضع رسالة عن رحلاته تلك ، ثم تزوج واتخذ مسكنا آخر له بعطفة الغسال ، وانصرف الى التدريس والتأليف ، وكان التأليف فى تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن ، أو تقريرا على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفة ، ولكن مرتضى الزبيدى سلك طريقا آخر غير هذه الطريق ، فوضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس فى أربعة عشر جزءا ، وسلخ فى وضعه عدة سنين ، ولم يشأ أن يخرجه للناس كما تخرج المؤلفات العادية ، بل أقام مادبة عظيمة يوم اخراجه دعا اليها المشايخ والطلاب ، وأبرز لهم (تلك العروس) وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها ، فتهافتوا عليها جميعا يقرظونها نثرا ونظما ولما فرغ محمد أبو الذهب من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر ، وأضاف اليه خزانة كتب كبيرة ، أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها الا اذا ازدانت بهذا المعجم فاشتراه بمائة ألف درهم (٣) .

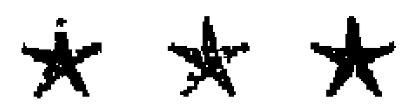
---

(١) ج ٤ ، ص ٢٨٤ .

(٢) ج ٤ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٣) ج ٢ ؛ ص ١٩٦ ومابعدها ، وانظر خليل شيبوب ، عبد الرحمن الجبرتى ص٣٩ ـ ٤٠ .

وقبل أن نطوى الحديث عن الشيوخ الوافدين نبرز ما سبق أن أشرنا اليه من قبل ، وهو أن هؤلاء الوافدين كانوا يجدون فى مصر كل اجلال وتقدير ، ولم يخطر بالبال قط أنهم غرباء عن البلاد ، وقد وصل بعضهم الى أسـمى المناصب فى مصر ، فالشيخ حسن العطار المتوفى سنة (١٢٥١ هـ ــ ١٨٣٥ م) وهو مغربى الأصل ، أصبح شيخاً للأزهر ، والشيخ أحمد اليونسى المتوفى سنة (١٢١٨ هـ ــ ١٨٠٣ م) الذى جاء الى مصر من خان يونس ، أصبح كبير القضاة بالمحكمة ، وكان عضوا فى الديوان الذى شكله الفرنسيون ابان وجودهم بمصر ، كما حظوا جميعا برخاء العيش ، وبألوان من الثراء اتضحت فيما أوردناه عنهم من أحاديث •



وقبل أن نطوى الحديث عن العلماء الذين وفدوا الى مصر واستوطنوها ، يجدر بنا أن نقرر أن العكس حصل أيضا ، أى أن كثيرين من المصريين خرجوا من مصر لينشروا العلم خارجها ، فحملوا تلك الرسالة الفكرية الى أماكن شتى فى العالم الاسلامى ، واستهانوا بالغربة ليحملوا للمسـلمين أفانين الفكر الاسلامى • وسنعطى هنا نماذج قليلة لهذا اللون من العلماء ، الذين كانوا من الكثرة بحيث لا يمكن حصرهم •

وأول من نذكر من هؤلاء : الامام الثبت الشيخ عمر الطحلاوى المالكى المتوفى سنة ١١٨١ هـ ــ ١٧٦٧م) الذى تلقى معارفه على سلسلة طويلة من شيوخ العصر ، وتمهر فى الفنون والعلوم ، وجلس يعلم بالجامع الأزهر وبالمشهد الحسينى ، واشتهر أمره وطار صيته ، فاتسعت حلقته اتساعا كبيرا ، وكان مشهورا بعذوبة البيان وجودة الالقاء ، وكانت له هيبة ووقار وجلال ، وكان لكلامه وقع فى القلوب ، ومن أجل هذا اختاره الأمراء المماليك ليكون رسولهم الى الآستانة كوسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجحت وساطته ، ولكن المهم هنا أن الطلاب هناك والشيخ انتهزوا فرصة وجود الشيخ بينهم فأحاطوا به ، وطلبوا اليه أن يجلس منهم مجلس المعلم، وأن يفيض عليهم من معارفه ، فجلس فى مسجد أيا صوفيا وألقى هناك دروسا فى الحديث ، وتلقى عنه أكابر العلماء ، ووفد الى حلقته طلاب العلم من مختلف بلاد الروم (١) •

وطالت مدته هناك ، ولولا أنه كان من الضرورى أن يعود الى مصر لينقل للأمراء نتائج وساطته ، لكان من الممكن أن تدوم اقامته هناك ، أو أن تطول أكثر مما طالت •

واذا انتقلنا الى نموذج آخر فالتقينا بالمحدث الفقيه : الشيخ على بن عمر القناوى ، فاننا نلتقى بما يمكن أن نسميه جامعة متنقلة ، فلقد كان الشيخ

(١) جـ ١ ، ص ٢٨٨ •

واسع المعرفة فى المعقول والمنقول ، وكأنما أحس بالتزامه أن ينشر ما عنده من فكر فى نطاق واسع ، فنظر الى العالم الاسلامى كله كأنه قطر واحد ، ووضع خطته بأن يتخطى المسافات والبلدان ليجلس هنا وهناك معلما وأستاذا ، وعندما ينظر الانسان الى الأقطار التى زارها ، ويتذكر أن وسائل المواصلات كانت آنذاك بسيطة متوانية ، تعتريه الدهشة مما حققه الشيخ من أسفار وأفضال ، حيث شملت رحلاته : الحرمين ، وجـــدة ، والبصرة ، وبغداد ، وخراسان ، وكابول ، وقندهار ، وبنارس ، وبلاد جاوه ، وصنعاء ، وزبيد ، وغيرها من البلاد الاسلامية • وكان فى كل منها يجلس معلما ، يفيض من معارفه على الطلاب والمفكرين ، وقد استقبله الملوك والأمراء بكثير من هــذه البلاد ورحبوا به وأكرموه ، ويذكر الجبرتى (١) أنه لم يعن بالمال ، وكان يمكن أن يجمع منه الكثير فى أسفاره تلك ، ولكن ذلك لم يكن هدفا له ، وقد مات بمصر سنة (١١٩٨ هـ ـ ١٧٨٣ م) وليس له ميراث يذكر •

ومن العلماء الذين حملوا العلم والمعرفة من القاهرة الى سواها من البلاد الاسلامية : الشيخ الحسينى البخارى المتوفى سنة (١٢٠٠هـ ـ ١٧٨٥م) الذى تعمق فى الدراسات الاسلامية فبرع فيها براعة فائقة ، ويذكر الجبرتى (٢) أنه ورد الى اليمن ، وجلس بها وعلم فيها ، واتخذ من زبيد مركزا له ، حيث تجمعت حوله أعداد كبيرة من الطلاب والراغبين فى العلم ، وانتقل الى بيت المقدس ، وهناك جلس معلما كما جلس فى الخليل ونابلس ، ومن فلسطين عاد الى مصر فجال فى بلادها وبخاصة مدن الصعيد وقراه ، ثم سافر الى الخارج مرة أخرى ، فزار نابلس ثم دمشق وهناك تجمع حوله علماؤها ، واعترفوا بفضله ونالوا من علمه وفكره ، ومن دمشق عاد مرة أخرى الى نابلس ومرض هناك ، ولما حاولوا نقله الى مصر ليلفظ بها أنفاسه الأخيرة قال لهم : ان بلاد الاسلام كلها وطن له لا يفرق بين دار ودار ، فلفظ هناك أنفاسه الأخيرة •

العلماء بين الترف والزهد

كثير من علماء عصر الجبرتى جمعوا مع العلم ترف العيش وحياة الرخاء ، فكانت لهم بيوت كبيرة وأرض زراعية شاسعة ، وخدم وحشم ، وعناية كبيرة بالمظهر واللباس ، فكانوا بذلك يعملون للحياة الدنيا والحياة الآخرة • ، ومن هؤلاء الشيخ على العزيزى (٣) (١١٩٩ هـ ـ ١٧٨٤م) الشيخ محمد المهدى

(١) جـ ٢ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ •
(٢) جـ ٢ ؛ ص ١٣٦ ـ ١٢٧ •
(٣) جـ ٢ ، ص ٩٥ •

الحفنى (١٢٣٠ هـ ـ ١٨١٤ م (١) وقد استهوت حلقته كثيرا من النساء بسبب ما عرف عن الشيخ من ترف وأناقة ، مع تعفف واحتشام (٢) .

وقد استخدم بعض هؤلاء العلماء بعض مالهم لشراء الكتب وفتح بيوتهم للطلاب والمريدين .

فأول من نذكر من هؤلاء : الامام الزبيدى الذى تحدثنا عن كتابه فيما سبق ، ويطيل الجبرتى حديثه عن الزبيـــدى فيذكر فيما يذكر عنه أنه بعد أن ترك مسقط رأسه زبيد ، ارتحل الى مكة ومنها سار الى الطائف ، وتعمق هنا وهناك فى الدراسات الاسلامية والعربية ، ويروى الجبرتى عن الزبيدى قوله : ان أحد شيوخه شوقه الى دخول مصر بما وصفه له من علمائها وأمرائها وأدبائها ، وما فيها من المشاهد الكريمة ، فاشتاقت نفسه لمصر ، ثم جاءها سنة ١١٦٧ هـ ـ ١٧٦٠ م وسكن بخان الصاغة ، وسرعان ما علا فضله وانتشر صيته واتسع قراؤه ، فراج أمره وترونق حاله ولبس الملابس الفاخرة وركب الخيول المسومة ، ثم أخذ يطوف ببلاد مصر ، وكان الناس يتلقونه بالترحاب والاجلال ، ولما عاد من رحلته انتقل الى منزل جديد بسويقة « اللالا » بالقرب من جامع محرم أفندى القريب من مسجد شمس الدين الحنفى ، وكانت تلك الخطة آنذاك عامرة بالأكابر والأعيان ، فتجمعوا حوله ، والتف حوله التلاميذ ، وكانوا يجدون فى قصره الكبير نزهة ومتعة ، بالاضافة الى ما يحصلون من علم ومعرفة ، واستمر صيته فى ذيوع حتى عرفه ملوك الاسلام فى مختلف البلدان ، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلات ، كما بعثوا اليه طيور الببغاء وطرائف الهند ، وأنواع العود والعنبر والعطر ، حتى أصبح بيته يضاهى بيوت الأمراء أو يزيد عليها ، واتسعت حلقته ، وعمل المآدب للضيوف وأكرم الوافدين اليه من الآفاق البعيدة والقريبة ، وتعهد كثير من الطلاب ، وكان يجيد التركية والفارسية الى جانب العربية ، ولذلك دعاه خلفاء العثمانيين لزيارة بلادهم والقاء الدروس بها .

ومن هؤلاء : الشيخ ابراهيم محمد الشرايبى المتوفى سنة (١١٧١ هـ ـ ١٧٥٧ م) الذى يصفه الجبرتى بأنه أعز الاخوان وأخص الأصدقاء والخلان ، وأنه من أهل بيت عرف بالثروة والعز والكرم ، ويوضح أن من أبرز صفاته حرصه على فعل الخير ومكارم الأخلاق ، وتقديم الزاد ليوم الميعاد ، والصدقات الخفية التى كان يتفقد بها طلبة العلم المنقطعين للدراسة ، كما كان يشترى المصاحف والألواح ويوزعها على الأطفال المسلمين ، وكان يتفقه على العلامة عبد العليم الفيومى فكان ينفق عليه وعلى عياله بسخاء وكرم ، وهكذا نجدنا مع عالم

(١) جـ ٤ ، ص ٢٣٣ .
(٢) جـ ٢ : ص ٥٣ و٢٠٠ .

فاضل تعهد شيوخه كما تعهد تلاميذه ، واتخذ من ماله وسيلة لخدمة العلم والمعرفة (١) ٠

ومن العلماء الذين كثر غناهم وامتد ثراؤهم : الشيخ أحمد بن الحسن الشهير بالجوهرى ، وقد جاءت له هذه التسمية لأن والده كان يبيع الجوهر فعرف به ، وقد اشتغل الشيخ الجوهرى بالعلم ، وجد فى تحصيله حتى أصبح من أئمة العصر ، ويورد الجبرتى عددا هائلا من شيوخ الجوهرى الذين علموه وأجازوه ، كما يتحدث عن حلقاته العلمية التى تجمع بها عدد كبير من الطلاب كانوا ينالون من علم الشيخ ومن ماله ، وظل كذلك حتى توفى سنة (١١٨٢ هـ ـ ١٧٦٨ م) ٠

وهكذا حفل هذا العصر بنخبة من الشيوخ كان لهم ثراء عريض ضمن لهم رفاهية العيش ، كما ضمن لتلاميذهم يسر الحياة وطلب العلم ٠

ومع هذا الغنى الذى نعم به بعض علماء هذا العصر ٠ نجد طائفة أخرى من العلماء اتجهوا للزهد وأعرضوا عن المال ، وكأنما رأوا فى المال مشغلة لهم ، فآثروا التفرغ للعلم وخدمته قانعين من الحياة بأبسط طعام وأخشن لباس ، وسنعطى فيما يلى بعض نماذج لهذا النوع من علماء العصر ومفكريه ٠

أول من نذكر من هؤلاء : الشيخ الناسك أستاذ الجبرتى محمود الكردى الخلوتى (٢) المتوفى سنة (١١٩٥ هـ ـ ١٧٨٠ م) وكان أبوه واسع الثراء ، ولكن الشيخ كان متعففا عن المال ، يميل الى التجرد والمجاهدة والزهد ، وكان أخوه كثير اللوم له على ما يفعله من مجاهداته وتقشفاته ، ولكنه لم يكن يصيخ لأخيه ، وظل فى اتجاه الزهد والحرمان دون اكتراث بلوم أو توجيه ، ولما مات والده ترك ما يخصه من ارث لاخوته ، وواصل زهده وتفرغه لنيل العلم وتقديمه للطلاب ٠

ومن هؤلاء العلماء الزهاد كذلك : الشيخ محمد الشنوانى المتوفى سنة (١٢٣٣ هـ ـ ١٨١٧ م) الذى تلقى العلم عن جلة الشيوخ فى عصره : كالشيخ فارس ، والدردير ، والفرماوى ، وتفقه على الشيخ عيسى الداوى ، وأجازه هؤلاء الشيوخ فأقام حلقته بالجامع المعروف بالفكهانى بالقرب من مسكنه ، وكان الشيخ مهذب النفس كثير التواضع ، معرضا عن الدنيا اعراضا تاما ، خشن الثياب ، يخدم نفسه ، ويعنى بنظافة الجامع ، حتى انه كان يكنسه بنفسه ويسرج قناديله بيده ، ولما توفى الشيخ عبد الرحمن الشرقاوى اختاروه لمشيخة الأزهر ، ولكنه امتنع وهرب الى مصر العتيقة زهدا فى المظاهر والأضواء ٠ ولكن علمه كان يرشحه لهذا المنصب فلاحقه أولو الأمر حتى

---

(١) جـ ٢ ، ص ٢١٣ ٠

(٢) جـ ٢ ؛ ص ٦١ ـ ٦٢ ٠

أحضروه قهرا عنه ، وعينوه شيخا للأزهر ، ولكنه ظل ملازما للتواضع والزهد ، ولم يقطع حلقته بجامع الفكهاني (١) ٠

ومن العلماء الزهاد كذلك : الشيخ محمد بن شاهين الراشدي الذى برع في الحساب والفرائض وعلوم الشريعة ، ومن أخص شيوخه : الشيخ حسن الجبرتي ، وفي ذلك يقول الجبرتي : ان الراشدي وافق الشيخ الوالى وعاشره مدة طويلة ، وتلقى عنه وهو أحد أصحابه من الطبقة الأولى ، وظل محافظا على وده ومؤانسته ، ولما جلس ليعلم تحلق حوله عدد كبير من الطلاب ، مأخوذين بسعة اطلاعه منتفعين بحسن عرضه للموضوعات حتى طبقت شهرته الآفاق ، ولكنه مع هذا كان حريصا على الزهد ، وصيام الدهر ، وقيام الليل بين عابد ومعلم ، ولما بنى أبو الذهب مدرسته طلب اليه أن يكون خطيبا بها ، فامتنع ، فألح عليه وأرسل له صرة فيها دنانير ، فأبى أن يقبل ذلك ، ورد هذا المال الوفير ، فلم يكن للمال في دنياه حساب ، ولكن أبا الذهب داوم الحاحه حتى ألزمه بأن يخطب في مدرسته أول جمعة بها ، وألبسه فروة سمور وأعطاه صرة دنانير ، ولكن الرجل كان بعيدا عن هذا الاتجاه زاهدا في الأضواء والأموال ومن أجل هذا دعا الله ألا يخطب بعد ذلك ، فنزل به مرض أقعده عن الذهاب ، فتفرغ لتلاميذه من جديد حتى توفي سنة (١١٨٨ هـ (٢) ـ ١٧٧٤م) ٠

وهناك عدد وفير من هذا اللون من الشيوخ ، كان الواحد منهم يقنع بأن يكسب رزقه عن طريق تجارة صغيرة يزاولها ، أو كتب ينسخها ، أو صناعة يدوية يقوم بها غير مكترث بمال ولا ساعيا لجاه ٠ ولعلنا نذكر من هؤلاء : الشيخ أحمد السنبلاوى المتوفى بسنة ١١٨٠ هـ ـ ١٧٦٦ م) (٣) ، والشيخ محمد زين المتوفى سنة (١١٩٦ هـ ـ ١١٧٢ م) (٤) ٠ (والشيخ على حجازى المتوفى سنة (١١٨٢ هـ ـ ١٧٦٨ م) (٥) وسواهم كثيرون ٠

مواقف سياسية وعسكرية للشيوخ

كان التمزق السـياسي يغمر مصر في عصر الجبرتي ، فالامبراطورية العثمانية كانت تعاني ألوانا من الاضطراب في مختلف الأنحاء ، فلم تكن يدها قوية بمصر ، وبدأت الدول الأوربية الكبرى تتطلع نحو مصر ، وكان المماليك يدور بينهم الصراع وبين العثمانيين ، ويدور صراع بين بعضهم والبعض الآخر ،

(١) جـ ٤ ص ٢٩٤ ٠
(٢) جـ١ ص ٤٠٨ ٠
(٣) جـ ١ ص ٣٥٥ ٠
(٤) جـ ٢ ص ٧٢ ٠
(٥) جـ ١ ص ٣٣٧ ٠

وكانت مواقفهم فى مواجهة قوى الغرب مواقف غير قوية . استبدوا بالناس واستغلوا مرافق البلاد وأهملوا وسائل الدفاع عن البلاد .

وكل ذلك ترك فراغا كبيرا فى قيادة الشعب ، فتقدم العلماء لملء هـذا الفراغ ، وأصبح العلماء ملجأ الناس فى الشـدائد وممثليهم الذين ينطقون باسمهم ، وقادتهم فى الصراع ضد القوى التى تناهض البلاد ، وأصبح الأزهر لا يمثل مركزا علميا فحسب ، بل يمثل كذلك دارا للشورى ومحرابا للسياسة . وهكذا نجد العلماء هم الذين يهددون المماليك اذا انحرفوا أو جاروا ، ويلزمونهم بالعودة للصواب ، كما نجدهم يتصدون للحملة الفرنسية ولحملة فريزر ، ويقودون الشعب ويقدمون الضحايا لرد الأعـــداء ، ويعزلون الولاة الجائرين ويعينون من يشاءون لحكم البلاد ، والحديث عن دور العلماء فى هذا المجال طويل وممتع ، ونكتفى بأن نعود الى الجبرتى لنقتبس سطور قليلة فى هذا الشأن .

ذكر الجبرتى (١) أن الحاكم حسين بك المعروف بـ « شفت » بمعنى يهودى كان طاغية جبارا ، يصادر أموال الرعية ، ويتهجم على البيوت ، وأنه ذهب بجنوده الى بيت أحمد سالم الجزار شيخ دراويش البيومى فنهب ما فيه حتى الفراش وحلى النساء ، فحضر أهل الحسينية الى الجامع الأزهر ومعهم الطبول ، والتف حولهم العامة وبأيديهم العصى ، وتفرقوا فى أنحـــاء الأزهر وأغلقوا أبوابه ، وصعد بعضهم الى مآذنه يصيحون ويضربون الطبول ، وانتشر فريق منهم فى الأسواق القريبة من الأزهر ، ثم قابلوا الشيخ الدردير فذكروا له ما حدث ، فغضب لما حدث وقال لهم فى غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم ، وننهب بيوت المـــاليك كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم . فارتاع المماليك وأوفدوا رسلهم الى الشيخ دردير نادمين ، طالبين اليه أن يرسل قائمة بما نهبه حسين بك وجنوده ليردوه اليه ، وفعلا ردوا اليه جميع ما اغتصبوه .

وكثيرا ما كان العلماء يلفتون الحكام الى أن طاعة الحاكم واجبة اذا لم تخالف الشرع ، وأن قاعدة الحكومة الاسلامية هى أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وفى أحد المواقف صب الشيخ على الصعيدى غضبه على الأمير يوسف بك الكبير فسبه فى وجهه ، ولعن من باعه ، ومن اشتراه ومن جعله أميرا ، فاسترضاه الأمير ونزل على مشورته وأخذ بآرائه (٢) .

وكان الشيخ الدردير شجاعا مقداما لا يخشى فى الحق لومة لائم ، حدث يوما وهو فى مولد السيد البدوى أن صادر أحد الحكام أموال بعض الرعية ،

---

(١) جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٢) جـ ١ ص ٤١٦ . ولما جاءت الحملة الفرنسية قدر بونابرت دور العلماء فى المجتمـــع المصرى فعـين نفـرا من كبارهم أعضاء فى الديوان وكان حريصا على أن يتخذ منهم واسـطة بينه وبين الشعب ، ولكن العلماء لم يرضخوا وتزعموا ثورات القاهرة ضد الفرنسيين .

فطلب من بعض أتبـــاعه أن يذهبوا الى هذا الحاكم ليطلبوا اليه رد الأموال المغصوبة ، ولكنهم خشوا ان يذهبوا اليه ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل خيمة هذا الحاكم وهو راكب دابته ، وأغلظ له القول فاضطر الى ارضائه وارجاع ما اغتصبه من أموال • وفى سنة ١٢٠٩هـ ــ ١٧٩٥ م ، حدث عدوان من أمراء المماليك على بعض فلاحى قرية تابعة لبلبيس ، فحضر وفد منهم الى الشيخ عبد الله الشرقاوى فغضب وتوجه الى الأزهر ، فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر ، وركب الشيوخ فى اليـــوم التالى وتبعهم كثير من الناس الى الشيخ محمد السادات ، واحتشدت جموع عديدة من الشعب ، فأرسل اليهم الأمراء أحدهم وهـــو أيوب بك الدفتردار فسألهم عن أمرهم ، فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات « أى الضرائب » وخشى ابراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة ، فأرسل الى العلماء وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر قائلا لهم : انه يؤيدهم فى غضبهم ويبرىء نفسه من تبعة الظلم ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك ، وأرسل فى الوقت نفسه الى مراد بك ، ورد ما اغتصبه من أموال ، وأرضى نفوس المظلومين ، وألزم العلمـــاء وكبار الأمراء بالتوقيع على وثيقة يتعهدون فيها بأن يسيروا بين الناس بالعدل وأن يكفوا أتباعهم عن التعدى على أهل البلاد •

واستطاع الشعب تحت قيادة علمائه أن يرغم السلطان العثمانى على عزل واليه المستبد بمصر خورشيد باشا ، فقد قاد السيد عمر مكرم ومعه طائفة من العلماء ــ جموع الشعب وحاصروا هذا الوالى بالقلعة ، وأعلنوا عزله ، فأرسل اليهم خورشيد باشا رسولا يقول لهم : كيف تعزلون ولاة السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وأنت رجل ظالم ، وللناس أن يعزلوا الحاكم الظالم ، وأن يخلعـــوه ، حتى السلطان نفسه ، فالسلطان اذا سار فى الناس بالجور كان من حق الرعية أن يعزلوه ويخلعوه ، وهذا من مبدأ مقرر من قديم الزمان » •

ولم يلبث السلطان العثمانى أن نزل على حكم العلماء فعزل هذا الوالى وعين محمد على الذى اختاره العلماء والوجهاء واليا على مصر متوسمين فيه العدل وحب الخير ! •

ولما جردت انجلترا حملتها على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر ســـنة ١٨٠٧ ثار الشعب تحت قيادة علماء الأزهر ، وقام السيد عمر مكرم بحشد المقاومة واقامة الاستحكامات الدفاعية ، وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشـــدة ، حيث يقوم العمال بعمـــل الاستحكامات الحربية ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانا يشاركهم اقامة

هـــذه الاستحكامات ، فيثير فيهم طاقات من الحماسة والوطنيـــة ، وحب الاستشهاد ، وباءت هذه الحملة بالفشل والخسران (١) .

وكان العلماء يزورون البلاد ويتعرفون على مشاكل الناس ، كما كانوا اذا اشتد الغلاء يضعون تسعيرة للمواد الغذائية ويرضـــونها على الحكومة والتجار (٢) .

المكانة الاجتماعية للعماء

كان للعلماء فى عصر الجبرتى مكانة اجتماعية عالية ، ويذكر الجبرتى عن الشيخ على أحمد بن مكرم الله العدوى المتوفى سنة (١١٨٩ هـ ـ ١٧٧٥ م) أنه كان يستقبل كل من تعسر عليه قضاء حاجة ، ويكتبها ، فاذا تجمع لديه قائمة طويلة بمطالب الناس ، ذهب الى الأمير وأخرج القائمة من جيبه ، وأخذ يقص ما فيها واحدة بعد واحدة ويأمر الأمير بقضاء حاجات الناس ، والأمير لا يخالفه ، ولا ينثنى عنه ، ويضيف الجبرتى عن هذا الشيخ ، أنه كان لا يشرب الدخان فى مجلسه تعظيما للعلم ولآله ، واذا دخل منزلا من منازل الأمراء توقف عن شرب الدخان ، فان رأى آلة من آلته كسرها ولو كانت فى يد كبير الأمراء (٣) .

وحدث مرة أن كان الشيخ حسن الجبرتى راكبا دابته وعائدا الى بيته ، فالتقى بموكب الأمير أحمد البارودى ، وحاول الشيخ أن يفسح لركب الأمير وينحرف فى جانب من الشارع ، ولكن الأمير عندما رآه نزل عن فرسه وخف الى الشيخ يقبل يده ويلاطفه (٤) .

ولعل هذه المكانة التى كان يحظى بها عظماء المسلمين هى التى دفعت بعض الأجناد والأمراء ليتخلوا عن الجندية والامارة ، وينضموا فى سلك الطلاب والفقهاء ، ومن هؤلاء : الشيخ حسين المعروف بابن الكاشـــف المتوفى سنة (١٢٢٩ هـ ـ ١٨١٣ م) الذى انخلع عن طبقة الأمراء ، وأخذ يحفظ القرآن ويجوده ، والمتون ويتدارسها وتزيا بزى الفقهاء ، والتحق بحلقات شيوخ عصره حتى أصبح من خيرة العلماء المصريين ، وكان يقول : ان ما حصل عليه من العلم وجاهه أرفع بكثير مما تركه من وجاهة الامارة ، ومكانة الأجناد (٥) .

(١) جـ ٤ ص ٥٠ .
(٢) جـ ٢ ، ص ١٣٦ .
(٣) جـ ٤ ، ص ١٥٧ .
(٤) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ؛ ص ٢١ .
(٥) جـ ٤ ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

وفى هذا النطاق كذلك ، نذكر أن بعض الطموحين من غير المسلمين دخلوا الاسلام ، وتعمقوا فى الدراسات الاسلامية ، ولعبوا دورا كبيرا فى حياة مصر فى هذا العصر ، ومن هؤلاء الشيخ محمد المهدى الحفنى المتوفى سنة (١٢٣٠ هـ ـ ١٨١٤ م) (١) ووالده كان من الأقباط وأسلم هو على يد الشيخ الحفنى ، واهتم هذا به حتى منحه اسمه ، ولازم دروس أشياخ العصر كالشيخ العدوى ، والأجهورى ، والدردير ، والبيلى ، والجمل ، والشرقاوى ، واجتهد فى التحصيل ليلا ونهارا ، حتى مهر وأنجب ، تصدر للتدريس بالأزهر ، فكانت له حلقة واسعة . ويروى عنه أنه لما حضر الفرنسيون الى مصر قام بدور ايجابى فى حماية الناس من عسفهم ، فكان يبعث الأمان للفارين والهاربين ، ويطلب منهم العودة للبلاد ، كما يقدم الضمانات للمختفين من الأجناد والناس ليظهروا ويباشروا أعمالهم فى أمن ، وكان يحمى دورهم وحريمهم ويمانع عنهم فى غيابهم ، ويقول الجبرتى عنه انه سد بعقله ثقوبا واسعة ، وداوى برأيه جروحا وفتوحا عميقة ، فكان بذلك حصنا للناس وحمى للخير .

وهكذا كان للعلماء فى عصر الجبرتى مكانة سامية ، دونها كل مكانة وكل رياسة .

علماء فى الدراسات الاسلامية برزوا كذلك فى الآداب والعلوم والفنون

كانت الدراسات الاسلامية طيلة عصر الجبرتى أساسا لكل الدراسات الأدبيةوالمدنية ، فكان الطبيب والرياضى والفلكى والأديب يعرفون الدراسات الاسلامية ، ويجيدونها قبل أن يصلوا الى الدراسات الأدبية أو المدنية ، وقد ظل الحال على ذلك حتى عصر محمد على ، الذى اختار من بين الأزهريين من يرسلهم للتخصص فى الدراسات العلمية فى أوربا ، وسنعيش فيما يلى مع بعض علماء المسلمين الذين برعوا فى الدراسات الاسلامية ، ولكنهم أجادوا معها ألوانا من الآداب والعلوم والفنون :

وأول من نذكر من هؤلاء : العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى (٢) (١١٧٨هـ ـ ١٧٦٤م) ، وقد تلقى ابن الصلاحى العلوم الاسلامية عن الشيخ محمد الحفنى وغيره من علماء العصر ، حتى حقق فى الدراسات الاسلامية مكانة عالية ، ولكن أكثر شهرته اتضحت فى الدراسات الأدبية ، فكان له شعر رائع مختلف الاتجاهات والصور ، وقد روى الجبرتى

(١) جـ ٤ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٢) جـ ١ ص ٢٦٥ وما بعدها .

منه ما يزيد عن عشرين صفحة يمكن أن تكون ديوانا مهما ، ويذكر الجبرتى : ان له مقامة بديعة فى مدح سيدنا رسول الله ، وغرر من الشعر فى أغراض متباينة • ونقتبس من شعره ما يلى :

هات لى قهـوة الشفا من شفاهك ... وأسقنيها على فخـــامة جـاهك
عاطنيها يا أوحـــد العصر لطفا ... وبديع المثـال فى أشـــباهك
يا غزالا لو صور البدر شـــخصا ... ليضاهيك فى البها لم يضـــاهك

وكتب الى بعض الاخوان وقد أهدى اليه منديلا :

يا كاملا أحيت مكارمه النـــدى ... فغدا لأمراض القـــلوب طبيبا
وردت هديتك التى كانت لنـــا ... كقميص يوســـف اذ أتى يعقوبا
منـــديل سرك حين جاء مبشرا ... بالود سر خـــواطرا وقلوبـــا

ومن هؤلاء العلامة أبو العرفان الشيخ محمد بن على الصبان المتوفى سنة (١٢٥٦هـ ـ ١٧٩١م) الذى حفظ القرآن والمتون ، واجتهد فى طلب العلم وحضر أشياخ عصره ، وجهابذة مصره ، وقرأ عليهم علوم العصر ، وبرع فيها براعة فائقة ، ثم مال مع ذلك الى الأدب والعروض ، فألف فى العروض رسالة مهمة ، واهتم بالمناظرات الأدبية •

ومن العلماء الأدباء قاسم بن عطاء الله المصرى (١) المتوفى سنة ١٢٠٤هـ ـ ١٧٨٦ م) الذى قرأ العلوم الاسلامية ، وتضلع فى الأدب والتواشيح والزجل ، وكان سريع الارتجال للشعر ، وكان شعره فى غاية الجودة ، وقد برع فى فن التاريخ ، وكان فيه معروفا بالدقة والوضوح والسلامة •

ومن فقهاء العصر الذين برعوا فى الأدب والشـــعر : الشيخ محمـــد السنباوى (٢) الأزهري المتوفى سنة (١٢٣٢ هـ ـ ١٨١٦ م) الذى انتهت له الرياسة فى العلوم فى الديار المصرية ، وشاع ذكره فى الآفاق ووفد له الطلاب من كل صوب ، وكان له مع ذلك شعر سلس جميل •

واذا اكتفينا بهذا القدر من العلماء الأدباء ، واتجهنا شطر العلماء الذين برزوا فى الدراسات العلمية والفنية ، نجد عددا وافرا حقق كثيرا من التقدم فى هذه الدراسات ، وأول من نذكر فى هذا المجال : الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة (١١٩٢هـ ـ ١٧٧٨م) الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢هـ ـ ١٧٦٧م ، وهو يذكر سندا طويلا ، ودراسات واسـعة تقتبس منها ما يلى : أخذت عن أستاذنا الشيخ محمد الريحـــاني متن الكنز والاشباه

---

(١) جـ ٢ ص ١٨٤ •
(٢) جـ ٤ ص ٢٨٤ •

والنظائر ، وشيئا من المواقف فى بحث الأمور العامة ، وأخذت عن الزعترى الميقات والحساب والمقنطرات ، كما درست معه منظومة الياســـمين فى الجبر والمقابلة ، والمنحرفات للسبط المردينى فى وضع المزاول ، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم كتاب الموجز واللمحة العفيفة فى أسباب الأمراض وعلاقاتها وبعضها من قانون ابن سينا ، وقرأت على أستاذنا الشيخ ســـلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة ، وكذلك علم الهيئة والمساحة ، وقرأت على الشيخ محمد الشحيمى منظومة فى علم الأعمال الرصدية وروضة العلوم ، وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الانصارى وهو كتاب يشتمل على ســـبعة وسبعين علما ، كما قرأت عليه رسالة فى علم المواليد تشمل دراسة الحيوانات والنباتات (١) •

وفى الفلك والهيئة تقابل الشيخ رضوان الفلكى (٢) المتوفى ســـنة (١١٢٢هـ ــ ١٧١١م) وهو صاحب الزيج الرضوانى الذى حرره على أصول الرصد الدقيق ، وهو مؤلف كتاب أسنى المواهب ، وكتب أخرى كثيرة فى الحسابات والتحقيقات ، وله جداول حسابية بارعة ، وقد استطاع أن يرسم الأرض على شكل كرة من النحاس الأصفر ، ونقش حولها الكواكب المرصودة • ومن تآليفه النتيجة الكبرى ، والنتيجة الصغرى ، وكانتا فى عهده مشهورتين متداولتين بأيدى الطلبة بآفاق الأرض ، وله كتاب « طراز الدرر فى رؤية الأهلة والعمل بالقمر » •

ومن العلماء الذين اشتهروا بالبراعة فى الفلك كذلك : الشيخ عبد الله ابن خزام الفيومى (٣) المتوفى سنة (١١٩٥هـ ــ ١٧٨٠م) الذى تولى الافتاء فسار فيها بالدقة والتحرى ، وكان له معرفة تامة بالفلك والهيئة والميقات ، وعنده لذلك آلات كثةير دقيقة •

وقد برع الموسيقى الشيخ حسن ضيائى (٤) (١١٨١هـ ــ ١٧٦٧م) أحد أعيان عصره فى الدراسات الاسلامية ، وكان مع ذلك له براعة فى الخط العربى ، واجادة له ، كما كان له معرفة واسعة بعلم الموسيقى وأوزانها ، ويجيد استعمال كثير من آلاتها •

ومن العلماء الذين برعوا فى علم الحساب والرياضيات ، الشيخ محمد ابن اسماعيل المتوفى سنة (١١٥٨ ــ ١٧٧١) ، وكان له باع واسع فى الدراسات الاسلامية ، مستحضرا للمسائل الفقهية والعقلية ، ويقول عنه الجبرتى (٥) انه

---

(١) جـ ٢ ص ٢٥ ــ ٢٧ •
(٢) جـ ١ ص ١٧٤ •
(٣) جـ ٢ ص ٧١ •
(٤) جـ ١ ص ٢٨٥ •
(٥) جـ ١ ص ٣٦٧ ــ ٣٦٨ •

لما بلغ المنتهى فى العلوم المشهورة تاقت نفسه للعلوم الحكيمة والرياضية فاتجه لتعلمها ، فبرع فيها براعة عظيمة ، وأصبح فى الرياضة والحساب والهندسة لا يشق له غبار .

وقد برع في الحساب والرياضيات كذلك ، الامام العلامة محمد بن يونس الطائى (١) المتوفى سنة (١١٩٢ هـ ـ ١٧٧٨ م) كما برع فيها كذلك ، الشيخ محمد بن موسى الجناجى (٢) المتوفي سنة (١٢٠٠هـ ـ ١٧٨٥م). الذى دفعته الرغبة فى التعرف على قسمة المواريث الى اجادة الحساب ، ثم أحب الرياضيات ، فأجاد الجبر والمقابلة وألف فى الرياضيات رسائل مهمة ، وكان له فى تحويل النقود بعضها الى بعض رسالة نفسية تدل على براعته وغوصه فى علم الحساب ، كما كان بارعا فى أعمال الكسورات والقسمة والجذورات ، مما إنفرد به بين علماء عصره .

ومن برع فى الطب من العلماء ، الشريف العفيف الشيخ محمد بن زين (٣) التاريمى الأصل المتوفي سنة (١١٩٦هـ ـ ١٧٨١م) نزيل مصر ، وكان واسع المعرفة بالمعقول والمنقول وله معرفة دقيقة بدقائق علم الطب ، وكانت وصفاته الطبية تهب الشفاء للمرضى ، وتزيل عنهم وصب الآلام .

ومن الشيوخ الأفاضل الذين كان لهم معرفة بالطب ، الشيخ حسن الجبرتى (٤) الذى كان يحتفظ فى بيته بألوان من الدهون يعالج بها كثيرا من الأمراض والجراح ، كما كان له معرفة بكثير من الآلام وعلاجها . فضلا عن رسوخ قدمه فى الرياضيات والقوة والهيبة .

وهكذا حمل رجال الدراسات الاسلامية عبء الفكر فى اتجاهاته المختلفة ، ولم يتركوا مجالا علميا الا طرقوه بمقدار ما أتيح لهم من جهد وطاقة .

ملامح أخرى عن علماء عصر الجبرتى

لغات أجنبية :

لا يزال عندنا أفانين من الفكر أجادها علماء الدراسات الاسلامية فى هذا العصر ، فقد كان منهم من أجاد اللغات الأجنبية ، وكان خطه فيها غاية فى الجودة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء سفراء مصر الى الخارج اذا حزب الأمر ، ومن هؤلاء الشيخ على بن محمد الجزائرى الأصل والمصرى الثقافة والفكر المتوفى سنة

(١) جـ ٢ ص ٢٧ .
(٢) جـ ٢ ص ١٢٥ .
(٣) جـ ٢ ص ٧٢ .
(٤) جـ ٢ ص ٤ .

(١١٨٥هـ ــ ١٧٧١م) ويقول عنه الجبرتى (١) انه زاحم العلماء بمناكبه فى تحصيل أنواع العلوم وأجازه كثير من شيوخ العصر ، وكان يعرف اللسان التركى ، وقد جعله هذا على صلة وثيقة ببعض أمراء الأتراك وبخاصة الأمير أحمد أغا .

ومن هؤلاء محمد بن اسماعيل السكندرى المتوفي سنة (١١٨٣هـ ــ ١٧٦٩م) الذى كان يعرف الألسنة الثلاثة ، العربية والفارسية والتركية ، مع ميل الى المحاورات واللطائف الأدبية ، ويقول عنه الجبرتى (٢) ان رسائله فى الألسن الثلاثة كانت غاية في الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ومهابة عند الأمراء ، وكان والده اسرائيليا ، فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يزور الشيخ حسن الجبرتى فى أخريات حياته ، ويقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتى انه رأى كتاب بهارستان لمولانا جامى مكتوبا بخط يد السكندرى ، وقد أحسن في كتابته وأتقن فى سياقه كما رأى مجموعا فيه النوادر من أشعار الألسن الثلاثة ، ويطنب الجبرتى فى مدحه والثناء عليه اطنابا طويلا ، ويقتبس من كلامه ما يدل على ابداع وعمق وروعة .

ومن هؤلاء كذلك حسن الدرويش المتوفي سنة (١٢٣١ هـ ــ ١٨١٥م) الذى كانت له مشاركة فى كل فن من الرياضيات والأدبيات ، والمعقول والمنقول ، كما كانت له معرفة بلغات كثيرة حتى كأنه خالط أهلها وعاش فى ديارها ، وكان يعلم هذه اللغات لمن أراد أن يتعرف عليها ، ويعلم اللغة العربية للأعاجم الذين يفدون الى مصر (٣) .

ولا يمكن أن نطوى صفحة الحديث عن العلماء الذين أجادوا اللغات الأجنبية دون أن نتحدث عن الشيخ حسن الجبرتى ؛ الذى كان يعرف اللغة الأمهرية ويجيد اللغة التركية ويخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم ، بل يضيف مترجمو حياته ان جماعات من الافرنج قصدوا بيته ، وأخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القول الى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه (٤) .

وظيفة المعيد :

وقد عرفت المدارس المصرية فى ذلك العصر وظيفة المعيد ، وكان المعيد يجلس فى حلقة أستاذه أقرب ما يكون الى الأستاذ ، ويتلقى الدرس مع الطلاب ، فاذا انتهى الشيخ من القاء درسه وغادر المكان ، بدأ المعيد يشرح ما غمض من ذلك الدرس على الطلاب ، ويجيب على أسئلتهم ، ومن الممكن أن يعود الى أستاذه اذا

---

(١) جـ ١ ص ٣٦٩ .
(٢) جـ ١ ص ٣٣٩ .
(٣) جـ ٤ ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ .
(٤) جـ ١ ص ٣٩٧ .

سئل سؤالا لم يعرف الجواب عنه ، وهكذا عرفت حلقات التدريس بمصر فى عصر الجبرتى تلك الوظيفة التى تهتم بها الجامعات فى العهد الحاضر ، لتكون أساتذة المستقبل • ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر بن خليل (١١٨٧هـ ـ ١٧٧٣م) الذى لازم الشيخ ابن الطيب ملازمة كلية ، حتى صار معيدا لدروسه ، وهو رومى الأصل ، وقد جاء الى مصر ، ثم خرج منها طوافا معلما ، وعاد لها ـ كما يقول الجبرتى (١) بالفوائد الغزار وبما حمل في طول غيبته من النوادر والأسرار •

ومن هؤلاء : الشيخ محمد بن موسى الجناجى (٢) المتوفى سنة (١٢٠٠هـ ـ ١٧٨٥ م) الذى كان معيدا للشيخ الصعيدى ، ومنهم كذلك الشيخ الجداوى ، وسليمان العجيلى ، والسمنودى والأجهورى ، والعدوى ، والصاوى ، والدسوقى •

ومن الواضح أن كلا من هؤلاء تخطى بعد حين وظيفة المعيد ، وأصبح قمة من قمم الفكر وعالما عظيما من علماء العصر ، وقد تحدثنا عن أكثرهم فيما سبق من الدراسات •

علماء معمرون :

ومن الناس من يعتقد أن الانكباب على العلم والسهر لنيله ، والجلوس للتعلم والتعليم تضر بالصحة وتضعف الجهد ، لما تسببه من ارهاق ، ولكن الباحث فى عصر الجبرتى يشاهد كثيرين من العلماء المعمرين الذين طعنوا فى السن ، على الرغم من جهودهم الكبيرة فى خدمة العلم والمعرفة ، فالامام العالم الشيخ على بن محمد الشناوى (٣) المتوفى سنة (١١٨٦هـ ـ ١٧٧٢م) الذى انتهت اليه الرياسة في زمنه عاش حتى جاوز سن المائة ، وكان طيلة عمره متمتعا بالحواس • ثاقب الفكر • وممن جاوز المائة كذلك : الشيخ سليمان بن محمد البحيرى (٤) المتوفى سنة (١٢٢١هـ ـ ١٨٠٦م) الذى ظل يملى على تلاميذه حتى ليلة وفاته • ومن الشيوخ المعمرين كذلك • الشيخ خالد بن يوسف الديابكرى (٥) المتوفى سنة (١١٩٣هـ ـ ١٧٧٩م) وأصله من ديار بكر ، وقد وفد الى مصر ولازم حضور الأشياخ بها ، وزامل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى حلقة السيد محمد مرتضى بجامع شيخون حيث تلقيا دروس الصحيح ، وزامله كذلك فى جامع أبى محمود الحنفى حيث تلقيا الأمانى والشمائل ، ثم اتجه الشيخ خالد للوعظ والتدريس ، وطال عمره حتى أصبح من المعمرين ذوى الشهرة فى ذلك العصر •

---

(١) جـ ١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ •
(٢) جـ ٢ ص ١٢٥ •
(٣) جـ ٤ ص ٢٤ •
(٤) جـ ٤ ص ٥٧ •
(٥) جـ ١ ص ٤١١ •

ومن الشيوخ المعمرين كذلك الشيخ أحمد بن عبد السلام المتوفى سنة (١١٨٨هـ - ١٧٤٧م) (١) والشيخ زين الدين القاسم العبادى (٢) المتوفى سنة (١١٨٨هـ - ١٧٧٤م) والشيخ محمد أبو السعود المكنى أبو المكارم (٣) المتوفى سنة (١٢٠٢هـ - ١٧٨٧م) وقد تجاوز التسعين ، والشيخ أحمد البرماوى (٤) المتوفى سنة (١١٣٨هـ - ١٧٢٥م) .

وهكذا نجد فى عصر الجبرتى شيوخا تخرج على أيديهم عدة أجيال وطالت أيامهم فى خدمة الفكر والاسلام ، وكان عمرهم الطويل مصدر يمن وبركة على الدراسات الاسلامية .

وفرة المؤلفات :

وقد دون علماء هذا العصر مجموعة من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون ولو قدر لهذه المجموعة أن تبقى مخطوطة أو مطبوعة لكانت ثروة هائلة ، ومكتبة رائعة ، ولكن ما بقى منها - على كل حال - يصور مدى الجهد الذى بذله رجال العصر فى خدمة العلم والمعرفة ، وقد أورد الجبرتى صفحات طويلة عدد فيها مؤلفات علماء عصره . وكنموذج من هذا الجهد نقتبس ما كتبه عن مؤلفات الشيخ الدمنهورى المتوفى سنة (١١٩٢هـ - ١٧٧٨م) : فمنها حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ، ومنتهى الارادات فى تحقيق الاستعارات ، وايضاح المبهم فى معانى السلم ، وايضاح المشكلات فى متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والحذاقة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الافهام على البسملة ، وحسن التعبير للطيبة من التكبير فى القراءات العشر ، وتنوير المقلتين بيضاء أوجه الوجه بين السورتين ، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى ، وطريق الاهتداء بأحكام الامامة والافتداء على مذهب أبى حنيفة ، واحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقائق الألمعية على الرسالة الوضعية ، ومنع الأثيم الحائر على التمادى فى فعل الكبائر ، وعين الحياة فى استنباط المياه ، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات ، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام ، والقول الصريح فى علم التشريح ، واقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة ، وفيض المنان بالضرورى من مذهب النعمان ، وشفاء الظمآن بسر قلب القرآن وارشاد الماهر الى كنز الجواهر ، وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك ، والزهر الباسم فى علم الطلاسم ، ومنهج السلوك الى نصيحة الملوك ، والمنح الوفية فى شرح الرياض الخلقية فى علم الكلام ، والكلام السديد فى علم التوحيد ، وبلوغ الأرب فى اسم سيد سلاطين العرب .

---

(١) جـ ص ٤١١ .
(٢) جـ ٤ ص ١٦٥ .
(٣) جـ ٤ ص ٧٦ .
(٤) جـ ٢ ص ٢٦ - ٢٧ .

ويختتم الجبرتى حـــديثه عنها بقوله : انه اطلع على أكثرها وانتفع بما ورد فيها ٠

وبعد ، لقد كان عصر الجبرتى عصرا حافلا ، يبدو فيه اضطراب الساسة ونشاط العلماء ، وقد استطاع الجبرتى أن يصور لنا هذا العصر أدق تصوير ، فجعل القارىء يحس ـ وهو يقرأ ما كتبه الجبرتى ـ كأنه يعيش هذا العصر من جديد ، ينفعل بالأحداث فيه ، وتبهره مواقف العلماء وما بذلوه من جهد لخدمة مصر بوجه عام ، وخدمة الدراسات الاسلامية بوجه خاص ، وقد استطاع العلماء أن يدفعوا عن مصر كثيرا من الضر ، وأن يجعلوا مصر فى هـــذا العصر مركزا للدراسات الاسلامية ، فكان عصرهم بذلك امتدادا للنشاط العلمى الذى مارسته هذه البلاد عدة أجيال من قبل ، وكان عصرهم أيضا مهيئا لنهضة عظمى بدأت بعد حين ، ولا تزال تخطو وتحاول أن تحقق لمصر وللعالم العربى والاسلامى المكان اللائق فى دنيا الفكر والعلوم ٠

خطط القاهرة فى أيام الجبرتى

للدكتور عبد الرحمن زكى
(معهد الدراسات الاسلامية • القاهرة)

نتناول بالبحث « خطط القاهرة فى أيام الجبرتى (١٧٥٤ ــ ١٨٢٥م) فى ثلاث مراحل هى :

١ ــ القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر حتى قبيل مجىء الحملة الفرنسية ٠

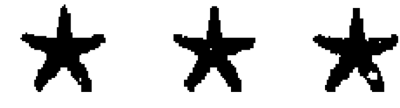
٢ ــ القاهرة أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١م) ٠

٣ ــ القاهرة خــلال السنوات الأولى من القرن التاســع عشر حتى عام ١٨٢٥ تقريبـــا ٠

وفى خلال تلك المراحل الزمنية ، كادت القاهرة أن تكون صــورة لجميع الأحداث التى مرت بها ، ليس فقط من القرن الثامن عشر بل ومن القرن السادس عشر الى الربع الأول من القرن التاسع عشر ٠٠

● المراجع المكملة « لعجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، أهمها : كتاب « وصف مصر » وخريطة القاهرة الملحقة به ، ويمدنا هذا المرجع بأهم ملامح القاهرة أثناء الاحتلال الفرنسى وما تم فيها من (تخريب) كما جاء فى تاريخ الجبرتى ، لذلك تناولنا أهم أحياء القاهرة (فى عصر الجبرتى) وتكلمنا بالتفصيل عن أهم بيوت تلك الأحياء ، وبعضها ما زال قائما ٠٠ كما سجلنا وصف بيت الشيخ الجبرتى ، وهو نموذج لبيت شيخ ثرى تقام فيه الندوات ٠ وذكرنا بعد ذلك الوكالات والأسواق ، كما جاءت فى تاريخ الجبرتى « عجائب الآثار » وفى كتاب « وصف مصر » ، ثم قرافات القاهرة ، وعن وسيلة امداد القاهرة بالمياه ، ثم ذكرنا الأسبلة ، أهم عنصر معمارى أدخل على القاهرة فى عصر العثمانيين ، وخاصة منذ القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر ٠ وقد بقى من تلك الأسبلة بعضها ، نشاهدها متناثرة فى مدينتنا ٠

ثم ذكرنا أهم حمامات القاهرة فى أيام مؤرخنا ، ولم يبق منها سوى عدد ضئيل جدا ، واندثر معظمها • وتناولنا بايجاز أسلوب ادارة أحياء القـــاهرة وحاراتها •• وكانت تحت سيطرة مشايخ الحارات ، يعاونهم مشايخ طوائف الحرف •• تلك الطوائف الهامة لصلتها بحياة القاهرة الاقتصادية •

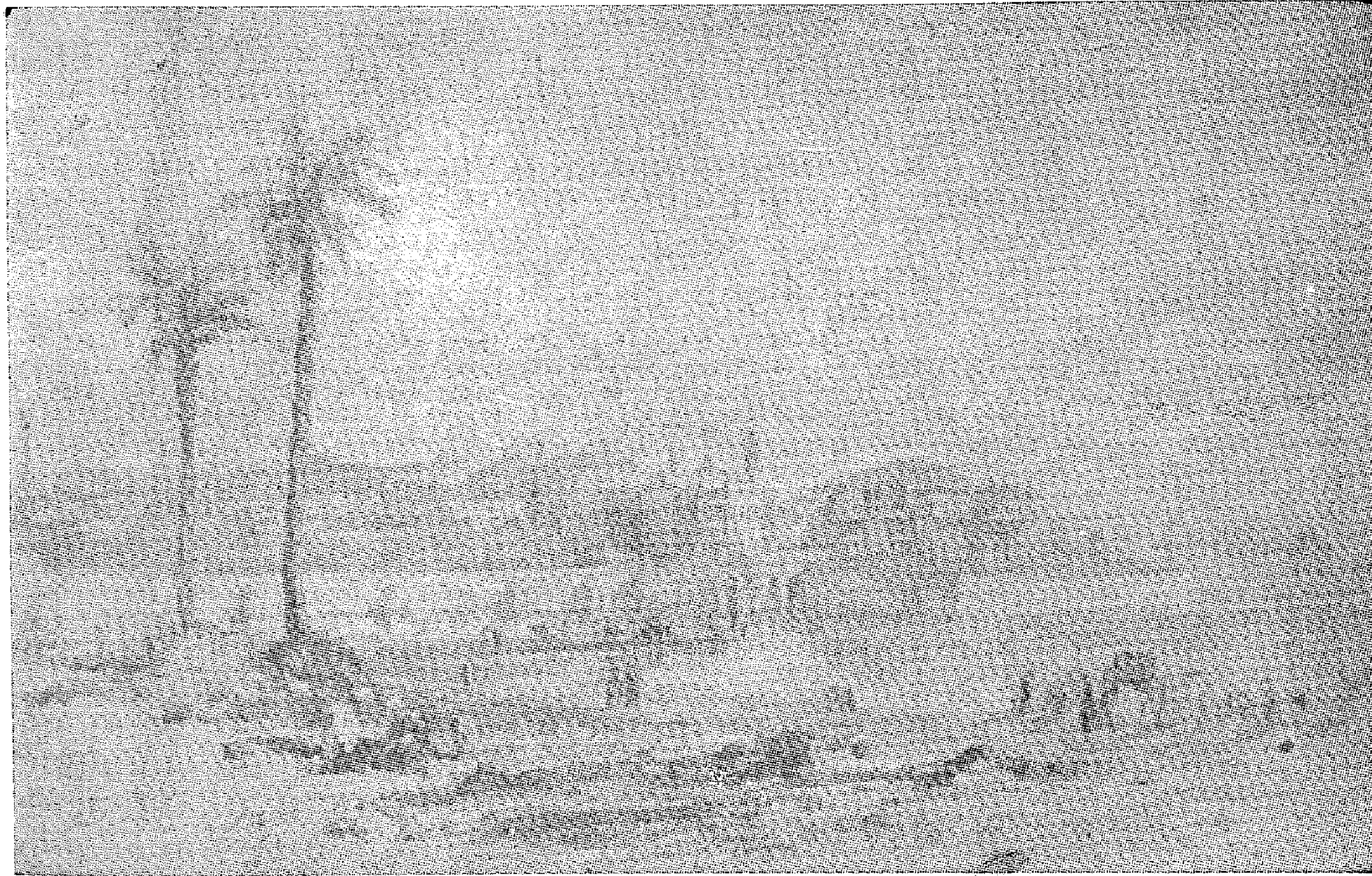


● والتاريخ مكان وزمان وأحداث يصنعها الانســان ، فكان نصيبى أن أتحدث عن المكان ، أو مسرح أهم بعض الأحداث التى ذكرها المؤرخ فى كتابه الفريد « عجـائب الآثار فى التراجم والأخبـار » •• وهذا المكان هو القاهرة « والمؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٤ ـ ١٨٢٥م) قاهرى ، وبالتحديد من أبناء خطة الصناديقية (نسبة الى صانعى الصناديق) التى تقع شمال غربى الجامع الأزهر • وكانت فى زمن ما مشهورة بحوانيت القرطاسية والوراقة وباعة الكتب ، وما زال جزء من الخطة قائما الى اليوم محتفظا باسمه •

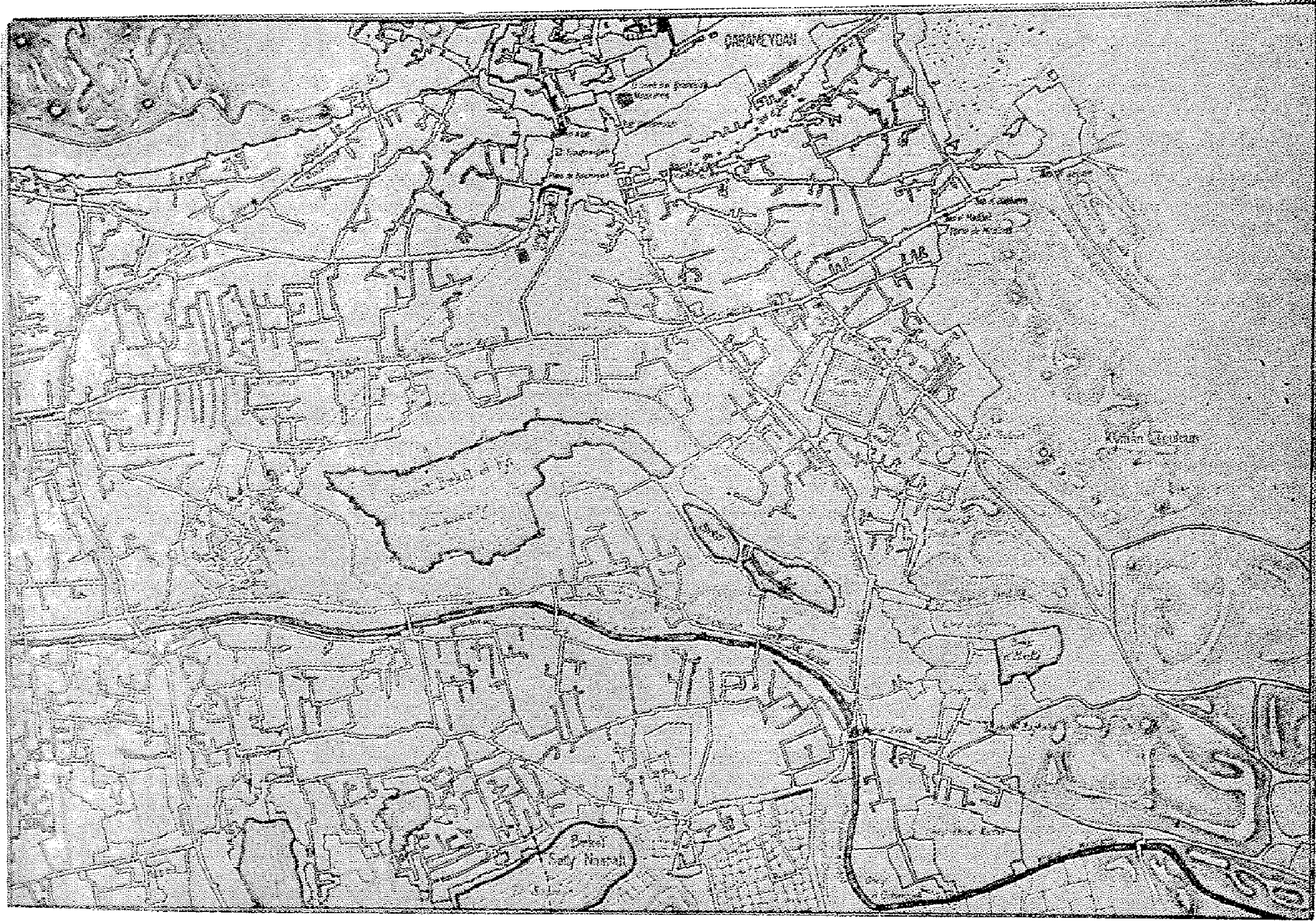
عاش مؤرخنا فى القاهرة معظم حياته وتنتقل بين دوره الثلاث أو الأربع ••• الموزعة فى أحياء شتى ، فقد كان شيخنا العـالم الثرى يمتلك بيتا فى الصناديقية كان أول الأمر ملكا لوالده الشيخ الجليل حسن الجبرتى ، وبيتا فى الأبزارية على النيل ، ومثله فى بولاق بجوار السنانية ، كما انه كان يقضى بعض أيام الصيف فى جهة بركة الرطلى ، بين مزارع وبساتين شمال القاهرة • ولا نعلم اذا كانت دارته هذه ملكا له او كانت لصديق له أو قريب ! وكان فى تنقله من بيت لآخر ـ حسب هواه أو حاجة العمل ـ يتعرف على أحياء القاهرة وميادينها ومعالمها وأسواقها ومدارسها ومساجدها •• ومن أجل ذلك نلاحظ احاطته الشاملة بما احتوت عليه مدينة القاهرة كما عاصرها ، دون أن تجعل منه طبوغرافيا متخصصا فى خططها ، كما كان أمير مصنفى الخطط فى القرن الخامس عشر ، المؤرخ الجليل أحمد بن على المقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤١م) •

شاهد الجبرتى أحـداث مصر فى النصف الأخـير من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى فى القرن التاسع عشر ، قبيل وفاته عام ١٨٢٥م ، وبالتحديد حتى عام ١٨٢١م •• وقاهرة الجبرتى هذه •• هى المرحلة الأخيرة من قاهرة العصور الوسيطة ، والسنوات الافتتاحية من القاهرة الحديثة ، حينما استتب الأمر للوالى « محمد على » عقب تعيينه واليا (١٨٠٥م) ، ممثلا لخليفة المسلمين السلطان العثمانى •

● فقاهرة الجبرتى هى فى الواقع قاهرة مفترق الطرق •• ذلك المفترق الذى يطل على العصور الوسيطة الماضية ، وعلى قاهرة العصور الحديثة المقبلة ••• ولا شـك أنها كانت ـ تحت ضـغط الأحـداث والسنين ـ مدينة شرقيـة اسلامية انتابتها عوامل الضعف والخمول والتدهور التى ألمت بمصر خلال حكم المماليك البكوات والولاة العثمانيين •• بعد أن كانت قاعدة لسلطنة مملوكية



صورة تاريخية لبركة الفيل والقصور المطلة عليها فى القرن التاسع عشر



بعض معالم القاهرة فى أيام المؤرخ الجبرتى
(من خريطة القاهرة للحملة الفرنسية)

كبرى امتد سلطانها قرابة ثلاثة قرون (١٢٠٠ م ـ ١٥١٧) ، ازدهرت خلالها بالعمائر الدينية والمدنية والقصور والدور ٠٠ وفى خلال قرون ثلاثة متواصلة (١٦ و ١٧ و ١٨) تدهورت القاهرة وخربت احياؤها ، وكاد يزول عنها الرونق الذى كانت عليه أيام سلاطين المماليك ، فانهارت قبة الايوان الكبير لجامع الناصر محمد بن قلاوون بداخل القلعة (١٥٢٢م) ، وسقطت مئذنة مدرسة السلطان حسن (١٦٥٧) ، كما خرجت قبة ضريحها (١٦٦٠) ٠ وفى أثناء زوبعة شديدة خربت مئذنة جامع ابن طولون الحلزونية (١٦٩٤م) ، كما دمرت المياه أسس جامع الحاكم بأمر الله (١٧٩١م) ٠ وساءت عمارات الأزهر وتاج الجوامع فى الفسطاط ٠٠ ليس هذا فحسب ٠٠٠ فقد آلت معظم دور الحكام والأمراء الى مساكن للمشعوذين والزعر والجعيدية ، ومعاطن للدباغة ـ ومرمى للأوساخ وملقى للسباخ ومرتع للأمراض الفتاكة ، وأحاطت التلال بالقاهرة فأصبحت كيمانا للمخلفات٠٠ وباختصار٠٠ لا تشاهد الا خرابا ممتدا ومستنقعات تغمرها المياه الآسنة أينما ذهبت الى جميع نواحى المدينة ٠

● لم يكن فى القاهرة سوى أربعة ميادين : أحدها ميدان بركة الأزبكية فى غرب القاهرة وهو أجملها ، والثانى قرة ميدان (الميدله الأسود) فى جنوبها أسفل القلعة يجاور ميدان الرميلة ثم ميدان بركة الفيل ، وكانت معظم هذه الميادين قائمة منذ المماليك الجراكسة ، اما الميادين الأخرى فقد اندثرت ٠٠ تلك التى تكلم عنها مؤرخنا المقريزى ، وكان عددها ٤٩ ٠٠٠ فمنذ صارت مصر ولاية عثمانية احتكر الناس أرض البساتين والميادين والرحاب وشيدوا فيها ما أرادوا ٠ ولما تتابعت الفتن وتوالت المحن والمجاعات صارت القاهرة ٠٠ أسيرة الكيمان والبرك ، والمستنقعات والزرائب ٠٠ أضف الى هذا كله ما أحدثته سياسة القمع التى اتبعها الفرنسيون حينما احتلوا مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م) ضد أهالى المدن الكبرى ، وخاصة القاهرة والاسكندرية وغيرهما ٠٠ وفى أثناء مقاومة المصريين لاحتلالهم انتقم المعتدون من أحياء القاهرة أثناء الثورات الشعبية فخرب الفرنسيون أحياء كاملة فيها : كأحياء الصليبية ، والركبية ، وابن طولون ، والجمالية والدرب الأحمر ، وبولاق ، وغيرها ، وبما احتوت عليه من دور للعبادة ودور للأهالى ، كما نهبوا أسواقها ووكالاتها ٠

١ - المراجـــع

يرجع الفضل فى التعرف على خطط القاهرة فى أيام الجبرتى الى حد كبير ، **أولا** : الى ما بقى حتى اليوم من بعض أســوار القاهرة وأبوابهـــا من أيام الأيوبية ، والى عمارة الأزهـــر الشريف والى عمــائر دولتى المماليك البحرية والجراكسة • وما زال الكثير منها باقيا نهتدى به فى التعرف على معظم الأخطاط والمواقع والدور الرئيسة • **وثانيــا** : الى العــلامة المؤرخ الشيخ تقى الدين أحمد بن محمد المقريزى ، لكتابه الخالد « المواعظ والاعتبار » فى ذكر الخطط والآثار ، **وثالثــا** : الى العــلامة عبد الرحمن الجبرتى ، وما دونه فى كتابه النفيس منذ مائة وخمسين ســـنة ، **ورابعا** : الى علماء الحملة الفرنسية أثناء حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) الذين أسهموا فى تأليف الموسوعة الضخمة عن مصر : Description d'Egypte وما احتـــوت عليه من خرائط وصور ورسوم عن كل ما يتصل بمصر ، **وخامســا** : الى العلامة المهندس المؤرخ على باشا مبارك مؤلف موسوعة مصر ، المعروفة باسم « الخطط التوفيقية » • **وســادســا** : : الى ما كتبه المستشرق البريطـــانى وليم لين فى كتابه الموجز Cairo fifty years ago **وسابعا** : الى كتابات بعض مؤرخى المدن الاسلامية وبخاصة القاهرة ، الذين زودونا بما خفى علينا من كتابات هؤلاء العلماء ، نذكر منهم على سبيل المثـــال : كازانوفا ، ورافيس ، وكريسويل ، وماسينيون وأندريه ريمون ، ومحمد رمزى • فلهؤلاء جميعا ندين بما نعرفه عن قاهـــرة العصور الوسطى ، ونحن نعيش اليوم فى النصف الثانى من القرن العشرين •

وسنرى الى أى حد انتفعنا بسفر الجبرتى « عجائب الآثار » الذى تناول فيه تاريخ مصر عامة أثناء القرن الثامن عشر وبعض سنى القرن التاسع عشر •

● خطط القاهرة فى أيام الجبرتى :

لا يعتبر العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى فى طليعة مؤرخى مصر الاسلامية فحسب ، بل انه فى تقدير كثير من العلماء • من أجل وأعظم المؤرخين فى العالم الاسلامى ، وصلت الينا أهم مؤلفاته ، وفى مقدمتها « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » فى أجزائه الأربعة ، وهو تاريخ عام لمصر منذ سنة ١١٠٦ الى سنة ١٢٣٦ هـ (١٦٩٥ - ١٨٢١م) ، وتغطى مادته التاريخية - ماقبل

الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ــ ١٨٠١م) ، والأعوام الأولى من حيم الوالى محمد على ٠ ومن هنا كانت أهمية كتابه « عجائب الآثار » وثيقة فريدة فى تاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، وذلك ما بين أخريات القرن السابع عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، (حتى عام ١٨٢١م) ، دونه بأسلوب الحوليات واليوميات فى لغة عصره الممتعة ٠

● وشـــيخنا الجليل مؤرخ أولا ٠٠ ومن الصعب أن نعتبره من كتاب الخطط الممتازين كالمقريزى مثلا ٠ فهو اذن ليس طبوغرافيا يجعل تخطيط المدن ميدان تخصصه ، كما كان أسلافه من المشهورين فى هذا المجال ، أو كخلفه على باشا مبارك فى أواخر القرن التاسع عشر ، ومع أنه لم يكن طبوغرافيا ففى أثناء وصفه أحداث القاهرة ، أو عند كلامه عن رجال عصره ، يجعل تعيين المواقع والأماكن ظاهرة واضحة فى ســـطوره ٠ فالجبرتى حين يورد حادثا أو ثورة أو موكبا ، لا سيما فى القاهرة ، فانه يقرنه بذكر أهم الأماكن والمواقع من أحياء وشوارع ودروب وبيوت ، فنستطيع خلال روايته أن نصور معالم القاهرة فى زينة واضحة ، وأن نتعرف خططها وأحياءها المعاصرة ، وان كان لا يحددها تحديدا دقيقا كما يفعل كتاب الخطط المتخصصون ٠ كذلك عنى مؤرخنا الجبرتى بالكلام على ما أقيم أو خرب أو غيرت معالمه بالقاهرة خلال العصر الذى عاشه ، من معاهد ومساجد وقصور وبساتين وخطط ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فقد أوضح ما أحدثه الفرنسيون فى أيام احتلالهم فى بعض خطط القاهرة ، من ازالة وتغيير مدينة وتخريب حسب المقتضيات الحربية أو انتقاما من الثائرين ، وكان هذا كثيرا مما ابتليت به مدينة القاهرة ، بالاضافة الى ما أصابها من اهمال طوال حكم العثمانيين (١٥١٧ ــ ١٨٠٥م) ٠ فنحن نستمد من « عجائب الآثار » آخر الصور ، بل وأصدقها عن خطط القاهرة ، وهى الصور الفاصـــلة بين قاهرة العصور الوسطى ، وقاهرة القرن التاسع عشر ٠ والمعروف أن الجبرتى استهل أخباره عام ١٦٨٨م (١٠٠٠ هـ) وختمها فى عام ١٨٢١م (١٢٣٦هـ) ويبدو أنه بدأ فى تدوين كتابه بانتظام فى عام ١١٩٠ هـ (١٧٧٦م) حتى عام ١٢٢٦هـ/ ١٢٢٧ هـ ٠

● **كتاب وصف مصر :**

وتكتمل صورة ما كانت عليه قاهرة المؤرخ الجبرتى اذا اســـتعنا بكتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، فهو حقا من أجل الآثار العلمية التى كتبت عن مصر : آثارها وجغرافيتها وخططها وخواصها العمرانية والطبيعية ، وهو نتاج خبرة العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسية الى مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) ، ونشأت فكرة وضعه مع مشروع الحملة ذاته ، وكان صاحب الفضل الأول فيه نابليون بونابرت نفسه ٠ وعكفت الجماعة العلمية التى صحبته على الدراسة والبحث مدة الأعوام الثلاثة التى لبثها الاحتـــلال

الفرنسي ، فلما جلا الفرنسيون عن مصر (١٨٠١م) حملوا معهم الى فرنسا ، جميع المواد والبحوث التي أعدوها ، ثم أمر نابليون أن تفحص جيدا وتنظم وتعمل الرسوم والخرائط وتطبع على نفقة الحكومة • وبعد أن انتهت لجنة الاشراف بعد عدة أعوام من عملها بدىء فى عملية الطبع ، فصدر القسم الأول من هذا العمل العظيم سنة ١٨٠٩م واستمر صدور أجزاء الطبعة الأولى حتى ١٨٢٦م (١)، فجاء الكتاب دائرة معارف كبرى عن مصروحضارتها وآثارها وفنونها وخططها ، ••• الخ ، وقد شغلت أربعة وعشرين مجلدا كبيرا ، تتخللها مئـات الخرائط والجداول والرسوم ، ويهمنا هنا بخاصة خرائط القـــاهرة المفصلة بأحيائها ومعالمهـــا وطرقاتها وآثارها التى كانت قائمة حتى ســـنة ١٨٠١م • ولولا هذه الخرائط الهامة وهى الأولى من نوعها لبلدنا لما أدركنا ما أصبحت عليه القاهرة حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وكانت تلك الخرائط نقطة بداية لأعمال رسامى الخرائط الذين عملوا فى هذا المجال أيام محمد على باشا وخلفائه ، وعلى أيام على باشا مبارك ، حينما أخذ فى تأليف الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة (١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م) •

● خرائط القاهرة :

أدرك القادة الفرنسيون بعد فتح مصر ، أن احتلال المدن الكبيرة وادارة شئونها أو بناء ما تقتضيه الشئون الحربية وما تتطلبه حاجة الأهالى والحاميـة الفرنسية ، يعتمد الى حد كبير على الخرائط المفصلة التى توضح أقسام مصر وأجزاء المدن ، وذلك تيسيرا لتحركات القوات وتوزيعها فى البلاد ليتم الاحتلال على أحسن حال • ولذلك رأت القيادة الفرنسية أن يضطلع رجالها المختصون برسم خرائط لمصر والاسكندرية والقاهرة • وكانت أحسن خريطة لمصر وأدقها فى متناول القوات ، هى خريطة من وضع فرنسى اسمه دانفيل (٢) ولكنها لم تكن كاملة من حيث الأسماء الجغرافية الموضحة عليها ، وكان مقياسها صغيرا جدا لدرجة يصعب على الضباط الافادة منها ، ومن أجل ذلك رأى بونابرت المبادرة برسم الخرائط المطلوبة على جناح السرعة • ولذلك قرر قبل أن يتم احتلال البلاد احتلالا كاملا ، أن يعكف رسامو الخرائط على دراساتهم الفنيـــة مع جماعات ضباط المساحة ذوى الدراية التامة بعملهم ، تحت ارشاد المهندسين والفلكيين المتخصصين • ومن ثم ، فبعد احتلال الاســكندرية ، نظمت رياســـة القوات جماعات المهندسين والمســـاحين لانجاز خريطة جـديدة للاسكندرية ، وكانت الجماعات العسكرية تحت اشراف المهندسين « تيستيفيد Testevuide » و « جاكوتين Jacotine » أما المهندسون المدنيون فكانوا تحت اشراف « لوبير

(١) وفى خلال تلك السنوات تقرر طبع الكتاب للمرة الثانية بقرار ملكى من لويس الثامن عشر ، وصدرت الطبعة الثانية بين سنتى ١٨٢١ و١٨٢٩ •

(٢) Bourguinon d'Anville, J. Baptiste : Mem.

« Le Père » و « جيرار Girard » وكذلك قسم الفلكيون العمل فيما بينهم ، وكان الحي الغربي في الاسكندرية من نصيب الضباط المهندسين . أما ضباط المساحة العسكرية فاقتصرت أعمالهم على الأحياء القديمة والحديثة • وأخذ المهندسون المدنيون على عاتقهم ، رسم سواحل الاسكندرية وشواطىء البحر بما في ذلك الميناء الغربية والشرقية ، وجزيرة المنار (قايتباى) وهكذا تم ضبط جميع العناصر الضرورية لرسم خريطة حديثة ودقيقة للمرة الأولى للاسكندرية وضواحيها وموانيها وخلجانها ، وتقدير أعماق المياه لرسو أنواع السفن المختلفة •

وبينما كان العمل يجرى لاستكمال خريطة الاسكندرية ، بدأ العمل فى رسم خريطة مصر العامة ، وخريطة القاهرة • فقد وصل ضباط المساحة الى القاهرة فى نهاية شهر سبتمبر ١٧٩٨ ، بينما واصل زملاؤهم فى الاسكندرية أعمالهم التى كانت على وشك الانتهاء ثم عكفوا على تقسيم العمل على جماعات ، فاضطلعت جماعة برسم جزء من أجزاء المدينة • فقام جاكوتين وجماعته بجمع المعلومات الخاصة بخريطة لضواحى القاهرة • بينما قام رئيس الجماعات وهو تيستيفيد Testevuide بالاعداد لرسم خريطة مصر ، بعد أن حدد بنفسه مقياس رسمها ـ وفى الوقت نفسه ، قام بعض رجال الجيش بأعمال المساحة الطبوغرافية فى جهات مختلفة من البلاد ، فى أثناء سير القوات الفرنسية من الاسكندرية الى القاهرة جمع الضباط مقاسات كثيرة ، أعانتهم على وضع خريطة للطريق كانت أساسا جيدا للخريطة المساحية الكبرى • **وفى منتصف أكتوبر عام ١٧٩٨م كان العمل فى خريطة القاهرة على وشك الانتهاء • فقد كانت المنافسة** حادة جدا بين المهندسين المدنيين منهم والعسكريين ، كل جماعة تعمل جاهدة لانجاز الجزء الأولى المخصص لها لكى تكتمل خريطة مصر كلها •

استمرت الأعمال الأولية لخريطة مصر أثناء الأشهر الستة الأولى فى عام ١٧٩٩ • والأمر الذى احتاجوا اليه حينذاك اقتصر على جمع وتنسيق المساحات الجزئية ، ثم وصل الخرائط جميعا بمقياس مناسب ، والعمل بموجب قواعد واحدة متفق عليها • وقد تمت الخطوة النهائية حينما اجتمعوا جميعا بالقائد الأعلى بونابرت فى اليوم الثامن والعشرين من عام ١٧٩٩ ، وبعد مناقشة فنية قصيرة كان ميلاد أول خريطة عامة جيدة لمصر ، تؤلف أقسامها الكثيرة ، ذلك الأطلس الممتاز الذى يعتبر مفخرة عظيمة فى علم الجغرافيا • وقد تم عمل هذا الأطلس عام ١٨٠٦ م والذى أصبح أساسا لكل عمل جغرافى جاء من بعده ، لا سيما فى حقل رسم الخرائط •

وقد أدرك محمد على باشا فيما بعد أهمية الخرائط الدقيقة • ومن المحتمل أن أول خريطة ذات تفاصيل دقيقة عملت عن الديار المصرية ، تلى خريطة الحملة الفرنسية هى التى قام بها المهندس محمد باشا الفلكى بمقياس

١/٢٠٠٠٠ وأنمها سنة ١٢٨٠هـ ـ ١٨٢٧م فى أيام حكم الخديوى اسماعيل • وفى قول آخر ان هذه الخريطة تمت عام ١٨٦٣م •

تلك هى قصة الخريطة الدقيقة الأولى التى كانت أساسا لجميع الخرائط التى رسمت للقاهرة ، حتى رسم الفلكى باشا خريطته المذكورة •

٢ ـ قاهرة الجبرتى •• حينما دخلها الفرنسيون (١٧٩٨م)

قدر علماء الحملة الفرنسية مساحة القاهرة المأهولة فى نهاية القرن الثامن عشر بحوالى ١٨٤٠ فدانا ، أى أقل من ربع مساحة باريس فى ذلك الحين (١) وكان عدد سكان المدينة قد انخفض الى قرابة ٢٦٠ ألف نسمة ، حسب تقدير العالم جومار من علماء الحملة الفرنسية (٢) وقد اشتملت القاهرة على مساحات فسيحة من الأرض الفضاء والأرض المزروعة والخرائب ، وانتشرت فى وسطها الأحواش أو المساكن الفقيرة • أما قصور زعماء المماليك وأعيان التجار ، فكانت تؤلف أحياء أرستقراطية تحيط ببركة الفيل ، والبركة الناصرية شمال حى السيدة زينب ، وبركة الأزبكية ، وتتناثر قريبا من نهر النيل بين البساتين والمزارع • وقد بقيت حدود القاهرة فى أيام الجبرتى على ما كانت عليه على أيام المماليك الجراكسة • فكان باب الحديد نهاية حدود مبانيها جهة الشمال الغربى ، والأزبكية وما حولها من مبان نهاية عمرانها غربا ، والطريق بين البركة وبولاق مقفرة تكاد أن تكون خالية من العمران •• كذلك كان الطريق بينها وبين مصر القديمة •

ثم أصاب القاهرة فى أيام الحملة الفرنسية أشنع الدمار والتخريب ، وأفظع الانتقام فى أعقاب الثورات التى كان يشنها أهل المدينة ضد الغاصبين • وعلى العموم فقد كانت القاهرة فى أوائل القرن التاسع عشر (على أيام الفرنسيين) مؤلفة من ثلاث مناطق سكانية ، تكاد تكون متفرقة عن بعضها وتفصلها الخرائب أو المزارع ، وتلك المناطق هى : القاهرة الفاطمية ، وضاحية بولاق ، ومصر القديمة • وكان يربط القاهرة بضاحية بولاق طريقان •

ان تاريخ القاهرة الطويل ، وحداثة تجددها وانبعاثها ، يقدمان لنا مع ذلك شيئا متناقضا ، فأمامنا مدينة ذات ماض عظيم يمتد الى أكثر من ألف عام ـ بيد أن أمامنا أيضا وجودا ماديا ، ويبدو معظمه أقدم من عمره الحقيقى ، رغم أنه بنى منذ الأمس القريب ، ذلك لأن القاهرة التى رسم خريطتها علماء بونابرت

(١) قدرت مساحة القاهرة فى مرجع آخر بثمانمائة هكتار ؛ أى أقل من ربع مساحة باريس فى القرن ١٨ •

(٢) Clerget, M. : Le Caire, Vol. I, p. 238-239.

فى أعقاب سنة ١٧٩٨م ـ كانت فى الواقع ـ قاهرة العصور الوسطى ـ قاهرة القرن الخامس عشر دون تطور يذكر ، حينما كانت تغطى مساحة حوالى خمسة أميال مربعة حول سرتها • كانت تشتمل على : قاهرة القرن العاشر الفاطمية ، يضاف اليهـــا ضاحيتان تعملان مينائين لها ، هما ، مصر القديمـــة وريثة الفسطاط ، جنوبا ، وبولاق التى نهضت فى القرن الرابع عشر بعد أن كانت قرية متواضعة ، شمالا •

أما القاهرة التى نعرفها اليوم ، فانها تشغل أكثر من خمســـة وسبعين ميلا مربعا ، فى مساحة متباينة التحضر بين الريف والمدينة ! فانها فى الواقع مكدسة بما يشبه الجزر الريفية المتنافرة •

فكأن توسع القاهرة الحقيقى قد تم خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة فقط !! (وليس فى القرون التسعة السابقة) •

وقبل أن ننتقل الى وصف ما اشتملت عليه القاهرة التى عاش فيها المؤرخ الجبرتى ، نستكمل الحديث عما ارتكبه الفرنسيون من تخريب أودى بكثير مما بقى فى تلك المدينة أثناء حكم العثمانيين • لقد وصـــف المؤرخ فى كثير من الصفحات ما حل بالقاهرة أثناء وجود الغزاة بها •

٣ ـ الفرنسيون وتخريب القاهرة كما جاء فى عجائب الآثار

● خرائب الأزبكية :

ذكر المؤرخ في حوادث شهر ذى الحجة يوم الجمعة عام ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) ، فى مناسبة خروج العثمانيـــة وعساكرهم وابراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه والألفى وأجناده ، ان أوقع الفرنساوية بالناس ، وكان من جملة ما ارتكبوه أنهم خربوا عدة جهات من أخطاط مصر الجليلة ، مثل جهة الأزبكية الشرقية من حد جامع عثمان كتخدا والفوالة وحارة كتخدا ، ورصيف الخشاب وخطة الساكت الى بيت سارى عسكر (بونابرت) بالقرب من قنطرة الدكة ، وكذلك جهة باب الهواء الى حارة النصارى من الجهة القبلية • وأما بركة الرطلى (١) وما حولها من الدور والمتنزهات والبساتين فانها صارت كلها تلالا وخرائب وكيمان أتربة •• (جـ ٣ ص ١٠٩) •

ويذكر الجبرتى فى مكان آخر (جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤) ما لحق من الخراب بأحياء أخرى فيقول فى حوادث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥ هـ ، (١٨٠٠ م) •

(١) عرفت باسم بركة الحاجب وبركة الطوابى وكانتا فى الحى المعروف اليـــوم بحى الظاهر •

« وشرعوا (الفرنسيون) فى هدم أخطاط الحسينية وخارج باب الفتوح وباب النصر من الحارات والدور والبيوت والمساكن والمســـاجد والحمامات والحوانيت والأضرحة فكانوا اذا دهموا دارا وركبوها للهدم لا يمكنون أهلها من نقل متاعهم ولا أخذ شيء من أنقـــاض دارهم فينهبونها ويهدمونها وينقلون الأنقاض النافعة من الأخشاب والبلاط الى حيث عمـــارتهم وأبنيتهم وما بقى يبيعون منه ما أحبوا بأبخس الأثمان » •

ويستكمل الجبرتى حديثه فى موضع آخر (ص ١٦٧ ـ ١٧٧) فيقول : « توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظـــالم •• وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبى ، فهدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت المربعة الأركان والمنارة العظيمة ذات الهلالين • واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس الى باب الحديد حتى بقى ذلك كله خرابا متصلا واحدا وبقى سور المدينة الأصلى ظاهرا مكشوفا فدمروه ورموا ما تشعث منه ورفعوا بنيانه فى العلو وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظاما وأبوابا داخلة وخارجة وأخشابا مفروشة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة •• ثم سدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق وأنشأوا عدة قلاع فوق تلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وآلات الحرب والذخيرة وصهاريج الماء •• وهدموا أبنية رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير تحت القلعة وما بذلك من المدارس القديمة المشيدة والقباب المرتفعة وهدموا أعالى المدرسة النظامية ومنارتها وجعلوها قلعة •• وكذلك هدموا مدرسة القانبية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة الناصرية خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها •• » (ص ١٦٨) •

● ومما خربوه أيضا :

تخريب دور الأزبكية وردم رصيفاتها بالأتربة وتبديل أوضـــاعها وهدم خطة قنطرة الموسكى وما جاورها من أول القنطرة المقـــابلة للحمام الى البوابة المعروفة بالعتبة الزرقاء حيث جامع ازبك ، وما كان ضـــــمن ذلك من الدور والحوانيت والوكائل وكوم الشيخ الصابونجي ووصلوه بجسر عريض ممتد ممهد حتى ينتهى الى قنطرة الدكة وفى متوسط ذلك الجسر ينعطف جسر آخر الى جهة اليسار عند بيت الطويل المهدوم وبيت الألفي حيث سكنى سارى عسكر يمتد ذلك الجسر الى قنطرة المغربى ومنها يمتد الى بولاق على خط مستقيم الى ساحل البحر حيث موردة التبن والشون وزرعوا بحافتيه السيسبان والأشجار ••

● بركة الفيل :

ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الأمراء التى كانت بها وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران . وكانت هـــذه البركة من محاسن مصر .

« ومما تخرب أيضا حارة المقس التى تقع من قبلى سوق الخشب الى باب الحديد ، وجميع ما فى ذلك من الحارات والدور صارت خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات .. »

وحدثنا الجبرتى فى حوادث عام ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م) انهم دأبوا على قطع أشجار القاهرة والنخيل من جميع البساتين والجناين الكائنة بمصر وبولاق ومصر القديمة والروضة وجهة قصر العينى وخارج الحسينية وبساتين بركة الرطلى وأرض الطبالة وبساتين الخليج ، بل وجميع القطر المصرى كالشرقية .. كل ذلك لاحتياجات عمل القلاع وتحصين الأسوار فى جميع الجهـــات وعمل العجلات والعربات والمتاريس ووقود النار وكذلك المراكب والسفن .. الخ (عجائب الآثار جـ ٣ ، ص ١٧١) .

---

٤ أ ـ أحياء القاهرة كما وردت فى عجائب الآثار للمؤرخ الجبرتى

بركة الفيل	الدرب الأحمر	حارة الأزهر
الأزبكية	الصناديقية	حارة الافرنج
الباطلية	خط بين القصرين	حارة الحسينية
بركة الرطلى	خط الخرنفش	حارة عابدين
باب اللوق	خط الخليفة	حارة الفرنساوية
باب الشعرية	خط باب اللوق	حارة قواديس
بولاق وأثر النبى	خط البندقانيين	حارة الخراطين
المحجر	خط باب الشعرية	حارة خشقدم
المتاخلية	خط الخيامية	حارة الكحكيين
التبانة	خط الصاغة	حارة النصارى
تحت الربع	خط الموسكى	حارة السقايين
درب الجماميز	خط الساكت	حارة الحطابة
الجمالية	خط الصليبة	حارة قوصون

الخرنفش	خط السكرية	حارة المغاربة
الحبانية	خط السروجية	حارة المدابغ
الحسينية	خط عابدين	حارة كتامة
خشقدم	خط الفحامين	حارة المقاصيص
درب الجماميز	خط الغورية	حارة المقس
الفوالة	خط الرويعي	حارة المناصرة
الروضة	قنطرة الدكة	حارة الناصرية
الموسكي	كوم الشيخ سلامة	
	اللبودية	
	قصبة رضوان	

تلك هى أهم الخطط والأحياء والحارات (بمعنى الخطط) التى ورد ذكرها فى عجائب الآثار ، وسنتبعها بما ذكره علماء الحملة الفرنسية فى « وصف مصر » وذلك للمقابلة ، لأنهما وجدا فى زمن واحد تقريبا .

٤ ب ـ أحياء القاهرة كما وردت فى كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م)

تشتمل تلك الأحياء ما ورد منها تحت اسم حارة وخط ودرب (أحيانا) . وقد ذكر العلامة جومار منها ثلاثة وخمسين حيا (Quartiers) ، بين منها اثنين وخمسين حيا على خريطة القاهرة الملحقة بالكتاب المذكور .

النصارى	الداودية	النصارى ؟
المدابغ	الزرائب	الصعايدة
عابدين	النصارى (مكرر)	العبيد
الحنفى	عابدين	السقائين
الزياتين	صفية (الملكة)	السيد ؟
غيط العدة	المغاربة	الحمام
اليهود	الصقالبة	القرائن (القرائن ؟)
زويلة	الساكت	الفرنساوية
الكفارورة	الشعراوى	الخضرى

النصارى	النصارى	الفوالة
الغريب	الدراسة	قنطرة الدكة
الوسايمة	الدويدارى	الفرن (درب)
الويليلى	الجعيدية	الأزهر
البوص	العطوف	السنانية
الحطابة	الخربكية	زرع النوى
الرحبة	الروم	البرانية

وقد عثر العلامة المستشرق أندريه ريمون أثناء دراساته على قائمة لمشايخ الحارات التى تضمها وثائق أرشيف (١) القاهرة فأضاف اليها الأحياء الآتية :

الجمالية	درب الأحمر	عرب اليسار
التبانة	البقلى	درب المحروق
كوم الشيخ سلامة	الحبالة	درب السكرى
	الحسينية	درب مصطفى بك

وبالاضافة الى تلك الأحياء الثلاثة والستين ، انتهى الدكتور أندريه ريمون الى توزيعها كما يلى : ٣٢ بالقاهرة الفاطمية ، ١٩ بالمنطقة الجنوبية ، و ٢٠ فى المنطقة الواقعة الى غرب القاهرة ووراء الخليج المصرى ، وأكثر من حارة بالحسينية .

ويذكر الدكتور أندريه ريمون أن هذا رقم غير مؤكد تماما ، ومن المحتمل أن يقترب الرقم الحقيقى من المائة ومن الممكن مراجعة وتحديد هذه الحارات على خريطة القاهرة التى رسمها خبراء الحملة الفرنسية .

وسنختار منها بعض الأحياء ، فنتحدث عنها لجلاء صورة القاهرة قدر الامكان .

٥ ـ أحياء القاهرة السكنية أيام الجبرتى

ان التكوين العام لقاهرة الجبرتى وما قبل عصره ، يبدو كما لو كان يسير وفق تنظيم هيأته تفاصيل الحياة دون تدخل من جانب السلطات ، ففى أحياء وسط القاهرة الواقعة بطول قصبة رضوان مخترقة القاهرة الفاطمية من

(١) اشتملت القائمة ٥٨ شيخا .

الشمال الى الجنوب ، تجمعت غالب صناعات الترف ، وأهم وأكبر النشاطات التجارية وحركة التوابل والبن . وكانت تجارة المنسوجات تشغل قلب المدينة ، بين الحمزاوى والجامع الأزهر وخان الخليلى والصاغة . وفى قلب المدينة الفاطمية كانت ثلاث أرباع عدد الوكالات ، وكذلك معظم الخانات ، والمصنوعات النحاسية التى تجتذب المشترين . أما النشاطات الصناعية التى قد تسبب الضيق للسكان ، فقد بعدت الى تخوم المدينة ، ونورد منها على سبيل المثال : معاصر الزيوت ، ومخازن الفحم وخشب الوقود ، والجيارات والجباسات ، وان أية مقارنة بين قاهرتى المقريزى والجبرتى تبين وتكشف عن تغييرات أساسية فى توزيع مختلف الحرف فى أنحاء القاهرة .

أما عن توزيع الأحياء السكنية بوجه عام ، فنلاحظ أن أسرات الشيوخ الأغنياء والتجار الميسورين ، كانوا يفضلون سكنى القاهرة الفاطمية على مشارف الأحياء التجارية وبالقرب من الأزهر . وكذلك بركة الأزبكية التى كانت فى أيام الجبرتى وقبله المركز المفضل للاصطياف كشواطىء الخليج المصرى . وكان أبناء الطبقة الحاكمة من البكوات وضباط الوجاقات ينتقلون تدريجيا من مساكنهم حول القلعة الى بركة الفيل ، وفى النهاية الى الأحياء الجديدة وراء الخليج (غربية) مع تفضيل لضواحى بركة الأزبكية التى كانت تتطور لتصبح قرابة سنة ١٧٩٨م الحى الارستقراطى المفضل . وكانت الأحياء الشعبية أو الفقيرة الى حد ما تتناثر فى المنطقة المتاخمة غرب باب اللوق وجنوب وشمال المدينة .

بركة الفيل

كانت بركة الفيل حتى نهاية القرن ١٨ بركة كبيرة جنوب غربى القاهرة ، تمتد من بستان الحبانية ، الى بستان سيف الاسلام ، الى تحت الكبش ، الى الجسر الأعظم الفاصل بينها وبين قارون ومناظر الكبش المطلة عليها . ولما أنشأ القائد جوهر القاهرة ، كانت البركة تجاه باب زويلة فيما بين القاهرة الفاطمية ومصر القديمة ، لم يكن عليها مبان ، ثم عمر الناس حولها بعد عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م .

ولم تكن بركة الفيل عميقة بل كان بها ما راكد ، وانما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا وقت الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى ، وبعد هبوط الماء تزرع أصنافا شتوية ، وكان أشهر محصولاتها القرط المعروف بالبرسيم حيث كان يستهلك فى تغذية دواب القاهرة . وقد تحولت أراضيها من الزراعة الى السكن منذ عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م ، ولم يبق من أرض البركة بغير بناء الى عام ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م التى رسمت فيها الحملة الفرنسية خريطة القاهرة ، الا قطعة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس حلمى الأول

والى مصر ، التى عرفت بسراى الحلمية ، وحديقتها الكبيرة • وفى عام ١٨٩٤ م قسمت أراضى الحديقة ، وفى ١٩٠٢ م هدم القصر وقسمت أراضيه أيضا ، وبيعت جميع القطع وأقيمت عليها العمارات الحديثة وتعرف بين أحياء القاهرة بالحلمية الجديدة •

وكانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية ـ المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الحبانية • ومن الغرب بشوارع ، درب الجماميز واللبودية والخليج المصرى ، ومن الجنوب شارب مراسينا ، ثم يميـل الحد الى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شـارع نور الظلام ، ويسير فيه الى أول شـارع الألفى ، ومن الشرق كمالة شارع نور الظلام ، فشارع مهذب الدين الحكيم ، فسكة عبد الرحمن بكر وما فى امتدادها الى الشمال حتى تقابل الحد البحرى • ومن هذا التحديد يتضح أن بركة الفيل لم تكن على شكل فيل ، وانما كانت على شكل بيضاوى مفرطح فى جهته • وأما سبب تسميتها بركة الفيل ، فهـو أن الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون كان معروفا باقتناء الحيوان ، وأنشأ لكل نوع منها دارا خاصة له ، وكانت دار الفيلة واقعة على حافة البركة من الجهة القبلية الشرقية حيث شارع نور الظلام ، وكان الناس يقصدون البركة للنزهة ولمشاهدة الفيلة ، فاشتهرت بينهم ببركة الفيل (١) •

واصلت بركة الفيل لعب دورها (٢) كمنطقة منفصلة لسكنى الأرستقراطيين وان لم يكن بطريقة جامعة ، فقـد أصبحت جاذبية الأزبكية تشـد اليها بعـض الأمراء كما سنرى •

منذ واسط القرن الثامن عشر ، بدأ البكوات يتركزون حول كل من بركة الفيل وبركة الأزبكية وهما أوسع « برك » القاهرة وأكثرها امتلاء بالماء ـ مصدر انتعاشـهم ـ فى معظم أوقات السنة ، اذ بلغت نسـبتهم هناك ٥٣٪ فيما بين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ وارتفعت ٥٨ ٪ عام ١٧٩٨م • وعند نهاية القرن ، كان كل واحد من البكوات ، الذين كانت لهم حرية واسـعة فى الاختيار بين عـدة بيوت ـ يمتلك على الأقل دارا فى ضواحى بركة الفيل ، وعادة فى حى قوصون ، وأخرى فى الأزبكية ، وعلى سبيل المثال ، كان لعلى بك الكبير ثلاثة بيوت ، ولمحمد بك أبو الدهب اثنان ، ولاسماعيل بك اثنان ، أما مراد بك فكان له ستة بيوت ، وكان لمحمد بك الألفى العدد نفسـه ، ولمرزوق بك أربعـة ، ولابراهيـم بك الـكبير خمسـة •

ومع ذلك فقد ظلت بركة الفيل هى الحى المفضل لسكنى الارستقراطيين ، وقد خصها الجبرتى فى صفحاته بجزء كبير من كتابه ، وخاصـة عندما يتحدث عن هذا الحى فى فصل الفيضان •

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ١٦١ •

(٢) فهرس عجائب الآثار : جاستون فييت ، بركة الفيل ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ؛ القاهرة ـ دار المعارف ١٩٥٤ •

حي الأزبكية (١)

كان حي الأزبكية يجذب الأمراء والأعيان قرب نهاية القرن الثامن عشر ، وحتى قرابة عام ١٧٨٠م ظل أبناء البورجوازية يقيمون فيها بأعداد كبيرة • يمكن أن نذكر منهم حسب ما أورده الجبرتي :

١ ـ الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر (ت عام ١٧٥٨م) ، ثم ابنه عامر ، ثم محمد السيد الدمرداش (ت ١٧٦٥م) ، ثم الشيخ المرحومي (ت عام ١٧٦٥م) ، ثم الشيخ حسن المقدسي (ت عام ١٧٦٨م) ، ثم حرم الشيخ محمد الجزايرلي (ت عام ١٧٧٤م) ، ثم الشيخ أحمد المغربي (ت عام ١٧٧٤م) ، ثث الشريف محمد الأسيوطي (ت عام ١٧٧٧م) ثم السيد أحمد الحموي (ت عام ١٧٨٥م) (٢) •

وعند ما أشار المؤرخ الجبرتي لاعادة بناء حي الساكت (٣) بعد أن خربته حرائق عام ١٧٧٦م ، يتضح لنا أسماء أربعة عادوا لاقامة مساكن لهم ، وهم ثلاثة تجار : السيد عمر غراب ، والسيد عبد السلام ، والحاج محمد محرم (الجبرتي ج٢ ص٣) ، وأمير هو رمضان بك بلفيه • وكانت شهرة الأزبكية كمركز للتنزه الخلوي والملذات والمتع الليلية أوقات الفيضان ، ذائعة • ويشهد بذلك ما ذكره مؤرخنا ، وما دونه الرحالة الأجانب ومنهم : سارفاري عام ١٧٨٠ (٤) • ومنذ ازدحام الشط الشرقي من البركة ووجود الحي القبطي جهة الشمال ـ اتجـه الأمراء الى غرب الأزبكية نحو رصيف الخشاب ، حيث أقام حسن بك الأزبكاوي قبل عام ١٧٦٧ ، وحيث شيد علي بك الكبير حوالي ١٧٧٠ بيتا لزوجه الست نفيسة ، ثم أخيرا نحو حي الساكت الذي كان علي بك طهره من الأماكن السيئة • وهناك شيد رضوان بك بلفية عام ١٧٧٦ ، ثم شيد محمد بك الألفي عام ١٧٩٧ قصره المهيب ، ليصبح سكن بونابرت ومن بعده كليبر •

بيوت بركة الأزبكية في عصر الجبرتي

وفي أثناء احتلال الفرنسيين للقاهرة ، اغتصبوا كثيرا من قصور المدينة وأقاموا فيها في سنة ١٨٠٠ (عجائب الآثار ج ٣ ص ١٤٢) مسرحا للكوميديا ، كما أقاموا مطاعم وملاهي خاصة بهم حولها • وكان يشرف على بركة الأزبكية ، حي الأقباط المعروف بحارة النصارى ، وكانت دوره حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط ، وهو الطراز السائد في أحياء القاهرة •

---

(١) موسوعة مدينة القاهرة : حي الأزبكية ؛ ص ١٠ ـ ١١ ، انظر أيضـا : فهـرس عجائب الآثار ، ص ٢٣٧ تحت أزبكية وبركة الأزبكية •

(٢) عجائب الآثار : ج ١ ص ٢٠٨ و٢٦٥ و٣١٢ و٣٧٩ و٤١١ ، ج ٣ ص ٥ و١٠١ •

(٣) علي مبارك : الخطط التوفيقية •

(٤) عجائب الآثار ج ٢ ص ١٧٧ ، ج ٣ ص ٥٩٧ Savary : Lettres sur l'Egypte.

ومن الدور التى أشرفت على تلك البركة وأبيحت حدائقها للجمهور ، دار السيد ابراهيم بن السيد سعودى ، وكانت دارا عظيمة عنى بتشييدها وصرف عليها مبالغ كبيرة • وهذه الدار هى التى آلت الى الأمير محمد بك الألفى سنة ١٧٩٦ فهدمهـا وتغالى فى اعادة بنائها ، ولم يسكن بهـا أياما حتى اغتصبها الفرنسيون وأقام بها القائد بونابرت ، ثم الجنرال كليبر كما ذكرنا •

وكانت على الحافة الشرقية للبركة دور الشرايبى ، وهى كما يقول الجبرتى (عجائب الآثار جـ ١ ص ٢٠٤) احدى دور المجد ، ألحقت بها مكتبة قيمة حفلت بكتب العلم ، وسمح لمن أراد الاطلاع عليها أن يطالع ما شاء فى المكتبة أو يستعيره خارجها • وقد انتقلت ملكية تلك الدار الى الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، فأدخل عليها تعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، وخاصة أيام الفيضان • ثم آلت الى طاهر باشا ناظر الجمارك ، ثم الوالى عباس الأول فهدمها وأعاد بناءها •

وكانت مدرسة الألسن على البركة ، ثم حولت الى فندق للانجليز (المارين بالقاهرة فى طريقهم من الهند الى انجلترا) ، عرف فيما بعد بفندق شبرد •

وفى منتصف القرن التاسـع عشر ردم أكثر قسـم من البركة ، فأزيلت الكيمان التى كانت مجاورة لهـا وأقيمت المتنزهات • كان ذلك فى أيام الوالى محمد على •

حى الناصرية وأشهر بيوته

كانت الناصرية حيا للكشاف ، فقد كان بها عام ١٧٩٨ خمسة بيوت لكشاف من بين ستة بيوت ، أمكن للأستاذ أندريه ريمون حصرها • أما البيت السادس فقد كان قاسـم بك أبو سيف قد شيده عند ما كان لا يزال كاشـفا ، ثم زوده بحديقة واسعة • وكان يحاول أن يسهم فى جعل حى الناصرية حيا حديثا (١) •

كان قصر الأمير قاسم بك أبو سيف (ت ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م) يشغل مساحة كبيرة من أراضى البركة الناصرية (ست نصره) وكان يفتح حديقة قصره للناس ، وكانت تحيط بالقصر وتشقها قنوات المياه التى تصل الى البركة أيام فيضان النيل ، وأحكم جريان الماء فى قنوات مرتفعـــة ، وغرس فيها الزهور والفواكه والأشـــجار والنخيل ، ونسـق بها جلسات مفروشة لخاصته ظللها بالزهـــور •

الخليج المصرى وشاطئاه

كان الخليج الذى يعبر القاهرة العثمانية من وسطهما محاطا طوال القرن الثامن عشر بالدور الفخمة ، وخاصة فى المنطقة الواقعة بين درب سعادة (باب

(١) عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ وفيهما أسـهب الجبـرتى فى وصف القصر وحديقته •

الخلق) وباب الشعرية • وكان الخليج يموج بأنواع المباهج النيلية الفاتنة عند فتح السدة التى تفصله عن النيل ، ثم يصبح بعد انتهاء الفيضان مستنقعا كريه الرائحـــة •

والجدير بالذكر أن بعض الأمراء منذ ما قبل القرن الثامن عشر ، كانوا ذهبوا للاقامة بعيدا نحو الغرب بجوار النيل ، وشيدوا القصور فيها بين بولاق ومصر القديمة ، وهناك كانوا ينعمون بمباهج الريف دون أن يبتعدوا عن شئونهم • ويمكن أن نضيف جزيرة الروضـــة والمقياس الى منطقتى بولاق ومصر القديمة (ابراهيم بك أبو شنب قبل عام ١٧١٩ ، ومحمد بك بن ايواظ قبل ١٧٢٣ ، وابراهيم كتخدا ، ومحمد بك الألفى) ، ومنطقة قصر العينى حيث كان لايواظ بك قصر •

٦ – أهم بيوت قاهرة المؤرخ الجبرتى

دار الست خاتون على بركة الأزبكية

ذكر لنا الجبرتى فى أحداث شهر ذى القعدة سنة ١٢٣١ (١٨١٥) مانصه :
« وماتت الست الجليلة خاتون وهى سرية على بك بلوط قبان الـكبير وكانت محظيته ، وبنى لها الدار العظيمة على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق ، والساقية والطاحون بجانبها • ولما مات على بك وتآمر مراد بك تزوج بها ، وعمرت طويلا مع العز والسيادة والكلمة النافذة وأكثر نساء الأمراء من جواريها • ولما كان أيام الفرنساوية واصطلح معهم مراد بك ، حصل لها منهم غاية الكرامة ورتبوا لها من ديوانهم فى كل شهر مائة ألف ونصف فضة ، وشفاعتها عندهم مقبولة لا ترد ••• توفيت يوم الخميس العشرين من شهر جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ، ودفنت بحوشهم فى القرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى ، وأضيفت الدار الى الدولة وسكنها بعض أكابرها • (عجائب الآثار ـ المطبعة الشرقية بالخرنفش (جـ ٤ ص ٢٨٢) •

بيت الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بالصنادقية

كان للشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا الجليـــل ثلاثة منازل بالقاهرة أحدها بالانرازية على شاطىء النيل ، والثانى تجاه جامع مرزه جوربجى ببولاق ، والثالث فى خطة الصنادقية شمال غرب الجامع الأزهر •

وفى سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤) وقد بلغ الشيخ حسن السابعة والسبعين أصيب بالهيضة الصفراوية ولم يلبث الا اثنى عشر يوما حتى توفاه الله فى غرة صفر سنة ١١٨٨ هـ ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار بعض رفاقه العلماء رحمهم الله جميعا (خليل شيبوب) ص ٣١ ـ ٣٢) •

آل هذا البيت الى عبد الرحمن فرأى سنة ١١٩١ هـ (١٧٧٧) أن يهدمه ويبنيه من جديد على غير الطراز الذى كان عليه أيام أبيه ، وهذه الدار الى يمين السالك فى خطة الصنادقية من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة • فرسم لها الجبرتى بابا قائما على الخطة يؤدى الى مدخل قصير تقوم الى يمينه مصطبة من الحجر المنحوت ، ثم ينفذ منه باب يفتح على رحبة مربعة واسعة غرس فى وسطها حديقة صغيرة تبتسم فيها بعض الأزهار ، وشاد الى يمين الرحبة أقبية بها اصطبل للدواب وهرى للغلال ومطبخ كبير به حاصل تراكم فيه الأخشاب والفحم ، وحفر بئرا بجانبه يستمد منه الماء وبنى بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها لسكن الخدم (١) والعبيد ، وبعضها للضيوف والاستراحة ، وواحدة منها بالغة الاتساع للطلبة والمجاورين وانعقاد حلقة التدريس وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد الى الطابق العلوى يفضينا الى ممشى يدور بالسطا كله مشرفا على الحوش (الرحبة) عقودا تنتظمها عمد من الرخام الملون •

ونسق حول الممشى غرفا شتى ، وحول العقد الداخل ايوانا يرتفع درجتين ، ويقوم على بائكتين بدلا من واحدة • وتأنق شيخنا الجبرتى فى تنظيم داره فزين سماءها وجدرانها بالخشب المحفور والمبخور وأنواع القاشانى الملون ، وأقام حولها خزانتين ، فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيها أرائك تمتد ، وكسا أرضها بالسجاجيد ناشرا عليها الطراريح الحريرية (الشلت) ، وسماه « مجلس العقد الداخل » وجعل له بابين ملبسين بالأصداف والنحاس البراق أحدهما يؤدى الى القاعة الكبرى التى يجلس فيها كبار الزائرين • وقد عقد روشنا فى سمائها تموج حوله ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنثورة فى الزوايا والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المغصنة بالبلور والشماعد الوهاجة ، وافتن فى زخرفتها وفرشها • وأما الباب الآخر فيفضى الى خزانة الكتب وغرف النساء والعيال •

وعلق فى عقود « الدار وأفنيتها المصابيح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال • وكسا جميع الزوايا والأركان والرحاب بصوف الرياش الغالى والأثاث الثمين • وأنفق عليها مالا كثيرا حتى استتمها • ولما فرغ من بنائها سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨) ، هنأه الشيخ مصطفى أحمد الصاوى بأبيات من الشعر جاء فيها قوله يصف مجلس العقد الداخل :

مكان على التقوى تأسس مجده	ومن سور التوفيق والهدى سوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق	ومقعد صدق قد تسامى حبوره
بناء يروق العين حسن جماله	ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة	وقلد من در المعالى بحوره

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ؛ مجموعة اقرأ رقم ٧٠ ، ص ٤٣ •

وبيت التأريخ قوله :

ودار به سعد السعود مؤرخا حمى العز بالمولى الجبرتى نوره
(١١٩٢ هـ)

وقد طرز الجبرتى هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد مرتضى الزبيدى واخوانه الأشياخ والمجاورين وانتظام حلقته فى بيته اذا تمكن من الالقاء فى الأزهر وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه ببولاق ، ومشتاه بالصنادقية (١) ٠

وقد سكن الشيخ عبد الرحمن فترة من الزمن فى بيت يطل على بركة الرطلى ، وكانت كما يقول : يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحرى ٠ وليس فى برها الآخر سوى الأشجار والمزارع ، وتعبرها المراكب والسفائن » (٢) ٠

بيت جمال الدين الذهبى بحارة خشقدم

شيد هذا البيت جمال الدين الذهبى كبير التجار بمصر فى عام ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧) لما دون على طراز سقف المقعد الذى يشرف على فناء البيت ٠ وهذا المقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام ٠ ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الايوانين اللذين تتوسطهما دور قاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب ٠ وأسفال جدران القاعة مكسية بوزرة جميلة من الرخام البديع الصنع الملون ، وبها جزء على هيئة محراب ، وبالايوان البحرى مشربيات ، وبصدر القاعة مشربية لطيفة تطل على الشارع ، تعلوها شبابيك صغيرة من الجص وقطع الزجاج الملون ، وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان ومزوق بالذهب ، وأرضية القاعة مغطاة بالرخام ٠ وفى وسط الفناء فسقية من الرخام نقلت اليه من بيت آخر ٠

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى
المعروف ببيت السحيمى بالدرب الأصفر

أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨) وقد دون هذا التاريخ على طراز من الخشب على أحد جدران البيت ٠ ويتكون من قسمين :

(١) بعد وفاة الجبرتى (١٨٢٥) احترق بيته الذى فى الصنادقية وأكلت النار مكتبة المؤرخ ، فلم يبق لها من أثر وقيل ضاعت كراريس تاريخه بعد عام ١٢٣ هـ (١٨٢١) ، ولذلك ما طبع منها لايتجاوز هذه السنة ٠

(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، جـ ١ ص ١٣ ــ ١٤ ٠

أحدهما قبلى والآخر بحرى ، أما القبلى فقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب سنة ١٦٤٨ هـ ، وأهم ما يشتمل عليه هذا الجزء ، القاعة التى على يمين الداخل والمشتملة على ايوانين بينهما در قاعة أرضيتها مفروشة بالرخام المختلف الألوان ، وعلى يسار الداخل قاعة أرضيتها من الرخام وعلى بابها تاريخ تجديدها ٠

وأما القسم الآخر وهو البحرى فقد أنشأه الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل شلبى عام ١٢١١ هـ (١٧٩٦ ـ ٩٧ م) وأدمجه فى القسم الأول وجعل منهما بيتا واحدا ٠

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول ، فهو يشتمل على قاعة بحرية شرقية ، تعلوها غرفة كبيرة ، ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية وبوسطها فسقية من الرخام وبها نافورة تعد من أجمل ما صنع من نوعها ٠ وأمام القاعة ردهة يتوسط سقفها « شخشيخة » حديثة ٠ ويكتنف هذه القاعة من جانبها البحرى والقبلى سلمان يؤديان الى الطابق العلوى للبيت ، وتعتبر الغرفة البحرية الكبرى ـ الراكبة على تختبوش محمول على عمودين من الرخام ـ أفخم حجرات المنزل وهى مكونة من ايوانين تتوسطها درقاعه ، والجزء السفلى من جدرانها مكسو بالقاشانى المنوع ٠ وللبيت درجات أخرى تؤدى الى بقية الغرف ، وبالركن البحرى الشرقى للحديقة طاحونة وساقية ٠

بيوت الأمير رضوان

ولما مات الأمير رضوان كتخدا الجلفى (١١٦٨ هـ ـ ١٧٥٤/٥٥) ، ذكر لنا المؤرخ الجبرتى ما أنشأه هذا الأمير الماجن من القصور والأماكن التى بالغ فى زخرفتها وتأنيقها ، وخصوصا داره التى أنشأها على بركة الأزبكية وأصلها بيت لدادة الشرايبى ، وهى التى على بابها العامودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد بثلاثة ولية ٠٠٠ ثم انه وسع قطعة الخليج بظاهر قنطرة الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة ، وبنى عليها قصرا مطلا عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى ٠ وكذلك أنشأ فى صدر البركة مجلسا خارجا بعضه على عدة قناطر لطيفة ٠ وبنى قصر آخر بداخل البستان مطلا على الخليج ٠٠ فكان يتنقل الأمير فى تلك القصور وخصوصا فى أيام النيل ٠٠ وهو الذى عمر باب القلعة بالرميلة المعروف بباب العزب ، وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين والزلاقة ٠

(تراجع ترجمة حياة هذا الأمير فى عجائب الآثار ج ٣ ، ص ١٠٩) ٠

عمائر الأمير عبد الرحمن كتخدا

كان الأمير عبد الرحمن بن حسن جاوبش كتخدا مصر (محافظا لها) فى عام ١١٦١ هـ ـ ١٧٤٤ ، وكان مغرما بالبناء ، فأنشأ وجدد كثيرا من المساجد والأسبلة والأضرحة ٠

وليس من شك فى أن عبد الرحمن كتخدا يعتبر فى مقدمة الساعين فى تجميل القاهرة وتعميرها • وكان صاحب نفوذ عظيم قبل أيام على بك الكبير • وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذى استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة لا بأس بها : مدرسة ، ومسجدا ، ونافورة بالقرب من بركة الأزبكية • وفى يوم افتتاحها ملأ حوضا كبيرا وكل ما وصلت اليه يده من الأوانى بالشراب ليسقى الأهالى • وبنى أيضا مدرسة للعميان فى الأزهر ، ومنشآت خيرية أخرى •

أما ابنه عبد الرحمن فقد بزه فى هذا المضمار ، اذ جمع فى أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك فى سبيله الرائع الواقع فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم • له ثلاث وجهات ، بالدور الأرضى منه الكتاب • وأنشأ عند باب الفتوح مسجدا وصهريجا وكتابا • وأنشأ بالقرب من قرافة الأزبكية سقايا وحوضا لسقى الدواب ، وكتابا • وزاد فى مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا ، اشتملت على خمسين عمودا من الرخام ، تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت ، وبنى له محرابا جديدا ، وأقام له منبرا ، وأنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة ، وبنى أعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام ، لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن • وبنى المدرسة الطيبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المبانى فخامة وعظمة • كما أنه بنى المشهد الحسينى ، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب : جامعا ، وصهريجا ، وحوضا وسقاية ، ومكتبا • وشيد جامعا بجهة الأزبكية ، ومكتبا ، وحوضا وميضاة وساقية وقنطرة • وبنى مشهد السيدة زينب بقناطر السباع ، ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة ، والسيدة رقية ، وعمر المدرسية السيوفية ، وجدد الماريستان المنصورى ، وغير ذلك من المساجد والقناطر والجسور التى شهدها خارج القاهرة •

ومن عمائر عبد الرحمن كتخدا دار سكنها بحارة عابدين ، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان ، لم تماثلها دار بمصر فى حسنها وزخرفة مجالسها ، وما بها من النقوش والرخام والقاشانى والذهب المموه وأنواع الأصباغ ، وغرس بها بستانا بديعا بداخله قاعدة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة بالرخام ، وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض • وبلغ عدد المساجد التى أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ـ ثمانية عشر مسجدا ، يضاف اليها الزوايا والأسبلة والسقايات والأحواض والقناطر •

عظم شأن عبد الرحمن حتى بدأ أمر « على بك الكبير » يستفحل ، فأخرجه منفيا الى الحجاز ، وذلك فى أوائل ذى القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثنتى

عشرة سنة ، حتى أحضره يوسف بك أمير الحج فى (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه العمى والهرم ، فدخل الى بيته مريضا فأقام فيه أحد عشر يوما ، ومات ودفن فى المدفن الذى أعده لنفسه بجوار باب الصعايدة بالأزهر عند بابه القبلى • وسار فى جنازته العلماء والأساتذة والطلبة ، وجميع الذين أفادوا من خيراته ، وكان ذلك فى عام ١١٩١ هـ (١٧٧٧) •

قصور الأمير محمد الألفى

كان الجبرتى شديد الاعجاب بهـــذا الأمير ، والتقدير له والثناء عليه بلا تحفظ ، فيقول عنه : (١) « الأمير الكبير والضرغام الشهير كان له داران بالأزبكية احداها كانت لرضوان بك بليفا والأخرى للسيد أحمد عبد السلام بالأزبكية ، فاشترى قصر ابن السيد سعودى الذى بخط الساكت وهدمه وبناه وصرف عليه الأموال الجسيمة ، وكان أول سكنه بهذا البيت فى أواخر شعبان من السنة المذكورة ، وأقام به الى منتصف شهر رمضان ، فكانت المدة كلها ستة عشر يوما ، ثم بدا له السفر الى الشرقيـــة • وفى أثناء ذلك وصلت الحملة الفرنسية الى الاسكندرية ، ثم الى القاهرة ، وأبلى الألفى مع جنده فى المعارك بلاء حسنا ، ثم تنقل فى أنحاء البلاد لكى يقع أسيرا فى أيدى الفرنسيس • وبعد رحيلهم عاد الى القاهرة مع عودة العثمانيين » •

أقيم هذا القصر بالأزبكية على بركة الرطلى • ولما دخل بونابرت القاهرة جعل هذا القصر مسكنا له ومقرا لقيادته ، ثم استولى عليه بعد ذلك وأقام فيه • وقد بقى جزء منه استخدم فندقا عرف باسم فندق شبرد •

دار محمود محرم (المسافر خانة)
بين دربى المسمط والطبلاوى بالجمالية

شيدها الحاج محمود بن محرم فى سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩) ، وأتحفها وزخرفها فأصبحت من أجمل دور القاهرة فى القرن الثامن عشر • وقد تعاطى التجارة واشتهر ذكره ، وعرف بالصدق والأمانة ، وأحبـــه الأمراء المصريون وتداخل معهم بعقل وذكاء وحسن سياسة •

وفى عام ١٧٨٤ زوج ولده أحمد وأقام له الأفراح التى دعا اليها الأكابر والأعيان والتجار وأسكنه معه فى داره • وفى سنة ١٧٩٢ عمر مسجدا بجوار بيته على رأس درب المسمط ووقف عليه أوقافا ، ورتب فيه التدريس • وفى السنة التالية حج من القلزم ، فى أثناء عودته مع الحجاج مرض بالحمى وتوفى الى رحمة الله •

---

(١) تراجع ترجمة الأمير الألفى فى الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٠٣ – ١٠٦ •

وللدار ثلاثة أبواب : اثنان فى درب المسمط ، أحدهما الباب العــام ، والثالث فى درب الطبلاوى • فالباب العام يؤدى الى دركاة (دهليز) توصل الى صحن كبير مكشوف ، به على اليمين قاعة تحوى ايوانين ودور قاعة بصدرها صفة كانت توضع فيها النارجيلات والطشوت والأباريق •• الخ •

وبه من الجهة الغربية باب يؤدى الى سلم ، وبجواره باب آخر يؤدى الى فضاء ، ربما كان فى الأصل من الحديقة ، ويتبعه غرف ومرتفعات للدار ، وبه من الجهة القبلية « التختبوش » بعموده الرخامى البديع الحامل للعتب الخشب المنقوش ، والذى كان فوقه مشربية جميلة من الخرط ، وقد استبدلت بشبابيك « شيشة » •

والجانب الشرقى للصحن به ثلاثة أبواب : الأيسر يؤدى الى سلم يصعد منه الى الغرف العليا وبخاصة الى الجناح الشرقى حيث ولد اسماعيل خديوى مصر الأسبق ، والأوسط يؤدى الى قاعة « الأنس » نقش تاريخها على العتب سنة ١١٩٣ هـ ، وهذا نصه :

الا أن هذى روضة الحسن والهنا	وجنة فردوس السرور الصــقيم
تفوق على الجوزا بحسن جمالهـا	وبهجة منشيها الجواد الــكريم
وأقسم داعى الحظ فيهــا مؤرخا	لقــاعة أنس وسط دار النعيم

الباب الأيمن أكثر زخرفة من سابقه ومصراعه من خشب دمشق ، آية فى البهاء والرونق ، ومنقوش على عتبة الرخام ما يأتى :

شاد العلا قاعة حسن رونقهــا	أضحى السرور بها من جملة الخدم
على قواعد حفظ الله قائمــــة	وقد غــدت بمزيد الأمن كالحرم
فى بيت عز لك العليا تؤرخــه	بشراك فيــه بطول العمر والنعم

ويؤدى هذا الباب الى رحبة توصل الى « قاعة المجد » وهى القاعة الكبرى القبلية ، الخاصة باستقبال التجار وغيرهم ، والى أماكن أخرى ، ويعلو الباب عتبة نقش عليها :

لك يا ذا العزيز قاعــة حســن	هى فى مصر جنــة القـــاعات
صانها الله من حسود ودامت	بك مأوى العليــــاء واللــذات
من يشــاهد اشرافها قال أرخ	أنهـــا قاعة من الجنـــات

وتحتوى قاعة المجد على ثلاثة أواوين بينها « دورقاعه » ، فالايوان المقابل للداخل به شرايح خشب خرط دقيق ، وللايوان الأيسر خزانة خشب جميلة الصنع ، وبأرض « الدورقاعه » نافورة جميلة من فسيفساء رخام ، أما السقف فمن الخشب وبداثر القاعة طراز من الخشب مكتوب عليه بالخط الثلث الجميل تاريخ الانشاء ، قصيدة مكونة من ٢٦ بيتا أولها :

(١) أحمد يوسف : المجلة الجديدة •

هــــذه نزهة لهـــا المجد شـيد وعلى غيرها لهـــا الله أيـــد
وبأسماء ذى الجـــلال تعـــالى وبآياته لهـــا الحفظ يســـند

وبالدور العلوى فى هذه الدار قاعة الاسعاد ، وتحوى ايوانين ودور قاعة بينهما ، فالايوان الأيسر يشرف على درب المسمط من مشربية فى الخشب المخروط الدقيق الصنع وبجانبيه خزانات فوقها طراز دائر حول القاعة كلها ، وبالدورقاعة باب يوصل الى طرقة بها حمام ومزيرة ، وقد كتب على الطراز قصائد متنوعة •

والقاعة القبلية بهذا الطابق هى التى ولد بها الخديو اسماعيل فى ١٦ رجب سنة ١٢٤٤ هـ (٢٢ يناير ١٨٢٩) وبهذه الغرفة خزانة بمصراعين ، بينهما مصراع يؤدى الى سلم اليمين والى حجرة صغيرة تتصل بأخرى ضيقة بها باب يؤدى الى القاعة الشرقية الكبرى العليا • واذا صعد الزائر السلم يجد نفسه فى قاعة صغيرة تحوى ايوانا واحدا ودور قاعة بها مشربية جميلة ، وهذه تؤدى الى قاعة كبيرة لا تقل أهمية عن القاعات الأخرى •

دار ابراهيم كتخدا السنارى بالسيدة زينب بحارة مونج

كان ابراهيم السنارى من أهالى دنقلة ، وكان بوابا بالمنصورة ثم أقام بالصعيد ، ولنباهة ابراهيم اتصل بالأمير مصطفى بك الكبير ، وتعلم اللغة التركية ، ثم اتصل بالأمير مراد بك وتقرب منه ، وأصبح من أعيان القاهرة • وقد انتهى من تشييد هذه الدار قبيل وصول الفرنسيين الى القاهرة (حوالى ١٢٠٩ هـ /١٧٩٤) • وقد توفى سنة ١٢١٦ هـ /١٨٠١ ودفن بالاسكندرية •

ولهذه الدار واجهة ساذجة ، لا يوجد بها ما يسترعى النظر سوى بابها والمشربية الكبيرة التى تعلوه • وتدخل الى فناء الدار مارا بمجاز سقفه مقبى • وبالجنب القبلى للفناء تختبوش ومقعد بابه مشحون بالزخارف ، وسلمه يؤدى الى بابين : الأيمن يوصل الى غرف الدار ، ثم الى القاعة الكبيرة والحمام • والباب الأيسر يؤدى الى المقعد والجناح الشرقى للدار • ويوجد فى هذا الجناح دور قاعة تتوسطها نافورة •

وقد هدم جزء من الدار • وتشغل هذا الجزء اليوم حديقة صغيرة • وقد أقام فى الدار أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) بعض مصورى الحملة وعلمائها ، ومنهم : ريجو الرسام المشهور ، ومالوس ، ولانكريه ، وتيراج ، وجولوه وبها عملت البحوث والرسوم التى نشرت فى كتاب « وصف مصر » •

وشغل الدار المؤرخ جليياردوبك ، فيما بين ١٩١٧ و ١٩٢٦ ، وأقام بها متحفا باسم بونابرت ، ثم أغلق بعد وفاته (١) .

قصر حسن كاشف شركس بالناصرية

كان هذا القصر من أجمل قصور المماليك فى القاهرة . ومكانه اليــوم المدرسة السنية بالناصرية (٢) . وصفه الشيخ المؤرخ الجبرتى خلال حديثه عن حسن كاشف فقال :

انه عمر الدار العظيمة بالناصرية ، وصرف عليها أموالا عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيس الى مصر فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الخراب ، كما وقع لغيرها من الدور . ومما يذكر أن المجمع العلمى المصرى الذى أنشأه الفرنسيون عقد أولى جلساته فى هذا القصر .

وذكر هذا القصر المسيو « جوفروا سان هيلينز » أحد أعضاء المجمع فى واحدة من رسائله المنشورة بكتابه « رسائل من مصر » قال : « عدت من المجمع العلمى بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات حسن كاشــف وقاسم بك (٣) . وبيتين من بيوت الأغنياء ، وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء ورجال الفن ، وفيها من وسائل الراحة مالا يقــل عن قصر اللوفر . وبجوارها حديقة فسيحة تبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة . أما قاعة جلسات المجمع فانها مزدانة بأجمل ما فى قصور المماليك من الأثاث .

وكان هذا القصر أول مقر لنــواة المتحف المصرى ، اذ أودعت به بعض الموميات ، وحجر رشيد الذى اكتشفه الكابتن بوشار .

وقد زار عبد الرحمن الجبرتى الدور التى عمل فيها المجمع العلمى ووصفها وصفا دقيقا . وقال عن مكتبة المجمع التى كانت فى هذا القصر « بأن فيها جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة .. ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك (٤) فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظرا

---

(١) فى المجلد الأول الخاص بالصور من كتاب وصف مصر ؛ توجد اللوحات الخاصــة بدار السنارى أرقامها ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) كتاب وصف مصر .E.M ــ المجلد الاول ــ من اللوحة ٥٤ ــ ٦٠ .

(٣) مكان قصر قاسم بك الآن عمارة الأوقاف الكائنة بشارع الكومى . وقد سكنه أعضاء لجنة العلوم والفنون التابعة للحملة الفرنسية .

(٤) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٣ ؛ ص ٣٤ ــ ٣٥ ، طبعة بولاق .

الى السماء وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف .. ولديهم كثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض والبردة للبوصيرى .. الخ . وقد تكلم أيضا عن قسم الفلك ، وقسم الرسم والتصوير ، وقسم الهندسة والطب والكيمياء ، وغيره .

ومما يقال عن هذه الدار ، انها كانت تشغل مساحة كبيرة فى جنوب غربى القاهرة يحف بها الخليج من كل الجهات ـ ولم يبق من هذا القصر أى أثر . ومن وصفه الملخص فى كتاب وصف مصر ، عرفنا أنه كان يفصله عن الحديقة ممر أقيمت جوانبــه من النبـاتات الخفيفة . وقد مثلت فى القصر جميع عناصر الدور المصرية ـ دهليز مقبى ، وتختبوش تعــلو ميدة تقــوم على عمود من الرخام . وكان لمقعد القصر ثلاثة عقود (أقواس) ويصل اليه المرء بدرج مستقيم ، وله باب أنيق البناء .

وللقصر منظرة كبيرة لها ثلاثة ايوانات على الطراز الشامى ـ يطــل ايوانها الأوسط على الحديقة الكبرى ، وتتوسط الدور قاعة نافورة ، وتعـلو الايوانات الثلاثة التى تحيط الدور قاعة قبة صغيرة ذات نوافذ ، تزيد المكان بهاء وروعة . وتغطى الجدران والرفوف والدواليب المصنوعة من الخشـب المشغول برشاقة وفن عجيبين .

قصر قاسم كاشف (أبو سيف)

وها هو ذا قصر آخر ، زال من عالم القاهرة ، ومن حســن الحظ أن احتوى كتاب وصف مصر على لوحة تبين التختبوش والفناء ، ويرى فيهــا المقعد والشرفة (Loggia) . وكان هذا القصر على مقربة من قصــر حسن كاشف ، وتفصلهما عن بعض حارة صغيرة . وكان المجمع المصرى يضم هذا القصر وقصرى حسن كاشف وابراهيم السنارى .

وق أنشأ هذا الأمير بقصره حديقة أجرى فيها مياه النيل بطريقة مبتكرة، وشق فيها طرقا ممهدة ، وغرس فيها الأشجار والنخيل ، وجعل هذه الحديقة طبقات يعلو بعضها بعضا ، والمياه تصعد الى أعلاها عن طريق أنابيب خاصة، عند كل مصب لهذه المياه أقام مكانا للجلوس . وقد أباح قاسم بك دخــول هذه الحديقة لمن يشاء ، وسماها بـ « حديقة الصفصاف والآس ، لمن يريد الحظ والائتناس » ، ونقش ذلك على لوحة من الرخام ، رفعها على جــذع الشجرة عند مدخل الحديقة .

قصر ابراهيم بك

وكان لهذا الأمير قصران ، أحدهما فى بركة الفيل ، وقد سكنه الجنرال ديبوى ، أما قصره الآخر فهو قصر العينى •

قصر مراد بك بالجيزة

وكان لهذا الأمير قصر كبير فى الجيزة ، رأى بونابرت فى بادئ الأمر أن يجعل منه مستشفى عسكريا ، ثم عدل عن هذه الفكرة ونقل المستشفى الى قصر ابراهيم بك (قصر العينى الآن تجاه الروضة) ثم اتخذ القائد قصر مراد بك معسكرا له • وقد وصف « فيفان دينون » — الذى قدم الى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها — فى كتابه ما احتواه قصر مراد بك بالجيزة وصفا بليغا ، من طرقات وبساتين ومفروشات •

بيت الشيخ الأمير

وبيت الشيخ الأمير — من كبار العلماء المصريين — لم يبق منه أثـــر اليوم ، وهو من مبانى القرن السابع عشر • رسمه المصور « بريز دافن » فى كتابه « الفن العربى من آثار القاهرة » وقد ظهر عام ١٨٧٨ • وقد احتوى على ثلاث لوحات لبيت الشيخ الأمير ، احداها للفناء الداخلى ، وثانيتها للمقعد والأبواب المحيطة به والأشغال الخشبية ، واللوحة الأخيرة لتكسيات • وقــد ورد فى هذا الكتاب ذكر لدارى الأميرين رضوان بك واسماعيل بك •

بيت كاشف

وســـكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديتروى » فى بادئ الأمر بيتا يل على الأزبكية • ولم يتسع ذلك البيت لهما ، فغادراه الى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان •• له ردهات رحبة وايوانات واسعة ،ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع — ودرج عريض ، وحديقة غناء • وســكن الكيماوى « برتوليه » — وكان يلى العالم لافوازيه فى شهرته — بيت كاشف الكبير بحى عابدين •

دار عثمان بك الأشقر

أنشئت أول مطبعة عربية فرنسية بالقاهرة فى عهد الحملة الفرنسية • وقد عهد بادارتها الى المسيو « مارسيل » المستشرق ، أحد أعضــــاء لجنة العلوم والفنون • وكانت تسمى مطبعه جيش الشرق فى مستهل الأمر •ولما

نقلت من الاسكندرية الى القاهرة وسميت المطبعة الأهلية • واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية ، على مقربة من بيت الألفى بك الذى سكنه بونابرت • ثم نقلت الى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية حتى جلاء الفرنسيين عن مصر (١٨٠١م) ـ فاستصحبوها معهم ، ولم تعد الطباعة الى مصر الا فى عهد محمد على •

• ومما يؤسف له غاية الأسف أن فقدت معالم معظم القصور والدور التى كانت تزين القاهرة أثناء اقامة الحملة الفرنسية فى مصر • ولولا ما سجله الرسامون ورجال الآثار فى لوحات « وصف مصر » الذى نشر فيما بين عامى ١٨٠٩م و ١٨٢٨م وكتاب « دى كوست » الذى ظهر فيما بين ١٨٢٧م و ١٨٣٩م ، وكتاب « بريس دافن » (١٨٧٨) ـ لما كنا قد اهتدينا الى أصول تلك العمائر الجميلة •

دار الشيخ عبد الله الشرقاوى

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى من أعظم علماء عصره ، تولى مشيخة الأزهر ، واختاره بونابرت رئيسا للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد • وكانت له دار عظيمة بناها على بركة الازبكية ، وأنفق عليها أموالا كثيرة ، وقد جمع فيها التحف النفيسة والكتب النادرة التى عنى بتجليدها •

دار الشيخ محمد المهدى

وكان لهذا العالم الجليل دار كبيرة ، اشتراها بناحية الموسكى وتطل على الخليج ، وكانت بها قاعات فسيحة ، كسيت جدرانها وأرضها بالرخام الملون والقيشانى ، وتطل على بستان عظيم • واشترى الشيخ المهدى فى آخر عمره دارا فى الكحكيين . ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت الى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلها إلى قرافة المجاورين • وبنى فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته •

وقد تولى المهدى مشيخة الأزهر ومات فى سن الخامسة والسبعين ،ولم يؤلف كتابا أو رسالة على الرغم من ذكائه وحسن استعداده • فقد انشغل بجمع المال وحبه للدنيا • (١)

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، جـ ١ ، ص ١٤٨ • القاهرة عام ١٩٥٦ •

استطاع الشيخ السادات بوساطة الوالى محمد باشا العزتى ، أن ينال قدرا من المال ، أمرت له به الدولة من الخزينة ، لينفقه في اصلاح بعض زوايا أسلافه ، فلما شرع في عمارتها ، أدخل فيها قبورا ومدافن لم تكن فيها، وبالغ في زخرفتها ، ونقشها بالذهب وأنواع الرخام الملون والأعمدة الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع ، وقصرا لجلوسه ، ومكانا لاقامة حريمه •

ثم أنشأ دارا أخرى جعل فيها رواشن ومساقى وبستانا عامرا بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتا لبعض الأمراء ، كانت متخربة • وكانت لبعض أبناء البكرى دار عظيمة وبستان فسيح ، فقهرهم على بيع البستان له بثمن بخس وأضافه الى بستانه • ثم أقام حائطا كبيرا حجب النور والهواء عن بيت البكرى ، حتى باعوا له البيت أيضا بثمن قليل •

وقد أفنى الشيخ السادات غالب عمره ، كما قال عنه الجبرتى ، فى تحصيل الدنيا وتنظيم الرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس (١) •

٧ ـ قرافات القاهرة ومقابرها

انتشرت المقابر فى أنحاء المدينة خارج أسوارها • وكان هناك على الأقل مقبرة كبيرة خارج سور القاهرة الشمالى ، وأخرى فى غربها فى مكان العتبة الخضراء وبداية شارع عبد العزيز •

وكان من أهم قرافات القاهرة ، قرافتان ، واحدة منهما تحت سطح تلال المقطم في جنوب المدينة الشرقى ، وكانت تعرف بالقرافة الصغرى، وبها مقبرة الامام الشافعى • وثانية في شرق مصر الفسطاط بجوار المساكن ويقال لها القرافة الكبرى •

وبالاضافة الى تلك القرافات ، فهناك قرافة المجاورين أو الدراسة ، وقرافة باب الوزير ، والقرافة الكبرى التي تضم أضرحة السلاطين المماليك وأفراد أسراتهم فى شمال شرق القاهرة ، ومازالت فى مكانها حتى اليوم •

٨ ـ مد المياه الى أحياء القاهرة

كان اعتماد أهل القاهرة على النيل ، فهو المورد الوحيد الهام الذى يمدهم بحاجتهم من المياه ، لا سيما فى المنطقة المحصورة بين شاطىء النيل الشرقى

(١) المصدر نفسه : ج ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ •

وجبل المقطم • فالآبار المنتشرة فى مختلف حياء القاهرة ، وفى المناطق القريبة من القاهرة الفاطمية (المدينة) لم تكن بقادرة الا على تقديم كميات محدودة من المياه لا سيما وقت الأزمات •

وكان الخليج المصرى يساعد النيل فى امداد أهالى القاهرة بالمياه ، وخاصة فى وقت الفيضان • وكان الخليج يخرج من النيل جنوبى قصرالعينى عند السبع سواقى (فم الخليج) ، ثم يسير نحو الشمال الشرقى للقاهرة ، ثم يعود سيره الى الشمال الشرقى مارا غربى بركة الفيل ، ثم غرب درب الجماميز ، ثم غربى باب الخلق (ميدان أحمد ماهر) ثم يخترق سور القاهرة عند باب الشعرية ، ويسير خارج القاهرة الى القرب من جامع الظاهر بيبرس ، ثم يسير بين المزارع الى ناحية الزاوية الحمراء والاميرية ، فسرياقوس ، فالخانقاه •

ثم ابتعد الشاطىء الشرقى للنيل تدريجيا عن خط سيره المحاذى أصلا لمصر القديمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، فشق على الاهالى حمل الماء لبعد المسافة ، وبعد سنوات أى فى بداية القرن الرابع عشر ، كانت فتحة الخليج المصرى مهددة بالانسداد ،حتى اضطر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى عام ١٣٣٤ م الى حفر قناة أو خليج آخر عرف بالخليج الناصرى وكان يتفرع من النيل على بعد خمسمائة متر شمال الفتحة القديمة • ومنذ أيام المقريزى حتى أيام المؤرخ الجبرتى لم يتغير وضع الخليجين ، فالشاطىء الشرقى للنيل ابتعد بما يزيد على كيلومترين غربى الخليج المصرى • وبكيلومتر واحد من حدود المدينة فى القرن الثامن عشر (باب الحديد — باب الخلق — باب الناصرية) •

لقد كان ممكنا علاج الأمر ببناء مشروعات هندسية يمكنها أن تجلب مياه النيل الى وسط القاهرة ، لكن غالبية الأعمال التى نفذت من هذا القبيل ، كان القصد منها خدمة الحكام والملوك فى الاعتبار الاول ، وكانت فائدتها لاتعود على الشعب الا بطريقة غير مباشرة (١) •

ومدينة كبرى مثل القاهرة ، احتياجاتها الى الماء تعتبر فى المقام الأول من الأهمية لا يمكن اهمالها • ولذلك كانت الحاجة شديدة لتنظيم مهنة وطائفة السقايين الذين يقومون بنقل الماء وحمله من النيل أو الخليج الى دور القاهرة •

وفى عصر الجبرتى كان النظام الطائفى للسقايين فى القاهرة قد بلغ غاية تطوره • وقد جاء فى قائمة الطوائف المهنية التى نشرها علماء الحملة الفرنسية فى القاهرة عام ١٨٠١ مالا يقل عن ثمانية طوائف للسقايين • ويحدثنا المؤرخ الاجتماعى أندريه ريمون ، أنه كانت هناك خمس طوائف تقتسم السقايين

(١) أندريه ريمون : عهد السقائين فى القاهرة — المجلة ؛ العدد ١١٨ ، أكتوبر ١٩٦٦ — ص ٣٦ — ٤٤ •

الذين يعبون مياههم من النيل • لينقلوها اما على ظهور الجمال (طائفة فى باب اللوق) واما على ظهور الحمير (أربع طوائف فى أحياء : باب البحر ، باب اللوق — حارة السقايين ، قناطر السباع) ، وعند باب اللوق كانت طائفة السقايين أصحاب الجمال ، تعمل وسط المدينة عند بداية شارع تحت الربع • أمـــا الأربع الطوائف الأخرى للسقايين أصحاب الحمير ، فان توزيعها من الشـــمال الى الجنوب قد سمح لكل منها أن يغطى قطاعا من قطاعات القاهرة •

وكان الخليج المصرى يغنى عن النيل خلال أشهر الفيضان ، حيث أنه أقرب الى القاهرة . مما يمكن السقاء من القيام بجـــولات أكثر مما لو كان يتجه الى النيل نفسه فى المدة نفسها •

٩ — أسبلة القاهرة

ولم تكن كل كميات المياه المستمدة من النيل تباع مباشرة الى أهـــالى القاهرة ، فجزء كبير منها كان يوضع فى خزانات سبل (أسبلة) المدينة ، حيث يستطيع الفقراء الذين لا يمكنهم شراء المياه من السقايين أن يحصلوا منها على حاجتهم بأنفسهم •• ففى عام ١٨٠٦ كان يوجد فى القاهرة وحدها حوالى ثلاثمائة سبيل ، كان معظمها من المنشآت الخيرية التى أسسها بعض الأمراء والأغنياء لمنفعة الأهالى • وكان السبيل فى الغالب بناء يحمل زخارف جميلة تضم عادة ثلاثة طوابق • فى الطابق الأعلى منها يوجد كتاب يتعلم فيه الصبية القراءة والكتابة • أما فى الطابق السفلى (تحت الأرض) فكان عبارة عن حوض يفرغ فيه جماعة السقايين قربهم التى يحضرونها على ظهور الجمال وكانت المصاريف تدفع من دخل الوقف الذي أوقفه مؤسس السبيل عليه •
(أنظر الملحق الخاص بأسبلة القاهرة)

١٠ — حارات القاهرة ومشايخها

كانت حارات القاهرة قبل عصر الجبرتي وبعده تخضع لسلطة مشايخ الحارات • وكان يعاون كلا منهم نقيب أو أكثر يساعده على أداء واجباته ، كما كان يفعل مشايخ الطوائف الحرفية . فكان هناك تكامل بين العملين • فكان من الممكن أن يكون شيخ الحارة — أحيانا — هو نفسه شيخ الطائفة المسيطرة فى الحارة (الحى) •

ومنذ قيام مشايخ الحارات باحصاء النفوس فى ٣١ أكتوبر ١٧٩٨ ، أصبحوا ضامنين للأهالى من أبناء أحيائهم ، ومسئولين عن أى اضطراب قـــد

ينشأ فيها • وعندما فكر الفرنسيون في اجراء احصاء للمولودين والمتوفين أوكلوا هذه المهمة الى مشايخ الحارات • تعاونهم فى ذلك القابلات والملحدين (الحانوتية) (١) والجدير بالذكر انه لم يرد ذكر لشيخ مشايخ الحارات فيما كتبه الجبرتى الا فى عـام ١٨٠٣م ١٢١٨هـ • وعلى أى حال فلا يمكن اعتبار هذه الحارات (الاحياء) أقساما ادارية بالمعنى الصحيح • فقد تم ذلك فى أيام محمد على فيما بعد ، وذلك حينما قسمت القاهرة الى ثمانية أقسام ، يطلق على كل قسم منها ثمنا (٢) •

وكان أغا الانكشارية يمارس دور الشرطة نهارا ، فى الوقت الذى كان فيه (الوالى) يقوم بدور الشرطة الليلية • وفى كثير من الاحوال كان يعطى نفسه مهام أخرى بالاضافة الى واجباته ، فخد خول لنفسه حل بعض مشاكل المرور فى شوارع القاهرة ، فأمر بازالة الأتربة التى تراكمت فى بعـض الجهات ، كما أمر بازالة مصاطب الدكاكين « التى تعوق الطريق ، كما كان يأمر بازالة الانقاض واعادة بناء ما تهدم من الأبنية عقب نشوب المعـارك الداخلية » •

وكانت وظيفة والى القاهرة (ويسمى أيضا بالتركية صوباشى) أقـل مرتبة من الأغا ، وكانت السلطة التى يحوزها ذلك صلة بشـئون المرافق والبلديات محصورة داخل القاهرة ، وكانت مهمته تملى عليه التأكد من حراسة مختلف الأحياء وأن النظام يسود المدينة وكان يقوم بجولات ليلية ويصحبه فى جولاته النهارية والليلية عدد من الجنـد • وكان من اختصاصاته تنظيف قناة الخليج ومكافحة الحريق ، وعندما تحدث كارثة فعليه التوجه الى مكان الحادث مع ممثلى عدد من الطوائف المهنية ، وبخاصة السقائيين •

كان مركز شرطة القاهرة فى قلب المدينة بجوار باب زويلة ، وهنـا كان مقرسكنى الوالى ، ويذكر كتاب « وصف مصر » أنه فى هذه المنطقة كان يوجد بيت الوالى ، وبوابة الوالى حيث كان يقوم بحراسته الجنود ، فى شارع صغير يؤدى الى قصبة رضوان الى اليسار عند الخروج من باب زويلة •

ويذكر الجبرتى أنه فى عام ١١٧٣هـ (١٧٢٠م) أنشىء سـور لعزل حي الافرنج ، وتم انشاء بوابة له عام ١٧٥٧ (الجبرتى جـ ٢ ص ١٧) •

ونرى أنـه لكى ندعـم المعلومـات التى أمدنا بها مؤرخنا الجليل — بالاضافة الى ما قدمته لنا موسوعة الحملة الفرنسية — أن نقدم للقارىء الكريم

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ص ٤٥ و١٤٢ •

(٢) اندريه ريمون : القاهرة العثمانية بوصفها مدينة ، المجـلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٠ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ عام ١٩٧٣ م •

ماسجله عالم ومستشرق بريطانى عرفته القاهرة ، وأدرك القاهرة خلال الثلث الثانى من القرن التاسع عشر ، هو « ادوارد وليام لين » صاحب الكتاب الهام المعروف « أحوال المصريين المحدثين وتقاليدهم » •

وله كتاب آخر اسمه « القاهرة — منذ خمسين عاما » (١) أشار ناشره فى مقدمته (ص ٥ — ١٢) الى أن هذا الكتاب صورة صادقة لمعالم القاهرة فى عام ١٨٣٦ (٢) وتتناول جميع فصول الكتاب معلومات طريفة ومفيدة عن انشاء القاهرة فى أيام الفاطميين ، وعن أحوال القاهرة فى عام ١٨٤٧ (الفصل الثالث) ؛ ثم تناول فى الفصل الخامس سكك وحوارى القاهرة والدروب والاسواق والحانات والوكالات ، وسوق الرقيق ، وحارات اليهود والروم والنصارى والافرنج ، والموسكى والازبكية وقصورها ، وبركة الفيل، والجبانات والحدائق والخليج • وتناول مساجد القاهرة (الفصل ٦) ، ثم تكلم عن الجبانات (الفصل الثامن) • وعن الجزيرة أو الروضة (الفصل التاسع) ، واختتم الكلام فى الفصل العاشر عن مصر العتيقة •

وقال المستشرق « لين » ان مساحة القاهرة ماعدا بولاق ومصر العتيقة، تبلغ ثلاثة أميال مربعة (الفاطمية) وقد تزيد قليلا ، وان الشائع ان عدد سكانها هو مائتا ألف ، ويقول ناشر الكتاب ان هذا الرقم قد يرجع الى عام ١٨٢٨م ، لأن مستر لين يقدره فى كتابه « المصريون المحدثون » بمائتين وأربعون ألفا •

١١ — القاهرة فى السنوات الأولى من حكم الوالى محمد على

فاذا تقلد الوالى محمد على ولاية مصر (١٨٠٥م) ، أدرك أن القاهرة فى تلك الصورة الشنيعة لا تليق عاصمة لقطر يريد له النهوض والحركة • فوجه عنايته الى التخلص من الانقاض والخرائب المتراكمة خلال القرون الثلاثة التى كانت تشوه العاصمة • بالاضافة الى ازالة الدور الخربة ولذلك صدرت الأوامر فى سنة ١٨١٥م/١٦ باعداد حملة من المهندسين للكشف عن دور القاهرة فان وجدوا بها خللا أمروا باصلاحه أو هدمه • وذكر المؤرخ الجبرتى (٣) فى حوادث شهر ذى القعدة عام ١٢٣١هـ (١٨١٥/١٦) أن الباشا أطلق

(١) E.W. Lane : Cairo fifty years ago. London, J. Murray, Albermale, 1896.

(٢) عدلى طاهر نور : المستشرق الكبير — ادوارد وليم لين — حياته ومؤلفاته — القاهرة ١٩٧٣ ؛ ص ٢٦٤ — ٢٧٠ •

(٣) عجائب الآثار ، جـ ٤ ص ٢٥٣ •

المنادين فى شوارع القاهرة وأحيائها ، وندب جماعة من رجاله وملاحظى المبانى للكشف عن الدور والمساكن ، فان وجدوا بها خللا أمروا صاحبها بهدمها وتعميرها ، فان كان يعجز عن ذلك يؤمر باخلائها حتى يعاد بناؤها على نفقة الحكومة ، وتكون من أملاك الدولة ، وكان سبب هذا الامر ، سقوط بعض الدور وموت الناس تحت أنقاضها .

ثم اتجه نشاط الحكومة الى ازالة الكيمان من القاهرة ، وغرس الأشجار ، وكان ذلك فى عام ١٨٢٩ ، فأزيلت الكيمان الملاصقة للنيل شمال قصر العينى ، وكانت معروفة بكوم العقارب ، وكان مسطحها تسعة أفدنة ، فأزيلت فى قرابة عام . وأزيلت أيضا التلال الكائنة بين حى الناصرية وجاردن سيتى ، ومساحتها ٣٨ فدانا ، وغرست بأشجار الزيتون وغيرها (١) ، وأزيلت أيضا الأكمة التى كانت تسد الطريق الى شبرا بجوار قنطرة الليمون ، وحولت الى منتزه (٢) . ثم رغبت الحكومة أن تعجل بعمران القاهرة وأن تتخلص من خرائبها ، فصدر قرار بتعمير أراضى الخرائب سواء أكانت مملوكة أم موقوفة وذلك فى عام ١٨٣١ ، بعد احصائها وتحديد مساحتها (٣) .

كانت تلك .. هى الخطوة الأولى فى ازالة ما تراكم من التخريب والتدمير خلال قرون ، استعدادا للخطوات التالية التى تمت فيما بعد : من انشاء الطرق الجديدة ، وازالة الازقة والعطوف ، وتخطيط القاهرة الحديثة ، فى الروضة ، وبمحاذاة المنيرة ، وقصر العينى ، واحياء حى شبرا ، وغيرها . ويهمنا هنا أن نذكر بعض منشئات تلك الايام التى شاهدها مؤرخنا الجبرتى مسجد زين العابدين (١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م) ، وسراى محمد على بشبرا (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) ، واصلاح مجرى قناطر المياه (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) وبناء مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل (١٢٢٤هـ / ١٨٠٩) (٤) ، وبناء قلعة « محمد على » أعلى قلعة صلاح الدين وعلى قمة المقطم ، وبناء دار ضرب النقود فى القلعة (١٢٢٧ هـ/١٨١٢م) (٥) ، وبناء قصر الجوهرة والعدل داخل القلعة (١٢٢٩ هـ /١٨٤١م) ، وبناء مسجد جوهر المعينى (١٢٢٩ هـ / ١٨٤١ م) (٦) ، وسبيل محمد على بالعقادين (٧) ، ودار

---

(١) الوقائع المصرية رقم ١١٤ فى ٢ رمضان سنة ١٢٤٥ هـ ، ١٨٢٩ م .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل ، جـ ٢ ص ٥٣٢ .

(٣) وثيقة رقم ٨٦ بتاريخ ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٤٧ هـ ، ١٨٣٠ م ، ووثيقة رقم ١٩١ بتاريخ ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) .

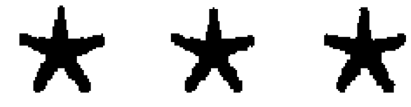
(٤) أرقام تسجيل هذه الآثار هى : ٥٩٩ (مسجد زين العابدين) ؛ و٦٠٢ (سراى محمد على) و٢١٠ (مسجد حسن باشا طاهر) و٤٥٥ (قلعة محمد على) .

(٥) رقم سجلها الأثرى ٦٠٦ ، ٥٠٥ (قصر الجوهرة والعدل) .

(٦) رقم سجله الأثرى ٦١١ .

(٧) رقم سجله الأثرى ٤٠١ .

المحفوظات (١) ، وسبيل محمد على بالنحاسين (٢) ، وقصر الحرم بالقلعة (٣) ... الخ .



ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، بدأت القاهرة مرحلتها العمرانية الحديثة .. مرحلة التوسع والتجديد والتحديث والنمو ، وذلك بالعبور الى مناطق سكنية جديدة فى شمالها . (الأميرية وشبرا الخيمة) وجنوبها (المعادى وحلوان) ، وشرقها فى مدينة نصر وعلى هضبة المقطم ، وغربها عبر النيل الى أحياء : الجزيرة والزمالك ، وميت عقبة ، والعجوزة ، والدقى والأورمان .

---

(١) رقم سجله الأثرى ٦٠٥ .
(٢) رقم سجله الأثرى ٤٠٢ .
(٣) رقم سجله الأثرى ٦١٢ .

الملاحق

١ - الأبواب الأثرية وأبواب الأحياء التى وردت فى عجائب الآثار

باب الحديد	باب الهواء	باب المدرج
باب العدوى	باب اللوق	باب المستحفظان
باب القلعة	باب الفتوح	باب الرحمة
باب العزب	باب زويلة	باب السلام
باب البحر	باب النصر	باب قرة ميدان
باب البكرية	باب الغريب	باب سعادة
باب البركة	باب القرافة	باب الشعرية
باب البركة	باب القوس	باب التوفكجية
باب الجبل	باب الوزير	باب الانشكارية
باب الخلق	باب الزهومة	

٢ - البرك فى قاهرة الجبرتى

ذكر الجبرتى فى « عجائب الآثار » البرك الآتية :

- بركة الأزبكية ، وكانت تعرف ببركة بطن البقرة فى أيام الفاطميين .
- بركة الفيل ، وكانت فيما بين القاهرة الفاطمية (جنوبا) وشمال القسطاط
- بركة قارون ، وكانت تقع تجاه بركة الفيل بين قلعة الكبش وخط السبع سقايات ويفصلها عن بركة الفيل « الجسر الأعظم » (شارع ماراسينا) .

- بركة الرطلى ، وكانت تعرف باسم بركة الحاجب ، وبركة الطوابين .
- البركة الناصرية ، مبينة على خريطة الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ باسم بركة « ستى نصرة » أو بركة السقايين . ومكانها المنطقة التى يخترقها اليوم شارع نصرة ، ويحدها من الشرق شارع عماد الدين ، ومن الغرب شارع مصطفى كامل ومن الجنوب شارع الاسماعيلى (١) . وان كان على باشا مبارك له رأى آخر (جـ ٣ ص ٩٧) .
- بركة الغرابين وكان موقعها بميدان عابدين (اليوم ميدان الجمهورية) .
- بركة الحاج ، وهى بركة الحجاج .
- بركة الحاجب ، هى بركة الرطلى .
- بركة أبى الشوارب .
- بركة جنق .
- بركة الشيخ قمر ، مكانها اليوم دار السكاكينى وما حولها من المساكن بحى السكاكينى .
- بركة أبو الشامت ، يحتمل أن تكون البركة الناصرية أو بركة المعهد (الفرنسى) .
- بركة قرموط ، كانت واقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع ٢٦ يولية (فؤاد الأول سابقا) ومن الغرب بشارع شامبليون ، ومن الجنوب بشارع عدلى (الملكة فريدة سابقا) ومن الشرق بشارع شريف بالقاهرة . (٢)

٣ – أسواق القاهرة فى أيام الجبرتى

أورد الجبرتى فى ثنايا صفحات كتابه أسواق القاهرة ، ومنها :

سوق أمير الجيوش (سوق مرجوش) – سوق الاناطيين – سوق العصر – سوق الأزهر – سوق العنبريين – سوق البندقيين – سوق الغلة – سوق الغنم – سوق الخيل – سوق الخياطين – سوق الخشب – سوق الكتبيين – سوق الصاغة (الصاغة) سوق السلاح – سوق الفحامين (الفحامين) – سوق الغورية (الغورية) سوق مسكة – سوق المؤيد – سوق النحاسين – سوق السمكرية – سوق السرمتية – سوق الشوايين – سوق الزلط –

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ص ١٩٤ – ١٩٥ – الهامش رقم ٢ للمؤرخ محمد بك رمزى . انظر أيضا الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٩٧ .
(٢) المرجع السابق : ص ٨١ ، ٨٢ للمؤرخ محمد بك رمزى .

السكرية ـ السروجية ـ سويقة البكرى ـ سويقة العزى ـ سويقة الصاحب ـ سويقة لاشين ـ سويقة الشماعين ـ سويقة عصفور .. الخ .

٤ ـ الوكالات والأسواق فى قاهرة الجبرتى كما ذكرت فى كتاب وصف مصر

ذكرنا فى مستهل هذه الدراسة ، مدى ما أفدناه من كتاب وصف مصر « وخريطة القاهرة » الملحقة به فى التعرف على أخطاط القاهرة وماشتملت عليه من الأسواق والوكالات والخانات .

وسنرد الآن تفصيلا لما اشتملت عليه بعض تلك الاحياء الكبرى ، **وهى:**

أولا : أحياء القاهرة الفاطمية التى تقبع شرقى القصبة ـ بين القصرين من الجنوب الى الشمال ، أى من باب زويلة (المتولى) ، فى الأزهر ، فبابى الفتوح والنصر .

ثانيا : بقية القاهرة الفاطمية بين القصبة ـ بين القصرين الى محاذاة الخليج المصرى .

ثالثا : خط ما بين باب زويلة وجامع / مدرسة السلطان حسن .

رابعا : خط الصليبة وخط جامع أحمد بن طولون .

خامسا : خط القلعة وما جاوره وداخل القلعة .

سادسا : الحد الشرقى من الخليج (باب باب الخلق وسور القاهرة الشمالى من الجنوب الى الشمال) .

سابعا : منطقة غرب القاهرة (غرب الخليج من الجنوب الى الشمال) .

ثامنا : منطقة شمال القاهرة .

تاسعا : منطقة جنوب القاهرة .

١ - وكالات القاهرة الفاطمية شرقى القصبة - بين القصرين :

وكالة المعلم جرجس
وكالة قايتباى
وكالة المغاورين
وكالة الزياتين
وكالة الغورى
وكالة القبرسى
وكالة الحراكشة
سوق الخروزاتية
سوق العقادين البلدى
وكالة العجوة
سوق الكتبية
وكالة باسمة
وكالة الحمير
خان السكر
خان السبيل
وكالة الكفراوى
خان البسط
وكالة خان جعفر الكبير
وكالة القشية
وكالة الدلالين
سوق الجوهرجية
وكالة ذو الفقار الصغير
سوق النحاسين
وكالة الامام
وكالة المغاربة
وكالة الشاميين
وكالة الطوفا
وكالة القرب
وكالة الحرير الكريشة

وكالة قردة
ورش النساجين
وكالة سبيل الست نفيسة
سوق الأزهر
وكالة يشبك
وكالة السيد أحمد المحروقى
وكالة الجوهرية
وكالة المجاورين
وكالة البسطية
وكالة العارفين
وكالة النشارين
سوق الخراطين
وكالة الأزميرلى
خان القهوة
خان الخليلى
وكالة الجبارية (الجد)
خان الصرتيلية
وكالة خان النحاس
وكالة الدنشرى
خان اللبن
سوق المرتيبة
وكالة البلابشة
سوق السكرية
سوق النحاسين
سوق الجعيدية
وكالة أبو الصغير
وكالة الركن
وكالة الاشاطبة

سوق البأطلية
وكالة المغاربة
وكالة الملائية
وكالة بشير جوربجى
وكالة الباشا
وكالة السيد عبد الرحمن
وكالة الحمزاوى الصغير
سوق الغورى
وكالة الخورتلى
وكالة الغبراوى
وكالة القفاصين
وكالة الجلاته (الرقيق)
وكالة الباك
خان الترزية
خان الحنة
تجار لوازم القهوجية
وكالة النحاسين
وكالة الكوشك
وكالة الطابونة
وكالة الاشرفية (ورق)
وكالة الصرتيلية
خان النعالين
وكالة الامام
السكرية
وكالة الموحدى
وكالة المدافعية
وكالة الخرنفش
وكالة الحصرية

وكالة الفحامة	وكالة الجلود والصابون	وكالة الطينية
سوق البصر	وكالة الحديد	وكالة الفراخ
وكالة المرجان العرب	وكالة الصابون	وكالة غيط التلات
وكالة الحمير	وكالة الصباغين	وكالة الخيش
وكالة الزيت	وكالة الأسابطة	
وكالة النيلة	وكالة المولى الكبير	وكالة المحسن
سوق العشابين	وكالة القمح	وكالة المولى الصغير
وكالة الركن	وكالة الخليلية	وكالة القطن
وكالة ذو الفقار	وكالة الحمير	وكالة الشيخ السادات
وكالة بكير جوربجى	سوق الجمالية (سلع ـ واردة من السويس)	وكالة القرم
وكالة غتاس أغا	وكالة الجلابة (العبيدالسود)	وكلة الرهبان
	وكالة الشيشينى	سوق جلود الغنم
وكالة الصباغين	وكالة الحديد	وكالة الكحكية
وكالة الجوهرجية	حرق الجير	سوق باب الفتوح
معاصر الزيت	وكالة الجلابة (العبيدالسود)	خان اللبن
	سوق الليمون	سوق الصرمتية
	سوق اللالين	وكالة الطاحونة
	وكالة النحاسين	

٢ ـ بقية أخطاط القاهرة الفاطمية

١٣٤ ـ وكالة الخوشابة

١٣٥ ـ وكالة الجوهرلالة

١٣٦ ـ وكالة الشيخ السادات

١٣٧ ـ وكالة المؤيد

١٣٨ ـ وكالة الماريستان

١٣٩ ـ وكالة اسماعيل بك

١٤٠ ـ سوق العطارين

١٤١ ـ الصباغين

١٤٢ ـ وكالة القاوقجية

١٤٣ ـ سوق قماش القطن

١٤٤ ـ وكالة السبت

١٤٧ ـ وكالة الماء وردى

١٤٨ ـ وكالة الشرابين

١٤٩ ـ وكالة المنجلة

١٥٠ ـ وكالة خان الحمزاوى

١٥١ ــ خان صباغى الحرير
١٥٢ ــ وكالة المصدر
١٥٣ ــ وكالة الجلاد
١٥٤ ــ وكالة التركمانى
١٥٥ ــ وكالة قاضى البهار
١٥٦ ــ وكالة العسل
١٥٧ ــ وكالة أم أبو زيد
١٥٨ ــ وكالة الأمير
١٥٩ ــ وكالة عكاشة الصغير
١٦٠ ــ وكالة محمد الهمشرى
١٦١ ــ وكالة المقاصيص
١٦٢ ــ صناع النحاس
١٦٣ ــ صناع الصبغة
١٦٤ ــ سوق الخشب
١٦٦ ــ خان عكاشة الكبارة
١٦٦ ــ وكالة الخطيب
١٦٧ ــ وكالة النحلة
١٦٨ ــ وكالة القنبور
١٦٩ ــ وكالة عين الغزال
١٧٠ ــ صباغى الحرير
١٧١ ــ المرجوشى
١٧٢ ــ وكالة المنايفة
١٧٣ ــ وكالة الدربى
١٧٤ ــ صباغى الشالات
١٧٥ ــ وكالة العطارين
١٧٦ ــ وكالة الحريرية
١٧٧ ــ سوق السمك
١٧٨ ــ وكالة حسن كخيا
١٧٩ ــ وكالة البسنوى
١٨٠ ــ وكالة الجاولى
١٨١ ــ وكالة الأمير
١٨٢ ــ سوق
١٨٣ ــ وكالة عبده
١٨٤ ــ وكالة ينسوق
١٨٥ ــ وكالة الصباحية
١٨٦ ــ وكالة حسن
١٨٧ ــ وكالة الختام
١٨٨ ــ وكالة الشويخ
١٨٩ ــ وكالة الغمرى
١٩٠ ــ وكالة الصقر
١٩١ ــ الصباغين
١٩٢ ــ سوق الحمام
١٩٣ ــ وكالة الخواجة
١٩٤ ــ وكالة صبع النيل
١٩٥ ــ وكالة الجلفية
١٩٦ ــ وكالة حسن محسن
١٩٧ ــ وكالة الصباغين
١٩٨ ــ سوق الحدادين

٣ ــ وكالات الخط الممتد بين باب المتولى وجامع السلطان حسن

١٩٩ ــ وكالة الدريس
٢٠٠ ــ الصباغين
٢٠١ ــ وكالة الماريستان القديم
٢٠٢ ــ سوق السلاح
٢٠٣ ــ صناع سواهد القدر
٢٠٤ ــ وكالة الفرابين

٢٠٥ ـ المغربلين
٢٠٦ ـ عطفة الحنة
٢٠٧ ـ وكالة القلل
٢٠٨ ـ الخيامية
٢٠٩ ـ وكالة البواب
٢١٠ ـ وكالة القماشين
٢١١ ـ وكالة الدباغين
٢١٢ ـ سوق العصفور
٢١٣ ـ سوق العصر
٢١٤ ـ وكالة الكهنة
٢١٥ ـ وكالة تجار الحديد
٢١٦ ـ وكالة الحدادين
٢١٧ ـ وكالة النحاسين
٢١٨ ـ سوق العزى
٢١٩ ـ سوق التبانة
٢٢٠ ـ الغزالين
٢٢١ ـ وكالة الملايات
٢٢٢ ـ قصبة رضوان
٢٢٣ ـ وكالة الخنزير (اللحوم)
٢٢٤ ـ وكالة الجزارين
٢٢٥ ـ عطفة الرحم
٢٢٦ ـ الصباغين
٢٢٧ ـ وكالة العسل الأبيض
٢٢٨ ـ وكالة الماعز
٢٢٩ ـ وكالة على أبو النور
٢٣٠ ـ وكالة على بك
٢٣١ ـ وكالة الخوشى بك
٢٣٢ ـ وكالة النشارين
٢٣٣ ـ صنع الخل
٢٣٤ ـ البياطرة

٤ ـ وكالات خط الصليبة وجامع ابن طولون

٢٣٥ ـ الصباغ القبط
٢٣٦ ـ الخياطين (الترزية)
٢٣٧ ـ سوق المغاربة
٢٣٨ ـ وكالة المغاربة
٢٣٩ ـ وكالة الملايات
٢٤٠ ـ وكالة الأرناءوط
٢٤١ ـ تجار الاحزمة
٢٤٢ ـ الحصرية
٢٤٣ ـ وكالة الحصر
٢٤٤ ـ تجارة الدقيق
٢٤٥ ـ الترزية
٢٤٦ ـ سوق الصليبة
٢٤٧ ـ سوق السمك
٢٤٨ ـ وكالة الجنوب
٢٤٩ ـ اللبودية
٢٥٠ ـ السوق الصغير
٢٥١ ـ وكالة الغمغاين

٥ ـ وكالات خط القلعة وماجاوره وداخل القلعة

٢٥٢ ـ وكالة القماش
٢٥٣ ـ حوض بردك
٢٥٤ ـ وكالة الجاموس
٢٥٥ ـ سوق

٢٥٦ ـ وكالة الكتان
٢٥٧ ـ سوق الفراخ
٢٥٨ ـ سوق الحنطة
٢٥٩ ـ سوق الخضار
٢٦٠ ـ سوق الغنم
٢٦١ ـ وكالة الصباغة
٢٦٢ ـ سوق السمك
٢٦٣ ـ سوق •
٢٦٤ ـ وكالة الحمير

(داخل القلعة)

٢٦٥ ـ سوق الصغير
٢٦٦ ـ سوق الحطب
٢٦٧ ـ سوق المطربازية
٢٦٨ ـ سوق الباشا
٢٦٩ ـ البرانى

٦ ـ وكالات الحافة الشرقية للخليج

٢٧٠ ـ وكالة المقشتية
٢٧١ ـ سوق السنكارية
٢٧٢ ـ سوق الزبد والجبن
٢٧٣ ـ وكالة القبرسى
٢٧٤ ـ سوق الخشاب
٢٧٥ ـ سوق الموسكى
٢٧٦ ـ وكالة سنبل
٢٧٧ وكالة سليمان جاويش
٢٧٨ ـ وكالة الينسون
٢٧٩ ـ وكالة الاغاتية
٢٨٠ ـ وكالة صباغى القطن
٢٨١ ـ مصنع الخل
٢٨٢ ـ سرجة زيت السمسم
٢٨٣ ـ وكالة الحصر
٢٨٤ ـ وكالة الفراخ
٢٨٥ ـ سوق الدقيق
٢٨٦ ـ وكالة خان الحجر
٢٨٩ ـ وكالة
٢٨٨ ـ سرجة الزيت
٢٩١ ـ وكالة الجلابة (الرقيق)
٢٩٠ ـ المصبغة
٢٩٣ ـ السمسم
٢٩٢ ـ وكالة الموزى
٢٩٤ ـ وكالة الجاموس
٢٩٥ ـ وكالة القمح

٧ ـ وكالات الناحية الغربية (غرب الخليج)

٢٩٦ ـ ورش الكوريشيه
٢٩٧ ـ الحبانية
٢٩٨ ـ وكالة الخلوتى
٢٩٩ ـ وكالة الفراخ

٣٠٠ ـ سوق الصبابين
٣٠١ ـ سوق السمك
٣٠٢ ـ مناخ الجمال
٣٠٣ ـ سرجة زيت السمسم
٣٠٤ ـ سوق القماش
٣٠٥ ـ سوق الجلة
٣٠٦ ـ سوق القرب
٣٠٧ ـ وكالة عماد الدين
٣٠٨ ـ سوق الحمير
٣٠٩ ـ سوق باب الخلق
٣١٠ ـ سوق الفرن
٣١١ ـ وكالة البارودية
٣١٢ ـ المصبغة
٣١٣ ـ سرجة سوق الكتان
٣١٤ ـ وكالة الأمير
٣١٥ ـ سوق القواديس
٣١٦ ـ درب السكرى
٣١٧ ـ ورشة الزعابيط
٣١٨ ـ المدابغ
٣١٩ ـ سوق البرسيم
٣٢٠ ـ المدابغ
٣٢١ ـ مصنع القماش
٣٢٢ ـ مصنع الزجاج
٣٢٣ ـ المصبغة
٣٤٢ ـ سوق السمك
٣٢٥ ـ مصبغة البصمة
٣٢٦ ـ سوق الخشب
٣٢٧ ـ سوق الزلط
٣٢٨ ـ سوق البقر
٣٢٩ ـ سرجة زيت الكتان
٣٣٠ ـ سوق القماش
٣٣١ ـ الدجاجين
٣٣٢ ـ وكالة الكتان
٣٣٣ ـ الفحامين
٣٣٤ ـ وكالة الخشب
٣٣٥ ـ الفحارين
٣٣٦ ـ وكالة الليمون
٣٣٧ ـ المصبغة
٣٣٨ ـ سرجة الزيت
٣٣٩ ـ سوق البكرى
٣٤٠ ـ القماشين
٣٤١ ـ سوق الحمير
٣٤٢ ـ الفحامين
٣٤٣ ـ ســـوق
٣٤٤ ـ خيط القطن
٣٤٥ ـ مبيضة القماش
٣٤٦ ـ وكالة القمح
٣٤٧ ـ وكالة الليمون
٣٤٨ ـ وابور طحين القمح
٣٤٩ ـ سرجة زيت
٣٥٠ ـ . . . .
٣٥١ ـ وكالة بذرة الكتان

٨ ـ ناحية بحرى القاهرة

٣٥٢ ـ وكالة الأمير
٣٥٣ ـ سوق البلح
٣٥٤ ـ سوق الكردي
٣٥٥ ـ سوق الديك
٣٥٦ ـ فابريقة القماش
٣٥٧ ـ وكالة الحمير
٣٥٨ ـ وكالة القمح
٣٥٩ ـ فابريقة الطوب
٣٦٠ ـ سوق الزلط
٣٦١ ـ وكالة القطن

٩ ـ ناحية قبلي القاهرة

٣٦٢ ـ المذبح
٣٦٣ ـ وكالة الجزارين
٢٤٦ ـ وكالة الدبح
٣٥٦ ـ السوق الكبير
٣٦٦ المصبنة
٣٦٧ ـ الترزية
٣٦٨ ـ سوق العلالة
٣٦٩ ـ سوق مسكة (؟)

١٠ ـ بولاق

٣٧٠ ـ سوق الحمير
٣٧١ ـ وكالة الكتان
٣٧٢ ـ وكالة القمح
٣٧٣ ـ وكالة أيوب
٣٧٤ ـ وكالة الأرز
٣٧٥ ـ وكالة الجبنة
٣٧٦ ـ سوق الفراخ
٣٧٧ ـ وكالة الحديد
٣٧٨ ـ وكالة المغربة
٣٧٩ ـ وكالة الكتان
٣٨٠ ـ وكالة العاصى
٣٨١ ـ وكالة الزيت
٣٨٢ ـ وكالة الكتان والسكرية
٣٨٣ ـ وكالة على بك
٣٨٤ ـ سكة سوق الليمون
٣٨٥ ـ وكالة النقل
٣٨٦ ـ وكالة الطاولة
٣٨٧ ـ وكالة الحصاصين
٣٨٨ ـ السنانية
٣٨٩ ـ وكالة الحدادين
٣٩٠ ـ الجــزارين
٣٩١ ـ سكة البساطية
٣٩٢ ـ الخصاصية
٣٩٣ ـ وكالة الصوف
٣٩٤ ـ وكالة القطن
٣٩٥ ـ وكالة الأبزرة
٣٩٦ ـ وكالة الحنة
٣٩٧ ـ شونة ابراهيم الصغير
٣٩٨ ـ ساحل الدشيشة
٣٩٩ ـ وكالة الملاية
٤٠٠ ـ وكالة العسل
٤٠١ ـ وكالة السكر
٤٠٢ ـ وكالة القلل
٤٠٣ ـ وكالة أبو زيت
٤٠٤ ـ وكالة الفسقية
٤٠٥ ـ وكالة البوص
٤٠٦ ـ التبيانة
٤٠٧ ـ سوق التبن
٤٠٨ ـ سوق السمك
٤٠٩ ـ وكالة الجير
٤١٠ ـ درب النشارين
٤١١ ـ وكالة العاصى
٤١٢ ـ عش النحل (١)

---

(١) كليرجيه ، مارسيل : القاهرة جـ ٢ ، ملحق ـ Clerget M. : E قائمـــة الأسواق والوكالات نقلا عن كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ .

٥ ـ أسبلة القاهرة فى القرن الـ ١٨

اسم السبيل		عام بنائه	رقم السجل
س/كو	حسن كتخدا عزبان بدرب الحصر	١٧٠١	٤٠٥
»	عبد الرحمن كتخدا بشارع التومباكشية	١٧٤٤	٢١
»	جنبلاط بشارع درب الحجر	١٧٩٧	٣٨١
»	خور عبد الله بشارع أسلم	١٧٣٢	٤٢١
»	المطهر بشارع الصاغة	القرن ١٨	٤٠
»	عائشة السطوحية برقعة القمح	القرن ١٨	٥٠٦
»	كوسا سنان بشارع الصنادقية	ـ	٥٠٧
»	على بك الدمياطى بسكة النبوية	١٧١٠	١٩٧
»	ابراهيم المناسترلى بشارع مراسينا	١٧١٤	٥٠٨
»	أبو الاقبال بشارع الباطنية	١٧١٣	٧٣
»	محمد كتخدا بشارع الداودية	١٧٣٤	٤٢٧
»	عثمان عبد الله برقعة القمح	١٧١٣	٤٤٧
»	موصلى جورجى بشارع حيضان الموصلى	١٧١٥	٢٣٢
»	السلطان محمود بدرب الجماميز	١٧٥٠	٣٠٨
»	الست صالحة بدرب الجماميز	١٧٤١	٣١٣
»	ابراهيم بك الكبير بشارع الداودية	١٧٥٣	٣٣١
»	السلطان مصطفى الثالث بميدان السيدة زينب	١٧٥٩	٣١٤
»	رقية داود بسوق السلاح	١٧٦٠	٣٣٧
س/كد	محمد مصطفى بميدان الملكة صفية	١٧١٦	٣٢٩
»	كتخدا برحبة عابدين	١٧٦١	٤٣٦
»	ابراهيم خلوصى بالسروجية	١٧٤٦	٢٢٦
»	رضوان بك الرزاز بالامام الشافعى	١٧٥٤	٣٨٧
»	بشير أغا دار السعادة بدرب الجماميز	١٧١٨	٣٨٩
»	محمد كتخدا بشارع التبانة	١٧١٨	١٥٠

رقم السجل	عام بنائه		اسم السبيل
٤٩٦	القرن ١٨	«	حسن الشعبى بدرب الجماميز
٢٦٢	١٧٧٢	«	يوسف بك بشارع السيوفية •
٦٢	١٧٧٤	«	محمد أبو الذهب بشارع التبليطة
٣٧٦	١٧٦٠	«	الأمير خليل بشارع حلاوة
٧٣	١٧١٣	س/ك٢	أبو الاقبال (عارفين بك) بشارع الباطنية
٣٠٢	١٧٩١	«	سليمان أغا الحنفى بالمقطم
٣٥٨	١٧٩٦	«	نفيسة البيضاء بشارع السكرية
٢١٣	...	«	يوسف الكردى بشارع اللبودية
٣٤٧	...	«	موسى شوربجى ميرزا بشارع عش النخل (بولاق)

٦ ـ حمامات القاهرة فى أيام الجبرتى (١)

لم يذكر الجبرتى فى « عجائب الآثار » من حمامات القاهرة سوى مايأتى:

حمام الأمير حسين — حمام القيصرلى

حمام بابا — حمام المصبغة

حمام القاضى — حمام السكران

حمام الكرب — حمام الطنملى

حمام الموسكى — حمام كتخدا

حمام الوالى

(١) كان فى القاهرة فى أوائل هذا القرن ستة عشر حماما فى أحياء الجمالية وباب الشعرية وشمال الموسكى ، وقرابة ثمانية عشر حماما فى حى الدرب الاحمر وعابدين ، وحوالى ثمانية حمامات فى السيدة زينب والخليفة ؛ وكان فى بولاق خمسة حمامات .. وقد اندثر الآن معظم تلك الحمامات •

خريطة القاهرة وضواحيها عام ١٨٠٠ رسمت على أساس خريطة الحملة الفرنسية •


Moqattam
Cimetière
CITADELLE
Birkat Al Fil
Jardins
Jardins
Jardins
Khalig


Bourg Zafer
décombres
Cimetière de Bab El Nasr
VII
Quartier Juif
V
Quartier Franc
Jardin Rossetti
VI
IV
Quartier Copte
Birket de l'Ezbekiah
Jardins
Echelle
mètres

أهم الآثار الإسلامية
التي جاء ذكرها في كتاب الجبرتي
"عجائب الآثار في التراجم والأخبار"

للدكتورة سعاد ماهر
عميدة كلية الآثار بجامعة القاهرة

أهـم الآثـار الاسـلامية ـ
التي جاء ذكرها في كتاب الجبرتي .

حظيت عواصم مصر الاسلامية بالكثير من المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخها وخططها وآثارها . ولعل أقدم هؤلاء المؤرخين هم : عبد الرحمن بن عبد الحكم ، ثم أبو عمر بن يوسف الكندى ، وأبو أحمد محمد الحسن بن زولاق الليثى المصرى ، والأمير المختار عز الملك المسبحى ، وأبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ، الفقيه الشافعى . حتى اذا ما جاء المقريزى استوعب كل ما كتبه السابقون عليه من كتب الخطط والآثار ، ثم أضاف عليها الخطط والآثار المعاصرة له وجمعها فى كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ومن ثم فقد استحق أن يسمى بحق عمدة مؤرخى مصر الاسلامية . وبعد وفاة المقريزى سنة ٨٤٥ هـ ، تابع ابن اياس كتابه تاريخ مصر الاسلامية وآثارها فى كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) الذي وقف فيه عند سنة ٩٢٨ هـ . ويعتبر مؤرخنا الجبرتى مكملا لتاريخ ابن اياس ، فقد تناول تاريخ ما جاء بعد « بدائع الزهور » حتى نهاية سنة ١٢٣٦ هـ .

ويعتبر تاريخ الشيخ عبد الرحمـن الجبرتى عن حيـاة مصر وآثارها فى القرن السابع عشر والثامن عشر وشطر من القرن التاسع عشر ، الذى سماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ـ مرجعا من أهم مراجع تاريخنا الحديث ، وأكثرها دقة ، وأوسعها شمولا واحاطة .

وبرغم كثرة عدد الآثار التى ذكرها الجبرتى فى تاريخه ، والتى تعرض لها فى كثير من الأحيان بالوصف الدقيق والتحليل المعمارى الذى يدل على دراية لا بأس بها فى علم المعمار ، الا أن تلك الآثار لم تكن هى المقصودة فى حد ذاتها ، بل انها جاءت مكملة لتراجم الشخصيات التى عاصرها وذكرها ، أو ذكرت هذه الآثار موضـحة للأحداث والقصـص والروايات التى ذكرها وأطنب فى وصف تفاصـيلها .

وليس من شك في أن خبرة شيخنا عبد الرحمن الجبرتي ، ودرايته بالكثير من أنواع العلوم والمعارف التى ظهر أثرها واضحا فى كل ما تكلم عنه أو ذكره من التحف المنقولة ، أو الآثار الثابتة ، انما يرجع الفضل فيه الى والده الشيخ حسن الجبرتي (١) الذى يمكن أن يطلق عليه بحق دائرة معارف متنقلة في كل العلوم والمعارف • فقد كان الشيخ حسن محبا للكتب ، يبذل في اقتنائها المال الكثير ، فكانت داره عامرة بالكتب النادرة ، بعضها باللغة التركية والفارسية ، فقد كان يجيد اللغتين ، فقد جاء في ترجمته : « وحفظ اللسان الفارسي والتركي حتى أن كثيرا من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم لفصاحته في التكلم بلسانهم ولغتهم •

وقد كانت مكتبته تضم الكثير من كتب علم الهيئة والفلك والهندسة ، فكان يملك كتاب « زيج الراصد (٢) السمرقندى » باللغة الفارسية وكان يقول (أى حسن الجبرتي) : « انه ليس فى الدنيا من هذا الزيج سوى ثلاث نسخ ، ونسخته مكتوب عليها بخط رستم شاه « أنها شريت لدار السلطنة بمدينة هراة باثنى عشر ألف دينار » •

وكانت عنده كذلك « التشاويه (٣) والتصاوير البديعة الصنعة الغريبة الشكل ، وكذا الآلات الفلكية من الكرات النحاسية وآلات الارتفاع والميالات والأرصاد والاسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع مثل النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة والرسامين »

ولم يكتف الشيخ حسن الجبرتي بتعلم تلك العلوم والمعارف فحسب ، بل تعدى ذلك الى تجويد الخط ، الذى كان وما يزال يتقلد مركز الصدارة فى زخارف الفن الاسلامي ، بل هو الذى أعطى الفنون الاسلامية طابعها المميز الذى لا تكاد تخطئه العين • فقد جاء في ترجمته (٤) أنه كتب على « حسن أفندى الضيائى » طريقة الثلث والنسخ حتى أحكم ذلك ، وأجازه الكتبة وأذنوه أن يكتب الاذن على اصلاحهم • ثم جود فى التعليق فى نقش فصوص الخواتم ، حتى أحكم ذلك ، وغلب على خطه طريقته ومشى عليها وكتب الديوانى والقرمة » •

وتجاوزت شهرته حدود مصر والبلاد الاسلامية فى صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والأدهان وغيرها ، فحضر اليه طلاب الافرنج وقرءوا عليه علم الهندسة سنة ١١٥٩ هـ ، وأهدوا اليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القول الى

(١) الجبرتي : عجائب الآثار جـ ١ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩ •

(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ ١ ص ٨ •

(٣) التشاوية : لعلها التماثيل ، المعدنية أو الخزفية أو الخشبية •

(٤) الجبرتي : جـ ١ ص ٣٩٢ •

النعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل : طواحين الهواء ، وجر الأثقال ، واستنباط المياه ، وغير ذلك » ٠

واتفق أن حدث سنة ١١٧٢ خلل فى الموازين والقبانيين، وجهل الناس صنعها ورسمها ، « وبعد تحديدها وترييحها ومشيها واستخراج رمامينها وظهر فيها الخطأ واختلفت مقادير الموزونات وترتب على ذلك ضياع حقوق الناس وائتلاف أموال الدولة » ٠ فاشتغل الشيخ حسن باصلاحها ، فاحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر « المثاقيل من الصنج الكبار والصغار والقرطاسات ورسمها بطريق الاستخراج على أصل العلم العملى والوضع الهندسى وصرف على ذلك أموالا من عنده ابتغاء وجه الله ٠ ثم أحضر كبار القبانية والوازنين وبين لهم ما هم عليه من خطأ وعرفهم طريق الصواب فى ذلك وأطلعهم على سر الوضع والصنعة ومكنونها ، حتى تحررت الموازين وانصلح شأنها ٠ وكان هذا هو السبب فى تصنيف كتابه « الدر الثمين فى علم الموازين » ٠

ولعل من أهم أعمال الشيخ حسن التى ما تزال باقية وتزخر بها كثير من مساجد ومدارس القاهرة ٠ المنحرفات ، والمزاول ، التى رسم ما لا يحصى منها على الرخام والبلاط والكذان ، التى نصبها فى الجامع الأزهر ، والمدرسة الأشرفية ، ومدرسة وخانقاه قوصون ، ومشهد الامام الشافعى ، ومدرسة السادات الثعالبة ، وكذا بمدافن رضوان جربجي الرزاز ، التى نقش عليها تاريخا منظوما :

رضواننا الرزاز دعا من ... صلى وراعى كل وقت والتزم
لنساره يحذاء مزولة أتى ... تاريخها حسن الجبرتى قد رسم

وقد دفع حرص الشيخ حسن على استمرار صناعة المنحرفات والمزاول أن علمها لخدمه ،فصاروا يقطعون البلاط بالمناشير ، ويمسحونه بالماسيح الحديد والمبارد ، ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبياكير ٠ بل ويرسمونه أيضا على الرخامات ، بعد أن عرفوا مقادير أبعاد المدارات والظلال ، وما عليها من الكتابة والتعاريف ٠ ولما تمهر الآخذون عنه والملازمون عنده ترك الاشتغال بذلك وأحال الطلاب عليهم » (١) ٠

على أننا اذا أردنا تقييم كتاب « عجائب الآثار » ومقارنته بكتب الخطط السالفة الذكر ، فاننا نجد مشقة بالغة فى استخلاص الوقائع التاريخية والحقائق الأثرية مجردة مما أقحمه عليها الجبرتى من تفصيلات كثيرة ، فقد كان هذا أسلوب العصر فى كتابة السير والأخبار ٠ على أننى استطعت أن ألخص ما جاء فى تاريخه من دراسات أثرية تلخيصا أمينا شاملا دقيقا ٠. وقد رأيت أن أقسم هذه الدراسات الأثرية تقسيما موضوعيا لا زمنيا ، كما يفعل المؤرخون عادة ،

---

(١) الجبرتى : جـ ١ ص ٣٩٨ ٠

وكما فعل الجبرتى . على أننى عدت بعد أن جمعت المعلومات الخاصة بكل أثر ، والمتناثرة هنا وهناك ، فرتبت الآثار ترتيبا زمنيا تبعا لتتابع الدول والعصور .

أما التحف المنقولة التي ذكرها الجبرتى فى تنايا تاريخه وتراجم شخوصه ، فقد حاولت جهد الامكان أن اجمع المتشابه منها فى موضوع واحد ، حتى أستطيع أن اعطى فكرة واضحة عن تلك التحف الأثرية ، كما وصفها وشاهدها عبد الرحمن الجبرتى فى القرن الثامن عشر وشطر من التاسع عشر .

الجامع الأزهر :

لقد كان الجامع الأزهر يقوم فى عصر الجبرتى بأعظم وأسمى مهمة أتيح له أن يقوم بها ، فقد استطاع خلال محنة الاحتلال التركى أن يستبقى شيئا من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التالد وهيبته القديمة فى نفوس الحاكمين أنفسهم ، فنجد الفاتح التركى يتبرك بالصلاة فيه غير مرة . ونجد الغزاة يبتعدون عن كل ما يضر به ، ويحلونه مكانة خاصة ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث إضراب أو ثورة داخلية . ومنذ قضى المغول على الدولة العباسية فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقوضوا صروح المدنية الاسلامية فى المشرق ، كانت مصر وأزهرها موئل هذا التراث الباذخ ، ولا سيما بعد أن سقطت قواعد الأندلس المسلمة فى يد اسبانيا النصرانية ، وعفت معاهدها وحضارتها الشهيرة ، وسقطت غرناطة آخر معاقلها قبل الفتح العثمانى لمصر بنحو ربع قرن من الزمان فقط . وفى خلال ذلك يغدو الأزهر ملاذا أخيرا لعلوم الدين واللغة ، ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية ، ويحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ، ويدرأ عنها عادية التدهور النهائى ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ، وردها عن التغلغل فى المجتمع المصرى .

على أن الأزهر الذى نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع أساسه جوهر الصقلى سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧٢ م) ، بل هو مجموعة من الآثار ضمت اليه فى أزمنة مختلفة . يهمنا فى بحثنا هذا بحث الاضافات التى ذكرها الجبرتى أو التى أشار اليها فى كتابه « عجائب الآثار » ، مراعين فى ذلك التسلسل الزمنى والتطور المعمارى .

لقد حظى الجامع الأزهر بنصيب كبير من عناية ولاة مصر وأعيانها فى العصر العثمانى ، فقد أجريت به أعمال ترميمية ، ووقفت عليه أوقاف كثيرة ، وسنكتفى فى هذا البحث بذكر الأعمال والاضافات الهامة التى ذكرها الجبرتى . فقد جاء فى ترجمة حياة الأمير اسماعيل (١) بك بن ايواظ بك القاسمى المتوفى سنة ١١٣٦ هـ (سنة ١٧٢٣ م) ، أنه أصلح سقفه الذى كان قد آل الى السقوط .

(١) الجبرتى : ج ١ ص ١٢٠ .

وما تزال بقايا هذا السقف المجدد موجودة بايوان القبلة القديم ، وبه آثار زخارف منقوشة بطلاء زيتى وبعض التذهيب .

وفى سنة ١١٤٨هـ (سنة ١٧٣٥م) أنشأ الأمير عثمان زاوية للعميان خارج الأزهر وبجوار المدرسة الجوهرية بالضلع الشمالى للأزهر ، وقد هدمت هذه الزاوية وزالت معالمها الان بعد الاصلاحات الاخيرة التى عملت للأزهر وتخلية واجهته الشمالية . وكانت زاوية العميان تقع بجوار الباب البحرى الذى كان يدخل منه الخليفة (١) ، وهو موجود ، غير أنه سد منذ العصر المملوكى ، ولكنه فتح الآن فى الاصلاحات الحديثة التى عملت للواجهة الشمالية للجامع الأزهر . وكان يفصل الزاوية عن المدرسة الجوهرية ممر من الحجر يمشى عليه المتوضئون من ميضأتها . وتحتوى الزاوية على بائكة تتكون من أربعة عمد تفصل الزاوية الى رواقين ، وفى صدر حائط القبلة محراب جميل . ويشتمل الطابق الأول للزاوية على دورة للمياه مكونة من ميضأة ولوازمها ، أما الطابق الثانى فيحتوى على ثلاث غرف مخصصة للعميان لا يسكنها غيرهم . وكانت المشيخة للزاوية فى أول أمرها وقفا على السادة المالكية ، ثم للسادة الشافعية . أما فى القرن التاسع عشر ، كما يقول على مبارك ، فقد كانت للسادة الحنفية . وأول من أخذ بها وتقلدها الشيخ محمد المهدى العباسى الحنفى « فسار بها سيرا جميلا ودان له الخاص والعام من أهل الأزهر وزاد الأمراء فى تعظيمه وقلت على يديه الشرور والمفاسد (٢) » .

كما عمر الأمير عثمان رواق الأتراك الذى أنشأه السلطان قايتباى ، فأصبح يحتوى على مجموعة من الأروقة تحتوى (١٨) عمودا رخاميا بالطابق الأول ، أما الطابق الثانى فيحتوى على (١٢) غرفة ، ومكتبة كبيرة ، ومطبخ مزود بصنابير للمياه وأحواض للغسيل ، كما رصد الأمير عثمان كتخدا لهذا الرواق أموالا بالاضافة الى الأوقاف التى كان السلطان قايتباى سبق وقفها على الطلبة الأتراك الدارسين به (٣) . كذلك أضاف الأمير عثمان وابنه عبد الرحمن كتخدا ، الكثير الى مساحة الشوام المجاور لباب الشوام بالضلع الجنوبى للأزهر الشريف . وكان السلطان قايتباى قد بناه فى نهاية القرن الخامس عشر . فقد أصبح الرواق فى القرن الثامن عشر يحتوى فى الطابق العلوى منه على (٣٠) غرفة ، هذا بالاضافة الى مكتبة ومطبخ ولوازمه . كما عمر الأمير عثمان رواق السليمانية الذى يعرف الآن (برواق الأفغانية) . وقد رتب للانفاق على تلك الأروقة أوقافا ، وجعل مملوكه سليمان الجوكندار ناظرا ووصيا عليها (٤) .

---

(١) على مبارك : جـ ٢ ص ٩١ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٩١ .

(٣) سعاد ماهر : الأزهر أثر وثقافة ص٧٠

(٤) الجبرتى : جـ ١ ص ١٦٩ .

وفى سنة ١١٦٣ هـ (سنة ١٧٤٩ م) أهدى الوزير أحمد باشا كور والى مصر مزولتين للجامع الازهر ما زالتا به ، احداهما مركبة فى الوجهة الغربية للصحن ومكتوب عليها (١) :

مـــزولة متقنـــة نظـــيرها لا يوجــد
راســـمها حاســـبها هـــذا الوزير الأمجــد
تاريخهـــا أتقنهـــا وزير مصر أحمـــد

ولعل أكبر عمارة أجريت للجامع الأزهر بعد العصر الفاطمى ، تلك التى قام بها الأمير عبد الرحمن كتخدا (سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م) فقد زاد فى مساحة الأزهر باضافة مجموعة من الأروقة خلف المحراب القديم ، ويتوسط جدار القبلة محراب من الفسيفساء الرخامية ، على يساره قطعة مثمنة من الرخام ، وتعلوه قبه مكتوب فيها بالخـط الكوفى المربع : الله محمد ، وأسـماء العشرة المبشرين بالجنة ، وبجوار المحراب منبر خشبى مطعم بالصدف والعاج ، ومصنوع بطريقة الأطباق النجمية والحشوات المجمعة • وفى النهاية الجنوبية لهذا الايوان يوجد باب يؤدى الى قبة أنشأها عبد الرحمن كتخدا ودفن بها (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) وأمامها سبيل ، ثم باب فى الضلع الجنوبى للجامع الأزهر عرف باسم باب الصعايدة • وأنشأ مئذنة بجواره ، كما أنشأ بابا آخر فى الطرف الشمالى لحائط القبلة عرف باسم باب الشوربة ، وأقام بجواره مئذنة ثانية • وأنشأ فى الطابق الثانى فوق ضريحه رواقا للصعايدة المنقطعين لطلب العلم •

ومن أعمال الأمير عبد الرحمن كتخدا بالجامع الأزهر كذلك ، تجديد واجهة المدرسة الطيبرسية وانشاء الباب الغربى الكبير الرئيسى للأزهر ، وهو محلى بكتابات وزخارف محفورة فى الحجر والرخام غاية فى الدقة والابداع • وكان يعلو هذا الباب الذى يعرف الآن باسم (باب المزينين) كتاب ويجاوره مئذنة • وبهذا ضمت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية الى الجامع الأزهر وذلك جهة القبو الموصل للمشهد الحسينى وخان الشراكسة • ويدخل من هذا الباب الى رواق البغدادين والهنود • كما جدد عبد الرحمن كتخدا مجموعة من الأروقة منهـا : رواق التكارنة ، ورواق للمكيين •

ويذكر الجبرتى فى أعمـــال ابراهيم بك ، انه نشـأ رواق الشراقوة (٢) باضافة منزل مجاور للمدرسة الجوهرية • ويضيف بأنه أخـذ أحجار وأعمدة هذا الرواق من جامع الظاهر بيبرس الذى كان متهدما فى ذلك الوقت • ويقول كرزويل : ان الباب الذى كان يؤدى الى هذا الرواق كان موجودا من قبل ، لأن عتبه يحتوى على زخارف ترجع الى عصر قايتباى • وان تاريخ هذا الرواق لا بد

---

(١) محب الدين الخطيب : الأزهر ص ٢٠ •
(٢) الجبرتى : جـ ٤ ص ١٦١ •

وأن يرجع الى الفترة ما بين (سنة ١٧٧٨ م) الى (سنة ١٧٩٨ م) وهى الفترة التى تقع ما بين تولى ابراهيم بك شيخا للبلد ، وبين وفاته فى موقعة الأهرام • ويقع رواق الشراقوة فى الركن الشمالى من المقصورة ، بناه ابراهيم بك استجابة لرجاء الشيخ عبد الله الشرقاوى • وكان طلبة الشرقية يدرسون بالمدرسة الطيبرسية قبل بنائه • وكذا رواق معمر الذى يقع شمال الصحن مما يلى المقصورة ، وأهله أخلاط يزيدون عن المائتين ولهم (٤٠٠) رغيف يوميا (١) • ويقال أن الشجار الذى نشب بين الشراقوة وبين أهل المدرسة الطيبرسية ، والذى من أجله منعهم شيخ المدرسة من الدخول ، كان هو السبب المباشر فى انشاء رواق خاص بهم •

وفى عهد عبدى باشا سنة ١٢٠٣ هـ (سنة ١٧٨٩م) شرع فى تبييض حيطان الجامع الأزهر بالنورة (الجير) والمغرة (اللون الذهبى) • ويذكر الجبرتى (٢) السبب فى ذلك فيقول : انه ورد مرسوم من الدولة (العثمانية) فعمل الباشا الديوان فى ذلك اليوم ، وقرؤه وفيه الأمر بقراءة صحيح البخارى بالأزهر ، والدعاء بالنصر للسلطان على الموسكو (على الروس) فانهم تغلبوا واستولوا على قلاع ومدن عظيمة من مدن المسلمين • وكذلك يدعون بعد الأذان فى كل وقت • وأمر الباشا بتقرير عشرة من المشايخ من المذاهب الثلاثة يقرؤن البخارى فى كل يوم ، ورتب لهم فى كل يوم مائتين نصف فضة لكل مدرس عشرون نصفا من الضربخانة ، ووعدهم بتقريرها لهم على الدوام بفرمان • وبرغم بساطة هذا الخبر ، الا أنه يدل على مدى ما كان يتمتع به الجامع الأزهر وشيوخه من اجلال وتكريم ، واعتقاد سلاطين العثمانيين فى انه مكان مقدس مجاب فيه الدعاء •

ويقص علينا الجبرتى (٣) ما حدث للأزهر من خراب أثناء وجود الحملة الفرنسية فيقول عن دور الأزهر فى ثورة القاهرة الأولى : كان كبير الفرنسيس (أى بونابرت) أرسل الى مشايخ الأزهر مراسلة فلم يجيبوه عنها ، وملّ من المطاولة ، هذا والرمى متتابع من الجهتين ، وتضاعف الحال ضعفين ، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر ، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنيات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وجرروا عليه المدافع والقنبر ، فلما سقط عليهم ذلك ولم يكونوا قد رأوه فى عمرهم نادوا يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف • ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعل ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته • وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة •

---

(١) كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر •
(٢) الجبرتى : جـ ٢ ص ١٧٨ •
(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٣٦ •

الجـــامع الأقمـــر :

ومن المســاجد الجامعة في العصر الفاطمي التي أشار الجبرتي اليهــا في تاريخه ، الجامع الأقمر الذي كان يعرف باسم الجامع الأحمر • فقد ذكر في احداث غرة شهر شعبان (١) (سنة ١٢٣٦ هـ / سنة ١٨٢١ م) ، أن الجامع الأحمر كان قد تخرب ولم يبق منه الا الجدران ، فتصدى لعمارته سليمان أغا السلحدار ، وسقفه كذلك بأفلاق النخيل والجريد والبوص ، وأقام له عمدا من الحجارة ، وجدد منبره وبلاطه وميضأته ودورات مياهه ، وفرشه بالحصر وأقام فيه الجمعة الأولى من شهر شعبان •

وقد لاحظ فان برشم Van Bercham أن طبـــــاله (Tynpenum العقود الأربعة التي تطل على صحن الجامع عليها آثار اصلاح من العصر العثماني • واعتمادا على ما جاء في الجبرتي ، ليكون هذا الاصلاح قد تم على يدي سليمان أغا الذي رمم الجامع لكي يحيي فيه يوم الجمعة ٨ شعبان سنة ١٢٣٦ هـ •

ويترجم الجبرتي للأمير علي بك الكبير (٢) فيقول : صاحب الوقائع المذكورة والحوادث المشهورة ، وهو مملوك ابراهيم كتخدا تابع سـليمان جاويش تابع مصطفى كتخدا القازدغلي ، تقلد الامارة والصنجقية بعد موت أستاذه في سنة ثمان وستين ومائة ألف • وكان قوي المراس شـديد الشـكيمة عظيم الهمة ، لا يرضى لنفسه دون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى ، لا يميل لسوى الجد ولا يحب اللهو ولا المزاح • وقد قوي نفوذه في عهد أستاذه عبد الرحمن كتخدا ، حتى انتقل الديوان والجمعية الى داره • وما زال يمهد لنفســـه حتى خلص له ولأتباعه القطر المصري من الاسكندرية الى أسوان ، وعمــر قلاع الاسكندرية ودمياط وحصنها بالعساكر ، ومنع ورود الولاة العثمانيين » •

قبة الامام الشافعي :

ومن مآثره المعمارية العظيمة تجديد قبة الامام الشافعي رضي الله عنه • أقام الشافعي بمصر أربع سنين ونيفا • وقد بنيت على قبره قبة عظيمة سـنة ٦٠٨ هـ في عهد الملك الكامل ، بلغت تكاليفها خمسين ألف دينار ، وقد توالت على قبة الامام الشـــافعي يد الترميم والتعمير ، فقد ذكر ابن اياس (٣) أن السلطان قايتباي أمر باجراء اصلاحات بضريح الامام الشافعي وذلك سـنة ٨٨٥ هـ • وهناك كتابة على الحائط الشمالي الغربي على يمين النافذة على ارتفاع من الأرض تثبت عمارة الغوري للضريح •

---

(١) الجبرتي : جـ ٤ ص ٣١٨ •
(٢) الجبرتي : جـ ١ ص ٣٨٠ •
(٣) ابن اياس : جـ ٢ ص ١٩٨ •

ويقول الجبرتى (١) ان على بك الكبير ، أزال القصدير المغطى لخشب القبة الذى عمله السلطان الكامل ، لأن الخشب تحته كان قد تآكل ، ووضع بدله خشبا آخر ثم غطى الخشب بصفائح جديدة من القصدير ، وثبتهما فى الخشب بواسطة مسامير كبيرة ، وذلك (سنة ١١٨٦ هـ/سنة ١٧٧٢م) ثم أصلح الزخارف الداخلية للضريح بطلاءات متعددة الألوان أهمها اللون الذهبى واللازوردى • ويضيف الجبرتى فيقول : وكتب صالح أفندى حول القبة أبياتا من الشعر من تأليفه ، تثبت تاريخ هذه العمارة • وقد دون تاريخ هذه العمارة على مربع القبة (٢) بما نصه : أمر بتجديد هذه القبة المباركة على التخصيص ، وتشييد أفنان وضعها بفنون النقش والترصيص ، عزيز مصر وحاكمها ، ومن ثبت أحكامه فى أقاليمها ومعالمها ، المتوكل على الله مولانا القائم فى الرعية بما يحبه ويرضاه ، على الاسم والقدر والجاه ، الحاكم بأمر الله أيد الله بالنصر لواه ، وخلد عزه وبقاه ، وخذل أضداده وأعداه ، وبلغه قصده ورجاه ، انه الملك اللطيف ببركة صاحب هذا المقام الشريف ، وذلك فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف من الهجرة أدام الله عزه ونصره (٣) » •

ويتم الجبرتى (٤) قصة الاصلاحات والترميمات التى حدثت فى عهده لضريح الامام الشافعى ، فيقول عند ترجمته للأمير عبد الرحمن كتخدا : انه بلط ردهة غرفة قبة الامام الشافعى بالرخام الملون ، الذى يدخل اليها بواسطة ممر طويل ومقفل بواسطة بابين كبيرين ، وذلك (سنة ١١٩٠ هـ / سنة ١٧٧٦ م) •

جامع السيد أحمد البدوى :

ومن مآثر على بك الكبير المعمارية بطندتا (طنطا) اقامة المسجد (٥) الجامع والقبة على ضريح سيدى أحمد البدوى • من المعروف أن السيد أحمد البدوى قد توفى فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٧٥ هـ ودفن داخل منزل ابن شحيط ، فأقام تلميذه عبد العال بجوار القبر خلوة ، تحولت فيما بعد الى زاوية عرفت بالأحمدية بقيت على حالها حتى عصر السلطان قايتباى (٦) • وفى ذلك العصر أقيمت قبة على الضريح ، كما أقيمت للزاوية مئذنة ، وفى ذلك يقول ابن اياس (٧) فى حوادث سنة ٩٠١ هـ : « وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى من البنيان فهو تجديد مقام سيدى أحمد البدوى وبناه كاملا ووسعه » •

---

(١) الجبرتى : جـ ١ ص ٣٨٢ •
(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٢٥ •
(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ١١٢ •
(٤) الجبرتى : جـ ٢ ص ٥ •
(٥) الجبرتى : جـ ١ ص ٣٨٢ •
(٦) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ٢ ص ٣٠٦ •
(٧) ابن اياس : جـ ٣ ص ١٨ •

وفى القرن الثانى عشر للهجرة بنى على بك الكبير مسجدا بجوار ضريح السيد البدوى ، كما أقام ثلاث قباب ، أكبرها على ضريح السيد البدوى ، والغربية منها لتلميذه وتابعه عبد العال ، والشرقية للشيخ مجاهد شيخ الجامع ، كما صنع مقصورة من النحاس لضريح السيد البدوى مازالت موجودة حتى الآن ، نقش عليها اسمه ونسبه • كذلك أنشأ على بك فى مواجهة المسجد سبيلا فوقه كتاب لتعليم اليتامى القراءة والكتابة (١) •

وقد أوقف على بك الكبير بعض الأوقاف سجلها فى وقفيتين جاء فيهما : أنه أوقف أراضى زراعية من قرى القوصية بولاية الأشمونين على هذا المسجد • وجعل على بك المستفيد من هذه الأوقاف هم : خلفاء السيد البدوى ، وخدم الضريح ، والقائمين به من العلماء ، والمجاورين للمسجد ، والفقراء والمساكين والعجزة والأيتام وأرباب الأشاير المنسوبين للطريقة الأحمدية •

مسجد البيومى :

ويحدثنا الجبرتى (٢) عن الشيخ البيومى ، الذى ولد فى قرية البيوم من قرى محافظة الدقهلية • وكان يفد على الشيخ البيومى كثير من الأمراء والباشوات لإعتقادهم فى بركته وتقواه ، منهم : الوزير مصطفى باشا الذى كان يتردد عليه كثيرا ، والذى تنبأ له بولايته لمركز الصدارة فى الآستانة ، فلما رقى الى هذه الدرجة ورحل الى اسطنبول كتب الى الأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة يأمره ببناء مسجد الشيخ على البيومى ، فبنى مسجدا للشيخ بالحسينية ، مكان خان السبيل بالقرب من مسكنه ، وبنى بجانبه سبيلا ، ومكتبا لتعليم اليتامى القراءة والكتابة • وبجانب المسجد بنيت قبة لتكون ضريحا للشيخ فيما بعد ، فلما توفى الشيخ على البيومى سنة ١١٨٣ هـ دفن بالقبر الذى بنى له بمسجده المعروف •

والمسجد مايزال يحتفظ بالكثير من معالمه التى ترجع الى سنة ١١٨٣ هـ وخاصة تلك النقوش الزيتية التى يزخر بها السقف الذى يتوسطه (شخشيخة) مربعة مقامة على أربعة عمد ، كتب على خواصرها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر ــ عمر ــ عثمان ــ على) ويتدلى من سقف (الشخشيخة) تنور كبير من الحديد المخرم ، يرجع تاريخه الى سنة ١١٨٠ هـ • كما يوجد للمسجد مدخلان ، أحدهما رئيسى ويقع فى الضلع الجنوبى من الجامع ، توجد فوقه لوحة تذكارية تبين تاريخ انشائه ونصها : (صاحب الخيرات عثمان أغا الوكيل تابع المرحوم الحاج أغا دار السعادة سنة ١١٨٠ هـ) •

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ٢ ص ٣٠٨ •

(٢) الجبرتى : جـ ١ ص ٢٣٧ •

جامع الكخية :

ومن أهم المنشآت المعمارية التى تمت فى القرن الثانى عشر للهجرة جامع (الكخية) الذى أنشأه الأمير عثمان كتخدا القازدغلى (١) والد الأمير عبد الرحمن كتخدا • ويقع هذا المسجد عند ميدان ابراهيم باشا على ناصية شارعى قصر النيل وابراهيم باشا ، وقد تم بناؤه سنة ١١٤٧ هـ (سنة ١٧٣٤ م) وألحق به سبيلا وكتابا وحماما ، ولا يزال الحمام موجودا • وقد رصد المنشىء أملاكا كثيرة للصرف منها على هذا المسجد وعمارته ، وأعمال البر التى بينها فى كتاب وقفه المؤرخ سنة ١١٤٩ هـ واشترط أن يكون امام المسجد شافعيا • ثم رتب دروسا للسادة الحنفية ، ورواتب لسبعة من الطلبة يحضرون ، وآخر للسادة الشافعية يحضره ثلاثة من الطلبة لهم رواتب أيضا ، كما قرر رواتب لمدرس الحديث مع ستة من الطلبة يحضرون درسه • ومن طريف ما اشتملت عليه هذه الوقفية تخصيص راتب لمناد ينادى فى السوق عند حلول الصلاة بقوله « الصلاة يا مفلحون (٢) » •

ويرتفع المسجد عن مستوى الشارع بقالب بها عشر درجات ، وله واجهتان : احداهما شرقية بسيطة ، والأخرى وهى الرئيسية وتقع فى الجهة الشمالية يتوسطها باب يصعد اليه بدرجات رخامية • وهذا الباب مبنى من الحجر ومزخرف ببلاطات من القاشانى التركى الجميل • ويعلوه شباك صغير يكتنفه عمودان ، ومن فوقه زخارف بنائية على هيئة شرافات • ويحيط بالمدخل الذى يتوسطه الباب حنية ذات دخول كبير ، يعلوها عقد مخوص ملئت خواصره بزخارف هندسية جميلة •

وتحتوى الواجهة الشمالية على أربع نوافذ أسفل الجدار ، اثنتان على كل جانب من جوانب المدخل الرئيسى ، يعلوها دلايات جميلة ، وقد ركب على كل منها مصرعان من الخشب ، حليا بزخارف نحاسية مفرغة على غرار الأبواب المملوكية •

وفى أعلى الجدار توجد ثلاث حنيات مسطحة على كل جانب من جوانب الباب ، تنتهى بأربعة صفوف من الدلايات الدقيقة • وبداخل كل حنية من الحنيات الست بالواجهة الشمالية توجد نافذة معقودة ، بوسطها عمود صغير يقسمها الى فتحتين ، ويعلوها فتحة مستديرة مكونة بذلك نافذة قنديلية •

ويتكون الجامع من صحن مكشوف مربع الشكل تقريبا فرشت أرضيته بالرخام الأبيض والملون الجميل ، تحيط به الأروقة من جميع الجهات ، أكبرها ايوان القبلة الذى يحتوى ثلاثة بوائك ، تحتوى كل بائكة على أربعة أعمدة

---

(١) الجبرتى : جـ ١ ص ١٦٨ •

(٢) على مبارك : جـ ٥ ص ٩٠ ـ ٩١ •

رخامية ، تحمل خمسة عقود حجرية . وتقسم هذه البوائك الثلاث الايوان الى ثلاثة أروقة ، يغطيها سقف خشبى مزخرف برسوم زيتيـــة جميلة ، تمثل أسلوب الباروك والركوكو الذى انتشر فى الشرق فى العصر التركي . وفى صدر الايوان محراب مزخرف بالفسيفساء الرخامية يكتنفه عمودان من الرخام الأخضر . ويعلو المحراب نافذة مستديرة مملوءة بالزخارف الجصـــية المفرعة ومعشقة بالزجاج الملون ، ومكتوب عليها (الله محمد . أبو بكر عثمان) وبجوار المحراب منبر خشبى مكون من حشوات مجمعة والخشب الخرط .

أما الجوانب الثلاثة الأخرى للصحن ، فتحتوى كل منها على رواق واحد يتقدمه بائكة مكونة أربعة أعمدة رخامية ، تحمل عقودا حجرية ومغطى سقفها بخشب مدهون بزخارف زيتية ، ويحتوى الجدار الجنوبى للمسجد على بابين : أحدهما كبير قد حلى مصراعاه بأشرطة نحاسية وكسى أعلاه ببـــلاطات من القاشانى ، أما الباب الثانى الذى يقع الى الشرق من الباب الآخر فقد زخرف بنقوش ملونة ، وكلا البابين يوصل الى المصلى والميضاة .

وقد دون تاريخ انشاء المسجد فى لوحة مثبتة فى وجهة الايوان الشرقى على الصحن ، كتب فيها : « قد وافق الفراغ من انشاء هذا المسجد المبارك غرة جمادى الأول من شهور سنة ألف وماية سبعة وأربعين فنسأل الله الكريم من فضله العميم أن يتقلبه من واقفه ويدخله الجنة دار النعيم » .

مسجد الامام الليث :

هو الامام أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى ، وهو أصفهانى الأصل (١) مصرى المولد ، اذ ولد ببلدة قلقشندة احدى قرى مديرية القليوبية . والامام الليث من تابعى التابعين ، روى عن الكثير منهم وروى عنه الكثير ، وأجمع العلماء على أمانته ، وعلو كعبه وسمو مرتبته فى الفقه والحديث ، وهو امام أهل مصر فى زمانه ، ولد الامام فى شعبان سنة ٩٤ هـ وتوفى ســـنة ١٧٥ هـ ، أى قبل وفاة الامام مالك بأربع سنوات ، ودفن فى مقابر الصدفين وجاء فى الكواكب (٢) السيارة أن قبره كان كالمصطبة ثم بنى عليها مشهد ، بعد مضى الأربعين وستمائة ، وأضاف ابن الزيات فقال ، ان ابن الجباس قال فى تاريخه : لقد رأيته كذلك وبناه ابن التاجر وهو مكان مبارك معروف باجابة الدعاء . وقد كتب على مصطبة الامام ما نصه « الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث ابن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرى مفتى أهل مصر (٣) » .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦٢٥ ؛ تهذيب الأسماء ص ٥٢٩ .
(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ١٠٠ .
(٣) أبو محمد عبد الكريم : هادى الراغبين في زيارة قبور الصالحين ص ٢٢٥ .

ثم أخذت تتوالى على الضريح يد التعمير والتجديد حتى كان عصر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، فجدد الحاج سيف الدين المقدم ، قبة الضريح وذلك سنة ثمانين وسبعمائة (١) • ويقول الموفق (٢) ابن عثمان : ان الضريح جدد وأجريت له عمارة للمسجد فى أيام الناصر فرج ابن برقوق على يد الشيخ أبى الخير محمد بن الشيخ سليمان المادح سنة ٨١١ هـ وقد سجلت هذه العبارة على باب حجرى أمام قبة الامام الليث كتب أعلاه : هذا مقام السيد الامام الليث بن سعد نفعنا الله به آمين • وكتب فوق العتب : « جدد هذا المقام المبارك فى أيام سيدنا ومولانا الملك الظاهر محمد عز نصره على يد الفقير الى الله تعالى أبى بكر يونس شيخ القرافتين الصوفى خادم الامامين الشافعى والليث بن سعد لطف الله به فى المحرم عام أحد عشر وثمانمائة » • وقد لاحظ حسن عبد الوهاب (٣) ان التاريخ المذكور لا يتفق وتاريخ الظاهر محمد أبى سعيد جقمق ، ولذلك فانه يرجح أن اسم الناصر فرج قد محى وكتب بدله الظاهر محمد ، كما محى اسم أبى خير المادح شيخ القرافتين وكتب بدله اسم ابن يونس ، وهو أيضا شيخ القرافتين ولكن لم يغير التاريخ •

ويكمل المقريزى تاريخ التجديدات التى حدثت فى عصره : ثم جدد فى سنة ٨٣٢ هـ على يد امرأة قدمت من دمشق أيام السلطان المؤيد شيخ ، عرفت بمرحبا بنت ابراهيم بن عبد الرحمن أخت عبد الباسط •

وفى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى ، أقام الأمير يشبك بن مهدى سنة ٨٨٤ هـ مئذنة فى الطرف الغربى منه ، وقد سجل عليها تاريخ الانشاء واسم المنشىء ، كذلك أجرى السلطان الغورى عدة تجديدات بالمسجد ، سجلها على المدخل الرئيسى للمسجد ، وكان ذلك سنة ٩١١ هـ (٤) •

أما عن الاصلاحات والتجديدات التى ذكرها شيخنا الجبرتى لضريح الامام الليث ، فلعل أكبرها وأهمها تلك التى حدثت فى شهر ذى القعدة (٥) سنة ١١٣٨ هـ/سنة ١٧٢٦م وقام بها الأمير موسى جوربجى مرزا مستحفظان ، ومن أثر عمارته القبة والمقصورة الموجودتان حتى الآن • وقد أثبتت هذه العمارة فى لوحة تاريخية مثبتة بالقبة نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا تاريخ تجديد رحاب الامام الأعظم الملاذ الأكرم الليث بن سعد قدس الله روحه ونور ضريحه الذى جدده الجناب المعظم المخدوم المكرم الأمير موسى جوربجى مرزا مستحفظان تابع المرحوم مصطفى جوربجى مرزا مستحفظان وكان الفراغ فى

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٦٣ •

(٢) ابن عثمان : كتاب مرشد الزوار ص ١٠٩ •

(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ١٩٩ •

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٩٧ •

(٥) الجبرتى : جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦٤ •

شهر ذى القعدة سنة ١١٢٨ هـ » ٠٠والمقصورة الخشبية التى تحيط بقبر الامام الليث التى صنعها الأمير موسى ، تعتبر قطعة فنية رائعة تمثل صناعة الخشب المطعم بالعاج والصدف فى العصر العثمانى أحسن تمثيل ٠

وفى (سنة ١١٩٤هـ / ١٧٨٠ م) (١) قام مراد بيك بعمل اصلاحات بمسجد الامام وضريحه ، كما قام عبدى باشا (سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م) بعمارة الضريح ٠ وقد بقى من هاتين العمارتين لوحتان مثبتتان على الباب الخارجى الذى يهبط اليه ببضعة درجات ، ونص السفلى منهما :

اذا رمت المكارم من كريم فيمم من بنى للفضل بيتا
فذاك الليث من يحمى حماه ويكرم جاره حيا وميتا

جامع ابراهيم الدسوقى :

هو ابراهيم بن عبد العزيز أبو المجد ، الذى ينتهى نسبه الى الحسين بن على بن أبى طالب ٠ ولد ابراهيم بمصر سنة ٦٣٣ هـ فى دسوق ٠

وكان ابراهيم الدسوقى شجاعا لا يهاب الحكام ولا يخشى فى الله لومة لائم ، هذا فضلا عن علمه وتفقهه وكثرة أتباعه ومريديه ٠ فلما سمع السلطان الظاهر بيبرس به ، أصدر قرارا بتعيينه شيخا للاسلام ، فقبل المنصب وقام بمهمته دون أن يتقاضى أجرا بل وهب راتبه من هذه الوظيفة لفقراء المسلمين ٠ كما قرر السلطان بناء زاوية يلتقى فيها الشيخ بمريديه ، يعلمهم ويفقههم فى أصول دينهم ٠ وظل ابراهيم الدسوقى يشغل منصب شيخ الاسلام حتى توفى السلطان بيبرس ، ثم اعتذر عنه ليتفرغ لتلاميذه ومريديه (٢) ٠

وقد توفى ابراهيم الدسوقى سنة ٦٧٦ هـ وهو فى الثالثة والأربعين من عمره فى مدينة دسوق ، ودفن بزاويته التى بنيت له حول الخلوة فى نفس الحجرة التى يتعبد فيها ٠ وقد أقيم على قبره بعد وفاته ضريح فوقه قبة ، وألحق به مسجد حبس عليه كثير من الأملاك والعقارات ، يصرف ريعها على المسجد والعاملين فيه وطلاب العلم وقد أدخلت على المسجد والضريح كثير من الترميمات والتجديدات والاضافات ، وخاصة فى عصر السلطان قايتباى سنة ٩١١ هـ ٠

ويحدثنا الجبرتى عن الأعمال الانشائية والمعمارية التى تمت فى عهد الأمير اسماعيل بك ابن الأمير الكبير ايواظ بيك القاسمى (سنة ١١٤٢ هـ (٣) سنة ١٧٣٠م) فقد بلغه سقوط مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى فأمر باعادة بنائه ٠

---

(١) الجبرتى : ج ٢ ص ٥٩ ٠

(٢) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص ٣١٥ ٠

(٣) الجبرتى : ج ١ ص ١١٤ ٠

مشهد الامام زيد بن على زين العابدين :

يوجد هذا المشهد فى الحى المعروف الآن بحى (زين العابدين) وكان يعرف فى أوائل العصر الاسلامى باسم (الحمراء القصوى) (١) • وتقع هذه المنطقة الى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط • التى أسس عليها العباسيون مدينة العسكر ، ثانى عواصم مصر الاسلامية • ويرجع المسجد الموجود حاليا الى أوائل القرن التاسع عشر ، فقد ذكر الجبرتى أن الأمير عثمان أغا مستحفظان عمر مشهد رأس زيد بن على زين العابدين ، الذى كان يقصد بالزيارة فى أيام الآحاد • فلما كانت الحوادث ومجىء الفرنسيس أهملوا ذلك وتخرب المشهد وأهيلت عليه الأتربة ، فاجتهد عثمان المذكور فى تعميره ، ثم زخرفه وبيضه وعمل به سترا وتاجا ليوضعا على المقام • وكان ذلك (سنة ١٢٢٥ هـ / سنة ١٨٠٥ م) •

مشهد السيدة عائشة :

هى السيدة عائشة بنت جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وهى أخت الامام موسى الكاظم رضى الله عنهما • يجمع المؤرخون ممن تناولوا سيرة أهل البيت بالبحث والدراسة ، على أن السيدة عائشة رضوان الله عليها ، شرفت مصر وتوفيت بها سنة ١٤٥هـ ، فقد جاء فى تحفة الأحباب للسخاوى ، أنه رأى قبر السيدة عائشة وقد ثبت عليه لوح رخامى مكتوب عليه : « هذا قبر السيدة الشريفة عائشة من أولاد جعفر الصادق توفيت سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة (٢) » •

وظل قبر السيدة عائشة حتى القرن السادس (٣) الهجرى مزارا بسيطا ، يتكون من حجرة مربعة تعلوها قبة ترتكز على حطتين (صفين) من المقرنصات ، أما العصر الأيوبى فقد أنشىء بجوار القبة مدرسة ، ذلك أنه عندما أحاط صلاح الدين عواصم مصر الاسلامية الأربع : الفسطاط ، والعسكر ، والقاهرة ، بسور واحد حتى يحصن البلاد ضد هجمات الصليبيين فصل هذا السور قبة السيدة عائشة عن باقى القرافة ، فرأى صلاح الدين أن يقيم بجانب القبة مدرسة ، كما أنه فتح فى السور بابا سماه باب السيدة عائشة ، وهو المعروف باسم (باب القرافة) (٤) •

وقد تهدم المسجد القديم وأعاد بناءه الأمير عبد الرحمن (٥) كتخدا (سنة ١١٩٠ هـ / سنة ١٧٧٦م) • ويتكون المسجد من مربع يتوسطه

---

(١) الجبرتى : جـ ٤ ص ١٢٠ •
(٢) السخاوى : ص ١١٩ •
(٣) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٦٩ •
(٤) مساجد مصر وأولياؤها جـ ١ ص ١٠٨ •
(٥) الجبرتى : جـ ٢ ص ٦ •

صحن وتحيط به الأروقة • ومما يسترعى النظر فى رواق القبلة أن المحراب لا يتوسط جدار القبلة ، انما يقع فى الركن الجنوبى الشرقى للجدار • ويوجد بالواجهة الغربية للمسجد بابان بينهما مئذنة لم يبق منها سوى الدورة الأولى ، وقد كتب على الباب البحرى ما نصه :

مسـجد أمه التقى فتـراه — كبدور تهـدى بهـا الأبرار
وعبد الرحمن قد أرخـوه — تلالا بحبـه الأبـرار

وكتب على الباب القبلى ما نصه :

بمقام عائشة المقاصـد أرخت — سل بنت جعفر الوجيه الصادق

وكتب على باب القبة ما نصه :

لعائشة نور مضىء وبهجـة — وقبتها فيهـا الدعاء يجـاب

مشهد السيدة نفيسة :

هى السيدة نفيسة عالية القدر ابنة الامام الحسن الأنور بن زيد الأبلج ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين • ولدت بمكة سنة ١٤٥ ونشأت بالمدينة ثم أقامت بمصر سبع سنين وتوفيت بها سنة ٢٠٨ هـ •

ويقول المقريزى (١) عن ضريح السيدة نفيسة • ان أول من بنى على قبرها هـو عبيد الله بن السرى ابن الحـكم • ثم أعيد بناء الضريح فى عهـد الدولة الفاطمية ، وقد دون هذا التاريخ على لوحة من الرخام نقش عليها اسم الخليفة المستنصر بالله أمير المؤمنين سنة ٤٨٢ هـ • وفى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله حدث تصدع المشهد النفيسى فجدد كما كسى المحراب بالرخام ، وكان ذلك سنة ٥٣٢ هـ •

ويقول السخاوى (٢) : ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر سنة ٧٥٢ هـ أن يتولى النظارة على المشهد النفيسى الخلفاء العباسيون ، وان أول من تولى النظارة هو الخليفة المعتضد بالله أمير الفتح أبو بكر بن المستكفى بالله •

ويقول الجبرتى : ان الأمير عبد الرحمن كتخدا عمر المشـهد النفيسى ومسجده • وجعل لزيارة النساء طريقا بخـلاف طريق الرجال ، وذلك سنة ١١٧٣هـ (٣) ، كما كتب على باب الضريح بالذهب على الرخام هذين البيتين :

عـرش الحقـائق مهبـط الأسرار — قبر النفيسـة بنت ذى الأنـوار
حسن بن زيد بن الحسن نجل الاما — م عـلى بن عـم المصطفى المختار

(١) المقريزى جـ ٢ ص ١٠٢ •
(٢) تحفة الأحباب : ص ٣٩ •
(٣) الجبرتى : جـ ٢ ص ٦ •

وقد ذكر علي مبارك (١) الأوقاف التي رصدت للمشهد فقال : انه قد حبس على المشهد أربع مائة وخمسون فدانا وعدد من الرباع والحوانيت للصرف عليه ، هذا الى ما يجتمع في صندوق نذوره والتى كانت تبلغ فى السنة فى ذلك العهد ما قيمته خمسة وعشرون ألف قرش ، كما كانت نظارة الأوقاف تصرف له ثمن الزيت والحصر والبسط وملء الميضأة ٠

مسجد السيدة زينب :

السيدة زينب غنية عن التعريف ، فأبوها على بن أبى طالب ، وجدها لأمها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمها فاطمة البتول ، وجدتها لأمها خديجة بنت خويلد أولى أمهات المؤمنين ، وشقيقاها الحسن والحسين سبطا الرسول ٠ ولدت السيدة زينب فى السنة السادسة للهجرة ٠ ويجمع كتاب التاريخ من عرب ومستشرقين على أن السيدة زينب أول سيدة فى الاسلام قدر لها أن تلعب على مسرح الأحداث السياسية دورا ذا شأن ، فقد اقترن اسمها فى التاريخ الاسلامى والانسانى بمأساة (كربلاء) احدى المعارك الحاسمة فى التاريخ الاسلامى عامة وتاريخ الشيعة خاصة ٠

وأرادت السيدة زينب أن تقضى بقية عمرها فى جوار جدها رسول الله بعد مأساة كربلاء ، ولكن الخليفة الأموى يزيد بن معاوية ، أبى عليها ذلك ، فقد كان وجودها فى المدينة كافيا لأن يلهب مشاعر الناس للأخذ بثأر الحسين ، سيد الشهداء ، رضوان الله عليه ٠ لذلك فقد طلب منها والى المدينة أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء ، فرحلت تريد مصر فوصلتها فى شعبان سنة ٦١هـ كما تقول الكثرة الغالبة من المراجع العربية ، فاستقبلها مسلمة بن مخلد الانصارى والى مصر ٠ كما خرج لاستقبالها كافة جموع المسلمين على مشارف مصر ، حتى اذا وصلت الى الفسطاط ، مضى بها مسلمة الى داره فأقامت بها قرابة عام لم تبرحها ، حتى قضت نحبها سنة ٦٢ هـ رحمها الله رحمة واسعة (٢) ٠

يقع جامع السيدة زينب فى الميدان الذى عرف باسمها ، وكان يعرف قبل ذلك باسم قنطرة السباع ، نسبة الى نقش السباع الموجودة على القنطرة التى كانت مقامة على الخليج الذى كان يخرج من النيل عند فم الخليج وينتهى عند السويس ، وكانت السباع (رنك) الظاهر بيبرس الذى أقام القنطرة ٠ وفى (سنة ١٣١٥هـ/سنة ١٨٩٨م) تم ردم الجزء الأوسط من الخليج ، وبردمه اختفت القناطر ، ومع الردم تم توسيع الميدان ، وعند عملية توسيعية اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب الذى كان الوالى العثمانى على باشا قد جدده (سنة

---

(١) على مبارك : ج ٥ ص ١١٣ ٠

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص ٩٦ ٠

٩١٥ هـ سنة ١٥٤٧ م) ثم أعاد بناءه كما يقول الجبرتى (١) الأمير عبد الرحمن كتخدا (سنة ١١٧٠ هـ سنة ١٧٦٨م) ٠ ومنذ اكتشاف واجهة الجامع فى القرن التاسع عشر ، أصبح يطلق على الميدان بل والحى كله ، اسم السيدة زينب عقيلة بنى هاشم ٠

جامع السيدة سكينة :

هى السيدة آمنة بنت الحسين بن على بن أبى طالب رضـــوان الله عليهم أجمعين ، أمها (رباب) بنت امرىء القيس بن عدى بن أوس سيد بنى كلب ، وكانت ولادتها سنة ٤٧ هـ وسميت باسم جدتها أم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم لقبتها أمها رباب (بسكينة) ، وذلك لأن نفوس أهلها وأسرتها تسكن اليها لفرط مرحها وحيويتها ٠

أما عن ضريح السيدة سكينة الذى يقع فى حى الخليفة بالقاهرة بالشارع المسمى باسمها ، فقد اختلف المؤرخون فى صحة وجودها به ، والذين يقولون بوجودها بمصر يعتمدون على القصة التى تروى خطبة الاصبغ بن عبد العزيز والى مصر من قبل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لها ، وانها كتبت اليه تقول : ان أراضى مصر وخمة « فبنى لها (مدينة الاصبغ (٢)) ٠

ومهمـــا يكن من أمر الروايات العديدة التى تؤيد أو تنفى وجـود السيدة سكينة رضوان الله عليها بمصر ، فقد ظهر فى العصور الوسطى ـ وخاصة أوقات المحن والحروب التى لا تجد فيها الشعوب من تلوذ به غير الواحـــد القهار ، فيتلمسون أضرحة آل البيت والأولياء للزيارة والبركة والدعاء ، ليكشف الله عنهم السوء ويرفع البلاء ، ـ ما يعرف باسم أضرحة الرؤيا ، فاذا رأى ولى من أولياء الله الصالحين فى منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجدا أو ضريحا لأحد من آل البيت ، أو الولى المسمى فى الرؤيا ، فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمـــــه ٠

والمسجد الموجود حاليا يرجع الى عهد عبد الرحمن كتخدا (سنة ١١٧٣ هـ/ سنة ١١٧١ م) ثم جددته وزارة الأوقاف فى القرن الثالث عشر ٠

ربع الخرنوب :

من منشآت عبد الرحمن كتخدا الهامة التى أقامها على شاطىء النيل ببولاق ربع الخرنوب ، وهى عبارة عن قيســارية عظيمة لها بابان ، يســلك منهما من الشمال الى الجنوب بموازاة النيل ٠ يصفها الجبرتى (٣) فيقول : « هى خان

(١) الجبرتى : جـ ٢ ص ٦ ٠
(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص ١٠٢ ٠
(٣) الجبرتى : جـ ١ ص ٣٨٢ و٣٨٣ ٠

عظيمة يعلوه مساكن من الجهتين وبخارجه حوانيت وشونة غلال لقربها من مجرى النيل ، ويتوسط الخان مسجد » • ويحدثنا الجبرتى عن طريقة بناء أساس ربع الخرنوب فيقول : حضروا الأساس حتى بلغوا الماء بنوا لها الخنازير مثل المنارات من الأحجـــار والديش والمؤن وغاصوا بها حتى استقرت على الأرض الصحيحة ثم ردموا ذلك الخندق المحتوى على تلك الخنازير بالمؤن والأحجار • ثم ارتفع على ذلك الاساس بالبناء المحكم بالحجر النحيت (المصقول) وعقدوا العقود والقواصر والأعمدة والأخشاب المتينة وكان العمل فى ذلك سنة خمس وثمانين ومائة وألف • وقد توفى الأمير عبد الرحمن كتخدا قبل اتمامها وبناء الطابق العلوى منها •

جامع الشيخ مطهر :

يقع هذا الجامع بشارع المعز لدين الله (الصاغة) عند تقاطعه بشارع السكة الجديدة، وكان الجامع فى الأصل مدرسة دينية كانت تعرف بمدرسة السيوفية، التى يقول عنها المقريزى : « هذه المدرسة بالقـاهرة وهى من جملة دار الوزير المأمون البطائحى ، وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى على المذهب الحنفى ، وقرر فى تدريسها مجد الدين محمد بن محمد الجينى » ويضيف المقريزى (١) فيقول : وعرفت بالمدرسة السيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينذاك على بابهـا ، وهى الآن (أى فى القــرن ١٥ م) زمن المقريزى تجاه ســـوق الصنادقيين •

وكان بجوار المدرســة السيوفية مسجد يعرف بمسـجد الحلبيين ، ذكره المقريزى (٢) فقال : « هذا المسجد فيما بين باب الزهومة (أحد أبواب القصر الفاطمى الكبير وسمى بالزهومة لأنه باب مطبخ القصر وكانت له رائحة زهمة) ودرب شمس الدولة بنى على المكان الذى قتل فيه الخليفة الظافر الفاطمى • فقد استدعاه وزيره نصر بن عباس الى داره التى كانت تعرف بدار المأمون محمد ابن فاتك البطائحى ، فقتله ودفنه بها وأخفى أمره • فلما قدم الصالح طلائع ابن رزيك من المنيا الى القاهرة باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثأر الخليفة ، هرب عباس وولده نصر الى الشام سنة ٥٤٩ هـ » • ويكمل ابن تغرى بردى القصة (٣) فيقول : وملك الصالح طلائع ديار مصر من غير قتال ، وأتى على دار عباس المعـــروفة بدار المأمون بن البطائحى التى هى اليوم المدرســة السيوفية الحنفية ،فاستحضر الخادم الصغير الذى كان مع الظافر لما نزل سرا ، وسأله عن الموضع الذى دفن فيه فعرفه به ، فقلع البلاطة التى كانت على الظافر ومن معه من المقتولين ، وحملوا وقطعت عليهم الشعور وناحوا عليهم بمصر ومشى الأمراء

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٩٦ •

(٢) الخطط : ج ٤ ص ٢٦٥ •

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٣١٠ •

قدام الجنازة الى تربة آبائه المعـــروفة بتربة الزعفـــران (مكانها الآن خـان الخليـــلى) •

ويقول المقريزى : « وبنى موضع القصر مسجد سمى باسم المشهد وعمل له بابان أحدهما با بالمسجد الرئيسى والباب الثانى كان يتوصل منه الى دار المأمون البطائحى ، وقد سد الباب الثانى وما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد الى أن أقطع فيه محمد بن بى الفضل بن سلطان ابن عمار بن تمام الجعبرى المعروف بالخطيب » • ويضيف المقريزى فى وصف المسجد فيقول : وهذا المسجد من أحسن مساجد القاهرة وأبهجها •

ولما كان مسجد الحلبيين بجوار المدرسة السيوفية فان على مبارك يرى — وانى أؤيده فيما ذهب اليه — أن جزءا كبيرا من مسجد الحلبيين وخاصة مقصورة ولى الله عز الدين بن أبى العز قد دخلت فى المدرسة السيوفية التى أعيد بناؤها وصبحت تعرف باسم جامع المطهر فى القرن (١٨) م ، فقد جاء فى الخطط التوفيقية (١) : وليس لمسجد الحلبيين اليوم أثر ولعله أدخل منه جانب فى المدرسة السيوفية لما بنيت جامعا • وفى هذا الجامع ضريح يزار يقـال له الشيخ مطهر عرف الجامع به ولم نقف له على ترجمة حتى الآن • » ويضيف على مبارك فيقول : « ولو ثبت دخول شىء فى هذا الجامع (أى جامع المطهر) فمن المحتمل أن يكون هذا الضريح الذى يعرف بضريح الشيخ الولى العارف بالله عزالدين بن أبى العز » • وقد عرف جامع المطهر لفترة طويلة باسم جامع عطية المطهر (٢) ، وهذه التسمية ترجع الى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا ، فقد جاء « ان الشيخ عطية المذكور هو الامام الفقيه العلامة الشيخ عطية بن عطية الأجهرى الشافعى البرهانى الضرير • ولد بأجهور الورد احدى قرى مصر قدمها وتفقه على العلماء الاعلام وأتقن الأصول وسمع الحديث وذاع صيته واشتهر وحضر دروسه معظم علماء مصر المعاصرين له واعترفوا بفضله ولما بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا هذا الجالع بنى للشيخ عطية بيتا فوق السبيل سكن فيه هو وعياله وبقى به الى أن توفى فى أواخر رمضان سنة ١١٩٠ » •

ومن الأسباب التى تؤيد على مبارك فيما ذهب اليه من أن جامع المطهر يحتوى على ضريح ولى الله عز الدين ابن أبى العز حفيد عبد القادر الكيلانى ، اعتناء الأمير عبد الرحمن كتخدا به عناية فائقة ، بل أكثر من ذلك فقد بنى بالجامع وبجوار الضريح الموجود به ضريحا دفن فيه أمه (٣) ، كما رتب له ما تقام به شعائره الدينية ، وجعل فيه مدرسين وطلبة وقراء ، وعين له جانبا عظيما من ريع أوقافه الجمة ، وعين لكل وظيفة راتبا معلوما • كما جاء فى كتاب وقفيته (٤) •

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١١٦ •
(٢) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٨٢ •
(٣) الجبرتى : ج ٢ ص ٦ •
(٤) الخطط التوفيقية : ج ٢ ص ٢٣ •

وقد جاء فى الخطط التوفيقية : أن جامع المطهر كان متسعا ، فأخذ منه عند فتح شارع السكة الجديدة فى عهد محمد جانب ، ثم عمر ما بقى منه ولم يزل يقام به شعائر الجمعة والجماعة الى اليوم ، وفيه درس فى فقه الامام مالك كل أسبوع مرة ، وعين لذلك شيخ رواق الصعايدة بالأزهر بمرتب من وقف هذا الأمير .

يوجد المدخل الرئيسى للجامع الذى أقامه عبد الرحمن كتخدا فى شارع المعز لدين الله (شارع الصاغة بجوار محل السرجانى) ، وبجانب المدخل من الجهة الشمالية يوجد السبيل ، تعلوه قاعة مخصصة لشيخ الجامع ، ويعلو هذه القاعة الكتاب الوارد ذكره هو والسبيل فى وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا . وتحتوى الواجهة وكذا السبيل على نقوش نباتية وهندسية وكتابية بارزة فى الحجر ، وبعضها فى الرخام تمثل الطراز التركى أحسن تمثيل . ويؤدى المدخل الى دهليز متسع ، فى الجهة اليمنى منه يوجد درج مكون من قالبتين يؤدى الى القاعة التى تعلو السبيل والمخصصة لشيخ الجامع ، وبجانب هذا الدرج والى الغرب منه يوجد درج آخر يوصل الى الكتاب والى مئذنة الجامع التى تعلو الواجهة الشرقية . وبالجانب الشمالى من الدهليز وبعد مبنى السبيل والكتاب توجد مصلى فى صدرها محراب فى الجهة الشرقية ، والجانب الجنوبى منها مفتوح كلية على الدهليز يتقدمه عمودان يحملان ثلاثة عقود مستديرة . أما الجانب الشمالى منها فيوصل الى طرقة ، فى الجهة الغربية منها يوجد باب يؤدى الى ايوان الصلاة ، وفى الجهة الشمالية منها توجد دورة المياه .

وينتهى الدهليز الممتد من المدخل الرئيسى من الجهة الغربية بايوان الصلاة ، وفى اعتقادى أن ايوان الصلاة الذى يوجد فى النهاية الغربية للجامع والذى يحتوى على الاضرحة ، هو الجزء الذى أخذه الأمير عبد الرحمن كتخدا من مسجد الحلبيين ، حيث يوجد ضريح ولى الله عز الدين بن أبى العز ، واضافة الى المدرسة السيوفية . ذلك ان موقعه يتفق تماما مع موقع مسجد الحلبيين كما جاء فى كتب الخطط والمراجع التاريخية .

ويتكون ايوان الصلاة من مستطيل يقسمه صفان من البوائك الى ثلاثة أروقة ، ويتكون كل رواق من ثلاثة أعمدة رخامية تحمل أربعة عقود شبه مستديرة ممتدة ، وفى الرواق المتوسط توجد فتحة كبيرة مربعة (شخشيخة) للاضاءة والتهوية ، وفى وسط جدار القبلة يوجد المحراب الرئيسى ، والى يساره توجد نافذة كبيرة وباب كبير هو المدخل الرئيسى لهذا الايوان . ويؤدى هذا الباب الى طرقة مكشوفة تتقدم ايوان الصلاة ، يبدو فيها واضحا أن هذا الايوان كان أوسع مما هو عليه الآن من الجهة الجنوبية ، ثم اقتطع منه جزء آخر فى شارع (السكة الجديدة) .

وفى وسط الجدار الغربى لايوان الصلاة يوجد ضريح ، عبارة عن حجرة مربعة ، بأركانها الأربعة مقرنصات كبيرة جميلة الصنع . ويعلو المقرنصات رقبة

مثمنة يوجد بها أربع نوافذ مملوءة بالجص المخرم والزجاج المتعدد الألوان • والى الجنوب من هذا الضريح توجد مقبرة تعلوها تركيبة من الرخام عليها نقوش كتابية مذهبة بها آيات قرآنية ، كما نقش عليها اسم صاحبة المقبرة وهي : السيدة آمنة والدة الأمير عبد الرحمن كتخدا • والسقف الذى يعلو هذا القبر خشبي به نقوش زيتية جميلة ، تماثل النقوش الموجودة على السقف الخشبي الذى يغطى ايوان الصلاة •

مسجد أبى السعود الجارحى :

هو الشيخ العارف بالله أبو السعود الجارحى ، ذكره الشعرانى فى طبقاته على أنه من شيوخ المتصوفين فى القرن العاشر الهجرى • وذكرت معظم المراجع التاريخية (١) وكتب الطبقات (٢) تاريخ وفاته سنة ٩٣١ هـ • وكان للسلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك اعتقاد كبير فيه • وله زاوية فى كوم الجارحى • ويقول على مبارك : كان يساعده فى بناء زاويته الملوك والوزراء وغيرهم فكانوا يحضرون بين يديه خاضعين يعملون بأيديهم فى عمارتها فى حمل الطوب والطين وعمل له سربا تحت الأرض كان يدخله من أول رمضان يعتكف فيه طول الشهر فلا يخرج منه الا بعد العيد بستة أيام • ويضيف الشعرانى على هذه الرواية فيقول : وذلك بوضوء واحد من غير أكل وأما الماء فكان يشرب منه كل ليلة أوقية • وكان يردد دائما : لا تجعل لك قط مريدا ولا زاوية وفر من الناس فان هذا زمان الفرار • وتوفى رحمة الله عليه سنة ٩٣١ هـ ودفن بزاويته بالكوم الجارحى •

وقد أعاد بناء ضريح أبى السعود وكذا المسجد المجاور له ، الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٨٥ هـ •

ويتكون مسجد أبى السعود من ضريح كبير يلحق به مسجد للصلاة ، والضريح عبارة عن حجرة مربعة ، بكل ركن من أركانها الأربعة مقرنص كبير تعلوه رقبة اسطوانية بها أربعة نوافذ مملوءة بالجص المخرم والزجاج المتعددة الألوان ، وان كان قد سقط معظمه ، وتقوم فوق الرقبة قبة ممتدة ، وهى من الاصلاحات التى أجريت للضريح فى العصر العثمانى • أما المسجد فبسيط ، فهو عبارة عن مربع به صفان من الأعمدة ، ويتكون كل صف من عمودين • وتقسم صفوف الأعمدة المسجد الى ثلاثة أروقة ، وفى جدار القبلة يوجد محراب كبير تحيط بعقدة آيات قرآنية • وملحق بالمسجد والضريح ساحة كبيرة تقام فيها الأذكار كل أسبوع •

---

(١) ابن اياس بدائع الزهور (حوادث سنة ٩٢٢ هـ) الخطط التوفيقية لعلى مبارك ج ٤ ص ٥٠ و٥٦ •

(٢) طبقات الشعراوى ج ٢ ص ١٢٩ و١٣٠ •

مسجد ذو الفقار :

هو الأمير ذو الفقار بك تابع الأمير حسن بك الفقارى ، تولى الصنجقية وامارة الحج فى يوم واحد ، وسافر أميرا للحج احدى عشرة (١) مرة ، وكان ذلك فى عهد والى مصر حمزة باشا • وكان ذو الفقار (٢) شديدا على أهل الفساد من العرب وغيرهم فى سائر الأقاليم • وكان أميرا ورعا محافظا على الصلوات الخمس فى أوقاتها ، معظما للعلماء شفوقا على الفقراء قاسيا على المفسدين • توفى سنة اثنتين (٣) ومائة وألف ، وقبل دفنه ألبس الوزير حمزة باشا ولده الرشيد أمير اللواء ابراهيم بك — الصنجقية •

ويقع مسجده بشارع اللبود المتفرع من شارع بور سعيد بالقرب من بركة الفيل • وهو من المساجد المعلقة ، يصعد اليه بمجموعة من الدرجات فى الواجهة الغربية حيث يوجد المدخل الرئيسى • ويعلو المدخل عقد مرتفع ذو ثلاثةفصوص مملوءة بالدلايات الدقيقة كما زخرف طبلة العقد العائق الذى يعلو باب المدخل ببلاطات من القاشانى التركى ، وفى وسطها لوحة رخامية نقشت عليها الأبيات الآتية :

جامع جاء لطيفا وبديع الانشا ... على السمك بها كل زمان تفشى
دام فيه صلوات وأجيبت دعوات ... بنهار متجل وبليل يغشى
ذو الفقار فاز بالخير فقل تاريخا ... عمر الجامع بالسعد بديع الانشا

(سنة ١٠٩١)

ويؤدى الباب الخارجى الى سلم من ست درجات مربعة الشكل ، يعلوها قبة ضخمة ، على يمينها باب يؤدى الى باب المئذنة والى دورة المياه ، وعلى يسارها نافذة ثم باب الى ايوان الصلاة •

ويتكون داخل المسجد من مستطيل ممتد من الشمال الى الجنوب، بوسطه صف من البوائك مكون من أربعة أعمدة رخامية تعلوها خمسة عقود • يقع المحراب فى صدر الجدار الشرقى ، وهو من الحجر زخرفت طاقيته بدلايات دقيقةوحليت تواشيحه ببلاطات من الخزف التركى الجميل ، ويعلو عقده مربع به دائرة من القاشانى ، وبجواره منبر خشبى • وفى الجدار الغربى تقع دكة المبلغ وهى محمولة على كابولين ، ويعلو هذا الجدار ازار نقشت عليه سورة يس الى قوله تعالى (٤) : « قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » • كما نقش على الازار الشرقى آيات من سورة الفتح ، وتاريخ الانشاء ونصه « أنشأ هذا

---

(١) الجبرتى : جـ ١ ص ٩٠ •
(٢) الخطط التوفيقية : جـ ٤ ص ١١٣ •
(٣) الجبرتى : جـ ١ ص ٩٠ •
(٤) تاريخ المساجد الأثرية ص ٣٢٢ •

المسجد المبارك من فضل الله تعالى وعونه وجزيل عطائه العميم الجناب العالى الكوكب المنير المتلالى الأمير ذو الفقار بك أمير اللواء الشريف السلطانى وأمير الحج وكان الفراغ فى شهر ذى الحجة ١٠٩٠ هـ » ٠

ويحيط بالمسجد من جهاته الثلاث : الغربية والشمالية والشرقية ، صفان من النوافذ داخل حنيات مسطحة مستطيلة ، السفلى منها كبيرة ويعلوها عقد مسطح به صنجات معشقة يعلوها عقود عاتقة بها صنجات معشقه كذلك ، وقد ملئت هذه النوافذ بخشب مخروط ٠ أما الصف العلوى من النوافذ فصغيرة ، ويعلوها عقود نصف دائرية وملئت كلها بجص مخرم وعشق بالزجاج المتعدد الألوان ٠ ويعلو جدران المسجد شرافات على شكل العرائس ٠

وبجوار المدخل الرئيسى وفى الركن الجنوبى الغربى للمسجد توجد المئذنة ، وهى تقوم على قاعدة ، يبلغ ارتفاعها ثلثى ارتفاع المدخل ٠ والمئذنة عثمانية الطراز ، فهى عبارة عن شكل مسلة متعددة الاضلاع يتوسطها شرفة ترتكز على صفين من الدلايات ٠ وتنتهى المئذنة على شكل القلم الرصاص ٠

مسجد محمد بك أبى الذهب :

كان الأمير الكبير محمد بك أبو الذهب تابع على بك الكبير ، اشتراه سنة خمس وسبعين ومائة وألف ، وخرج من مخدومه الى الحج ورجع أوائل سنة ثمان وسبعين ، وتأمر فى تلك السنة وتقلد الصنجقية (١) ، وعرف بأبى الذهب ٠

ويقول الجبرتى عن السبب الذى من أجله عرف بأبى الذهب ، انه لما لبس الخلعة بالقلعة صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء والجعيدية حتى دخل منزله ، فعرف بذلك لأنه لم يتقدم نظيره لغيره ممن تقلد الأمريات ، واشتهر عنه هذا اللقب وشاع ، وسمع عن شهرته ، فكان لا يضع فى جيبه الا ذهبا ولا يعطى الا الذهب ، ويقول أنا أبو الذهب فلا أمسك الا الذهب ٠

وعظم شأنه فى زمن قليل ، ونوه مخدومه بذكره وعينه فى المهمات الكبيرة والوقائع الشهيرة ٠ وكان كما يقول الجبرتى : سعيد الحركات مؤيد العزمات لم يعهد عليه الخذلان فى مصاف قط ٠ وقد أكثر أبو الذهب من شراء المماليك والعبيد حتى اجتمع عنده عدد كبير فى زمن قليل ، وتقلدوا المناصب والأمريات وتعصبوا له وقاتلوا بين يديه ، حتى أزاحوا على بيك الكبير وخرج هاربا من مصر الى الشام ، واستقر أبو الذهب بمصر ٠

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار فى دول البحار جـ ٢ ص ٢٠٦ (بولاق سنة ١٣١٤) ٠

وقصه محمد بيك ابو الذهب فى خدمة سيده على بيك الكبير ثم الخروج عليه وتولى مشيخه البلد من بعده قصه معروفة لا داعى لتكرارها هنا ٠

وفى اواخر سنه سبع وثمانين شرع فى بناء مسجده تجاه الجامع الأزهر وكان محله حان الزراكشه ورباع متخربه ، فاشتراها من أربابهـا وهدمهـا وامر ببناء مسجده ٠ ويصف لنا الجبرتي المسجد بأسلوب عصره فيقول : أمر ابو الذهب ببناء مسجده على آرنيك (اسلوب او طراز) جامع السنانيةالكائن بشاطىء النيل ببولاق ٠ ورتب لنقل الاتربه وحمل الجير والرماد والطين عدة كثيرة من قطارات البغال والجمال ٠ وطحنوا لها الجبس الحلوانى المصـيص ورموا اساسها فى اوائل شهر الحجة ختام سنة سبع وثمانين ٠ ولما تم عقد قبتها العظيمة وماحولها من القباب المعقودة على الىلواوين (الايوانات) وبيضوها ونقشوا داخل القبه بالالوان والاصباغ وعمل لها شبابيك عظيمه كلهـا من النحاس الأصفر المصنوع ٠ وعمل بظاهرها فسحة مفروشة بالرخام المرمـر وبوسطها حنفية وحولها مساكن لمتصوفة الأتراك وبداخلها عدة كراسى راحـة (اى دورات مياه) ٠ وكذلك بدورها العلوى وباسفل من ذلك ميضاة عظيمة ٠ وعمل باعلى الميضاة ثلاثه اماكن برسم جلوس المفتين الثلاثه يجلسون بها حصة من النهار لافادة الناس بعد املاء الدرس وقرر فيها الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكيه والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية والشيخ حسن الكفراوى مفتى الشافعيه ٠ ولما تم البناء فرشت جميعها بالحصر ومن فوقها الأبسـطة الرومى من الداخل والخارج حتى فرجات الشبابيك ومساكن الطباق ٠ ولمـا استقر جلوس المفتين الثلاثه بأماكنهم التى أعدت لهم أضر بهم رائحة الميضأة المتصاعدة عليهم من المراحيض وأعلموا الامير بذلك فأمر بابطالها وبنوا خلافها بعيدا عنها ٠ وتقرر فى خطبة المسجد الشيخ أحمد الراشدى وغالب المدرسين بالأزهر مثل الشيخ على الصعيدى مدرس البخارى والشـيخ أحمد الدردير والشيخ محمد الامير وغيرهم ٠ وجعل بالمسجد خزانة كتب عظيمة وجعـل خازنها محمد أفندى حافظ ٠ ورتب للمدرسين الكبار فى كل يوم مائه وخمسين نصفا فضه ومن دونهم خمسون نصفا وكذلك جعل للطلبه عشرة انصاف فى كل يوم وبقدر عدد الدراهم أرادب من البر فى كل سنه ٠

فأذعنت له البلاد ودخلت فى طاعته وخافت سطوته ٠ فأرسل بالبشائر وعمل بها وقدات وشنكات وحراقات وأفراح ثلاثة أيام بلياليها » ٠ ودفن فى مسجده تجاه الأزهر فحفروا له قبرا فى الليوان الصغير الشرقى وبنوه ليلا ، ولما أصبح النهار عملوا له مشهدا وخرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصـون ومشى أمامه المشايخ والعلماء والأمراء وجميع الاحزاب والأوراد وأطفال المكاتب وأمام نعشـه مجامر العنبر والعود سترا على رائحته النتنة حتى وصلوا به الى مدفنه ٠

ويتكون المسجد من مربع طول ضلعه (١٥) مترا تغطيه قبه كبيرة ٠ وقد

فتح فى جدران المربع ـ عدا حائط القبلة ـ ثلاثة أبواب يكتنف كل منهـا نافذتان ملئت جميعها بالنحاس المفرغ ، وكسيت جلساتها وأعتابها بالرخام • وتؤدى هذه الابواب الى ثلاثة ايوانات • وتقوم القبة على مقرنصات فى أركان المربع ، وترتكز هذه المقرنصات على أكتاف وأعمدة من الرخام حليت طباليها الخشبية بمقرنصات • وبكل مقرنص من أركان المربع كتب لفظ الجلالة ،وفوق زوايا المربع افريز به آيات من سورة الفتح واسم المنشيء بحروف مذهبـة على أرضية زرقاء بما نصه « حررت برسم أمير اللواء السلطانى محمد أبو الذهب » ويعلو ذلك دوائر زخرفية ونوافذ مملوءة بالجص المخوم والمعشق بالزجـاج المتعدد الالوان ، ويعلو ذلك مقرنص ثم نوافذ قنديلية • وكانت القبة حافلة بالنقوش والزخارف الملونة والمذهبة والكتابات التى ما تزال آثارها باقية •

وقد كتب على الباب الشمالى للمسجد هذه الأبيات :

أمير اللواء أنشـأت لله مسـجدا عليه بهاء العز جـل الذى وهب
لك الفـوز فيـه بالثواب مؤرخ لقد حاز ألطاف القبول أبو الذهب

وكتب على الباب الغربى :

فريد الآن مسـجده تجـلى بما سـر النواظر والمسـامع
لـواء النصر شـيده فأرخ مكـان محمـد للخير جـامع
سنة ١١٨٧ هـ •

وكتب على الباب الجنوبى :

شادت يد العلياء نور المسـجد لعزيز مصر نظيره لا يوجـد
فيه لواء النصـر لاح مؤرخـا لمحمد خير المساجـد يسعـد
سنة ١١٨٧ هـ •

ويقع المحراب فى صدر الجدار الشرقى للمسجد ، وعلى جانبيه نافذتان تطلان على الواجهة الشرقية المقابلة للجامع الازهر • والمحراب مصـنوع من الرخام والصدف ، وقد كتب فى خواصر عقده « ما شاء الله لا قوة الا بالله » • وبجانب المحراب منبر خشبى مصنوع بطريقةالحشوات المجمعة المطعمة بالعاج والصدف والزرنشان • وفى الضلع الغربى المقابل لحائط المحراب ، توجـد دكة المبلغ التى يتوصل اليها من سلم مسحور فى جدار النافذة الشماليـة الغربية ، يصل كذلك الى سطح المسجد • وكانت أرضية المسجد مفروشـة بالرخام المتعدد الألوان الجميل الصنع •

ويحيط بالمسجد من جميع الجهات عدا جهة القبلة رواق متسع ، يبلغ عرضه خمسة أمتار ، قسم سقفه الى مربعات بحيث أصبح كل ضلع يحتوى على ثلاثة مربعات ، هذا بالاضافة الى مربعات الاركان • وقد غطى سقف هذه المربعات بقباب ضحلة ، وهو بذلك يشبه المساجد العثمانية مثل : جامع سنان

باشا ، والملكة صفية ، ومسجد محمد على فيما بعد . وفى الطرف الشمالى الشرقي للرواق الخارجى سياج كبير من النحاس المفرغ ، توجد خلفه تربة محمد أبو الذهب ، وقد كسيت جدرانها ببلاطات القاشانى التركى . ويفصل التربة عن المكتبة الملحقة بالمسجد سياج نحاسى آخر ، به باب كتب حول عقده آية الكرسى . كما كتب على قبره الأبيات الآتية :

هـذا مقام عزيز مصر أميرها عين الأكابر ذى العلا والسؤدد
أعنى أبى الذهب الذى فى عصره كانت له الأقطار فى طوع اليد
تجرى على طول المدى صدقاته بدروس علم أو عمارة مسجد
فسحائب الرحمات يصحبها الرضا تهمي عليه فى المساء وفى الغد
والحور فى المأوى له قد أرخت دار الكرامة مسكن محمد

وقد دفن فى هذه المقبرة أيضا أخته السيدة (١) زليخا زوجة ابراهيم بك الكبير ، وقد كتب على شاهد قبرها : « هذا قبر الست المصونة ستى زليخة زوجة أمير اللواء ابراهيم بك شيخ البلد حالا توفيت رحمة الله عليها يوم الجمعة ٢٨ شهر المحرم سنة ١٢١٦ هـ » .

ويعتبر مسجد (أبو الذهب) من المساجد المعلقة ، اذ يرتفع عن الشارع بعدد كبير من الدرجات . ويصعد الى المدخل الشمالى بسلم مزدوج من الرخام ، ويصعد للمدخل الشرقى بسلم مستدير ، وكلا المدخلين يؤدى الى طرقة تتقدم الرواق الخارجى الذى يحيط بالمسجد الذى تعلوه القبة الكبيرة . وقد كتب على المدخل الشرقى الأبيات الآتية :

أنشأت يا مولى الأكابر مسجدا ولواء نصرك فى البرية يسعد
ولك العناية بالسعادة أرخت حاز الفضائل والكمال محمد

وكتب على الباب الشمالى الأبيات التالية :

أمير اللواء الأكرمين محمد بمسجده حاز الفضائل والأدب
عليه ضياء المقبول مؤرخ بسعد دام العزيز أبو الذهب
سنة ١١٨٧ هـ

وفى الركن الجنوبى الغربى للمسجد توجد المئذنة ، وهى منارة كبيرة مربعة الشكل ، تتكون من ثلاث طبقات ، يفصل بينها شرفتان من الخشب الخرط تقومان على صفين من الدلايات الدقيقة . وفى كل وجه من أول المربع فى الطابق الاول نافذة معقودة ، تتقدم جلستها شرفة صغيرة . وفى الطابق الثانى يوجد باب معقود فى كل وجه يؤدى الى الشرفة ، ويعلو الباب فتحة مستديرة . أما الطابق الثالث فيوجد باب معقود فى كل وجه ، شديد الاستطالة

---

(١) الجبرتى : جـ ٣ ص ٢١٣ .

يبلغ ارتفاعه ارتفاع الطابق تقريبا ، يؤدى الى الشرفة ، وعلى جانبيه نافذتان مستطيلتان ويعلوهما عقد على شكل حدوة الفرس • ويعلو الطابق الثالث خمسة رؤوس على شكل (الزلع) وهى تشبه الى حد كبير مئذنة مدرسة الغورى القريبة منها •

وبسطح المسجد مزولة كتب فى عقدها النصف دائرى الذى يعلوها العبارة الآتية : « مزولة قائمة على خط المشرق والمغرب منحرفة تسعين درجة وتسمى بالخيط المساتر بعرض مصر المحروسة برسم صاحب الخيرات محمد بيك أبو الذهب دام عزه رسمه الفقير محمود بن حسن النيشى فى ١٨ جمادى سنة ١١٨٨ هـ » • وللمسجد مزولة ثانية من عمل نفس الصانع مؤرخة فى غرة جمادى الاول سنة ١١٨٨ هـ موجودة (١) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وقد كتب عليها « منحرفة شرقى جنوبى بعرض مصر برسم صاحب الخيرات محمد بك أبو الذهب دام بقاه » •

مسجد حسن باشا طاهر :

هو أخو محمد باشا طاهر قائد الجنود الالبانية أثناء ولاية خسرو باشا على مصر • وقد اتفق طاهر باشا على تأليب الجند على خسرو باشا ، مما اضطره الى الهرب هو وعائلته وبعض جنوده الى دمياط (٢) • وفى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨ هـ / سنة ١٨٠٦ م عين طاهر باشا « قائم مقام » لوالى مصر الى أن يصدر أمر السلطان بتعيينه أو تعيين غيره (٣) •

وقد تمكنت جنود الانكشارية من قتل طاهر باشا بعد أن حكم أياما ، وكان له انجذاب للدراويش وكان صفته أسمر اللون نحيل البدن أسود اللحية قليل الكلام بالتركى • وكان يجتمع عنده أشكال مختلفة الصور فيذكر معهم ويظهر لهم الاعتقاد فيهم • ولما قتل دفنوه بقبة عند بركة الفيل (٤) •

وبعد وفاة محمد طاهر باشا ، عنى أخوه حسن باشا طاهر وعابدين بك طاهر ببناء القبة التى تقوم فوق قبره كما أنشآ بجوارها مسجدا وألحقا به سبيلا وكتابا •

ويتكون المسجد من مستطيل تقسمه بائكة مكونة من ستة أعمدة رخامية تحمل سبعة عقود مدببة ـ الى رواقين • ويغطى المسجد سقف خشبى يتوسطه فتحة (شخشيخة) للانارة ، كما فتحت فى أعلى جدرانه نوافذ مملوءة بالجص المخرم والمعشق بالزجاج المتعدد الالوان • وفى صدر الجدار الشرقى يوجد المحراب ، زخرفت طاقيته بزخارف هندسية جميلة ، كما تعلوه

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ٣٥٦ •
(٢) عبد الرحمن الرافعى : الحركة القومية جـ ٢ ص ٣٣٩ •
(٣) سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ص ٢٢١ •
(٤) الجبرتى : جـ ٣ ص ٢٤٨ •

قبة صغيرة فتحت في رقبتها فتحات ملئت بالجص والزجاج المعشق • وبجانب المحراب منبر خشبي مكون من حشوات مجمعة وخشب الخرط • وفى الطرف الشمالى الغربي من المسجد توجد دكة المبلغ التى تستند على عمودين من الرخام على الجدارين الشمالى والغربى • ويقع المدخل الرئيسى للمسجد فى الضلع الجنوبى حيث يصعد اليه ببضعة درجات • ويحيط به عقد مرتفع مخوص ، كتب على عتبه : أنشأ هذا المسجد المبارك من فضل الله سبحانه وتعالى أفندينا حسن باشا طاهر والامير عبدين بيك طاهر غفر الله لهم فى (سنة أربع وعشرين ومائتين وألف) (١) •

وفى الواجهة الجنوبية وعلى يسار المدخل الرئيسى للمسجد توجد القبة ، وهى مبنية من الحجر وكذا منطقة الانتقال وكذا رقبتها • وقد كتب على عتب نافذتها « لا اله الا الله محمد رسول الله ١٢٤٢ هـ » • وقد حليت واجهة القبة بالزخارف والرسوم ، وكذا بلاطات القاشانى والمقرنصات • وقد كتب على عتب بابها ما نصه : « هذا مقام الاربعين النازل بجوارهم أفندينا محمد باشا طاهر والأمير يوسف بك رحمهم الله تعالى أجمعين » وقد كتب على قبر يوسف بك الأبيات الآتية :

وزير مصر للاله لقد مضى | لا اعتراض لحكم مولا قاهر
عليه رضا الرحمن قلت مؤرخا | فى جنة الفردوس محمد طاهر

سنة ١٢١٨ هـ

كما توجد مقبرة أخرى مكتوب عليها : « هذا قبر المرحوم ابراهيم بيك ابن أمير اللواء طالب بيك توفى الى رحمة الله تعالى يوم الأحد ٢ شهر جماد آخر سنة ١٢٢٩ هـ • »

وعلى يمين المدخل الرئيسى للمسجد يوجد السبيل وقد كتب عليه : «وسقاهم ربهم شرابا طهورا •• » الى آخر الآية •• ويعلو السبيل كتاب للأطفال •

وفى الطرف الشرقى للسبيل توجد مئذنة المسجد ، وهى مئذنة رشيقة تتكون من ثلاثة طوابق ، تفصل بينها شرفتان من الحجر المخرم تقومان على صفوف من الدلايات • ويتكون من شكل ثمانى فتحات فى أربعة من أضلاعه نوافذ للاضاءة ، أما الطابقان الثانى والثالث فشكلهما اسطوانى ، وينتهى الطابق الثالث بترس أسفل خوذة •

مجرى عيون فم الخليج :

تعددت الأقوال وكثرت الآراء فى تأريخ مجرى المياه الذى كان يوصل مياه النيل الى قلعة الجبل ، كما خلط كثير من الكتاب بين مجرى المياه وأسوار

(١) الخطط التوفيقية : جـ ٤ ص ٨٧ •

وذكر ابن اياس (١) وكذا ابن العماد (٢) ، أن الملك الأشرف قنصوه الغورى الذى حكم من سنة ٩٠٦ هـ الى سنة (٩٢٣) هـ ، أنشأ المجرى ، ويؤيد هذه الرواية سمة (رنك)السلطان المنقوشة على أجزاء متعددة من المجـــرى ونصها : « عز لمولانا السلطان الملك الاشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره» وهناك جامة أصلها فى هذه المجرى ونقلت الى متحف الفن الاسلامى تحت رقم « ١٠٠ » ، الا أن هذه الجامات لا تحمل تاريخا ، وان كان (Casanova) يقول : ان الغورى أنشأها سنة ٩١١هـ/سنة ١٥٠٥م ، ويذكر (Jomard) (٣) من علماء الحملة الفرنسية تاريخا آخر هو سنة ٩٠٧ هـ / سنة ١٥٠١ م) .

واذا مددنا خطا من جامع زين العابدين يتقاطع مع الواجهة الشمالية للمجرى ، وجدنا لوحتين تذكاريتين باسم عبدى باشا ، يتبين منهما ، أنه قام ببعض الاصلاحات للمجرى سنة ١١٤٠ هـ / سنة ١٧٢٨ م . وقد نقلت اللوحتان الى متحف الفن الاسلامى تحت رقم : (٤٢٣١) ، (٤٢٣٢) . ومما هو جدير بالملاحظة أننا نجد على جانبى الكتابة باللوحتين التذكاريتين رسم حيوانين ، أعتقد انهما رنك عبدى باشا ، ويوجد مثل هذا الرسم على احدى الدعائم الساندة القريبة من سكة حديد حلوان ، ولذلك فان (Creswell) (٤) يرجع الدعائم شبه الدائرية الى اصلاحات عبدى باشا .

ثم جاءت الحملة الفرنسية وأحدثت كثيرا من التغيرات بهذا المجرى ، فقد ورد فى الجبرتى (٥) فى ذكر ما هدمه الفرنساوية وخربوه وما أحدثوه من العمائر ما يأتى : « سدوا أبواب الميدان من ناحية الرميلة وناحية عرب اليسار ، وأوصلوا سور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجرى التى كانت تنقل الماء الى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سورا بذاتها ولم يبقوا منها الا قوصرة واحدة ناحية سيدى الطيبى جهة مصر القديمة جعلوها بابا ومسلكا وعليها الكرنك والخفر والعساكر الملازمون الاقامة بها ، ولقبض المكس من الداخل وسدوا الجهة المسكوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب بقفـــل أيضا وعليه حرســجية ملازمون القيام عليه وذلك حيث سواقى المجراة التى كانت تنقل المياه الى القلعة وحفروا خلف ذلك خندقا » .

---

(١) بدائع الزهور : ج ٣ ص ٦٣ .
(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ص ١٤ .
(٣) Jomard : Description de l'Egypte.
(٤) Creswell, p. 22.
(٥) الجبرتى : ج ٣ ص ١٦٠ .

ويبلغ طول المجرى الموجود حاليا والذى يمتد من فم الخليج الى بـــاب السيدة عائشة (١ر٣) كيلو مترات ،ويفصل شارع الكورنيش الان بين رأس المجرى ونهر النيل • ثم يمتد المجرى جهة الشرق فى خط منكسر ، الغرض منه احداث انثناءات طفيفة فى سير المجراة حيث يزيد من قوة دفع المياه • ويستمر سير المجرى نحو الشرق حتى يلتقى بسبيل الوسية ، حيث يوجد باب قايتبـــاى الذى سبق الاشارة اليـــه • ويبلغ طول المجرى من مبدئه حتى سبيل الوسية حوالى (٢ر٢ كيلومتر) ثم يتغير ســـير المجرى ويتجه الى الشمال الشرقى فيمر أمام مسجد الزمر ، ثم ينتهى عند باب الســـيدة عائشة ويبلغ طول المجرى من سبيل الوسية حتى مسجد الزمر (٥ر) كم ، ومن مسجد الزمر حتى باب السيدة عائشة (٤٠٠) متر •

والمجرى مقامة على قناطر يبلغ عدد العقود الباقية منه الآن (٢٧١) عقدا ، ومعظم العقود على شكل شبه دائرى • وقد أجريت للمجرى عـــدة اصلاحات ، كما أدخلت عليه بعض التغيرات ، اما لتصدع البناء كما حدث فى العصر العثمانى فأصلحه عبدى باشا ســـنة ١١٤٠ هـ (سنة ١٧٢٨م) . أو لاتخاذه استحكاما حربيا وذلك فى عهد الحملة الفرنسية ، فقد سد معظم عقود المجرى واستخدم كسور • ولذلك فان القناطر الموجودة الآن بعضهـــا باق بحالته الأصيلة ويبلغ عددها (١٧٣) قنطرة ، والبعض له جلس للتقوية ويبلغ عدد (٣٣) قنطرة ، ويبلغ عدد القناطر التى سدت (٢٦) قنطرة ، أما عدد القناطر التى أنشئت فوق سور صلاح الدين فيبلغ عددها (٣٩) قنطرة ويبلغ ارتفاعها (٣٥ر٤) مترا فوق السور • لقد جاء فى وصف المجـــرى فى كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية وكذلك فى الجبرتى ان عدد قناطر المجرى يبلغ (٣٠٠) قنطرة ، ولما كان الباقى منهـــا الآن (٢٧١) قنطرة اذن فقد هدمت (٢٩) قنطرة •

وفى الجزء المتوسط من المجرى توجد دعائم ساندة يبلغ عددها (٢١) دعامة ممتدة على مسافات غير متساوية ، بعضها شبه دائرى ويبلغ عدده ١٥ دعامة والآخر مربع ويبلغ عدده (٦) دعامات • ويقول كريزويل ان هـــذه الدعائم مستحدثة لأنها لا تتصل بمداميك الاكتاف التى ترتكز عليها • كذلك يعتقد كريزويل ان الدعائم شبه المستديرة والتى يبلغ عددها ١٥ دعامة ، كلها من عمل عبدى باشا ، أى ترجع الى سنة ١٧٢٨م •

والمجرى مبنى بالحجر الجيرى عن الشذب فى معظم أجزائه ، اما باطنه فمحشو بالحجر الدقشوم ، وهناك أجزاء قليلة من المجرى مبنية من الحجر الأملس • ويرجع كريزويل كل الاجزاء الملساء فى المجرى الى عبدى باشا • ولكنى استثنى من ذلك رأس المجرى ، فهو مبنى من الحجر الاملس •وأرجح

مقـــدمة :

لا بأس من الاشـــارة هنا ، الى أن العلاقة بين الدراســـات التاريخية والاجتماعية والدراسات الاقتصادية ، علاقة تكامل وتلاؤم فكل منهما يكمل الآخر ، وذلك لأن الدراسات الاقتصادية دراسات اجتماعية فى طبيعتها من غير شك ، فليس غريبا اذا أن نرى الجبرتي (١٧٥٤ ـ ١٨٢٥ م) وهو يؤرخ لأحوال المجتمع المصرى فى العهد العثمانى فى كتابه « عجائب الآثار » الذى تنتهى أحداثه فى سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) ، وهى فترة تخللتها ثلاث سنوات وأيام ، من الاحتلال الفرنسى لمصر ، أقول : ليس غريبـــا أن نرى أن الجبرتي يوضح لنا الجوانب الاقتصادية والنقدية ، فيتعرض للتضخم النقدى فى مصر العثمانية ، كما يتعرض للاكتناز Thésaurisation . ويتحدث عن النقود السلعية ، والنقود الرئيسية Monnaie principale والنقود المساعدة Monnaie divisionnaire والعملة الجيدة والعملة الرديئة والعملة الحقيقية Monnaie de paiement ، والعملة الحسابية Monnaie de compte ، ويتناول أحـــوال الضربخانة المصرية وكيف أضحت وسيلة ايراد واثراء على حساب الشعب ، وكيف شجع انتاجها من القروش الرديئة كثيرا من الزغليين والمزيفين على تقليدها ، كما شرح لنا الجبرتي الاضطراب الخطير فى أسعار (المعاملة) ، وما حل بالبلاد من أزمات ، وهى قطب الرحى فى الدراسات الاقتصادية ، فتعرض لأسباب هذه الأزمات وأثرها فى فوضى النقود واختلال أسعار الحاجيات بين « يوم وآخر » • ولنتأمل مثلا كيف يصور لنا سوء أحوال الناس ، وامتناع الفلاحين عن جلب ماشيتهم وحاصلاتهم للبيع بأسواق القاهرة خشية المصادرة ، أو فرض المكوس العالية ، أو شرائها بأبخس الأثمان ، فى وقت كان فيه يباع كالسلعة يختص بها أكبر المتزايدين •

« ان فظاعة الجواب لا يضاهيها شيء سوى حماقة السؤال » اذ أن النقود المصرية منذ تعريبها في العصر الأموى ، وهي تحمل شهادة التوحيد والرسالة المحمدية والآيات القرآنية من بين نقوشها ، ولم يحتج على ذلك أحد من الغيورين على الدين قبل السلطان سليم ، كما لم تكن هذه النقود يوما ما موضوعا لفتوى تحلل الحرب والجهاد ضد من يضرب مثل هذه النقود في دار الاسلام ٠

ورغم أن العثمانيين قد أبادوا الدولة المملوكية فعلا ، وأزالوا من كتابات النقود المصرية شهادة التوحيد والرسالة المحمدية والاقتباسات القرآنية ، واستبدلوا بها الألقاب الفخرية للسلطان العثمانى مثل « ضارب النضر » أي « الذهب » و « صاحب العز والنصر في البر والبحر » و « سلطان البرين وخاقان البحرين » ، الا أنهم رغم هذا كله لم يأتوا بأية اصلاحات لأنظمة النقود ، بل ان قيم العملة فى مصر أصبحت عرضة للتغيير المتتابع ، بحيث يمكننا أن نعدد مالا يقل عن أربعة وعشرين تعديلا مختلفا لسعر المبادلة ، وتحديد قيمة العملة الذهبية والنحاسية ، وذلك أثناء حكم أول الولاة العثمانيين (١) ، ولم يكن هذا التعديل دليلا على سهر الحكومة العثمانية على مراقبة النظام النقدى فى مصر ، بل كان فى الحقيقة اجراء يراد به ما يعود على بيت المال من الفائدة ، يجعل سعر المبادلة فى مصلحته ، وكسب الفرق بين قيمة النقـود الاسمية وقيمتها الحقيقية لخزانة الباشا ، وكثيرا ما لجأ الولاة الأتراك وقت ارسال الخزنة السنوية من مصر الى استانبول ، الى تخفيض قيمة النقود المتداولة ، مما كان سببا فى زيادة عبء الضرائب عما كانت عليه ، بل اذا ما عجزت مالية الدولة العثمانية يوما عن الوفاء بالتزامات الحروب ، لجأ السلطان الى توزيع النحاس على الشعب بالقوة لاستبداله بنقود الذهب (٢) ٠

ويمكن أن نستبعد وجود نقود قومية مصرية منذ استيلاء العثمانيين على مصر ، بعد أن توقف ضرب الدينار والدرهم والفلس قبيل الفتح العثمانى ، اذ كانت نقود مصر قد فقـدت ثقتها العالمية وسط الفـوضى السياسية ، والاقتصادية ، وقل وجود المعادن النفيسة بسبب امتصاص الافرنج لها (٣) ، ونشطت دور الضرب الايطالية فى البندقية وفلورنسا خاصة ، فى انتاج مجموعات ضخمة من الدوكات « البندقى المشخص » و « الفلورين » أو « الافلورى » ، وتمتع كل منها بسعد قانونى فى كل بلاد الشرق الأوسط (٤) ٠

---

(١) فهمى : النقود العربية ص ١١٤ ٠

(٢) فهمى : النقود ص ١١٤ ٠

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٥ ٠

(٤) فهمى : النقود ص ٩٦ و٩٧ وانظر عن تسرب الذهب من الشرق الى أوربا ٠
M. Bloch, Le problème de l'or au moyen-âge (Annales historique, économique et sociale, t. V, 1923, pp. 1-34, M. de Bouard, sur l'évolution monétaire de l'Egypte Médievale (L'Egypte Contemporaire, XXXe année, Le Caire, 1939).

كما أن العثمانيين لم يكونوا ليسمحوا بالتعامل فى الأسواق المصرية بنقود كانت نقوشها الدينية مثارا لاعتراضهم ، بل ومبررا لابادتهم لدولة المماليك ، وهكذا فان « النقود المصرية » ـ ان صح هذا التعبير ـ كانت نقـــودا تركية بكتابات عربية ، وألقاب سلطانية فخرية ، وارتبطت أشكال هذه النقود وقيمتها بالأوامر العثمانية التى تصدر من حين لآخر من استانبول ، وحتى قوالب الضرب نفسها التى تسك بها هذه النقـــود ، كانت ترد الى مصر من لدن دار الضرب المركزية فى استانبول ، وتسلم الى أمير الضربخانة المصرية لسك النقود المصرية عليها ، ومن ثم ، فقد أضحت ثروات الأفراد عرضة لاعادة توزيعها بين الحين والآخر ، كلما انخفضت النقود ٠ ولم يكن فى وسع الشعب أن يتخذ أية وسيلة للاحتجاج على هذا الوضع فى النادر غير الاضراب عن البيع والشراء ، فقد حدث مثلا أن ضرب السلطان سليم الأول فلوسا فى غاية الخفة فوقف حال الناس بسبب ذلك ، وحصل لهم الضرر الشامل وغلقت الدكاكين (١) غير أن الأثر الباهت للنقود المصرية فى العصر العثمانى ، قد بقى فى تلك المسميات التى ترد على لسان العامة من حين لآخر ، ويشير اليها الجبرتى ، كأن يذكر لفظ «الدينار» للتعبير عن النقود الذهبية بصفة عامة و « الدراهم » للتعبير عن النقود الفضية أيا كان نوعها ، والفلوس أو « الأفلس » للتعبير عن العملة النحاسية والأنصاف العددية (٢) ٠ ويعتقد بعض الباحثين (٣) أن أول نقود ضربها العثمانيون فى مصر هى « الخيرية » ، التى سكت من الذهب ، وأطلق عليها هذا الاسم نسبة الى « ملك الأمراء » « خاير بك » أول ولاتهم على مصر ٠ ولقبهـــا العـــامة باسم « خرية » ، ولكن الواقع أن السلطان « سليم » ضرب أولا نقودا ذهبية أطلق عليها اسم « سلطانى » أو « أشرفى » ، وهو امتداد للفظ « الأشرفى » الذى ألفه الشعب المصرى منـــذ عهد الأشرف برسباى سلطان الجراكسة منـــذ القرن ١٥ م (٤) ٠

أما « خيرية » فقد أطلقت على نقد ذهبى آخر تركى ، ضربه العثمانيون فى مصر منذ عهد السلطان محمود الثانى ١٢٢٣ ـ ١٢٣٥ هـ (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م) وسمى بهذا الاسم نسبة الى تعبير « تنظيمات خيرية » (٥) ٠

وقد ضرب السلطان سليم كذلك ، نقودا ذهبية يشير اليها الجبرتى كثيرا ،

---

(١) فهمى : النقود ص ١١٥ ٠

(٢) انظر الجبرتى أحداث ١٢١٦هـ /١٨٠١ م وأحداث ١٢١٨هـ /١٨٠٣ م و ١٢٣٥ هـ/ ١٨٢٠ م ٠

(٣) الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ١٧٢ ٠

(٤) انظر الجبرتى حوادث ١٢٢٠هـ /١٨٠٦ م ٠

(٥) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « تنظيمات » : يعقوب سركيس : نظـرة فى كتاب النقود العربية مجلة المجمع العلمى العراقى السنة الأولى جـ ١ بغداد ١٩٥٠ ص ٢٦٧

« بارة » أو « ميدى » وسميت « بالعشرينية » وجعل على أحد وجهيها طغراء باسم السلطان العثمانى المعاصر وهو مصطفى الثالث • ونص كتاباتها « سلطان مصطفى ابن أحمد خان عز نصره » ، وعلى وجهها الآخر نقش عبارة « ضرب فى مصر سنة ١١٨٣ هـ » ، مع استغلال حرف الباء فى كلمة « ضرب » باستخدامه كياء راجعة لاسم « على » ، وهو أمر يعبر عنه الجبرتى « بأن عليها علامة على بيك » • ويشير صمويل برنارد Samuel Bernard فى كتاب « وصف مصر » ، الى أن « على بك » ضرب أيضا قروشا فضية من فئة أربعين بارة بتاريخ ١١٨٣ هـ ، بينما يحدد الجبرتى قروش « على بك » بثلاثة أنواع : « قروش مجوز » قيمة كل منها عشرة إنصاف ، وقروش مفرد قيمة القطعة منها خمسة أنصاف فضة ، « وقطع صغار » قيمتها نصف قرش ، وكل هذه القروش فضية ولكن أكثرها نحاس (١) ، مما أدى الى اختلال الحالة النقدية فى أيامه بسبب هذه النقود الرديئة ، وبسبب استيلاء المعلم « رزق » على دار الضرب ، فاستكثر من ضرب هذه القروش وزاد فى غشها لكثرة المصاريف على العساكر والتجاريد والنفقات » ، بحيث « لم يبق بأيدى الناس من المعاملة الا هى وعز باقى الأصناف (من النقود) •• وطلبت للسبك والادخار (الاكتناز) وصياغة الحلى فترقت (ارتفعت) فى المصارفة والابدال » (٢) • والمهم أن القروش كنقد لم تكن تعرفها مصر « قبل على بيك القازدغلى » ، ولم يطل الابقاء على هذا النوع من القروش ، فقد صدر أمر من « محمد بك أبو الذهب » فى يوم الخميس ٢٩ المحرم سنة ١١٨٦ هـ (أبريل ١٧٧٢ م) بابطال قروش على بك كلها من التعامل ، فخسر الناس خسارة عظيمة من أموالهم ، مع فرحهم بابطالها « وباعوها بالأرطال للسبك واقتصر على ضرب الأنصاف العددية والمحبوب الزر ، والنصفيات لا غير ، ونقصوا وزنها وعيارها ونقصت قيمتها وغلت فى المصارفة أكثر من الضعف لتغافل الحكام وتوالى الحوادث والمحن والغلاء والغرامات (٣) •

أما الحادثة الثانية التى قطعت سلسلة التداول النقدى العثمانى بالبلاد ، فهى وصول حملة بونابرت الى مصر والاستيلاء عليها فى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، وبمجرد نجاح الفرنسيين فى دخول القاهرة ، أمروا باعادة تشغيل الضربخانة المصرية فى القلعة تحت اشراف الفرنسيين • وقد كانت النقود العربية وقتذاك احياء للقروش المصرية منذ عهد على بك الكبير • ويذكر صمويل برنار (٤) Samuel Bernard ان هذه النقود الجديدة التى ضربها الفرنسيون كانت مقبولة فى التعامل بالأسواق المصرية ، وخاصة تلك الأنصاف الفضية

---

(١) حوادث ١١٨٦هـ/١٧٧٢م •

(٢) الجبرتى حوادث ١٢٢٠هـ/١٨٠٦ م •

(٣) الجبرتى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢٠هـ /مارس١٨٠٦ م وحوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٥هـ/ أكتوبر ١٨٢٠ م •

(٤) S. Bernard, Mémoire sur les monnaies d'Egypte, vol. XVI, p. 292.

العددية التى ضرب منها الفرنسيون أعـــدادا كبيرة ، تحقيقا لمرونة العملية التجارية ، ولكن ما لبثت انطباعات الفوضى السياسية بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر أن ظهرت على الميدان النقدى ، بعد أن أصبحت النقود سلعة تجارية ، ومجالا للمضاربات التى دخلت جيوش الاحتلال العثمانى من جديد طرفا فيهـا بامتصاصها من الأسواق المصرية ، وتصديرها الى الشام بسعر مرتفع عما هى عليه في مصر ، فيذكر الجبرتي من بين أحداث سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٣ م) « أن الفضة الأنصاف العددية صاروا يأخذونها من دار الضرب أولا بأول ويرسلونها الى الروم والشام ، بزيادة الصرف ، ولا ينزل الصيارف منها الا القليل حتى شحت بأيدى الناس جدا ، ووقف حالهم فى شراء لوازم البيوت ومحقرات الأمور ويدور الانسان بالريال أو المحبوب أو المجر ، وهو فى يده طول النهار فلا يجد مصارفته ، وأغلقت غالب الصياريف حوانيتهم بسبب ذلك ، وبسبب أذية العسكر ، فانهم يأتون اليهم ويلزمونهم بالمصارفة فيقول له الصيرفى : ليس عندى فضـــة ، فلا يقبل عذره ، ويقرع عليه بيطقانه (سلاح كالسيف) أو ببارودته (بندقيته) وان وجد عنده المصارفة ، وكان المحبوب أو البندقى ناقصا فى الوزن ، لا يستقيم فى نقصه ولا يأخذ الا صرفه (بالأنصاف) كاملا ، واذا اشترى شيئا من سوقى (بائع متجول) أعطاه بندقيا (بندقى ذهب) وطلب باقيه ٠٠ ولم يكن عند البائع باقيه أخذ الذى اشتراه والبندقى وذهب ، ولا يقدر المتسبب (التاجر) على استخلاص حقه منه وان وجد معه باقى المصارفة وأخذ ذلك البندقى ونقده (كشك عن وزنه وعياره) عند الصراف ، وكان ناقصا وهو الغالب ، لا يقدر الصيرفى أن يذكر بعضه ، فان قال انه ينقص كذا ، فزع عليه وسبه ، وبعضهم أدخل أصبعه فى عين الصراف وأمثال ذلك » ٠

ويفهم من هذا النص أن « الأنصاف الفضة » التى كانت فى الأصـــل تضرب كنقود مساعدة Monnaie divisionnaire أو Monnaie d'appoint بمعنى انها وحدة نقدية صغيرة لمساعدة النقود الرئيسية من الذهب أو الفضة : كالزر محبوب والمصطفاوى ، والبندقى والمجر ، والريالات ، والقروش ، على اتمام الصفقات التجارية وتسهيل المبادلات الضئيلة القيمة ٠ هذه الأنصاف الفضة تراها قد أضحت سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٣م) نقودا لها قيمة معدنية Valeur métallique تفوق قيمتها الاسمية القانونية Valeur nominale التى حددتها الدولة عند المبادلة وخاصة فى أسواق الشام ، حتى أقبل الناس فى مصر شعبا وحكومة ، وجندا — فى عصر الجبرتى — على اكتنازها وامتصاصها من الأسواق والمتاجرة فيها ٠ وسنرى أن هذا الامتصاص لوحدات النقود الصغيرة من الفضة العددية من مصر ، سيؤدى فى عصر محمد على الى حالة من الجمود فى العملية التجارية ، وازدياد عمليات المضاربة ، وتحويل الوحدات النقدية الى سلعة تجارية معدنية ٠

ومن الغريب أن الجنود العثمانيين لم يكتفوا باستغلال سلطتهم وسـلب الصيارفة من كل مالديهم من الأنصاف العددية ، بل انهم لجأوا الى نوع من الابتزاز

محمد على بانقاص وزن القروش « وجعلوا القرش على النصـــف من القرش الأول ، هذا مع عدم (وجود) الفضة العددية ٠٠ واذا أراد انسان صرف قرش واحد من غيره ، صرفه بنقص ربع العشر ، وأخذ بدله قطعا صغارا افرنجية يصرف منها الواحدة باثنى عشر ، وأخرى بعشرة وأخرى بخمسة ٠٠ ولكنها جيدة العيار وهم الآن يجمعونها ويضربونها ـ بما يزاد عليها من النحاس وهو ثلاثة أرباعها ـ قروشا لأن القطعة الصغيرة التى تصرف أنصاف وزنها درهم واحد وزنى فصيرونها أربعة قروش ، فتضاعف الخمسة الى ثمانين ، وكل ذلك نقص واختلاس أموال الناس من حيث لا يشعرون » ٠

بل ان « محمد على » فى سبيل الاثراء من النقود ـ خطى خطوة أكثر جرأة (سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٢ م وهى أنه أخذ دار الضرب لحسابه ، فتضرب النقود للدولة أو للأفراد لصالح الباشا وحسب ، نظير ضرائب يأخذها لنفسه « وذلك أن حضرة الباشا أبقى دار الضرب على ذمته وجعل خاله ناظرا عليها وقرر لنفسه عليها فى كل شهر خمسمائة كيس (الكيس = ٥٠٠ قرش أو ٢٠٫٠٠٠ فضة) بعد أن كان شهريتها أيام نظارة المحروقى (١٢١٩ هـ) خمسين كيسا فى كل شهر ، ونقصوا وزن القرش المعتاد ، وزادوا فى خلطه حتى لا يكون فيه مقدار ربعه من الفضة الخالصة ، ويصرف بأربعين نصفا ٠٠ هذا مع عدم الفضة العددية فى أيدى الناس ٠٠ وسبب شحة الفضة العددية أنه يضرب منها كل يوم بالضربخانة ألوف مؤلفة يأخذها التجار بزيادة مائة نصف فى كل ألف يرسلونها الى بلاد الشام والروم ويعوضون بدلهـــا فى الضربخانة الفرانسة والذهب لأنها تصرف فى تلك البلاد بأقل مما تصرف به فى مصر ، وزاد الحال بعد هذا التاريخ (١٢٢٦ هـ) حتى اســـتقر على صرف الألف (بزيادة) مائتين وتقرر ذلك فى حساب الميرى فيدفع الصارف ثلاثين قرشا عنها (أى) ألف ومائتان (نصف فضة) ويأخذ ألف فقط والأمر لله وحده » ٠

وبهذه الطريقة دخل الباشا فى مضاربات النقد بغية الاثراء عن طريق امتصاص الأنصاف العددية ، وبيعها بالشام وبلاد الدولة العثمانية الأخرى بسعر أزيد من سعرها فى مصر ، وشراء النقود الفضية من الريالات الفرانسة من الشام بسعر أقل ، وهذا بدوره أدى الى عدم توفر النقود المساعدة التى لابد من وجودها لتحقيق مرونة التبادل بين الأفراد ، ومن ثم وقف حال الناس فى شراء لوازم البيوت ومحقرات الأمور ، حتى كان الفرد يبحث طول النهار على صرف : الريال أو المحبوب أو المجر ، بالأنصاف العددية فلا يتمكن من ذلك ٠

ولم يقف الأمر عند حد امتصاص الباشا للأنصاف الفضة ، بل لجأ الى اكتناز النقود الأجنبية : كالبندقى ، والريالات الفرانسة ، وغيرها ، يأتى بها من الشام ليغمر بها الأسواق المصرية بعد أن يصدر أوامره بزيادة سعرها ٠

فقد حدث فى ذى الحجة سنة ١٢٣٥ هـ (أكتوبر ١٨٢٠ م) أن أمر الباشا بصرف الريال الفرانسة بسعر ٤٨٠ نصف فضة بعد أن كان بثلثمائة ، والفندقلى الاسلامبولى بسبعة عشر قرشا ، مع أنه كان يصرف باستانبول بأحد عشر قرشا أى بأربعمائة وأربعين نصف فضة ، ولما عدم وجود الأنصاف أصبح « البشلك » ــ وهو ثمن القرش أى خمسة أنصاف فضة ــ هو أدنى وحدات النقود وأصغرها منذ سنة ١٢٣٥ هـ ، واستغنى الناس عن الأنصاف التى أضحت نقودا حسابية Monnaie de compte ، بمعنى أن الأنصاف لم تعد نقودا للأداء Monnaie de paiement لها وجود واقعى مادى ، بل هى نقــود خيالية لقياس قيم السلع وحسب ، وقد عرفت المجتمعات فى تاريخنا المعاصر نظام النقود الحسابية ، ففى مصر مثلا يمكن اعتبار المليم نقدا حسابيا لا وجود له ، واذا وجد فليست له قيمة تذكر ، وفى المملكة المغربية يعتبر « الريال » نقدا حسابيا ، لأنه غير موجود بصفة ملموسة ، فهو مجرد وحدة حسابية • كما أن المعاملات الدولية تستعمل النقود الحسابية بكثرة كالدولار مثلا فى بعض الدول التى لا تصدره أو تسكه ، ولكنها تتخذه مقياسا لقيم السلع فى اطار أداء الحسابات (١) • غير أن هذه الازدواجية بين النقود الحقيقية والنقود الحسابية التى يشير اليها الجبرتى فى عصر محمد على ــ من حيث استخدام نقود الأداء المصرية والأجنبية وتقدير صرفها بالأنصاف الفضية التى لا وجود لها ، ــ لا شك قد مكنت الباشا من القيام بتخفيضات فى وزن النقود مع زيادة فى أسعارها ، تماما كما لجأت بعض الدول اليوم الى تخفيض القيمة الحسابية للنقود ، كلما كانت لهذه الدول ديون ، أو كانت خزائنها فى محنة ، فيقرر الحكام مثلا تحديد قيمة سبائك الذهب أو الفضة ذات الوزن المعين بما يقابل أربع جنيهات بدلا من ثلاثة جنيهات ، فيمكنهم ذلك من ربح جنيه واحد فى كل سبيكة (٢) •

ومن ثم ، فان ما لجأ اليه محمد على من انقاص القوة الشرائية للنقود ، ما هو الا صورة لعملية تخفيض قيمة العملات الأوروبية أو الأمريكية أو الآسيوية التى نلتقى بها فى الاقتصاد المعاصر الآن • ويكفى لاثبات انخفاض القوة الشرائية للنقود فى عصر محمد على ما أورده الجبرتى من أن « البشلك » وهو ثمن القرش ، أى خمسة أنصاف فضة ، قد أصبح بمنزلة « النصف فضة » التى هى فى الأصل واحد على أربعين من القرش ، كما عقد الجبرتى مقارنة بين الحالة قبل وبعد امتصاص الباشا للأنصاف الفضة وزيادة سـعر النقود ونقص قوتها الشرائية بقوله :

« وقد كان الناس من أرباب البيوت اذا زاد بعد ثمن اللحم والخضار نصف (فضة) يسألون الخادم فى اليوم الثانى عنه ، لكونه نصف المصروف ،

(١) انظر فتح الله ولعلو : الاقتصاد السياسى ج ٢ ص ٢٧٣ •
(٢) انظر فتح ولعلو : المرجع السابق ص ٢٧٣ •

فشرقت الأراضي ووقع الغلاء والفناء » وفي منتصف المحرم ١١٠٧ هـ/ أغسطس ١٦٩٥م كان « ابتداء الغلاء حتى بيع الأردب من القمح بستمائة نصف فضة ... وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ومن على رؤوس الخبازين » .

وفي شعبان سنة ١١١٦ هـ (ديسمبر ١٧٠٤ م) « توقف النيل عن الزيادة .. فحصل الغلاء وبلغ سعر الأردب من القمح والفول مائتين وأربعين فضة والعدس مائتي نصف فضة والشعير مائة نصف فضة والأرز أربعمائة نصف فضة ، واللحم الضاني الرطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسي والبقري بنصفي فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضة .. وكثر الشحاذون في الأزقة » .

وفي ذي القعدة سنة ١١٩٧ هـ / أكتوبر ١٧٨٣ م « قصر مد النيل وانهبط .. فشرقت الأراضي القبلية والبحرية وعزت الغلال بسبب ذلك ، وبسبب نهب « الأمراء » وانقطاع الوارد من الجهة القبلية وشطح سعر القمح الى عشرة ريالات الأردب واشتد جوع الفقراء » ، ولم يقتصر الجبرتي عند حصر أسباب الغلاء على انخفاض فيضان النيل بل ذكر أيضا أسبابا أخرى كاضطراب الأمن وانقطاع المواصلات البرية والبحرية « وتعطل أسباب المعايش » بسبب ذلك نظرا لازدياد الطلب وقلة العرض ففي سنة ١١١٨هـ / ١٧٠٦م » لم يأت من اليمن ولا من الهند مراكب فشح القماش الهندي وغلا البن حتى بلغ القنطار ٢٧٥٠ نصفا ، وغلا الشاش « وفي مستهل ربيع الأول سنة ١١٩٨ هـ / يناير ١٧٨٤ م « اشتد الكرب والضنك على الناس وأهل البلاد وانقطعت الطرق القبلية والبحرية برا وبحرا وكثر تصدي المفسدين وغلت الأسعار وشح وجود الغلال وزادت أسعارها « وقد استمر في سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ « انقطاع الطرق وأسباب المتاجر وغلو البضائع المجلوبة من البلاد الرومية والشامية والهندية والحجازية والمغرب حتى غلت أسعار جميع الأصناف ، وانتهى سعر كل شيء الى عشرة أمثاله وزيادة على ذلك » .

وفي سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م وصلت عساكر الانجليز الى انبابة وأقام الفرنسيون المتاريس عند مداخل القاهرة كلها فبطل وصول الأقوات « فعند ذلك عزت الأقوات وشحت زيادة على قلتها ، وخصوصا السمن والجبن والأشياء المجلوبة من الريف ، ولم يبق طريق مسلوكة إلى المدينة الا من جهة باب القرافة » . أما في سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م فكان الجند الأرنؤود يترصدون « لمن يذهب الى الأسواق مثل سوق انبابه يوم السبت ، لشراء الجبن والزبد والأغنام والأبقار فيأخذون ما معهم من الدراهم ثم يذهبون الى السوق وينهبون ما يجلبه الفلاحون من ذلك للبيع فامتنع الفلاحون عن ذلك الا في النادر .. وغلا السمن .. وأما التبن فصار أعز من التبر » .

أما الوباء فقد كان عاملا آخر من عوامل غلاء الأسعار ، الى جانب

اضطراب الأمن وانقطاع المواصلات وقصر النيـــل ، ففي جمادى الأولى سنة ١٢٠١ هـ (مارس ١٧٨٧ م) « عمت البلوى بموت الأبقار والثيران في سائر الاقليم البحرى ، ووصل الى مصر ، حتى أنها صارت (البهائم) تتساقط فى الطرقات وغيطان المرعى ٠٠ وغلا سعر السمن واللبن والأجبان بسبب ذلك » ٠

والى أسباب الغلاء السالفة أضاف الجبرتي سببا آخر هاما ، هو الضرائب والمكوس والمصادرات ، ففى سنة ١٢١٩ هـ (١٨٠٤ م) « تمادى قبائح العسكر بحيث لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات فى غالب الجهات ٠٠٠ وطلب شر بأدنى سبب مع العامة والباعة أو مشاحنة مع السوقة والمتسببين بسبب ابدال دنانير ذهب ناقص بدراهم فضة كاملة المصارفة من صيارف أو باعة أو غير ذلك ٠٠ وتعطل أسباب المعايش ، وغلو الأسعار فى كل شيء وقلة المجلوب ومنع السبل » ٠

وفى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) استمر « غلاء الأســعار في كل شيء وخصوصا فى الأقوات التى لا يستغنى عنها الغنى والفقير فى كل وقت بسبب الاحداثات والمكوس التى نرتبت على كل شيء ومنها المأكولات ٠٠ ومنها أى ديوان المكس ببولاق الذى يعبرون عنه بالكمرك لم يزل يتزايد فيه المتزايدون » ٠

وفى المحرم سنة ١٢٣٤ هـ (أكتوبر ١٨١٨ م) ترصد أعوان المحتسب « لمن يرد من الفلاحين والمسافرين بالسمن فيحجزونه لمطالب الدولة ومطابخهم ودورهم فى هذه الولائم » ٠

ولا شك أنه كان من نتيجة هذا كله ، فشل الحكومات المصرية آنذاك فى توفير الكميات المطلوبة من الســـلع التموينية المساوية تماما للكميات المعروضـــة ، وهو ما يعبر عنـــه رجال الاقتصاد بتحقيق الثمن المتـــوازن wquilibrium Price وهل نتوقع وسط هذه الفوضى الاقتصادية استقرارا لأسعار النقود ، أو ليســـت هى الأخرى وسيلة للاثراء عنـــد الأمر بزيادة سعرها ، وبالتالى ترتفع أسعار الحاجيات ؟ انه لم يفت الجبرتى الاشارة الى أن زيادة أسعار النقود كانت من بين الأسباب الهامة للغلاء ، الى جانب الأسباب الأخرى التى استعرضناها من أقواله ٠

الضربخانة المصرية :

ان عملية سك النقود تتمثل فى قيام الدولة بتأسيس دار ضرب يسميها الجبرتى « بالضربخانة » ، تقوم بمهمة صهر وتجزئة المعادن الى أجزاء ملائمة معلومة الوزن محددة العيار (درجة النقاوة) ، مع دمغها بخاتم رسمى يغطى وجهى العملة وحواشيها منعا للتقليد أو التزوير ، واعطائها اســـما حسابيا يسجل عليها : كالزر محبوب ، والقروش ، واصدار أجزاء لهذه الوحدات

المصرى للثقة فى قروش الضربخانة كلها ، اذ لم يعد الأفراد يقبلون شيئا منها قبل عرضه على الصيارفة .

والآن قد جاء دور تحديد انتاج هذه الضربخانة من النقود المحلية حتى يمكن الوقوف على مجموعات النقود الاخرى الأجنبية التى غذت السوق المصرية فى عصر الجبرتى .

أنواع النقود المتداولة

أولا - النقود المصرية التركية (١) :

أخشـــا

نقد تركى من الفضة عرف باسم « آقجة » ونطقها المصريون وكتبوها كما فعل الجبرتى « أخشا » أو « أقشا » ، وتعنى اللفظة التركية بجيمها الفارسية فى « آقجة » النقد المائل للبياض بالنسبة الى لون الفضة فيه ، وقد ضربت « الاخشا » لأول مرة فى عهد السلطان أورخان العثمانى (٧٢٦ - ٧٦١ هـ) بوزن قدره ٦١٨ر٤ جرام ثم تغير هذا الوزن والحجم كثيرا فى السنوات التالية فى العصر العثمانى ويذكر اسماعيل غالب فى كتابه « تقـــويم مسكوكات عثمانية » (١٤/٣١٣) أن « الاخشا » لم تعد تضرب بعـــد سنة ١٢٣٤ هـ (١٨١٨ م) وهى السنة الثانية عشرة لجلوس السلطان محمود الثانى ، ولم يعد لها ذكر فى كتاب الجبرتى بعد هذا التاريخ ، اذ امتنع تداولها من السوق المصرية واعتبرت نقودا حسابيا فقط ، ويظهر أن قيمة الأخشا قد انحطت الى درجة كبيرة قبل انعدام تداولها بكثير ، فيذكر الجبرتى أنه فى سنة ١١٤٨ هـ / ١٧٣٦م قامت ثورة القاهرة فى وجه باكير باشا بسبب فساد العملة . وتحدد سعر الأخشا بستة عشر جديدا أى ستة عشر فلسا نحاسيا (٢) .

بشـــلك

نقد فضة تركى يتألف اسمه من « بش » تخفيف « بيش » الفارسية بمعنى « خمسة » و « لك » وهى أداة تلحق فى اللغة التركية بعد العدد لتدل

---

(١) لم يكن من حق مصر سك نقود مستقلة عن السكة العثمانية الا فى حدود المراسيم التى يصدرها السلطان العثمانى فى هذا الشأن فيحدد بها شكل وعيار ووزن هذه النقــــود على أن ترسل قوالب الضرب من استانبول . (انظر حوادث صفر ١١٠٩هـ/١٦٩٧م ومحـــرم ١١١٩هـ/١٧٠٧ م) .

(٢) حوادث ١١٤٨هـ/١٢٣٥م .

على ما يحويه من الوحدات ، وهكذا يصبح ال « بشلك » بمعنى « ذو الخمسة » وقد ذكر الأب أنستاس الكرملي أن أصل وضع هذا النقد خمســـة قروش دهب (١) ولكن الجبرتي يذكر بما لا يدع مجـالا للشـك « أنه لما بطل ضرب القروش بضربخانة مصر عوض عنها نصف القرش وربعـــه وثمنه الذى هو البشلك » (٢) ، ومعنى هذا أن البشلك قيمته ثمن قرش مصرى ، أى ما يعادل خمسة أنصاف فضة ، على أساس أن القرش قيمته أربعين نصف فضة ٠ وهو أمر يتفق وما يعنيه اسم هذا النقد ٠

فضة (نصف فضة)

نقد تركى ، ترجع أقدم اشارة اليه فى سنة ١٥٨٣م ، وقد ضرب أولا من الفضة بقيمة قدرها أربع آقجات « أخشـــا » ، وسرعان ما اختلف مركز « الاخشا » باعتبارها الوحدة النقدية التركية الصـــغرى ، حتى أصبحت « الفضة تساوى ١ : ٤٠ من القرش ، بوزن قدره ست عشرة قمحة أى ١١ر١ جرام ، ثم انخفض وزنها الى ربع ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، وقل ما فيها من فضة ، وفى نظام العملة المجيدى الذى اتبع سنة ١٨٤٤م أصبحت الفضة قطعة صغيرة من العملة النحاسية ، تضرب فى استانبول وفى مصر على السواء ، وقد أطلق الأتراك على الفضة اسم « بارة » الفارسية ٠ ويرادف اسم « البارة » و « الفضة » فى عصر الجبرتى اسم « نصف قضة » و « مؤيدى » ، وقد كانت هذه العملة وسيلة هامةلتحقيق مرونة العمليات التجارية فى مصر ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى ذى الحجة سنة ١٢١٧ هـ (ابريل سنة ١٨٠٣) حين حدث امتصاص كبير « للفضة الأنصاف » من الأسواق المصرية أولا بأول لبيعها بالشام بسعر أزيد مما هو عليه فى مصر ٠ بحيث « لا يترك الى الصيارف منها الا القليل حتى شحت بأيدى الناس جدا ووقف حالهم فى شراء لوازم البيوت ومحقرات الأمور » ٠ ولم يكن حال هذا النوع من النقود فى عصر محمد على بأحسن حالا ، ففى ذى الحجـــة سنة ١٢٢٦ هـ (يناير ١٨١٢) عدمت « الفضة العددية فى أيدى الناس فيدور الشخص بالقرش وهو ينادى على صرفه بنقص أربعة أنصاف نصف يوم حتى يصرفه « ومن ثم أصبحت الفضـــة العددية « أو الأنصاف » مجرد نقود حسابية لا وجود لها فى الواقع ، ولكن لا يزال اسم النقد الفضة « مستعملا فى ريف مصر حتى اليوم فيطلقه العامة على أجزاء القرش أو مضاعفاته ، على أساس أن القرش يساوى أربعين نصف فضة » أو « أربعين بارة » فيقال : « عشرة فضة » و « ستين فضة » وهكذا (٣) ٠

---

(١) الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ١٦٩ ٠

(٢) حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٥هـ/أكتوبر ١٨٢٠م ٠

(٣) انظر برنارد S. Bernard, Mémoire sur les monnaies d'Egypte, Description de l'Egypte, 2nd vol., XVI, pp. 267-506, Paris, 1825.

المجيدية الكبيرة سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٤٤ م فاستغل النساء الزر المحبوب في اتخاذه قلائد يزين به صدورهن وأعناقهن ٠

المرادي

أشار الجبرتي الى هذا النقد في أحداث سنة ١١٤٨ هـ ١٧٣٦ م ، وحدد سعره باثني عشر جديدا ، وقد أوضح لنا من حوادث ذي الحجة سنة ١٢٣٥هـ - أكتوبر ١٨٢٠ م ٠ ان الجديد هو عملة نحاسية أصغر من النصف فضه ،وتمثل أدنى وحدات العملة المصرية آنذاك ، وكانت تسمى « بالفلوس» أو « الافلس » النحاس التى يقال لها « الجدد » ، وكانت النصف فضة الصغيرة تساوى عشرة أو اثنى عشر من الجدد اذا كانت مضروبة ومختومة ، أو عشرين ، اذا كانت صغيرة وبخلاف ذلك (غير مختومة) ويقال لها « السحاتة » ٠ ومعنى ذلك أن المرادى كان يحل محل النصف فضة ويساويها فى القيمة من الجدد المختومة أى اثنى عشر « جديدا » أو عشرين من السحاتة وهى الفلوس الصغيرة النحاسية غير المختومة وهذه الجدد والسحاتة التى يقدر بها « المرادى » كانت تجلب مع انحجاج المغاربة ويبيعونها فى الأسواق ، وتوزن بالارطال أحيانا ٠

المصطفاوى

فقد ذهب تركى ينسب الى السلطان مصطفى الثانى ١١٠٦ - ١١١٥هـ - ١٦٩٤ - ١٧٠٢م ونسبه الأب انستاس الكرملى (١) الى السلطان مصطفى الرابع الذى تولى السلطنة العثمانية سنة ١٨٠٧ وخفى سنة ١٨٠٨ م ، بينما يؤكد الجبرتى أن هذا النقد قد ورد الى أسواق مصر صحبة التجار والمسافرين فى سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٩ م ، مما يجعلنا لا نؤيد نسبته الى مصطفى الرابع ٠ وقد وصفه الجبرتى بأنه « دراهم فضة عليها اسم وطرة السلطان مصطفى » والواقع ان المصطفاوى « هذا هو من ضرب السلطان مصطفى الثانى ، وكان من أحسن العملات الفضية التركية ، بحيث أطلق عليه فى مصر اسم « المصطفاوى » ، أو كما يذكر مصطفى الذهبى « محبوب مصطفاوى » (٢) ٠

ثانيا - النقود الاجنبية الاوربية :

لم تكن النقود الاجنبية التى شاعت فى أسواق مصر فى العصر العثمانى كلها أوربية ، بل كان بعضها آسيويا هنديا كالروبية مثلا ، غير أن هذه النقود الآسيوية جاءت متأخرة عن عهد الجبرتى من حيث الاعتراف بها قانونا فى عصر محمد على ، ومن ثم فلم يهتم الجبرتى باسناد القيم الى غير النقود الاوربية التى

(١) الكرملى : النقود العربية ص ١٨٤ ٠

(٢) انظر مصطفى الذهبى الشافعى : تحرير الدرهم والمثقال ص ١٣ ٠

شاعت وقبلت فى أسواق مصر . ومن ثم سنقتصر عند ذكر النقود الاجنبية على الأوربي منها كما وردت فى « عجائب الآثار » للجبرتى (١) .

بندقى

نقد ذهب ، ذو عيار عال يقرب من أربعة وعشرين قراطا ، وهو ينسب الى مدينة البندقية التى بدأت فى ضربه حوالى سنة ١٢٥٢ م (٢) فى وقت كانت نقود المماليك من الدنانير الذهب قد بدأت تفقد سمعتها العالمية ، بسبب عدم العناية بنقوشها مع خفض عيارها وتقارب أوزانها ، مما دفع شعوب الشرق العربى كله حتى سلاطين المماليك الجراكسة أنفسهم للاقبال على التعامل بالبندقى Venetian أو الدوكات Ducat ، واطلق المؤرخون على هذا النوع من النقود اسم المشخصة . للصور الآدمية المنقوشة عليه ، ومن بينها صور القديسين ، وصور دوج البندقية الذى نسب اليه « النقد دوكات » أو « دوقات » . ويشير المقريزى الى أنه منذ سنة ٨١٠ هـ كثر تداول الدوكات فى مصر ، وتمتعت بسعر قانونى ، حتى أن جمرك الاسكندرية أصر على أن يدفع التجار الأوربيون قيمة البضائع السلطانية بالسبائك الذهبية أو بالدوكات أى البندقى ، ومعنى هذا أن « البندقى » قد شاع تداوله فى أسواق مصر متمتعا بثقة كبيرة فى مطلع القرن التاسع الهجرى (١٥م) (٣) . وما جاء العصر العثمانى الا وكان البندقى قد تغلغل كوسيط للمبادلة فى كل أقاليم مصر ، حتى فى واحاتها ، وقد أشار الجبرتى الى أنه فى سنة ١١٣٥ هـ ١٧٢٣م كان يزين به الاكابر طواقى أبنائهم . وأصبح عيار البندقى العالى نموذجا ينسب اليه ذهب الحلى الجيد العيار ، فيقال : « ذهب بندقى » اشارة الى شدة نقاوته ، كما يذكر الجبرتى أيضا ، أن سعر البندقى قد وصل بمقتضى أوامر تحسين « المعاملة » سنة ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م الى أربعمائة وعشرين نصف فضة ، بعد أن كان سعره وصل خلال المضاربات النقدية الى أربعمائة وأربعين نصف فضة ، ومع ذلك كان البندقى أحسن ذهب يجتهد الأفراد فى طلبه تحقيقا للاكتناز ، فاختفى من الاسواق أمام العملات الرديئة بحيث أصبح سعره سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٧ م تسعمائة نصف فضة ، ولم يعد صرفه يقل بعد ذلك التاريخ عن ثمانمائة وثمانين فضة بأى حال (٤) .

(١) لمن أراد الوقوف على قيم كل النقود الأجنبية فى عصر محمد على فيمكنه الرجوع الى الخطط التوفيقية الجديدة لعلى باشا مبارك جـ ٢٠ الذى خصصه لهذه النقود .

(٢) ضربت البندقية حوالى هذا التاريخ نقودا أخرى من الفضة .

(٣) انظر عبد الرحمن فهمى : من فضة الديوبين الى نحاس المماليك ـ مجلة مرآة العلوم الاجتماعية العدد ٣ م ٧ يونيو ١٩٦٤ ص ٦١ و٦٢ .

(٤) عن استعمال « البندقى » فى مصر ، يراجع البحث القيم .

Gennep, A. Rangé van, Le ducat vénitien en Egypte Revue Numismatique), Paris, 1897, pp. 373-381, 494-508.

ريال

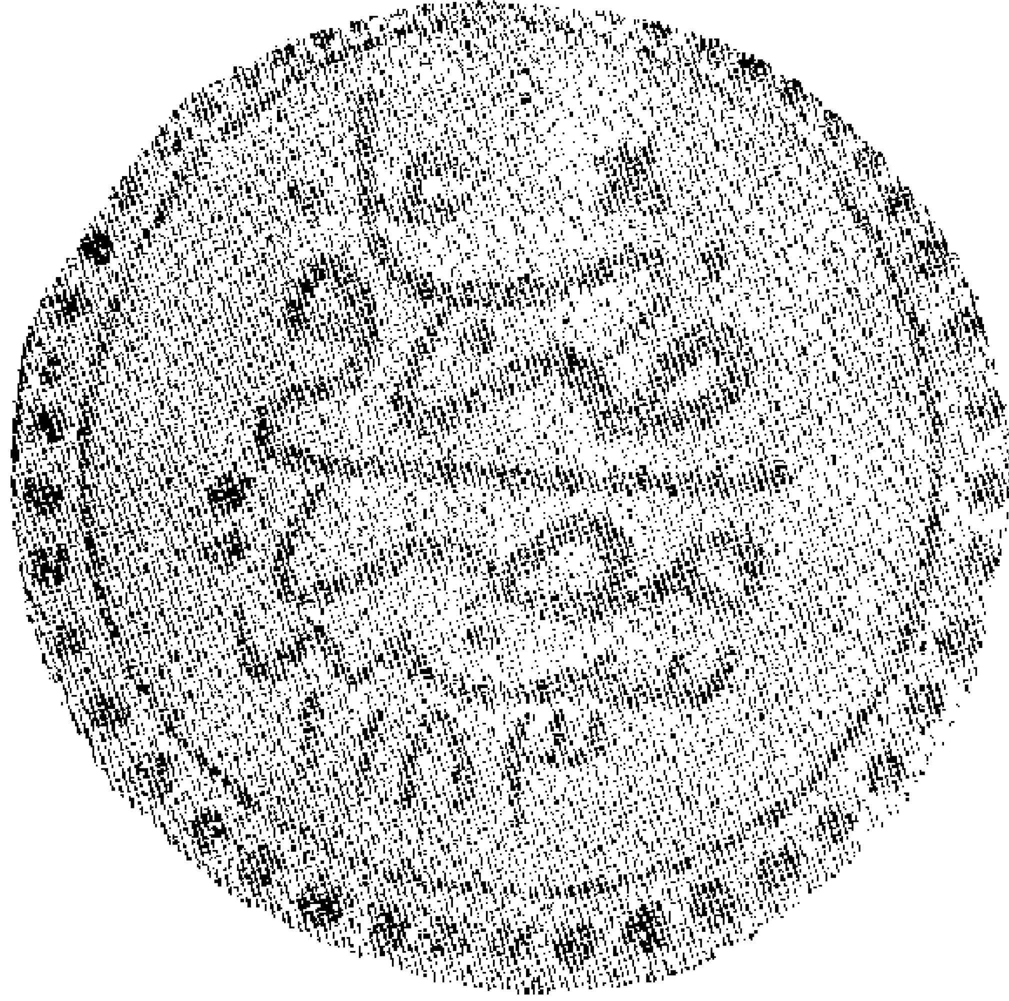
اللفظ مقتبس من Real بمعنى « ملكي » ، وقد كان الأسبان أول من تداولوا هذا النقد في الاسواق التجارية ، وهو عبارة عن النقد الفضي المسمى « ريزو » وأطلق « الريال » في العالم العربي منذ القرن السابع عشر الميلادى على نقود فضية كبيرة : فرنسية ، واسبانية ، وهولندية ، والمانية ،ونمساوية وسمى الريال النمساوى أيضا « بالتالير » أو « ريال ماريا تريزا » الذى ضرب لأول مرة سنة ١٧٥١ م ، وسمى فى مصر باسم الريال أبو طاقة « نسبة للنافذة أو الطاقة » المرسومة على صدر النسر المصور على أحد وجهى الريال ، أما الريال الهولندى فعرف باسم « الريال أبو كلب » كما سمى الريال الاسبانى « بالريال أبو مدفع أو « الريال المغربى » كما يسميه الجبرتى ، لارتباط هذا النقد بجماعات التجار المغاربة الذين كانوا يجلبونه معهم من المغرب واسبانيا وقد اختلفت أسعار هذه الريالات عند تداولها فى مصر العثمانية بطريقة شاذة ولم تفلح أوامر تحسين العملة فى معالجتها ، بل ان بعضها وهو الريال الفرانسة كان موضوعا لمضاربة نقدية خطيرة ، عندما اختلف شعره فى الشام عن سعره فى مصر ، فكان وكلاء محمد على يمتصونه من الشام بسعة أقل مقابل أنصاف الفضة المصرية ، ليعاد سبك هذه الريالات الفرانسة من جديد بعد اضافة ثلاثة أمثال وزن فضتها نحاسا ، هذا الى ان سعر الريال الفرانسة كان فى ارتفاع دائم طيلة العصر العثمانى ، ويبدو واضحا اذا ما تتبعنا صرفه فى ضوء ما ذكره الجبرتى عنه سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٩م حين كان يصرف بمائة نصف فضة ، حتى وصل سنة ١٢٣١ هـ/١٨١٦ م الى ثلثمائة وستين نصف فضة ، رغم التشديد فى معاقبة المتزايدين فى سعره الى حد الشنق على باب زويلة ، وتعليق ريال فرانسة فى أنف المخالفين .

فرنك فرنسي

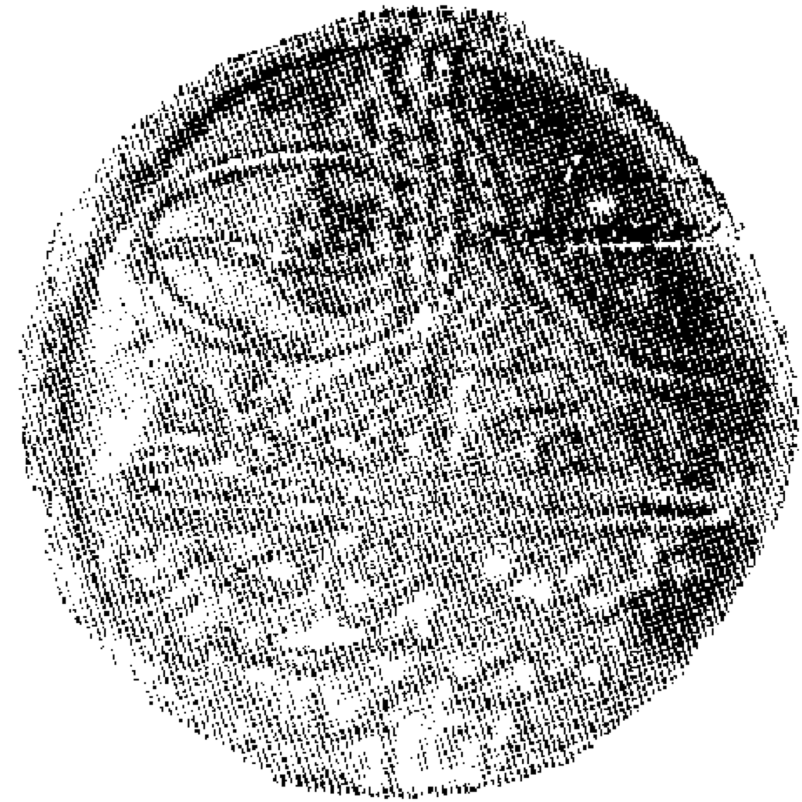
نقد فرنسي ، ضرب لأول مرة من الذهب سنة ١٣٦٠ م ، ثم اختفى الفرنك الذهب من الاسواق عندما ضرب الفرنك الفضى الذىيزن خمسة جرامات ، وهو الذى سمحت الحملة الفرنسية على مصر منذ سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨م بالتعامل به الى جانب الريالات الفرانسة . وأشار الجبرتى الى الفرنك عند تسجيله لأحداث سنة ١٢١٤هـ/١٨٠٠م ، وقدر سعر صرفه بثمانية وعشرين نصف فضة ، أى ما يقرب من ثلاثة أرباع القرش .

نقد ذهب ، ذكره الجبرتى لأول مرة فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٧هـ (ابريل ١٨٠٣ م) حيث يشير الى أنه من النقود الاجنبية الذهب التى كان من الصعب صرفها بالانصاب العددية » ويدور الانسان بالريال أو المحبوب أو المجر وهو فى يده طول النهار فلا يجد مصارفته » • والمجر من النقود التى رغب محمد على باشا فى قبولها نظير بضائعه ، بحيث أنه فى سنة ١٢٢٥ هـ ١٨١٠م عندما ذهب بنفسه الى ثغر الاسكندرية لبيع غلاله للافرنج ، كان يتسلم فى مقابلهـــا « المجر » وبعض العملات الاجنبية الأخرى ، ولذلك كان سعر المجر فى عصرمحمد على فى ارتفاع مستمر ، فبينما بلغ سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٦ م سبعمائة وعشرين نصف فضة ، تراه يصل سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٧ أى بعـــد أقل من سنتين الى ثمانمائة نصف فضة ، واستمر على هذا السعر حتى سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م أى حتى آخر عام سجل فيه الجبرتى أحداث مصر فى كتابه « عجائب الآثار » •

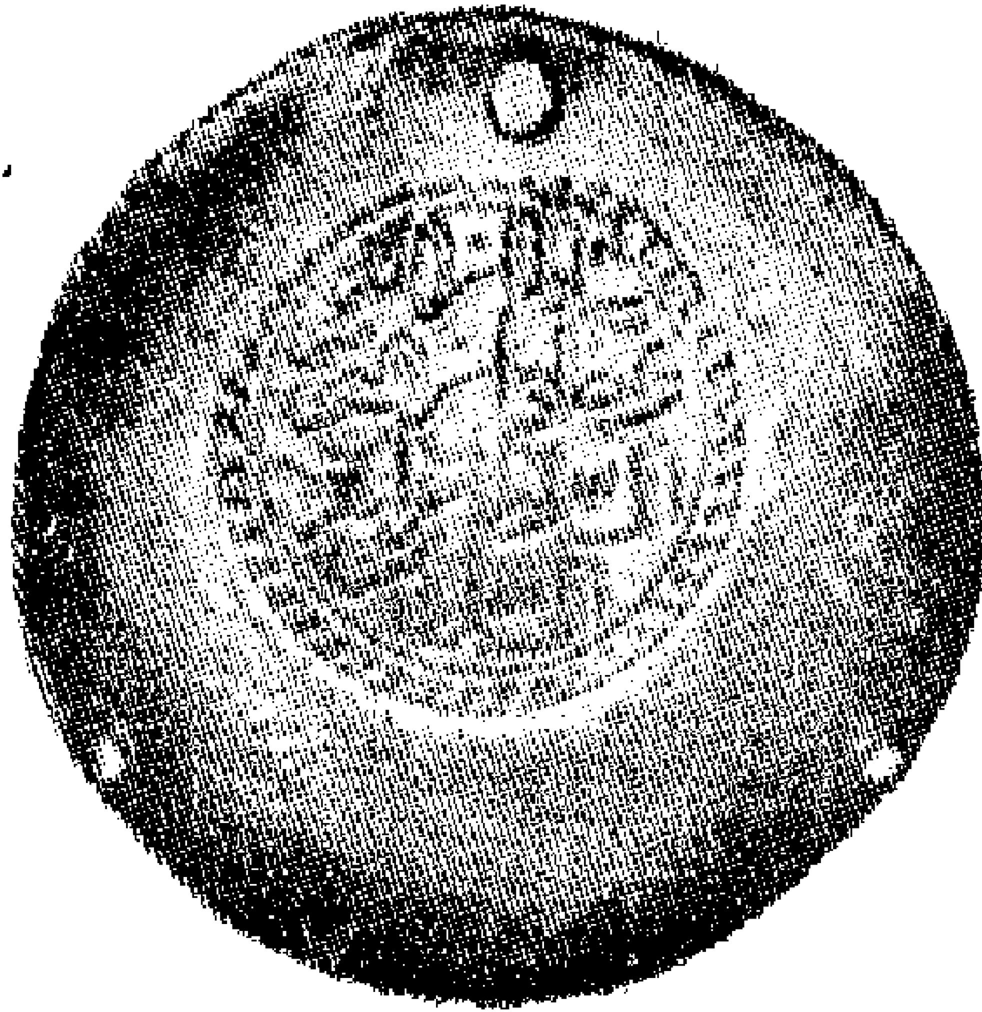
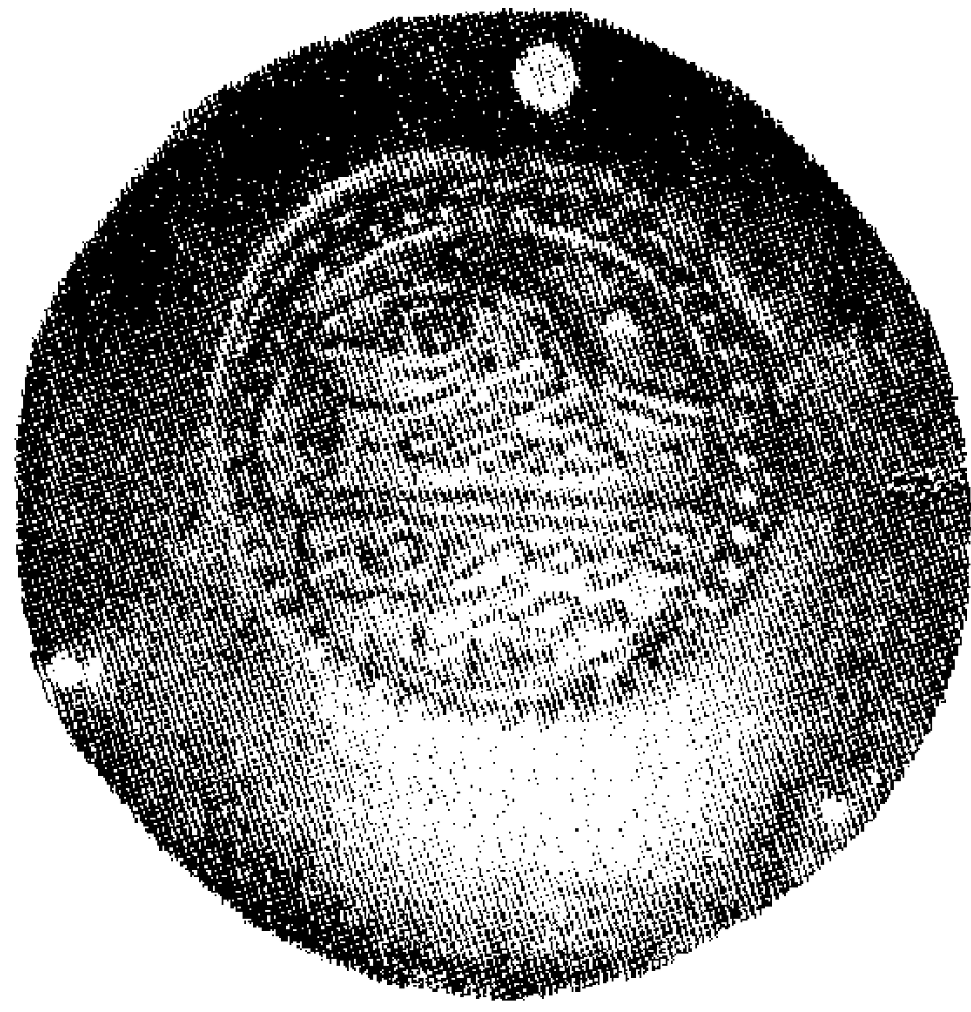
لوحات
النقود فى عصر الجبرتى




١

٢

٣

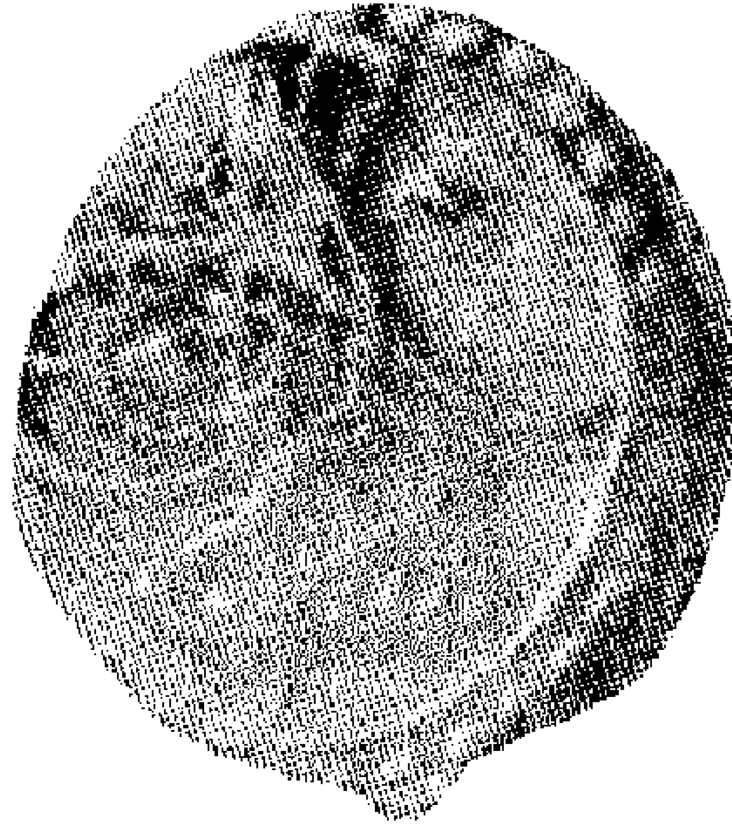
١ ــ قروش علي بك الكبير ضرب مصر سنة ١١٨٣ هـ .

٢ ــ عملة ذهب للسلطان عثمان الثالث ضرب مصر سنة ١١٨ هـ .

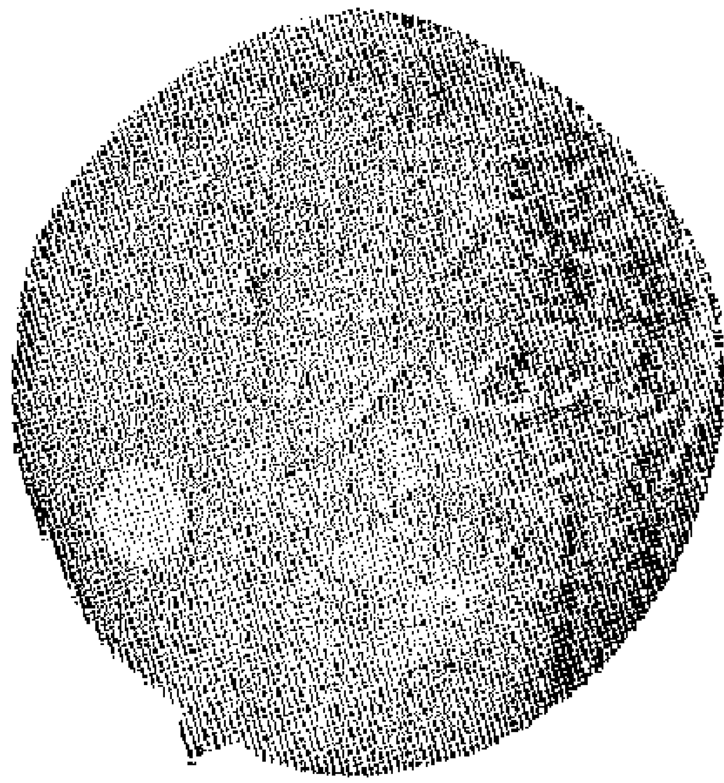
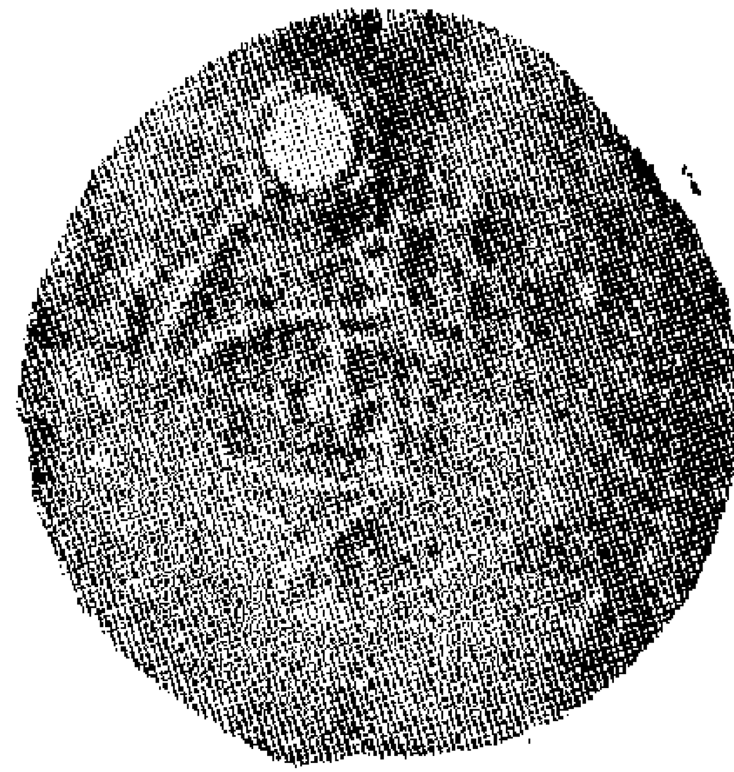
٣ ــ زر محبوب ذهب باسم السلطان مصطفى الثالث ضرب في مصر سنة ١١٧١ هـ




٤

٥

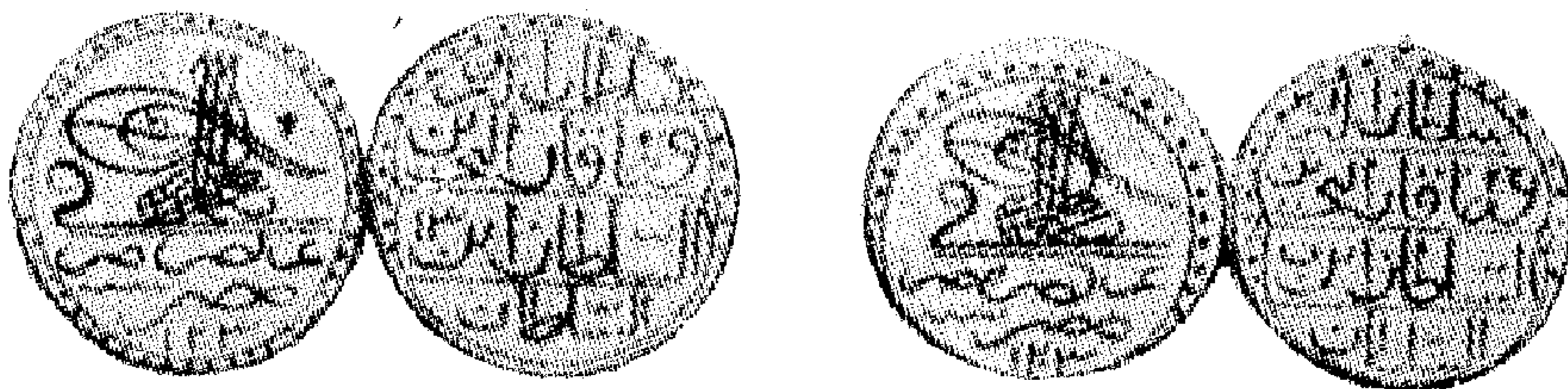



٦

٤ ـ بشلك فضة ضرب اسلامبول سنة ١١٧١ هـ ٠

٥ ـ باره (نصف فضة) ضرب مصر سنة ١١٧١ هـ ٠

٦ ـ أقشا فضة ضرب مصر سنة ١١٧١ هـ ٠



٧





٨





٩

٧ ـ زر محبوب ذهب ضرب مصر سنة ١٢٠٣ هـ .
٨ ـ قرش تركي فضة ضرب مصر سنة ١٢٠٣ هـ بأسم سليم
٩ ـ باره فضة تركي ضرب مصر سنة ١٢٠٣ هـ .




١٠




١١



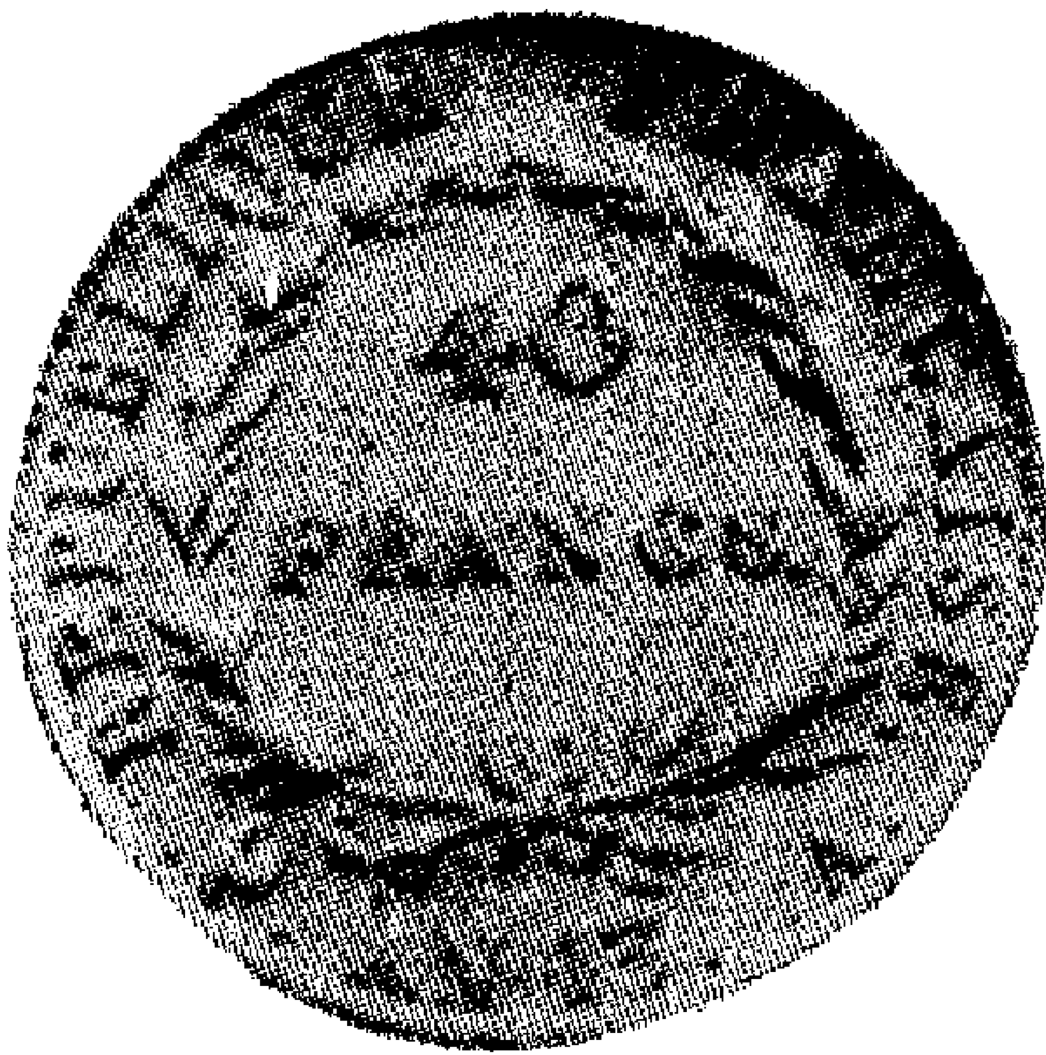

١٢

١٠ فندقلى ذهب باسم مصطفى الرابع ضرب القسطنطينية سنة ١٢٢٢ هـ .
١١ ــ زر محبوب لمحمود الثانى ضرب مصر سنة ١٢٢٣ هـ .
١٢ ــ خيريه ذهب باسم محمود الثانى ضرب مصر سنة ١٢٢٣ هـ .





١٣





١٤





١٥

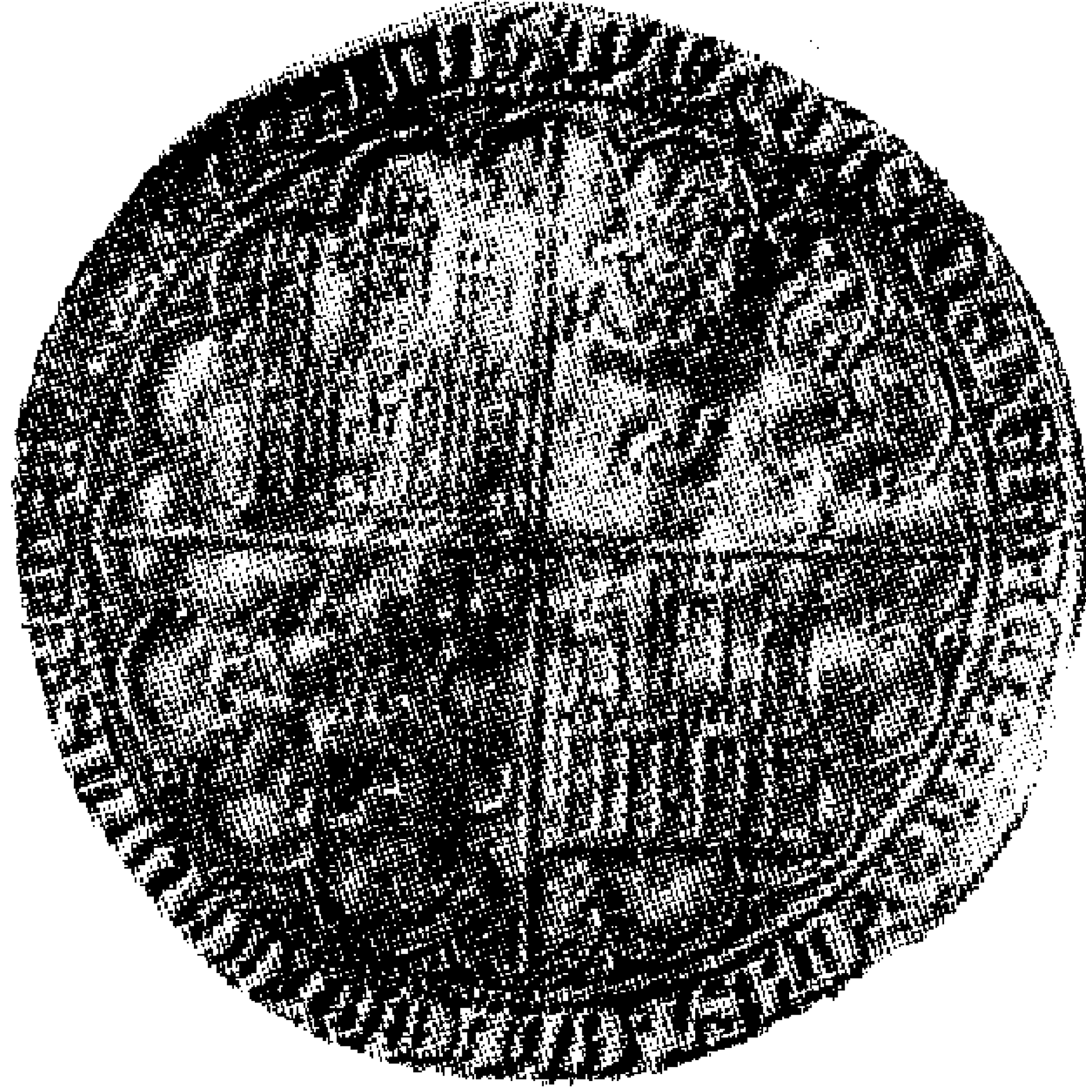
١٣ ـ ريال ماريا تريزا .

١٤ ـ الفرانسة عملة نابليون .

١٥ ـ فرانسه لوى فيليب .




١٦




١٧

١٦ ـ البندقي (الدوكات) .
١٧ ـ أبو طلب (العملة الاسبانية) .

تجربة وعبرة

للدكتور محمد محمود الصياد

عميد معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة

لا ينكر أحد ما كان للعرب من فضل فى تقدم علم الجغرافية ، وقد بقيت كتاباتهم عن افريقية هى القول الفصل فى جغرافية هذه القارة حتى « ظهـــور المستكشفين الجغرافيين الأوربيين فى القرن التاسع عشر » (١) • ولكن الأدب الجغرافى العربى لم يستطع — مع الأسف — أن يتحرر من العيوب المعروفة فى الأدب العربى بعامة ، فظلت تسيطر عليه النزعة الى الوصف الشامل ، بدلا من الدراسة المتعمقة التى تقوم على الربط ، والتحليل والتعليل •

● ولما كانت الجغرافية هى علم المكان بالدرجة الأولى ، فقـــد كان من أهم قواعدها تحرى الدقة فى تحديد المواقع ، لكى يسهل الوقوف على العلاقات المكانية فى اطار واضح سليم • وقد أدرك الجغرافيون العرب هذه الحقيقة ، فاهتموا بتعيين الأماكن وتحديد المسافات بقدر ما أسعفتهم الوسائل المتوفرة لديهم • واذا كانت كتاباتهم فى بعض هذه المسائل قد جاءت غامضة مبهمة فى بعـــض الاحيان ، فما كان ذلك لقصور فى ادراك أهمية البعد المكانى ، وانما جاء الابهام بسبب النقص فى وسائل البحث العلمى وأدواته •

● وثمة أمر آخر نذكره للجغرافيين العرب وبالتقدير ، وهو اهتمامهم بضبط الأعلام ، وتحريهم الدقة فى اثبات طريقة النطق الصحيح بها ، وخوفـــا من أن يصحف الاسم باضطراب أماكن النقط ، أو باختلاط علامات الشكل ، فقد عمدوا الى تصوير النطق بالحروف • وكم من اسم لولا الطريقة التى ابتدعوها لضبطه لتعرض لكثير من التحريف •

ولعل خير مثال لهذه الدقة : اسم البلد أو الاقليم الذى ينسب اليـــــه

(١) كراتشكوفسكى : ا٠ب : « تاريخ الادب الجغرافى العربى » ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦١ جـ ١ ، ص ٢٣ •

المؤرخ الكبير الذي نحتفل اليوم بمهرجانه ؛ فصيحة الاسم « جبره » بفتح الجيم، والباء الموحدة ، والراء المهملة ، ثم هاء في الآخر · هكذا رواه « القلقشندى » نقلا عن صاحب « تقويم البلدان» (٢) · ويقال لها أيضا « وفات » بالواو المفتوحة ، والفاء ، ثم ألف وتاء مثناة فوق في الاخر ، والعامة تسميها « أوفات » ·ويذكره المقريزى ودائرة المعارف الاسلامية ومصادر أخرى كثيرة ، باسم : « ايفات » ·

ويذكر البعض أن جبره مشتقة من اللفظ الحبشى « أكبرت » ومفردها « كبر » بمعنى خادم الله أو عبد الله (٣)

ونحن نقول : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، أى المنسوب الى جبره ،وهى نسبة على غير قياس ، وكان الاصوب ان نسميه « الجبرتى » اذا نحن أردنا أن نحفظ بالقياس اللغوى ، كما نقول شجرى من شجرة ، ولا نجد اشارة الى تلك النسبة السماعية الشائعة «جبرتى » فى كتاب السيوطى« لب اللباب » فى تحرير الانساب » (٤) وهو كتاب اشتمل على نحو تسعة آلاف اسم منسوبة الى البلاد والمدن ، مع تفسير هذه النسبة ، فهو يفرق مثلا بين الطبرى والطبرانى ،فالاول منسوب الى طبرستان ، والآخر منسوب الى طبرية الشام ·

ويذهب أولندورف E. Ullendorff كاتب مادة « جبره » فى دائرة المعارف الاسلامية الى أن صيغة جبرتى لا تدل على نسبة ، بل هى تدل على اضافة الكاسعة Suffex التى يفصل بها أهالى نيجرنيا بين الحروف الساكنة (٥) كما نفعل فى اللغة الفرنسية عندما نضيف حرف L بين كلمتين تخفيفا من التقاء الساكنين ·

● ويروى المقريزى الاسم فى صورته الصحيحة « جبره » ويقول : «هى فى أرض الزيلع وايفات » (٦) فما هى أرض الزيلع هذه التى كانت جبره من بلدانها أو أقاليمها ؟

- ٣ -

كان الجغرافيون العرب يقسمون الحبشة قسمين هما : بلاد النصرانية ، واقليم الطراز الاسلامى (٧) · والقسم الأول هو الأوفر عددا ، والأوسع مجالا ،

---

(٢) القلقشندى ؛ أبو العباس أحمد بن على : « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » القاهرة جـ ٥ ص ٣٢٥ ·

(٣) Ullendorff, Edward. : « The Ethiopians : An Introduction to Country and People », OUP (1960), p. 113.

(٤) السيوطى ، جلال الدين : « لب اللباب فى تحرير الانساب » Veth ليدن ١٨٤٠ ·

(٥) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) جـ ١١ ص ٦٣ ·

(٦) المقريزى ، تقى الدين : « الالمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام » القاهرة ١٨٩٥ ص ٦ ·

(٧) القلقشندى : ص ٣٠٣ ؛

ويملكه تلك الامحرة ، ويشمل القسم الثاني الاراضي المقابلة لبر اليمن على اعالى البحر الاحمر وما يتصل به من بحر الهند • وكان يعرف بالطراز الاسلامي لانه على جانب البحر كالطراز له (٨) اى يمتد ساحلا للبحر دون ان يتسع كثيرا فى الداخل ، وهى البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع : فيما يروى صاحب « مسالك الأبصار » •

● ونقلب كتب الجغرافية العربية القديمة فلا نجد فيها عن الحبشة ما يبل الغلة ، ولا نجد من الرحالة العرب من دخلها وكتب عنها ، وهو امر يدعو الى كثير من الدهشة ، فصلة العرب بالحبشة قديمة • واليها كانت هجرة المسلمين الاولى ، ومع ذلك فقد خلت كتب ابن خرداذبة ، والاصطخرى ، واليعقوبى ، وابن رستة ، والمقدسى ، من الحديث عنها الا فى اشارة عابرة الى « جرمى » التى عدوها عاصمة لها •وحتى المسعودى – وكانت له خبرة بافريقية أكثر من سواه – يشير اليها اشارة عامة فيقول : « ان بلاد الحبشة كثيرة»(٩) ومع اعترافه بهذه الكثرة فهو لا يذكر منها سوى بلدة واحة هى « كعبر » التى يزعم أنها عاصمة الحبشة •

● وكان « المقريزى » – فيما نعلم – هو أول كاتب عربى يفصل الحديث عن الحبشة فى كتاب صغير لطيف هو : « الالمام بحق فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام » وقد كتبه وهو بمكة فيما يروى فى عام ٨٣٩ هـ (١٤٣٤ – ١٤٣٥ م) ويذكر أن اقليم الطراز الاسلامى يضم سبع امارات يحكم كلا منها ملك مسلم • ويخضع هؤلاء الحكام المسلمون ومن عداهم من حكام الحبشة « للحطى » ملك الملوك الذى يدين له بالطاعة تسعة وتسعون ملكا وهو تمام المائة ، وهذه الامارات السبع هى : ايفات ، دوارو ، ارابينى ، هدية ، شرحا ، بالى ، دارة •

● أما « ايفات » فكانت أوسع الممالك السبع أرضا ، وأكثرها جندا • ونستطيع من الوصف الذى ذكره المقريزى أن نضعها على الخرائط الحالية ممتدة من شرق شده الى اديس أبابا فنهر هواش فخليج عدن •

● والى الجنوب منها امارة دوارو ممتدة بين نهر هواش وأعالى نهر وبى شبيللى ، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم آتو •

● وتقع امارة أرابينى فى الشمال الشرقى من بحيرة صانا التى تعرف اليوم ببحيرة تانا ، ويظهر أنها كانت امارة صغيرة محدودة المساقة •

● أما هدية فتقع فى أعالى نهر أدمو الذى يصب فى بحيرة رودلف ، أى فى الطرف الجنوبى الغربى من بلاد الحبشة ، وهى المنطقة التى تعرف اليوم باسم بوزان واندى •

---

(٨) القلقشندى : ص ٣٢٤ •

(٩) المسعودى : على بن الحسين « مروج الذهب ومعادن الجوهر » جـ ٣ ص ٣٤

● وكانت شرحا أو شرخا امارة صغيرة قليلة الجند وتقع غرب ايفات بين هدية ودوارو (١٠).

● وتلى شرحا امارة بالى وكانت أكثر الامارات خصبا وأطيبهـــا هواء ويحدها شمالا نهر وبى شبيلى ٠

● وأخيرا امارة دارا وهى أضعف أخواتها جندا وأكثرها بعــدا فى الداخل ٠

- ٤ -

شملت امارات الطراز الاسلامى اذن سهل زيلع وأراضى هرر ، وتوغلت فى جزء كبير من الأراضى الحبشية ٠ وكان أمراؤها يعرفون باسم ملوك عدل أو ملوك الزيلع ٠ ويهمنا من هذه الاقاليم السبعة امارة ايفات التى يطلق عليهــا أحيانا اسم « جبره » ٠ ويصفها صاحب «تقديم البلدان » وينقل عنه القلقشندى بأنها : « تقع حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثماني درج ، وهى على نشز من الأرض ، وعمارتها متفرقة ، ودار الملك فيها على تل ، والقلعة على تل، ولها واد فيه نهر صغير ، وتمطر فى الليل غالبا مطرا كثيرا » (١١) ٠

ولم يبعد أبو الفدا كثيرا عن الصواب فى تحديد الموقع لايفات ، فزيلع التى لا تزال قائمة حتى اليوم انما تقع على خط طول ١٩َ ٤٣° شرقا وخط عرض ٢١َ ١١° شمالا ، ولا يزال نهر فولا Fulla يجرى فى سهل زيلع ومنابعه عند منطقة الحدود بين الحبشة والصومال ٠ وقد اندثر اسم ايفات وبقيت زيلع ميناء على الساحل الافريقى لخليج عدن ٠ وقد ازدهرت فى أوائل القــــرن السادس عشر ، وفتحها الجيش المصرى فى سنة ١٨٧٠ ثم أخلاها بضغط من انجلترا فى سنة ١٨٨٤ ، وفى العام التالى أصبحت ضمن الممتلكات البريطانية فيما عرف باسم الصومال البريطانى الذى هو الآن الاقليم الشمالى من الجمهورية الصومالية ٠

- ٥ -

نستطيع أن نخرج من هذا بأن مملكة ايفات كانت تشمل الصومـــال الفرنسى ، وجزءا مما كان يدعى بالصومال البريطانى ، ومناطق واسعة فى جنوب اثيوبيا ، اذا كان طول مملكتها فيمـا يروى ابن فضل الله العمرى : « خمسة عشر يوما ، وعرضها عشرون يوما بالسير المعتاد » ٠ ونحن اذ نقبل هذا التحديد فأننا نرفض ما سبق أن أشرنا أليه من قول صاحب تقديم البلدان انها تمطر فى

(١٠) Budge, Sir E.A. Wallis : « A History of Ethiopian », 2 vols., London, 1928.

(١١) القلقشندى : جـ ٥ ص ٣٢٥ ٠

الليل مطرا غزيرا . فمعدل المطر السنوى لزيلع لا يصل الى المائة ملليمتر وهو معدل لا يخرج بها عن الصفة الصحراوية . ولعل لأبى الفدا عذره فهو ينسب خبره عن المطر الى بعض المسافرين ، ويبدو أن هؤلاء المسافرين قد زاروا زيلع فى فصل الصيف أو فصل حافاى كما يسميه الصوماليون اليوم ، وفيه تسقط الأمطار الموسمية ، وسقوطها فى العادة بعد العصر ، فاختلط عليهم الأمر وحسبوا أن هذه هى حالة المطر على مدار السنة .

ولما كانت ايفات أو جبره هى : « أوسع الممالك السبع أرضا والاجلاب اليها أكثر لقربها من البلاد (١٢) فلم تلبث أن طغى اسمها على أسماء الممالك الاخرى . وأصبح يطلق على جميع الامارات الاسلامية فى شرق الحبشة وجنوبها بعد أن توسعت وتزعمت هذه الامارات منذ أواخر القرن الثالث عشر . ثم يطلق آخر الامر على جميع المسلمين فى الحبشة ، بل ويتعدى هذا النطاق فيطلق الاحباش المسيحيون أحيانا اسم جبرت على المسلمين فى شبه الجزيرة العربية وتصبح كلمة جبرت مرادفة لكلمة مسلم بصفة عامة ، وبخاصة لوصف المسلمين فى المناطق المسيحية التى يعيش فيها المسلمون في اثيوبيا وهي مقاطعات أرتريا ، وتجره ، والحرة ، وشوه ، وغيرها (١٣) . ويعيش هؤلاء الجبرت فى جماعات متفرقة فى الهضبة المسيحية وهم يتميزون عرفيا ولغويا عن جيرانهم المسيحيين ، ويتكلمون الامحرية والنيجرينية ، وعلمهم باللغة العربية يكاد يقتصر على الحد الأدنى الذى لابد منه بفهم معانى القرآن الكريم .

وكان سكان « ايفات » خليطا من : العرب ، والصوماليين ، والدناقل ، وبعض العناصر الاسيوية . وكانت زيلع « التى ذكر اسمها لأول مرة أحد الجغرافيين فى القرن التاسع » (١٤) والتى تعتبر فى الأصل مركزا لامارة عدن ، هى المحور السياسى للمستوطنين المسلمين فى ساحل خليج عدن ، والمركز الرئيسى للتجارة بين ساحل الخليج ، تتجمع فيها : منتجات الحبشة وغلات الصومال ، ومحصولات اليمن .

واشتهرت زيلع نفسها بانتاج نوع من الحصر الملونة ، كان يلقى اقبالا كبيرا لتزيين جدران بيوت المياسير من الناس .

وقد تزعمت امارة ايفات الحركة الاسلامية فى هذا الجانب الشرقى من افريقية ، وعملت على توحيد المسلمين فى جبهة وقفت طويلا أمام أطماع الحبشة المسيحية التى دخلت معها فى حروب طويلة . وفى ذلك العهد ازدهرت موانى : زيلع وبربرة وميت ، ولا تزال كلها قائمة حتى اليوم ، وان كان اسم الاخيرة قد حرف الى مايت . كما قامت مدن اسلامية أخرى عديدة فى

---

(١٢) القلقشندى : ج ٥ ص ٣٢٥ .

(١٣) أولندورف : ص ١١٣ و١١٤ .

(١٤) سالم ، حمدى السيد : « الصومال قديما وحديثا » ج ١ ص ٣٠٢ .

الداخل . وهنا نتساءل كيف قامت هذه الامبراطورية الاسلامية الواسعة في هذا الجانب من الساحل الافريقي ؟ هذه الامبراطورية التي ارتبط بها اسم جبرت والجبرتية .

- ٦ -

لن ندخل هنا في قضايا التاريخ الغامضة منها والواضحة ، فما ذلك من هدفنا ولا هو من اختصاصنا . ولكننا نريد أن نؤكد حقيقة جغرافية كان لها اثرها البارز في توجيه تيار الانسانية ، لا في اثيوبيا وحدها ، بل وفي القارة الافريقية كلها ، ففي الطرف الجنوبي للبحر الاحمر تضيق الشقة المائية ، وتتقارب العدوتان الاسيوية والافريقية ، فلا تفصل بينهما سوى مسافة ٢٦ كيلومترا هي لب اتساع مضيق باب المندب وكان فيما مضى أضيق كثيرا مما هو عليه الان ، وبه جزر تقوم كمحطات على الطريق البحرى القصير الذى يعبره وأكبر الظن ان هذا الباب كان اقدم الابواب التى ولجتها العناصر الإسيوية في هجرتها الى افريقيه ، واغلب الظن أن العرب لم يطلقوا عليه اسم الباب الا لأنه كان مدخلهم الى القارة السوداء . ولا تزال الآثار الثقافية على جانبيه تقوم شاهدة على الاتصال القديم بين آسيا وافريقية ، فما حضارة اثيوبيا وما والاها في العدوة الافريقية الا صورة من حضارات جنوب الجزيرة العربية وقد استمر باب المندب مدخلا للهجرات البشرية خلال القرون المتعاقبة ، فمنه دخلت العناصر الحامية التى منها : المصريون القدماء ، والنوبيون والبجة ، والجلا ، والدناقل ، والصوماليون ، ومعظم الاحباش (١٥)

ومن بعد الحاميين جاء الساميون ، وهم عرب الشمال وليس بين العنصرين اختلاف في العرق ، وانما الاختلاف في اللغة والثقافية . وظلت الصلات بين جانبي البحر الاحمر متصلة ، وعندما قامت عدول ثغرا لمملكة إكسوم المسيحية في القرن الثالث للميلاد كان سكانها خليطا من أهل العدوتين .

ويظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، والعلاقات التجارية قائمة بينها وبين الجانب الشرقي من افريقية ، فلا يؤثر ظهوره في هذه العلاقات الا في أن الذين كانوا يترددون على افريقية من العرب قد أصبحوا مسلمين بعد أن كانوا من عبدة الأوثان . وتحدث الانقسامات المذهبية في الدولة الاسلامية الناشئة وتهاجر بعض العناصر العربية فرارا من وطأة الحكم لتستقر في الساحل الافريقي ، كما حدث من فرار الزيديين في عهد هشام بن عبد الملك بعد أن فشلت ثورتهم .

ولم يلبث المسلمون بفضل موقعهم الجغرافي بين الشرق والغرب ،وبحكم مهارتهم البحرية ، أن سيطروا على موانى البحر الاحمر والمحيط الهندى ،وقامت

(١٥) الصياد ، محمد محمود : « الناس في افريقية » بيروت ١٩٦٩ ص ٧٤ .

لهم دولة في وسط اثيوبيا وفي بقعة من أخصب بقاعها ، وهي مملكة شوه التي انشأها جماعة من بني مخزوم . وقد حكمت قرابة اربعة قرون من سنة ٢٧٣ الى سنة ٦٨٤ هـ . (١٦)

وكانت مملكة شوه مجهولة في التاريخ حتى كشف أمرها المستشرق الايطالي سيرولي Cerulli في سنة ١٩٢١ . (١٧)

وتتميز منطقة شوه فضلا عن خصب تربتها ، بوفرة أمطارها الموسمية . ولكن المطر الموسمي غير مأمون ، فهو قد ينحبس أحيانا فيؤدي الى حدوث المجاعات . وقد كان توالي انحباسه في سنوات متقاربة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري مما أضعف الكيان الاقتصادي لمملكة شوه ، واذا ضعفت الدولة اقتصاديا اهتز كيانها السياسي ، وأصبحت محل طمع الجيران . وهذا ما حدث بالفعل لشوه ، وكانت قد نشأت الى الشرق منها امارة اسلامية متينة هي ايفات ، التي استطاعت بعد عدد من الحروب أن تقضي على مملكة شوه وتضمها الى أملاكها في سنة ٦٨٧ هـ . وبضمها أصبحت ايفات لها السيادة بين الامارات الاسلامية كلها في بلاد الطراز الاسلامي .

أصبح المسلمون يتحكمون في طريق الهضبة الحبشية المسيحية الى البحر ويسيطرون على سبل اتصالها بالخارج . وطبيعي ألا ينظر حكام الحبشة الى هذا الوضع نظرة ارتياح . ومن ثم فقد حفلت المدة من (منتصف القرن السابع الى منتصف القرن العاشر الى منتصف القرن السادس عشر الميلادي) بكثير من الحروب بين المسلمين والأحباش . ولم تقتصر على أن تكون حروبا محلية ، وانما امتدت تهديدات الأباطرة الأحباش الى الدول الاسلامية القائمة في مصر في ذلك الحين (١٨) .

واستطاع أحمد بن ابراهيم الملقب بجراني – أي الاعسر – بمعاونة العثمانيين أن يغزو الهضبة الحبشية ، ويوقع الهزائم المتتالية بالنجاشي لبنا دنقل . وكان المسلمون من قبل لا يصعدون الهضبة ، وانما تنتشر اماراتهم من حولها . واستمرت غزوات جراني سبعة عشر عاما (١٥٢٥ – ١٥٤٢) وكان لهذه الغزوات أثرها الكبير في نشر الاسلام في داخل الهضبة . وقد سجل تاريخ هذه الغزوات المؤرخ العربي « عرب فقيه » في كتابه فتوح الحبشة (١٩)

---

(١٦) رياض ! زاهر « الاسلام في أثيوبيا » . دار المعرفة . القاهرة .

(١٧) المصدر السابق : ص ٦٤ .

(١٨) قاسم ، جمال زكريا : « الممالك الاسلامية في الحبشة » مجلة العربي عدد ١٧٨ سبتمبر ١٩٧٣ ص ١٠٢ – ١٠٥ .

(١٩) هو أحمد بن عبد القادر شهاب الدين . وقد نشر القسم الأول من كتابه في باريس المستشرق رينيه باسيه Rene Passe في سنة ١٩٠١ ؛ أما القسم الثاني فلم يعثر عليه بعد .

واضطر لبنا دنقل أمام ضغط المسلمين الى الاستنجاد بالبرتغال الذين أرسلوا أسطولهم القوى لمساعدته • وانتهى الأمر بمصوع الأعسر ، ولكن جهوده أثمرت فى تحويل كثير من الوثنيين الى الاسلام ، وأدت الى انتشار الاسلام فى مناطق متفرقة من الهضبة المسيحية • وكان وجود الجيش المصرى فى زيلع وهرر حتى أواخر القرن التاسع عشر درعا يحمى المسلمين ، ولكن انسحابه فتح المجال أمام منليك الثانى لاخضاع الامارات الاسلامية ، فلم يبق منها سوى سلطنة جما التى أخضعها هيلاسلاسى للحكومة المركزية فى سنة ١٩٣٤ (٢٠) •

- ٧ -

وهكذا انتهى عهد الحبشة بالامارات الاسلامية ، وطوى التاريخ فيما طوى اسم « جبرة » ، ولكن ظلت صفة « الجبرت » قائمة تطلق بالمعنى العام على جميع المسلمين فى أثيوبيا ، وتقتصر فى معناها الخاص على المسلمين الذين يعيشون فى تجمعات متفرقة فى وسط المجتمع المسيحى فى الهضبة الاثيوبية •

وليس لدينا احصاء دقيق عن سكان اثيوبيا ، وانما هى مجرد تقديرات تتفاوت بشكل واضح ، فبعضها يهبط بالعدد الى نحو العشرة ملايين ، والبعض يرتفع به الى ما فوق العشرين مليونا ، واذا كان هذا هو مبلغ علمنا بعدد سكان أثيوبيا ككل ، فان من المستحيل أن يكون لدينا رقم يوثق به عن عدد المسلمين من الأحباش • ولكن اذا افترضنا أن ثلث سكان أثيوبيا من المسلمين ، وهو تقدير يقول به كثير من الكتاب ، فان معنى هذا أن يكون بالحبشة ما يراوح بين الثلاثة ملايين والستة ملايين من المسلمين ، وهم الذين يعرفون بالجبرت بالمعنى الواسع للكلمة ، ويعيش معظمهم فى اقليم هرر ، وفى مناطق ساحل البحر الاحمر • أما اذا أخذنا اللفظ بمعناه الضيق فان عدد الجبرت يتراوح بين الخمسين الفا والسبعين الفا ، يتوزعون فى جهات الهضبة المسيحية ، ومنهم قبائل تيماريام (عطية مريم) وتاكليه (نبات يسوع) وهبنيه (هبة يسوع) (٢١) والمنساع والبوغوص وبيت ابرهه (٢٢) • ومعظمهم على مذهب الامام مالك وقليل منهم من الشوافع والأحناف •

---

(٢٠) قاسم : المصدر السابق ص ١٠٥ •
(٢١) عابدين ، عبد الجيد : ص ٢١٩ •
(٢٢) زكي ، عبد الرحمن : ج ٢ ص ٤٣ •

المراجع

١ ـ الجبرتى ، عبد الرحمن : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار »
بولاق (١٢٩٧ هـ) الجزء الأول

٢ ـ السيوطى ، جلال الدين : « لب اللباب فى تحرير الانساب »
ليدن (١٤٨٠)

٣ ـ القلقشندى ، أبو العباس أحمد : « صبح الاعشى فى صناعة الانشا »
القاهرة (١٩٣٢) المجلد الخامس

٤ ـ المقريزى ، تقى الدين : « الالمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام »
القاهرة (١٨٩٥)

٥ ـ رياض ، زاهر : « الاسلام فى أثيوبيا » دار المعرفة
القاهرة (١٩٦٤)

٦ ـ زكى ، عبد الرحمن : « المسلمون فى العالم اليوم » دار النهضة المصرية
القاهرة (١٩٥٨) الجزء الثانى

٧ ـ سالم ، حمدى السيد : « الصومال قديما وحديثا » وزارة الاستعلامات
الصومالية : القاهرة (١٩٦٥) الجزء الاول

٨ ـ عابدين ، عبد المجيد : « بين الحبشة والعرب » دار الفكر العربى
القاهرة (بدون تاريخ)

٩ ـ قاسم ، جمال زكريا : « الممالك الاسلامية فى الحبشة » مجلة العربى عدد
١٧٨ سبتمبر ١٩٧٣

١٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية (المطبعة العربية) المجلد الحادى عشر .

11 — Budge, Sir E.A. Wallis : « A History of Ethiopia », London, 1928.

12 — Trimingham, J.S. : « Islam in Ethiopia », London, 1952.

13 — Ullendorff, Edward : « The Ethiopians : An Introduction to Country and People », OUP, 1960.

كشاف بالوثائق الفرنسية
فى مكتبة جامعة القاهرة

للدكتور أحمد عبد الرازق أحمد
كلية الآداب - جامعة عين شمس

كشـــاف بالوثائق الفرنسـية
في مكتبة جامعة القـاهرة ٠

لا شك في ان الحديث عن المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي يذكرنا بأهم الأحداث التي عاصرها هذا المؤرخ ومنها الحملة الفرنسية التي قادهـــا بونابرت على مصر ، منذ حوالى قرن ونصف من الزمان ، بهدف تشييدمستعمرة تعوض الفرنسيين عن خسائر الحروب الاستعمارية الطويلة التي نشبت فيالقرن الثامن عشر ٠ ولكن ما نشر عن الحملة الفرنسية سواء بالعربية أو باللغـــات الاجنبية قد أغفل تماما الاطلاع على مجموعة هامة من الوثائق الفرنسية المتعلقة بهذه الحملة والتي استطاعت مكتبة جامعة القاهرة التوصل الى شرائها منـــذ زمن طويل ، لتبقى حتى اليوم حبيسة الأدراج والأضابير فى انتظار من يعمل على نشرها والتعريف بها (١)

لذلك فقد رأينا ان ننتهز فرصة احياء الذكرى المائة والخمسين لوفاةالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي لنقوم بالتعريف بهذه الوثائق الهامة ، عن طـريق اعداد كشاف لها ليكون عونا للمهتمين بهذا الفرع من الدراسات التاريخية ، نظرا لأهمية هذه المجموعة من الوثائق لما جاء فيها من مادة تاريخية أصيلة ٠

وقد قسمنا هذه الوثائق الى تسع مجموعات رئيسية على النحو التالى :

١ ـ مجموعة من الوثائق تحمل توقيع بونابرت ، وهي تؤلف في مجموعها ست عشرة حافظة ، تحتوى كل منها على عدة وثائق ذات موضوعات متنوعة

(١) لعله من المناسب هنا أن نتوجه بخالص الشكر الى الاستاذ الدكتور أحمـــد عزت عبد الكريم الذى تفضل مشكورا بلفت نظرنا الى هذه الوثائق الهامة ٠ وكذلك الى الأســـتاذ احمد عيسى مدير عام مكتبة جامعة القاهرة لمعاونته الصادقة ، وللتسهيلات العـديدة التي قدمها لنا أثناء اعدادنا لهذا الكشاف ٠

٢ ـ مجموعة خاصة بالاحداث التى وقعت بمصر عقب تولى كليبر لقيادة الحملة بعد رحيل بونابرت عن مصر فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ، وهى تتألف من ثلاث حافظات بها الكثير من الوثائق والمراسلات .

٣ ـ مجموعة من الرسائل الهامة تتعلق بمراد بك وتقع فى حافظتين ، الثانية منهما تشتمل على مراسلات دون بعضها باللغة العربية .

٤ ـ مجموعة خاصة بالمجمع العلمى المصرى الذى أنشاه بونابرت بمصر ،وهى تقع فى سبع حافظات بها العديد من المراسلات والتقارير والرسوم الأثرية .

٥ ـ مجموعة خاصة بكتاب وصف مصر ، وتتألف من حافظتين .

٦ ـ مجموعة خاصة بمطبعة القاهرة ، وهى تقع فى حافظة واحدة .

٧ ـ مجموعة هامة تتعلق بأقاليم القطر المصرى ، موزعة على أربع حافظات .

٨ ـ مجموعة من المخطوطات ، ذات المواضيع المتنوعة عن الحملة الفرنسية فى مصر ، تقع فى سبع حوافظ .

٩ ـ مجموعة أخيرة تتألف من خمس حوافظ تحتوى على بعض المطبوعات . وسنحاول فى الصفحات التالية اعطاء أرقام هذه الحوافظ والتعريف بمحتويات كل منها حسب أهميتها التاريخية .

المجموعة الأولى

حافظة رقم (٣)

وهى تحتوى على وثيقة واحدة مؤرخة فى الاسكندرية فى ١٨ مسيدورمن السنة السادسة (٦ يوليو ١٧٩٨) ، وتتضمن أمرا من القائد العام بونابرت بارسال أحد ضباط المدفعية من ذوى الكفاءة العالية الى الاسكندرية بهدف اقامة نقطة دفاع لحماية الاسطول الراسى بها ، كما تشير أيضا الى رحيل الضابط المذكور فى مساء اليوم نفسه على احدى سفن القائد برى (Pérrée) .

حافظة رقم (٧)

وهى تحتوى أيضا على وثيقة واحدة مؤرخة فى القاهرة فى ٣٠ ترميدور من السنة السادسة (١٧ أغسطس ١٧٩٨) ، وتحمل موافقة القائد العام بونابرت لسافارى (Savary) بالحصول على جوادين من محافظة بنى سويف،

بدلا من الجوادين اللذين سبق له اعارتهما الى المدفعية حسب شهادة الجنرال ديزيه (Desaix) ٠

حافظة رقم (١٣)

وهى تشتمل على ثلاثة خطابات مرسلة من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان (Destaing) ، الاول مؤرخ فى القاهرة فى ٤ بريمير من السنةالسابعة (٢٥ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى عقب ثورة القاهرة التى راح ضحيتها الجنرال ديبوى (Dupuy) فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ، ويتضمن أمرا من القائد العام بونابرت الى ديستان (Destaing) بالقبض على أحد الشيوخ الذى صاح من مئذنة أحد المساجد « النصر للثوار » ، ورغبة القائد العام فى معرفة اسم هذا الشيخ ٠

والثانى مؤرخ فى ٥ بريمير من نفس السنة (٢٦ أكتوبر ١٧٩٨) ، ويحتوى على أمر القائد العام بونابرت الى ديستان بالمناداة فى شولرع المدينة بأنه أصبح محرما على الجنود الفرنسيين دخول منازل الأهالى ، وأن أى جندى يضبط فى حالة تلبس سوف يعدم رميا بالرصاص ، وذلك بعد أن كثر نهب الجنود لمنازل الأهالى ٠

أما الخطاب الثالث فهو مؤرخ فى ١٠ بريمير من السنة السابعة (٣١ أكتوبر ١٧٩٨) يطلب فيه بونابرت من الجنرال ديستان أن يبعث اليه بالتقرير الخاص باستجواب مصطفى بك ٠

حافظة رقم (١٤)

وهى تشتمل على وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٠ بريمير من السنة السابعة (٣١ أكتوبر ١٧٩٨) ، ومرسل من مصطفى أمير الحج الى القائد العام بونابرت يستأذن فى الافراج عن النساء اللاتى قبض عليهن فى منزل اسماعيل الشنفانى ، الذى سبق أن أدين فى أحداث القاهرة الاخيرة والذى نجح فى الفرار من السجن ، ويشير الى موافقة القائد العام بونابرت على الافراج عن تلك النسوة بشرط التحفظ عليهن عند مصطفى بك ٠

حافظة رقم (١٧)

وهى تحتوى على ثلاثة خطابات تحمل توقيع القائد العام بونابرت ، الاول منها لا يحمل مكان ولا تاريخ تصديره (١) ، ومرسل من الضابط اليونانى

(١) من المرجح أن هذا الخطاب قد أرسل من القاهرة فى شهر نوفمبر ١٧٩٨ ، لأنه يفهم من دراسة هذه الوثائق أن بونابرت قد أصدر أمرا فى ٢٧ أكتوبر من نفس السنة بتشكيل ثلاث فرق من الجنود اليونان لحماية القوافل فى النيل ٠

المدعو جون نازو (Guane Nazo) يطلب فيها من القائد العام بونابرت الموافقة فرقته الى مائتي جندى بدلا من مائة ، ويشير الى وجود ما يقرب من خمسمائة يونانى بالقاهرة على استعداد للاشتراك كمتطوعين فى هذه الفرقة • بيد أن القائد العام وافق على زيادة قوة هذه الفرقة الى مائة وخمسين جنديا فقط •

والخطاب الثانى مؤرخ فى المنصورة فى ٥ بلبفوز من السنة السابعة (٢٤ يناير ١٧٩٩) ، ومرسل من الجنرال فردييه (Verdier) الى القائد العام بونابرت يتسائل فيه عن مصير أحد المماليك وبعض الأفراد الذين بحوزته ، بعد أن أصدر اليه الجنرال كليبر أمرا بالرحيل الى دمياط والذين قام بارسالهم الى القاهرة برفقة السرجنت بونيه • ويتضمن قرار القائد العام بونابرت باعدام المملوك رميا بالرصاص •

أما الخطاب الثالث فمؤرخ فى الأول من مسيدور من السنة السابعة (١٩ يونيو ١٧٩٩) ، ومرسل من بوسيليج (Poussielgue) مدير الشئون المالية ، الى القائد العام بونابرت بشأن اعتداء بعض القوات الفرنسية على ممتلكات الاهالى ونهبهم للاحجار والاخشاب المشيدة بها ، وذلك لحاجة الجيش الى هذه المواد ، كما يتضمن أمرا من القائد العام بونابرت الى الجنرال سامسون (Samson) باعداد تقرير شامل عن هذا الموضوع ، ويفهم أيضا من ملحوظة جاءت فى نهاية الرسالة بأن التقرير المطلوب قد تم اعداده بالفعل •

حافظة رقم (١٩)

وهى تحتوى على ثلاثة خطابات بشأن ثوار مدينة القاهرة ، الاول مؤرخ فى القاهرة فى ١٧ بريمير من السنة السابعة (٧ نوفمبر ١٧٩٨) • ومرسل من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان يأمره فيه باطلاق سراح الاغا حسن كمشيش •

والخطاب الثانى مؤرخ فى القاهرة فى ١٨ بريمير من السنة السابعة (٨ نوفمبر ١٧٩٨) ، ومرسل من الجنرال ديستان ، بشأن مصير تسعة من الأفراد قبض عليهم فى قضية شيخ أحد المساجد الذى سبق له أن نادى من مئذنة مسجده « النصر للثوار » ، وأمر القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان بنقلهم مؤقتا الى القلعة لحجزهم هناك •

أما الخطاب الثالث فمؤرخ فى ٢٤ بريمير من السنة السابعة (١٤ نوفمبر ١٧٩٨) ، وموجه من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان ، يأمره فيه بالقبض على البحارة أو على أى شخص من الاسطول يثبت انه لا ينتمى الى احدى

الفرق ، كما يطلب فيه الغاء النقطة المعروفة باسم « العشرون دراجون » بالقرب من العرب ، وكذلك نقطة السوارى الخاصة بالفسطاط (مصر القديمة) ٠

حافظة رقم (٢٠)

وتحتوى على رسالتين تحملان توقيع القائد العام بونابرت ، الاولى مؤرخة فى القاهرة فى ٥ فريمير من السنة السابعة (٢٥ نوفمبر ١٧٩٨) ، وموجهة من القائد العام الى قائد الجيش الجنرال برتييه (Berthier) لتشكيل أحد المجالس العسكرية لمحاكمة المواطن دو (Dau) الذى سبق له أن اتخذ أحد الجنود لخدمته وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر يوما ٠

أما الرسالة الثانية فهى مؤرخة فى ١٩ نيفوز من السنة السابعة (٨يناير ١٧٩٩) ، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال برتييه ٠ يأمره فيها بقطع رقبة المدعو شوربى بعد أن ثبتت خيانته للجيش الفرنسى بعد أن أقسم يمين الطاعة ، كما يأمره فيه بمصادرة أملاكه لحساب الجمهورية الفرنسية ٠

حافظة رقم (٢٣)

وهى تحتوى على تقرير مؤرخ فى ٢٣ فريمير من السنة السابعة (١٣ ديسمبر ١٧٩٨) ، مرسل الى الجنرال ديستان بشأن استجواب المدعو رستم أغا الذى كان يعمل فى خدمة مراد بك الصغير ثم انتقل الى خدمة مصطفى أغا ، يفهم منه أن الأول كان موجودا بالقاهرة وقت اندلاع الثورة بها ، رغم عدم حصوله على تصريح بالاقامة من القيادة الفرنسية ، وعلى هذا فقد أصدر القائد العام بونابرت أمرا باعدامه رميا بالرصاص وبمصادرة أملاكه ٠

حافظة رقم (٢٦)

وتشتمل أيضا على وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٨ نيفوز من السنة السابعة (٧ يناير ١٧٩٩) ، موجه من القائد العام بونابرت الى الجنرال مينو Menou يطلب منه العمل على توزيع بعض التحف التى عثر عليها لدى المماليك على مساعديه الذين عاونوه فى الكشف والعثور على هذه التحف بنسبة ١ : ٢٠ ٠

حافظة رقم (٢٨)

وتتضمن كذلك رسالة واحدة مؤرخة فى القاهرة فى ٢٤ نيفوز من السنة السابعة (١٣ يناير ١٧٩٩) ، وموجهة من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان ، يطلب منه فيها القبض على جميع الالبانيين الذين كانوا برفقة

مراد بك والتحفظ عليهم بالقلعة وتجريدهم من أسلحتهم وخيولهم ، واعــدام كل من تسول له نفسه عدم الامتثال لهذه الاوامر .

حافظة رقم (٣٠)

وتتضمن وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٦ بليفوز من السنة السابعة (٢٥ يناير ١٧٩٩) ، وموجه من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان ، يأمره فيه باعدام كل من : حسلان ابراهيم ، ويوسف ، وشالى ،وقادر ، والسيد يكن : ستوت ومحققه ، وهم جميعا من اليهود ، وذلك بقطع رقبة الخمسة الأوائل ، واغراق الآخرين فى النيل .

حافظة رقم (٣٢)

وتحتوى أيضا على وثيقة واحدة تعتبر فريدة فى نوعها (١) وهى عبارة عن التماس كتب باللغة العربية ، ومقدم من مشايخ علماء الديوان الى القائد العام بونابرت أمير الجيوش الكبير ، لاصدار فرمان بصرف مبلغ ١٣٥٠ فضة اليهم شهريا بحكم العادة ،ويتضمن الالتماس أسماء ثلاثة وعشرين شيخا ،ويحمل ثمانية أختام وعشرة توقيعات . أما ظهر الوثيقة فقد دون عليه ترجمة فرنسية للالتماس ، وقرار القائد العام بونابرت بتحويل الالتماس الى بوســيلج مدير الشئون المالية لتنفيذ المطلوب من أموال الأراضى .

حافظة رقم (٤١)

وبها خطابان : الأول مؤرخ فى القاهرة فى ١١ مســيدور من السنة السابعة (٢٩ يونيو ١٧٩٩) ، وموجه من القائد العام الى الجنرال ڤوه Veaux يخبره فيه برفضه التصريح له بالحصول على السفينة رقم «٨» للعودة بها الى فرنسا .

أما الثانى فمؤرخ فى ٢١ مسيدور من نفس السنة (٩ يوليو ١٧٩٩) ، وموجه أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال ڤو ، قائد عام الســوارى بشأن طلب ارسال المحاضر الخاصــة بالهجن التى تم ارسالها الى السوارى ويستعلم أيضا عن عدد الفرسان الذين يمكن الاستعانة بهم صباح الغد للرحيل الى أبى قير (١) .

---

(١) من دراســتنا لهذه المجموعة من الوثائق يمكننا القول بأن الوثائق العربيــة التى تحمل توقيع بونابرت تعتبر نادرة للغاية .

(٢) من المعروف ان بونابرت غادر القاهرة فى طريقه الى أبى قير فى ١٤ يوليو ١٨٩٩ حيث وصل الى معسكر الهرم . ومن هناك أخذ أحد السفن التركية فى طريقه الى أبى قير .

حافظة رقم (٤٢)

وبها وثيقة واحدة عبارة عن رسالة مؤرخة فى القاهرة فى ١٣ مسيدور من السنة السابعة (١ يوليو ١٧٩٩) ، وموجهة من القائد العام بونابرت الى الجنرال مارمون (Marmont) يخبره فيها برحيل الجنرال مور ا (Murat) الى اقليم البحيرة بصحبة ثلاثمائة رجل من الاعراب ، ويوضح له أنه سيبقى هناك فترة تتراوح ما بين الثمانية والعشرة أيام بهدف القضاء على شغب العربان ، ومن أجل معاونة القائد ديستان في اعادة الأمن الى المنطقة ، ويكشف له عن عزمه على تطهير المنطقة تماما من العربان حتى مريوط ٠

حافظة رقم (٤٨)

وبها وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى بركة الغطاس فى ٥ترميدور من السنة السابعة (٢٣ يوليو ١٧٩٩) ، موجه من القائد من القائد العام بونابرت الى دور (Daure) يأمره بجمع كل الابل فى مدينة الاسكندرية واحضارهـــا لحمل الماء للجيش السائر فى صحراء أبى قير ٠

حافظة رقم (٥٠)

وهى تحتوى على وثيقة واحدة ، مؤرخة فى القاهرة فى ٣٠ ترميدور من السنة السابعة فى الساعة الحادية عشر مساء (١٧ اغسطس ١٧٩٩م) ، وتتضمن أمرا للقائد العام بونابرت بصرف مرتبات شهر ترميدور الى الجنود ، ذلك الأمر يمكننا اعتباره الأخير الذى صدر عن القائد العام الى القوات الفرنسية بالأراضى المصرية اذ من المعروف أن بونابرت قد غادر القاهرة فى طريقه الى فرنسا على ظهر الناقلة ميرون فى ٢٢ ــ ٢٣ أغسطس ١٧٩٩ ٠

المجموعة الثانية

حافظة رقم (٨٠)

وهى تحتوى على ثلاث مجموعات هامة من الوثائق المتعلقة ببعض الاحداث الخاصة بعصر كليبر ، تحت الأرقام التالية :

٢ ــ وهذه المجموعة تنقسم بدورها الى قسمين :

(أ) مجموعة من الخطابات والأوامر التى أصدرها كليبر الى المفوضين الفرنسيين (القوميسيرين) من أمثال : ديزيه وبوسليج ، والى الصدر الأعظم ، والى

السير سدنى سميث (Sydney Smith) ، فى الفترة الواقعة بين ٢٦ فريمير من السنة الثامنة (١٧ ديسمبر ١٧٩٩) و ٨ بليفوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير ١٨٠٠) ، وهى تقع فى اثنتين وخمسين صحيفة ، وتشتمل على أربعة وعشرين خطابا ٠

(ب) مجموعة من المراسلات المتبادلة بين مفوضى الحملة الفرنسية والجنرال كليبر والصدر الأعظم والسير سدنى سميث ، فى الفترة الواقعه ما بين ٢٢ فريمير من السنة الثامنة (١٣ ديسمبر ١٧٩٩) و ٥ بليفوز من نفس السنة (٢٥ يناير ١٨٠٠) ، تقع فى ثلاثين صفحة ، وتؤلف فى مجموعها خمسة وعشرين خطابا على درجة كبيرة من الاهمية التاريخية ٠

٣ ـ مجموعة من الوثائق الخاصة بمعاهدة العريش ، تقع فى احدى عشرة صفحة ، ومعتمدة من الكوميسير دور (Daure) ، وتشتمل على اثنين وعشرين بندا تنص على انسحاب القوات الفرنسية بجميع معداتها وأسلحتها الى : الاسكندرية ، ورشيد وأبى قير ، تمهيدا لرحيلها نهائيا الى فرنسا على الناقلات الخاصة بها ، أو على تلك التى يقدمها لها الباب العالى بقدر الكفاية وهذه الوثائق مذيلة بتصريح للجنرال كليبر الى الجيش مؤرخ فى ٨ بليفوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير ١٨٠٠) ، كتب فى معسكر الصالحية ، يخبرهم فيه بشروط المعاهدة ، وعن قرب عودتهم الى وطنهم الأم فرنسا فى خلال الشهور الأربعة القادمة ، ويعبر لهم فيه عن مدى الحرج الذى أوقعه فيه القائد العام بونابرت بتعيينه خلفا له ٠

٤ ـ خطاب مؤرخ فى ١٤ بليفوز من السنة الثامنة (٣ فبراير ١٨٠٠) ، مرسل من الجنرال المساعد كامبس (Cambis) الى الجنرال ديستان ، يخبره فيه أن الجنرال رينيه (Reynier) قد كلفه بالكتابة اليه بضرورة المحافظة على التحصينات والصهاريج ، وعدم احداث أى تدمير بها ، اذ نصت شروط المعاهدة على ضرورة تسليمها الى العثمانين بنفس الحالة التى كانت عليها وقت توقيع شروط المعاهدة ٠

حافظة رقم (٨١)

وهى تحتوى على ثلاثة خطابات تحمل أرقام ٥ ، ٦ ، ٧ على التوالى ، الخطاب رقم (٥) مؤرخ فى القاهرة فى ٨ نيفوز من السنة الثامنة (٢٩ ديسمبر ١٧٩٩) وموجه من كليبر الى الصدر الاعظم يخبره فيه باستمرار المناوشات أمام العريش ، ويحذره فيه بأنه فى حالة عدم الانسحاب التام للقوات ، فانه لن يكون هناك سلام ولا مفاوضات ٠

والخطاب رقم (٦) مؤرخ فى القاهرة فى ٢٠ فنتوز من السنة الثامنة (١١ مارس ١٨٠٠) ، وهو موجه من كليبر الى الجنرال ديستان (Destaing) ،

يشكره فيه على مسارعته بالكتابة اليه بصدد المشاكل التى يحدثها الانجليز أثناء تطبيق نصوص اتفاقية العريش ، ويطمئنه بان الامور سوف تأخذ مجراها الطبيعى فى القريب العاجل (١) .

أما الخطاب رقم (٧) فمؤرخ فى القاهرة فى ٢٤ فنتوز من السنة الثامنة (١٥ مارس ١٨٠٠) ، وموجه من كليبر الى الجنرال ديستان ، حيث يفهم منه سوء نوايا الانجليز ، ويلغى فيه كليبر أمرا له سبق أن أصدره للقبض على الحاكم العثمانى الموجود برشيد ، وذلك عندما عهد الى الجنرال دوماس (Damas) بالكتابة الى ديستان لتنفيذ رغبته .

حافظة رقم (٨٣)

وهى تحتوى على ثلاث وثائق هامة تحمل أرقام ١١ ، ١٢ ، ١٣ . والوثيقة رقم (١١) عبارة عن خطاب موجه من البارون رينه (René) الى الجنرال دنزلوه (Donzelat) ، ومؤرخ فى القاهرة فى ٢٥ بريريال من السنة الثامنة (١٤يونيو ١٨٠٠) ، وكتب فى الساعة ١٫٣٠ ظهرا ، يخبره فيه بمقتل كليبر على أيدى أحد (الاتراك) المدعو بسليمان الحلبى الذى اخترق حديقة منزله وقت ان كان برفقة المهندس بروتان (Protain) وعاجلهما بعدة طعنات من خنجر كان يحمله ، أدت الى وفاة الاول والى جعل الثانى بين الحياة والموت ، ويفيد بالقبض على الجانى الذى اعترف بجريمته ، والذى يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، وقد تم اعدامه وترك جثته الى الطيور الجارحة .

والوثيقة رقم (١٢) عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ٦ مسيدور من السنة الثامنة (٢٥ يونيو ١٨٠٠)، وموجه من الجنرال مينو الى الجنرال ديستان ، يخبره فيه بتوليه قيادة الجيوش الفرنسية فى مصر بعد مقتل كليبر قائده ، ويتعهد فيه بالقيام بواجبه خير قيام .

أما الوثيقة رقم (١٣) فهى عبارة عن تقرير مفصل أعد للحكومة الفرنسية بشأن الاحداث التى وقعت بمصر منذ ابرام معاهدة العريش حتى نهاية شهر بريريال من السنة الثامنة (يونيو ١٨٠٠) ، وهو يقع فى أربع وسبعين صفحة ، ويشتمل على بعض التصحيحات بخط الجنرال دوماس ، وعلى هذا فهو على درجة كبيرة من الاهمية لما جاء فيه من أحداث تاريخية .

---

(١) من الملاحظ أن هذا الخطاب كتب قبل نقض معاهدة العريش ببضعة أيام .

المجموعة الثالثة

حافظة رقم (١١٧)

وهى تشتمل على مجموعتين من الوثائق :

١ ـ مجموعة تحتوى على خمس مراسلات هامة بصدد قضية مراد بك ، المراسلة الاولى منها مؤرخة فى القاهرة فى ١٢ مسيدور من السنة السابعة (٣٠ يونيو ١٧٩٩) ، وموجهة من بونابرت الى مورا (Murat) يخبره فيها بتعيينه قائدا عاما على كل من : الجنرال ديستان والجنرال مارمون(Marmont) ، وذلك أثناء حملته باقليم البحيرة للقضاء على مراد بك ·

والمراسلة الثانية مؤرخة فى ١٤ مسيدور من نفس السنة (٢ يوليو ١٧٩٩) ، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال مورا ، يخبره فيها برحيل مراد بك من الواحات فى طريقه الى احدى قلاع مدينة الفيوم فى صحبة مائتى مملوك وثلاثمائة اعرابى ، ويطلب منه سرعة القضاء عليه اذا ظهر فى أحد مواقع البحيرة ، لا سيما وقد أشيع أنه مريض وجنده فى حالة يرثى لها ·

والمراسلة الثالثة مؤرخة فى ١٧ مسيدور من السنة نفسها (٥ يوليو ١٧٩٩) ، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى مورا ، يستحثه فيها على أن يتخذ له بعض الجواسيس فى كل من : الطرانة ، ووادى النطرون ، وبعض المراكز الاخرى التى يحتمل مرور مراد بك بها ، وذلك ليرصدوا له جميع تحركاته حتى يتمكن منه ويقضى عليه ·

والمراسلة الرابعة مؤرخة فى ٢٠ مسيدور من السنة السابعة (٨ يوليو ١٧٩٩) ، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال مورا ، يطلب منه سرعة الرحيل الى وادى النطرون ، أو أن يرسل بدلا منه أحد الضباط الاكفاء ، وذلك لمؤازرة الجنرال فريان Friant الذى يعسكر هناك من أجل القضاء على مراد بك ·

أما المراسلة الخامسة فهى مؤرخة فى القاهرة فى ٢١ مسيدور من نفس السنة (٩ يوليو ١٧٩٩) ، وموجهة من برتييه (Berthier) الى مورا ، يخبره فيها أنه تسلم فى التو رسالة من الجنرال فريان ، يخبره فيها أن مراد بك شوهد وقد اتخذ طريقه الى بحر يوسف بالفيوم ·

٢ ـ مجموعة تضم ثلاثة خطابات : الأول مؤرخ فى ١٦ مسيدور من السنة السابعة (٤ يوليو ١٧٩٩) ، وموجه من مورا الى الجنرال ديستان ، يخبره فيه بالقبض على ١٨ مملوكا من بينهم سليم الكاشف ، وباستيلائه على ١٥ جوادا ويستحثه على سرعة الرحيل للقضاء على الفلول الباقية منهم بالقرب من مريوط ·

والخطاب الثاني مؤرخ فى ٢١ مسيدور من نفس السنة (٩ يوليو ١٧٩٩) ، وموجه أيضا من مورا الى الجنرال ديستان حاكم اقليمى البحيرة والطرانة ، يخبره فيه أن الجنرال بوييه Boyer قد كتب اليه يخبره بأن الجنرال فريان قد قام بمهاجمة مراد بك يوم ١٩ مسيدور فى الريان بالفيوم ، مما اضطره الى الانسحاب الى دونه مارا بوادى النطرون وبمريوط ، ويخبره بعزمه على الرحيل مساء اليوم فى الخامسة مساء ليتولى بنفسه مهمة القضاء على مراد بك ، ويحدد له أيضا يوم ٢٣ مسيدور تاريخا لعودته الى الطرانة ·

أما الخطاب الاخير فمؤرخ فى القاهرة فى ٢٤ مسيدور من السنة السابعة (١٢ يوليو ١٧٩٩) ، وموجه من مورا الى ديستان ، يخبره فيه بعودته من وادى النطرون بعد أن فاجأ المماليك والبدو بضربة قاضية اضطرتهم الى الهروب غرب وادى النطرون ، سعيا للحاق بمراد بك فى الصعيد ·

حافظة رقم (١١٩)

وهى تحتوى على مجموعة كبيرة من المراسلات الهامة التى يبلغ عددها ٦٩ خطابا ، مرسلة من مراد بك الى الجنرال دنزلوه صارى عسكر أسيوط ومنفلوط والمنيا ، ومكتوبة باللغة العربية وبعضها مصحوب بترجمة ايطالية، والبعض الآخر بترجمة فرنسية ، كما يحمل بعضها ملاحظات خاصة للجنرال دنزلوه سجلها بخط يده ، وتشير المجموعة من الخطابات التى تقع فى مائة وخمس وثلاثين صفحة — على مدى الثقة المتبادلة بين كل من مراد بك والجنرال دنزلوه ، وذلك لما تفيض به هذه المراسلات من عبارات الود ، وأغلبها يحمل تاريخ سنة ١٢١٥ هجرية (١٨٠٠ م) وتحمل خاتم مراد بك ·

المجموعة الرابعة

حافظة رقم (١٨٢)

وهى عبارة عن مجموعة كبيرة من الملاحظات والرسوم المبدئية لبعض المعابد المصرية القديمة التى سجلها الرسام دينون (Dénon) أثناء رحلته التى قام بها فى صعيد مصر بصحبة الجنرال ديزيه ، فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٧٩٨ ، ١٧٩٩ ، ومرفق بها رسالتان من ست صفحات : الأولى مؤرخة فى ١٥ فركيتدور من السنة الثامنة (٢ سبتمبر ١٨٠٠) ، وموجهة من ديليل (Delile) عالم النباتات الى مارسيل (Marcel) مدير المطبعة الاميرية بالقاهرة يسأله فيه عن بعض المنشورات ·

حافظة رقم (١٨٣)

وهى تشتمل على أربع مجموعات من الوثائق الهامة :

١ ــ وهذه المجموعة تحتوى على خطابين من أربع صفحات ، الأول موجه من روزير (Rozière) مفتش عام المناجم وعضو المجمع العلمى المصرى الى الجنرال مينو يخبره فيه بأنه بصدد تكوين مجمـــوعة ثانية من العينات ، ليحملها معه الى فرنسا وذلك لحاجته الماسة اليها فى الأبحاث التى يقوم بها ويؤكد له بأن المجموعة الأولى ستظل بالاسكندرية تحت تصرفه فى أى وقت ، ورغم أن هذا الخطاب يخلو من مكان تصديره وتاريخ كتابته فمن المرجح أنــه أرسل من القاهرة فى الفترة الممتدة بين سنتى ١٨٠٠ ، ١٨٠١ •

أما الخطاب الثانى فهو يخلو أيضاً من مكان التصدير وتاريخ التدوين ، وموجه من روزير الى آنسة مجهولة الاسم يعرض عليها فيه رغبته فى الزواج منها ، وقد احتوى عبارات رقيقة عذبة ، تعطينا صورة واضحة عن أساليب الغزل السائدة فى ذلك لعصر •

٢ ــ وهذه المجموعة تؤلف فى مجموعها تسعة خطابات موجهة الى روزير من كليبر ومن شابتال (Chaptal) ومن لومونت (Laumont) ومن لوفقر (Lefebvre) ومن الجنرال دوماس ومن الجنرال ديستان ومن الجنرال بليار ((Belliard) ومن الجنرال زايونشك (Zayoncheck) ومن بيكوا (Bucquoy) •

٣ ــ مجموعة من الخطابات التى أرسلها روزير من القاهرة الى لامونت ، تقع فى ١٣ صفحة •

٤ ــ بعض الملاحظات الخاصة بروزير عن المجمع العلمى المصرى ، ترجع الى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وتقع فى أربع عشرة صفحة •

حافظة رقم (١٨٤)

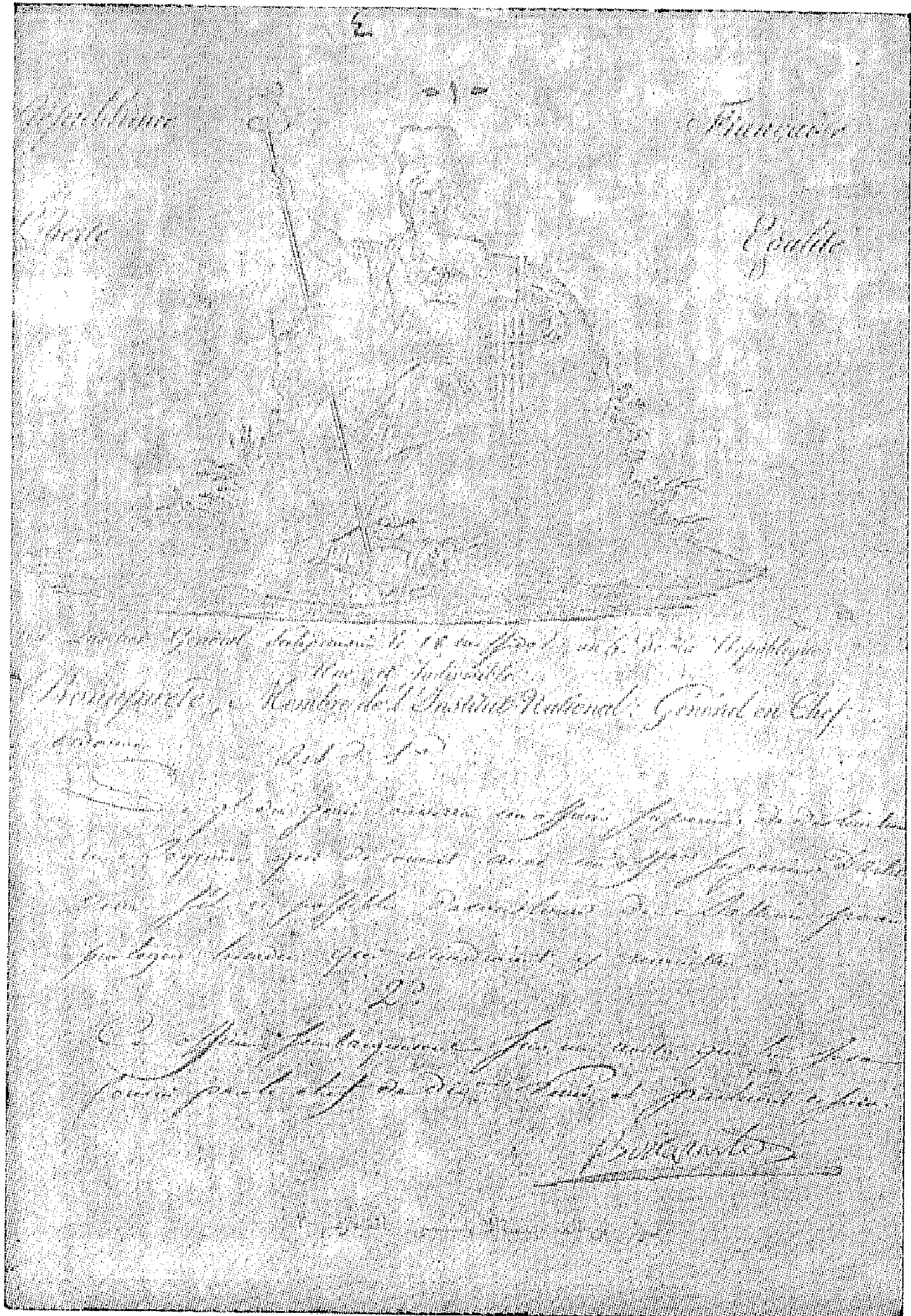
وهى تضم أربع وثائق هامة تحمل اسم البارون فورييه (Fourier) عالم الرياضيات الشهير الذى توفى بباريس فى ١٧ مايو ١٨٣٠ •

١ ــ خطاب بدون تاريخ مرسل من فورييه الى احدى الدوقات ، يخبرها فيه أنه فرغ على التو من قراءة المؤلف الذى بعثت به اليه ، كما يشكرهـــا على الأزهار التى وصلته منها ، والخطاب فى مجموعه ملء بعبارات الحب •

٢ ــ مسودة خطاب كتبت بيد فورييه على قصاصة من الورق تحمل اسم الجنرال كليبر ، موجهة الى ديوان الاقاليم المصرية ، ويفهم من التصحيحات الموجودة على هذه القصاصة ان كليبر قد أملى صيغة هذ الخطاب على فورييه •

منشورات الحملة الفرنسية

١



République Française

Liberté Égalité

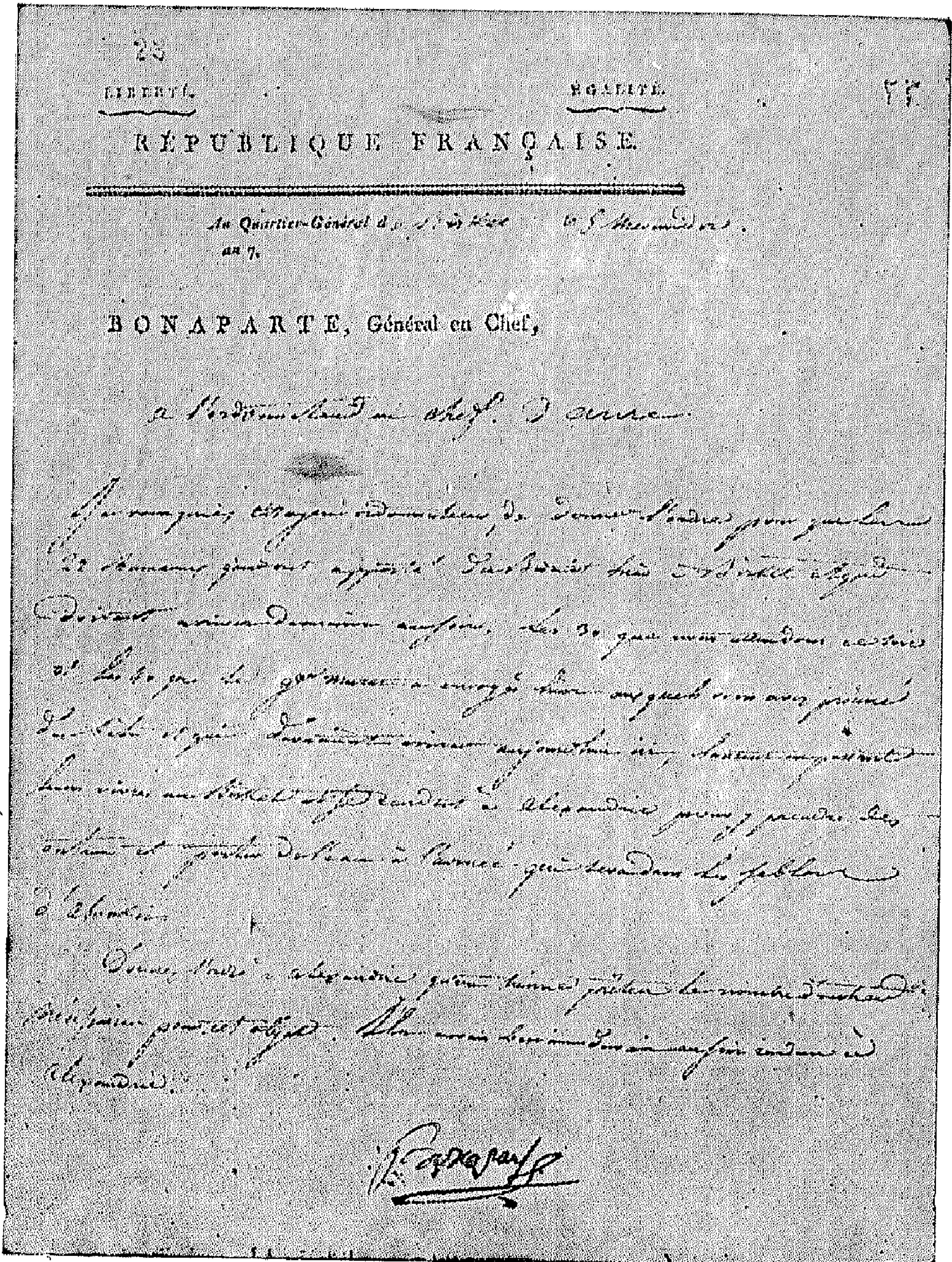
Une et Indivisible

Bonaparte, Membre de l'Institut National, Général en Chef

2e

Bonaparte

نموذج من المجموعة الأولى حافظة رقم ٣



LIBERTÉ ÉGALITÉ

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

Au Quartier-Général d
an 7.

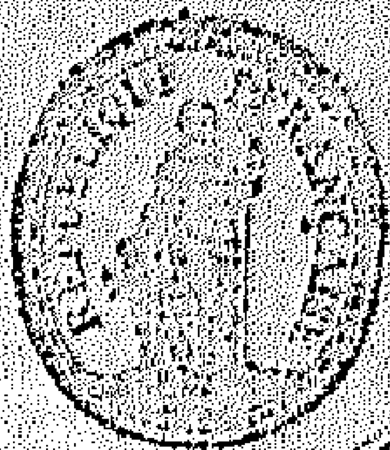
BONAPARTE, Général en Chef,

نموذج من المجموعة الثانية حافظة رقم ٤٨

نموذج من المجموعة الثالثة حافظة رقم ١١٩

نموذج من المجموعة الثالثة حافظة رقم ١١٩

ARMÉE

LIBERTÉ.  ÉGALITÉ.

1837 b.

Au quartier-général d de Medine le 25 fleuriote an 7 de la République française, une et indivisible.

LE Général de Brigade ZAYONCHEK,
Commandant la province de fayoume

Au citoyen Rosiere.

j'ai reçu Citoyen votre lettre du 8 Courant
je viens de donner ordre a un detachement d'aller
prendre les quarante Chameaux fait suivre arabes
je donne en même temps ordre aux Citoyens les
officiers Commandant le Detachement formant votre
Escorte, de vous Conduire jusques au Palais Caro
et de revenir de suite ici

Salut et fraternité
Zayonchek.

نموذج من المجموعة الرابعة حافظة رقم ١٨٣

نموذج من المجموعة الرابعة حافظة رقم ١٨٣

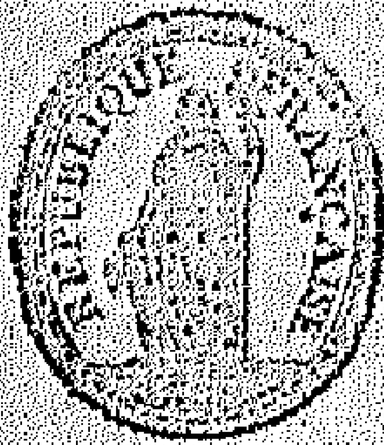
Résumé de l'état de l'Ouvrage sur l'Égypte.

7

Nombre des Gravures ou des Mémoires terminés, en train ou à commencer.

		Antiquités.			État moderne.			Histoire naturelle.			Atlas géographique.			To
		Imprimés ou terminés.	En train.	à Commencer.	Imprimés ou terminés.	En train.	à Commencer.	Imprimés ou terminés.	En train.	à Commencer.	Imprimés ou terminés.	En train.	à Commencer.	
Gravures…	1.re et 2.e Livraison…	264.	.	.	97.	.	.	82.	.	.	.	.	.	
	3.e Livraison…	143.	15.	4.	62.	8.	3.	112.	50.	6.	50.	.	.	
	Total.	407.	15.	4.	159.	8.	3.	194.	50.	6.	50.	.	.	
Mémoires…	3.e Livraison…	22.	25.	12.	6.	10.	16.	6.	2.	10.	.	.	.	

نموذج من المجموعة الخامسة حافظة رقم ١٨٢

LIBERTÉ. 

ÉGALITÉ.

Au Kaire le 21. Pluviose
an 7. de la République française. ~~21 janvier 1799~~ 9 février

E. POUSSIELGUE, Contrôleur des Dépenses de l'Armée, et Administrateur général des Finances de l'Egypte,

au Citoyen Marc-Aurel Imprimeur au Kaire.

Le Général en chef, vient de me charger, Citoyen, de faire quelques corrections au Numero du Journal que ~~que~~ vous avez sous presse dans ce moment. Je vous prie, en conséquence, de m'en apporter de suite l'Épreuve avant de la tirer./

Salut et Fraternité./

E. Poussielgue

وثيقة من المجموعة السادسة حافظة رقم ١٩٠

Envoyé par le Général en chef le 6 Brumaire l'an 6.
27 oct. 1797

Ce jourd'hui vendredi [illegible] de Gumadi el awel, l'an de l'hégire 1213 (5 Brumaire an 7) nous soussignés régisseurs de la Gamé, étant assemblés chez le général en chef Bonaparte, avons solennellement promis que dorénavant nous préserverons toutes les rues de notre arrondissement de tout trouble; que nous donnerons tous nos soins pour contenir les méchants et les mauvais sujets, que nous les éloignerons; de même que lorsque nous aurons connaissance que quelqu'un de notre quartier [illegible] commettra des désordres, nous nous obligeons de le saisir, et d'en donner connaissance au commandant de la place, ou bien, à l'aga des Janissaires; au cas que des étrangers viendraient s'établir dans notre arrondissement, nous [illegible] promettons de les faire connaître aux commandants et [illegible]; et si par malheur il arrivait dans notre arrondissement quelque désordre dont auparavant nous n'eussions pas donné l'avis, nous nous soumettons tous à en être personnellement responsables.

Le Cheikh de la Gamé Cheikh Muhammed el [illegible]
El hadj Muhammed ibn Zakour
Muhammed el Cherif
el hadj Muhammed el helou
Omar ibn el abd-ul-gani

el hadj [illegible] el [illegible]
el hadj [illegible]
abd el Wahab el [illegible]
el tayb [illegible]
Ahmed Doukhail

نموذج من المجموعة الثامنة حافظة رقم ٢٠٦



BELLE ACTION.

de l'Epouse du Général Verdier. Brumaire an 9. (8bre 1800.)

Verdier, après le siège de St. Jean d'Acre, seconda puissamment la sollicitude du Général Kleber *pour les malheureux soldats qu'une route pénible accablait de fatigue.* Madᵉ Verdier *son épouse avait voulu le suivre en Egypte. Compagne active de ses travaux, elle signala son courage et son humanité pendant tout le cours de l'expédition de* Syrie. *Combien de fois ne la vit-on pas, méprisant tous les dangers, donner son cheval pour faire passer des torrens à des piétons, ses provisions, son eau, son Linge, elle prodiguait tout aux soldats malades ou blessés. Un jour parcourant seule le désert, elle entendit les cris du désespoir d'un soldat aveugle et abandonné; elle court à lui.* «attache toi, *lui dit-elle,* à la queue de mon Cheval et ne le quitte plus; il ne te fera aucun mal; viens pauvre misérable, j'aurai soin de toi» *Le soldat obéit et suit sa bienfaitrice. Souvent il s'écriait, dans les transports de sa reconnaissance:* Est-ce un ange qui me conduit, qui me nourrit? — eh non, mon ami, *répondait-elle avec cette simplicité embellie par les grâces,* non c'est madame Verdier, une Italienne, la femme du Général.

نموذج من المجموعة التاسعة حافظة رقم ٢٢١

نموذج من المجموعة التاسعة حافظة رقم ٢٢١

وعلى الرغم من أن هذا الخطاب يخلو من تاريخ كتابته فهو على درجة عظيمة من الأهمية ، اذ يوضح جانبا من العلاقات بين الفرنسيين والأهالى المصريين •

٣ ـ جواز سفر فوريير للعودة الى فرنسا مؤرخ فى ٢٨ بليفوز من السنة الثامنة (١٧ فبراير ١٨٠٠) ، ويحمل توقيع الجنرال دوماس •

٤ ـ مجموعة من الملاحظات والمراسلات بخط فوريير عن الحملة الفرنسية بمصر ، تقع في خمس وسبعين صفحة ، وملحق بها مخطوطان صغيران ، يشتمل الأول على ١٢ صفحة ، فى حين يتكون الثانى من ١٨ صفحة ، وكلها بخط فوريير • وهى على درجة كبيرة من الاهمية العلمية بالنسبة للدراسات المصرية القديمة •

حافظة رقم (١٨٥)

وهى تتضمن أربع مجموعات من الوثائق الهامة التى تحمل اسم جيوفرى سان هيلارى (Geoffroy St. Hilaire) عالم الحيوان المعروف ، الذى توفى بباريس فى ١٩ يونيو ١٨٤٤ •

١ ـ مخطوط يتألف من تسع صفحات ، يروى فيها جيوفرى رحيل الحملة الفرنسية من فرنسا واستيلائها على مالطة ، ثم الهجوم على الاسكندرية •

٢ ـ خطاب موجه من جيوفرى الى أحد زملائه يخلو من مكان تصديره ومن التاريخ الذى كتب فيه (١) يقع فى أربع صفحات ، يشكو فيها جيوفرى الى زميله من ندرة الخطابات التى تصله من فرنسا ، ويخبره أنه كان يتمنى أن يحضر له جميع ما يطلبه من نباتات وحيوانات حية ، بيد أنه عقب المعركة الخاسرة التى خاضها الجنرال مينو فى كانوب فى ٣٠ فنتوز (٢١ مارس ١٨٠٠) لن يستطيع أن يحقق له هذه الرغبة •

٣ ـ خطاب مؤرخ فى باريس فى ٢٩ جريمينال من السنة السادسة (٨ أبريل ١٧٩٨) ، موجه من الجنرال كفاريللى (Caffarelli) الى جيوفرى ، يعطيه فيه تعليماته بمناسبة رحيله الى مصر •

٤ ـ مجموعة أوراق متنوعة تحتوى على شهادة جنسية باسم جيوفرى مؤرخة فى ٢٠ أبريل ١٧٩٣ ، وتصاريح وشهادات باسم جيوفرى صادرة من جنرالات الجيش (المصرى) ، جواز سفر باسم جيوفرى صادر من السلطات الفرنسية ، بعض الأوراق الخاصة بجيوفرى يبلغ عددها خمس وثائق •

---

(١) من المرجح انه كتب فى سنة ١٨٠١ أى فى نهاية الحملة الفرنسية ، كما يفهم من نص الخطاب •

حافظة رقم (١٨٦)

وتضم خطابين باسم لوجنتي (Legentil) ، الأول يحمل رقم (٨) ومؤرخ فى المنصورة فى ٤ بريمير من السنة التاسعة (٢٥ أكتوبر ١٨٠١) ، ومرسل من لوجنتي الى رئيس الهندسة الحربية ، يخبره فيه بانتهائه من عمل خريطة المنصورة وضواحيها ، التى تفانى فى عملها والتى شكره عليها الجنرال سانسون أثناء مروره بالمنصورة ، ومرفق به خطاب آخر مؤرخ فى القاهرة فى ٢٥ نيفوز من السنة الثامنة (١٦ يناير ١٨٠٠) ، ومرسل من المهندس لوبير (Lepère) الى الجنرال دوجا (Dugua) بشأن نقل مسلة صغيرة الى المجمع العلمى المصرى تمهيدا لنقلها الى فرنسا ، وبشأن اعادة تشييد أحد المساجد التى دمرها بونابرت .

والخطاب الثانى يحمل رقم (٩) ومؤرخ فى القاهرة فى ١٧ ترميدور من السنة السابعة (٤ أغسطس ١٧٩٩) ، ومرسل من الكيمائى رينو (Regnault) الى المواطن برتيسييه (Pertusier) يخبره بوفاة صديقهما برنكييه (Brinquier) فى يافا مصابا بالطاعون ، ويروى له انتصار بونابرت على العثمانيين في أبى قير فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩ ، ومرفق بهذا الخطاب خمس رسائل من أعضاء المجمع العلمى المصرى مؤرخه فى ٧ فنتوز من السنة الثامنة (٢ مارس ١٨٠٠) باسم عالم الفلك كينو (Quénot) ، والثانية مؤرخة فى القاهرة فى ٢٣ فانديمير من نفس السنة (٤ أكتوبر ١٧٩٨) ومرسلة من تستفويد (Testevuide) مدير الهندسة الجغرافية الى كارابيف (Carabeuf) ، والثالثة تحتوى على رسالتين مؤرختين فى باريس فى ٢٥ ، ٢٩ يوليو ١٨٣٦ ومرسلتين من فيبيه دى تراج (Villiers du Terrage) الى كل من مارتن (Martin) وبرتان دى فو (Bertin de Vaux) ، والرابعة مؤرخ فى القاهرة فى ١١ بليفوز من السنة الثامنة (٢٠ يناير ١٨٠٠) ومرسلة من فيلوتو (Villoteau) الى الجنرال دوجا بشأن مجموعة من الآلات الموسيقية .

المجموعة الخامسة

حافظة رقم (١٨٧)

وهى تضم ٨٣ وثيقة خاصة بطبع كتاب وصف مصر ، من بينها ٢٤ خطابا مرسلة من برتوليه (Berthollet) الى مارسيل مدير المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١١ رسالة باسم جولوا (Jollois) سكرتير اللجنة الخاصة بطبع الكتاب ، ٢٨ خطابا باسم جومار (Jomard) أحد أعضاء اللجنة ، وخطاب باسم مونج (Monge) ، ٣ خطابات باسم روزير (Rozière) ، هذا عدا أوراق أخرى

من بينها جدول يوضح الأجزاء التى تم طبعها ، وقائمة باسم أعضاء لجنة الاشراف على الطبع •

حافظة رقم (١٨٨)

وهى عبارة عن مجموعة من الرسومات والصور المعدة لكتاب وصف مصر ، من بينها بعض المناظر الفرعونية ، وبعض الرسوم التى تشير الى بعض العادات المصرية ، ومسقط مسجد السلطان حسن • وأغلب هذه الرسومات تحمل عبارات تجيزها للطبع ، وتوقيعات كل : من برتوليه وجومار وكوستاز (Costaz) •

المجموعة السادسة

حافظة رقم (١٩٠)

وهى تضم ثلاثة مجموعات من الوثائق تحمل كل منها رقما خاصا بها • المجموعة رقم (٤) تحتوى على ١٣ أمرا أصدرها القائد العام بونابرت الى كل من : مارك أورل (M. Aurel) وبوريين (Bourrienne) ومرلان (Merlin) والجنرال برتييه (Berthier) وبوسيلج ، هذا بالاضافة الى بعض الأوامر الخاصة بطبع بعض الجرائد والنداءات ، وأوامر تشغيل بعض العلماء •

والمجموعة رقم (٥) تمثل ١٣٠ خطابا موجهة الى مارسيل مدير المطبعة من بعض الشخصيات المعروفة مثل : بليار ، وبرتييه ، ودوماس ، ورينيه ، ولاجرانج (Lagrange) وبوسيلج ، وغيرهم ، كما تضم ما يقرب من ٩٠ وثيقة صادرة من السلطات العسكرية والمدنية لاعداد بعض المطبوعات •

أما المجموعة الأخيرة فتحمل رقم (٦) وتشتمل على ١٣ خطابا موجهة الى : مارسيل ، والى مارك أوريل من بعض قادة الحملة الفرنسية من أمثال : بليار ، وبودو (Baudot) واستيف (Estève) ودوماس ، وفردريك موريسون (Morrisson) أحد القادة الانجليز ، ولانوس (Lanusse) وفوجيير (Fugière) وغيرهم ، هذا عدا الدعوات الخاصة ببعض الحفلات المقامة بمدينة القاهرة ، وبعض جوازات السفر ، وبعض الشهادات الصحية ، وبعض التصاريح الخاصة بالعودة الى مصر •

المجموعة السابعة

حافظة رقم (١٩٥)

وتتألف هذه الحافظة من أربعة مخطوطات على درجة كبيرة من الأهمية :

١ ـ وهى عبارة عن تقرير مفصل لجميع أحوال مصر الداخلية والخارجية ومصادرها المالية والأمراض المنتشرة فيها وطرق الوقاية منها ، ويقع فى ١٥ فصلا من اعداد مير (Mure) ، الذى عرض على حكومة فرساى القيام بغزو مصر سنة ١٧٨٦ . ويحتوى على خمسين صفحة .

٢ ـ مخطوط يقع فى سبع صفحات من اعداد جرانجيه (Granger) يتضمن بعض المشاهدات بأرض مصر .

٣ ـ مخطوط من سبع صفحات بخط الجنرال فيال (Vial) يحتوى على بعض الملاحظات الهامة عن الوجه البحرى بصفة عامة ، وبحيرة البرلس بصفة خاصة .

٤ ـ مخطوط عن احدى الزيارات للدلتا التى قام بهـــا كل من جولوا (Jollois) وبوزيميه (Boysaimé) عضوا لجنة الفنون والآداب المرافقة للحملة الفرنسية ، نزولا على رغبة القائد العام للجيش فى السنة الثامنة ، وهو يقع فى ستين صفحة ، وبه بعض التصحيحات بالحبر وبالرصاص .

حافظة رقم (١٩٦)

وهى تضم خمس مجموعات من الوثائق الخاصة بالاقاليم المصرية ، وتحمل الأرقام التالية :

٥ ـ وبها مجموعة من الوثائق الخاصة بمنطقة رشيد منذ قدوم الحملة الفرنسية الى مصر منها مجموعة من الجداول الخاصة بالنظم الاقتصادية والسياسية للمنطقة ، وأخرى للأعمال اليومية ، هذا عدا بعض الوثائق الأخرى المشابهة والتى يحمل بعضها توقيع الجنرال مينو (Menou) .

٦ ـ وتتألف من أربعة أقسام خاصة باقليم طيبة ، الأول منها عبارة عن لمحة تاريخية عن المواكب القادمة من داخل افريقيا الى مصر ، تقـــع فى ثمان صفحات ، وتحمل توقيع المواطن لابانوس (Lapanouse) مدير جمرك أسيوط ، ومؤرخة فى ١٥ بريمير من السنة التاسعة . والقسم الثانى يضم ثلاثة تقارير مرسلة الى الجنرال دنزلوه ، الأول عن التجارة والزراعة ويحمـــــل توقيع لابانوس . والقسم الثالث عبارة عن دراسة لمنطقة طيبة ، تقع فى ٢٣ صفحة ،

وتحمل توقيع لابانوس • أما القسم الرابع فيضم سبع وثائق متنوعة ، تحمل توقيعات ، لابانوس ، والجنرال بليار ، واستيف ، ولوروى (Le Roy) رئيس البحرية •

٧ ـ مجموعة خاصة بمنطقتى المنيا وبنى سويف تقع فى ١٨ صفحة ، تضم أهم أسماء القرى بها والتوزيعات الخاصة بالضرائب على هذه القرى •

٨ ـ مجموعة خاصة باقليم جرجا تضم الوثائق التالية :

(أ) تقرير عن شرطة اقليم جرجا ، يقع فى ٢١ صفحة ، ويحمل توقيع الجنرال موران (Morand) •

(ب) تقرير عن الادارات الشرعية والقوانين يقع فى ١٣ صحيفة ، ويحمل أيضا توقيع الجنرال موران •

(ج) تقرير عن اقتصاديات اقليم جرجا يتكون من ١٥ صفحة ، ويحمل توقيع الجنرال موران •

(د) تقرير عن النواحى العسكرية باقليم جرجا ، يتألف من سبع صفحات ، وموقع من الجنرال موران •

(هـ) جدول يوضح الضرائب المفروضة على اقليم جرجا ، من ٥١ صفحة بدون توقيع •

(و) تقرير عن الحالة المالية لاقليم جرجا ، فى ١٦ صفحة يحمل توقيع الجنرال موران •

(ز) وثائق متنوعة تؤلف فى مجموعها ١٥ صفحة ، وتحمل توقيع بوسيلج مدير الشئون المالية •

٩ ـ مجموعة خاصة باقليم أسيوط تضم الوثائق التالية :

(أ) مخطوط من ١٧ صفحة لأسماء قرى اقليم أسيوط •

(ب) بعض المعلومات عن القرى التى اشتهرت ببيع الخيل تقع فى ١٥ صفحة •

(ج) ٢٢ وثيقة من اقليم أسيوط ، بعضها باللغة العربية ، والبعض الآخر يحمل توقيعات استيف وبتروشى (Petrucci) •

حافظة رقم (١٩٧)

وهى تضم أربع مجموعات من الوثائق الصادرة من الجنرال دنزلوه والجنرال ديزيه عن صعيد مصر :

١ ــ مخطوط يتألف من ٢٧ صفحة عن بعض المدن مثل : أشمون والقصير وجرجا وسوهاج وطهطا وتميت والكاشف وسنار والسويس •

٢ ــ بعض المعلومات عن الاعراب بخط الجنرال دنزلوه تقع فى ٢٦ صفحة •

٣ ــ مخطوط يشتمل على ١٧ صفحة بها بعض المعلومات المتنوعة بخط الجنرال دنزلوه ، وخريطة للنيل من بنى سويف الى جرجا ، وأخرى للجبال الممتدة حتى البحر الأحمر •

٤ ــ ملاحظات متنوعة عن صعيد مصر ، بخط الجنرال دنزلوه مزودة ببعض الخرائط والمساقط المعمارية •

حافظة رقم (١٩٨)

وهى تشتمل على ربع مجموعات من الوثائق مسجلة تحت الأرقام التالية :

١ ــ وهى عبارة عن تقارير خاصة بالضرائب الجمركية لمنطقة القصير ، تقع فى ٦٥ صفحة وتحمل توقيع الجنرال دنزلوه ، ومكتوبة باللغتين الفرنسية والعربية فى آن واحد •

١٢ ــ وتشتمل هذه المجموعة على بعض المعلومات الخاصة بقبائل الصعيد والدلتا ، والتى أمر بجمعها واعدادها الجنرال ديزيه للتعرف على عاداتها وتقاليدها وتاريخها •

١٣ ــ وهذه المجموعة عبارة عن مخطوط يقع فى ٤٢ صفحة ، ويحتوى على بعض المعلومات الخاصة بالبحر الأحمر ، ومزود بخريطة تمثل البحر الاحمر ممتدا من السويس الى باب المندب •

١٤ ــ تقرير عن اليونان مرسل من فيلكس (Félix) قنصل جمهورية سالونيكا ، يقع فى ٤١ صفحة •

المجموعة الثـامنة

حافظة رقم (١٩٩)

وهى تتألف من قسمين :

١ ــ دراسة عن الحملة الفرنسية على مصر مزودة ببعض الملاحظات عن

حملة ايطاليا ، تقع فى ٣٩ صفحة ، وتحمل العديد من التصحيحات بخط الجنرال اندروس (Andréossy) •

٢ ـ بعض الملاحظات الخاصة بباراليبيه (Barailler) عن الحملة الفرنسية على مصر تقع فى حوالى ١٢ صفحة •

حافظة رقم (٢٠٠)

وتضم أيضا مجموعتين من الوثائق تحملان رقمى ٣ ، ٤ •

٣ ـ وهى عبارة عن تقارير خاصة بلجنة الفنون والآداب الملحقة بالحملة الفرنسية على مصر ، تقع فى ٩١ صفحة ، وتحمل توقيع المهندس المعمارى لوبير بالأحرف الأولى من اسمه ، وتحتوى على تسجيل رائع للأحداث التى وقعت للجنة فى ميناء الاسكندرية ، لا سيما فى الفترة الأخيرة من حياة الحملة الفرنسية فى مصر •

٤ ـ أما عن المجموعة الثانية فهى عبارة عن ترجمة فرنسية لمارسيل مدير المطبعة الأميرية ، لتاريخ الحملة الفرنسية على مصر من تأليف عبد المهيمن ، تقع فى ٢٣١ صفحة ومذيلة بعشرين صفحة تشتمل على بعض الملاحظات الهامة من عمل فيليسيان (Félician) صراف الجيش الفرنسى •

حافظة رقم (٢٠١)

وتحتوى على ثلاث مجموعات من الوثائق مسجلة تحت الأرقام التالية :

٥ ـ مخطوط عن مصر بعد معركة هليوبوليس ، يقع فى ٢٥٤ صفحة ، عثر عليه فى أوراق الكونت رينيه ، الذى يهاجم فيه بشدة الجنرال مينو ويلقى عليه اللوم •

٦ ـ فصلة من مخطوط عن الحملة الفرنسية بمصر ، تشتمل على بعض التصحيحات بخط الجنرال سافارى ، وتشتمل على مائتى صفحة •

٧ ـ مخطوط صغير من ١٣ صفحة ، تضم بعض أحداث الفترة الممتدة من مصرع كليبر حتى جلاء القوات الفرنسية عن مصر •

حافظة رقم (٢٠٣)

تضم هذه الحافظة بعض الوثائق الخاصة بالاحتفالات التى قيمت بالقاهرة :

١ ـ توصيات القائد العام بونابرت للاعداد للاحتفال السنوى لأول فنديمير من السنة السابعة للجمهورية الفرنسية (٢٢ سبتمبر ١٧٩٨) ،

تقع فى أربع صفحات ، وملحق بها نسخة من الخطبة التى ألقاها بونابرت فى القوات بهذه المناسبة ٠

٢ ـ خطاب مؤرخ فى القاهرة في ٢١ سبتمبر ١٧٩٨م ، ومرسل من الجنرال برتييه الى الجنرال دوجا يخبره فيه بوصول الجنرال لانوس بفرقته للاشتراك فى احتفالات الأول من فنديمير ٠

٣ ـ بعض الملاحظات الخاصة باحتفالات المولد النبـــوى الشريف بخط بوريين ، ومؤرخة فى ٢٩ ترميدور من السنة السابعة (١٦ أغسطس ١٧٩٩م) . وتتضمن بعض الأشعار العربية المزودة بترجمة فرنسية ٠

٤ ـ خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٦ فنديمير من السنة السابعة (٧ أكتوبر ١٧٩٨ ،) ، مرسل من الكونت مونج الى المواطن مارسيل مدير المطبعة ، ويتضمن نسخة من الكلمة التى ستلقى فى افتتاح الديوان العام التى يرغب القائد العام بونابرت فى طبعها ، ويطلب ارسال البروفات للقيام بتصحيحها ٠

حافظة رقم (٢٠٤)

وهى تحتوى على بعض الوثائق الخاصة بفرقة الحرس الوطنى التى كونها بونابرت فى مصر ، وضم اليها أغلب الفرنسيين الذين يشغلون بعض الوظائف المدنية وجعل على رأسها « أورل » الذى كان يتولى مهمة الاشراف على مطبوعات الجيش وهى تنقسم الى قسمين :

١ ـ مجموعة من التوصيات التى أصدرها « أورل » الى أفراد هذه الفرقة ، وملحق بها ثلاثة خطابات مرسلة من الجنرال ديستان الى مارك أورل ، تشتمل على بعض الأوامر الخاصة بالشرطة وبعض الاستدعاءات ٠

٢ ـ بعض التعليمات الواجب اتباعها عند حدوث أى شغب أو ثورة من جانب الأهالى ، والأساليب المتبعة من تحذير القوات الفرنسية عن طريق طلقات المدافع وغلق أبواب القلعة ٠٠ الخ ٠

حافظة رقم (٢٠٥)

وتحتوى هذه الحافظة على بعض التقارير المالية الخاصة بالمصروفات المتعلقة بمدينة القاهرة ، فى شهور فنديمير ونيفور وبريريال وترميدور من الســـنة الثامنة (سبتمبر ـ أكتوبر ١٧٩٩ ، يوليو ـ أغسطس ١٨٠٠) ، وتحمل توقيعات : بوسيلج ، وجلوتيه (Gloutier) ، واستييف ، هذا عدا بعض التقارير الخاصة باصلاحات المصانع ، وباقتناء بعض الأدوات ، وشراء بعض المواد الضرورية لبعض المصنوعات ٠ كما تضم أيضا ٢٢٠ ايصالا / باللغة العربية عن توريد بعض الأشياء والمستلزمات ٠

حافظة رقم (٢٠٦)

وهي تضم ٣٣ وثيقة ، تتناول بعض القضايا الخاصة بالأهالى ، بعضها باللغة العربية ، والبعض الآخر قاصر على الترجمة الفرنسية ، والبعض الثالث باللغتين العربية والفرنسية في آن واحد ، وفيما يلى سرد لمحتويات هـذه الحافظة الهامة :

١ ـ التماس من أقباط حى الأزبكية الى القائد العام بونابرت بعدم التعرض لمساكنهم بالهدم ، وهو بدون تاريخ .

٢ ـ ترجمة فرنسية لثلاثة التماسات مقدمة من شيوخ القاهرة الى القائد العام بونابرت بشأن حماية الأهالى وبعض التجار ، بدون تاريخ .

٣ ـ ترجمة فرنسية لخطابين موجهين من أعيان القاهرة وعلمائها الى الباب العالى تروى قصة قهر بونابرت للمماليك ، وهما أيضا بدون تاريخ .

٤ ـ ثلاثة خطابات باللغة العربية ومذيلة بترجمة فرنسية ، موجهة من ديوان القاهرة الى الجنرال دوجا ومؤرخة فى ١٠ بريريال من السنة السابعة وفى ٨ بريمير من السنة الثامنة (٢٩ مايو ، ٣٠ أكتوبر ١٧٩٩ م) ، بشأن بعض تجار مكة الذين حضروا الى القاهرة بدون تصاريح سفر (جوازات) .

٥ ـ خطابان باللغة العربية مذيلان بترجمة فرنسية ومرسلان من مصطفى أغا أمير الانكشارية الى الجنرال دوجا بصدد طلب تصاريح سفر لبعض التجار ، وأيضا بشأن أحد الخيل الذى تم الاستيلاء عليه بدون وجـه حق ، بدون تاريخ .

٦ ـ ترجمة فرنسية لخطابين من شريف مكة الى الجنرال بوسـيلج ، مؤرخة فى ٤ فلورال من السنة السابعة (٢٣ أبريل ١٧٩٩ م) يسأله في ارسال بعض الجنود الى السويس لحماية البضائع الموجودة بها .

٧ ـ ترجمة فرنسية لخطاب مرسل من سيد حسن ، ويحمل توقيع الجنرال بوسيلج بشأن البعثة المسافرة الى سيناء ، مؤرخ فى سنة ١٧٩٩ .

٨ ـ بعض اللوائح الخاصة بمدن الصعيد مثل : جرجا ، وأسيوط ، وطيبة (الأقصر) ، وأسماء الموظفين المختصين بالبريد والضرائب ، مؤرخة فى قنا فى ١٥ جرمينال من السنة السابعة (٤ أبريل ١٧٩٩) ، وهي مدونة باللغتين الفرنسية والعربية ، ويلاحظ أن الأصل الفرنسى يحمـل توقيع الجنرال ديزيه .

٩ ـ تقارير عن حالة أسيوط ، تقع فى خمس صفحات .

١٠ ـ خطاب باللغة العربية ومذيل بترجمة فرنسية ، موجه الى الجنرال

جوليان (Jullien) حاكم منطقة رشيد ، يحمل عبارات التهنئة والأسف فى الوقت نفسه على رحيله ، وهو بدون تاريخ ٠

١١ ـ مجموعة من الوثائق تتألف من أربعة محاضر خاصة بالادعاء على الجنرال فيال بمبلغ ٥٠٠٠٠ر٥٠ مصرى ، من قبل المدعو طاهر ، تحمل توقيعات : فريان ، ورينيه ، ومؤرخة فى الاسكندرية فى ١٨ فنديمير من السنة العاشرة (١٠ أكتوبر ١٨٠١) ، هذا بالاضـــافة الى بعض الأوراق المدونة باللغتين العربية والفرنسية الخاصة بهذه القضية ٠

١٢ ـ ترجمة ايطالية لخطاب مرسل من ســـلطان دارفور الى الجنرال دنزلوه ، وبعض الوثائق الخاصة بدارفور عن حقوق سداد الضرائب الى الجنرال دنزلوه وعن البضائع المستوردة ٠ تؤلف فى مجموعها سبع صفحات ، يمكننا أن نضيف اليها خطابين ، أحدهما موجه الى الجنرال ديستان ، وبعض الايصالات التى تكون فى مجموعها ثلاث صفحات ٠

المجموعة التاسعة

حافظة رقم (٢٠٩)

وهى تضم مجموعة من المطبوعات من منشورات المطبعة الشرقية الفرنسية بالاسكندرية ، ومطبعة مارك أورل ، والمطبعة الأميرية بالقاهرة ٠ وفيما يلى تفصيل لأهم محتوياتها :

(أ) قوائم خاصة بأسعار النقود مؤرخة فى ١٨ مسيدور من السنة السادسة (٦ يوليو ١٧٩٨) ٠

(ب) وثائق خاصة بالترتيبات المتعلقة بالاستعداد لعيد الأول من فنديمير من السنة السابعة ٠

(ج) تقارير مرسلة من القائد العام بونابرت الى الوزير التنفيذى ، مؤرخة فى الفترة الممتدة من ٢٦ فنديمير الى ٢٣ ترميدور من السنة السابعة (١٧ أكتوبر ١٧٩٨ الى ١٠ أغسطس ١٧٩٩) ٠

(د) الخطب التى ألقاها كليبر فى الاحتفالات الخاصة بأول فنديمير من السنة الثامنة ٠

(هـ) تقارير خاصة بالترتيبات المتعلقة بالجلاء عن مصر ، مؤرخة فى ٩ مسيدور من السنة التاسعة (٢٨ يونيو ١٨٠١) ، تؤلف فى مجموعها

٤٨ صفحة ، مرفق بها تقرير أعد للحكومة الفرنسية عن وضع البلاد والقوات الفرنسية ، منذ ابرام معاهدة العريش حتى نهاية شهر بريريال من السنة الثامنة ، يحمل توقيع الجنرال دوماس ويقع فى ٦٥ صفحة ، وبعض الأوراق الخاصة بالحملة التى أرسلت الى سوريا ، عبارة عن أربعة تقارير من بونابرت ، وتقرير من كليبر ، مرسلة الى الوزير التنفيذى • هذا بالاضافة الى البيان الذى صدر عن الجمعية الوطنية الى الشعب الفرنسى فى جلسة ١٨ فنديمير من السنة الثالثة (١٩ أكتوبر ١٧٩٤) ، وهو مزود بترجمة عربية صادرة عن المطبعة الأهلية ، ويقع فى ٢٣ صفحة ، وخطاب من أعضاء ديوان القاهرة الى القائد العام بونابرت باللغتين العربية والفرنسية ، صادر عن باريس فى السنة الحادية عشرة (١٨٠٢ – ١٨٠٣) ، ويشتمل على ١٩ صفحة •

حافظة رقم (٢١١)

وهى تشتمل على المجموعة التالية من المطبوعات :

١ – خطب الجنرال دوجا فى أعضاء ديوان القاهرة بشأن الاستيلاء على العريش ، ورفع الأعلام ، والصلاة بالجامع الأزهر ، مؤرخة فى السنة السابعة (١٧٩٨ – ١٧٩٩) •

٢ – كلمة كليبر فى الجنود عقب مقتل دنويه (Denoyer) •

٣ – خمس خطب للجنرال « مينو » فى المصريين ، وفى أهالى القاهرة ، وفى بعض الشيوخ ، بعضها يحرم على الأهالى الخروج من مدينة القاهرة ، وهى مدونة باللغتين العربية والفرنسية •

٤ – تقارير بشأن الجلاء عن مصر • مؤرخة فى ٨ مسيدور من السنة التاسعة (٢٧ يونيه ١٨٠١م) تحمل توقيع الجنرال بليار ، مرفق بها نداء من نفس الجنرال الى أهالى القاهرة من مختلف الأديان والطوائف ، بعد توقيع معاهدة الانسحاب ، باللغتين العربية والفرنسية •

٥ – بعض الأوراق الخاصة بحملة بونابرت على مصر ، وتقرير مرسل من بونابرت الى الوزير التنفيذى عن حملته على مصر ، وعن استعداده للعودة الى فرنسا ، وبعض الكلمات الفرنسية وما يقابلها بالعربية للألفاظ الشائعة والمستخدمة فى الحياة اليومية ، وتقرير تورنفيل (Tourenville) الى بونابرت عن سجون مصر ، وبعض المطبوعات الأخرى المتعلقة بمصر وبالجيش الفرنسى بالشرق •

حافظة رقم (٢١٢)

وهى تتألف من مجموعة من الخطب والبلاغات العربية ، صادرة عن المطبعة بالقاهرة ، أحدها يتوجه نص فرنسى وهو عبارة عن بلاغ الى ديوان القاهرة

بمناسبة رحيل القائد العام بونابرت الى قاطية (Kattieh) • وتؤلف فى مجموعها ست وثائق ، أربع منها يحمل شعار الجمهورية الفرنسية •

حافظة رقم (٢١٦)

وهى تضم بعض النشرات الدورية الصادرة عن استيف الصراف العام للقوات الفرنسية بمصر ، تؤلف فى مجموعها ١٥٠ منشورا ، ومؤرخة فى الفترة الممتدة ما بين السنتين السابعة والثامنة (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ ، ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠) ، هذا عدا تقرير شامل عن حالة مصر المالية منذ الغزو العثمانى لها على يد السلطان سليم الأول حتى استيلاء بونابرت عليها ، أعده الكونت استيف ، وهو مهدى الى الامبراطور وطبع بعناية مارسيل مدير المطبعة الامبراطورية فى سنة ١٨٠٩ •

حافظة رقم (٢٢١)

وهى تضم ما يقرب من ١٠٢ رسما وصورا لبعض الأشخاص المدنيين والعسكريين ، ممن اشتركوا فى الحملة الفرنسية على مصر ، أغلبها رسم بالحبر « الشينى » ، وبعضها ذو نسخ متكررة •

مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي

للدكتور أبو القاسم سعد الله

استاذ التاريخ الحديث بجامعة الجزائر

رأيت أن أسهم فى ندوة الجبرتى ببحث عن مؤرخ جزائرى معاصر له ، وهو **الشيخ أبو راس الناصرى** • فكلاهما عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر الميلادى • وقد مات أبو راس الناصرى سنة ١٨٢٣ عن عمر يناهز التسعين سنة ، بينما مات الجبرتى سنة ١٨٢٥ وقد تجاوز السبعين بعام واحد • ومن جهة أخرى سمى الجبرتى كتابه (**عجائب الآثار فى التراجم والأخبار**) ، وأطلق أبو راس النــــاصرى على كتابه اسم (**عجائب الأسفار ولطائف الاخبار**) • وكتب الجبرتى كتابا آخر هو (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) ، وكتب معاصره أبو راس كتابا آخر هو (**أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس**) • وكلا المؤرخين تتلمذ على الشيخ **مرتضى الزبيدى وأرخ لوفاته** ، والتقى ودرس أبو راس **فى مصر** على عدد من العلماء كانوا موضع عناية الجبرتى • ومع ذلك فاننا لا نجد اسم أبى راس فى كتاب الجبرتى ، ولا اسم هذا فى كتاب أبى راس • فهل **التقى** المؤرخان شخصيا وتعارفا ؟ ذلك مالا نستطيع تأكيده الآن • ومهما يكن **الأمر** ، فان أهمية الرجلين فى بلديهما تفرض علينا معالجة الموضوع هنا ولو بشىء من الاختصار (١) •

عاش أبو راس فترة قلقة شبيهة بالفترة التى عاشها معاصره الجبرتى ؛ فقد حضر **فتح وهران الثانى** واستعادة هذه المدينة من **الاحتلال الاسبانى** • وكان لهذا الحادث أثر كبير فى نفسه فألف فيه كتابه (عجائب الأسفار) ، ولم تلبث الجزائر أن شهدت ثورة الطريقة الدرقاوية على الحكم العثمانى ، وكانت هــذه الحادثة سببا فى أزمة اقتصادية حلت بالبلاد ، ولا سيما المنطقة التى كان فيها

(١) أعد الآن كتابا عن (تاريخ الجزائر الثقافى خلال العهـــد العثمانى) • يحتـــل فيه أبو راس الناصرى مكانا بارزا •

أبو راس • وقد خص أبو راس هذه الثورة بتأليف سنذكره فيما **بعد** • **وتجول أبو راس فى المغرب وتونس** ، وكان كلاهما غير مستقر سياسيا ، فتأثر بذلك ، وقد خص المغرب بعدة تآليف أيضا • **وحج مرتين** ، وشهد **فى المشرق** حدثين بارزين : الأول أنه دخل **مصر قبل الحملة الفرنسية فى الحجة** الأولى ، ودخلها بعد **هذه الحملة فى الحجة الثانية** ، والتقى بعلمائها ورأى آثار الحملة ، ولعله قد تأثر بها ، ولعل كتابه (أقوال التأسيس) مستوحى من هذه التجارب • أما الحادث الثانى فهو **الحركة الوهابية التى روى عنها أشياء فى رحلاته** ، وتناظر مع بعض مؤيديها وعرض بهم • والشخصية السياسية التى أخذت بلب أبى راس الناصرى محمد الكبير ، **باى مدينة معسكر ، ثم مدينة وهران** بعد فتحها • فقد أنعم هذا الباى عليه وقدر علمه وخصه أبو راس من جهته بالشعر والدعاء والتأليف • وكان ضياع الأندلس جرحا فى قلب أبى راس الى أن استعاد الجزائريون وهران من الأسبان ، فاعتبر أبو راس ذلك فتحا مبينا ، وتمنى **أن** تستمر موجة الفتح حتى **استعادة** الأندلس •

ورغم شكوى أبى راس من تدهور العلم فى عصره ، فان كتاب هذه الفترة يذكرون شواهد كثيرة على تقدم المعارف وعناية السلطة بها ، ولا سيما الباى محمد الكبير • فقد شكا أبو راس من ضعف الحياة العلمية على عهده بقوله : « **انى فى زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده** ، وسدت مصادره وموارده ، وقلت دياره ومراسمه ، وعفت أطلاله ومعالمه لا سيما فن التاريخ والأدب ، وأخبار الأوائل والنسب ، وقد طرحت فى زوايا الهجران ، ونسجت عليها عناكب النسيان ، وأشرفت شمسها على الأفول ، واستوطن فحولها زوايا الخمول ، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل ، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل •• (٢) » •

غير أن معاصريه يتحدثون عن ازدهار الحياة العلمية على يدى **الباى محمد** الكبير • فهذا الرجل كان يشجع العلماء بعطاياه ويجيزهم بالمال ونحوه • ولم يقتصر ذلك على علماء الجزائر كأبى راس ، ولكن تجاوزهم الى علماء المغرب والحرمين ومصر ، وحتى علماء آل عثمان • ومن علماء مصر **الذين نالوا احسان الباى محمد الكبير ، الشيخ مرتضى الزبيدى** ، ومحمد الأمير ، وكلاهما أستاذ لأبى راس كما سنرى لذلك لا نستغرب أن يكون الشيخ مرتضى من بين مادحى هذا الباى سنة ١٢٠١ هـ (٧٨٦ م) (٣) • وكان الباى يكرم العلماء والمدرسين والأيمة والأدباء والمؤدبين • ومن بين هؤلاء أبو راس ، **الذى**

---

(٢) عجائب الاسفار ؛ مخطوط ، ورقة ٢ •

(٣) ابن سحنون الراشدى : (الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى) ؛ مخطوط باريس ، ورقة ١٦ • وفيه رسالة الشيخ مرتضى الى الباى محمد الكبير وهى من النثر المسجوع ؛ ومعها بعض الأبيات •

يذكر أن الباي قد شمله بعطفه وعينه في وظيف ثابت ، وأعطاه مالا بلغ مائة محبوب (٤) • ويذكر أبو راس مدرستين على الأقل للتعليم العالي في عهده : احداهما **المدرسة القشاشية بمدينة الجزائر** ، وثانيتهما المدرسة **المحمدية في معسكر** بالاضافة الى المساجد التي لم تكن تخلو منها مدينة ، باستثناء مدينة وهران التي لام أبو راس الاسبان على طمس معالم مساجدها بقوله : « درسها الكفرة وعفوا رسمها » (٥) • ومع ذلك كانت اللغة العربية ضعيفة ، فلم تكن لغة رسمية يحفظها الأمراء والحاشية وظلت محصورة في دوائر الدرس والقضاء • لذلك شاع اللحن حتى بين الأدباء والنحاة ، وقد اعترف أبو راس بأنه كان يلحن في درسه في النحو ، حتى احتج عليه نحاة مجلسه (٦) • وقال عن الشعر الملحون :« وما في الشعر الملحون من باس ، فانه في هذا العصر لسان الكثير من الناس » (٧) •

ولد محمد بن أحمد عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس الناصري في **بيئة فقيرة ، وظل الفقر يطارده حتى** قضى نحبه بعد عمر طويل • فقد ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادي) قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري • ثم توجه به والده الى سهل منيجه قرب عاصمة الجزائر ، وهناك فقد والدته وهو صغير • فعاد والده الى حوز مجاجة ، واشتغل هناك بقراءة القرآن وتعليم الصبيان ، وتزوج عدة نساء حتى وافاة الأجل فدفن بمكان يعرف بأم الدروع • وبذلك فقد أبو راس والديه وهو طفل • وقد كفله أخوه عبد القادر الذي توجه به الى المغرب حيث حفظ أبو راس القرآن الكريم • ويروى عن نفسه أنه كان وهو في حدود العاشرة ، حافي القدمين عاري الجسم الا من أسمال بالية • وكانت له أخت تدعى حليمة ، روى عنها بعض الأخبار ، أما والدته فتدعى زولة ، وكانت ـ حسب وصفه لها ـ كرابعة العدوية ، من بيت علم وصلاح • ولكن أبا راس لم يلبث أن عاد الى معسكر ، وكان لا يملك شيئا من المال فالتقى هناك بالشيخ عبد القادر المشرفي الذي كانت شهرته العلمية واسعة ، فتتلمذ عليه أبو راس ، وكان يغسل ثيابه وثياب أهله • وعندما شعر بشيء من الاستقلال العلمي خرج الى جوار معسكر عند أخيه ، وتزوج واشتغل بالتدريس وتولى القضاء •

واستمر على هذه الحال حوالي سنتين ، الى أن أحس بضعف معلوماته وتيقن أن البادية تضعف العلم ، فعاد الى معسكر حيث مكث ستا وثلاثين سنة ، وهو يمارس مهنة التدريس • وقد اشتهر أمره بين الناس لا في الجزائر فحسب ولكن في أقطار المغرب والمشرق أيضا • **وبلغ من شهرته أن**

---

(٤) أبو راس (فتح الاله ومنته) ، مخطوط ص ٦١ •

(٥) أبو راس (عجائب الاسفار) ؛ ورقة ٧٨ و٧٩ ، مخطوط •

(٦) أبو راس (فتح الاله ومنته) ، مخطوط ، ص ٦١ •

(٧) أبو راس (شرح العقيقة) ؛ مخطوط ، ص ٢ •

اجتمع عليه أحيانا أكثر من ٧٨٠ طالبا • وهذا ما جعل « أمراء بلادنا » يخصصون له كرسيا يستعين به على الدرس ، لازدحام الناس عليه • وقد رشحه شيخه ، عبد القادر المشرقي ليكون خليفة له في الدرس • وكفوه حاجاته من القمح والشعير واللحم والزيت والدراهم •

وفي سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) ذهب للحج لأول مرة ، والتقى في طريقه بعلماء الجزائر وقسطنطينة وتونس ومصر ، والحرمين والشام • وأثناء عودته سنة ١٢٠٥ هـ سمع وهو في أثناء ذلك يؤلف كتابه (عجائب الأسفار) الذى انتهى منه في السنة التالية (١٢٠٦) • **وقد تقلد بعدها وظائف الفتيا والقضاء** والخطابة ، ولكنه عزل منها لأسباب نجهلها حتى الآن ، سنة ١٢١١ فاشتغل بالتأليف • ثم توجه الى المغرب ووفد على السلطان مولاى سليمان ، واشتهر أمره بفاس ولقبه علماؤها بالحافظ ، وقد رغبه السلطان في البقاء هناك ولكنه اعتذر • ولم يكد يطمئن حتى وقعت حروب درقاوة وحل بالجزائر الطاعون ، فعانى أبو راس من الجوع والنكبات ما ظهر على صحته ونفسه ، فاعتزل الناس وترك الكتب والتأليف • وقال بهذا الصدد : « ولو لم يكن الا سكنى حاضرة كبادية ، فناهيك من معذرة بادية ولا سيما من اشتد فيها عسره ، ولم يساعفه دهره ، فكيف يرتفع ذهنه الى التصنيف ، أو أمله الى وضع تأليف » ! وضاق بالناس حتى **قال فيهم : « الناس داء عضال ، لا يتخلص منهم على كل حال ، سهامهم مسمومة ، وخلق أكثرهم مذمومة ، لا ينظرون بعين الانصاف ، ولا يملون** من الانتقاد والخلاف ، يسقون من أفواههم العسل ، وفي قلوبهم السم الزعاف » (٨) • ولكن أبا راس لم يستطع الابتعاد عن التأليف والتدريس وتاقت نفسه الى الحج مرة أخرى لعله يتنفس من الضيق الذى كان فيه • ويعرف مدى شهرته التي قال أنها قد سبقته في بلاد المشرق • فحج سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١) ، ولم يعد الا في السنة التالية • ولا شك أن هذه الحجة قد عادت عليه بفائدة علمية كبيرة بعد عشرين سنة قضاها بعيدا عن الاتصال بعلماء المشرق ، وفيهم علماء مصر وتونس (٩) •

وبالاضافة الى الشيخ عبد القادر المشرفي درس أبو راس في الجزائر على مشايخ كثيرين ، كما التقى وتذاكر مع عدد آخر منهم • ومن هؤلاء : محمد الصادق آفغول « شيخ الاسلام الحافظ الزاهد » ، وأحمد بن نافلة ، ومحمد بن جعدون ، قاضي مدينة الجزائر ، والقاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني ، والمفتي أحمد بن عمار ، وعبد القادر بن السنوسي بن دحو الملقب بالحافظ ، والقاضي محمد بن مالك ، والحاج على ابن الأمين مفتي مدينة الجزائر ،

---

(٨) أبو راس (شرح العقيقة) ، ص ٦٢ •

(٩) ترجم أبو راس لنفسه في كتابه (فتح الاله) ، مخطوط ؛ ترجمة وافية ، ولكنه يصل فيه الى حجته الثانية ؛ أى قبل وفاته بحوالى عشر سنوات • وكان في ذلك متأثرا بالسيوطى الذى ترجم لنفسه أيضا في كتاب سماه (نزول الرحمة في التحدث بالنعمة) ، وكان مثله يتيما وكثير التآليف •

والمفتي محمد بن الحفاف ، والحاج محمد بن الشـــاهد « عالم الجزائر وقطب رحاها .. ففيها علامة حافظا بارعا نظارا مفتيا مدرسا محققا .. » ومحمد بن الفقون ، والحاج على الونيسى الشهير بالحفظ والفقه والتدريس ، ومشى مع الشيخ أحمد العباسي الذى كان « واسع العلم فصيح القلم .. أرق الناس طبعا .. » ولقى بتونس محمد بن المحجـــوب ، وصالح الكواش وابراهيم الرياحى ، وأحمد بيرم . ومن علماء مصر خاصـــة ، ويذكر الشيخ مرتضى الزبيدى ، وعبد الله الشرقاوى ، ومحمد الأمير وقد ذكر عددا آخر من علماء المشرق والمغرب منهم : عبد الرحمن القادلى ، وعثمان الحنبلى ، وعبـــد الملك القلعي ، وعصمان الشامى .

وممن أجازه من علماء مصر خاصة ، الشيخ مرتضى الذى **وصفه بالحافظ** . وقد جمع أبو راس ما درسه على الشيخ مرتضى فى كتاب بعنوان « السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشـــيخ مرتضى » . وأجازه **عبد الله الشرقاوى** وأطلق عليه اسم « شيخ الاسلام » . كما أجازه الشيخ محمد الأمير الذى قال عنه أبو راس : انه كان « مازونيا نجارا ، مصريا منشأ ودارا » وفى الاسكندرية زار أبو راس ضريح أبى العبـــاس المرسى ، وتحادث مع أديب الاسكندرية وشاعرها محمد المسيرى . ويبدو أن الشيخ مرتضى كان له مكانة بارزة لدى أبى راس . فقد درس عليه أثناء ذهابه الى الحج ثم درس عليه عند عودته من الحج سنة ١٢٠٥ هـ ، أى قبل وفاته بخمسة أشهر ، وكتب الى حاكم السويس فى شأن أبى راس . وروى هذا أنه جرى بينه وبين شيخه مرتضى « حكايات ونوادر ، ومفاكهة ، ومباحث فى علوم الحديث والتاريخ وغير ذلك » . وكان ذلك قبل الاجازة التى تحدثنا عنها (١٠) .

وكان أبو راس يساجل العلماء ويناظرهم ويجيب على أسئلتهم . وقد ذكر فى ذلك وقائع ومباحث جرت له معهم ، سواء فى الجزائر أو فى تونس أو فى مصر أو غيرها من البلاد التى زارها . وله كتاب سماه (لب أفياخى فى عدة أشياخى) ذكر فيه شيوخه ومن أجازه منهم والألقاب التى حصل عليها منهم ، والمناظرات التى جرت مع بعضهم . وقد سار فى نفس تيار العصر فذكر أنه شريف الأصل ، ولكن اذا كنا لا نشك فى موهبته كنسابة ، فاننا نشك فى نسبته الى الشرف . والأسئلة التى وجهت الى أبى راس وأجاب عليها تدل على أهميته لدى معاصريه من جهة ، وشهرته وكفاءته الفقهية من جهـــة أخرى .

فقد ذكر أنه سئل بنبيبة عن قول الغزالى : ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وسئل بالشام عن أصعب مسألة فى التوحيد ، وبمكة عن أصل كل علم وما سبب تدوينه ، وسئل بمصر عن التكوين ، بالقدس عن الوحدانية والتوحيد ، وبالمدينة عن العقائد ، وبغزة عمن تكلم فيه العلماء من الكفر الى

(١٠) انظر عجائب الأسفار ؛ ورقة ١٠٨ — ١١٠ . وفتح الاله ، ص ٣٦ — ٤٣ و٦١ — ٧٣ . انظر أيضا فهرس الكتانى ، جـ ١ ص ١٠٤ و١٠٥ .

القطبانية ، وسئل بتونس عمن انتقل من مذهب الى مذهب آخر ومن انتقل الى الاجتهاد ، وبقسنطينة عن قول الحسن بن زياد : انى واكل الميتة وأحب الفتنة وأكره الحق وأشهد بعالم أراه ، وسئل بمجلس علماء الجزائر فى الجامع الأعظم عن حكم القهوة والدخان ، وسئل بفاس عن قول صح للشارب فى مأدبة عظيمة حضرها العلماء ، وبتطوان عن قوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) ، وبتلمسان عن نطق كلمة (رشد) بكسر الشين أو فتحها ·

وكانت اجابته تعتمد على العقل والنقل · وروى أنه خلال حجة الثانى (١٢٢٦ هـ) لقى علماء الوهابية فى الحجاز وتناظر معهم ، وحكم عليهم حكما قاسيا ، فقال : « ظنى انهم حنابلة الذهب » ، ولكنه بعد أن تناظر معهم قال « علمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة فى الفروع وأما فى العقائد فهم على ما عليه الامام أحمد » (١١) ·

ومن أخبار أبى راس مع علماء مصر ، أنه كان بحضرة شيخ الأزهر أثناء حجه الثانى وكان بالمجلس جماعة من العلمـــاء فجرى بينهم ذكر الأندلس وما جرى لأهلها ، فقال شيخ الأزهر الحمد لله الذى عوضنا عنها بالقسطنطينية فأجاب أبو راس بأنه كذلك يحمد الله ، ولكنه علق على ذلك قائلا « ان لم تكن ابل فمعز » مشيرا الى انه مهما كان العوض فلن يغنى عن الأندلس شيئا فى نظره (١٢) ·

ولأبى راس كتب كثيرة فى التاريخ وغيره بعضها موجود وبعضها مفقود · وقد ذكر بعضهم أن تآليفه تكاد تزيد على عدد أيامه ، وحددها أحد تلاميذه بأنها تزيد على الخمسين كتابا (١٣) · ويهمنا من هذه التآليف أعماله التاريخية ، ومن هذه الأعمال كتب فى التراجم ، وأخرى فى التاريخ العام ، وثالثة فى الرحلات ، ونحو ذلك · وقد ذكر هو بعضها فى كتابه (فتح الاله) تحت باب « التاريخ » · واعترف بأن أحدا لم يفقه فى كثرة التآليف سوى السيوطى ·

وهذه قائمة بأعماله التاريخية سواء ما ذكره هو أو ما نسب اليه :

١ ــ زهرة الشماريخ فى علم التاريخ ·

٢ ــ در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة (١٤) ·

٣ ــ درء الشقاوة فى حروب درقاوة ·

٤ ــ الوسائل الى معرفة القبائل ·

---

(١١) فتح الاله ؛ ص ٩٤ ·

(١٢) أبو راس ، شرح الحلل السندسية ؛ مخطوط ، ورقة ٧٧ ·

(١٣) الكتانى ؛ الفهرس ؛ ج ١ ، ص ١٠٥ أما أبو حامد المشرفى فقد قال ان تآليفه أو شكت نقلا عن ابن الشنوسى ، أحد تلاميذ أبو راس · أن تزيد على عدد أيامه ، انظر (ذخيرة الأواخر والأول) : مخطوط ، ص ٨ ·

(١٤) هكذا ذكره المؤلف ، لكن ابن سودة فى (دليل مؤرخ المغرب) ذكره هكذا (الاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة) ، ص ٤٨٨ ·

٥ ـ الحلل السندسية فى شأن وهران والجزيرة الاندلسية ٠٠ وهو قصيدة تاريخية (١٥) ٠

٦ ـ ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ٠

٧ ـ حلتى ونحلتى فى تعداد رحلتى ٠

٨ ـ فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربى ونعمته ٠

٩ ـ عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (١٦) ٠

١٠ ـ ذيل القرطاس فى ملوك بنى وطاس ٠

١١ ـ الزمردة الوردية فى الملوك السعدية

١٢ ـ مروج الذهب فى نبذة من النسب ومن الى الشرف انتمى وذهب ٠

١٣ ـ الخبر المعلوم فى كل من اخترع نوعا من أنواع العلوم ٠

١٤ ـ القصد (أو الخبر) المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب ٠ وهو الشرح الثانى للحلل السندسية ٠

١٥ ـ روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان ، وهو الشرح الأول للحلل السندسية ٠

١٦ ـ تحفة الاخوان فى ارهاط وقبائل الجان (١٧) ٠

١٧ ـ القصص الفتانة فى ذكر البربر وزناته (١٨) ٠

١٨ ـ الزهرة السموية (؟) فى أخبار الملوك العلوية ٠

١٩ ـ العز المتين فى ذكر ملوك بنى مرين ٠

٢٠ ـ أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس (١٩) ٠

٢١ ـ ايضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس (٢٠) (عن علماء أغريس) ٠

ولا شك أن بعض هذه الكتب مطول وبعضها مقصر ٠ وقد وقفنا على بعضها مخطوطا مثل (فتح الاله) الذى رأينا منه نسختين ، و (عجائب الأسفار) الذى رأيناه منه عدة نسخ ، وكذلك (الحلل السندسية) وشروحها ٠ كما رأينا بعض كتبه فى الأدب مخطوطا أيضا (كشرح العقيقة) و (أسماع الصم) ٠ وأبو راس كان كثير الاطلاع ٠ ويعتبر من أهم المؤلفين فى الجزائر العثمانية ٠ وان تنوع موضوعات كتبه يدل على تنوع ثقافته وغزارة مادته ٠

---

(١٥) ترجمها ونشرها الجنرال فور بيغى بعنوان :
Les vêtements de soie fine, Alger, 1903.

(١٦) نشرت بعضه جريدة (المبشر) بالعربية ؛ مثلا تاريخ أول يناير سنة ١٨٨١ وما يليه ٠ ترجمة ونشرة السيد أرنو بعنوان :
Voyages extraordinairés... sur l'Afrique Septentrionale, Alger, 1885.

(١٧) نسب اليه فى (المجلة الأفريقية R.A) سنة ١٩٢٥ ، ص ١٤٦ ٠

(١٨) نسبة اليه ابن سودة فى (دليل مؤرخ المغرب) ص ١٤٠ ٠

(١٩) نسبه اليه نفس المصدر ، ص ٤٩٠

(٢٠) نسبه اليه السيد غان L. Guin فى (المجلة الأفريقية R.A.) سنة ١٨٨٧ ؛ ص ٧٢ ـ ٨٠ ٠ وذكره المؤلف نفسه فى (فتح الاله) ولكنه عده من كتب التصوف ٠

ولكنها في عصر التخصص قد تدل على ثقافة عامة فقط ، قوامها : الفقه والأخبار والتراجم • وان استعراض مؤلفات أبي راس في الفنون الأخرى يبرهن على ما نقول • فقد كتب في التفسير والأسانيد والمذاهب والتوحيد والتصوف والنحو والبيان والمنطق واللغة والأدب ، وله قصائد في أغراض شتى أهمها التاريخ والمدح • وكان أبو راس يمتاز بالحافظة القوية حتى لقبه معاصروه « بالحافظ » وأطلق عليه مجيزوه اسم حافظ المغرب الأوسط (الجزائر) ، وقال عنه تلميذه ابن السنوسي بأنه كان متقنا « لجميع العلوم عارفا بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن مسألة الا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه » ، وقال عنه أيضا بأنه كان لا يراجع الدرس سوى مرة واحدة (٢١) • أما أبو حامد المشرفي فقد شبهه بأسد بن الفرات في المذهب المالكي • وقال عنه أنه ألف في سائر الفنون (٢٢) •

والى جانب الفقه والأخبار يعتبر أبو راس من كبار النسابة • وقد رأينا أنه ألف في الأنساب بعض الكتب • ورأيت له مادة غزيرة في أنساب قبائل المغرب العربي ومواطن كل قبيلة وأصلها وفروعها • وقد لاحظ هو في مقدمة كتابه (عجائب الأسفار) ضعف اهتمام علماء عصره بالنسب فقال : « ان امتياز النسب اندرس في هذا الزمان ، فلا يكاد يتفق فيه اثنان ، حتى يقع اختلافا كثيرا (كذا) في الأمة الواحدة لاختلاط الأنساب وتباين الدعاوى » لذلك ركز في كتابه المذكور على أحوال النسب « على حسب ما اتفق لي من العجم والعرب » (٢٣) •

واعتنى أبو راس أيضا بعلم التاريخ عنايته بعلم الأنساب • ولا شك أن الصلة وطيدة بين العلمين • ورغم أننا لم نعثر على كتابه (زهرة الشماريخ في علم التاريخ) الذي يدل عنوانه على تخصصه بما يسمى اليوم (بالاستروغرافيا) ، فان ما ذكره في مقدمة كتابه (عجائب الأسفار) يبرهن على فهمه لدور التاريخ بين العلوم الأخرى ودور المؤرخ بين الكتاب الآخرين • فقد ذكر هناك ما يلي : « ان البحث من علم التاريخ ممن تقدم شأن الأدباء الأفاضل من أولي بصيرته ، وقد اعتنى به أهل كل طيقة وجهابذة كل ملة من صلحاء السلف وحذاق الخلف في كل عصر عصابة ، هم أهل الاصابة ، فألفوا وأفادوا وصنفوا وأجادوا •• » ، واستعرض بعد ذلك أسماء من اهتم أو كتب في التاريخ من علماء المسلمين كأبي نعيم ، والبلاذري والذهبي ، والمسعودي ، وابن الخطيب ، والمقريزي ، وابن خلدون ، والسيوطي « ممن لا يحصى ويعد ، ولا يدخل تحت حصر وحد •• » • وذكر أيضا أسماء من ألف في التاريخ قبل الاسلام مثل داهر الفارسي ، وابن كريون الاسرائيلي ، وهرشيوش الرومي ، وسابق بن سليمان

---

(٢١) الكتاني ، الفهرس ، ج ١ ، ص ١٠٥ ؛ نقلا عن ابن السنوسي •

(٢٢) المشرفي ؛ (ذخيرة الأواخر والأول) ص ٨ ، مخطوط •

(٢٣) أبو راس ، (عجائب الاسفار) ؛ مخطوط ، ورقة ٣ ـ ٤

المطماطي البربري (٢٤) • ويبدو أن أبا راس كان مقلدا في ذكر هذه السلسلة من المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو من أمم أخرى •

ومن كتب أبي راس التي وقفنا عليها والتي تدخل باب التاريخ ، رحلته المسماة (فتح الاله ومننه) ، وقد سبق أن قلنا أننا رأينا نسختين من هذه الرحلة الهامة • وقسمها أبو راس الى خمسة أبواب : تحدث في الأول عن ابتداء أمره من طفولة وتعلم وحالة الأسرة وزواجه وحجاته • وتحدث في الباب الثاني عن شيوخه والعلماء الذين ناظرهم أو التقى بهم أو أجازوه ، ابتداء من والده ومرورا بعلماء الجزائر والمغرب وتونس ومصر والحجاز والشام • وخص الباب الثالث برحلته الى المشرق وغيره ، لعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه أحيانا اسم (حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي) مما جعل بعضهم يذكره وكأنه كتاب خاص برحلات أبي راس • وتناول في الباب الرابع الأسئلة التي وردت اليه أ ألقيت عليه أثناء تنقلاته كما ذكر الأجوبة عليها • أما في الباب الخامس فقد ذكر فيه تآليفه مرتبة حسب موضوعاتها ومادتها • وقد جاء في آخر الكتاب ما يدل على كبر سنه حيث قال ان الساعة أزفت وان أطيب العمر قد ولى ، ولكن ليس هناك ما يدل على تاريخ تأليفه • ومهما يكن من أمر فان أبا راس قد ألف كتبا أخرى بعد (فتح الاله) مثل (أسماع الصمم) الذي لم يذكره في تآليفه ، والذي انتهى منه سنة ١٢٣٤ ، أي حوالي خمس سنوات فقط ، قبل وفاته • غير أننا نجد أن آخر تاريخ أشار اليه أبو راس في (فتح الاله) هو سنة ١٢٢٧ هـ وهي السنة التي عاد فيها من الحج للمرة الثانية •

والواقع أن كتاب (فتح الاله) يعد ترجمة شخصية ذاتية لأبي راس • فمنه نعرف أشياء كثيرة عن نفسه وأحوال عصره وتراجم عدد من العلماء المعاصرين له سواء كانوا أساتذة له أو زملاءه وهو كتاب غني بالأخبار لا عن الجزائر وحسب ، ولكن عن المغرب العربي والمشرق أيضا • وهو من الكتب الضرورية لفهم شخصية وثقافة أبي راس الناصري • وقد ذكر أنه سار فيه على نهج السيوطي الذي ألف كتابا ترجم فيه لنفسه • كما اقتدى في رحلاته بالرحالة المغاربة أمثال : ابن رشيد ، وابن مرزوق الخطيب ، والعياشي ، ومحمد بن ناصر الدرعي (٢٥) •

والكتاب الذي اشتهر به أبو راس لدى الباحثين حتى الآن هو (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) وأصل هذا الكتاب قصيدة تاريخية نظمها أبو راس بمناسبة فتح وهران الثاني على يد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير ، وسماها (نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان) • وقدمها للباي المذكور فاستحسنها ولكنه طلب منه أن يشرحها شرحا « يظهر لباب تراكيبها الضافية » ويوضح ما جاء فيها من اشارات تاريخية وأخبار في الأنساب ووقائع وأسماء • وقد ذكر أبو راس في البداية

---

(٢٤) نفس المصدر ، المقدمة ، ومدح علم التاريخ والأخبار في مقدمة شرحه للحلل السندسية بقوله انه « زهر الشمساريخ •• تحفة المجالس ، والمغني عن الأنيس والمجالس » وبين خطأ من ادعى بأن علم التاريخ علم لا ينفع وجهالة لا تضر ، وكذلك خطأ من قال « كذب النسابون » •

(٢٥) أبو راس ، فتح الاله ؛ ص ٦١ وما بعدها •

أنه اختار لقصيدته قافية السين لأن معظم الأمراء والأدباء يفضلونها • والغالب أن أبا راس نظم القصيدة سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠م) أثنــاء حروب الجزائر وأسبانيا على وهران • وهو يذكر أنه بينما كان عائدا من حجته الأولى عن طريق البحر ، سمع وهو بجزيرة جربة قرب تونس بخبر الجهاد ، فأسرع بالعودة الى مركز القتال ليشارك في الجهاد بنفسه • واهتزت عاطفته بما رأى من نصر للمسلمين بعد أن مكث الأسبان في ثغر وهران ثلاثة قرون ، وعادت له ذكريات ضياع الأندلس ، فتمنى لو أن النصر شمل الجزيرة الأندلسية أيضا • ولكن ما تحقق للمسلمين على يد الباي محمد الكبير جعله يسجل الأحداث التي جرت أمام عينيه في قصيدة ثم يعود اليها بالشرح ، حتى اكتمل لديه كتاب كبير في حوالى ١٨٧ ورقة •

ولم تكن هذه أول مرة يكتب فيها أبو راس في التاريخ • فقد كان كثير الحفاظ لأخبار السابقين وشديد الولع بتسجيل الحوادث الماضية • وكان ولوعا بالقراءة في تاريخ الاسلام والأندلس والمغرب • وكان أستاذه عبد القادر المشرفي ممن شهد عودة الأسبان الى وهران ، بعد أن كان المسلمون قد استعادوها لفترة قصيرة على يد الداي محمد بقطاش والباي مصطفى بوشلاغم • ولا شك أنه روى له ما شاهده كما روى له والده وشيوخ مازونه ومعسكر الذين تتلمذ عليهم • وكلهم قد تأثروا بحوادث القرن الثامن عشر الميلادي والثاني عشر للهجرة • وكان الباي محمد الكبير نفسه قد جمع حوله العلماء والشعراء كما سبق أن أشرنا • ومن هؤلاء من كان كثير الاهتمام بحوادث العصر كابن سحنون الراشدي الذي سجل في كتابه (الثغر الجمانى) أخبار الثورة الفرنسـية ونحوها • ويذكر أبو راس أنه كان قد خاض في علم التاريخ ، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية فخمدت قريحته وضعفت عزيمته • فهو يقول : « واني قد خضت في هذا الفن (التاريخ) قديما وضفت به أديما ، ولم أزل في خدمته مستديما ، حتى كثرت عندي رقاعه ، وامتلأت بقاعه ، وصارت نفسي تحدثني بالتدوين ، والانخراط في سلك المؤلفين » (٢٦) • ويظهر هــذا النص أن أبا راس لم يكن دخيلا على الكتابة التاريخية ؛ فقد كان جماعا للأخبار والوثائق ، كثير الخوض في مسائل التاريخ وحوادثه ورجاله ونصوصه •

وكانت فرصة التدوين التاريخي عند أبي راس عندما حركه صــوت الجهاد ، الذي قال ان الناس كانوا يتحدثون عنه طول الطريق من تونس حتى وهران • وقد أنهى كتابه (عجائب الأسفار) في سنة واحدة ، لأننا نجد في نهاية المخطوط أن المؤلف فرغ منه سنة ١٢٠٦ هـ • والكتاب في جزئين ، يبدأ الجزء الأول من الورقة الأولى الى ورقة ٨٠ ، ويبدأ الجزء الثاني من ورقة ٨١ الى نهاية الكتاب وهو ورقة ١٨٧ حسب مخطوطة الجزائر (٢٧) • والكتاب غير مقسم الى أجزاء أو أبواب أو فصول ، ولكنه يخضع لتقسيم الأفكار أو الموضوعات

---

(٢٦) أبو راس ، عجائب الأسفار : مقدمة المخطوطة •

(٢٧) أما نســخة باريس فتقع في ١٩٤ ورقة •

التى يعبر عنها كل بيت من أبيات القصيدة ، فكأن كل بيت عنوان لفصل • وهذه الطريقة قديمة لدى الشراح ، وقد اتبعها أبو راس نفسه فى كتبه الأخرى التى رأيناها مثل (شرح العقيقة) و (أسماع الأصم) ، ولكنه لم يتبعها فى كتابه (فتح الاله) الذى قسمه الى أبواب كما سبق أن ذكرنا • وقد قدم المؤلف لكتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة علم التاريخ ، وتاريخ التدوين التاريخي عند المسلمين وغيرهم ، وعن الدافع وهو عودة وهران الى الجزائريين على يد الباى محمد الكبير ، وعن الغرض من الكتاب وهو تسجيل فتح وهران ومدح من فتحها ، وعن العنوان الذى اختاره للكتاب وهو (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) ثم ذكر أنه قسمه الى جزئين « تكلمنا فى هذا الجزء الأول على انشاء وهران وما تداولها من الدول ومادهاها من الأمور العظام الطوام ، والنوائب العظام ، ومدة الكفر وأهل الإسلام » • أما الجزء الثانى فهو « المشتمل على الفتح العظيم ، والفخر الجسيم ، ومدح من ••• فتحها ••• الباى سيدي محمد بن عثمـــان » • وقد انتهى الكتاب بتاريخ فتح وهران ، وهو سنة ١٢٠٦ هـ •

وطريقة أبى راس فى (العجائب) أنه يورد البيت الذى يحتوى على الفكرة الرئيسية ثم يشرع فى تفسير ألفاظه لغويا وأدبيا ، ثم يشرحه تاريخيا • وهو يروى عن كل فكرة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والنوادر واللطائف والأخبار • فكأنه يريد أن يبرهن على مدى حفظه والمامه من كل علم بطرف كما يقول القدماء • ويكثر أبو راس أيضا من الاستطرادات بايراد عناوين لأفكار جانبية مثل : (فائدة) و (نادرة) و (لطيفة) ، و (تنبيه) ، و(تتمة) ، و (غريبة) ، ونحو ذلك • ويختلف الجزء الأول عن الثانى فى أن الأول يحتوى على معلومات تاريخية أكثر ، لأنه حتى فى نقوله عن القدماء ينقل عن المؤرخين : كابن خلدون وابن خلكان وغيرهم • أما فى الثانى فيكثر من النقول الأدبية كالنقل عن : الجاحظ ، والمتنبى ، وأبى فراس الحمدانى ، وابن عبد ربه • ولعله أراد أن يكون فى الجزء الأول مؤرخا ، بينما أراد أن يكون فى الجزء الثانى مادحا لمحمد الكبير على مواقفه فأسعفته فى الأول الأخبـــار والذاكرة والنقول ، أما فى الثانى فقد أسعفته الأشعار والعواطف والقلب المعجب •

وأهم ما تناوله أبو راس فى الجزء الأول ، أخبار المغرب العربى وأخبار برقة وفزان ومصر ، وأنساب الأولين وأخبارهم ، وبالأخص قبائل وهران وماجرى للمسلمين فيها أيام حكم النصارى • ويذكر بايات اقليم الغرب الجزائرى الذين كافحوا من أجل استرداد وهران مثل : ابراهيم باشا وشعبان باى ، ويخص قبيلة مغراوة بحديث طويل فيذكر علماءها وصلحاءها ، كما يذكر علماء وهران ، ويأتى بأخبار الجزائر فى العصور الاسلامية وذكر القبائل التى استوطنتها ويظهر براعته فى حفظ الأنساب • ويطيل الحديث عن تاريخ وهران فى عهد الامارات الاسلامية وكيف دخلها الأسبان والنزاع بين هؤلاء وبنى

زيان ملوك تلمسان ، والصراع الاسلامي الاسباني في الأندلس وشواطئ البحر الأبيض • وقد مدح الأتراك على مواقفهم في الدفاع عن الاسلام ، ولا سيما خير الدين بربروس ، وتكلم عن دخول الترك للجزائر سنة ٩١٥ هـ ، وخصص له ورقات ٢٦ ـ ٨٠ ، وتحدث عن عهد محمد بن عثمان باشا ، والصلح مع أسبانيا وعن غزوات الأجانب ضد الجزائر ووهران •

وقد تعرض في الجزء الثاني لتعريف المغرب الأوسط والأقصى ، وجاء بأخبار بلاد السودان القديم والحياة التجارية وبعض العـادات وتقاليد أهل الطوارق ، وواحات الصحراء •

الخاتمة

وأصل سكانها • وينقل في هذا الموضوع عن : أخيه عبد القادر ، وعن المؤرخ البكري وعن المازوني صاحب (النوازل) •• ثم يعود للحديث عن تاريخ تلمسان وأمراء الثعالبة بمتيجة التي عاش فيها • ويستطرد في الموضوع فيذكر قصة الشيخ المغيلي مع السيوطي ومع يهود توات • ويلم بأخبار رحلته الأولى للحج ، ويصف الأماكن التي تنقل فيها منذ سمع بالحرب بين الجزائريين والأسبان ، أي من جزيرة جربة • وينتقل الى الحديث عن الأندلس ويذكر مدنها • ثم يفيض في الحديث عن فاتح وهران الباي محمد بن عثمان وينعته « بأبي الفتوحات المنصور بالله » • وفي الجزئين نقول وأشـعار عن الشاعر التونسي السيد علي الغراب السفاقصي في غير مناسبة •

ان ما نلاحظه هو أن « أبا راس » يتبع طريقة الشرح المعهودة في عصره • فهو ينقل من الماضين ما يوافق المعنى ويبرهن بذلك على ما حفظه ومهـارته الأدبية والتاريخية • ويتبع الأسلوب الأدبي في شرح الألفاظ والمعاني : لغويا ونحويا وبيانيا وتاريخيا • ويبدو أنه اختلط عليه ـ كما فعل بعض السابقين ـ التاريخ والأدب ، رغم أنه عرف الأول بمـا يدل على تمييزه عن الأدب كفن أو علم قائم بذاته • وهو يستطرد الى درجة الحشو ، ويتناول موضوعا ما ثم يعود اليه في أماكن أخرى • ولعل هذا يعود الى أنه لم يسلك طريقة منظمة من البداية • ومصادره كثيرة ، منها : القديم والمعاصر ، والمكتوب والشفوي ، والمنقول والشخصي • ولكنه قلما ينقد المصادر أو يقف عنـدها بالمقارنة • وتغلب عليه العاطفة الدينية في سرد الأحداث ، ووصف النزاع الاسلامي ـ الأسباني ، ولا غرابة في ذلك فقد كان متأثرا بما جرى للمسلمين منذ ضياع الأندلس ، ومحاولة الغزو الاسباني (المسيحي) لشمال افريقية • ومن جهة أخرى كان يكتب عن حادثة تجرى أمام عينيه ، بل كان مشاركا فيها • وهي حادثة أججت العواطف وأثارت الحماس الديني • ورغم شيوع السجع والصناعة اللفظية في العصر العثماني فأن أبا راس لم يلتزم السجع الا في مقدمة الكتاب ، أو اذا جاء عفوا في ثناياه • أما سائر الكتاب فمكتوب بنثر بسيط يكاد يقترب من العامية أحيانا •

وللكتاب قيمة بارزة الى جانب ما ذكرنا من الأخبار ، فهو يحتوى على معلومات قيمة عن أنساب القبائل ومواقعها فى شمال افريقية ، وهو لذلك ما يزال مرجعا للباحثين • وفيه أيضا وفرة من الأخبار عن أحوال شمال افريقية خلال العصر العثمانى قلما نجدها فى غيره ، بالاضافة الى : تأسيس المدن ، ومد الطرق ، وتواريخها فى المنطقة المذكورة • والكتاب يكشف عن موقف مؤيد للعثمانيين عامة والترك خاصة فى الجزائر ، فصاحبه يشيد بهم ويذكر شجاعتهم ومواقفهم فى سبيل الدين ، رغم أنه لم يكن منهم • وفى الكتاب معلومات اضافية عن الأندلس (وقد توسع فيها فى كتابه الآخر الحلل السندسية) وهو يكشف عن كره صاحبه للنصارى عامة والأسبان خاصة ، لاخراجهم المسلمين من الأندلس ، ومطاردتهم لهم فى المغرب العربى • وفيه أيضا أخبار عن حياة أبى راس الشخصية ، وأخبار رحلته الأولى (سنة ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ هـ) عن طريق البحر فى سبيل الحج •

ولأبى راس كتب أخرى كثيرة فى التاريخ لا نعرف عنها الا القليل ، بعضها مفقود فى الوقت الراهن ، وبعضها معروف لكن لم نتمكن من الاطلاع عليه • من ذلك (ذيل القرطاس) الذى قيل أنه يقع فى مجلد (٢٨) ، (وايضاح الغميس (الذى تناوله أحد الكتاب الفرنسيين (٢٩) • و (در السحابة) الذى قيل انه يقع فى حوالى كراستين ، ويوجد عند بعضهم فى مكناس بالمغرب (٣٠) ، وكذلك (الحلل السندسية) الذى ترجم ونشر كما سبق أن أشرنا (٣١) • ومهما يكن من أمر ، فان الكتاب الأخير قد وضع أصلا قصيدة تاريخية ، ثم قام المؤلف بشرحها شرحا واسعا مرتين : الشرح الأول قام به عندما كان فى تطوان ، وسماه (روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان) • فقد ذهب الى المغرب بعد عزله من وظائفه سنة ١٢١١ هـ (٣٢) ، واستقبله السلطان مولاي سليمان بفاس ، وعرض عليه بعض الوظائف ولكن أبا راس اعتذر بثقله ، فارسله السلطان الى مرسى تيطوان للركوب من هناك الى الجزائر • وقد أحس أبو راس بالأمن والهدوء فكتب ذلك الشرح • لذلك وصف تطوان بأنها بلد « الأمن والايمان » • ولما كان متأثرا بفتح وهران دعا الى السلطان سليمان باسترداد : سبتة وبريرا وثغر ابن عكاشة من الأسبان أيضا • أما الشرح الثانى فقد سماه (الحبر المعرب عن الأمر المغرب ، الحال بالأندلس وثغور المغرب) • وقد أضاف اليه « لطائف •• كأنها عقود جمان أو قلائد

---

(٢٨) ابن سودة ، (دليل مؤرخ المغرب)

(٢٩) L. Guin, R.A., 1887, pp. 72-80.

(٣٠) ابن سودة ، (دليل مؤرخ المغرب) ص ٤٨٨

(٣١) نفس المصدر ، ص ٤٢٨ • ويذكر أن الشرح الثانى لقصيدة (الحلل السندسية) وهو المسمى (بالقصد المعرب ••) توجد منه نسخة بمدينة تلمسان •

(٣٢) يذكر نفس المصدر أن أبا راس الى المغرب سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ •

عقيان » • حسب تعبيره • ويبلغ شرح الحلل السندسية ٩٨ ورقة •

واذا كان دافع أبى راس فى كتابة (العجائب) هو فتح وهران ، فان دافعه فى كتابة (الحلل) هو ما جرى فى الأندلس بين المسلمين والأسبان • وعلى كل حال ، فان الذى أوحى له الكتابة فى هذا الموضوع هو انتصار المسلمين فى وهران • وكان وجوده فى تطوان والسواحل المغربية الشـــمالية محركا لذكرى الأندلس فى نفسه ، وأشـــجان الماضى الذى يربط أهل المغرب بأهل الأندلس القدماء • بالاضافة الى أنه ـ كما قال ـ الأمن والايمان فى تطوان ، كما وجد احسانا وعطاء من السلطان المغربى مولاى سليمان • ومن ثمة كانت (الحلل السندسية) تاريخا مفصلا لبـــلاد الأندلس وذكر علمائها ومدنها ووقائعها ، مع تعرض بالمناسبة الى قبائل المغرب العربى التى يتصل نسبها بسكان الأندلس موضوع الكتاب ، وشىء من الحديث أيضا عن الوجود العثمانى فى شمال افريقية واستعادة وهران • ولعـــــل المؤلف الذى خص وهران (بالعجائب) أراد أن يكمل موضوعه ، وهو العلاقات الاسلامية ـ الاسبانية فكتب (الحلل) عن الأندلس وثغور المغرب •

والواقع أن هذه الدراسة القصـــيرة لا يمكن أن تفى بحق ولا بمكانة « أبى راس » الناصرى بين المؤرخين ، فهو ـ لســـعة اطلاعه وكثرة معارفه وحيوية وقائعه ـ يستحق اهتماما أكثر ودراسة أشمل • ولكن كتبه مازالت غير معروفة كلها أو جلها ، وعصره مازال غير مدروس • ولذلك فمن الصعب اعطاء صورة كاملة عنه وعن مساهمته فى الحركة الثقـــافية عامة ، والكتابة التاريخية بوجه خاص • ولكن تســـليط الضوء على شخصية معـــاصرة له كعبد الرحمن الجبرتى ، جعلنى أحاول أن أقدم ما أمكننى العثور عليه من مؤلفاته ومساهمته الى الباحثين ، لعلهم يجدون فى الرجلين بعض أوجه الشبه وبعض أوجه الاختلاف ، ليس فى روح العصر فحسب ، ولكن فى المنبع والمصب الثقافى أيضا • ولم يكن هدف هذه الدراسة عقد مقارنة بين الرجلين ، لأن المقارنة لن تكون ناجحة الا اذا توفرت عناصرها ، وهى العثور على مؤلفات وآثار كل منهما • واذا كان البحث قد كشف عن آثار الجبرتى ، فما يزال لم يكشف بعد عن آثار أبى راس • ولعـــل الجزائريين يقتدون بالمصريين فى العنـــاية برجالهم ، فيقيمون ندوة لأبى راس كما أقام المصريون ندوة للجبرتى • وعندئذ تكثر العناية بالرجلين وتتاح المقارنة بينهما • ولا شك أن كليهما خدم العلم والتاريخ ، ومن ثمة خدم الثقافة العربية الاسلامية فى أوسع معانيها •

بحوث بلغات أجنبية

NOTES

1. La notice consacrée à Hasan al-Gabarti occupe les pages 385 à 408 du premier volume des 'Aga'ib al-Atâr (édition de Boulaq, 1297/1879, 4 vol.). Nous nous référerons désormais à cet ouvrage en donnant seulement le tome et la page.

2. Pour le distinguer de son grand-père Hasan nous l'appellerons Hasan II.

3. I, 388.

4. I, 390-1.

5. Voir sur Safiyya l'article de Muhammad Anis, Haqâ'iq, 76 (dans al-Magalla al-târîkhîyya al-misriyya, 1960, pp. 69-115. Gabarti I, 391.

6. I, 390-1.

7. I, 397.

8. I, 396.

9. Voir l'article de Muhammad Anis et Mahmud al-Sarqâwi, Misr (Le Caire, 1956, 3 vol.), I, 12-3.

10. I, 391.

11. Gabarti, I, 391. Les « suivants » (tâbi) constituaient peut-être un des états de la carrière des esclaves employés par les émirs puis affranchis. Il ne semble pas qu'il soit possible de les confondre avec les mamelouks (voir notre livre Artisans et commerçants au Caire, 680, note 3).

12. Gabarti écrit Tabbal, mais nous avons trouvé Tabal dans les documents d'archives que nous avons consultés.

13. Ahmad Celebi, **Kitab awdah al-isârât**, (manuscrit), Yale, Landberg numéro 3), 104 a. 234 b. Archives de la Citadelle du Caire, registre des fermages, daftar 47/1136 et 50/1139.

14. I, 412.

15. I, 376.

16. Cette maison, située près des madrasa Sâlihiyya (en 16 sur le plan de la Description de l'Egypte), est mentionnée par 'Ali Pasha Mubârak dans ses Hitat (II, 23).

17. I, 376.

18. Bruce, **Voyage** (Paris, 1790), II, 73, 134.

19. **Qisma 'askariyya**, v. 195, p. 180. 1er Juin 1774. La pataque valait alors 90 paras.

20. **Qisma 'askariyya**, v. 228, p. 68, 30 Septembre 1798.

21. Archives de la Citadelle du Caire, recueils de **hugga**, carton X, numéro 883. 11 Décembre 1804.

22. Voir Mahmûd al-Sarqâwi, Misr, I, 12.

23. I, 395-6.

Arbre généalogique des Gabartî

→ Filiation naturelle

→ Mamelouks ou «suivants»

3 — CONCLUSIONS

Les relations étroites qui existaient entre ces **'ulamâ** et les membres de la caste dirigeante et les tuggâr paraissent tout à fait caractéristiques d'une société dans laquelle des liens nombreux unissaient les militaires des odjaqs et les «sujets», si bien que les liaisons «horizontales» entre des strates sociales que rapprochaient les conditions matérielles étaient parfois aussi fortes que les clivages «verticaux» qui séparaient traditionnellement la caste dominante d'origine étrangère des **ra'iyya** indigènes.

Ces relations et aussi l'évidente prospérité matérielle des Gabartî nous paraissent avoir une grande signification sur deux plans :

— en ce qui concerne l'histoire de l'Egypte au XVIIIème siècle, les liens entre les **'ulamâ** et le pouvoir permettent de comprendre l'attitude parfois prudente ou même réservée qu'adoptèrent les cheikhs au cours de certaines crises politiques (en particulier en 1786 ou pendant l'occupation française) et les réticences qu'ils manifestèrent à l'égard du comportement politique souvent plus tranché des masses populaires dont ils étaient censés être les porte-paroles et les défenseurs traditionnels vis-à-vis des autorités.

— en ce qui concerne l'historiographie du Caire, 'Abd al-Rahmân al-Gabartî, en tant qu'historien, est parfaitement représentatif des chroniqueurs de son temps, issus de la «bourgeoisie» aisée du Caire et plus ou moins liés à la caste politico-militaire qui gouvernait le pays. C'est en gardant à l'esprit cet arrière-plan matériel et social qu'il faut lire les **'Agâ'ib al-Atâr** et interpréter les attitudes politiques et sociales, les préjugés qui colorent parfois l'oeuvre monumentale de Gabartî.

modeste pour un **tâgir,** 312.561 paras, qui furent partagés entre son épouse et sa fille, et aussi le petit-fils du maître de son maître (Muhammad Mîsû, maître de Muhammad Tabal) Ahmad Celebi, fils de Husain et cousin de 'Abd al-Rahman al-Gabartî, ainsi qu'il arrivait assez fréquemment dans les successions des mamelouks, dont les biens revenaient parfois, après de longs détours, à la famille du maître. Notons qu'au moment de la liquidation de la succession, l'Egypte était occupée par les Français, ce qui explique peut-être l'absence d'Ahmad Celebi que le document signale comme résidant en Turquie.

D'un second mamelouk, également **tâgir,** de Muhammad Tabal, Mustafâ Tabal b. 'Abdallâh, nous ne savons que peu de choses. Un document des archives de la Citadelle du Caire, daté de 1804, mentionne le hâgg Mustafâ Tabal, afranchi du **ra'îs** Muhammad Tabal, comme **tâgir** à la **wakâla Dûlfiqâr al-Kubrâ,** sise dans le Gamâliyya, qui était alors le principal centre du grand commerce du café au Caire (21).

Tout ce qui vient d'être dit sur les liens familiaux entre les Gabartî et des membres des odjaqs explique l'intimité des relations qui existaient entre cette famille **d'ulamâ** et une caste dominante dont elle partageait la puissance sociale et matérielle et dont elle avait adopté certains des usages les plus caractéristiques (possession de mamelouks par exemple, et peut-être de propriétés rurales) (22). Ainsi s'éclaire le passage, qui mériterait d'être cité entièrement dans lequel 'Abd al-Rahmân al-Gabartî énumère les brillantes relations que son père Hasan avait parmi les pachas et les émirs dominants de son temps, et dans lequel sont en effet cités trois des pachas qui gouvernèrent Le Caire entre 1740 et 1750 (Alî Pacha de 1740 à 1741 ; Râgib Pacha de 1745 à 1748 et Ahmad Pacha de 1748 à 1750) et les trois émirs qui exercèrent le pouvoir entre 1736 et 1755 (Uthmân Bey Dûlfiqâr, de 1736 à 1743 ; Ibrâhîm Kathudâ de 1743 à 1754 ; 'Abd al-Rahmân Kathudâ en 1755) :

وله منزلة عظيـمة فى قلوب الاكابر والأمراء والوزراء والاعيان ويسـعون اليه ويذهب اليهم لبعض المقتضيات والشفاعات ، ويرسـل اليهم فلا يردون شـفاعته ولايتوانون فى حاجة يتكلم فيها ، وله عندهم محبه ومنزلة فى قلوبهم زيادة عن نظرائه من الأشـياخ •• وخصوصـا أكابر العثمانيين والوزراء وأهل العلوم والفضلاء منهم مثل على باشا بن الحكيم ، وراغب باشا ، وأحمد باشـا الكور وغيرهم ؛ ويأتون اليه أحيانا في التبديل واكرموه وهادوه •• وكان بينه وبين الامير عثمان بيك ذى الفقار محبة ومحبة •• وكان منزل سكنه الذى بالصنادقيه ضيقا من أسفل وكثير الدرج ، فعالجه ابراهيم كتخدا على أن يشترى له أو يبنى له دارا واسـعة فلم يقبـل وكذلك عبد الرحمن كتخدا •• (٢٣)

supposer que les Mîsû constituaient une «maison» mamelouke notable qui Muhammad Tabal pour que Husaîn, un des deux fils qu'ils eurent ensemble, fut qualifié par 'Abd al-Rahmân d'«oncle paternel»
('**amm**) (15).

Par l'intermédiaire de Muhammad Mîsû Tabal les Gabartî furent apparentés à la «famille» des Tabal dont plusieurs représentants eurent une grande activité commerciale dans la Mer Rouge et comptèrent parmi les négociants en café (**tuggâr**) notables du Caire. Le fait que l'historien nous donne la biographie du **ra'îs** Muhammad Tabal, «suivant» de Muhammad Mîsû Tabal, est certainement dû, compte tenu du petit nombre de **ra'îs** ou de tuggâr mentionnés dans les rubriques nécrologiques des **'Agâ'ib al-Atâr,** à l'existence de ces liens «familiaux» avec les Gabartî : ils est d'ailleurs très significatif que dans cette très brève notice de sept lignes et demie, Gabartî en consacre trois à Muhammad Mîsû Tabal le maitre de Muhammad. Muhammad Tabal avait été élevé par Husain, fils de Muhammad Mîsû et «oncle de Gabartî ; il s'adonna ensuite au grand commerce, commanda des navires sur la Mer Rouge et devint un des principaux **nawâhîd** (commerçant-navigateur) ; sa fortune et réputation grandirent ; il se construisit une maison au Caire (16), eut des mamelouks et des esclaves. Il mourut en Syrie en 1186/1772 alors qu'il rentrait au Caire après un de ses voyages (17). Ce personnage est effectivement bien connu de nous. Bruce mentionne dans son **Voyage,** en 1769, comme un de ses «intimes amis, Mahomet Topal, capitaine d'une des grands vaisseaux du Caire, qui font le commerce d'Arabie» et «compagnon d'Hussein Bey» ; il signale plus loin que ce «Topal» avait conduit le célèbre voyageur Niebuhr de Suez au Hedjaz (18). Sa succession, que nous avons pu retrouver dans les archives du **Mahkama,** classe Muhammad Tabal dans la moyenne des grands commerçants en café et en épices : son montant, 1.620.390 paras, le place cependant très loin des **tuggâr** les plus fameux du XVIIIème siècle, tels Qâsim al-Sarâibî, Ahmad ibn Abd al-Salâm, Mahmoud Muharram, dont la fortune dépassait les dix millions. Dans le détail elle est strictement conforme aux successions habituelles des tuggâr : effets et biens personnels, 2454 pataques ; part d'un quart sur le navire «al-Halîlî», 2.400 pataques ; stocks de café, 5.722 pataques ; biens immeubles (une part dans le makân de Sâlihiyya, 2.500 pataques ; un autre **makân,** 370), etc. Le **ra'îs** était locataire d'un entrepôt (**hâsil**) dans le Rân Ga'far qui était un des plus importants des caravansérails où s'effectuait au Caire le grand commerce du café et des épices (19).

Le **ra'îs** Muhammad Tabal laissa un certain nombre d'affranchis (**utaqâ**) dont deux au moins furent **tuggâr** en Mer Rouge. La succession du **ra'îs** Salîm Tabal figure également dans les archives du **Mahkama** (20) : Salîm qui mourut avant le 30 septembre 1798 laissa un héritage relativement

exemple tout à fait convaincant des relations qui s'étaient tissées au Caire entre la «bourgeoisie indigène» et la caste dominante, à l'époque ottomane.

Devenue veuve de Hasan I, Maryam, dont nous avons vu plus haut tout ce qu'elle avait apporté de puissance matérielle aux Gabartî, épousa en secondes noces l'émir Alî Agha al-Tûrî, officier (**bâs ihtiyâr**) de l'odjaq des Mutafarriqa, qui exerçait le commandement de plusieurs forteresses sur la Mer Rouge, Tûr, Suez et Muwailih, où se trouvaient des garnisons, ce qui lui donnait sans doute une forte position dans le commerce oriental du café et des épices. Cette union eut des prolongements familiaux puisque le petit-fils de Maryam, Hasan II, père de l'historien, fut marié à la fille de Alî Agha ce qui faillit l'engager sur la voie d'une carrière administrative-militaire. A la mort de Alî al-Tûrî (en 1137/1724 — 5), son gendre prit en effet sa succession dans son commandement bien qu'il fût un **âlim** dénué de toute expérience dans ce domaine : il envoya à Muwai'lih son serviteur (**hâdim**) Sulaimân al-Hisâfî Gorbagi, pour le représenter, mais il y fut tué, ce qui affligea beaucoup Hasan et l'incita sans doute à renoncer ensuite à poursuivre cette entreprise. Hassan n'avait de toute évidence ni goût ni aptitude pour la carrière militaire (10).

La seconde femme de Hassan II, épousée après la mort de la fille de 'Alî Agha, appartenait peut-être elle aussi à une famille liée aux odjaqs : le grand père paternel de Safiyya, Yûsuf al-Hassâb, est effectivement qualifié de «suivant» (**tâbi**) de Kûr Muhammad (11).

Mais c'est surtout par les liens contractés entre les Gabartî et la «maison» (**baît**) mameouke des Mîsû que cette famille de **ulamâ** se trouva dotée d'un rameau dans lequel prédominaient les activités militaires et commerciales. C'est à nouveau par un remariage que s'opéra cette conjonction : Sataita, devenue veuve d'Ibrâhîm al-Gabartí, en 1110/1698 — 9, épousa, en 1114/1702 — 3, Muhammad Misû Tabal, **odabasi** des Janissaires, dont le surnom d'al-Gaddâwî dit assez l'intérêt pour les activités dont la Mer Rouge était le théâtre (12). Nous connaissons d'autres «Misû». Alî Câwîs Mîsû qui est mentionné dans les chroniques et dans les documents d'archives, avait été, vers 1721 officier dirigeant (**kathudâ**) des Janissaires ; il détint ensuite en participation avec d'autres officiers des milices la ferme (**muqâta'a**) de la douane d'Alexandria et de Damiette, en particulier entre 1136/1723 — 4 et 1139/1726 — 7 ; il mourut en 1731 (13). Gabartî mentionne dans ses nécrologies de 1188/1774 le décès d'un émir Muhammad Effendi Mîsû, membre de l'odjaq des Câwîsiyya, de réputation plus modeste et dont la présence dans les obituaires de l'historien ne peut guère s'expliquer que par les liens qui existaient entre les Mîsû et les Gabartí (14). Nous ignorons quels rapports il y avait entre Alî Mîsû Muhammad Effendi Mîsû et le grand-père par alliance de Gabartî, mais nous avons tout lieu de

Tout ceci aide à comprendre l'intérêt que portait Hasan al-Gabartî aux artisans du Caire dont ses biens et ses activités économiques le rapprochaient. Autant sans doute que son penchant pour les sciences et les techniques, ce sont les relations qu'il entretenait avec les artisans et les commerçants du Caire qui l'amenèrent à s'occuper de remettre en ordre les poids et les mesures dans lesquels la confusion la plus totale semblait s'être établie (1172/1758 — 9) et à écrire ensuite tout un ouvrage sur ce sujet. Autre manifestation d'intérêt pour un monde dont les activités et les aspirations lui étaient familières, Hasan al-Gabartî avait réuni, à côté de nombreux instruments scientifiques, une très belle collection d'outils artisanaux, comprenant en particulier ceux des menuisiers, tourneurs, forgerons, ferblantiers, relieurs, graveurs, orfèvres, dont les arts étaient les plus répandus au Caire. On ne saurait donc être surpris d'apprendre que le cheikh entretenait des rapports de grande amitié avec un grand nombre d'artisans connus de son temps, dont Gabartî fait une énumération particulièrement suggestive (7).

L'aisance matérielle que Hasan al-Gabartî devait à sa famille et qu'il avait su développer lui permettait de s'adonner à ses activités scientifiques en dilettante, tout en menant la vie d'un grand bourgeois du Caire. Si sa maison Sanâdiqiyya était apparemment modeste puisque ses amis les émirs (Ibrahîm Kathudâ et Abd al-Rahmân Kathudâ), qui la trouvaient trop petite, lui avaient vainement offert de la remplacer par une autre plus importante et plus digne de lui, il était également propriétaire d'une maison à al-Abzâriyya, sur le bord du Nil, et il pouvait disposer encore de la maison de sa femme, en face de la mosquée Mirza. A en croire Gabartî son train de vie était assez factueux : Hasan al-Gabartî avait dans chacune de ses résidences une épouse légitime, des esclaves et des domestiques, et il se transportait de l'une à l'autre suivant sa fantaisie et les saisons, avec une «maison» nombreuses, comprenant des amis, des élèves, des mamelouks, des esclaves blancs, abyssins et noirs des deux sexes, et des enfants (il en eut quarante, garçons et filles) (8).

Nous ne sommes malheureusement pas renseignés avec autant de précision sur la fortune du fils de Hasan II, mais tout nous permet de supposer que l'historien jouit lui aussi d'une belle aisance qui lui permit de se consacrer, sans soucis matériels, à l'histoire, à la science et éventuellement à la «vie publique» (9).

2 — LES LIENS DES GABARTI AVEC LA CASTE DIRIGEANTE ET AVEC LES TUGGAR

Il y avait entre les Gabartî et les militaires des odjaq des liens assez nombreux pour que cette famille d'ulamâ puisse être prise comme un

Le cheikh Alî, fils de Muhammad al-Gabartî et père de Hasan I, arrière grand-père de l'historien, acquit, dit le chroniqueur «réputation et richesse». Son épouse Zaînab, fille de **l'imâm** et **qâdî** Abd al-Rahmân al-Guwaînî, possédait des immeubles **(amâkin)** qu'elle érigea en waqf au profit des deux enfants de son époux, Hasan I et Abd al-Rahmân (3).

Le cheikh Hasan I qui mourut en 1096/1684 — 5 ou 1097/1685 —6 épousa al-Hagga Maryem, fille du cheikh Muhammad al-Manzalî al-Ansâri, qui éleva Ibrâhîm, grand-père du chroniqueur, après la mort de Hassan I et s'occupa également de l'éducation de Hassan II, fils d'Ibrâhîm, après la mort prématurée de ce dernier (1698-9). Maryam était une femme fort riche ; mentionnant ses divers biens (**amlâk** et **aqârât**), Gabartî signale parmi les immeubles **(amâkin)** qu'elle constitua en waqf au profit de Hassan II : une **wakâla** sise dans le quartier al-Sanâdiqiyya, proche d'al-Azhar, des boutiques dans le voisinage de la **wakâla,** et d'autres dans les quartiers du Gûriyya et du Margûs, et une résidence **(manzal)** près de la **madrasa** al-Aqbugâwiyya. Les divers quartiers mentionnés par Gabartî comptaient parmi les plus actifs et les plus riches commerçants du Caire et le prix d'une **wakâla** pouvait y atteindre un million de paras, somme considérable à cette époque. Maryam possédait encore à Bûlâq un immeuble donnant sur le Nil, dans le **rab al-Hurnûb,** au temps où le fleuve baignait encore cet endroit ; le cheikh Hasan II y résida quelque temps : il possédait dans le même quartier un magasin (hâsil) qui lui venait vraisemblablement de Maryam. Signalant l'incendie de cette maison de **Bûlâq** qui obligea Maryam à se transporter au Caire, Gabartî évoque la richesse de son ameublement et de sa décoration. Maryam possédait enfin une résidence d'été au Vieux-Caire où la famille se transportait au moment de l'inondation. On peut donc considérer Maryam comme un «très beau parti» et nous verrons qu'elle fit, après la mort de Hassan I, un remariage brillant, lorsqu'elle épousa l'émir Alî Agha al-Tûrî (4).

Hasan II, devenu veuf de la fille de Alî Agha avant 1724 — 5, fit lui aussi un riche mariage : sa seconde épouse, Safiyya, fille de Ramadân Celebî, appartenait à une maison riche et considérée de Bûlâq. L'énumération faite par Gabartî de quelques-unes de leurs propriétés et immeubles donne une idée suggestive de sa fortune : La wakâla al-Kittân, un immeuble de rapoprt **(rab),** des boutiques, une grande maison sur le bord du Nil et une autre en face de la mosquée Mirza Corbagi (5). Bien que Gabartî, qui insiste plus volontiers sur les activités scientifiques de son père, ne soit pas très explicite sur ce point, il semble que Hasan II ait arrondi sa fortune par d'actives spéculations commerciales :

(6) ومع اشتغاله بالعلم كان يعانى التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمقايضة .

La personnalité de «Abd al-Rahmân al-Gabartî, historien et écrivain, a naturellement un peu éclipsé le reste de sa famille. Malgré les efforts touchants de l'auteur pour mettre en valeur son ascendance (et en particulier son père, Hasan al-Gabartî) l'arbre généalogique des Gabartî paraît à l'historien moderne comme voué à la production d'un fruit unique, l'auteur des **Agâ'ib al-Atâr.** Or l'entourage familial des Gabartî, la fortune de la famille, ses liaisons avec la société du temps ne nous sont pas indifférents dans la mesure où ils ont pu avoir quelque influence sur la vision que Gabarti a eue ,et qu'il nous a transmise, de l'histoire politique et sociale de son temps.

Il nous a donc paru intéressant de vérifier dans quelle mesure les Gabartî n'étaient que cette famille de **ulamâ** dont l'historien décrit longuement les activités religieuses e scientifiques et d'examiner quels liens la rattachaient, d'une part à la population égyptienne économiquement active (grands commerçants) et d'autre part à la «caste dominante» (gens des milices).

Des faits que nous allons exposer brièvement plus loin, certains sont bien connus, puisque mentionnés dans l'historique que Gabartî fait de sa famille, à l'occasion du décès de son père Hasan al-Gabartî. D'autres ont été glanés au cours de recherches effectuées dans les archives de la **Qal'a** du Caire et dans celles du **Mahkama** (1).

1 — LA FORTUNE DES GABARTI :

Ulamâ et savants les Gabartî paraissent avoir acquis une solide aisance matérielle vers la fin du XVIIème siècle et au cours du XVIIIème, en particulier grâce à une série de mariages avantageux qui améliorèrent progressivement la situation matérielle de la famille dont les intérêts économiques culminèrent vraisemblablement à l'époque de Hasan, père de l'historien, vers 1750 (2).

LA FORTUNE DES GABARTI ET LEURS LIENS AVEC LA CASTE DOMINANTE ET LES MILIEUX COMMERÇANTS

By

ANDRE RAYMOND

Institut Français d'Etudes Arabes de Damas

A close friend of Ahmad Bey, one Hamida b. al-Daliya al-Razqi, on hearing of Ahmad's first stroke cried out, «Oh Lord, please do not let me live after him». Actually, Hamada did die first, but the news was kept from Ahmad lest it impede his slow, painful recovery from partial paralysis (48).

Giuseppe Raffo, Ahmad's foreign minister, once requested permission to resign after a bitter dispute with the French consul. Ahmad Bey would have none of it. «I have become accustomed to you and you to me. I ask only of God that he not let our group be broken up» (49).

Does this add up to great social history ? Does Bin Diyaf meet all three characteristics suggested at the beginning of this article as necessarily present in great historians ? Perhaps the present writer is too close to his subject to give an impartial answer. For after some six years of relying on Bin Diyaf, more than any other source, to reconstruct the age of Ahmad Bey this writer ineluctably views Bin Diyaf in the terms Ahmad Bey expressed to Raffo, «I have become accustomed to you and you to me».

But then isn't it one mark of a great historian that to his readers he ceases to be just a source and becomes a personality ?

اللهم لا تحيينى بعده

(48) Bin Diyaf Biography No. 307.

وقد ألفتكم وألفتمونى ، نسأل الله أن لا يفرق جمعنا

(49) Bin Diyaf IV, p. 177.

a measure is a measure, and this can hardly be falsified. A Tunisian, however, who has seen this with his own eyes might well assert that the tithe turned out to be even more than 20%» (45).

Although Tunisian society was generally more peaceful than most, the political elite lived close to the cutting edge of physical violence. Ahmad Bey, who on the eve of assuming power in 1837 had brought about the execution of his chief rival (Shakir Sahib al-Tabi', who was probably planning to get rid of Ahmad), could also recall in his mature years an experience that took place when he was only eight years old. This concerned the events leading up to the execution of the chief minister, Yusuf Sahib al-Tabi', in January 1815. One day the young Ahmad was sitting with his grandfather, Mahmud Bey, when a mamluk rushed in upon them, threw himself down and exposed his neck as if to the executioner and cried, «Kill me now. I would rather be killed by your command than that of Yusuf Sahib al-Tabi', a mamluk like me».

Reflecting on the event years later Ahmad Bey noted, «It is as if I see him now» (46).

Among Ahmad Bey's more attractive points was his great sense of loyalty to his immediate following. He insisted that his mother not be veiled before his ministers for «She is my mother and yours». On holidays he would present himself with his ministers before his mother exclaiming, «Your sons of whom I am the oldest have called upon you to extend their best wishes for the holiday» (47).

وغير التونسى ربما يستبعد هذا الخبر أو يحيله ، ومعيار الكيل واحد وتداخل الأجرام مستحيل . أما التونسى الذى يرى ذلك عيانا ، ربما يقول ان العشرة يقبلها بأكثر من عشرين، وذلك ان الحبوب تكون موضوعة على الأرض متراكمة ، فيأتيها لكبال ويملأ الويبة ، ثم يديرها على الحبوب فتلصق كل حبة بأختها ، ثم يجعل عليها الشاشية وهو ما تراكم من الحبوب خارج الكيلة ، ثم الحملة والدراع وهو ما يحمله صاحب الويبة وما يكون بين صدره والويبة . ثم يأتى القفاف بقفة تحمل ويبتين ويعرف بها من الحبوب المتراكمة ما يستطيع ، ويقبل بها الكيل بحملته وذراعه ممتلىء القفة .

(45) Bin Diyaf IV, p. 145.

اقتلنى الآن فلان أموت على أمرك خير لى من الموت على أمر يوسف صاحب الطابع مملوك مثلى وكأنى الآن أراه

(46) Bin Diyaf III, pp. 108-109.

هى أمى وأمكم

أولادكم اتوك وأنا أكبرهم الهناء بالعيد

(47) Bin Diyaf IV, p. 177. Ahmad Bey seems to have remained something of a mother's boy throughou this life. When he decided on his state visit to Paaris he got h's loyal mamluk Mustafa Sahib al-Tabi' to broach the subject with her. Mustafa was even to pretend it was his idea and to see how Ahmad's mother reacted. Only later did Ahmad himself call upon her and receive her blessing for the trip. Bin Diyaf IV, p. 93.

On the night of Mahmud Bey's inauguration his wife took aside her two sons, Husayn Bey and Mustafa Bey, and made them swear on the Quran each to respect the rights of the other (41). The immediate background was Mahmud's successful plot to assassinate his cousin, the previous bey Uthman. The oath was scrupulously respected. Husayn proved to be a very weak ruler. Even the European community in Tunis wondered whether Mustafa Bey might not, indeed should not, intervene ; but he never did.

How did the mamluk, Husayn Khoja, get his name ? His master, Yusuf Sahib al-Tabi', took the boy on a trip with him to Istanbul when he was so young he «did not have his front teeth.» When the ship reached Chios he decided to convert. Husayn, Kapidan Pasha of the Ottoman fleet, was in the harbor, and upon hearing the story asked that the lad be named after him, and this was done (42).

Bin Diyaf described a fellow scribe who was marked by «Islamic simplicity». He even thought the **Nizami** uniforms were atheistic. When Bin Diyaf, who was among those accompanying Ahmad Bey on his state visit to France in 1846, returned to Tunisia, the man insisted on carefully interrogating him to be sure that Bin Diyaf had not wavered in his faith as a result of this brief sojourn among infidels (43).

Ahmad Bey, as Bin Diyaf makes clear, had many sympathetic traits, but a sense of equity and concern for his subjects in matters of taxation was not among them. He needed revenue for his ambitious reforms and was not above turning a blind eye on how it was collected. When, as was traditional in Husaynid Tunisia, Ahmad held court for one and all who might come to complain, virtually the only protests he heard from the provinces were against the exorbitant revenue demands of tax collectors and governors. And, alas, his only reply, as Bin Diyaf relates, was : «Settle your bill with the collector» (44).

Under the direction of Ahmad's principal concession farmer and financial adviser, Mahmud Bin Ayad, the fiscal oppression reached its peak. A harsh tax rate was made even more unbearable by false measure in estimating the grain or other produce collected. «Other than Tunisians might doubt this or consider it impossible, «Bin Diyaf observed». «After all,

---

(41) Bin Diyaf III, p. 105.

(42) B'n Diyaf B'ography No. 332

(43) Bin Diyaf Biography No. 402.

ولا جواب المتظلم الا قوله « اخلص مع انازام » من غير سؤال ولا استكشاف

(44) B'n Diyaf IV, pp. 144-145.

Another incident, banal in itself, has been the cause of much snickering among European writers and historians to this day. This is the story of the frigate, Ahmadiyya. Work began on this ship in 1841 under the direction of a French engineer. At that time it was pointed out that a ship of the size planned could not leave the basin where it was being built and clear the straits leading to the sea. Ahmad urged the builders to press on, insisting that the necessary waterway could later be enlarged.

This ship was launched on January 2, 1853 in the presence of Ahmad Bey, convalescing from his first stroke suffered the previous July. The stricken bey was so heartened that the ship came to be called «Ahmad's cure».

Yet, nothing had been done to enlarge the waterway and the ship remained imprisoned «like a wooden island». Years later, the ship having never put to sea was destroyed.

Bin Diyaf observed bitterly, «When European visitors came to see the ship at La Goulette they were amazed and they laughed» (39).

A poignant little story redeemed only by the realization that a few perceptive souls such as Bin Diyaf had seen the point.

The Human Touch :

Good social history finally is more than just a tableau of classes and customs, values and prejudices. It is the story of unique individuals who cannot be reduced to types but whose personal histories and individual idiosyncrasies merge, in the hands of a master historian, into a vitalized reconstruction of the period being considered. A few such touches provided by Bin Diyaf may be cited here. Stripped of their context they may appear trite. They should, rather, be seen as solid evidence of Bin Diyaf's attention to human personality and affective detail.

Mustafa Khoja on his death bed asked his wife, the daughter of Ali Bey, not to remarry so they might be together in heaven. A touching story, but unfortunately for the romantic reader it must be reported that she later married again, to Yusuf Sahib al-Tabi (40).

وكان الوافدون من أهل أوربا اذا رأوا هذا الشقف وبوغاز حلق الوادي يعجبــــون. ويضحكون .

(39) Bin Diyaf IV, p. 143.

(40) Bin Diyaf Biographies Nos. 36 and 98.

great profits rapidly gained without thought of the future. This is unlike the Frankish nations. They spend money for a profit likely to be realized only years later. In their activities they are concerned with the benefit to be derived from this approach, and of their ability to dispense with the need to rely on others. This is one of the greatest factors in their prosperity and wealth» (37).

Then, in 1846 Bin Diyaf accompanied Ahmad Bey on a state visit to France. He gives a faithful, detailed account of the meetings with dignitaries, the places visited, but perhaps the most important passage in his account of the trip to France is the following :

«The traveller on this route (i.e. from Toulon to Paris) witnesses the significance of prosperity and gets a picture of progress in the several fields of civilization, as well as the results of peace and security. Hardly a spot is to be found that has not been improved by a tree, cultivation or pasturage, all of which is watered to the point of overflowing by the abundant rains of justice. The traveller on this easy road wishes only that the Journey might continue ; for he sees good roads, is surrounded by buildings, trees, fertile lands and rivers, and there are many other travellers of all kinds. He cannot hear the voice of the oppressed unless it be from one who has brought this state upon himself. And this is indeed an almost unheard of wonder in view of the many taxes and levies. The secret is that these taxes are not unfair. The inhabitants know exactly what is required, and the revenue collected is spent for the benefit of all without distinction» (38).

ولو قدر أن أعظم ربحه هو لبس عساكره وأهل بلاده منه ؛ بحيث تبقى اثمان الملف الذى يشترى من غيرها فى المملكة ، مع انتفاع المجاورين لها والخدمة بها ، المقتضى لزيادة عمران المملكة ونفاق أصوافها فيها وغير ذلك ، ما فتر عزمه . واعطاؤها لتاجر يخدم الملف بها ، ولو مجانا بلا كراء ، انفع للمملكة من بقائها معطلة ؛ وقد بنيت بمال ذريع . لكن طباع ملوك (هذا) (١) المغرب تميل الى الفائدة الدريعة العجلة الحاصلة من غير التفات الى المستقبل ، بخلاف أمم الافرنج (٢) فانهم يصرفون الاموال على فائدة يمكن حصولها بعد سنين ، ويعتبرون فى أفعالهم انتفاع تلك الجهة ، واستغناءهم عن غيرهم ، وهذا من أعظم أسباب العمران والثروة . والله فى خلقه أسرار .

(37) Bin Diyaf IV, p. 78.

غير أن السالك فى تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصورة التقدم فى ميادين الحضارة ، ونتيجة الأمن والأمان . لا تكاد تجد موضعا معطلا من نفع شجرة أو حرث أو كلاء مستنبت . يسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة . يود السالك فى تلك الطريق السهلة ان المسافة تطول ، لما يشاهد من حسن الطريق وما حف به من الابنية والاشجار والمراتع والانهار ؛ وكثرة المارين على اختلاف الانواع . لا تكاد تسمع صوت متظلم الا من نفسه . وهذا من أعجب ما يسمع مع كثرة المغارم والمكوس . وسر ذلك انها غير مجحفة ، واهلها يعرفون مقاديرها ومصاريفها فى مصالحهم على اختلاف انواعها .

(38) Bin Diyaf IV, p. 99.

ling over into art and architecture. The writings of foreign consuls, military advisers, traders and travellers give us a good notion of the changes as viewed from outside. And the Tunisian archives provide the data on what kinds of economic and structural changes were occurring especially as they involved the Husaynid political elite. But what did members of that same Tunisian elite really think ? Here the discrete incidents and insights conveyed by Bin Diyaf are especially valuable.

A French consul in Tunis labelled Hasuna al-Murali «a religious fanatic» (35). What does Bin Diyaf say of this widely travelled polyglot who from first hand experience probably understood Europe better than any of his Tunisian contemporaries ? «It was he who would tell us about conditions of Europe. We used to charge him with exaggeration until the truth of his story appeared to our own eyes» (36).

How are new ideas and artifacts brought from one culture and integrated into another Clearly, the historian can insist that the process is circuitous with many fits and starts, plans advanced for the wrong reasons or by the wrong persons, etc. Yet, out of the trial and error emerges in the minds of several perceptive individuals a refined sense of what is required. Such was the case in Ahmad Bey's Tunisia and Bin Diyaf, himself, represents better than anyone that perceptive second view of those who realize both what went wrong and what must now be done.

In 1844 Ahmad Bey had opened a textile factory in Tebourba to provide uniforms for his new Nizami army. With European foremen this could have been the beginning of a modest European-style industrial sector, but Ahmad soon tired of the scheme and let it die. What, then, was Bin Diyaf's appraisal ?

«If only he (Ahmad Bey) had considered that the greatest profit was in clothing his soldiers and the people of his country by this factory so that the value of cloth which is bought from others would remain in the country not be mention the benefits gained by those living near the factory and those working in it, all of which would increase the country's prosperity and stimulate the local markets, etc., then he would not have lost interest. Even giving the factory (free and without paying rent) to a merchant to produce the cloth would have been better than to let it remain idle, for it was built at great cost. The traits of rulers of the Maghrib, however, tend toward

(35) French Ministry of Foreign Affairs Archives : Affaires Etrangères, Tunis.
وهو الذى كان يخبرنا بأحوال أوربا وكنا نتهمه بالمبالغة والاغراب حتى ظهر مصداق قوله للعيان .

(36) Bin Diyaf Biography No. 279.

The venerable mamluk, Mustafa Sahib al-Tabi', expressed perhaps better than anyone else the Spartan ideal of military and state service. Once when attempting to dissuade Shakir Sahib al-Tabi' from his scheming against Ahmad Bey (to no avail and Shakir was later executed) Mustafa insisted, «These men (the beylical family) have rights over us. Their hands are on our necks, for they bought us when we were young and we were raised sharing their good fortune. They gave us their daughters in marriage and the highest posts in their service. And thus we have become a part of them. None of us is bestowing a favor on them by serving, for without the inviolability which accrues to them we would neither obtain prestige nor advance one step in service. There are notables in the country from among the scribes and **mukhaziniyya** who could take our places and more. Why, if the Jewish qaid Yusuf, the tax collector, were given even half the esteem you have been granted he would accomplish things we have not even thought of» (33).

On a later occasion, Bin Diyaf reproached the same Mustafa Sahib al-Tabi' for always replying to Ahmad Bey «Whatever you wish». Mustafa retorted, «Do you think our service is limited to what is deemed of public interest and what is required by reason and experience without consideration of the wishes of kings ? Do you think you are in France, oh learned one ?»

«I could find no answer», Bin Diyaf admits (34).

The Shadow of Europe :

The major new variable in 19th Century Tunisian history was the accelerating pressure coming from Europe, a pressure that seemed to take every form — diplomatic, military, economic, political, ideological and even spil-

---

وهؤلاء السادة لهم علينا حقوق ، وأياديهم فى أعناقنا ، لأنهم اشترونا صغارا، وتربينا فى نعمتهم ؛ وقدمونا الى مصاهرتهم وعظائم خدمتهم ، حتى صرنا كجزء منهم ، لايمن أحد منا عليهم بخدمة . ولولا حرمتهم ما نلنا حظوة ، ولا نقلنا فى التقدم خطوة . وفى أعيان البلاد من الكتاب والمخازنية من يقوم مقامنا وزيادة . ولو أن القائد يوسف اليهودى القابض أعطى نصف حرمتك ، لفعل مالا يخطر ببالنا .

(33) Bin Diyaf III, p. 221.

فقال للمشير : « أى شىء تشتهى سيادتكم » ؛ فبين له مراده ، وانفض الجمع على غير رأى . ولما خرجنا انكرت عليه قوله : «أى شىء تشتهى سيادتكم ؟ » وقلت له : لو « أراد شهوته لفعلها بدون مشورة » ، فقال لى : « اذا غالطنا أنفسنا ، لا نغالط ربنا ، وهو أعلم بنا منا ؛ ناشدتك الله ، أترى خدمتنا مقصورة على المصلحة ، وما يقتضيه العقل والتجربة ؛ من غير اعتبار لشهوة الملوك ؟ أترى نفسك فى فرانسا أيها الشيخ ، ودليل ذلك عدم نتيجة هذا الجمع » ، فلم أجد جوابا .

(34) Bin Diyaf Biography No, 342.

Bin Diyaf, a cultured urbanite to the core even though only a first generation **Tunisois**, heatedly deplores the excesses of the military, noting that in the old days those «killers» from the Turkish **jund** would even steai the burnuses of those at prayer (28). Before the 1811 revolt of the Turkish **jund** the good citizens of Tunis were exposed to the excesses of the «Ramadan ghouls», Turkish soldiers out for fun and horseplay during the Ramadan nights. They would call at the houses of native notables for a gift that really amounted to blatant extortion. They used to call at Bardo Palace to receive the bey's Ramadan gift, but after the 1811 revolt the bey had this sent directly to their barracks (29).

Yet, Bin Diyaf retained a certain grudging admiration for the straight forward candor of the best of military officers. Mustafa Agha was a blunt military man who would «speak the truth without concern for the consequences» (30). And Rashid served as qaid of Sousse for a while after the execution of Yusuf Sahib al-Tabi', but he soon resigned «because it was not suitable to the military nature» (31).

Yusuf Amir Askar al-Zawawa was hailed before Ahmad Bey by a man from Bizerte who claimed he had taken 300 piastres from him. When Ahmad questioned him he admitted the charge. He was ordered to return the money, and after he left the bey's audience Ahmad turned to his minister, saying «Yusuf doesn't know the ways of governors». When Yusuf was informed of Ahmad Bey's reaction, he replied simply that he hated to lie «to our master». Ahmad, upon learning of this response, resignedly concluded, «Yusuf's character fits him only for military service, not provincial administration» (32).

---

(28) Bin Diyaf III, p. 56. He adds that things were even worse in Algeria.
(29) Bin Diyaf III, p. 57.

يقول الحق ولا يبالى

(30) Bin Diyaf Biography No. 373.

لمبانيها الطبع العسكرى

(31) Bin Biography No. 376.

شكاه رجل من أهل بنزرت للمشير أبى العباس أحمد باى بالمحكمة ، بأنه أخذ منه ثلاثمائة ريال ، وكان واقفا بين يديه ، فقال له المشير : « هل أخذت منه ما ذكره ؟ » ، فقال : « نعم » ، فاضطر المشير الى أن قال له : « رجعها له الآن » ، فرجعها . ولما خرج من المحكمة قال للوزير : « أن يوسف لا يعرف عادة العمال » ، ولما كلمه الوزير فى ذلك قال له : « سيدنا سألنى ، واستقبح الكذب ، خصوصا مع سيدنا » ، فقال المشير عند ذلك : « أن يوسف لا يليق بطبعه الا الخدمة العسكرية لا الخدمة العملية » .

(32) Bin Diyaf Biography No. 372.

There were, however, other clerks whose professional pride caused them to stand up to imperious ministers. Larbi Zarruq, hardly an easy-going man, got into an argument over usage with his clerk, Ahmad Mazyu. Finally, Zarruq insisted, «Write it as I wish. You are my clerk». To which Mazyu retorted, «I will write it as you wish except for the mistakes which would discredit the clerk». With that he resigned his post and became a cloth merchant. Only the pleas of Zarruq and several others ultimately caused him to relent and return to his old job where he remained «honored and of recognized standing» until his death in 1842 (25).

Perhaps a single story from the many found throughout Bin Diyaf's history can provide insight into the 'ulama value system. Shaykh Bayram II one day surprised his barber by greeting him pleasantly and inquiring about his family, for in the past this religious dignitary had hardly deigned to say a word. When the barber politely asked the reason for this change of attitude Bayram II pointed out that he had resigned his post as qadi. While a qadi it would not have been proper for him to have «contacts with people» since this might impinge upon his judicial impartiality. Now, however, he was free to resume his normal social relationships (26).

And if, as has been seen, the office of **shaykh al-madina** in Tunis was not sought by the highest ranks of Tunis society, one man who filled that post in exemplary fashion won the following lavish praise from Bin Diyaf «The city in the days of his tenure was well guarded and genial. By nights he would tour the city's streets investigating any flaws in her houses. He strove to preserve the good, honorable life to the extent possible. Saddened, he would attend their funerals. Joyous, he participated in their celebrations» (27).

أكتب كما أحب أنا لانك كاتب لى

اكتب كما تحب الا الخطأ الذى يعاب به الكاتب

(25) Bin Diyaf Biography No. 257.

الم تعلم انى كنت قاضيا ؟ وصاحب هذه الخطة يلزمه ان يتباعد عن مخالطة الناس بالتودد لهم .

(26) Bin Diyaf Biography No. 404.

وكانت المدينة أيام ولايته محروسة مأنوسة ، يدور أزقتها ، ويجوس خلال دورها ليلا ، يتوخى بقاء الستر ما استطاع ، ونبت حبه فى قلوب أهلها النبات الحسن ، يعود مرضاهم مشفقا ، ويحضر جنائزهم حزينا ، وأفراحهم مسرورا .

(27) Bin Diyaf B'ography No. 149. It was this man who advised Bin Diyaf's father on marriage.

would reply, «Oh sir, my father was so-and-so and my grandfather was so-and-so». The chiefs of the Turkish Hambas would assert that this was not true and would swear that his father was Uzun Muhammad or Dali Bash or kur Ali or some other Turkish name. Their testimony would be accepted and the boy duly registered in the **diwan aljund**» (22).

Professional Ethics :

Superficial and a historical accounts of so-called traditional societies have both blurred the rich diversity of pre-modern societies and tended to obscure the degree of functional diversity in bureaucratic polities. Husaynid Tunisia in the 19th Century was small, underpopulated (perhaps 1,500,000) and economically stagnant, but none of these limitations stood in the way of institutionalized political specialization. The scribes, the military, the ulama and many others had each their own rules and their own esprit. Bin Diyaf is an essential source for revealing both the broad lines and the nuances dividing these different groups.

Himself a **katib**, Bin Diyaf was at his best in depicting that group. He writes that one of his colleagues had a shaky training as a clerk, but was «not too proud to ask questions» (23). For another, Bin Diyaf had only scorn. «His equipment as a scribe consisted of no more than copying the letters of the alphabet, badly and misspelled». Not surprising, really, for this man had not bothered to get a good academic preparation, his formal schooling limited to attendance at «some zawiya in Le Kef» (24).

كما تقدم ، لاسيما وقد أشرك معهم في الخدمة الجندية عددا كثيرا من أبنائهم المولودين في البلاد ، بل وغير أبنائهم ، فكان اذا رأى شابا قوى الجسم من سواد البلاد يقول له : « أبوك تركى ومات ولم يرسم اسمك في الزمام ، وأنت لم تأت لرسم اسمك مع اخوتك هزوبا من مشقة الخدمة » ، فيقول له : « يا سيدى أبى فلان وجدى فلان » ، فتكذبه رؤساء حوانب الترك ، ويشهدون بأن اباه « ازن محمد » أو « دالى باش » أو « كور على » ، وغير ذلك من الألقاب التركية ، فيعمل شهادتهم ، ويثبته فى ديوان الجند .

(22) Bin Diyaf, III, p. 54. Bin Diyaf sees this as one cause cnotributing to the Turkish revolt of 1811.

وان كان قاصرا في الانشاء معترفا بقصوره لا يأنف من السؤال

(23) Bin Diyaf Biography, No. 315.

وليس من أدوات الكتابة سوى رسم الحروف على تحريف ورداءه في بعض زوايا الكف

(24) Bin Diyaf Biography No. 201.

were not always ethnically or linguistically Turks), in both cases of modest or usually even unknown family origins. Such persons, whether their entry into the service was planned or fortuitous, needed only their own talents to rise to the top.

Ali Balhawan came to Tunis as a wrestler for a match, intending thereafter to return home. Mahmud Bey, however, would not permit the match unless Ali signed the **diwan al-jund** (i.e. enlisted in the army). Ali protested, «I have left my cattle and my farmlands in my own country». The bey was adamant, and Ali Balhawan thought it prudent to give in. He defeated the wrestler he had come to fight, became a favorite of the bey, was installed in the Turkish Hambas (cavalry), and went on to a distinguished career in Husaynid Tunisia (20).

Kashk Muhammad al-Dey of Albanian origins had come to Tunisia to trade. His maternal uncle, already serving in the Tunisian navy, simply shamed him into joining the military. «Where are the merits of traders as compared with the patience and steadfastness (of soldiers and sailors) in the face of danger ?» (21).

In the military with such pragmatic notions of admission and advancement one might well wonder that more competent native Tunisians did not manage to challenge the idea that Turks and mamluks always made the best soldiers. It is well known that during Ahmad Bey's long reign great strides were taken toward nationalizing the Tunisian military service, but for an insight into earlier practice we are indebted to Bin Diyaf's keen sense of the significant and his ability to use a simple anecdote to convey an important point. Hamuda Bey, he writes, «included with the (Turks) in military service a great number of their brothers born in this country (i.e. kulughlis and even other than their brothers. Whenever he saw a young man strong of body from the common people of the country, he would say to him, «Your father was a Turk and died without having inscribed your name on the register. Why don't you come with your brothers and sign your name in order to escape the drudgery of your present work ?» The boy

(20) Bin Diyaf Biography No. 170.

سبب قدوم هذا الرجل من بلده الى هذه الحاضرة ، ليصارع بهلوانا كان فى الحاضرة ، فقال له الباى أبو محمد حمودة باشا ، لا نأذن له فى مصارعتك ، الا اذا اثبت اسمك فى ديوان جندنا ، فابى وقال له : « تركت بقرى وفلاحتي فى بلادى » . ولم يزل يتمنع ، فاضطر الى النزول ، خشية ان يعير بالخوف وصارع هذا البلهوان ، فغلبه ، واولاه الباى عوضه ، وجعله فى حوانب الترك . وترقى الى أن صار رئيس الحوانب .

أين اخلاق التجار من اخلاق الصبر والثبات فى المخاوف !

(21) Bin Diyaf Biography No. 340.

you must become as other men of government acting as they do without any other distinction» (17).

As with most traditional, hierarchically structured societies Husaynid Tunisia seemed to prefer a lapse of at east one generation before a parvenu's family was accepted as prominent. Bin Diyaf often provides a clue to social ranking in the first line or so of his biography with a qualifying epithet such as «This shaykh (or noble person, excellent individual, etc.) was born ...» Or, Bin Diyaf might mention distinction of the family.

For a certain Sulayman ibn al-Haj, who rose from obscure provincial origins to become for a time the leading governmental concessions farmer, Bin Diyaf laconically begins, «This man was born in Ghar al-Milh»». And no further reference to family background was forthcoming. Yet, the next generation fared better. His son, Hamida, was described as distinguished (wajih) (18).

The office of shaykh al-madina in Tunis was clearly important both to the Husaynid dynasty which required peace and security in the capital and to the bourgeoisie of Tunis who prized tranquility and good order. Yet, ironically the office brought only limited social prestige. When a member of the al-'Asfuri family, of Andalusian origin who had come to Tunis to serve the Hafsids, was offered the job «the people were surprised that he accepted it for it was not one of the posts taken by his family and it was not in harmony with their normal activities» (19). Apparently, the socio-political hurly-burly surrounding the job made it appear beneath the dignity of the Tunis **haute bourgeoisie.**

Advancement and recognition seemed to come most readily in the religious and military professions. Shaykh Ibrahim al-Riyahi, of modest provincial origins, was even considering emigrating for lack of work when he found a patron among the mamluk class. Yet, within a few years he had risen to an unchallengeable social standing.

As for the military, the normal — and at the same time ideal — pattern was for the top positions to be filled by men who had begun their careers as mamluks or free Turks (or, more precisely, foreigners, for they

---

بالامس كنا نقوم لتلقيك اجلالا لسلفكم ؛ وحين لم ترض بيوتهم وأكرت عنها الولاية المخزنية ، فلابد أن تكون كرجالها ، تفعل ما يفعلون ، من غير فرق

(17) Bin Diyaf Biography No. 138.

(18) Bin Diyaf Biographies Nos. 199 and 294.

(19) Bin Diyaf Biography No. 367. تعجب الناس من قبوله اذ لم تكن من خطط آله

Such are examples of incidents and data which, when carefully pieced together, can provide a tableau of Husaynid society, but like every portrait it is a static representation, frozen in time. It remains to see how people moved up and down in this complex structure.

Social Mobility :

In ine brief biography Bin Diyaf dryly observes that the only respect and consideration given the descendant of a celebrated Tunisian saint «stemmed from the **baraka** of his ancestor» (16). Here, clearly, was a man with a precarious hold on an inherited prestige. At the same time, a social standing based on who you were rather than what you did could usually be maintained barring especially deviant behaviour. A certain Abu al-Ghayth al-Bakri even crossed that line. He was of a family that had furnished the principal imams of Zitouna for over 190 years. His father, although poorly qualified, was the last of the family to be appointed. Abu al-Ghayth, «lacking anyone to admonish and raise him» after the death of his father, got into government concession farming. His ill-conceived business ventures even obliged him to sell habous properties belonging to the family zawiya (and it seems clear from Bin Diyaf's tone that this provoked a social censure similar to that a Boston brahmin might mete out againset anyone rash enough to dip into the family capital).

It was the custom for governmental officials to rise out of respect for azwiya shaykhs, but when the hapless Abu al-Ghayth appeared before a group the chief minister, Labri Zarruq, tersely informed him, «we used to rise to greet you out of respect for your ancestors, but since you were not satisfied to follow in their way preferring instead governmental positions

---

= بدار قنصل الفرنسيس فأرسل القنصل الى الباى فى الحين ، يستكشف خبر ذنبهم ، لأنهم أخذوا خارج داره . وتواردت عليه الشكايات فى الحين من أرباب المماليك بباردو وارباب البساتين فوجم ، لأنه كان يظن أنه يتوقف امضاءاذنه على كيفية معقولة يعلمها قبل وقوعها . هذا ، ووصول القنصل بباب دار الباى فى باردو ، فلم يسمه الا اوسال وزيره مصطفى صاحب الطابع فى الحين الى القشلة ، لان الوزير شاكير بالمحمدية ، وامره بتسريح من بها من السودان.

وحملنى الوزير معه ، فأتى القشلة فوجد الأمير آلاى على كرسى أمامها ، شامخ الأنف كأنه استولى عنوة علي مدينة مات فى حربها أكثر جيشه ، والقشلة مملوءة بالسودان (على الأرض كأنهم أسرى حرب) (1) ، والعساكر لم تزل قادمة بهم ، جماعة بعد جماعة كالسوائم ، فقال للامير آلاى بلطف : « ما هذا الصنيع ؟ » فقال له : « يتأتى الجمع بغير هذه الكيفية ، ولما يجتمع من بالحاضرة من السودان ، يأتى تمييز المملوك من المعتوق » ، فقال له : « هل أحضرت لهذا العدد العشاء ؟ » فأعرض عن جوابه . وامر بتسريح جميعهم ، وخرجوا كالحمر المستنفرة ، وغص بهم الباب .

(16) Bin Diyaf Biography No. 175. مستمد من بركة جده

Bin Diyaf can provide a few clues and insights. For example, a Sudanese shaykh visiting Tunis expressed resentment at what he believed to be a slight because of his color (14).

Or the following story speaks for itself : «In the year 1252 (1836-1837) the minister Shakir Sahib al-Tabi' proposed filling the ranks of the Nizami army with freed Blacks. The bey approved the idea, and immediately the minister ordered General Salim to recruit 1,000 men from among the freed Blacks. He did not, however, give orders about how they were to be gathered nor the timing, and the general chose a means of his own creation. He went to the barracks of the capital, assembled the soldiers, ordered them to patrol the city and its environs, and to bring his every black-skinned man whether free or slave, whether waraqli, Hamruni or Fezzani. The soliders brought back some of the Hambas and doormen. They even came back with the bey's groom. The general placed everyone they brought back into the barracks, even the Mukhaznis whom he recognized, explaining to them, «If I let you free now, they would only bring you back again». They went out to Mannuba (near Tunis, beyond Bardo) and elsewhere. They went to the bey's gardens and other places whence they returned with slaves and servants. They created such a tumult in the city that many shops were closed ...»

Bin Diyaf, accompanying the minister who went out to settle the issue relates the denouement with sardonic humor : « He (the minister) found the general haughtily seated in front of the barracks as if he had just forcibly captured a city in which battle he had lost most of his army. The barracks meanwhile were filled with Blacks ... group after group like herds of cattle.» The minister quietly asked if dinner had been prepared for this throng, and when the nonplussed general replied in the negative the minister ordered that all be immediately released (15).

(14) Bin Diyaf III, pp. 124-125.

(15) Bin Diyaf III, pp. 207-208.

وفى السنة (1252 1836/37) م .) ، أشار الوزير شاكير باثبات طابور فى عسكر النظام
من السودان المعتوقين ، واستحسن الباى هذا الرأى . وفى الحين أمر الوزير الامير آلاى سليم
بتنزيل (٣) ألف رجل من السودان المعتوقين . ولم يأذنه بكيفية أخذهم ، ولا بكونه فى اليوم.
فاخترع الامير آلاى كيفية أنتجها فكره ، وهو أنه أتى قشلة الحاضرة وجمع العسكر وامرهم
بالدوران خلال البلاد وضواحيها ، وأن يأتوه بكل أسود اللون من حر ومملوك وورقلى وحمرونى
وفزانى ، أتوا ببعض الحوانب والبوابة ، حتى أتوا بسائس مراكيب الباى ، وكل من يؤتى
به يوقفه آلاى بالقشلة ، حتى المخازنية الذين يعرفهم قال لهم اذا سرحتكم الآن يرجعونكم .
وتوجهوا الى منوبة وغيرها ، وأتوا بساتين الباى وغيره ، وأخذوا المماليك والخدمة منهـا .
ووقعت فى لبلاد هيعه غلقت بسببها كثير من الحوانيت حتى تمكنوا بأنفار سمر (٤) خدمة =

the distinguished». The order of precedence for the three Zitouna imams was not to be linked to other positions their incumbents might hold, but the newly appointed mufti graciously agreed not to walk ahead of the second imam (10).

Another shaykh failed to invite all members of the Majlis al-Shar'i to attend his final lecture in a special series at Zitouna. The lecture was accordingly botcotted by the 'ulama, and to make matters wors ethe bey refused to intervene. The chagrined shaykh remained estranged from his colleagues until they all happened to be together at a funeral. There, pointing out that he and other 'ulama, as custodians of religious knowledge, were expected to show brotherhood and forgiveness, he exclaimed, «I bear witness before God that I forgive all of you». He asked that they do the same for him. This gesture was immediately accepted and amicable relations restored (11).

The obedience and respect a son owed his father throughout his lifetime was expected ot characterize student-master relations as well. A qadi, overruled by his former teacher, insisted on appealing the point at issue before the bey and the **Majlis al-Shar'i.** He even asked the bey's permission to read certain citations supporting his view-point. This was too much for his former teacher, none other than the celebrated Shaykh Ibrahim al-Riyahi, who cried out, «Stop ! Impudent person.», and insisted on resigning. The bey and several 'ulama exerted considerable effort before al-Riyahi agreed to calm down and withdraw his resignation (12).

What literate, hierarchical society has not had a complex pecking order based on the old school tie ? The Oxford, Harvard and Al-Azhar of Husaynid Tunisia was, of course, Zitouna. Once a Tunis 'alim in an argument with a provincial qadi tried to shame his opponent into silence by asking «Whom did you study under ?» The provincial qadi quick-wittedly replied, «Fear God and He will teach you.» To his credit the Tunis 'alim admired the response and praised the qadi (13).

Although it is generally recognized that neither master-slave nor white-black relations had anything like the harsh segregation typical of planation economies in the Americas, the daily modalities of these social interactions still await the painstaking reconstruction of a careful historian. Again,

(10) Bin Diyaf Biography No. 384. — شان لأفاضل
(11) Bin Diyaf Biography No. 296. — اشهدكم انى سامحت كل واحد منكم
(12) Bin Diyaf III, pp. 214-216. — قصر يا قليل الحياء
(13) Bin Diyaf Biography No. 113. — عمن أخذت لاملم ؟ واتقوا الله ويعلمكم الله .

The Pecking Order

Husaynid Tunisia like most traditional bureaucratic polities boasted a carefully nuanced scale of social, political and economic classes bound together by the general notion of a place for every man and every man in his place. The broad lines are not unfamiliar to students of the Ottoman or Arabo-Muslim world — a sharp separation of state and society, within the state clear distinctions between men of the pen and men of the sword, a religious establishment that thought of itself as a separate «estate,» and throughout the larger society a complex segmentation according to rural-urban, male-female, Muslim-non-Muslim dichotomies to which were added differences based on locality, tribe and occupation. For the finer points, however, one turns to the discrete detail Bin Diyaf provides.

The upper ranks of the poitical elite, just below the beylical family itself, were filled by the mamluks, perhaps some 200 plus occupying the major positions of power at any time in the first half of the 19th Century. Yet, Bin Diyaf reveals that even this small, elite corps boasted several ethnic rivalries — Circassians, Georgians and mamluks of «Rum» (Greeks and others from the Mediterranean areas). Further, the Circassians and Georgians disparaged the mamluks of Rum, deeming them no better than native sons (**ahl al-balad**) (8).

At an official procession the iron-willed Hamuda Bey showed up wearing a wool **taylasan** made in Jerba. He let his entourage know that he preferred the local product to cashmere, thus keeping the wealth in the country. Upon hearing this Hamuda's chief clerk hid for a moment to remove his own cashmere **taylasan.** Then he borrowed the **taylasan** (made in Jerba) of the shaykh of the Bardo madrasa (9). Clearly, the good shaykh of the Bardo madrasa was so far back in the official procession that what he wore would mercifully escape Hamuda's attention.

Punctilio and protocol often attain exaggerated levels among institutionalized bodies of scholars and men of religion (possibly because, as cynics would have it, they have no easily measurable criteria of performance such as battles won, crops produced or goods sold). Such was surely the case in Husaynid Tunisia.

When a certain 'alim, then the third imam of Zitouna mosque, was appointed mufti he refused to walk thereafter behind the second imam. Mediators finally achieved a negotiated settlement «as usually happens among

(8) Bin Diyaf VII, p. 29.
(9) Bin Diyaf III, p. 78.

Bin Diyaf as a Social Historian :

The format of Bin Diyaf's history follows the time-honored pattern of annals with the events of each year arranged separately. The biographies of notables, instead of being placed according to year of death to follow the narrative account of that year, are grouped together in the final section of the work — but even so they are presented in chronological order of death date.

The tyranny of a narrative, chronicle style and strict observance of time sequence would seem to preclude careful study of specific topics and consideration of context. Exaggerated attention to the temporal flow of events can easily inhibit proper presentation of the social constants — what the social historian might dub the «portrait of an age».

Yet, Bin Diyaf, just like the best of narrative historians in all times and cultures, manages to break out of the strait jacket imposed by the narrative, chronological style. This is done in a variety a ways — flashbacks and digressions into topical history when an important event is introduced, a skillful blending of narrative and biographical materials, and a generous use of cross-referencing. Even so, the genius of this kind of history at its best lies not in the way the narrative, chronicle style is circumvented or ignored but rather in the steady accretion of data, insights and interpretative touches that, in sum, add up to the very «portrait of an age» sought by the social historian. This is what Gibb meant in insisting that one must «tease» the information from these rich but elusive sources.

To demonstrate Bin Diyaf's strength as a social historian, we have classified a few of the more illustrative stories and incidents from his history under the following rubrics :

The Pecking Order
Social Mobility
Professional Ethics
The Shadow of Europe
The Human Touch

This somewhat artificial analysis makes Bin Diyaf look much more anecdotal than is the case, and a superficial reading might convey the impression of Bin Diyaf as similar to al-Mas'udi at his worst. Actually, Bin Diyaf was an especially well-organized historian who presented a taut narrative within a clear conceptual framework. What follows does not do justice to Bin Diyaf's narrative skills. It is, rather an attempt to show how Bin Diyaf can use the seemingly banal incident or insignificant event to reveal the social patterns and prejudices that gave life in 19th Century Husaynid Tunisia its own cachet.

could be bound by fixed, reliable laws governing the rate and modalities of taxation then the hard-pressed subject would work to improve his lot, secure in the knowledge that the fruits of his extra effort would remain for him and his heirs to enjoy. If only rulers would abolish monopolies, desist from tampering with coinage, remove petty taxes, facilitate industry and serve as a court or last resort against the tyranny or bureaucrats and provincial officials, etc... In short, this product of Zitouna was in tune with the world of Adam Smith, David Ricardo and Guizot.

If constitutionalism and liberalism form the major organizing theme of Bin Diyaf's history, a secondary theme figures especially for the period of the 19th Century. This is the idea of a Tunisian patriotism and nationalism. Or, to put the matter more precisely, Bin Diyaf preached the need for a «Tunisification» of the Husaynid state and society. The Ottoman-Husaynid notion (with roots as well in the Hafsid polity) of an ethnically and linguistically separate class ruling over supposedly politically incompetent subjects (**ra'iyya**) must, Bin Diyaf insisted, give way to a more open system in which the «sons of the country» (**abna al-balad**) would have equal access to every office. Further, the Maliki school of law, followed by the overwhelming majority of native Tunisians, must have equality with the Hanafi (the official school of the Ottoman Empire and thus followed by the Turko-Mamluk ruling elite in Husaynid Tunisia).

Many of the ideas to be found in Khayr al-Din al-Tunisi's **The Surest Path** (7) and hammered out by the school of reformers who rallied around that statesman during the 1860s and 1870s may be found presented in the context of Tunisian history by Ahmad ibn Abi Diyaf.

At the same time — and this is the measure of Bin Diyaf as a historian — this 19th Century Arabo-Muslim scholar gave a liberal constitutionalist interpretation of Tunisian history without distorting his evidence and while amassing the most impressing historical narrative of 19th Century Tunisia available. This, in short, is the case for arguing that Bin Diyaf meets the first two characteristics of a great historian. It remains to consider if he also meets the third — that of making a historical period come alive.



(7) Khayy al-Din al-Tunisi, **Aqwam al-Masalik fi ma'rifa Ahwal al-Mamalik**, Tunis, 1867. A French translation appeared the following year entitled : **Réformes nécessaires aux pays musulmans.** The present writer has produced an English translation, with commentary and notes, of the **muqaddima** under the title : **The Surest Path. The Political Treatise of a 19th Century Muslim Statesman**, Harvard University Press, 1967.

Volumes VII and VIII from the **khatima** or biographical dictionary. The biographies of Tunisian notables are conveniently arranged, as is traditional, according to death date (6).

To some extent, Bin Diyaf felt constrained by that venerable canon of Muslim historiography requiring the serious historian to begin at the beginning, e.g. either the creation or as in the present case the advent of the Muslim period in Ifriquiyya. Fortunately, however, he devoted little time to summarizing other sources for the period up to the late 18th Century (e.g. the second part of Volume I and Volume II in the published edition). Even in this portion, relying almost exclusively on a few earlier chronicles Bin Diyaf demonstrates his narrative skills. It also gives him an opportunity to adumbrate the theme that figures with increasing prominence from Volume III onward — the baleful effects of absolute monarchy and the necessity for constitutionalism.

It was precisely in this realm that Bin Diyaf was interested in, and willing to borrow from, Europe. Bin Diyaf was monolingual. He had access neither to the give-and-take of conversation with Europeans in their own languages nor directly to their written works. Yet, he managed to absorb many of the basic principles of classical European liberalism and, moreover, to integrate them smoothly into his own cultural heritage. He could tie together, for example, the incipient constituionalism of Sulayman the Magnificent's **qanum** and the constitutional charters of 19th Century Europe.

Going even farther back in time he could draw (as in the first part of the **muqaddima**) on classical Islamic arguments asserting that consultation was required both by the **shari'a** and by reason. At the same time there emerges in his many Islamic citations throughout the work the image of a flexible, open and cultured Muslim most at home with the gentle school of modest reformism. The puritanical dedication of an Ibn Taimiyya or an Ahmad ibn Abd al-Wahhab would have left him if not downright hostile at least disconcerted. He was, from all evidence, a pious and cultured Muslim, but not a rigid doctrinaire.

His common sense tempered by experience made him feel especially comfortable with the ideas of European economic liberalism. If only the ruler

(6) There is, in addition, a critical edition of Bin Diyaf's original chapter VI, or that portion of his chronicle dealing with the reign of Ahmad Bey (1837-1855) prepared by Ahmed Abdesselem (Publications de l'Université de Tunis, 4ème série : Histoire Volume XII, Tunis, 1971). This edition has a good introduction by the editor, is carefully indexed, contains a useful year-by-year summary of Ahmad's reign extracted from the Bin Diyaf chronicle, and includes the text of several documents (from the Tunisian National Archives) referred to in Bin Diyaf's history.

1. A **muqaddima** or introductory section

2. Eight separate chapters

3. A concluding section (**khatima**)

The **muqaddima,** in turn, is divided into two parts : (a) a disquisition on Muslim political theory built around a well-reasoned argument for constitutional monarchy, and (b) a summary history of Tunisia from the beginning of the Muslim period until the reign of Hamuda Bey, beginning in 1782.

The eight separate chapters treat seriatim the reigns of the Husaynid beys from Hamuda to Muhammad al-Sadiq who was reigning at the time of Bin Diyaf's death.

The **khatima** is actually a biographical dictionary of just over 400 leading religious and political figures, the overwhelming majority being contemporaries of Bin Diyaf or those who had lived recently enough to have been known personally to Bin Diyaf or others of his generation.

It might be useful to relate the author's own format for the history to the only available published edition, that of eight volume published in Tunis between the years 1963-1966 (and now, unfortunately, out of print). Volumes I and II cover Bin Diyaf's **muqaddima.** Volume I contains the interesting essay on political theory (a short 77 pages) followed by the first part of Bin Diyaf's summary history treating the period from the Muslim conquest to the end of the Hafsid dynasty.

Volume II covers the period from the Ottoman conquest through the reign of Ali b. Husayn (1759-1782).

With Volume III the detailed history of Husaynid Tunisia and Bin Diyaf's original contributions begin. Almost one half of Volume III treats the important reign of Hamuda Bey (1782-1814), the remainder covering the reigns of Uthman (1814), Mahmud (1814-1824), Husayn (1824-1835) and Mustafa (1835-1837).

Volume IV deals with the reign of Ahmad Bey (1837-1855) and Muhammad Bey (1855-1859). Volumes V and VI cover the reign of Muhammad al-Sadiq until the end of the chronicle (1872), the last few years very sketchily treated.

Bin Diyaf, by contrast, was more content to observe and record while remaining scrupulously loyal to the existing political system in which he found himself. He had strong poitical ideas, as will be noted ; but his life style was more that of a civil servant than a politician. And his ambition was circumscribed by the Husaynid equivalent of permanent under-secretary rather than Prime minister or even minister. His perspective was clearly rooted in time and place. Further, he possessed that delicate sense of irony and detachment that can make a man a historian even while living in the turmoil of rapid political change.

It would be hard to imagine a life and career that would better prepare an individual for the task Bin Diyaf set out to accomplish in those latter years of his life. Living among the political elite throughout his career he nevertheless maintained the strong ties with the ulama class begun in his early manhood. And his ties to this group gave him access to the bourgeoisie (**baldiyya**) of Tunis.

Further, although fully accepted by the political elite and the Tunis bourgeoisie, Bin Diyaf remained only a first-generation Tunisois. For the traditional society of his age this meant that he was, in a sense, still marginal in the eyes of the Tunis old society. His marginality gave him greater sensitivity to the complexities of social and economic classes in Tunis (5). The tribal and provincial origins of his father also provided access to and knowledge of that larger Tunisian society beyond the city walls of Tunis.

His career offered him sufficient knowledge of the foreign community in Tunis and travel abroad to become aware of the imposing threat Europe posed for Tunisia, and for that matter the entire Muslim world. At the same time, his was the generation, like that of Egypt's Tahtawi, that could observe and describe Europe and its way with a feeling that there was yet time to accept cautiously and selectively what Europe had to offer. His was the generation of optimistic, liberal reformers — not yet pushed to the extremes of uprooted frankifiers or religious reactionaries.

The Structure and Subject of Bin Diyaf's History

Ithaf Ahl al-Zaman bi Akhbar muluk Tunis wa Ahd al-Aman (Presentation to Contemporaries of the History or the Rulers of Tunisia and the (period of) the Fundamental Pact) was written during the decade 1862-1872. The author divided his work into :

---

(5) e.g. Bin Diyaf relates that his father was advised not to marry the daughter of a religious shaykh since the alliance of an old-established religious family with a newly established **makhzan** family seemed a bit strained. He, instead, married the daughter of a perfumer. Bin Diyaf, Biography No. 23.

(**katib al-sirr**) to Husayn Bey, a post which he maintained under subsequent beys for almost the next four decades. (4)

From 1827 until at least the early 1860's Bin Diyaf witnessed Tunisian history from a vantage point that would be the envy of any professional historian. To state this well-nigh unique advantage in contemporary American terms it is as if a Harry Hopkins, Arthur Schlesinger, Jr., or Henry Kissinger had served not just a Roosevelt, Kennedy or Nixon but all these presidents for a period of some forty years.

Bin Diyaf was numbered among those sent on missions to Istanbul and to Paris. He drafted the more important state papers, after participating in the discussions leading to such momentous decisions. He witnessed the rise and decline of major figures in the Husaynid political elite, just as he observed the complex ties linking that political elite with Tunisian society and the world beyond.

Ultimately, by the 1860's Bin Diyaf came to experience some of the defeats and disappointments inherent in politics. He never attained the coveted position of **bash katib**, and by roughly 1864 he had been deprived of all real influence and remained actually in semi-disgrace until his retirement in 1872, two years before his death (October 1874). These declining years evoke images of his father's lot and even more of his illustrious Tunisian predecessor, Ibn Khaldun. And, just as with Ibn Khaldun, it was the period of being brushed aside from the daily excitement and pressures of politics that made possible the scholarly enterprise. Bin Diyaf's history was written during the years 1862-1872.

Yet, comparison with Ibn Khaldun's political career is incomplete without a corrective contrast. Even the most cursory examination of Ibn Khaldun's career reveals him as a politician manqué. Ibn Khaldun sought political power and, when he could, he played the political game for the highest stakes. He moved from court to court in the Fourteenth Century Maghrib seeking a ruler upon whose shoulders he could stand in order to manipulate men and affairs. Thus, when obliged to retire for a period he wrote not a history (the **History of the Berbers** is incredibly bad, following as it does the brilliant **Muqaddima**) but rather a sociological analysis of how political power is created, maintained and lost.

---

(4) In brief, he played this crucial role, in name and in fact, through the remainder of Husayn Bey's reign, that of his brother and successor, Mustafa Bey (1835—1837), and that of the latter's son and successor, Ahmed Bey (1837—1855). While remaining in high positions for at least another decade thereafter he never had the same influence with either Muhammad Bey (1855—1859) nor Muhammad al-Sadiq Bey (1859—1882).

only son of al-Hajj Abi Diyaf who was one of the principal scribes (**Katib**) in the Hysaynid government. His family had provincial and tribal roots from the area east of Le Kef. Indeed, Bin Diyaf's father was born and raised there, immigrating later while still quite young to Tunis. The classic pattern of the ambitious young provincial seeking his fortune in the capital city and becoming in the process permanently wedded to its attraction is succinctly captured in Bin Diyaf's own biography of his father where he observes, «it was difficult for him to return to the country side after the refinement of the capital» (3.

And, consistent with the pattern of the provincial parvenu, Bin Diyaf's father, although of limited formal education, was able to assure his son a scholarly training at the feet of the most illustrious «ulama» in Tunis at that time. From the beginning this young man seemed destined for a career either in scholarship or in government service as a member of the scribal hierachy. His father, who had risen high in the ranks but also suffered a period of imprisonment following the disgrace and excution of his patron in 1815, may well have had some hesitations about which profession his only son should follow, but there is little doubt about his wish to see Bin Diyaf a thoroughly educated and cultivated 'alim.

The status of being numbered among the 'ulama could well serve as a cushion against subsequent adversity at the hands of a fickle government. Further, a solid religious training, and contact with the leading ulama of the day, could only enhance the standing of a provincial family now seeking to establish roots in Tunis.

In 1822, when only 20 years old, Bin Diyaf was included among the list of notaries (**adl**), and five years later Husayn Bey named him **Katib** in the Husaynid bureaucracy. Significantly, his father protested this appointment, arguing that his son was still too young and too inexeperienced. Was this the hard-earned prudence of a man who had tasted both the bitter and the sweet of service close to the centre of power ? Did he regret that his son was henceforth well launched on a career as government official rather than religious functionary ? Or was he simply, by his protest, attempting to impress upon Huṣayn Bey a sense of personal responsibility for the young Bin Diyaf ? Perhaps all three motives were at work.

Bin Diyaf quickly attained the important position of private secretary

---

(3). Bin Diyaf, Biography No. 235.
وصعب عليه الرجوع الى البادية بعد نعيم الحاضرة ·

— are unwittingly imposing the standards and ideas gleaned from another cuture upon this Arabo-Islamic source material. Not finding what they seek in the usual places, they perhaps too readily assume it is not to be found elsewhere either.

H.A.R. Gibb often insisted to his students that the information they sought had to be «teased» out of the Arabo-Islamic sources. In effect, he was arguing that the information required was there, but it did not readily fall into one's lap. The student had to become familiar with the mentality of these Arabo-Muslim scholars writing in another age and with different cultural assumptions. Once this step is taken, once the different style of conveying meaning is grasped, then a rich lode of social history is uncovered.

We became aware of Bin Diyaf's great value as a social historian while preparing a study on **The Tunisia of Ahmad Bey 1837-1855** (1). For this period there is no lack of rich archival material in the Tunisian National Archives. The consular reports, to be found especially in the British, French and American archives, add a different perspective. In addition, a considerable body of European accounts by traders, adventurers, military advisers and the like complement the several different indigenous sources. Yet, time after time, answers to the basic questions — What was life really like in this period ? What were these members of the political elite like ? What kinds of ideas, assumptions and views of the world did they carry about with them ? — were to be found through a careful reading and re-reading of Bin Diyaf's great work.

After summarizing Bin Diyaf's life and career, his great history, and the major ideas underlying that history, this article will be devoted to demonstrating — by selected citations from Bin Diyaf — his strengths as a social historian, as a man with an eye for the nuances of class distinctions, an appreciation of the prevailing mores, and an ability to seize the essence of an age — in all its life-like dimensions of triumph and tragedy, greatness and banality, humor, pathos and irony.



Bin Diyaf's Life and Career :

Ahmad ibn Abi Diyaf (2) was born in Tunis in 1217 (1802-1803), the

(1) Princeton University Press, 1974.
(2) The most complete study of Bin Diyaf's life and historical work is Ahmed Abdesselem, Les Historiens Tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe Siècles Essai d'histoire culturelle, Publications de l'Université de Tunis, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, 4e Série : Histoire, Volume XI, 1973. Abdesselem also critically evaluates, and where necessary corrects, earlier biographical information on Bin Diyaf.

providing life-like authenticity to the activities, motives and mores of the individuals and peoples under consideration.

The individual aptitudes of different historians will cause them to emphasize one or another of these characteristics over others. An Ibn Khaldun or a Toynbee are clearly most powerful in the second characteristic ; a von Ranke in the first and a Macaulay or Michelet in the third. At the same time , a great historian must have some control over all three. For example, a creative writer — a Sir Walter Scot or a Jurgy Zaidan — may produce excellent historical novels that truly make an earlier period come alive, but this is not the same as history. Or, model-building social scientists in the tradition of Max Weber may be strong on explanatory concepts, but when they lack the precise attention to historical detail (the first characteristic) and to the process of breathing life into a bygone age (the third) they must be classified as other than historians. Or, the historian who masters the first characteristic but totally lacks the other two must be judged a rather pedestrian performer whose works will have value only as building blocks in the hands of other, more creative individuals.

Such could be a possible check-list for considering whether Bin Diyaf and al-Jabarti qualify as great historians. The several contributions to this book on al-Jabarti illuminate het case for al-Jabarti. This article suggests a few points for consideration concerning Bin Diyaf. The argument presented is intended to be introductory rather than conclusive, provocative instead of definitive.

Further, Bin Diyaf's strengths or weaknesses in each of the three characteristics mentioned above will not be considered equally. We will, instead, concentrate on Bin Diyaf's ability to make the historical period come alive.

This choice is deliberate. Students of Arabo-Islamic history, whether medieval or modern, occasionally deplore the relative lack of sources that convey the affective aspects of their subjects. Details of early childhood, the many intimacies of daily life, how men and women lived, worked, played, fought and died — all these and many other seemingly minor points — that make up social history, are, it is sometimes argued, largely lacking. No autobiographies as self-revealing as Saint Augustine's Confessions ; limited biography, and even that quite stylized as with most of the **tabaqat** literature ; chronicless that speak of princes and petty wars but offer little on what life was really like even among the ruling elite ; and scarcey a word about the masses of people in the cities and the countryside — the refrain is familiar. It is not, however, beyond challenge.

Perhaps, scholars approaching these classical sources in Islamic history — chronicles, biographical dictionaries, legal and religious texts, etc.

Ahmad ibn abi Diyaf (usually referred to as Bin Diyaf) may be seen as the Tunisian al-Jabarti. Both wrote comprehensive histories of their native lands, providing rich accounts of the period spanned by their own lifetime. Both wrote from the perspective of being in or near the seat of political power. Both lived in a period of great political and social change, provoked by new impulses coming from the West. And each described these changes with a perceptive eye for the old way of life being challenged and the new seeking acceptance.

Bin Diyaf and al-Jabarti may also be linked together in another sense. Claims may justly be advanced that both of these men were great historians. Not just conscientious chroniclers, perceptive observers or felicitous narrators but also great historians. And this assertion, in turn, provokes questions of definition and scale. What makes a great historian ? Are there certain criteria that remain consant across the boundaries of contrasting cultures and different ages ?

Although there can not be, and need not be, unanimity on such matters, we would suggest that at least the following three characteristics must be present in a great hisorian :

1. An ability to sift evidence, to distinguish the significant from the banal, and to select from an always limitless reservoir of historical data those elements that combine to offer a plausible account.

2. Powers of interpretation and synthesis, or a capacity to provide a conceptual framework into which the evidence fits without distortion and which gives coherence and meaning to the separate bits of evidence.

3. An artistic flair for making a historical period come alive, for

THE TUNISIAN AL-JABARTI

By

L. CARL BROWN

المادة الخامسة

الواجب على المشايخ والقضاة والأيمة (١) أنهم يلازموا (٢) وظايفهم وعلى كل واحد (٣) من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئن (٤) وكذلك تكون الصلاة قايمة فى الجوامع على العادة • والمصريين (٥) بأجمعهم ليشكروا فضل الله (٦) سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك (٧) قايلين بصوت عالى أدام الله اجلال السلطان العثمانلى أدام الله اجلال العسكر الفرانساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة اصرية •

تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ من شهر مسيدو (سنة ٦) من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية •

---

(١) فى ب ، ل : « المشايخ والعلماء والقضاه والائمة » •

(٢) فى م : « أن يلازموا » . وفى ب ، ل : « انهم يلازمون » .

(٣) فى ب ، ل : « كل أحد » •

(٤) فى ب ؛ ل ، م : « مطمئنا » •

(٥) فى ب ، ل ، م : « والمصريون » •

(٦) فى م : « يشكرون فضل الله » ، وفى ب ، ل : « ينبغى أن يشكروا الله » •

(٧) فى ب ، ل : « الانقضاء دولة المماليك » •

المادة الأولى

جميع القرى الواقعة فى دايرة قريبة بثلاثة ساعات (١) عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرنساوى (٢) فواجب عليها أنها ترسل (٣) للسر عسكر بعض وكلاء من عندها (٤) لكيما يعرفوا (٥) المشار اليه أنهم طاعوا (٦) وأنهم نصبوا السنجاق الفرنساوى (٧) الذى هو أبيض وكحلى وأحمر .

المادة الثانية

كل قرية التى تقوم (٨) على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

المادة الثالثة

كل قرية التى تطيع (٩) للعسكر الفرنساوى (١٠) الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوى (١١) وأيضا نصب سنجاق (١٢) السلطان العثمانلى محبنا (١٣) دام بقاه .

المادة الرابعة

المشايخ فى كل بلد ليختموا (١٤) حا جميع الأرزق والبيوت والأملاك بتاع المماليك (١٥) وعليهم الاجتهاد الزايد (١٦) لكيلا (١٧) يضيع أدنا شىء منها .

---

(١) فى ب ، ل ، م : « بثلاث ساعات» .

(٢) فى ب ، ل : « عسكر الفرنساوية » .

(٣) فى فى ب ، ل ، م : « أن ترسل » .

(٤) فى ب ، ل : « من عندها وكلام » .

(٥) فى م : « لكى يعرف » . وفى ب ، ل : « كيما يعرف » .

(٦) فى ب ، ل ، م : « اطاعوا » .

(٧) فى م : « الصنجق الفرنساوى » . وفى ب ، ل : « علم الفرنساوية » .

(٨) فى ب ، ل ، م : « كل قرية تقوم » .

(٩) فى م : « كل قرية تطيع » .

(١٠) فى ب ، ل : « كل قريه تطيع العسكر الفرنساوى أيضا تنصب سنجاق السلطان العثمانلى محبنا دام بقاؤه » .

(١١) فى م : « الصنجق الفرنساوى » .

(١٢) فى م : « وأيضا صنجق السلطان » .

(١٣) فى م : « حذفت الكلمة محبنا » .

(١٤) فى م : «على المشايخ فى كل بلد أن يختموا» . وفى ب ، ل : «يختمون» .

(١٥) فى م : «الخالصة بالمماليك» . وفى ب ، ل : «التى تتبع المماليك» .

(١٦) فى ب ، ل : « الاجتهاد التام » .

(١٧) فى ب ، ل : « لئلا » .

سابقا (١) فى الأراضى المصرية كانت (٢) المدن المعظمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر (٣) وما زال ذلك كله الا الطمع وظلم المماليك (٤) .

أيها القضاة والمشايخ والأئمة ويا أيها الشرباجية (٥) وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمين خالصين (٦) واثباتا لذالك (٧) قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دائما (٨) النصارى على محاربة الاسلام . ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .

ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين (٩) لحضرة السلطان العثمانلى وأعداء أعدائه وبالمقلوب المماليك (١٠) امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما طاعوا (١١) أصلا الا لطمع أنفسهم . طوبى (١٢) ثم الطوبى لأهالى مصر الذين يتفقوا (١٣) معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى (١٤) مراتبهم . طوبى أيضا للذين يقعدوا (١٥) فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين فاذا يعرفونا (١٦) بالأكثر يتسارعوا (١٧) الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا (١٨) مع المماليك ويساعدوهم (١٩) فى الحرب علينا (٢٠) فما يجدوا (٢١) طريق الخلاص يبقى منهم أثر .

---

(١) فى ب ، ل : « وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر » .

(٢) فى م : « كانت هناك » .

(٤) فى م : « الا الظلم والطمع من المماليك » .

(٥) فى ب ، ل : « أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية » .

(٦) فى ب ، ل : « مسلمون مخلصون » .

(٧) فى ب ، ل : « واثبات ذلك أنهم » .

(٨) فى ب ، ل : « دائما يحث » .

(٩) فى ب ، ل : « صاروا محبين مخلصين » .

(١٠) فى ب ، ل : « ومع ذلك أن المماليك »

(١١) فى ب ، ل ؛ م : « فما أطاعوا » .

(١٢) فى ب ، ل : « طوبى ثم طوبى »

(١٣) فى ب ، ل : « وتعلى » .

(١٥) فى ب ؛ ل ؛ م : « يقعدون » .

(١٦) فى م : « فاذا هم يعرفوننا » وفى ب ، ل : « فاذا عرفونا » .

(١٧) فى م : « يتسارعون » وفى ب ، ل : « تسارعوا » .

(١٨) فى م : « يتحدون » .

(١٩) فى م : « ويساعدونهم » .

(٢٠) فى ب ، ل : «لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا» .

(٢١) فى م : «فما يجدون» . وفى ب ، ل : « فلا يجدون بعد ذاك طريقا الى الخلاص» .

يأأيها المصريين (١) قد يقولوا (٢) اننى فى هذا (٣) الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه (٤) وقولوا للمفترين (٥) اننى ما قدمت اليكم الا لكيما أخلص حقكم (٦) من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمد والقرآن العظيم (٧) .

وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساويين (٨) عند الله الذى يفرقهم من بعضهم بعضا (٩) فهو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك (١٠) ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم يتملكوا وحدهم كلما يحلوا به حياة الدنيا . حيثما يوجد (١١) أرض مخصبة فهى مختصة للمماليك والجوارى الأجمل والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصا (١٢) .

ان (١٣) كانت الأرض المصرية التزام (١٤) للمماليك فليوروں (١٥) الحجة التى كتبها لهم الله فلكن (١٦) رب العالمين هو رءوفا (١٧) وعادل على البشر . بعونه (١٨) تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحدا من أهالى مصر (١٩) عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء (٢٠) بينهم سيدبروا الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

---

(١) فى ب ، ل : « يا أيها المصريون » .
(٢) فى ب ، ل : « قد قيل لكم » . وفى م : « قد يقولون لكم » .
(٣) فى ب ، ل ، م : « بهذا » .
(٤) فى م : « فلا تصدقونه » .
(٥) فى ب ، ل ، م : « للمفترين » .
(٦) فى ب ، ل : « الا لاخلص حقكم » ، وفى م : « الا لكيما اخلص دينكم وحقكم » .
(٧) فى ب ، ل : « واحترم نبيه والقرآن العظيم » ، وفى م « واحترم نبيه محمدا والقرآن العظيم » .
(٨) فى ب : « متساون » ، وفى ل ، م : « متساوون » .
(٩) فى ب ، ل : « يفرقهم عن بعضهم »
(١٠) فى ب ، ل : « وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى والخيل العتاق والمساكن المفرجة » .
(١١) فى م : « توجد » .
(١٢) فى م : « خالصا » .
(١٣) فى ب ، ل : « فان » .
(١٤) فى ب ، ل : « التزاما » .
(١٥) فى ب ، ل : « فليوروا » .
(١٦) فى ب ، ل : « ولكن » حذفت فى م .
(١٧) فى م : « رءوف وفى ب ، ل : « رءوف وعادل وحليم » .
(١٨) فى ب ، ل : « ولكن بعونه » .
(١٩) فى ب ، ل : « لا ييأس أحد من أهالى مصر » .
(٢٠) فى ب ، ل : « فالعلماء والفضلاء بينهم » .

APPENNDIX

The text of the first French proclamation, which follows, is taken from the Leiden MS. of al-Jabarti entitled **Ta'rikh muddat al-Faransis bi Misr,** Cod. Or. 2437, Folios 3a—4a. I have selected for collation with this, three of the several versions of the text contained in works of al-Jabarti which have already been published. The latter are represented in the footnotes by the following abbreviations :

= **Aja'ib al-athar fi'l-tarajim wa'l-akhbar, Bulaq,** Cairo ,1221, Vol. 3, 4 seq.

= **Aja'ib al-athar fi'l-tarajim wa'l'akhbar, Lajnat** al-bayan al-Arabi, Cairo, 1965, Vol. 4, 288 seq.

= **Mazhar al-taqdis bi zawal dawlat al-Furansis,** al-Hay'at al-Amma li shu'un al-matabi' al-amiriya, Cairo, 1961, 57 seq.

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله لا ولد له ولا شريك من طرف الجمهور الفرنساوى (١) المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية (٢) يعرف أهالى مصر جميعهم أن (٣) من زمان مديد السناجق (٤) الذين يتسلطنوا (٥) فى البلاد المصرية يتعــاملوا (٦) بالذل والاحتقـــار فى حق الملـــة الفرنساوية ويظلموا (٧) تجارها بأنواع البلص والتعدى (٨) فحضر الآن ساعة عقوبتهم •

واحسرتا (٩) من مدة عصور هذه الزمرة المماليك المجلوبين (١٠) من جبال الابازا والكرجستان (١١) يفســدوا (١٢) فى الاقليم الأحســـن (١٣) الذى يوجد (١٤) فى كرة الأرض كلها فأما رب العــــالمين القادر على كل شىء قد حتم (١٥) على انقضا دولتهم •

---

(١) فى ب ، ل : « من طرف الفرنساوية » .

(٢) فى ب ، ل : « أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته »

(٣) فى م : « انه » .

(٤) فى ب ، ل : « الصناجق » .

(٥) فى ب ، ل ، م : « يتسلطنون » .

(٦) فى ب ، ل ، م : « يتعاملون » .

(٧) فى ب ، ل ، م : « ويظلمون » .

(٨) فى ب ، ل « بانواع الايذاء والتعدى » .

(٩) فى ب ، ل : « واخرنا » ، وفى م : « واحسرتا » .

(١٠) فى م : « المجلوبون » .

(١١) فى ب ، ل : « من بلاد الابازة والجراكسة » وفى م : « من بلاد الابازا والكرجستان » .

(١٢) فى ب ، ل م : « يفسدون » .

(١٣) فى ب ، ل : « الحسن الأحسن » .

(١٤) فى ب ، ل : « الذى لا يوجد » .

(١٥) فى ب ، ل : « قد حكم » .

them by addressing them in their own tongue, the weakness of the language-simply helped to emphasize the foreigness of the proclamation's origins.

To sum up, we have in the first French proclamation and al-Jabarti's response to it a picture, in miniscule, of the initial stages in the large-scale interaction of Europe and Egypt in the modern period. Within the limited field of vision which this study provides, it would seem that inter-communication as opposed to interaction was not yet possible, given the degree of mutual cultural occlusiveness which existed.

person of the verb in حيثما توجد ارض for (Appendix, p.4), يعلى مراتبهم and (Appendix, p.6). The nominative is found as the predicate of Kàn in ان كانت الأرض المصرية التزام للماليك (Appendix, p.4). The improper use of gender is seen in بثلاث ساعات for بثلاثة ساعات (Appendix, p.7), and the accusative and genitive form of the sound masculine plural is wrongly used with the vocative in يا أيها المصريين for يا أيها المصريون (Appendix, p.3). The use of the accusative and genitve in place of the nominative is seen throughout the document. The 3rd. masculine plural of the verb is consistently without the nun, as for example in الذين يتسلطنوا for الذين يتسلطنون (Appendix, p.2). These are, of course, colloquial forms, as is the use of بتاع in the phrase والأملاك بتاع المماليك (Appendix, p.8). Indeed, the language of the proclamation is a curious mixture of a stilted classical and colloquial. Other usages are not so wrong in terms of theoretical possibility but are totally uncharacterstic of Arabic, such as the use of خالص for مخلص with the meaning of «sincere» (Appendix, p.5). In the phrase الا الطمع والظلم من المماليك (Appendix, p. 5) would be stylistically more proper and the curious expression وبالمقلوب المماليك (Appendix, p.5), is clearly intended as the equivalent of ومع ذلك أن المماليك the form into which it has been changed in the Bulaq edition.

I have mentioned here a few only of the many examples of the weakness in the language of the proclamation. That this was a source both of puzzlement and irritation to al-Jabarti is clear from the manner in which he introduces his commentary :

تفسير ما أودعه هذا المكتوب المنكوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة

Spelling mistakes are duly noted, sometimes with an acid comment, as in the case of the spelling of sanjaq with a sin ورسمه بالسين تحريف He comments on the dropping of the nûn, to which I have referred, as follows : وقوله يتسلطنوا صوابه يتسلطنون اذ لا وجه لحذف النون Colloquial usages are mentioned as being such ....

وهذه كلمة عامية خارجة من الطريقة العربية

He corrects المجلوبين to المجلوبون (Appendix, p.2), suggests that the fa'in فحضر (Appendix, p.2) is redundant and notes that يا أيها المصريين should be يا أيها المصريون (Appendix, p. 3), since it is a vocative.

The foregoing examples are selection only from al-Jabarti's remarks on the language of the proclamation. An indication of its impact on him is that his analysis of it takes up an entire folio in the Leiden MS. To judge by his reactions, it would seem that, in a document designed to relax the feelings of Egyptians and estblish a channel of communication with

to Egyptians the term was meaningless, or had, at the very least, a meaning very different from the one the French intended. To Egyptians, the Mamlūks were slaves and, **ipso facto**, they themselves were free. Therefore a rallying cry which called for their freedom could have no meaning for them. The same can be said, indeed perhaps more so, of the use of the word **umma**. To al-Jabarti, the word continued to have the same connotation that it had when used in the Constitution, of Medina, in the period following the Hijra; that is to say, it signified a religio-political entity which was defined by islam and not by concepts of ethnic or territorial nationalism. It would seem that the French had little understanding of the concept of the state in Islam, but I believe we can read into the use of these terms in the proclamation something more than a mere lack of knowledge. There is, perhaps, an element of cultural ethnocentricity involved, the assumption that their own fervently held beliefs were universally applicable and acceptable.

A further element in al-Jabarti's commentary is not related directly to the text of the proclamation. However, he uses the proclamation as the excuse for introducing it into his **tafsir**. It has to do with behavioural aspects of the interaction of the two cultures, French and Egyptian. Sexual values are his initial concern and he comments on the fact that French women were not kept secluded and were given to sexual licence. He is offended by what he regards as poor standards of personal hygiene and the practice of shaving the beard and leaving the moustache seems to him outlandish, as does the practice of mixing food together on one plate. These may seem to be puerile observations on his part, but they must be seem in the context of a society which was rigidly conformist in matters of dress and social custom, one in which the infringement of accepted mores would generate both shock and resentment.

The final aspect of the proclamation and al-Jabarti's response, with which I intend to deal, is that of the language and style in which it is written. It is a truism to say that the language and style in which a document of this kind is couched is a telling factor in determining its credibility and acceptance. In the case of Arabic this is particularly so, for language is a dominant index in determining Arab self-identity. Conversely, the degree of proficiency in Arabic which is shown by a foreigner is reflected in the blurring, somewhat, of the outlines of his identity as a foreigner.

By any standards, the Arabic of the proclamation leaves a great deal to be desired. Mistakes of grammar are too numerous to list fully. We have, for example, خليجات as the plural of خليج and the wrong

reaching the path of right guidance». Bonaparte's further claim, to respect the Prophet and the Qu'ran, is met with the statement : «If he respected the Qu'ràn he would venerate it and venetrate what is in it.»

So far from mollifying his religious susceptibilities, it is precisely a sense of religious outrage **which dominate al-Jabarti's response to the** Islamic element in the proclamation. It is clear that he was aware of the secular nature of the French Revolution, for he refers to the killing of priests and the destroying of churches. It is against this background of knowledge, however sketchy, that his reaction as a Muslim becomes focussed.

A further feature of the proclamation is the way in which it reflects certain ideological concepts of the French Revolution. He have, in the opening statement, for example, the reference to the French Republic having been built upon a foundation of freedom and equality (Appendix, p. 1)... المبني على أساس الحرية والتسوية The idea of equality is referred to elsewhere (Appendix, p.3)...

وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم بعضهم بعضا فهو العقل والفضائل والعلوم فقط

in the same category comes the recurring appeal, in the document, to Egyptian national spirit, evident in the use of such phrases as يا أيها المصريين (Appendix, p.3), أهالي مصر (Appendix, p.1), and الأراضي المصرية (Appendix, p. 5). the word umma is clearly intended to carry the connotation of nation, in the contemporary European sense, when used in such phrases as قولوا لأمتكم (Appendix, p. 5), and أصلح حال الأمة المصرية (Appendix, p.9).

Al-Jabarti response to this level of contextual material in the proclamation is an interesting one. Again, we see that he possesses some knowledge of the basic political philosophy of the French Revolution, as is clear from his comments on the word equality (تسوية). «Equality», as he puts it, «is the absence of eminence of one person over them. This is based on the equality which exists at the time of being created and in native disposition .... they have made that the basis of their approach ; great and small, noble and base, man and women are equal». However, the concept of equality has no meaning for al-Jabarti in political terms. Indeed it is to be rejected on religious grounds and is, as he says, «a lie, norance and folly — how can it be so when God has preferred some over others and the people of heaven and earth have borne witness to that». Similarly, the word freedom حرية has for him no political connotation. Freedom, as he defines it, is the opposite of slavery. Applied

Finally, there is the much quoted statement (Appendix, p. 5)...

قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمين الصين واثباتا لذلك نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دايما النصارى على محاربة الاسلام • ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين •

Whatever may be said concerning Bonaparte's later sympathy towards Islam, it is difficult to avoid the conclusion that these passages in the proclamation are manipulative in intent and designed to alley the fears of the Muslim population. It is clear that the French realized from the outset that the religious susceptibilities of Muslim Egyptians would be offended at finding themselves ruled by a power which was at best Christian and at worst atheist and that this was recognized as being a major obstacle to the successful occupation of the country (1). Yet, in spite of the accuracy of Magallon's assessment, there seems to have been a singular naiveté about the attempts to Islamicize the proclamation. This was certainly so, to Judge by the comments of al-Jabarti. In the section of this paper which follows I have used the Leiden autograph of **Ta'rikh muddat al-Faransis bi Misr** (2) to illustrate al-Jabarti's reactions to the proclamation.

On the issue of its Islamic content and colouring, those reactions are expressed in terms of a mixture of pained logic and anger. Commenting on he opening phrase, bismillah etc., he notes that the French, although having something in common with Islam, Christianity and Judaism are opposed to all of them in their failure to observe the forms and practices of religion. Indeed, they hold to no religion and are materialists... لَمْ يَتمسَّكوا مِنَ الأديان بدين فتراهم دهرية He dismisses the statement in the proclamation that it is God who has decreed the end of Mamlùk rule as كلام مستأنف the phrase he uses for propaganda, and tacks onto the phrase القادر على كل شيء «God who has power over all things», an imprecation against the French : «Within the compass of His splendid power and manifest miracles is the expulsion of these devils who have come to the pastures of the kings and the sultans. May God repel them and destroy them». Bonaparte's claim to worship God more than do the Mamluks is even more harshly dealt with. « This », says al-Jabarti, «is insanity and ignorance, not to mention the layer of unbelief (kufr) which lies upon his heart and which prevents him from

(1) De La Jonquière, op. cit., 1, p. 167.

(2) Folios 4a to 6a.

derstandably makes no attempt to duplicate the plethora of printing errors which mar it. The close parallel between the two versions is an indication of the accuracy of the Leiden autograph and underlines its importance in relation to the other MSS. and reputed autographs of al-Jabarti. A consideration of the dating of the latter lies outside the scope of this paper. However, my initial study of **Ta'rikh muddat al-Faransis bi Misr** confirms Moreh's conclusion that this is the earliest of al-Jabarti's writings, compiled close to the events he describes (1).

Unfortunately, al-Jabarti's concern for accuracy was not shared by the copyists and early editors of his books. As we see from the footnotes contained in the appendix to this paper, great liberties have been taken with the original text of the proclamation in the published editions of his works. These fall into several categories — first of all, there is the omission of the important word الجمهور from the preamble in the Boulaq edition (Appendix, p. 1, Note 1). We find, also, the extensive re-rendering of a whole passage (Appendix, p. 3, Note 10). In all the published versions there is a consistent elimination of the gramatical errors and stylistic clumsiness, which are such striking features of the original and are preserved by al-Jabarti in the Leiden autograph.

Turning our attention to the content of the proclamation and the nature of al-Jabarti's response to it, there are a number of contextual vantage points from which it may be viewed. The first, both in sequence of presentation and importance, is its appeal to Muslim sentiment and susceptibility. This is conveyed in a number of ways — as, for example, the use of phrases which are specifically Islamic (Appendix, p. 1).

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله إلا الله لا ولد له ولا شريك

or phrases with a distinctive Qur'ānic colouring to them (Appendix, p. 2)

فاما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم على انقضا دولتهم

and, similarly, the phrase (Appendix, p. 4).

فلكن رب العالمين هو رؤوفا وعادل على البشر

The attempt to identify with Islam is even clearer in the sentence (Appendix, p. 3).....

وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم
نبيه محمد والقرآن العظيم

---

(1) Moreb, S., Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and related Problems, B.S.O.A.S., XXVIII, 3, 1965, p. 537.

the question of other hands being involved. The proclamation was printed immediately prior to the landings at Alexandria (1) and was distributed throughout the city after its capture ; it was read in public places and posted upon buildings, Copies were sent to Cairo with the prisoners, mainly Maghribis, who had been captured by the Knights of Malta, then brought to Egypt by the French after their conquest of the island and set free (2).

The first proclamation is important on several counts. It reflects attitudes and assumptions which the French were making in regard to Egyptian society — assumptions as yet unqualified by the pragmatic realities of conquest and occupation. It enables us, also, to hypthesize as to certain unconscious assumptions which the French were making about themselves. It is important, furthermore, because we have in the writings of al-Jabarti a documented Egyptian response to the text of the proclamation itself. On the basis of his commentary, it is possible for us to speculate further as to the nature of the nascent patterns of cultural interaction and confrontation which emerged during the early months of the French occupation.

An initial difficulty, when discussing the first proclamation on the basis of the published texts of al-Jabarti's **Aja'ib al-athar fi'l-tarajim wa'l-akhbar** and **Mazhar al-taqdis bi zawal dawlat al-Faransis,** has been the many variant readings which exist. I am deeply indebted to my colleague, Dr. Ahmed el-Sawi, for making available to me the Arabic text of the original document issued by the French. On collating this with the text of the Leiden autograph of al-Jabarti entitled **Ta'rikh muddat al-Faransis bi Misr,** it is perfectly clear that al-Jabarti has made a direct copy of the original. It says much for his integrity as an historian and it is an eloquent testimony to his respect for his documentary sources that he was able to record faithfully the original version, in spite of its awkwardness of style and the many glaring infringements of elementary rules of grammar which it contains. There are very few discrepancies between his version and the original. For example, he writes الفرنساوى where the original has الفرنساوى and he subsitutes the tà'marbùta for the tà', which the original text uses as a terminal letter in the words دولت ، الحجت and القضات On one occasion, he forgets himself and writes الصنجاق الفرنساوى, but elsewhere he preserves the form which we find in the original proclamation. He also corrects رومية الكبرا to رومية الكبرى and النصارا to النصارى in spite of his concern to represent the original document accurately, he un-

(1) Geiss, Albert, Histoire de l'Imprimerie en Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien, 5, 1 (1907), p. 144.
(2) Al-Jabarti, 'Abd al-Rahman, Mazhar al-taqdis bi zawal dawlat al-Faransis, Cairo, 1961, p. 57.

The brief French occupation of Egypt from 1798 to 1801 had a profound effect upon the subsequent course of events in Europe. Its effect upon the subsequent history of Egypt, although less spectacular in the immediate sense, was of incalculable long term significance. It represented the first large scale incursion of a modern, secular, European nation-state into an islamic society still unwavering in its historicism, its adherence to traditional values and its unquestioning view of self. The occupation of the country by a foreign power so manifestly superior in military and technological terms, and at the same time non-Muslim, generated repercussive responses of a very complex nature, which weave themselves subtly into the history of the emergence of Egypt as a modern state.

That a deep cultural gulf separated the French from the local population was obvious. That a means had to be found to bridge this gulf, if communication between the two was to be established and the French achieve some degree of acceptance, was also obvious. One of the methods chosen was that of the printed word, in the form of proclamations and broadsheets directed at the people of Egypt in their own language. Amongst the many documents issued during the period, Boanparte's proclamation addressed to the people of Egypt and dated 13th. Messidor (July 1, 1798) is undoubtedly the most interesting. This was the proclamation which, according to De La Jonquière, was drafted aboard the flagship l'Orient after the French fleet had left Malta on its way to Egypt (1). The original French draft was translated into Arabic — one assumes by Venture de Paradis, the senior Orientalist accompanying the expedition (2), although the peculiarities of language and style in which the document is couched raise

(1) De la Jonquière, C., L'Expédition d'Egypte, Paris, 1899-1907, vol. 2, p. 64.
(2) (Chalbrand), Les Français en Egypte, éd. J. J. E. Roy, Tour, 1857, p. 77.

THE FIRST FRENCH PROCLAMATION AND AL-JABARTI

By

DR. MARSDEN JONES

11. «Description of Ottoman Egypt by Huseyn Effendi» in S.J. Shaw, **ed. Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution** (Cambridge, Mass., 1964), p. 48.

12. Cf. **'Aja'ib al-athar,** IV, p. 210.

13. **'Aja'ib al-athar,** II, quoted in 'Ali Pasha Mubarak, **al-Khitat al-tawfiqiyya al-jadida** (Bulay 1304-5 A.H.), IV, p. 34.

14. «Description de la route du Caire à Salayeh», **La Décade Egyptienne** Vol. I (Cairo, An. VII), pp. 27-8.

REFERENCES

1. **The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798.** (Princeton, 1962), p. 23.

2. Cf. H.A.R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the West,** Vol. I, Part I (London, 1950), pp. 263-4, 267-8.
   P.J. Vatikiotis, **The Modern History of Egypt,** (London, 1969), p. 35, etc. etc.

3. «Les sources de la richesse urbaine au Caire au dix-huitième siècle», to be published in proceedings of 1971, Philadelphia Colloquium on the Islamic World in the Eighteenth Century.

4. Cf. F. Charles-Roux, **Les origines de l'expédition d'Egypte,** 2nd ed., (Paris, 1910), and particularly Chap. S, vii and viii.

5. In P.M. Holt ed., **Political and Social Change in Modern Egypt,** (London, 1968).

6. **'Aja'ib al-athar,** II, pp. 165, 189.

7. G.A. Almond and J.S. Coleman, **The Politics of the Developing Areas** (Princeton, 1971), p. 34.

8. «The wealth of the 'ulama in late eighteenth century, Cairo», to be published in the proceedings of the 1971 Philadelphia Colloquium on the Islamic World in the Eighteenth Century.

9. Cf. **'Aja'ib al-athar,** IV, p. 210.

10. Cf. P.S. Girard, «Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte». **Description de l'Egypte,** 2ème éd., Vol. XVII (Paris, 1809), p. 589 ; Comte Estève, «Mémoire sur les Finances de l'Egypte, Description de l'Egypte, Vol. I (Paris 1809) pp. 319-320 etc.

the fact that their oppressors, the mamluk **multazims,** lived further away and that the latter realised that it would only be possible to squeeze large sums of money out of the peasants on their **iltizams** by mounting a major military expedition against them. In these circumstances, they seemed unwilling to go to all that extra trouble. Or, as he put it :

Les Beys propriétaires de la Charqyeh, forcés d'opter entre un revenu moins abondant mais plus sûr, ou l'espoir des vexations accompagné (sic) de danger et de travail, préféraient le repos. Leurs premiers besoins étaient le luxe, les jouissances ; et les habitans des bords de ce désert trouvaient dans les vices de leurs maîtres un refuge, leur tyrannie (14).

In conclusion, I would simply like to stress three points. First, if I have been critical of some aspects of al-Jabarti's assumptions about the nature of economic life I would also like to underline the fact that his dispassionate observation of the local scene provides an invaluable source of information about a number of key features of the Egyptian economy. Second, I have not meant to suggest that all was well with that economy in the late eighteenth century, simply that there is no hard evidence that it was actually in decline. Third, I have tried to point out that it only makes sense to use al-Jabarti's history as a major pillar of the «decline» thesis if such a thesis has already been proved using other types of evidence ; and that, without such evidence, the history has just as much to say about the way in which the economy managed to retain some kind of vitality even in the context of arbitrary government and increasing political instability.

been the existence of a variety of economic relationships linking town and village and involving at least some members of the ruling group both in Cairo and the countryside. Another, related, factor was the social differentiation which al-Jabarti and others observed in the Egyptian rural areas with, on the one hand, men with local power who controlled quite substantial areas of land and, on the other, landless labourers. (12) The activities of the men in the first group must certainly have been directed towards protecting the existing pattern of economic activity from undue interference by the tax-collectors or similar government agents.

Another example of the same type of mechanism can be found in al-Jabarti's evidence about the increasing endency for members of he 'ulama to control large tracts of agricultural land which they too wished to preserve as revenue-raising assets. Thus it is not at all surprising to find in al-Jabarti's history an account of the way in which Shaikh 'Abdallah al-Sharqawi responded to complaints from the peasants in his village against the «illegal acts» of the mamluk Amirs, first by protesting to Murad and Ibrahim Beys and then, when this failed, by organising a popular demonstration at al-Azhar. (13) Even though, as al-Jabarti himself points out, this action brought only a temporary redress of grievances, it gives us an important insight into the way in which the men who controlled the agricultural land were willing and able to act in defence of their own economic interests.

The story of the multazim who preferred to borrow money rather than press his peasants for taxes is an example of the same type, although here al-Jabarti gives us the additional information that one of the things which the tax-farmer was concerned about was to keep the peasants on the land. In the prevailing conditions of rural labour-shortage, this was undoubtedly a major consideration — as it was to remain for most of the nineteenth century — for control of the land was of no use without men to work it and to pay taxes on it. There was thus every incentive to find means to tie peasants to the soil, not to exploit them so hard that they fled.

A final example of the type of mechanism which seems to have allowed Egyptian agriculture to flourish in at least a part of the Delta comes not from al-Jabarti himself but from one of the members of the French expedition, Shulkowski. But I include it as it seems just the kind of thing that the historian himself would have noticed had he travelled more extensively outside Cairo. Journeying through the eastern half of Sharqiyya in 1798 and observing the well-cultivated fields and the prosperous look of the peasant inhabitants Shulkowski asked himself why they should be so much better off than the people he had passed who lived along the banks of the Nile. And his answer was that it must have had something to do with

in the countryside which he himself had witnessed — and here his evidence has to be placed in the wider frame of reference provided by information in the works of Huseyn Efendi, the members of the French expedition and such contemporary historians as Shaw and Abd al-Rahim, Abd al-Rahman Abd al-Rahim. It is true, that there are a few passages which show that, contrary to the historian's conventional wisdom, even Murad and Ibrahim Beys were concerned to see to the repair of some parts of the irrigation system or, at times of famine, to suspend the collection of the land tax and to see that grain was imported from other parts of the Ottoman empire. There are also examples of protests in Cairo against increases in the amounts demanded from the land, for example by members of the **adjaks** who controlled villages out in the country. But other significant suggestions about the situation in the agricultural sector can only be interpreted against a more general background of knowledge. Three seem of particular importance. First, there is the evidence in al-Jabarti's obituaries — already noted by Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot (8) — that during the eighteenth century influential members of the **'ulama** had managed to obtain control over sizeable tracts of cultivated land, often by obtaining them as an **iltizam**. Second, there is the occasional reference to shaikhs and other rural notables who controlled holdings of up to a thousand **faddans** (9). Third, there is the well-known passage about the **multazim** who was anxious not to press the peasants on his **iltizam** too hard for their taxes, in order to preserve their welfare and to keep them settled on the land, which though referring to the year 1225 A.H. in the Muhammad 'Ali period, can probably be read back to apply to conditions in the late eighteenth century as well.

But to make proper use of these separate pieces of information it is necessary to say something about the wider agricultural situation. We know from Girard Esteve and others that there were areas of the Delta — for example the rice-growing region round Damietta — in which the commercialisation of agriculture had been pushed quite far with merchants, **mamluk multazims** and others involved in the process of providing working capital, processing the crop, and then exporting it. (10)* We know, too, that throughout Lower Egypt, taxes were collected in coin, something which obviously necessitated the peasants selling at least part of their crop to traders in the near-by market towns. (11) The result must certainly have

* It was probably no accident that Ismail Bey was so angry when the Kasif of Sharqiyya allowed the bank of the Muways canal close to the rice-growing region to be breached (al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar, II). Either he or members of his household may well have had important interests there.

was more exploited at the end of the eighteenth century than at the beginning. It is by no means proven that he was.

A final point concerns the problems of writing the history of a predominantly agricultural economy subject to major year to year fluctuations in output as a result of the weather or the extent of the Nile flood. It is only too easy to pick examples from a particular bad season and then to go on to assume that this was characteristic of the period as a whole. To cite only one instance, al-Jabarti's account of the peasants fleeing to Syria and Palestine must be seen in the context of the disasters of the years 1205-6 A.H. when a particularly bad visitation of the plague was followed by a low Nile and a partial failure of the harvest. It was normal for peasants to leave their villages in response to such conditions. What we do not know — because al-Jabarti does not tell us — is whether they returned again when things got back to normal. It is probably safe to assume that they did.

Now let me move on to the more constructive aspect of what I want to say about al-Jabarti's work as a source for understanding some of the fundamental economic processes. Here I will begin with a brief discussion of the situation in Cairo itself, although I will not need to go into any great detail as this subject has already been so well covered by André Raymond in his «Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIe siècle» (5). As Dr. Raymond, relying to a large extent on al-Jabarti's history, is able to prove beyond any doubt, the population of eighteenth century Cairo was well organised to protect its own economic interests from govenrment assault. Using the organisation of the quarter (**hara**) and the technique of the strike, or the demonstration, or the appeal to the shaikhs of al-Azhar or other members of the ʿ**ulama**, groups of merchants and artisans were often able to secure the rederss of some wrong like the attempted arrest of the butcher-leader Ahmad Salim al-Jazzar or the forced levy of some new loan. (6) Just as important, the regular exercise of such popular weapons must certainly have acted to prevent Egypt's rulers from imposing a great many extra taxes which they might have imposed if they had believed that they could get away with it without too much trouble. Thus al-Jabarti helps us to see the underlying function of such regular exercises of the power of street demonstration. Such events are not to be seen as simply isolated responses to this or that piece of arbitrary rule — **anomic** disturbances to use the language of political scientists like Almond and Coleman (7) — but as part of a systematic defence of popular interests well understood by ruler and ruled alike.

Al-Jabarti is a less certain guide to processes within the agricultural sector — in part because, as a city-dweller, he was not reporting on events

become so much a part of the conventional wisdom of historians that it does not seem to have to be argued any more, it is simply assumed.

In all this 'Abd al-Rahman al-Jabarti plays an important role for his 'Aja'ib al-athar (Bulay, 1297 A.H.) is almost always cited as a reference in support of assertions concerning the decline of the economy. And it is certainly true that his history is full of accounts of the imposition of crippling new taxes, of villages being burned for non-payment of taxes, of peasants fleeing to the cities, or even as far afield as Syria and Palestine. But what I would like to argue is that if we first remove the hitherto automatic assumption of Egypt's economic decline (treating it as something which, at the very least, still remains to be proved) al-Jabarti become a much more ambiguous source and one which can be used just as easily to show how, from an economic point of view, the bulk of the population managed to survive — and sometimes even to prosper — at a time of much political instability. To do this I will begin by making a few remarks about the way in which, I think, **'Aja'ib al-athar** presents some major difficulties when employed uncritically as evidence of decline, before going on to the more substantial part of the paper which contains some suggestions about the ways in which al-Jabarti's history can be used to illustrate some of the fundamental economic processes at work in Egypt during the period.

Undoubtedly, one of the major problems, involved in using **'Aja'ib al-athar** is that, in at least two respects, the author's own (and I would argue) misleading point of view about the relationship between economic and political forces has been shared by the majority of his readers. First, like many more recent historians of the Middle East, he seems to have believed that politics were the determining factor ; that prosperity, or lack of it, in the economy depended primarily on the quality of government ; and thus that bad government automatically produced economic difficulties. This is not necessarily true. On the one hand, it is possible to conceive exogenous developments within the economic sphere — for example, a fall in population due to repeated plagues or a decline in international trade — producing changes at the political level. On the other, as I hope to show below, the economy was much more resiliant in the face of political instability than historians usually allow. Second, all readers of al-Jabarti's history are rightly affected by his sense of moral outrage at the activities of the mamluks and other members of the ruling group who behaved like so many political gangsters, and at the effect this had on Egypt's population. Such an attitude is perfectly proper. But it should not lead us on to al-Jabarti's further assumption that, because oppression was unjust and wrong, conditions were automatically getting worse. The Egyptian peasant had always been exploited without much mercy. The question here to ask is whether he

Among economic historians of Egypt the conventional view is that the eighteenth century — and particularly its closing years — was a period of serious economic decline. Almost without exception the major works on the subject describe a situation in which increasing political anarchy, unregulated tax demnads, failure to maintain the system of irrigation, and growing insecurity, led in the town to a decrease in trade and commerce, in the country to the flight of the rural population and a decline in agricultural production. To take only one example out of many, according to S.J. Shaw the fifty years following the rise of 'Ali Bey el-Kabir saw the hold of the central government continue to weaken resulting in a return to the worst conditions of the first decades after the Ottoman conquest. Once again,' he writes, the local tax colectors imposed what they wished on the cultivators, Arabs raided with impunity all parts of the land, and cultivators fled to the cities». (1) Passages like this can be multiplied over and over again in the works of Gibb and Bowen, Vatikiotis and others (2).

The problem with this approach is, however, that it rests on very little that could be called hard evidence. On the one hand, there are no even remotely reliable figures to prove that population was declining, or that agricultural production diminished, or that trade fell off in value. Indeed, in the few instances where official documents have been studied in a systematic way — as in the case of Shaw's own work on the Ottoman tax registers or in André Raymond's careful reading of the wills of merchants and artisans to be found in the Makhamat al-Shar ciyya (3) — the figures either do little to support the conventional view or, on occasions, contradict it. On the other hand, a closer examination of the sources which the historians have actually used often reveals that they consist largely either of the works of other historians or of the works of European travellers — some of whom at least may well have been anxious to paint the picture as black as possible in order to justify a later French intervention. (4) For the rest, the «fact» of Egypt's eighteenth century economic decline has

AL-JABARTI AND THE ECONOMIC HISTORY OF LATE EIGHTEENTH CENTURY, EGYPT

SOME INTRODUCTORY REMARKS

By

ROGER OWEN

St. Antony's College, Oxford.

in order to transmit their thoughts to posterity». Because «right and wrong would be distinguished after one's death». Hence, Ssu-Ma Ch'ien also «dared to entrust himself to words». In pre-modern China words were esteemed to be equivalent to deeds in their weight to life. He, ceasing to live in the world of deeds, resolved to continue his life in that of words. It was the only possible way for him in order not to disgrace forefathers and to live in the esteem of posterity. Here, Life itself was the nucleus of his value-system. That was not an individual personal life, but a universal Life flowing infinitely from forefathers to posterity. And the only way for him to participate in this Community of Universal Life was recording history. Thus, the ideal community for Ssu-Ma Ch'ien was built not on a transcendental but an immanent value, and historiography was the conscious means to identify himself as a member of this ideal community and to realize the immanent value in it. A different kind of relisiosity from that of al-Jabartî. And the great Japanese philologist Moto'ori's ideal community «Ancient Way» was the same type as that of Ssu-Ma Ch'ien. Significantly enough, the latter was also called «Way».

On recognizing such a difference between Ssu-Ma Ch'ien and al-Jabartî, again, we can find another resemblance between them on the level of thier view of the utility of history. Al-Jabarti quoted a poem, «If one knew akhbàr of the past, it is as if he had lived from the beginning of time, and if one left good memories behind, it is as if he would live unto the Day. By knowing akhbàr, let us obtain another life». Time is finite, here in al-Jabartî, between the Creation and the Day, in contrast to the infinite time in Ssu-Ma Ch'ien. But the utility of history in their view is essentially the same. By knowing history one is able to have a double life, or more accurately, to transcend the individual personal life and the actuality. True great historians have in common deep insights into the essence of man and the world, in spite of the differences of their cultures and civilizations.

their time to that world of ideas as ideal communities, such as «Umma Allah» «Siyasa Shar'iyya» «Nature» «Revolutionary Commune» and so on, and then, by the radiance of these ideas they illuminated the actuality of this world, depicting it as a world history, Furthermore in case of the two muslim historians, God, the transcendental supreme value supported this methodology.

In contrast the great Chinese historian Ssu-Ma Ch'ien (c. 145-86 B.C.) had another way of composing world history. His «Shih chi» (The Records of the Historian), acknowledged almost unanimously as the most excellent masterpiece of Chinese historiography, resembles al-Jabarti's «Aja'ib al-Athâr» in several points.

1. Both are essentially «contemporary histories with the preface of universal history». Though «Shih chi» begins with the mythical origin of Chinese history, its main part is composed of the contemporary history, Both historians historicized the actuality of their own time.

2. Both are composed of annals and biographies and show the individualistic grasp of history. «Shih chi» has some other parts, treatises and tables, but its main part is composed of the former.

3. Both are private compilation, in spite of the fact that both historians had officials statuses by profession related to historiography. Ssu-Ma Ch'ien was the court astrologer, while al-Jabarti the muwaqqit. In this respect both words were independent from the state or the ruling power. In the context of the pre-modern Chinese historiography this was a rare case.

Notwithstanding these similarities, both historians are different from each other in a vital point, that is, the value-system on which they stood. While that of al-Jabarti emanates from the transcendental God, Ssu-Ma Ch'ien's flows out from the immanent, so to say, Community of Universal Life. He wrote in the preface of «Shih chi» the motive of his compiling history. In his early career as the court astrologer, involved in an affair, he was condemned to castration in spite of his innocence. He deemed this castration as «no deed is uglier than to disgrace forefathers and no disgrace is bitter than castration», and «the supreme duty for man is not to disgrace forefathers, the second not to disgrace himself... (such a disgrace) deserves death». Nevertheless he did not cease to live, and compiled «Shih chi». Why ?

«Confucius compiled the Spring-and-Autumn Annals when in distress... they were all frustrated in their deeds. Therefore they recorded the past

replied to «Uthmân Bey» one of the kashifs of the Ottoman wâlî Khurshid Pasha, who asked, «How could you refuse the Sultan's appointee to wâlî of Egypt ? Did not God ordain you to obey Him, the apostles and the guardians (ûlû al-amr) among you ?» «Who are the guardians ? They are the ulma, the bearer of Law, and the just sultan. But he (Khurshid) is unjust. It has been the custom since ancient times that the native people (ahl al-balad) deposed unjust rulers. Even the Caliph or the Sultàn forfeits his right to rule once he proves despotic».

A unique alliance of the divine Law and the commune of the native people, face to face with an unjust ruler, eventually replaced him by a new one expected to be a just ruler. Although this expectation would be failed sooner, the appointment of Muhammad Alî as wâlî of Egypt by the native people was a momentary realization of an ideal community. Here, divine history touched real history. On this condition al-Jabarti, one of the native people, was entitled to be existentialist, describing his history as a series of individual decisions and behavious, not as a structure of impersonal laws. Thus, in al-Jabartî's historiography, hundreds of personalities, ulamà, umarà and even al-Fransawiyya were depicted as vividly as possible. Each individual, driven by its own inner contradictory impulses, individuals by their mutual contradictions, behave as they really were, the total of which made a grandiose spectacle of his time. It is truly a masterpiece.

In such a theoretical framework, Karl Marx was structurist as Ibn Khaldûn, and existentialist like al-Jabartî at the same time. In his actual milieu he was sieged by the development and predominance of «the capitalism», his evil, just the same as Ibn Khaldûn, in whose actual milieu «the primitive culture» was devastating «the civilized culture. In these circumstances they were obliged to image history as a necessary process, describing it as a succession of «developing stages». Any established order tends to make one structurist. On the contrary the vicissitudes of history are apt to make man existentialist. By having the experience of communes, Marx just like al-Jabartî, was existentialist. In this respect he emphasized not «the law of developing stages» but «the law of motion» which meant «class struggle».

— 6 —

Although the above-mentioned historians had several differences with one another, they had a common way of grasping or composing world history. All of them projected the inner contradictions of their societies or deep-seated longings and cravings of the people in this world in each of

aqliyya)» to «the regime of Law (siyâsa shariyya)». The final stage «the regime of Law» was once realized in the beginning of Islamic history, and shall be or must be realized again in some future by human efforts. In this point it is essentially similar to Moto'ori's «Kodo», Rousseau's «Nature» an dMarx's «Communistic society». Being put in a misty remote past and also in an indefinite future, these indealized communities are opposed to the degenerated present. Tension between them brings forth a radical criticizing impact upon the present actuality.

But in order to make this impact effective, any practice of people relevant to it is required. Ibn Khaldùn was unfortunate in this respect. General decaying circumstances of the Arab Islamic world then environed him, and therefore, his ideal community «regime of Law» seems to us to be rather a wishful thinking or a mere belief. Hence his developing stages, deprived of its historical or time orderly relevance in respect to its final stage, seems to degenerate into a circulation or a repitition of history within the confines of «the order of existence». But, so far as this aspect is concerned, his theory shows an extraordinarily deep insight into the reality of Islamic history and society. The weaker the possibility to realize his deal community, the deeper his insight into the decaying actuality.

Different from Ibn Khaldûn in this respect, al-Jabarti could be a little happier. Standing on a turning point of Egyptian history, he witnessed the disorganization of the old regime and the birth of a new. In his lifetime Cairene citizens resisted against the foreign invaders and the Ottoman rulers, and at its apex in 1805 they organized a revolutionary commune under the leadership of «Umar Makram» and forced the Ottoman authority to accept Muhammad Alî as walî of Egypt, who then initiated the modernization of Egypt. These experiences enabled al-Jabarti to be more positive in grasping history than Ibn Khaldûn. «God created human beings weak», he wrote, but at the same time God bestowed them «the Book of truth and the balance of equity». Although «evil is the nature of man», «each individual of mankind is qualified for the vicarship (khalifa) of God», and «everyone is responsible for the control of the people who is apt to be swayed by extremities and violences». Thus al-Jabartî grasped history on an individual level, in contrast to Ibn Khaldûn whose theory had been built on a civilizational or a group dynamics level. Al-Jabartî found fundamental tension or contradiction within each individual, different from Ibn Khaldûn. The former is, so to say, existentialist and the latter structurist.

What enabled al-Jabartî to be as such is shown by the following scene which he himself recorded. In the enhanced atomosphere of the revolt of the Cairene commune in 1805, «Umar Makram the leader of the commune

society» in J.J. Rousseau's «Nature». As is well-known, it was not the enlightened idea of the «philosophes» but that of Rousseau, that seized the soul of the French people at the juncture of the French Revolution. Rousseau's idea of «Nature», imaged as a natural state without private ownership, exploitation or rule, had a strong activating power upon the imagination of the people, in contrast to the static idea of the «natural law» by the philosophes which had no such a power. Being an imaginary state in the beginning of the human history, Rousseau's «Nature» corresponds to «the primitive communistic society», and also to «the communistic society, the final stage of the human history» of Marx. From the point of view of the tension between the idea and the actuality, the time-order of the substance of the idea is not significant because the idea itself exists now. However, we must add, if the substance of the idea has no time-order, that idea will not be qualified to be a historical concept.

Again, we can find the like as the ideas of Rousseau and Marx in the idea of the great Japanese philologist and thinker, Moto'ori Norinaga (1730-1801), a somewhat senior contemporary to al-Jabartî, under the later Tokugawa Shogunate. Moto'ori coined the idea «Kodo» (the Ancient Way), in which the ancient Japan was idealized as a natural, ideal society under the Tenno (the Emperor), who was esteemed as the direct descendant of God. This idea implied a radical criticism upon the Tokugawa Shogunate society in which he lived, and was relevant to such radical behaviours of the people at that time as peasant revolts and lower towns folk revolts under the slogan of «Yonaoshi (Reform the world)», some of which significantly carried the symbol of «Bonten (Japanized form of the Indian god Bràhmà)» on their banners. And this ideology and the corresponding radical behaviours of people were one of the most important trends resulting in the Meiji Reform, that starting point of the modernization of Japan.

— 5 —

As for Ibn Khaldùn and al-Jabartî, the ideal community for them equivalent to the «Kodo» of Moto'ori «Nature» of Rousseau and the «Communistic society» of Marx, was, as a matter of course, «Umma Allah» or «Umma Muhammadiyya». As mentioned before, in the context of Ibn Khaldûn's thought, this «Umma» reveals itself in dual aspect, «the order of existence» and «the order of Law», the one existential and the other essential, Hence he bridged the gulf between them, from existence to essence, by a sort of a developing stages theory,. According to him, human society develops from «the primitive culture (umrân badawî)» to «the civilized culture (umrân hadarî)» and furthermore within the latter, from «the rational regime (siyàsa

It was Karl Marx, the originator of the communism, who inverted again this once inverted standpoint. Just because the actuality at that time was a disgusting evil for him, he dared to confront it and to historicize it as a sort of a contemporary world history, that is, «The Capital». His method to objectify the evil actuality including himself was to reduce it to his so-called «natural history». Huge progresses of the empirical sciences in the 19th century helped him in these mental works of his. Although many of the later «Marxists» have been conspicuous by their inabilities to historicize or objectify themselves and also by their neglect of the up-to-date progress of the empirical sciences, Marx himself was keen for such.

— 4 —

«The Capital» of Marx was, in this sense, one of the masterpieces of the world history as an evil. Al-Jabartî and Ibn Khaldûn who had created similar masterpieces in the world of Islam, had based their world histories on the legacy of the Islamic value-system. In case of the author of «The Capital» had he anything equivalent to this Islamic value-system ?

It need scarcely be said that Marx was an atheist, while the value-system of the two muslim historians eventually emanated from God. Nevertheless, Marx had this, or at least had a substitute for this. That is «the perfect liberation of mankind», which was the nucleus of his value-system. From here emanated his ideal community, «the revolutionary commune», and this was projected into the real history as «the primitive communistic society» and «the communistic society in the future». Although many of the later «Marxists» unconsciously substantiated these ideas of their teacher, Marx himself had cautiously warned of the danger to substantiate these ideas of his own, being conscious of the idealized character of such categories.

Similarly to the ideal community of the two muslim historians to be mentioned later, «the revolutionary commune» of Marx had its historical materials, that is, the «communes» of the French revolutions, especially the Paris Commune in 1871. Any ideal concept as a symbol of value, coined by the longing for any ideal condition. On the one hand, must on the other hand have its own historical material or basis to whatever extent. In case these two elements, idealistic longing and real historical basis, balance well, that idea is entitled to be an effective means to historicize or criticize the given actuality. However, if the former element is predominant, that idea will degenerate into only a wishful thinking or a mere subjective belief, and if the latter predominates, that idea can not be an impact upon the actuality.

From such a stand, we can find the prototype of Marx's «communistic

ness even to the French occupation army is a well-known fact and had been assured by many Western scholars, not to speak of the Arab scholars.

As for such a viewpoint as the predestinated evil by God, Khaldùn was essentially the same as al-Jabartî. Although such categories as «shahawàt», «asabiyya», «dawla», «sultan», «mujtami», «hadara» and so on, not to mention the category «umràn badawi», were not always legitimate categories in the traditional Islamic fiqh, Ibn Khaldùn legitimized all these categories as those of «the order of existence al-amr al-wujudî)» natural and necessary, which was one part of «the order of God» side by side with its another part «the order of Law (al-amr al-shar'î». This «order of existence» is bestowed by God as a sort of negative (natural, necessary) conditions for human beings, and just because of this, human beings endeavor to change them into positive conditions. That very efforts mean a historical act. On such a basis of Islamic value-system Ibn Khaldùn was able to construct his grand theory of «empirical science» type, utilizing those categories which belong to «the order of existence».

— 3 —

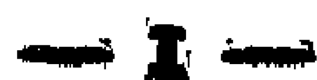
Whatever fearful and disgusting an actuality, it is bestowed by God in a predestinated way, so long as it exists. Such was the common standpoint of al-Jabartî and Ibn Khaldùn, and this very standpoint enabled both to historicize or objectify the evil actualities they faced by recording them, which made masterpieces of universal history. From here by only one step we can reach the standpoint of the 19th century German Philosopher G.W.F. Hegel, who wrote «whatever exists is rational». One step means to replace «God» by «Reason». In Hegel's time there existed the «Reason-worship» by Robespierre and the common belief in the «natural law» which resembled «the order of existence» by Ibn Khaldùn. Under the sway of these «Reason» and «natural law» human beings were abstractly categorized as «homo economicus», «homo politicus» and so on, on which were built the modern «classical» Economics, Politics and so on.

By replacing «God» by «Reason», however, «natural law» had a significant difference from the Khaldunian «order of existence». While the latter was an objectified evil, the former was far from an evil but a positive good and promised «the predestinated harmony». Thus inverted, this standpoint was deprived of its impact or its criticizing power on the given actuality at that time, and brought forth a number of world-wide «developing stages» theories, historical, sociological or anthropological, eulogizing «modern Europe» as the terminal of those developing stages.

great Maghribî-Egyptian historian, was much the same as that of al-Jabartí. Likewise as a àlim or a faqîh, having been frustrated in the decaying politics of the Maghrib countries, Ibn Khaldûn found his viewpoint to illuminate the evils of this world by godly ideal history. But, while what al-Jabartî faced was the vicissitudes of time, such a succession of «the wonders extraneous and diverse» as the French invasion and occupation, the British invasion, the seisure of power by Muhammad Alí and so on, the circumstances which Ibn Khaldûn confronted were rather those of spatial aspect, that is, «the challenge of the Bedwins» which had «already ruined the plains of the Maghrib». Such a difference of the circumstances resulted in the difference between these two great historians of the method to historicize or objectify each actuality. While al-Jabartî historicized it as «biographies and annals», Ibn Khaldùn objectified it as a sort of civilizational or sociological laws. Khaldûnian laws were made possible by his categorization of «umran badawi» or «badw». In contract to the fuqahâ before him, who had ideally rationalized the Islamic regime on account of their fear of anarchy, conscious or unconscious, Ibn Khaldûn, by coining «umrân badawi» or «badw» as positive categories, could reveal the root of their fear of anarchy and also could, objectifying himself and themselves as «umrân hadari» gain a far more radical insight into the historical reality. Facing directly his own unconscious fear, he could objectify it as an evil or «al-amr al-wujudi, al daruri», as civilizational laws.

— 2 —

Al-Jabartî and Ibn Khaldùn could transform their unconscious fear into an objective evil and an unknown into an object of their grasping, thanks to their legacy of the Islamic faith and thoughts. «God created human beings weak», al-Jabarti said. Hence «evil is the nature of man», and human beings «resemble animals in their greed of eating and drinking», and it was, so to speak, the predestinated evils by God for him that this world was full of «those fellows who were ignorant as cows, avaricious as pigs, rapacious as dogs, spiteful as camels, haughty as leopards, tricky and cunning as foxes, or possessed all such evil attributes». Whatever evil as they are, one must endure them and must even regard himself as such, so long as they were created by God's will. Confronting such actualities as oppressions, exploitations, plunders and violences, al-Jabartî dared to record them as accurately and as realistically as possible and could be fair to all the phenomena he confronted, thanks to his Islamic legacy. «It will not aim, by compiling this history, to serve any dignitary or to obey any wazîr or amír, and will not flatter any dynasty in a hypocritical way or to control my praise and censure willfully according to my own inclinations». Al Jabartî's fair-



True historian may be a product of the severe tention between he himself and the actuality of his own time. Although he regards the actuality as evil, he dares to face it and to historicize or objectify it by recording it, just because it is evil for him.

The time in which the great Egyptian historian Al-Shaykh Abd Al Rahman Al Jabarti lived was a extraordinarily miserable time for Egyptians. Incessant conflicts among mamluk amirs, invasion of the French army and the occupation by it, invasion of the British army, evacuation of both and the return of the Ottoman and mamluk armies resumed conflicts among them, all such series of events meant for Egyptian people successive battles, violences, plunders, new taxes and confiscations and so on. Even Muhammad Ali who eventually seized power by the revolt of the Cairene citizens also put heavy burdens on people's back by his warring and monopolizing policies. We, after one century and a half, can easily and cooly regard such an actuality of that time as evil in a non-committed way. But it was not so easy for those who were just involved in it. As al-Jabarti himself wrote, «although peoples of the past since God created human beings did not cease to record history successively, people of our time cast it off and neglect it and regard it as a work of idlers and call it fables of forebears». People at his time, being occupied in their miserable life, had lost their history-consciousness. In such circumstances what entitled al-Jabarti to historicize his actuality, that is, to record history ? What urged him to stand face to face with the evil actuality? It was the legacy of muslim historiography, Islamic history-consciousness which he had as a alim. As a alim, as one of the representatives of the Umma Muhammadiyya, his craving for «the knowledge and the justice of God» obliged him to confront the evil actuality and entitled him to record it as realistically as possible.

In such a theoretical framework, the case of Ibn Khaldûn, another

AL-JABARTI AS A THINKER

A Comparative Philosophy and Methodology of History

By

MIKI WATARU

Tokyo University for Foreign Studies
Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa

fairness of the trial did impress him — precisely because this was not propaganda but was a sincere implementation of genuine French conceptions of justice.

Al-Djabarti, like the ancient Greek Thucydides, was an historian who was equal to the task of writing the history of an extraordinary time in the life of the civilization in which he had grown up. Egypt can be proud of Al-Djabarti, and so, too, can the rest of the vast Arabic-reading World.

dressed the Osmanli governor by the single imperative word «descend», the governor had to come down from his hide-out on the citadel of Cairo. He had to abdicate, and the Porte at Istanbul had then to appoint an equally powerless successor to the latest of their nominees whom the Mamluks had dismissed.

The Mamluk «establishment» itself was not much more secure than the Osmanli governor who was at the Mamluks' mercy. The Mamluks presented a united front to the Osmanlis and to other outsiders, but they were not united in their relations with each other, and consequently the position of each individual Mamluk was perpetually precarious. By contrast, the position of the religious «establishment» — the ulama — was relatively secure until the year 1798. The position of the peasantry was also relatively secure at a low level of subsistence. The ulama were a more important element than either the Mamluks or the Osmanli governor in the life of pre-Napoleonic Egypt. Al-Djabarti himself was an alim. He lived to see his social class's traditional security and importance battered, first by Napoleon and then by Muhammad Ali, an Osmanli dictator who turned the idées napoléoniennes into living realities in Egypt.

Al-Djabarti was a perceptive observer and recorder of all the successive phases of Egypt's history within his lifetime. He possessed the psychological gift of empathy, and this enabled him to understand aliens. The Mamluks were alien slaves, imported into Egypt from the Caucasus. The Osmanlis including the permanently domiciled janissaries as well a the ephemeral governors and the potent dictator Muhammad Ali, were aliens from South-East Europe and Asia Minor. The French were aliens from Feringhistan — in 1798 they were so alien that they seemed like intruders from some other planet. They were also more reckless than any later Western imperialists in riding rough-shod over traditional and sacrosanct Islamic manners and customs.

Al-Djabarti understood them all. His most notable feat of empathy was his perception of the weak and the strong points in the behaviour of the French invaders of Egypt. For instance, the French sought to impress the Egyptians by staging an exhibition of Western science. Al-Djabarti visited this exhibition and he was not impressed. These, he reports, are childish toys, exhibited with the intention of impressing us ; but, of course, we are not so easily deluded. On the other hand, when, towards the end of the French occupation, the French commander-in-chief, left in charge by Napoleon, was assassinated, the French authorities gave the assassin a fair trial before passing the death-sentence on him. Al-Djabarti, the assiduous observer, attended the trial, as well as the previous exhibition, and the

Al-Djabarti's experience in his generatin in Egypt was very like that of an European who was already grown-up (as I was) in 1914. Al-Djabarti grew up in the last phase of a time of stability ; he lived to witness a sudden dramatic overthrow of the established order when in 1798 Napoleon took Egypt by surprise by invading and occupying her. The French occupation of Egypt was a passing episode ; but Al-Djabarti lived on to see Muhammad Ali take up and carry on the revolutionary economic and social changes that the French had initiated.

Muhammad Ali, like Napoleon, was one of those few men who change the course of history. In the history of Dar Al-Islam, Muhammad Ali was a counterpart of Peter the Great in Russia and of the statesmen who made the Meiji Revolution in Japan. He was one of those radical modernisers who have changed the face of the world. Al-Djabarti's life was cut short prematurely, but he witnessed the first stage, in Egypt, of the economic and social revolution that has started in Britain before the close of the eighteenth century. (I am giving my dates in years and centuries A.D., not A.H, since the Western way of dating has now been accepted, for convenience, as a common system for historians everywhere).

Al-Djabarti not only lived through these extraordinary vicissitudes ; he had the genius to understand their significance, and he also had the literary ability to record them with a perceptiveness that enables a reader of his narrative to participate emotionally, as well as intellectually, in Al-Djabarti's experience.

The time of stability in which Al-Djabarti grew up was the last phase of the Osmanli imperial regime in Egypt. In this phase, the governor who represented the Padishah at Cairo was important. The Mamluks — slave-rulers of Egypt who were recruited by continual fresh drafts of imported slaves — were once again in the ascendant. If the Mamluks ad-

ABDUL RAHMAN AL-DJABARTI AND HIS TIMES

By

ARNOLD TOYNBEE

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٤٢٠/١٩٧٦

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٩٦ ٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب